شكر وتقدير

أشكر الله العلي القدير أن هيَّأ لى هذه الفرصة، وأعانني على التأليف والكتابة، وأمدني بالأوقات والنفقات، فله الحمد في بدء هذا البحث وله الشكر في منتهاه.

كما أشكر لوالدي امتثالًا لأمر الله ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾، فلهما مني الشكر والتقدير.

ثم أشكر أستاذي فضيلة العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ طلعت محمد عفيفي سالم/ العميد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية، ورئيس قسم الثقافة بالكلية على قبوله الإشراف على هذه الرسالة، وعلى توجيهاته وإرشاداته، لا أقول على مدى ثلاثة أعوام فقط ـ منذ بدأتُ الكتابة في هذا البحث ـ ، وإنما منذ أن كنت طالبًا بالكلية، ثم في الدراسات العليا، فقد استفدت من فضيلته كثيرًا، فكم فتح لي مكتبه، وأجلسني بجواره، وأرشدني إلى المراجع والمناهج التي استفدت منها، فله مني أسمى آيات الشكر والتقدير والله أسأل أن يجزيه عني وعن طلبة العلم خير الجزاء، اللهم آمين.

والشكر موصول لفضيلة الدكتور/ شرف الدين أحمد آدم/ المدرس بكلية الدعوة الإسلامية، قسم الثقافة على جهده واجتهاده في قراءة هذا البحث، فكان لي نعم المعلم والمرشد والناصح الأمين، والأخ الودود، فلقد غمرني بحبه وأدبه وكرمه وعلمه، فجهده ماثل بين عيني لا أنساه، فكم تعب وتعاون معي منذ بداية الكتابة في هذا البحث وإلى منتهاه، والله أسأل أن يحفظه، وأن يجعل عمله في صحائف حسناته، آمين.

كما أشكر كل من ساهم في إنجاح هذا العمل بتوجيه أو إرشاد، أو كلمة أو تذكير بمرجع أو معلومة، أسأل الله العظيم أن يثيبه عن العلم وأهله وطلبته خير الجزاء.

كما أشكر زوجتي أم أحمد، وابني أحمد، وابنتي هدى وزهرة على مساعدتهم لي وتعاونهم معي في كتابة هذا البحث وطباعته ومراجعته منذ بدايته إلى نهايته، فجزاهم الله عني خيرا.

والله أسأل أن ينفع بهم الإسلام والمسلمين.

اللهم آمين

* * * *

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وارض اللهم عن صحابته أجمعين، وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإن قضايا الإصلاح الاجتماعي التي تتصل بالمجتمع والأسرة والناس قضايا هامة، كانت ولازالت محور اهتمام العلماء والمصلحين بوجه عام وعلماء الشريعة الإسلامية بوجه خاص، ومن هؤلاء العلماء الذين انشغلوا كثيرًا بالإصلاح الاجتماعي في المجتمع العربي ولهم مؤلفات ومقالات وكتب ومفاهيم اجتماعية جديرة بالاهتمام وصالحة للبحث العلمي والمقارنة والنقد والأخذ والرد فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي والدكتور/ فؤاد زكريا.

أما الشيخ/ محمد الغزالي فهوعالم عَلَمٌ قدم للأمة علومًا ومعارف ونصائح وأحكامًا قيمة، شهد بفضلها ونفعها وثرائها علماء أجلاء وأساتذة فضلاء وباحثون أوفياء .. كتبوا فى ذلك كتبًا كثيرة ورسائل علمية متنوعة، كانت ولازالت نورًا ونبراسًا وهداية للباحثين عن الهدى والرشاد.

بَيد أنّ علوم الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله لم تنفد، وبحر جوده لم ينضب، وتراثه الفكري والثقافى ليس بالقليل، ولايزال العلماء وطلبة العلم ينهلون من علمه ويبحثون في علومه.

الأمر الذي أغراني بالمزيد من البحث والتنقيب في مؤلفات الشيخ/ محمد الغزالى، واستخراج ما فيها من درر وكنوزٍ، ما أحوجنا إليها وإلى الاستفادة منها فى هذا العصر، وفي ظل هذه الظروف التى تمر بها البلاد، سيما لو قورنت بفكر آخر، لعالم آخر له مدرسة أخرى، تختلف عن مدرسة الشيخ الغزالي، لا شك أن هذه المقارنة ستبرز كثيرًا من الحقائق، وتجلي كثيرًا من الأمور التي تحتاجها الساحة الإسلامية والعربية خصوصًا في مجال الإصلاح الاجتماعي وكما قيل: وبضدها تتميز الأشياء، ولا أسترسل في الحديث عن فضيلة الشيخ/ محمد الغزالي، فهو عالم معروف للعالم الإسلامي كله.

أما الدكتور/ فؤاد زكريا فهو أستاذ جامعي، شغل مناصب عدة [1] وله من الكتب والمؤلفات السياسية والاجتماعية والثقافية الكثير.

---

(١) سأذكرها فى الترجمة الخاصة به صـ٤٠ وما بعدها.

هذا بجانب العديد من الترجمات والمقالات والمناظرات والدراسات المنشورة في الصحف والمجلات، وكذلك مَن كتبوا عنه ولا يزالون يشيدون بفكره وثقافته ومقالاته.

وبعد اطلاعي على معظم كتاباته التي لا تزال تطبع وتنشر داخل وخارج مصر، رأيت أنها مليئة بالأفكار الاجتماعية المتعلقة بشئون المجتمع وحياة الناس.. سيما وللدكتور فؤاد زكريا أنصار لايزالون يروجون لأفكاره وكتبه، وقد صار لهؤلاء الأنصار أحزاب سياسية ورسمية معترف بها (١).

وبعد أن وفقنى الله وحصلتُ على درجة الماجستير، فكرت كثيرًا في الأحوال التى تمر بها مصر والعالم العربي، واستحضرت في ذهني كثيرًا من المشاكل الاجتماعية التي عُرضت عليّ، أو شاركت في حلها(٢) بحكم عملي في الدعوة الإسلامية – داخل وخارج مصر – منذ عام ١٩٩٠م، وقد رأيت العجب العجاب من المفاهيم الخاطئة والأفكار الهدامة والدعاوى المضللة التي خربت البيوت، وأضعفت الروابط الأسرية، وأضرت كثيرًا بالمجتمع المسلم، وسألت الله ﷻ أن يهديني لموضوع بحث أتقدم به لنيل درجة الدكتوراه من جهة، ومن جهة أخرى يُسْهِمُ في بناء ما تهدم من القيم الإنسانية والأخلاق الإيمانية والأحوال الاجتماعية.

ولا يخفى على أحد ما في مجتمعاتنا العربية والإسلامية من سلبيات ومخالفات شرعية واختلافات فكرية، تحتاج إلى إصلاح يراعي القيم الإسلامية والإنسانية والمستجدات العصرية.

وبعد استخارة الله ﷻ، ثم استشارة أهل العلم ، أتقدم بهذا الموضوع الذي أسأل الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين.آمين

---

(١) حديثًا ظهرت أحزاب ليبرالية وعلمانية جديدة.. وكلها تنادي بالإصلاح الاجتماعي بفكر لا يختلف كثيرًا عن فكر د/ فؤاد زكريا، ولقد رأيت كثيرًا ممن يرفع راية هذا الفكر ـ ليس بالعالم الدقيق الذي يلتزم بحرفيات أو حتى أبسط قواعد البحث العلمي، ومن الملاحظات السريعة أن الدكتور/ فؤاد زكريا عندما يتكلم عن النظم الاجتماعية العالمية يشيد بقيمها الإيجابية- كما يراها- وعندما يتحدث عن الفكر الإسلامي فهو عنده سلبي النتائج دائمًا، انظر صـ٣٢ من كتاب (الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة) ط/ دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ١٩٩٨م.

(٢) وذلك كالزواج والطلاق والثأر والميراث والملكيات والعلاقات العامة والخاصة بين الأفراد والأسر والقبائل، والقوانين الوضعية، والمستجدات العصرية... وغيرها.

أسباب اختيار هذا الموضوع

من خلال ما تقدم في المقدمة يتبين السبب الرئيس لاختيار هذا الموضوع، والرغبة في الكتابة فيه، لكن ثمة أمورًا أخرى أُجملها فيما يلي:

أولاً: أهمية القضايا الاجتماعية (وإصلاحها) في حياة ورقي الشعوب، وأهمية العلوم التي تتصل بهذا الجانب، ومدى احتياج أمتنا العربية والإسلامية ـ في العصر الحاضر والمستقبل ـ لهذا العلم وهذا التراث.

ثانيًا: التباين الواضح والاختلاف الخطير بين فكر يُعلي (بحق) من قيمة العقل والإنسان والمجتمع، ويضع الحلول النافعة والبَنّاءَة وبين فِكر آخر يؤله العقل، ويطلق له العنان، بل ويعبده، ويتجاهل الوحي ويعارضه، ويرى أن العقل البشرى (وحده) كفيل بحل جميع المشاكل الاجتماعية في هذا العصر المليء بالقوانين الوضعية والأفكار الليبرالية التي تتعلق بشئون الحياة الاجتماعية والقوانين المنظمة لها.. وحاجة الناس إلى معرفة ما يوافق الشريعة الإسلامية وما يخالفها.

ثالثًا: حاجتي الملحة لبحثٍ علميٍ جامعٍ لقضايا الإصلاح الاجتماعي؛ لأنني مازلت أعمل في حقل الدعوة الإسلامية إمامًا وخطيبًا ومدرسًا للعلوم الشرعية ومفتيًا في المسائل الدينية وأتعرض لأخطر القضايا الاجتماعية، وأجد في نفسي حاجة إلى المزيد من العلوم المتعلقة بهذه المسائل ومستجداتها القانونية والعصرية ومراجعة ما عندي من فهم على أيدي علماء أجلاء يصوبون لي، ويرشدونني إلى ما أريد.

رابعًا: الكم الهائل والخطير والمتعدد الجوانب والأشكال والأنواع من الفساد الاجتماعي، والذي تغلغل في المجتمع والذي أصبح يهدد ـ بالفعل ـ كيان هذا المجتمع والأسرة والنشء والدولة .. بدرجة تبعث على القلق والخوف، وتدفع باتجاه البحث عن حلول جديدة ومفيدة لإنقاذ المجتمع من الضياع.

خامسًا: النداءات المتكررة من علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد، ومن المجتمع ذاته بجميع طوائفه وتوجهاته، والتي تناشد علماء الشريعة الإسلامية أن يتدخلوا بقوة لتقديم الحل للمشاكل الاجتماعية التي غرقت فيها البلاد، والمشاركة في تذليل العقبات التي وضعت في طريق النهوض بالمجتمع العربي المسلم.

سادسًا: التقليد الأعمى للثقافات الاجتماعية الوافدة، خصوصًا ما يتعلق بالمرأة والطفل والأسرة، وافتتان البعض بهذه التقاليد والعادات الغريبة على حساب الهوية الإسلامية والعربية، بل والبعيدة عن الفطرة السويّة والقيم الإنسانية الأصيلة.

هذه هي أهم الأسباب التي دعتني لاختيار هذا الموضوع والكتابة فيه

أهمية الكتابة في هذا البحث

أعتقد أن هذا الموضوع ـ في هذا الوقت بالذات ـ له طابع خاص وأهمية قصوى.

فمن خلال ما سبق ذكره في المقدمة، وأسباب اختيار الموضوع، وما تخلل ذلك من إشارة إلى الخلافات الفكرية والمذهبية في المجتمع بين العلمانية حقيقتها ومستوياتها والموقف منها، والإسلام وتقديم الحلول باسم كلٍ منهما، وحاجة المجتمع لمعرفة الحق الذي يهتدي من خلاله إلى الصلاح والرشاد، لا شك أن ذلك يؤكد الأهمية البالغة لهذا الموضوع.

وزيادة على ما مضى أذكر بعضًا من الأمور الأخرى التي تؤكد هذه الأهمية:

أولاً: صلة هذا الموضوع بـ(الإنسان) الذي هو محور هذه الحياة وسيد في هذا الكون، ومعلوم أن موضوعًا يتعلق بإصلاح الإنسان، دينه وعقله وخلقه وقيمه الإنسانية، وعلاقة ذلك بمنهج الله وما جاء به المرسلون، وما وضعه المصلحون، ومدى الالتزام بهذه القيم أو الابتعاد عنها موضوع هام ومهم.

ثانيًا: صلة هذا الموضوع بـ(الأسرة) التي هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع، والخلية الحيّة والحيوية والفعالة والمتفاعلة مع جميع عناصر الكون، إذ إنها أقدم النظم الاجتماعية، وأنّ صلاح هذه الأسر صلاح للمجتمع كله ، وفسادها فساد للمجتمع كله.

ثالثًا: تأتي أهمية هذا الموضوع لاتصاله أيضًا بـ(الشباب) والنشء الذين هم ثمرة الفؤاد وأمل البلاد وحماة الوطن وحراس العقيدة ونصف الحاضر وكل المستقبل، ولا يكون ذلك إلا بتوجيه وإرشاد وتدريب وتهذيب وتعليم وتقويم، وهذا البحث يعين على ذلك إن شاء الله تعالى.

رابعًا: يأتي هذا الموضوع في وقت بلغت فيه المشكلات الاجتماعية في البلاد العربية حدًّا لا يطاق ولا يحتمل؛ لكثرة أزماتها وتعقيداتها، وتغلغلها في المجتمع، بل وحراسة البعض وبعض القوانين لها بدافع الرغبة في تحصيل فوائد شخصية، وبدعوى التطور والتنوير والتقدم.

خامسًا: تأتي أهمية هذا الموضوع ـ أيضًا ـ من مدى حاجة الناس له في الحاضر والمستقبل، ولإصلاح الدين والدنيا والبلاد والعباد، فالإنسان مدني بطبعه، أي: يألف ويُؤلف، وله علاقات اجتماعية لابُدّ منها.. ومن أهمها الاجتماع الإنساني والعمراني والتزاوج والتعارف والتعاون والتكافل والمودة والرحمة والأمن والاستقرار.

وهذا الموضوع يوضح هذه الأمور، ويؤصل لها ويبين نفعها في الدنيا والآخرة وخطورة التخلي عنها أو إهمالها.

سادسًا: يأتي هذا الموضوع في وقت انشغل فيه كثير من الناس ـ فضلاً عن العلماء ـ بالسياسة ومكاسبها، والإعلام والدعاية والفلسفات الكلامية، والخلافات المذهبية والعصبيات الحزبية ومسائل الفروع على حساب الخطوات اللازمة لعملية الإصلاح.

سابعًا: الكتابة عن العلمانية وتفنيد حججها لا كالكتابة عن اليهودية والنصرانية والشرك والإلحاد، إذ إن هؤلاء سبق وأن واجههم الإسلام وجابههم وانتصر عليهم في ميادين كثيرة. أما العلمانية فلا زالت أفكارها رائجة وشبهاتها خطيرة سيما وأنصارها من بني جلدتنا، وعندهم من المهارة والدهاء ما لا يقوى على تفنيده سوى العلماء أهل الاختصاص، لذا فإن الكتابة في هذا الموضوع وفي هذا الوقت لها أهمية قصوى.

ثامنًا: تأتي أهمية هذا الموضوع لاتصاله بالنظام الاجتماعي في الدولة، والوزارات المعنية بالشئون الاجتماعية، والتربية والإعلام والرياضة، وما تقوم به الحكومات وهذه الوزارات من عمل يسهم في بناء المجتمع وحل مشاكله.

تاسعًا: تأتي أهمية هذا الموضوع ـ أيضًا ـ لاتصاله بالمجتمع الإسلامي الكبير الذي تقطعت أوصاله، وتباينت أفكاره بفعل الثقافات المختلفة، والحدود التي رسمها الاحتلال.. وما يتبع ذلك من ضعف وضياع، وذلّ وهوان، ومشاكل وهموم.. آن الأوان أن يعمل جميع المخلصين لحلها والتصدي لها.

عاشرًا: تأتي أهمية هذا الموضوع في دعمه الكامل للقيم الاجتماعية والمروءة الإنسانية، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وحثّه على العمل الجاد والأمل في المستقبل، والاستفادة من علم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء وحتمية التمييز بينهم وبين غيرهم، وتحمل المسئوليات، والتحلي بالفضائل، والبعد عن الأنانية وحب الذات والرذائل...

ولا يخفى على السادة العلماء أن موضوعًا يتصل بفكر الشيخ/ محمد الغزالي ومواقفه الشجاعة وآرائه السديدة وتوجيهاته الرشيدة.. إذا ما قورن بفكر الدكتور/ فؤاد زكريا وكتاباته الفكرية والاجتماعية موضوعٌ له أهمية أخرى.. تضاف إلى ما سبق ذكره، وما تقرر أمره.

لذا أقول بلا تردد: إن الكتابة في هذا الموضوع، وفي هذا الوقت بالذات هي من الأهمية بمكان.

والله المستعان

أهداف هذا البحث

لكل موضوع هدف وغاية، والكتابة في هذا الموضوع تهدف إلى أهداف وغايات، أرجو الله تعالى أن أكون قد وفقت في تحقيقها، ومن أهم هذه الأهداف ما يلي:

أولاً: مراجعة وقراءة كتب ومؤلفات الشيخ/ محمد الغزالي، والدكتور/ فؤاد زكريا، وجمع ما تفرق فيها من علومٍ وآراءٍ وأفكارٍ وأحكام.. تتعلق بالإصلاح الاجتماعي في المجتمع العربي والإسلامي... ثم جمعها وتقييمها ونقدها، ثم تقديمها للباحثين في صورة رسالة علمية مرتبة ومفيدة إن شاء الله تعالى.

ثانيًا: بيان أهم وأخطر المشاكل والتحديات التي تهدد الكيان الاجتماعي في المجتمع العربي المسلم، ورؤية د/ فؤاد زكريا والشيخ/ محمد الغزالي، ومعرفة (كنه) هذه التحديات والمشاكل الاجتماعية.. ومَنْ وراءها، وما قدر خطورتها.. وسبل مواجهتها وإصلاحها والتغلب عليها، والأدوار المنوطة بأفراد المجتمع، كل حسب موقعه، وفي حدود قدراته وخبراته واختصاصه .

ثالثًا: الإسهام ـ قدر الإمكان ـ في إصلاح المجتمع والأسرة والفرد على أسس علمية وعصرية متينة، يشرف على جمعها وتأليفها وترتيبها ونقدها علماء أجلاء من ذوي الخبرة والاختصاص؛ ليكون نبراسًا وأساسًا للإصلاح الاجتماعي والوجود العمراني.

رابعًا: بيان دور الدولة المسلمة ومؤسساتها الاجتماعية في الإصلاح الاجتماعي المنشود، والسبل الكفيلة لتحقيق هذا الدور وتفعيله كما ينبغي، وذلك للوصول إلى أهداف الإصلاح والنهوض بالمجتمع.

خامسًا: بيان جمال وكمال شرائع الإسلام في الإصلاح الاجتماعي، خصوصًا إذا ما قورن بالقوانين الوضعية والمواثيق الدولية وما يسمى بحقوق الإنسان، وبيان الفوارق التي يسمو بها الإسلام ونظامه الاجتماعي.

سادسًا: التذكير بقيمة الأسرة في الإسلام، وأهميتها في بناء المجتمع السليم، واهتمام الإسلام (أكثر من غيره) بالروابط الأسرية والحياة الاجتماعية، والحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوجين.

سابعًا: بيان أهم العلوم الاجتماعية والقيم الإنسانية والتنمية البشرية التي اهتدى إليها الإنسان بعقله المجرد، ووصل إليها بتجاربه وخبراته، وموقف الشيخ/ محمد الغزالي والدكتور/ فؤاد زكريا من ذلك كله.

ثامنًا: تذكير الباحثين من العلمانيين والليبراليين وغيرهم بالمنهج العلمي في البحث عن الحقيقة والضابط الشرعي في الحكم على الأشياء والآراء، وأهمية النقد والتمحيص في معرفة الحق من الباطل والصواب من الخطأ.

تاسعًا: القيام بالواجب الملقى على عاتق العلماء وطلبة العلم في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والباحث قد أتيحت له فرصة البحث للحصول على درجة العالمية (الدكتوراه) فلعله من بحثه هذا يكون قد شارك العلماء ـ بدرجة أو أخرى ـ في الإصلاح المنشود.

وهذا العمل الذي أتقدم به، وأهدف إلى تحقيقه ـ بعون الله تعالى ـ يؤكد أن الأزهر الشريف بعلمائه الأبرار، وعطاءاته المتدفقة والمتجددة هَمُّهُ إصلاح المجتمع، ويشيد بكل عمل صالح ونافع أيًّا كان مصدره.

هذا ما أهدف ـ ضمنًا ـ إلى إبرازه للناس، في زمن كثر فيه أدعياء العلم وفلاسفة الكلام.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

منهج البحث

أعتقد أن هذا البحث بهذا العنوان (الإصلاح الاجتماعي في الفكر المعاصر، بين الشيخ/ محمد الغزالي والدكتور/ فؤاد زكريا: دراسة مقارنة) يناسبه المنهج المقارن الذي يعتمد على مقابلة الأفكار، بعد عرضها وبيان مدى التوافق والتباين، والصواب والخطأ، ثم استخراج النتائج والفوائد.

وقد التزمت منهج الدراسة المقارنة، وسرت عليه مع بعض النقد اللازم والتأصيل الشرعي، بعد عرض وجهات النظر للشخصيتين محل الدراسة، ثم تقويم ما يلزم التقويم منها، وكانت هذه الدراسة تسير وفق الخطوات التالية:

أولاً: تمهيد مختصر عند بدء الكتابة في أي عنصر من عناصر البحث ليكون بمثابة الاستهلال والمدخل للموضوع، وهذا التمهيد من عملي وفكري وقد التزمت به في كل مبحث من مباحث الرسالة، وما تدعو إليه الحاجة في المطالب والنقاط من تأصيل علمي أو حكم شرعي أو ترتيب منهجي.

ثانيًا: عرض وجهات النظر بدءًا بالدكتور/ فؤاد زكريا[1] ثم بمن كتبوا عنه مع النظر فى هذه الآراء والتعليق عليها ثم عرض وجهة نظر الشيخ محمد الغزالي، وبعض العلماء المؤيدين أو الموافقين له فى الرأى ثم تعقيب الباحث وذكر أهم فروق المقارنة ومدى الاتفاق أوالاختلاف، ومنشأ ذلك وعلته، ودرجة الفائدة منه أو الضرر المترتب عليه.

ثالثًا: نَقْلُ الآيات القرآنية من المصحف بالخط العثماني مع ذكر رقم الآية واسم السورة، وعزو الأحاديث النبوية إلى مصادرها من دواوين السنة المشهورة، فما يكون فى أحد الصحيحين فقد اكتفيت بالعزو له، وما يكون فيهما ذكرت الموضعين، وما يكون من حديث في غيرهما، فقد اكتفيت بذكر بعضها، مع الاهتمام ببيان درجة كل حديث من حيث الصحة أو عدمها.

رابعًا: إسناد كل قول لقائله، مع ذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة وتاريخ الطبعة وجهة ومحل النشر.

خامسًا: كان الحكم على أقوال كل من الشخصيتين ـ محل الدراسة المقارنة ـ لا يخرج عن كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وإجماع العلماء وأدوات الترجيح واستنباط الأحكام، وذلك مراعاة للوسطية والموضوعية ووصولاً للفائدة المرجوة من هذا البحث.

---

(١) علة هذا التقديم أن د/ فؤاد يثير الشبهات... ويهاجم علماء الإسلام والشيخ الغزالى يفند شبهاته ويرد عليه.

فوائد هذه الدراسة

هذه الدراسة لها فوائدها وثمارها للباحث والقارئ على السواء، فالباحث قبل أن يسطر كلماته ويكتب ما تجود به قريحته في مسائل الإصلاح الاجتماعي المتعددة، لابد أن يبحث في الكتب والمراجع التي تتصل بموضوع البحث؛ للوقوف على الحقائق من مصادرها المعتمدة شرعًا وعقلًا، وفي هذا الأمر فائدة عظمى للباحث إذا ما أضيفت إلى الظواهر الاجتماعية التي يراها في المجتمع، وما يترتب عليها من آثار إيجابية أو سلبية، فإنه بذلك يظهر له ما خفي عليه من قبل، فيقف على قدم ثابته وعقيدة راسخة فيما يقول وفيما يكتب وفيما يصوِّب أو ينتقد ، وفيما يخرج به من نتائج، أو يوصى به من وصايا .

أما القارئ فإنه يضيف إلى معلوماته معلوماتٍ أخرى، قد لا يُسعفه الوقت أن يبحث عنها، أو يجدها مجتمعة ومرتبة ومنضبطة بضوابطِ ومناهج البحث العلمى القائم تحت إشراف اهل الإختصاص من العلماء الأجلاء.

ويمكن لى أن أجمل ما استفدتة من هذه الدراسة فيما يلي:-

أولاً: الاطلاع على فكر وكتب كل من: د/ فؤاد زكريا ، والشيخ/ محمد الغزالي، والاستفادة منهما في عملى في مجال الدعوة والإرشاد والتدريس والفتوى، وأخص بالذكر القضايا الاجتماعية .

ثانيًا: الاطلاع ـ أكثر وعن قرب ـ على الفكر الليبرالي والعلماني، سيما ونحن نعيش أحداثًا متلاحقة ومؤسفة ومؤلمة تموج بها الساحة المصرية، ونسمع ونرى ما يقوله أهل الثقافات المختلفة، والأفكار المتباينة، وما يبثونه في وسائل الإعلام، وما يدور بينهم من خلاف واختلاف وردود، بعضه مؤيد بالدليل، ويلتزم أدب الحوار، وبعضه ليس كذلك.

ثالثًا: هذه الدراسة دفعت الباحث بقوة إلى تطوير لغة الحوار بعد فهم الثقافات التى ترفع راية الإصلاح الاجتماعي ودراستها؛ ليكون خطاب أنصارها باللغة التي تصل إلى قلوبهم، وإقناعهم بالطريقة التى تصل إلى عقولهم، بالدليل الشرعي تارة، والعلمي والعقلي والمادي تارة أخرى.

وفي هذا فوائدُ كبرى للباحث والقارئ على السواء.

رابعًا: هذه الدراسة أمدت الباحث برؤى ووجهات نظر جديدةٍ فيما يتعلق بالإصلاح الاجتماعي المنشود، حيث اكتشف من هذه الدراسة أوجه الاتفاق والشبه والتباين والاختلاف بين الشخصيتين ـ محلَّ الدراسة من جهة ـ وبين الظاهر النظري والممكن العملي من جهة أخرى.

خامسًا: تعرف الباحث من خلال هذه الدراسة أكثر وأكثر على الشخصيتين محلِّ الدراسة، حيث وجد الباحث أن أحدهما تميز على الآخر من عدة وجوه، يذكرها في فصول ومباحث هذه الدراسة، وفي أهم نتائجها وتوصياتها .

أدوات البحث

١ـ كتابات د/ فؤاد زكريا . ٢ـ كتابات الشيخ/ محمد الغزالي.

٣ـ مراجع أخرى تكلمت عن الشخصيتين. ٤ـ مراجع أخرى تكلمت في هذا الموضوع.

٥ـ الواقع المعاصر والأحداث الجارية التي تمر بها البلاد. ٦ـ خبرة الباحث وتجاربه الشخصية.

مشكلات البحث وصعوباته

كانت رغبتي الأولى عند تقديم خطة هذا البحث أن تقتصر الدراسة على الإصلاح الاجتماعي في فكر الشيخ الغزالي فقط، وذلك لعلمي أن فضيلة الشيخ رحمه الله له كتابات وفيرة، قد حوت كثيرًا من المادة العلمية التي تفي وتكفي للكتابة في هذا الموضوع.

الأمر الذي جعلني أتقدم بخطة في هذا الإطار، بَيْدَ أن أساتذتي الكرام في كلية الدعوة الإسلامية أقروا ـ مشكورين ـ الخطة والعنوان مع بعض التعديلات، ومن أهمها أن تكون هذه الدراسة دراسة مقارنة، وأن تضاف إليها شخصية أخرى من مدرسة أخرى تختلف عن مدرسة الشيخ الغزالي.

هذا الأمر جعلني أواجه صعوبتين:

الأولى: اختيار الشخصية التي أقارن أفكارها الإصلاحية في الجانب الاجتماعي بشخصية الشيخ الغزالي.. لقد بحثت كثيرًا عن هذه الشخصية مما دعاني أن أقرأ كثيرًا لكبار العلمانيين والليبراليين والقوميين وحتى الاشتراكيين؛ لعلي أجد ضالتي، وهذا أخذ مني بضعة أشهر أواصل فيها الليل بالنهار بين القراءة والاستفسار وسؤال العلماء، مع التردد المتواصل على المكتبات العامة ومراكز الفكر ومقار بعض هيئات التدريس في الجامعات المصرية.. هذا بجانب النظر في كتب وكتابات هذه الشخصيات ومقارنتها بالخطة التي أعددتها من قبل، وقد حوت أهم عناصر البحث، والتي لا يمكن الاستغناء عنها .. مع وضعنا في الاعتبار تباين الأفكار، واختلاف الرؤى لهذه الشخصيات ومدارسها ومشاربها ومناهجها، والحق إنني وجدت الدكتور/ فؤاد زكريا وكتاباته الأقرب للمقصود من دراستي هذه وما تهدف إليه،

وهذا تطلب أن أتقدم بخطة جديدة تكون فيها شخصية الدكتور/ فؤاد زكريا حاضرة وجديرة بالمقارنة الأمر الذي أخذ مني جهدًا ووقتًا.

هذه هي الصعوبة الأولى.

الثانية: الكتب والمراجع التي أستقي منها المعلومات، فالشيخ الغزالي معروف لديّ، وكتبه اطلعت على معظمها، ولكني وجدت صعوبة كبيرة في الحصول على أهم كتابات د/ فؤاد زكريا حيث إنني لا أستطيع الكتابة عن شخص إلا بعد الحصول على كتبه والقراءة الكاملة لها.. هذا الأمر أجهدني كثيرًا؛ لندرة هذه الكتب ـ من جهة ـ وأسلوبها الفلسفي من جهة أخرى، وبفضل الله ثم بعون المحبين للعلم وأهله وطلبته حصلت على القدر الكافي لإنجاح هذه الدراسة، والحق أنني استفدت كثيرًا من هذه الدراسة، وتعلمت أمورًا ما كنت أعرفها عن الفكر العلماني والليبرالي، ويرجع الفضل في ذلك إلى الله تعالى، ثم إلى أساتذتي الكرام في كلية الدعوة الإسلامية.

أسأل الله أن يجزيهم عني وعن خدمة العلم وطلبته خير الجزاء.

آمـــين

الدراسات السابقة، ومدى الاستفادة منها

لا توجد دراسة جامعية ـ في حدود علمي ـ ماجستير أو دكتوراه جمعت قضايا الإصلاح الاجتماعي في فكر الشيخ/ محمد الغزالي وقارنتها بفكر الدكتور/ فؤاد زكريا، كما لا توجد رسائل علمية كتبت عن د/ فؤاد زكريا في هذا الموضوع.

تبين لي ذلك من خلال اطلاعي على المكتبة المركزية بجامعة الأزهر الشريف، وشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) والجامعات والكليات التي كلفت بالبحث فيها عن هذا الموضوع.

ويجدر بى ـ هنا ـ أن أذكر الرسائل التي كُتِبَتْ عن الشيخ الغزالي(فقط)، وكلها لا تحمل هذا العنوان الذي أتقدم به في هذه الدراسة.

أولا : رسائل الماجستير:

١ـ (موقف الشيخ/ محمد الغزالي من قضية التخلف الحضاري للمسلمين) للباحث/ إبراهيم طلبة حسين، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة عام ٢٠٠٤م ولا توجد في هذه الرسالة شيء عن الدكتور فؤاد زكريا، وما كتب عن الشيخ الغزالي فهو جزء يسير يندرج تحت عناوين صغيرة وبصورة مختصرة ومقتضبة تتعلق بدور المرأة في المجتمع، وما نتج عنه من اختلال في التوازن الاجتماعي.

والدراسة التي أتقدم بها دراسة عامة وشاملة لمشروع الإصلاح الاجتماعي في الفكر الإسلامي والفكر العلماني، بين الشيخ/ محمد الغزالي والدكتور/ فؤاد زكريا (أي دراسة شاملة ومقارنة ومفصلة ومطبقة على علمين)، لكل منهما مدرسة تختلف تماما عن الأخرى.

٢ـ (الآراء التربوية في كتابات الشيخ/ محمد الغزالي) للباحث/ عبد رب الرسول سليمان كلية التربية بالقاهرة عام ١٩٩٨م.وهذه الرسالة بعيده عن النظام الاجتماعي، بمعناه العام والخاص، فهي تتكلم عن الفكر التربوي عند الشيخ/ محمد الغزالي، وأهمية التعليم، وكيفية إصلاح التعليم والتعليم الأزهرى خاصة، ورؤية الشيخ الغزالي لتطوير الأزهر والتعليم الخاص والمدارس الأهلية وتعليم المرأة. وهذه الرسالة بجميع أبوابها وفصولها ونتائجها لا تلتقي مع البحث الذي أتقدم به إلا في مبحث لا يزيد عن أحد عشرة صفحة (وبطريقة مختصرة)ولم أنقل من هذه الرسائل شيئًا، إذ أنني في هذه الرسالة المقارنة أقدم رأي الدكتور/ فؤاد زكريا، ثم أقابله برأي الشيخ الغزالي، وقد اعتمدت على كتب الشيخ/ الغزالي مباشرة، وكتب د/ فؤاد زكريا وكتب أخرى لها صلة بهذا الموضوع.

٣ـ (الشيخ/ محمد الغزالي وجهوده في التفسير) للباحث/ رمضان خميس زكى، كلية الدراسات الإسلامية بالقاهرة عام ١٩٩٩.

هذه الرسالة تتكلم عن التفسير وعلومه، وفَهم الشيخ/ محمد الغزالي المتميز وحبه للتفسير الموضوعي، واستخراجه للأحكام الفقهية بصورة جديدة وجيدة ومفيدة، تختلف عن تقليد السابقين في طرق التفسير واستنباط الأحكام،وهذا كله بعيد كل البعد عن البحث الذي أتقدم به.

٤ـ (الشيخ/ محمد الغزالي وجهوده في رد مطاعن المستشرقين) للباحث/ محمد الصغير عبد الرحيم، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة عام ١٩٩٨م.

٥ـ (جهود الشيخ/ محمد الغزالي فى الدفاع عن الإسلام) للباحث/ الطويل محمد أحمد كلية أصول الدين بأسيوط عام ٢٠٠٨م.

هاتان الرسالتان تكلمتا عن دور الشيخ/ محمد الغزالي في تفنيد حجج المشككين في الإسلام، وقضايا الغزو الفكري العلماني والشيوعي والصليبي، وأهداف المستشرقين وسماسرة الفكر، وأطماع الاحتلال، إلا أن الرسالة الثانية أعم من الأولى. والرسالة التي أتقدم بها لا تلتقي مع هاتين الرسالتين في شيء .

٦ـ (المقال وخصائصه عند الشيخ/ محمد الغزالي) للباحث/ خالد كمال محمد، كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ٢٠٠٢م وهي رسالة تحدثت عن مقالات الشيخ وحواراته وقوة حججه.

٧ـ (خصائص التراكيب في تراث الشيخ/ محمد الغزالي) للباحث محمد عبده محمود، كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ٢٠٠٨م، وهي رسالة تحدثت عما خلفه الشيخ من تراث علمي ولغوي هائل.

وهاتان الرسالتان اهتمتا باللغة العربية المتميزة للشيخ الغزالي وجمال الجمل والعبارات وقوتها وترابطها والتراكيب الإنشائية، وبلاغة الأسلوب الخطابي عند الغزالي وقوة تأثيره وجزالة أسلوبه.

وهذا بعيد كل البعد عن الرسالة التي أتقدم بها.

٨ـ (من عمالقة الفكر والدعوة الشيخ/ محمد الغزالي وأثره في الدعوة إلى الله) للباحث/ عيد محمد يوسف، كلية أصول الدين بشبين الكوم عام ١٩٩٢م.

هذه الرسالة تتحدث عن تميز الشيخ الغزالي وفكره الوسطي، وموقفه من الاحتلال الانجليزي والاستبداد السياسي والظلم، وشجاعة الشيخ/ الغزالي في الصدع بالحق، والغوص في أعماق الفكرالسياسي والديني، ونقده للفكر المتعصب واحترامه للدراسات المذهبية. وهذا لا علاقة له بالرسالة التي أتقدم بها .

ثانيا :رسائل الدكتوراه:

١ـ (قضايا العقيدة فى فكر الشيخ/ محمد الغزالي) للباحث/ محمد الصغير عبد الرحيم، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة عام ٢٠٠٣م. وفيها أهمية العقيدة في بناء الشخصية الصالحة.. والفكر المعتدل المستنير.. والخلافات المذهبية.. ومسألة أين الله.. وربط العقيدة بالسلوك والأخلاق.. وصفات الله الحسنى.. والنبوات.. والألوهيات والسمعيات. وهذه المسائل بعيدة عن موضوع البحث الذي أتقدم به.

٢ـ (مواقف الداعية الكبير محمد الغزالي من السنة النبوية) للباحث/ محمد سيد أحمد ، كلية أصول الدين بأسيوط عام ٢٠٠٥ م .

٣ـ (الأحكام الواردة في كتاب السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) للباحثة/ عواطف حامد خليل، كلية الدراسات الإسلامية/ بالقاهرة بنات عام ٢٠٠٧م.

وهاتان الرسالتان فيهما بيان أهمية السنة النبوية في فهم القرآن الكريم، وعلاقتها به، وموقف الشيخ الغزالي من الحديث (خبر الآحاد)، ومسألة النسخ فى الكتاب، والسُنّة، والخلافات الواردة بين أهل السنة وعلماء الحديث، وأسبابها، والراجح منها. وهذا لا صلة له بموضوع البحث الذي أهدف إلى كتابته.

٤ـ (الخطاب الديني عند الشيخ/ محمد الغزالي :دراسة لغوية) للباحث/ ياسر السيد رياض، كلية اللغة العربية بالزقازيق عام ٢٠٠٧م وفيها نقد الشيخ الغزالي للخطاب الديني، عند كثير ممن يحسبون على الإسلام ، ومَن يتحدثون عنه لاسيما شباب الجماعات الإسلامية، وشباب الخليج والدعاة في أوروبا وشرق آسيا، وضرورة النقد وتجديد الخطاب الديني بما يجمع بين ثوابت الدين ومستجدات العصر .

وهذا الموضوع لا صلة له بالرسالة التي أتقدم بها.

٥ـ (النثر الفني في كتابات الشيخ/ محمد الغزالي) للباحث/ عمر محمد عبد الرحيم، كلية اللغة العربية بأسيوط عام ٢٠٠٦م.

هذه الرسالة تتكلم عن الجمل الإنشائية ، ومدى جمالها وترابطها ، وقدرة الشيخ/ الغزالي على الإنشاء البليغ ، والنثر الفصيح ، دون لحن أو خلل، وهذا ما يميز كتابات الشيخ/ محمد الغزالي التي جمعت بين البلاغة والأدب عن غيره من الكُتَّاب.

وهذا لا صلة له بموضوع الخطة التى أتقدم بها.

والله أسأله العون والسداد.

خطة البحث

يتكون هذا البحث من مقدمة، وفصل تمهيدي وبابين، مع كل باب منهما فصول ومباحث.وسيكون ـ إن شاء الله ـ على النحو التالي:

أولاً: المقدمة:

وتشتمل على أسباب كتابة هذا البحث، وأهميته، وأهدافه، ومنهجه، والدراسات السابقة، ومدى الاستفادة منها.

ثانيًا: فصل تمهيدي، وفيه:

١ـ مفهوم الإصلاح الاجتماعي.

٢ـ المقصود بالفكر المعاصر .

٣ـ أهمية الإصلاح الاجتماعي ، وضرورة الاعتناء به.

٤ـ الفرق بين الإصلاح الاجتماعي، والثورة الاجتماعية.

٥ـ علاقة الإصلاح الاجتماعي ببعض الإصلاحات الأخرى.

٦ـ ترجمة مختصرة لكل من الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي.

٧ـ نبذه مختصره عن أهم مدارس الإصلاح الاجتماعي في الوطن العربي.

البـــاب الأول

قضايا الفرد والأسرة في المجتمع، وموقف د/ زكريا، والشيخ/ الغزالي منها

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول

قضايا الأفراد وعلاقتها بالحياة الاجتماعية

وفيه أربعة مباحث:

المبـحث الأول: نظرة الإنسان للحياة، وأثرها في إصلاح المجتمع.

المبحث الثاني: علاقة أفـــراد المجتمع ببعضهم البعض.

المبـحث الثالث:عقل الإنسان، ومجالات الإصلاح الاجتماعي.

المبحث الرابـع: حقـــوق الإنســـان، ووثيقـــة الأمم المتحـــدة.

الفصل الثاني
قضـــايا الطـــفولـــة والنشء

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: أهمية الاعتناء بالنشء وحمايته.

المبحث الثاني: مسئولية ولي الأمر نحو النشء، وخطورة التخلي عنها.

المبحث الثالث: حقوق الطفل كالرضاع، والحضانة، والنفقة، والتعليم.

المبحث الرابع: مشكلات الطفولة، وكيفية التغلب عليها.

الفصل الثالث
قضايا الشباب وما تواجهها من مشكلات

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: نظرة الشباب للحياة، والمستقبل، وتقييمها.

المبحث الثاني: الصعوبات، والمشكلات التي تواجه الشباب.

المبحث الثالث: المسئولون عن حل مشكلات الشباب.

المبحث الرابع: تدريب الشباب على مواجهة الصعاب، وتحمل المسئوليات.

الفصل الرابع
قضـــايا المرأة، وما أثـــير حولهـا

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: نشأة المرأة، وتربيتها، وحقوقها الاجتماعية.

المبحث الثاني: دعاوى تحرير المرأة ، ومساواتها بالرجل.

المبحث الثالث: تعليم المرأة ، وخروجها للعمل والكسب.

المبحث الرابع: العلاقة بين عمل المرأة والترابط الأسرى .

المبحث الخامس: حجاب المرأة ونقابها، والموقف منه .

المبحث السادس: الاستحقاق السياسي للمرأة ، وتوليها المناصب.

المبحث السابع: تعدد الزوجات، وقضايا الطلاق، والخلع.

الفصل الخامس
الأسرة وأهميتها في بناء المجتمع

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: الوضع الاجتماعي للأسرة، وتقييم الشيخ/ الغزالي، والدكتور/ فؤاد، له.

المبحث الثاني: اعتناء الإسلام بالأسرة مقارنة بالقوانين الوضعية.

المبحث الثالث: أركان الأسرة، وثمراتها، ودورها في بناء المجتمع.

المبحث الرابع: العادات والتقاليد الاجتماعية، والموقف منها .

المبحث الخامس: عوامل هدم الأسرة، وتفكيكها، وخطورة ذلك على المجتمع.

المبحث السادس: النماذج الاجتماعية الغربية، والنماذج العربية الإسلامية.

الباب الثاني
العلاقات الاجتماعية، وسبل إصلاحها بين د/فؤاد زكريا، والشيخ/الغزالي

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول
مظاهر ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع المصري

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تأخير سن الزواج، وزيادة عدد العوانس، وظهور حالات التحرش الجنسي.

المبحث الثاني: العلاقات الغير مشروعة، وزيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع.

المبحث الثالث: الهروب من المسئولية الزوجية، وعدم القيام بالواجبات الاجتماعية.

المبحث الرابع: آثار الهروب من المسئوليات الاجتماعية على الكيان الأسري، ويشتمل على الآتي: الخلافات الزوجية ، زيادة معدلات الطلاق، التفكك الأسرى.

المبحث الخامس: انتشار الجهل، والبدع، والخرافات في المجتمع.

الفصل الثاني
أسباب ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: إحياء القوميات، والنعرات القبلية والترويج لها.

المبحث الثاني: تدني مستوى التعليم ، والإعلام، والتربية الأسرية.

المبحث الثالث: الانشغال بتحصيل القوت الضروري بما يستغرق أوقات الفراغ.

المبحث الرابع: تسلل الروح الانهزامية، والرضا بالواقع.

المبحث الخامس: عدم التخطيط للمستقبل وعدم الاستفادة من علوم العصر.

المبحث السادس: تقليد النظم الاجتماعية البعيدة عن هدي الإسلام.

الفصل الثالث
الآثار المترتبة على ضعف العلاقات الاجتماعية، وما نتج عنها من مشكلات

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: سوء العلاقة بين أفراد المجتمع وبين المسئولين في الدولة.

المبحث الثاني: هجرة الكفاءات العلمية، والعمالة المدربة خارج البلاد.

المبحث الثالث: زيادة الأطماع الدولية، والتقلبات الفكرية والسياسية.

المبحث الرابع: انتشار الأمراض النفسية، والسلوك الانطوائي، والسلبي.

المبحث الخامس: الزواج بأجنبيات، واستخدام المربيات غير المسلمات.

المبحث السادس: ظهور المشكلات الاجتماعية الخطيرة، ومنها على سبيل المثال:

١ـ مشكلات الغذاء، والدواء، والسكن.

٢ـ مشكلات العمل، والبطالة، والموارد المالية.

٣ـ مشكلات التعليم، والارتقاء بالمستوى الفكري.

الفصل الرابع
أثر العقيدة ودورها في الإصلاح الاجتماعي

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: أثر الدين على الفرد والمجتمع، وضبط السلوك الإنساني.

المبحث الثاني: الاستفادة من تعاليم القرآن الكريم، والسُّنة المطهرة.

المبحث الثالث: أهمية الفروض الدينية، في القيام بالواجبات الاجتماعية.

المبحث الرابع: رقابة الله ومحاسبة النفس على التقصير.

المبحث الخامس: ربط العمل الدنيوي بعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر.

الفصل الخامس
منظمات المجتمع المدني، وعلاقتها بقضايا الإصلاح

وفيه تمهيد، وثلاثة مباحث:

التمهيد: وفيه:

١- التعريف بأهم منظمات المجتمع المدني المعنية بالإصلاح الاجتماعي في عصر الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي.

٢- أهم القضايا التي تناولتها هذه المنظمات في هذه الفترة وموقف الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي منها.

المبحث الأول
التربية البدنية والنفسية

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: أهمية الغذاء، والدواء في الحياة الاجتماعية.

المطلب الثاني: النشأة الأولى للطفل، وما يتعلق بها من حضانة، ورضاعة.

المطلب الثالث: الرياضة المفيدة، وأهميتها في التربية النفسية، والبدنية.

المطلب الرابع: السياحة، والتأمل، والترويح عن النفس بالمباح.

المطلب الخامس: التصدي للأمراض النفسية، وعلاجها مبكرًا .

المطلب السادس: التوازن، والاعتدال، وعدم الخروج عن الفطرة الإنسانية.

المبحث الثاني
التربية الفكرية والعلمية

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الإصلاح الفكري والعلمي، شرط أساسي للإصلاح الاجتماعي.

المطلب الثاني: الحرية الفكرية والشخصية ، والضوابط الشرعية والوضعية

المطلب الثالث: التفريق بين الفكر الإسلامي و(الإسلام ذاته).

المطلب الرابع: الثقافية الذاتية، والاعتماد على النفس و(التنمية الفكرية).

المطلب الخامس: التدريب المستمر، والرغبة في التطوير، والتطور.

المبحث الثالث
التربية الحركية

وفيه: أربعة مطالب:

المطلب الأول: أهمية التربية الحركية في الإصلاح الاجتماعي.

المطلب الثاني: مجالات التربية الحركية كما يراها الشيخ الغزالي، والدكتور زكريا .

المطلب الثالث: أهم الحركات التي ظهرت في المجتمع المصري، ومدى نجاحها.

المطلب الرابع: طلاب المدارس والجامعات، وصلتهم بحركات الإصلاح الاجتماعي.

الفصل السادس
علاقة الدولة بالمجتمع ودورها في الإصلاح

وفيه: خمسة مباحث:

المبحث الأول: نظرة المجتمع للدولة ومدى تفاعله معها.

المبحث الثاني : الوزارات المعنية بالخدمات الاجتماعية ، وتقييم أدائها.

المبحث الثالث: العدالة الاجتماعية في توزيع الثروات وفرص العمل.

المبحث الرابع: تنظيم المجتمع، وسن القوانين، واختيارات الكفاءات.

المبحث الخامس: محاسبة المفسدين، وحراسة القيم الاجتماعية.

خاتمة البحث

وفيها: نتائج البحث، وأهم التوصيات التي يوصى بها الباحث

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فصل تمهيدي

وفيه

أولاً : مفهوم الإصلاح الاجتماعي.

ثانيًا: المقصود بالفكر المعاصر.

ثالثًا: أهمية الإصلاح الاجتماعي، وضرورة الاعتناء به.

رابعًا: الفرق بين الإصلاح الاجتماعي، والثورة الاجتماعية.

خامسًا: علاقة الإصلاح الاجتماعي ببعض الإصلاحات الأخرى.

سادسًا: ترجمة لكل من الشيخ/ محمد الغزالي، والدكتور/ فؤاد زكريا.

سابعًا: نبذة مختصرة عن أهم مدارس الإصلاح الاجتماعي في المجتمع العربي.

أولاً: مفهوم الإصلاح الاجتماعي:

١ـ الإصلاح لغة:

الشيء الصالح هو: الشيء الخالص من كل فساد[١] والسالم من العلل والخلل، ومنه الصلح وهو في اللغة: التوفيق والسِلم (بكسر السين) أي قطع المنازعات [٢] والفصل بين الخصومات.

يقول ابن فارس: «الصاد واللام والحاء ، أصل واحد يدل على خلاف الفساد، يقال صلح الشيء يصلح صلاحًا، ويقال: صلح (بفتح اللام) » [٣].

ويقول الجوهري: «الصلاح: ضد الفساد، يقال : صلح الشيء يصلح صلوحًا، قال الفراء: وحكى أصحابنا: صلُح أيضًا (بالضم)، وهذا الشيء يصلح لك، والصِلاح بكسر الصاد المصالحة، والاسم(الصلح) يذكر ويؤنث، والإصلاح: نقيض الإفساد، والمصلحة واحدة المصالح، والاستصلاح(طلب الصلاح) وهو نقيض الاستفساد» [٤].

وفي المعجم الوجيز: «ماة (ص ل ح) صلح الشيء صلاحًا، أي : كان نافعًا ومناسبًا، صلُح صلاحًا أي: زال عنه الفساد أصلح الشيء أي: أزال إفساده، والصلاح هو : الاستقامة والسلامة من العيوب» [٥].

ولقد وردت كلمة (ص ل ح) ومشتقاتها في القرآن الكريم (١٨٠) مرة [٦].

ونخلص مما سبق إلى أن الإصلاح في اللغة يدور حول معاني إزالة الفساد والسلامة من العيوب وأمراض المجتمع وتحقق المصالح.

فهو عقد يتوصل به إلى موافقةٍ بين مختلفين كسلم وحرب، ورجل وامرأة، وحقوق متبادلة وواجبات لابد منها لبقاء المجتمع وسلامة أفراده، وترتيب مصالحه في إطار الشرع والقانون.

٢ـ الإصلاح عند علماء الاجتماع:

---

(١) التعريفات للجرجاني صـــ ١٤٩ طـ/ دار الرشاد، بدون تاريخ.

(٢) المذكرات الجلية، في التعريفات اللغوية، لعلي محمد الهندي صـ٢١ طـ/ مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.

(٣) معجم مصطلحات العلوم العربية، أحمد زكي بدوي ط/ مكتبة لبنان بيروت سنة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م مقاييس اللغة (٣/ ٢٢٣).

(٤)مختار الصحاح صـ ٣٦٧ مادة (ص ل ح) ٢/ ١٥٦ط دار الحديث بالقاهرة بدون تاريخ.

(٥) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، صـ ٣٦٨، ط وزارة التربية والتعليم، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م وللمزيد انظر كتاب لسان العرب لابن منظور، جـ١١ طـ دار صادر، سنة ٢٠٠٣م كلمة (ص ل ح).

(٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة (ص ل ح) صـ ٥٢٠، محمد فؤاد عبد الباقي، طـ دار الحديث، ط/ ١، سنة ١٩٨٧م.

يأتي معنى الإصلاح الاجتماعي عند علماء الاجتماع بعدة تعريفات، تختلف باختلاف تراكيب الألفاظ ومباني الكلمات، إلا أنها تدور حول معان متقاربة، فهو يأتي بمعنى التغيير من الشيء إلى الحسن أو إلى الأحسن، أو تحقيق التقدم أو تحديث المجتمع، وهذا التغيير وهذا التحديث ينبع من احتياجات الأُسر ومتطلبات حياتهم، «فهو محاولة تحسين الأحوال والأوضاع داخل النسق الاجتماعي، دون إحداث تغير في الطابع الأساسي المميز للنسق نفسه» (١). «كما يهدف الإصلاح الاجتماعي إلى إبعاد وإزاحة مظاهر الفساد في المجتمع، أو التخفيف من تلك المظاهر التي تنجم عن إعاقة النسق الاجتماعي مع تقوية هذا النسق، ودعمه للقيام بوظائفه»(٢).

والحق إن الإصلاح الاجتماعي في مصر لم يأت بالثمرة المرجوة منه، مع أنه بدأ مع بداية القرن العشرين، ويُرجِع أسباب الإخفاق وعدم الوصول إلى الأهداف المنشودة إلى عدة أسباب:

أولها: عدم تحديد القواسم المشتركة التي ينطلق من خلالها المصلحون، وتستوعب جميع التصورات ورؤى الأطراف المشاركة في تحديد المستقبل الاجتماعي.

ثانيا: الخلط بين تقييم الوضع الاجتماعي ـ من جهة ـ والمعيار القادر على تحديد أسس تنظيم هذا الوضع من جهة أخرى.

ثالثا: عدم تحديد المسافة اللازمة للإصلاح ـ كما وكيفا وزمنا ـ وأساليب تجاوزها لإعادة ترتيب وبعث المجتمع الصالح.

وحتى نصل إلى أهداف الإصلاح كاملة لابد وأن نحدد ـ بدقة ـ الخطوات والمستويات التي يسير عليها المصلحون وأهمها ما يلي:

«١- تشخيص الأوضاع والأحوال التي تؤسس وتؤصل لحتمية الإصلاح، والإصلاح أولاً وقبل كل شيء فهو نظام يمكن من خلاله أن يفهم المجتمع أن له أهدافًا منها التاريخي والتذكيري، قد توصف بأنها إخلاص للهوية (أي العربية والإسلامية).

٢- يمكن أن نفهم منطق الإصلاح الاجتماعي من خلال دراسة وتحليل العمليات والخطوات التي تحكم تشكيل وصياغة أدوار المصلح، أي: تقنيات الشرعية، وتحديد أساليب وأطر العمل، والأشكال التنظيمية، والمسارات الاجتماعية، والمواقع السياسية.

---

(١) انظر مقدمة كتاب علم الاجتماع السياسي المفاهيم والقضايا للسيد الحسيني، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ط٤/ ١٩٨٦م.

(٢) انظر مقدمة معجم علم الاجتماع / دينكين ميتشل، ترجمة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة بيروت، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م.

٣- يمكننا إدراك المنهج الإصلاحي من خلال دراسة التنافس بين المعاني والمفاهيم والقيم المركزية في عملية إضفاء الشرعية، تربط بينهما علاقة متوترة ودقيقة، تشكل صميم إشكالية المنهج الإصلاحي ويشكلان قطبين، تظهر وتتبلور بينهما كل الأدوار الممكنة للمثقف، الخيار الأول هو إصلاح المجتمع بالعلم أي: بتعبئة أنظمة وافدة خارجية للفكر والعمل، لإسراع مجرى التاريخ، ولانتقاء ما هو الصالح في الهوية لتحقيق التقدم، أما الخيار الثاني فقوامه إصلاح المجتمع بالدين، أي: العودة إلى ما ينظر إليه على أنه الأصيل، والأساس الفعلي للهوية للبحث فيه عما يعطي دفعة قوية لانطلاقة جديدة، ولانتقاء الصالح في الحداثة الوافدة، مع رفض الخضوع السلبي لها.

والتشابه البنيوي بين الخيارين جعل من المنهج الإصلاحي حوارًا وجدلا، قبل أن يكون مذهبًا أو مدرسة، وما نقصده بالتشابه البنيوي بين الخيارين هو كونهما يفرضان على الجميع نفس التساؤلات التي تتم صياغتها بنفس المعاني والمباني وتشكل تلك الصياغة ما يمكن تسميته (الأرضية المشتركة للمشروع الإصلاحي)»[1].

ومما سبق يتبين لي أن الإصلاح الاجتماعي يبدأ بتشخيص الداء، ومعرفة العلل قبل وصف الدواء، كالمريض الذي يبحث عن العلاج لابد أن يفحص الطبيب حالته، وأن يعرف أسباب مرضه وظروفه وقدرته على مقاومة المرض والإمكانات المتاحة له حالاً ومستقبلاً، ومعرفة المعوقات التي قد تعترض عملية العلاج، وكيفية التغلب عليها حال وجودها، ومن ثم الأعراض التي قد تظهر على المريض أثناء العلاج.. ومدى خطورتها والسلامة منها..

ولا يتم ذلك إلا بمعرفة أشياء كثيرة تتعلق بهذا المفهوم، كالقواسم المشتركة بين الأفكار والممارسات، والظروف الراهنة، والإمكانات المتاحة، مع تشخيص الأوضاع والأحوال، ومعرفة المنطق الإصلاحي، والعمليات التي تحكم هذا المنطق، والخطوات التي تشكل صياغة هذا الإصلاح، ودور المصلح، والتقنيات والإشكاليات...

ولقد حدد عميد المعهد العالي للخدمة الاجتماعية ببورسعيد د/ عبد الخالق محمد عفيفي الدور الإجرائي للنظم والمفاهيم الاجتماعية التي من خلالها يتعرف المصلح الاجتماعي على الخطوات والإمكانات المناسبة والمتاحة لعملية الإصلاح يقول:

«١ـ التعرف على موارد المجتمع المتاحة والتي يمكن إتاحتها، المستثمرة والمهملة.

---

(١) انظر المجتمع المصري جذوره وآفاقه، سيد قطب، إعداد وتقديم: آلان روسيون، صـ٩، ١٠، ١١، بتصرف، الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط/ ١، ١٩٩٤م.

٢ـ التعرف على احتياجات المجتمع وترتيب أولويتها وأهميتها في المجتمع.

٣ـ إجراء البحوث المسحية عن المجتمع وظواهره ومشكلاته.

٤ـ تنوير الرأي العام بقضايا ومشاكل المجتمع.

٥ـ استثارة مشاركة الأهالي وإيجاد قنوات للمشاركة سواء بالرأي أو الجهد أو المال.

٦ـ وضع الخطط لإشباع الاحتياجات، واستخدام مدخل التخطيط بالمشاركة لتحقيق ذلك.

٧ـ العمل على مواجهة المشكلات والظواهر السلبية التي يعاني منها المجتمع.»[١].

ثانيًا: المقصود بالفكر المعاصر:

١ـ الفِكْر في اللغة: يأتي بمعنى التأمل وإعمال الخاطر وتردد القلب في الشيء وترتيب أمور في الذهن للوصول إلى المأمول. يقال: (فَكَّرَ) ـ بالتشديد ـ يُفَكِّر تَفْكِيرًا، ويقال: (فَكَرَ) ـ بالتخفيف ـ يَفْكُرُ فِكْرًا، أو فَكْرًا على وزن ضَرَبَ يَضْرِبُ ضَرْبًا، ويقال: أَفْكَرَ في الأمر فَكَرَ فهو مُفَكِّرٌ فيه، ويقال: فَكَّرَ في الأمر مبالغة في فَكَرَ فهو مُفَكِّرٌ، وهو أشيع في الاستعمال منه من (فَكَرَ) والفِكْرَة: من الفِكْر وهي الصورة الذهنية لأمر ما، وجمعها فِكَرٌ، وقيل: (الفكر) مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفِكْرُ في الأمور المعنوية، وهو: فرك الأمور وبحثها؛ للوصول إلى حقيقتها، أو إعمال العقل، أو شغل الفكر، والخاطر في مشكلة (ما) للتوصل إلى حلها[٢].

والفكر نتاج التفكير، ويكون بمعنى إعمال العقل، والعصف الذهني، وتردد الخاطر على القلب، سواء أكان خاطر إلهام أم وسواس مع محاولة تمييز الحق من الباطل، والخير من الشر، والنافع من الضار، وما يُقْبَلْ وما يُرَد، وما يُعمل به وما يُترك.

يقول ابن فارس: «فَكَرَ: الفاء والكاف والراء: تردد القلب في الشيء، يقال: تَفَكَّرَ: إذا رَدَّدَ قلبه معتبرًا، ورجل فِكِّير: كثير الفكر»[٣].

---

(١) تنظيم المجتمع في المجتمعات النامية، د/ عبد الخالق محمد عفيفي، وكيل المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بالقاهرة صـ١٧٧، ١٧٨، مؤسسة الكوثر للطباعة، سنة ٢٠٠٥م.

(٢) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، إشراف عبد السلام هارون، مجمع اللغة العربية، المكتبة العلمية، طهران جـ ٢ صـ ٧٠٥.

(٣) مقاييس اللغة مادة (ف ك ر)، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، صـ ٤٤٦، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، مصطفى البابي الحلبي، جـ٤، طـ ١، سنة ١٩٧١م، وللمزيد انظر لسان العرب، مادة (ف ك ر)، جـ١، مرجع سابق.

وفي دائرة المعارف «فَكَّرَ في الشيء يُفَكِّرُ فكرًا: تأمل فيه، ومثله (فَكَرَ فيه) والفكرة إجهاد الخاطر في الشيء»[(١)].

ولا يخفى أن الفكر والتفكير من الأمور التي تميز الإنسان بها، وارتبطت ارتباطًا وثيقًا بتكريم الله له؛ لأن الفكر نتاج العقل الذي هو مناط التكليف وأساس التشريف.

٢ـ الفكر في اصطلاح العلماء:

جاء في المعجم الفلسفي تعريف الفكر بأنه: «إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها، ويطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية»[(٢)].

يقول الدكتور محمد عمارة: «الفكر: هو جملة النشاط الذهني من تفكير وإرادة ووجدان وعاطفة، شاملا ما يتم به التفكير من أفعال ذهنية تبلغ أسمى صورها في التحليل، والتركيب، والتنسيق، وهو بهذا خاصية إنسانية»[(٣)].

بينما عرفه د/ جمعة الخولي حيث قال: «الفكر صنعة العقل الإنساني، ومسرح نشاطه الذهني وعطائه الفكري، فيما يَعْرُضُ له من قضايا الوجود والحياة»[(٤)].

ويقول الدكتور/ محمود مزروعة: «الفكر يطلق على إعمال العقل، كما يطلق على ثمرة إعمال العقل، وعلى النتيجة التي توصل إليها العقل، بعد عملية التفكير، فإذا ما أعملتُ عقلي في حل مشكلة ما، فإعمال العقل هذا يسمى فكرًا، وحين أصل لحل لهذه المشكلة، فالحل الذي وصلت إليه، والذي هو نتيجة إعمال عقلي، يسمى فِكْرًا أيضًا»[(٥)].

ومما سبق يتبين أن (الفكر) في مصطلح العلماء، لا يخرج عن معناه اللغوي، الذي سبق ذكره، من حيث هو مرادف النظر والتدبر والتأمل وإعمال العقل ومقابلة الخواطر بقصد الوصول إلى الأفضل.

٣ـ الفكر المعاصر:

الفكر المعاصر الذي بدأ في منتصف القرن العشرين يختلف عن الفكر والتفكير الذي كان سائدًا في

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي، صـ٣٥٨، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، جـ٧، ط ٣، سنة ١٩٧١م.

(٢) المعجم الفلسفي ، لجميل صليبا، صـ ١٥٤، دار الكتاب، بيروت- لبنان ، ط ٣، سنة ١٩٧٩م.

(٣) معالم المنهج الإسلامي، د/ محمد عمارة، صـ٨٧، بدون تاريخ وذكر الناشر.

(٤) الاتجاهات الفكرية وموقف الإسلام منها، د/ جمعة الخولي صـ ١١، ط١، سنة ١٤٠٨هـ.

(٥) مذاهب فكرية معاصرة عرض ونقد، د/ محمود محمد مزروعة، صـ١٨، دار كنوز المعرفة، جدة، ط٢، سنة ٢٠٠٦م.

العصور الماضية، ولذا سأذكر هنا أهم الأفكار المعاصرة والسائدة والمتباينة والتي تدور في فلك هذا البحث، ووفق دراسته المقارنة بين د/ فؤاد زكريا والشيخ/ محمد الغزالي، وهي على النحو التالي:

أـ الفكر الإسلامي: هو الفكر الذي يجمع بين ثوابت الدين، ومتطلبات الدنيا، ويحترم الوحي والعقل والقلب والوجدان، والفرد والجماعة والمجتمع، بحيث لا يطغى شيء على شيء.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "يحسب كثيرون أن صلة الدين بالقلب أسبق من صلته بالعقل، أو أنه –بحسب الإنسان– يكون صافي الروح نبيل الخلق صادق المشاعر؛ ليتم دينه ويكتمل يقينه مهما كان عقله بعد ذلك.. وذلك خطأ! فإن الإسلام يريد أولاً عقلاً سليمًا وفكرًا مستنيرًا، فما قيمة امرئ مشوش الذهن سقيم التفكير؟ إن صحة النظر إلى الأمور ودقة الحكم على الأشياء تجيء أولاً، ثم تجيء الطيبة والنية الحسنة بعد ذلك.. لعمري ما وجد العقل من بدء الخلق إلى يوم الناس هذا كتابًا يعترف به ويجلو بريقه ويمهد طريقه مثل هذا الكتاب الجليل! كان الدين عند كثيرين ينتظم مع أدب الخيال وأحلام الوجدان وهيام الشعر وتهاويل الفن حتى جاء القرآن الكريم، فإذا الدين علم يعتمد على الحقيقة وقضايا تعتمد على البرهان، سواء اتصلت بعالم الغيب أو عالم الشهادة، أو كما يعبرون في عصرنا بالمادة وما وراء المادة.. يقول ﷻ معرفًا نفسه لعباده ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٧٨ وَهُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٧٩ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[المؤمنون: ٧٨: ٨٠] هذه إنارة للعقل، لا يجوز أن يضل بعدها الطريق، ومنهج القرآن في الحديث عن الله جدير بالاحترام كله أنه يضع أصابع الإنسان على ما حوله ثم يقول له: فَكِّر! أتظن الشمس عقدت اتفاقًا مع الأرض لتعاقب الليل مع النهار؟ أتظن كلتيهما حددت المدار الذي يخصها، ووضعت عقوبة لمن يتجاوزه؟ إن هذه الأجرام السابحة في الفضاء لا تعقل شيئًا، وإنما تديرها حكمة .. ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾" (١).

ب ـ الفكر العلماني: هو الفكر القائم على العقل والتجربة(فقط) بعيدًا عن الوحي والدين، والعلماني هو من " يعزل الدين عن الحياة، والعلمانية: هي الترجمة العربية لكلمة (secularism,secularite) في اللغات الإنجليزية، وهي ترجمة يحذر منها؛ لأنها توحي بأن العلمانية لها صلة بالعلم، بينما هي في لغتها الأصلية لا صلة لها بالعلم، بل المقصود بها في تلك اللغات هو: إقامة الحياة بعيدًا عن الدين، أو الفصل الكامل بين الدين والحياة.

تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريف كلمة (secularism) هي حركة اجتماعية، تهدف إلى

(١) مائة سؤال عن الإسلام الشيخ محمد الغزالي، صـ ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، بتصرف، ط / دار ثابت، ط٤، سنة ١٩٨٩م.

صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها» [١]. ويكون ذلك بفصل الدين عن الدولة، أو عن نظام الحكم، وحياة الناس والاكتفاء بالفكر البشري.

جـ ـ الفكر الليبرالي: هو الفكر المتحرر المؤمن بالعلمانية والمطور لها؛ لأن« كلمة الليبرالية ليست عربية، ولكنها مصطلح أجنبي مُعَرَّب، مأخوذ من (Libralism) في الإنجليزية، وهي تعني التحررية، ويعود اشتقاقها إلى (Liberty)، ومعناها الحرية» [٢].فالليبرالية أخت العلمانية المعاصرة، إلا أنها متطورة ومتحررة من كل قيد.

د ـ الفكر الإلحادي: هو فكر قائم على إنكار الدين إنكارًا كاملاً، واعتباره خرافة ومخدرًا للشعوب، وأن الحياة مادة حيث لا إله ولا حساب.. إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، والذي يحي ويميت هو الدهر. وقد ورد في بعض المعاجم تعريف مادي إلحادي للفكر تحت مسمى (الفكر الحر) جاء فيه: «الفكر الحر هو النزعة في التفكير التي تبتعد عن المفهوم الديني لتفسير العالم، ووضع قواعد الأخلاق في الحياة، مع الالتزام أصلاً برد القواعد الأخلاقية إلى ما يمليه العقل والتجارب» [٣].

ولا يفوتنا ونحن نتحدث عن الفكر المعاصر وتبايناته المتعددة أن نُقِر حقيقة مخالفة جميع الأفكار الشاردة عن الضوابط الإسلامية للتفكير الصحيح والمقبول، وأن نضعها في سلة واحدة أو معسكر واحد مقابل الفكر الإسلامي المنبثق عن الفهم الراشد والصحيح للإسلام بحيث نقول: هذا هو (الفكر الإسلامي) وهذه هي (الأفكار الأخرى) فالفكر الحقيقي النابع عن الإسلام والأمة الإسلامية

يقتضي فهمًا واستيعابًا حقيقيًّا وكاملًا للإنسان ورسالته في الحياة، والمجتمعات التي يعيش فيها وعلاقته بها، مع الظروف الحضارية والاقتصادية والسياسية، والحالة التي يفرضها الواقع وتعيشها الأمة، ولا يكون ذلك إلا بفكر مستنير، وتفكير رشيد يجمع بين الوحي والعقل، ويقود البلاد إلى الخير والرشاد.

ثالثًا : أهمية الإصلاح الاجتماعي، وضرورة الاعتناء به:

الإصلاح الاجتماعي مطلب شرعي وفريضة دينية وضرورة حتمية، لابدّ وأن تتضافر جميع الجهود لإنجاحها والاعتناء بها؛ حيث لا دين ولا دنيا ولا استقرار ولا أمن ولا أمان ولا تنمية ولا عمران.. يكون بدون تحركات إصلاحية صادقة وهادفة وناجحة، وقد أشرت إلى ذلك في المقدمة، وذكرت أسباب اختيار

---

(١) الشجرة الخبيثة (العلمانية)، د/ أسامة محمد عبد المالك، صـ٧، سنة٢٠١١م، بدون ذكر الناشر.

(٢) المعجم الفلسفي، جـ١، صـ٤٦١، مرجع سابق.

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت (مادة الفكر الحر).

الموضوع، وأهميته وأهدافه وفوائده بما يغني عن إعادته هنا.

والواقع الإقليمي والمحلي يؤكد دون شك حتمية الإصلاح الاجتماعي، وضرورة الاعتناء به، الأمر الذي يتطلب مراجعة الواقع، والفكر المعاصر.

يقول ابن خلدون: «إن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي: لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وهو معنى العمران، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان ورَكَّبَهُ على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، وهداه إلى التماسه بفطرته، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته (بمفرده)... فلابد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه؛ ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضًا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه» [(١)].

وهذا يتطلب من الفرد والأسرة والمجتمع بجميع منظماته ومؤسساته وهيئاته، وكذلك الدولة بكل طاقاتها وإمكاناتها أن يولوا عملية الإصلاح الاجتماعي اهتمامًا خاصًّا ومتميزًا يناسب حجم المشكلات الاجتماعية التي تهدد المجتمع.

والحق إننا ابتعدنا كثيرًا عن التفكير الجاد في عملية الإصلاح.

والدكتور/ فؤاد زكريا يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي حيث يقدم النماذج الأجنبية، فهو تارة يشيد بالفلاسفة القدامى وما قدموه.. يتجلى ذلك في ترجماته للفلاسفة اليونانيين كسقراط وأفلاطون[(٢)] ويرى أن مظاهر الفساد في البلاد العربية والتدهور السياسي والفكري والاجتماعي يرجع إلى عدم التفاعل مع الثقافات الأجنبية المعاصرة، والدافع في عملية الإصلاح الاجتماعي عند د/ فؤاد زكريا هو هو ذات الدافع عند الفلاسفة قديما والغرب حديثا، فالأهمية عنده لا تأتي من تعاليم الإسلام وما أقره هذا الدين من رسالة للإنسان ومنهجه في الحياة.. وهو بهذا يختلف كثيرًا عن الشيخ الغزالي.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «ومن المحزن أن عددًا من علماء المسلمين شغله الترف العقلي..وأن عددًا من حكام المسلمين شغله المجد السياسي، فما أَحْسَن خدمة الحق..

إنني أحسن الظن بالفطرة البشرية، واعتقادي أنها كالثمر الذي ينبت جميل الدواء، شهي الطعم، بيد

---

(١) مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون ، صـ٣٠، ٣١، دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ.

(٢) انظر التفكير العلمي، د/ فؤاد زكريا، صـ١٥٧ وما بعدها، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب، لعام ١٩٩٦م.

أن النبات قد تعدو عليه أمراض، تشوه لونه ومذاقه، إن هذه الأمراض علل طارئة، وقد تعارف الزرَّاع على مقاومتها كي يحموا محاصيلهم، لكن الأجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية، ومن ثم قد تلتهمها الأوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية، فيشب الصغار مائلين زائفين!

وإذا حدث أن خفت صوت الفطرة، جاءت نجدات من الخارج لمعاونته؛ كي يؤدي وظيفته، ويبقى الإنسان إنسانًا يعرف ربه ويؤثر دربه!!

وإذا كان الوحي الإلهي غير كاف في إيقاظ الفطرة، وإعادة التائه إلى رشده، أحاطت بالأفراد، والجماعات، آلام تكسر الغرور، وترفق الحجب، وتحمل البشرية على الخضوع لمولاها، ومناشدته الرحمة﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤]»[1].

واليقين إن الوحي الإلهي كاف في إيقاظ الفطرة وإعادة التائه إلى رشده قال تعالى: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ [الزمر:٣٦].

والدكتور/ فؤاد زكريا يدعو إلى الاهتمام بالإصلاح المجتمعي بالاستفادة من تجارب الآخرين، ويركز في دعواه على الاعتناء بالترجمة للكتب والمعارف والعلوم.. بدلًا من إلقاء اللوم على الغير، والاكتفاء بذكر الأمجاد الماضية، والانكفاء على الذات، أوالتعلل بالغزو الأجنبي، والانحلال الأخلاقي والفساد السياسي.. وبعد ذكره لما كان عليه المسلمون الأوائل من نهضة علمية واجتماعية.. ومظاهر الضعف التي يعاني منها المجتمع الآن وأسبابها يقول: «قد يعلل المرء ذلك بالانحلال الداخلي والاجتماعي والسياسي الذي طرأ على العالم الإسلامي بعد عصره الذهبي في العلم والحضارة، وقد يعلله بأسباب خارجية كالغزو التركي ثم الأطماع الأوربية في هذه المنطقة الحيوية، وأيًّا كان السبب في التدهور اللاحق، فإن من أبرز مظاهر هذا التدهور أن العالم العربي قد أغلق على نفسه الأبواب في عصور انحلاله، وتصور أنه يستطيع الاكتفاء بذكرى أمجاده الماضية، ونسي ذلك الدرس العظيم الذي قدمته له الحضارة الإسلامية، وهي في أَوَجِّ عظمتها، وأعني به أن التفاعل بين الثقافات هو الدافع الأول إلى تقدم العقل البشري، فلم يخجل المسلمون في عصرهم الذهبي من استيعاب علوم الثقافات الأخرى الأقدم منهم عهدًا، بل كان في ذلك نقطة انطلاق لهم إلى فهم العالم، ولم يخجل الأوروبيون من ترجمة أمهات الكتب الإسلامية وتدريسها بوصفها كتبًا مقررة في أعظم جامعاتهم خلال مطلع العصر الحديث»[2].

ومع هذا بقيت أوربا على ثقافتها العلمانية، وبقي المسلمون الأوائل على شريعتهم الإسلامية ولم

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، صـ ١٥٧ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) التفكير العلمي، د/ فؤاد زكريا، صـ ١٥٧، ١٥٨، مرجع سابق.

يعطلوا شيئاً من أحكامها وحدودها.. لأن التفاعل بين الثقافات لا يعنى الذوبان فيها والتخلى عن العقيدة والأصول والثوابت التى تتميز بها أمة الإسلام؛ لأن أهمية الإصلاح الاجتماعي لا تكمن في كونه ضرورة حياتية تفرضها الظروف والاحتياجات الإنسانية وحسب.. إنما تكمن أهمية هذا الإصلاح في كونه عقيدة إيمانية وفريضة شرعية يترتب عليها ثواب وعقاب.

والذي أومن به أن الإصلاح الاجتماعي والاعتناء به لا يتأتى أو يتحقق بالتمني أو محاكاة الغير، أو ترجمة الكتب وحسب.. إنما يتحقق – مع ذلك أوقبل ذلك- بالإيمان الصادق برسالة الإنسان في الأرض ومسئوليته أمام الله وأمام الناس، مع العمل الدءوب والأخذ بالأسباب.

رابعًا: الفرق بين الإصلاح الاجتماعي والثورة الاجتماعية:

تحدثت في بداية هذا الفصل عن تعريف الإصلاح الاجتماعي لغة واصطلاحًا، وذكرت عددًا من تعريفات علماء اللغة والاجتماع والآن أفرق بين الإصلاح الاجتماعي والثورة الاجتماعية.

١ـ الإصلاح الاجتماعي:

الإصلاح الاجتماعي هو الذي يقوم على محاولات تحسين الأوضاع والأحوال الاجتماعية داخل النسق الاجتماعي دون إحداث تغيير في الطابع الأساسي الذي يتميز به هذا النسق، فهو تعديل يحتاج إلى زمن، وإلى تدرج وإلى إقناع وعلم وعلماء وخبراء، مع وضع خطط منهجية مدروسة، قد تصل إلى بعض أهدافها في الوقت الحاضروقد تصل إلى جميع أهدافها على الأمد البعيد فالإصلاح الاجتماعي هو"تعديل غير جذري في النظام السياسي والاجتماعي القائم، وهو أشبه بالدعائم التي تحول دون انهيار المبني، إذن الإصلاح الاجتماعي هو تغير تدريجي جزئي سلمي» [(١)].

والإصلاح الاجتماعي بهذا المفهوم، هو عمل مدروس ومحسوب ومُمَنهج توضع خطته بعناية، ورعاية يقوم عليها علماء وخبراء، وهو لون من ألوان الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يجب أن تراعى فيه وفي كل خطواته وفاعلياته آداب وضوابط الإسلام.

٢ـ الثورة الاجتماعية.

تختلف الثورة الاجتماعية عن الإصلاح الاجتماعي، فهي أشمل وأوسع وأكبر وأسرع في الأداء والفاعليات والحركة من الإصلاح، وهي بمعناها الواسع تغطي أشكالا عديدة في وقت واحد لاستخدام

(١) للمزيد انظر كتاب الإصلاح السياسي والتطور الديمقراطي في مصر رؤية مستقبلية، محمد سعيد فرج، تحرير: محمد ياسر الخواجة، كلية الآداب، جامعة طنطا، مارس ٢٠٠٦م.

القوة والتغيير الفوري والجذري، وهي تهدف إلى التغيير الفجائي في المجتمع والإطاحة بمَن يقف في طريقها، سواء أكان نظامًا معينًا، أو حكومة ما، ولو أدى ذلك إلى الخروج عن القانون والشرعية القائمة.

وإن لم تنجح الثورة الاجتماعية يطلق عليها (تمرد أو عصيان أو انتفاضة)(١) .

والثورة الاجتماعية بهذا المفهوم، وهذه الشمولية، تعني المشاركة الشعبية الواسعة التي قد تصل في الغضب والاحتجاج إلى درجة المواجهة المسلحة، وممارسة العنف مع النظام القائم ناهيك (٢) بالألفاظ والكلمات والشعارات التي تردد، والدماء التي تسفك، والأعراض التي قد تنتهك، والخروج على القانون، الأمر الذي يوجب على العلماء وأهل الاختصاص، أن يبينوا للناس ما يجب عليهم في مثل هذه الظروف، إذ إن الفساد الاجتماعي- وإن كان من الخطورة بمكان- إلا أنه لا يعطي للمجتمع المبرر الكافي للمواجهة الدموية، والخروج على ولي الأمر(الشرعي)(٣) فهذه مسائل خطيرة لا يستوعبها، أو يقضي فيها، أو يدعو إليها إلا أهل الاختصاص، والخبرة من العلماء والحكماء، لا يجوز أن تترك لعوام الناس؛ لأن الثورة الاجتماعية تكون غالبًا من الطبقة الوسطى والدنيا في المجتمع، نتيجة لضغوط الحياة فهي ردةُ فعل غاضبة،

---

(١) للمزيد انظر كتاب علم الاجتماع السياسي: المفاهيم والقضايا، الفصل السادس بعنوان/ الثورة والعنف، مرجع سابق، وكتاب علم الاجتماع السياسي قضايا العنف السياسي والثورة المؤلف/ شعبان الطاهر الأسود القاهرة الدار المصرية اللبنانية، سنة ٢٠٠٣م، صـ٤٦، ٤٧ .

(٢) المشهور ناهيك عن .. وهو تعبير غير دقيق؛ لأن النهى عن الشئ يعنى المنع عن فعله.. ويأتى في كتب اللغة بمعنى الكف والزجر والتحريم .. والأصوب و الأدق ناهيك بـ.. أي أبلغ معك نهاية الأمر وحجته ومنتهاه، فلا تطلب حجة أخرى. هذا ما فهمته من كتب اللغة العربية ودلالاتها، ففي كتاب/ لسان العرب (النهي عن الشئ الكف عنه.. وتناهو عن الأمر وعن المنكر نهى بعضهم بعضا ومنه﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة:٧٩] وفى قولهم ناهيك بفلان معناه كافيك به، ورجل ناهيك من رجل أى حسبك منه، وتأويله أَنَّه بجدَّه وغَنَائه يَنْهَاك عن تَطَلُّبِ غيره) انظرصـ ٧٢٦ وما بعدها جـ ٨ مادة (ن هـ ى) ط/ دار الحديث ، ٢٠١٣م. وانظر المعجم الوسيط صـ ٩٥٩ ، مرجع سابق قال: نهى الله عن كذا (حرمه) ونهى عن الشئ زجر عنه، ومنه التناهى أي بلوغ نهاية الأمر أى غايته ومنتهاه. وللمزيد انظر مختار الصحاح صـ٦٨٣ مرجع سابق ، وانظر المواقع الالكترونية ومنها موقع: الاقتصادية بعنوان/ ناهيك بكذا أو من كذا لا ناهيك عن كذا، وفيه: كثيرًا ما نسمعهم يقولون: ناهيك عن كذا، وناهِيك عن زيدٍ - بإتباع (ناهيك)حرف الجر (عن) وهذا خطأ، والصواب: ناهيك بكذا، وناهيك بزيد أو من زيد - أي بإتباع (ناهيك) حرف الجرّ (الباء) أو(من) والمعنى علاوةً على - تقال تعجّباً واستعظاماً ففي المعاجم اللغويَّة أنَّ (ناهيك) كلمة تعجّب واستعظام، وأنها تستعمل مع (الباء) أو مع (مِنْ) هكذا نطقت العرب وأشار إلى استعمالها مع الباء المصباح المنير إذْ جاء فيه: و(ناهيك بزيدٍ فارساً :(كلمة تعجّب واستعظام، قال ابن فارس: هي كما يقال حسبك وتأويلها أنَّه غاية تنهاك عن طلب غيره انتهى. للمزيد انظر : www.aleqt.com/٢٠١٠/٠٢/١٧/article_٣٥٠٩٦٧.htm

(٣) هناك فارق بين الخروج (المسلح) على ولي الأمر الشرعى الذى لم يقع فى كفر بواح، فيه من الله برهان، وبين القيام إلى الحاكم، لنصحه ومراجعته وتصويب خطئه.. أو سحب الثقة منه بالطرق المشروعة والمعترف بها عالميًا، فالأول ممنوع والثاني مشروع، انظر كتاب بيان للناس من الأزهر الشريف صـ٢١٤ وما بعدها تحت عنوان/ واجب الشعب عند ظلم الأمير، جـ/ ١، ط/ وزارة الأوقاف ١٩٩٢م.

وثائرةٌ تريد التغيير الجذري والفوري بصرف النظر عن سنن التدرج في التغيير أو الإمكانات والقدرات المتاحة، ولعل من يرى الثوار ومظاهراتهم وشعاراتهم يعرف حقيقة الفرق بين الإصلاح الاجتماعي، والثورة الاجتماعية، فلا يثوروا إلا «عندما يمرون بأزمة، ولا يجدون ما يَقْتَاتُونَ به، وفي بعض الأحيان كان بعض الأمراء يعتمد عليهم في استخدامهم وسيلة للشغب والثورة ضد أمير آخر نظير أجر معلوم»(١).

والجدير بالذكر أن المجتمع فيه مجرمون ومنحرفون وانتهازيون، وحالمون وواقعيون.. يظهرون بقوة في جو الثورات (والثورات الاجتماعية خاصة)، وجُلُّ هؤلاء لا يعنيهم الإصلاح بقدر ما تعنيهم مصالحهم والتي يريدون الوصول إليها، ولو بارتكاب الجريمة.

والإصلاح الاجتماعي يبدأ بالقاعدة العريضة من البشر، وأنه لا مكان لليأس والقنوط وتسلل الروح الانهزامية.

ومن خلال ماسبق يتبين أن ثمة فوارق بين الإصلاح الاجتماعي والثورة الاجتماعية، وأن الأول أسبق من الثاني ويأخذ طابع الهدوء والتدرج للوصول إلى الأهداف الإصلاحية على الأمد البعيد، وأن الثورة لا تأتي من تلقاء نفسها.. وإنما هناك مقدمات وأسباب تنشئها وتغذيها ومن أخطر هذه الأسباب، قلة الدخل، والتضييق على الحريات، فالثائر يستهدف تغيير النظام القائم تغييرًا جذريًّا، أو حمله على الإصلاح الفوري.

خامسًا: علاقة الإصلاح الاجتماعي ببعض الإصلاحات الأخرى:

الإصلاح الاجتماعي يبدأ بإصلاح الفرد، ثم الأسرة ثم المجتمع ثم نظم الدولة وقوانينها ومؤسساتها.. فهو بهذا الشمول ليس بالشيء الهين أواليسير؛ إذ لا يقوى عليه إنسان ولو كان ملكًا أو رئيسًا، ولا تقوى عليه جماعة مهما بلغت من العدد والعدة، ولا حكومة مهما كان صدقها وعزيمتها، لذا أقول:لابدّ وأن تتضافر جهود جميع أبناء المجتمع حكومة وشعبًا، وأفرادًا وجماعات، وعلماء ووجهاء، وأغنياء وفقراء، وكبار وصغار، ورجال ونساء.. وجميع المؤسسات والهيئات، والمنظمات والمدارس والجامعات..

الكل مَعْنِيٌّ ومطالب بأن يَضطلِعَ بمسئولياته، ويسهم بقدر ما يستطيع في عملية الإصلاح المنشود، لذا نُقِرُّ أن الإصلاح الاجتماعي لا يتأتى إلا بإصلاحات أخرى، لها علاقة وثيقة به ومن أهمها ما يلي:

١ـ إصلاح التعليم:

---

(١) المجتمع المصري، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب جامعة القاهرة، ومراجعة أ.د/ محمد حمدي إبراهيم، صـ٢٢٢، سنة٢٠٠٥م.

التعليم هو القاطرة التي تقود المجتمع، ولا صلاح لأمة لا تهتم بالتعليم والبحث العلمي. وعن التعليم وعلاقته بإصلاح المجتمع يقول د/ فؤاد زكريا: «وحقيقة الأمر أن الكشف العلمي يحتاج إلى تضافرالعاملين معًا: حاجة اجتماعية، عبقرية ذهنية، وكل ما في الأمر أنه عندما تتوفر الحاجة الاجتماعية، لا يكون من الصعب ظهور العبقرية الذهنية.. في ضوء ذلك، يستطيع القارئ أن يستنتج أن البحث في الوضع الاجتماعي للعلم المعاصر، ينبغي أن يسير في كلا الاتجاهين، فليس يكفي أن نشير إلى أهمية العلم في مجتمعنا الحالي، وإنما ينبغي أن نؤكد أيضًا أهمية هذا المجتمع الحالي، بما فيه من سمات مميزة، في تحديد معالم العلم المعاصر، وإعطائه طابعه الذي أصبح مألوفًا لدينا» [1].

وحتى يجتمع أبناء المجتمع ولا يتفرقوا لا بدمن وضع صطلحات واضحة ومبينة للأمور المستجدة، كما كان المسلمون الأوائل يفعلون، فمثلاً لذلك جمعهم للقرآن الكريم، وتدوين القراءات الصحيحة المتواترة، ووضع ضوابط للغة وقواعد الفقه، ومصطلح الحديث.. فمن الأهمية بمكان أن يضع العلماء قواعد للإصلاح العلمي، فإنه ـ في هذا العصر ـ ليس أقل شأنًا من اللغة، والفقة والأخلاق لأن «غاية التربية والتعليم في كل بلد إنجاز أحسن الطرق لتكوين الإنسان المثالي في نظر ذلك المجتمع، وإعداد الجيل وتأهيله من النواحي العلمية، والعملية، والخلقية: التأهيل الذي يجعله يسد حاجات المجتمع، ويحقق أهدافه ومثله العليا» [2].

٢ـ إصلاح الخطاب الديني :

الخطاب الديني كُلّه تربية، وبعضه تعليم، وقد ارتفعت الأصوات تنادى بإصلاح وتطوير الخطاب الديني والمؤسسات الدينية، وهذه مسألة صارت معلومة ومشهورة، وقد نادى بها علماء ومصلحون[3] وأُلفت فيها أبحاث وكتب[4] ومعلوم أن اصلاح الخطاب الدينى يعنى رفع مستوى الخطباء والوعاظ علميا وفكريا، وفى ذلك صلاح كبير للمجتمع، لذا أُحب أن أُقدم أهم النِّقاط التى أَودّ أن يتفق عليها كل من له رغبة صادقة فى الإصلاح الدينى :

١ ـ الإقرار بأن الدعاة بشر يخطئون، ويصوب لهم علماء مثلهم أكثر منهم علمًا وخبرةً.

---

(١) التفكير العلمي، صـ٢٠٨وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، محمد المبارك صـ ١٥٤ ط/ دار الفكر بيروت ط/ ٢، ١٩٧٠م.

(٣) كالإمام محمد عبده، وأ/ جمال الدين الأفغانى، وأ/ رشيد رضا، ود/ محمود حمدى زقزوق، وزير الأوقاف الأسبق، الذى تبنى هذه الفكرة وجعلها شغله الشاغل، فلا تخلو مناسبة إلا وهو يذكرها ويؤكد عليها.

(٤) ككتاب/ الإصلاح الديني في القرن العشرين أ.د/ محمد عمارة ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وكتاب الإصلاح الإسلامى المعاصر أ.د/ عبد الحميد أحمد أبو سليمان ط/ دارالسلام، وكتاب تجديد الخطاب الدينى د/ السعيد محمد على ط/ وزارة الأوقاف.

٢ ـ الإقرار بأن الإصلاح الدينى يكون بدافع النصيحة، لا كرد فعل لموقف سياسي.

٣ ـ الإقرار بأن ثمة إخفاقًا واضحًا يظهر من (بعض) الدعاة يجب معالجته.

٤ـ الرغبة الصادقة فى إصلاح الذات، وتزويدها بالمعارف والخبرات.

٥ ـ صدق النية والإرادة السياسية (لدى المسئولين) عن الإصلاح.

٦ ـ التدريب المستمر للدعا، وصقل مواهبهم وتشجيعهم والدفاع عنهم.

٧ـ اختيار الرؤساء والمسئولين على أساس الكفاءة والقدرة الحقيقية للقيام بالمهام.

٨ ـ الإصلاح الدينى لا يعنى التنازل عن الثوابت محل الإجماع، أو الرأى الراجح المؤيد بالدليل، وإنما يعنى النظر فى الوسائل التى تأخذ حكم المقاصد.

٣ـ إصلاح الإعلام:

إصلاح الإعلام لا ينقص ولا يقل في الأهمية عن إصلاح التعليم، ولعل المطالبات المتكررة والتى تنادى بإصلاح الإعلام والتى ظهرت بقوة بعد ٢٥يناير ٢٠١١م، وما قام به الإعلام من تضليل وإثارة الرأى العام.. كل ذلك يؤكد ضرورة إصلاح الإعلام، سواء أكان هذا الإعلام مقروءًا أم مسموعًا أم مرئيًا عامًا أو خاصًا. ولا يخفى على أحد ما للإعلام من تأثير وأهمية فى الحاضر والمستقبل.

ومع أننا نسمع مرارًا وتكرارًا ضرورة وضع ميثاق شرف إعلامي، وخرج علينا من يَعِدُ بوضع هذا الميثاق على رأس أولويات الإصلاح المستقبلي للبلاد، ومع شدة الأسف لا يزال الإعلام ـ في بلادي ـ يعمل وفق سيرته الأولى، مع أن هذا الميثاق لا يحتاج إلى مال أو وقت، وإنما يحتاج إلى قرار صادق، وقانون حازم يحرسه، ولا يتم ذلك إلا فى وضعٍ سياسيٍ صالح، وهذا ما ننشده ونرجوه.

٤ـ الإصلاح السياسي:

الإصلاح السياسي يبدأ بثقة متبادلة بين الساسة والحكام ـ من جهة ـ وبين عامة الشعب ـ من جهة أخرى ـ ولا يتأتَّى ذلك إلا بإصلاح حقيقي للسياسة القائمة وما يتصل بها من مفاهيم وعلوم ومناهج وسلوكيات.

وليكن أول خطوات هذا الإصلاح الحرية المنضبطة الهادفة والبناءة، والمعبرة عن الرغبة الصادقة في التعاون لصالح المجتمع؛ لأن الحرية "تعني حق الإنسان في ولاية الوظائف الإدارية في الدولة إذا كان كفئًا لها، وهي تعني كذلك حقه في إبداء رأيه في سير الأمور العامة، وهي بشقيها تعني أن الحكم وسيلة لخدمة

المجتمع.. لاوسيلة للسيطرة عليه.. أى أن الحاكم خادم للأمة فى تحقيق مصالحها وأمالها، والإسلام لا يتصور حُكماً يسير على منهجه.. يحيد عن هذه الحرية بشقيها قيد أنملة.. ذلك أن الإسلام يعتبر الخلافة الصحيحة ما كانت نتيجة لإنتخاب حر وبيعة عامة للأكفأ والأجدر بتولى هذا المنصب الخطير » [(١)].

وبهذه الحرية يضمن الفرد كرامته، ويبدي رأيه دون خوف أو عقاب، ودون تجريح أو سباب ويعلم كل إنسان في المجتمع أن هناك من يراقب ويحاسب ويعاتب ويعاقب.. وهذا يمهد للإصلاح عمومًا والإصلاح الاجتماعي خصوصًا.

يقول الشيخ الغزالي: «..رأيي أن الاستبداد السياسي من أول أسباب الشلل الفكري عند المسلمين، إنه ليس هينًا أن يسير الإنسان في الطريق خائفًا يترقب، فقد تهوي عصا على أم رأسه تودي بحياته، أو تناله صفعة على قفاه تودي بكرامته، أو يؤخذ بتلابيبه فيرمى في السجن لا يدري شيئًا عن أهله وولده !!

إن الحاجة إلى الاستقرار النفسي كالحاجة إلى القوت، وكان الخليل إبراهيم عليه السلام يقدر حقوق الإنسان الأدبية والمادية معًا عندما جَأَرَ قُبَيْل إنشاء مكة﴿ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٢٦] .والجندي المأمور يضرب الناس لا يبالي أن يسحق تحت حذائه أكبر مخ في العالمين؛ لأنه لا يميز بين مخ ومخ، ولا يدري إلا أنه مكلف بالضرب، إنه آلة بشرية في يد جبار..

وعندما يصف القرآن الكريم سياسة الفراعنة، يسلك الآمر والمأمور في نظام واحد: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص: ٨] قد يضفى على الجميع الطابع العسكري القاسي:﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴾[البروج:١٧-٢٠]

المستبد لا يرى إلا نفسه ولا يبصر إلا مصلحته، ولا يقرب منه إلا من يتملقه ويترضاه.

في هذا الجو الكالح من الزلفى والاستعلاء تموت المواهب النفسية، فإذا انضم إلى الاستبداد الأعمى تضييق في الرزق، وأضحى المال عطاء يمر من بين أصابع الفرد الحاكم، فهو يقبض ويبسط، فعفاء على الأخلاق والذمم... »[(٢)].

لذا يجب ألا ننتظر الإصلاح السياسي، أو أي إصلاح يجيء من تلقاء نفسه ـ هذا ما حدث ولن يحدث ـ لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلابد وأن يتغير الناس من الجهل بحقوقهم وحقوق

---

(١) من حصاد الفكر الدعوي: الحقوق الإنسانية بين الشريعة الإسلامية والشرعية الدولية، د/ محمد المختار محمد المهدي، صـ ٣٨، ط/ دار الاعتصام، سنة ٢٠٠٠م.

(٢) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، للشيخ/ محمد الغزالي، صـ ٤٠، ٤١ ، ط/ نهضة مصر للطباعة والنشر، ط/ ٩، سنة ٢٠٠٨م.

غيرهم إلى العلم بها، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الكسل إلى النشاط، ومن الفوضى إلى النظام والتعاون وأدب الحوار، ومن الانطواء على النفس إلى العمل الجماعي المفيد، ومن الخوف أو الحماقة إلى الشجاعة الأدبية، ومن الاستخفاف بعقول الناس وحرياتهم إلى احترامها وتقييمها والإيمان بحقها في الوجود.

وهذا كله ينبغي أن يتم في إطار الشرع والدستور والقانون.

٥ـ إصلاح الاقتصاد:

المال عماد الحياة وقوامها ولذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾[النساء:٥] ولقد حرم الإسلام كل أنواع الكسب الحرام وحث على العمل والإنتاج.

ولعلنا نجد جميع الدول ـ تقريبًا ـ تضع البرامج والقوانين، التي تهدف إلى إصلاح الاقتصاد، وسوق المال؛ لأن الاقتصاد يرتبط بالسياسة ارتباطا وثيقا، والمسئولين عن السياسة في البلاد هم أقدر الناس على وضع برامج الإصلاح الاقتصادي.

يقول الشيخ/ محمد الغزالي: «من الصعب فصل الاقتصاد عن السياسة، ومن هنا فإنك حيث تجد الخلل السياسي تجد الإثراء الحرام، واستغلال السلطة إلى أبعد الآماد، وسوق المغانم إلى الأقارب والأتباع والحواشي.. وأرى أن طهارة الربح أصل عظيم لإصلاح المجتمع، وأن مصادرة الأملاك التي سرقت من حقوق الآخرين تعيد إلى النفوس والأوضاع قدرًا كبيرًا من الاستقرار والتوازن»[(١)].

٦ـ إصلاح القضاء:

هناك حقائق لابد أن تُعرف، منها أن القضاة في الزمن الماضي كانوا يتخرجون في الكليات الشرعية والمعاهد الدينية، وكانوا يحفظون القرآن الكريم جيدًا، ويعرفون الكثير من سُنّة رسول الله ﷺ، فضلاً عن الفقه الإسلامي وأصوله، ونقاط الاتفاق والاختلاف، والراجح والمرجوح، والثوابت والمتغيرات في المسائل، والمسائل الخاضعة للاجتهاد.. وكان جلهم يُسند إليه منصب القضاء وهو كاره له.. لا يقبله إلا بعد إلحاح وتزكية من العلماء وتكليف من وليّ الأمر..[(٢)] والحق إن الوضع قد تغير كثيرًا في العصر الحديث، وذلك لاعتبارات وأهداف وأسباب معلومة للجميع، لقد صار واضحًا أن طلب التعيين فى القضاء، وبذل المال والجهد للوصول إليه معلومًا لا يخفى.. الأمر الذي جعل كثيرًا من أبناء المجتمع،

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، صـ ٣٠٢ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية، د/ عبد الرحمن محمد بدوي، صـ٢٢، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٥م.

فضلاً عن علماء الشريعة والقانون يطالبون علانية بإصلاح القضاء، وإعادة النظر فى المناهج والوسائل التي تتصل باختيار القضاة، وإعدادهم ومناهج تعليمهم، وطول أمد التقاضي، وضرورة العدالة الناجزة.(١)

وأود هنا أن أقول: لابد من اختيار الأكفاء وأهل التقوى، وتدريبهم ـ قبل ممارسة العمل ـ على فنون القضاء وأبعاده المختلفة، وتحرى العدل وأهمية الحكم بما أنزل الله، وهذا يتطلب حفظ كتاب الله ﷻ أو ـ على الأقل ـ دراسة الآيات والأحاديث التي تتعلق بالأحكام القضائية كالحدود والقصاص وما ورد في سنة رسول الله ﷺ من تعليم، وما كتب في السياسة الشرعية ، مع دراسة تاريخ القضاء عبر عصور الإسلام وأحوال القضاة الأوائل، ومواقفهم المشرفة في القضاء.

٧ـ السلطة التنفيذية:

هذا الذي ذكرته عن ضرورة إصلاح القضاء، والسبل الموصلة إلى هذا الإصلاح، هو هو ما أذكره عن إصلاح السلطة التنفيذية، كل فى موقعه وبالكيفية التى تناسب مهام عمله، بدءًا بجندي الدّرَك، والخدمة الليلية، ومرورًا بالضابط والقائد، وانتهاءً بالوزير والرئيس...لأن إصلاح هذه الجهات (بالذات) صلاح لكثير من مظاهر الفساد في المجتمع كالرشوة والظلم والقهر والبيروقراطية (الروتين) الذي وقف ولا يزال يقف في طريق كثير من الإصلاحات الاجتماعية والأخلاقية فلا عيب ولا حرام أن نقبل من العلماء النصح الجميل، قال رسول الله ﷺ:(الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) (٢).

ولقد كان الأمير والخليفة يحب أن يسمع جملة (أصلحك الله أيها الأمير، هداك الله أيها القائد..) ويتقبلها بقبول حسن، بل ربما طلبها بنفسه من أهل التقوى والصلاح، ويقبل من العلماء العتاب والمراجعة والنقد، وما هو أشد من ذلك.

وبالجملة: فالإصلاح الاجتماعي الصحيح يتطلب منهجًا شاملًا وكاملًا ومتكاملًا، تراعي فيه كل مناحي الحياة، وما يؤثر فيها من قريب أو بعيد سواء أكان هذا المؤثر من الأفراد أو الجماعات أو الأحزاب أو الهيئات والمؤسسات أو قوانين الدولة، وحتى ينضبط الفكر والسلوك والأحكام، وتترتب الأمور وفق

---

(١) للمزيد انظر ما نقله فراج إسماعيل عن جريدة (المصريون) وانظر المختار الإسلامي عدد ٣٧١ السنة ٣٤/ ١٤٣٤هـ/ ١١ مايو ٢٠١٣م، صـ ٨٦،٨٧ في المجلة، ففي هذه المصادر العديد من المعلومات المتعلقة بأحوال القضاء في مصر، وما يحتاج إليه من إصلاح...

(٢) رواه مسلم في صحيحه، من حديث أبى رقية تميم بن أوس الداري ﷺ كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة برقم(٩٥/ ٥٥)، صـ٢٥، ط/ دار الرواد للإعلام والنشر، المكتبة الإسلامية القاهرة ط/ ١، سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

أهميتها واهتمامها ودرجة خطورتها وتأثيرها على القيم والأخلاق والحق والعدل والمبادئ والثوابت لابد من إصلاح شامل وكامل للتعليم والإعلام والسياسة والاقتصاد والقانون والقضاء والدعاة والحكام، وذلك بوضع البرامج والمناهج التي نختار بموجَبها الأكفاء، والعمل على تدريبهم بأحدث الوسائل ودعمهم كلٌ وفق تخصصه وما يحتاجه عمله.

وبما أن دراستي هذه تدور بين (شخصيتين) من الشخصيات التي كتبت عن الإصلاح الاجتماعي، أحب أن أقدم ترجمة واضحة لكل من الرجلين ليتبين من خلالها مدى أهلية ومؤهلات كلٍّ منهما وقدراته ورؤيته فى عملية الإصلاح الاجتماعى موضوع البحث.

وهذا ما سأذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في الصفحات التالية

سادسًا: ترجمة مختصرة لكل من الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي:

أشرت فى المقدمة إلى سبب اختيارى لهاتين الشخصيتين، ومدى اهتمامهما بموضوع الإصلاح الاجتماعى، والذي شجعني على هذا الاختيار ـ الذي أرجو الله ﷻ أن أكون قد وفقت فيه إلى الصواب ـ أمران هما:

الأول: معاصرة الدكتور/ فؤاد زكريا للشيخ/ محمد الغزالي، حيث وُجِدا في عصر واحد، وعاصرا معًا المملكة والجمهورية، والثوراتِ السياسيةَ والتقلباتِ الاجتماعيةَ، وما رافق ذلك من قوانين تتعلق بالإصلاح الاجتماعي، وكان لكل منهما كتاباتٌ وتعليقاتٌ في هذا المجال، بل ونقدٌ، وتفنيدٌ ونصائحٌ، وحلولٌ، وتوجيهاتٌ للأجيال القادمة.

الثاني: مكانة كل من الرجلين بين أصحابه وتلاميذه وأنصاره، فضلاً عما تركاه من تراث علمي وثقافي، لايزال يُطبع ويُروج له حتى هذه اللحظة، مع ما بينهما من اختلاف وتباين يظهر جليًّا في كتابات كل منهما ـ وهذا سيأتي بالتفصيل لاحقًا إن شاء الله ـ لكن أشير هنا إلى الشعار الذي كان يرفعه كل منهما الدكتور/ فؤاد زكريا (العلمانية هي الحل) مقابل شعار (الإسلام هو الحل) الذى كان يتبناه الشيخ الغزالى، ولنتعرف أكثر على الشخصيتين [1] من خلال الترجمة الآتية:

١ـ الدكتور/ فؤاد زكريا (١٩٢٧ – ٢٠١٠ م):

« وُلد الدكتور/ فؤاد زكريا في اليوم الأول من شهر ديسمبر عام ١٩٢٧م بمدينة بورسعيد، وقضى ثلاث سنوات بالمدرسة الأولية بالعباسية بالقاهرة، ثم التحق بالتعليم الابتدائي عام ١٩٤٠م وقضى فترة التعليم الثانوي، حيث حصل على شهادة الثقافة عام ١٩٤٤م والشهادة التوجيهية عام ١٩٤٥م (القسم الأدبي)، وقد تخرج في قسم الفلسفة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة عام ١٩٤٩م (القسم الأدبي) بعد أربع سنوات من دخوله الجامعة، إذ إنه التحق بالجامعة عام ١٩٤٥م ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٥٢م والدكتوراه عام ١٩٥٦م فى الفلسفة من جامعة عين شمس.

وقد تلقى محاضرات الفلسفة وعلم النفس على يد كبار الأساتذة في مصر في تلك الفترة، لقد تتلمذ على أيديهم سواء بطريقة مباشرة ـ أي عن طريق محاضراتهم ـ أو بطريقة غير مباشرة ـ أي عن طريق كتبهم ومؤلفاتهم ـ ومن أشهر عباراته (الغزو الثقافى الغربى خرافة لا وجود لها) و(العلمانية هى الحل) و(المعرفة العلمية من ضرورات الثقافة والحضارة لدى كل شعب) وعبارات كثيرة أطلقها د/ فؤاد زكريا، كانت

---

(١) رغم أن مشاهير العلماء لا يحتاجون إلى تعريف؛ لكثرة كتبهم وكتاباتهم وجهدهم وتلاميذهم ومَن كتبوا عنهم.. إلا أن الحاجة في مثل هذه الدراسة توجب على الباحث أن يكتب نبذة مختصرة عن مَن يكتب عنه، كي يتعرف عليه مَن لا يعرفه.

تشكل منطلقه الفلسفي النقدي الذى قدم من خلاله العديد من الأعمال الفلسفية والفكرية المؤلفة والمترجمة، بالإضافة إلى مقالات ودراسات في الصحف والمجلات، تتصل بمشاكل فكرية واجتماعية، فضلًا عن نقده السائد في الفكر العربي والواقع المصري.» [١].

مناصبه:

« تدرج الدكتور فؤاد زكريا بعد حصوله على درجة الماجستير في الوظائف العلمية، لقد عمل مدرسًا مساعدًا حتى عام ١٩٤٧م ومدرسًا منذ عام ١٩٥٧م وسافر بعد ذلك مباشرة إلى (نيويورك) للعمل بالأمم المتحدة، وبقي هناك حتى عام ١٩٦٢م وفي هذا العام تم تعيينه أستاذًا مساعدًا، ثم أصبح أستاذًا لكرسي الفلسفة بجامعة عين شمس عام ١٩٧٠م وكان قبل هذا التاريخ قد تولى رئاسة قسم الفلسفة، وذلك منذ عام ١٩٦٧م ، ثم عمل مستشارًا للشُعْبَة القومية لـ (اليونسكو) لشئون العلوم الاجتماعية والثقافية، ومَثّل مصر مرات عدة في المؤتمرات العامة (لليونسكو)، بالإضافة إلى العديد من المؤتمرات الفلسفية والثقافية، وعمل أستاذًا للفلسفة ورئيسًا لقسمها في جامعة الكويت (١٩٧٤ـ ١٩٩١م).

ترأس تحرير مجلتى (الفكر المعاصر) و(تراث الإنسانية) في مصر، وعمل مستشارًا لشئون الثقافة والعلوم الإنسانية في اللجنة الوطنية لليونسكو بالقاهرة، وتولى منصب مستشار تحرير سلسلة عالم المعرفة الكويتية، وكان أيضًا من مؤسسيها.

معاركه:

لقد عدّه البعض العدو الأول للتيارات الدينية خصوصًا أنّه كان يرفع دائمًا شعار (العلمانية هى الحل) مقابل شعار التيارات الدينية (الإسلام هو الحل)، وكذلك (تفنيده) لآراء (د/ حسن حنفى) التى كانت ترى أن موجة المستقبل في بلادنا هي ما يسميه بالأصولية الإسلامية. [٢]

أعماله:

قدم د/ فؤاد زكريا للمكتبة العربية العديد من الأعمال الفلسفية والفكرية المؤلفة والمترجمة، بالإضافة إلى مقالات ودراسات في الصحف والمجلات تتصل بمشاكل فكرية واجتماعية، ونقده السائد في الفكر العربي، والواقع المصري.

مؤلفاته:

١ـ نيتشه:١٩٥٦م. ٢ـ نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان١٩٦٢م.

---

(١) موقع معرفة www.marefa.org/index.php.

(٢) سيأتى ذلك بالتفصيل فى الباب الثانى، الفصل الأول المبحث الثانى صـ ٢٢٠، وما بعدها.

٣ـ اسبينوزا.　　　　٤ـ الإنسان والحضارة.

٥ـ آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة، ١٩٧٥م.

٦ـ التفكير العلمى١٩٧٨م.　　　　٧ـ خطاب إلى العقل العربى ١٩٧٨م.

٨ـ الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة ١٩٨٦م.

٩ـ الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل ١٩٨٧م.

١٠ـ آفاق الفلسفة ١٩٨٨م.　　　　١١ـ الثقافة العربية، وأزمة الخليج ١٩٩١م.

١٢ – العرب والنموذج الأمريكي١٩٩١م.　　　　١٣ـ التعبير الموسيقي بدون تاريخ.

كتب ترجمها:

كان د/ فؤاد زكريا حين يترجم يختار أمهات الكتب مثل :(الجمهورية) لـ(أفلاطون) و(الفن والمجتمع عبر التاريخ) لـ(هاوزر) و(النقد الفنى) لـ(جيروم ستولينـتيز) و(الفيلسوف وفن الموسيقى) لـ(بروتنوي).

ومن ترجماته:

١ـ المنطق وفلسفة العلوم (جزءان) ١٩٦٢م.　　٢ـ الفلسفة الإنجليزية فى مائة عام ١٩٦٣م.

٣ـ رايشنباخ : نشأة الفلسفة العلمية.　　　　٤ـ ماركيز : العقل والثورة ١٩٧٠م.

٥ـ أرنولد هاوزر : الفن والمجتمع عبر التاريخ (جزءان) ١٩٧٣م.

٦ـ برتراند رسل : حكمة الغرب، سلسلة عالم المعرفة.

هذا بجانب عدد من المناظرات المطبوعة والمقالات في الصحف والمجلات.

يقول أنصاره وتلاميذه: إذا أردنا أن نكشف عن حلول لبعض مشكلاتنا السياسية، والاجتماعية، فلابد أن نضع في اعتبارنا عمق آراء د/ فؤاد زكريا، وحكمته الناضجة، وإننا لا يمكن أن نتخطى دوره في الإصلاح الفكري، والاجتماعي والسياسي بأي حال من الأحوال.[(١)]

أساتذة الدكتور/ فؤاد زكريا:

من الأساتذة الذين تلقى على أيديهــم العلم د/ زكي نجيب محمود، ود/ عثمان أمين، ود/ توفيق الطويل، ود/ يوسف مراد، ود/ عبدالرحمن بدوي، د/ محمد عبدالهادي أبو ريدة، د/ مصطفى حلمي، د/ أحمد فؤاد الأهواني، ومحمود الخضيري.

(١)موقع المصريون: http://www.almesryoon.com/news.aspx?id .

ولقد سئل عن أفضل الفلاسفة من وجهة نظره على مراحل تاريخ الفلسفة، فذكر من القدامى (هراقليطس) و(أفلاطون) ومن أفضلهم من المحدثين فى نظره (برتراند راسل)و(وجان بول سارتر) و(وسبينوزا).

و الدكتور (فؤاد زكريا) إذا كان قد تأثر بهؤلاء الفلاسفة والمفكرين الذين ذكرناهم، بالإضافة إلى إعجابه بـ(الجاحظ) و(طه حسين)، فإنه لم يرتضِ لنفسه موقف المؤيد تمامًا، بل موقف المعارض في بعض الأبعاد والمجالات، يقول عن نفسه: لم أتأثر بكتاب واحد أو بمجموعة من الكتب تأثرًا مباشرًا، وموقفي عند قراءة أي كتاب هو أن أستجمع قدراتي النقدية وأتخذ منه موقفًا استقلاليًا، ولا أستطيع بحكم تكويني الفكري أن أخضع نفسي لتأثير كتاب معين. قد تكون هذه خصلة سيئة، ولكن لابد أن أعترف بأن اتجاهي التلقائي نحو ما أقرأه من الكتب هو النقد وليس الخضوع والتأثر، ولذلك فإن معظم الكتب أثرت فيّ تأثيرًا سلبيًا لا إيجابيًا، بمعنى أنها حفزت ملكة النقد في ذهني ودفعتها إلى العمل [1].

أهم عناصر الإصلاح عند د/فؤاد زكريا:

يرفع د/ فؤاد شعار (العلمانية هي الحل) فهو يتبنى الفكر العلماني، ومن خلال كتبه ومَن كتبوا عنه يمكن لي أن ألخص أهم النقاط التي يرتكز عليها د/ فؤاد في الإصلاح وهي:

١- العقل والفكر الحر، الذي لا يرتبط بدين، ولا عرف، ولا تاريخ.
٢- البحث العلمي، القائم على التجربة والتحليل، والاستقراء والملاحظة.
٣- التجديد المستمر، وعدم التقيد بالموروث القديم مهما كانت درجة قدسيته.
٤- الإمكانات المتاحة للأفراد والدولة، وأهمها التعليم والإعلام.
٥- الترويح عن النفس بالفنون الجميلة والموسيقى[2].

وفاته: توفي د/ فؤاد زكريا غفر الله له في١١ مارس ٢٠١٠م / ٢٥ ربيع الأول ١٤٣١ هـ، عن عمر ناهز ٨٣ سنة .

---

(١) موقع المصريون: http://www.almesryoon.com/news.aspx?id .

(٢) الموقع السابق، وانظر كتاب التعبير الموسيقي للدكتور/ فؤاد زكريا، صـ٩ومابعدها الناشر:مكتبة مصر طـ١، طبعة/ دار مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ، وكتاب خطاب إلى العقل العربي، صـ٨٤ ومابعدها وصـ٩٤، ٩٥،١٨٥، ومابعدها، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٧م.

٢ـ ترجمة الشيخ / محمد الغزالي:

مولد الشيخ الغزالي ونشأته(١٩١٧-١٩٩٦م):

« ولد الشيخ محمد الغزالي أحمد السقا، في الخامس والعشرين من ذي الحجة، عام ألف وثلاثمائة وخمسة وثلاثين من الهجرة، الموافق الثاني والعشرين من شهر سبتمبر عام ألف وتسعمائة وسبع عشرة من الميلاد، في قرية (نكلا العنب) إحدى قرى مركز (إيتاي البارود) بمحافظة البحيرة» [١].

رحلته مع العلم:

بدأت رحلة العلم لدى الشيخ الغزالي من كُتّاب القرية، إذ تعلّم فيه الخط (القراءة والكتابة) والحساب، وأتم الله عليه نعمة حفظ القرآن الكريم في العاشرة من عمره.

وبعد أن أصبح الشيخ/ محمد الغزالي مؤهلاً للالتحاق بالأزهر الشريف بعد حفظه للقرآن الكريم، هاجر به أبوه من محافظة البحيرة التي كانت تخلو من أي معهد أزهري إلى محافظة الإسكندرية، والتحق بالمعهد الديني الأزهري بها وهو ابن العاشرة عام ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م وحصل منه على الشهادة الأزهرية بعد أربع سنوات، وبعد ثلاث سنوات أخرى حصل على شهادة الكفائة، ثم الثانوية الأزهرية، بعد سنتين عام ١٣٥٦هـ /١٩٣٧م كما التحق الشيخ بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، وتخرج فيها سنة١٣٦٠هـ الموافق ١٩٤١م.

الوظائف التي أسندت إليه:

لقد شغل الشيخ الغزالي عدة وظائف دينية، استثمرها في خدمة دعوته منها:

١ـ إمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية. ٢ـ مدير عام الإدارة العامة للتدريب بوزارة الأوقاف.

٣ـ مدير عام الدعوة والإرشاد بوزارة الأوقاف المصرية، عام ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٤ـ مستشار المساجد بجامعة أم القرى، عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٥ـ وكيل بوزارة الأوقاف لشئون الدعوة، عام ١٩٨١م.

٦ـ أستاذ بجامعة أم القرى، عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٧ـ أستاذ بجامعة قطر.

٨ـ رئيس المجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بالجزائر.

٩ـ المشرف العام على جامعة الأمير عبد القادر بالجزائر.

---

(١) الداعية الشهيد، الأستاذ/ عبد الله المصري، صـ ١١، ط/ دار الاعتصام، سنة ١٩٩٦م.

١٠ـ أمين أمناء الجامعة الإسلامية، بدولة باكستان[١].

"كما عمل الشيخ الغزالي رئيسًا لتحرير مجلة (نور الإسلام)، لمدة عامين من ١٩٤٦م، إلى ١٩٤٨م، التي كان يصدرها الأزهر، وكانت هذه المجلة تخص علماء الدعوة الإسلامية، أما عن

الكليات التي دَرَّسَ فيها في جامعة الأزهر:

١ـ دَرَّسَ مادة (النظم الإسلامية) بكلية أصول الدين بالقاهرة.

٢ـ درَّس مادة (المجتمع العربي) بكلية الشريعة.

٣ـ درَّس مادة (السيرة التحليلية) بكلية التربية.

٤ـ درَّس مادة (الحديث النبوي) بكلية الدراسات الإسلامية والعربية " [٢].

"كما شَرُفَتْ بعضويته العديد من المجامع العلمية الإسلامية .. مثل (مجمع البحوث الإسلامية) بالأزهر الشريف، و(المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية) بالأردن، و(المجلس العلمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، والهيئة الخيرية الإسلامية العالمية)... إلخ " [٣].

أهم الأوسمة التي حصل عليها:

"حصل الشيخ الغزالي على عدد من الأوسمة العلمية والتقديرية منها:

١ـ وسام الجمهورية من الطبقة الأولى، عام ١٩٨٨م.

٢ـ جائزة الملك فيصل العالمية، عام ١٩٨٩م.

٣ـ اختير لجائزة (كاتب العام) لعام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م لما تميز به نشاطه الفكري والعلمي، وهي جائزة تقدمها جريدة (الشرق الأوسط) بالسعودية، تحمل اسم (علي وعثمان حافظ).

٤ـ جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية، عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، من المجلس الأعلى للثقافة الإسلامية في مصر، وأعلنت النتيجة عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٥ـ وسام الجمهورية من الطبقة الأولى، عام ١٩٩٥م.

٦ـ أثناء إقامته بالجزائر حصل على أعلى وسام جزائري، سلمه له رئيس الدولة الأسبق (الشاذلي بن جديد) عن جهوده في تأسيس وإنشاء جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية" [٤].

---

(١) انظر رسالة الدكتوراه ـ غير المنشورة ـ المقدمة من الباحث/ محمد الصغير عبد الرحيم، في مكتبة كلية الدعوة الإسلامية، بعنوان (قضايا العقيدة في فكر الشيخ/ محمد الغزالي) صـ٢٥، وما بعدها، نقلاً عن م/ ضياء محمد الغزالي كتاب السيرة الذاتية للشيخ، بدون تاريخ.

(٢) الداعية الشهيد، للأستاذ عبد الله المصري، صـ٢٥، مرجع سابق.

(٣) حوارات الشيخ الغزالي، السيرة والمسيرة، صـ ١٢، تقديم: أ.د/ طه جابر العلواني، ط/ دار السلام، ط/ ١، سنة ٢٠١٢م.

(٤) الداعية الشهيد صـ ٣٤، بتصرف، مرجع سابق.

شيوخه:

تتلمذ على يد عدد كبير من العلماء، منهم الشيخ محمد يوسف مرسي، والشيخ محمد غلاب، كما تتلمذ على يد الشيخ البهي الخولي، والشيخ محمد المدني ـ رحمهم الله ـ وذكر في أحد مؤلفاته [١] تلمذته على يد الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ حسنين مخلوف ـ رحمهما الله ـ .

«وقد سأل الأستاذ محمد المجذوب الشيخ الغزالي عن الشخصيات التي تأثر بها في حياته العلمية والدعوية، فكان جوابه: تأثرت بالشيخ/ عبد العظيم الزرقاني الذي كان مدرسًا بكلية أصول الدين.. وفي معهد الإسكندرية الديني تأثرت بالشيخ/ إبراهيم الغرباوي، والشيخ عبد العزيز بلال.. وقد تأثرت – أيضًا – بالشيخ/ محمود شلتوت.

أما تأثري الأكبر فقد كان بالإمام الشهيد حسن البنا، وكان عالمًا بالدين كأفقه ما يكون علماء العقيدة، والشريعة » [٢].

يقول الغزالي عن نفسه: «المدرسة التي أعتبر نفسي رائدًا فيها، أو ممهدًا لها، تقوم على الاستفادة التامة من جميع الاتجاهات الفكرية والمذاهب الفقهية في التاريخ الإسلامي، كما ترى الاستفادة من كشوف الفلسفة الإنسانية في علوم النفس والاجتماع، والسياسة والاقتصاد، والتاريخ، ومزج هذا كله بالفقه الصحيح للكتاب والسّنة» [٣].

تلاميذه:

قضى الشيخ الغزالي مدة كبيرة من عمره، تصل إلى خمسين سنة ـ تقريبًا ـ يدعو فيها إلى الله ﷻ فقد كان عالمًا، ومربيًا، وخطيبًا بارعًا، ما ترك وسيلة من وسائل الدعوة ـ فيما أعلم ـ إلا واستخدمها رحمه الله مما يجعلني أعجز عن حصر جميع تلاميذه.

كما كان للشيخ الغزالي الآلآف.. من تلاميذ المساجد وروادها، ومن المحبين من طلبة العلم، في الجامعات والمدارس ، والذين لا يزالون يذكرونه بخير، ويقرءون له وينهلون من علمه.

ولقد درَّس الشيخ الغزالي في جامعة الأزهر، بكلية أصول الدين، في سنة ١٩٦٥م مادة (النظم الإسلامية) ومن تلاميذه، الأستاذ الدكتور/ عزت السروجي، والدكتور/ جمعة الخولي، والأول عمل

(١) انظر كتاب تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، صـ١٣٦، ط/ دار الشرق، ط٤، سنة ١٩٩٦م.

(٢) الشيخ الغزالي كما عرفته رحلة نصف قرن، د/ يوسف القرضاوي، صـ٣٢ بتصرف، ط/ دار الشروق، ط١ سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) خطب الشيخ الغزالي في شئون الدين والحياة، صـ ١٥ إعداد: قطب عبد الحميد قطب، مراجعة: د/ محمد عاشور، ط/ دار الاعتصام المجلد الأول، بدون تاريخ.

بالتدريس فى كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة والثانى عمل بالتدريس فى كلية أصول الدين كما درس الشيخ مادة الأخلاق في كلية التربية سنة ١٩٧٠م ومن تلاميذه الأستاذ الدكتور/ أحمد شحاته، الأستاذ بكلية الدعوة والذي ذكر أنه درس على يد الشيخ كتاب خلق المسلم علمًا وعملاً، ودرَّس أيضًا في جامعة أم القرى، ومن تلاميذه الشيخ/ عبد العزيز السالم ـ الأمين العام لمجلس الوزراء السعودي ـ والأستاذ/ إبراهيم الهوليمي.

أما فى الجزائر، فالشيخ صاحب فكرة جامعة الإمام عبد القادر، وله تلاميذه في قطر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية. ومن الكُتَّاب والصحفيين الذين تتلمذوا وتأثروا بالشيخ/ الغزالي أ/ فهمي هويدي الكاتب بجريدة الأهرام، ولعل الدكتور محمد عمارة أبرز تلاميذ الشيخ في هذا المجال[1].

إصلاحاته:

"الشيخ الغزالي، رجل دعوة في المقام الأول، وهو كذلك رجل من رجالات التجديد والإصلاح الذين شُغلوا بهموم المجتمع مِن حولهم، وما تعانيه أمتهم من اختلال في الأوضاع والأنظمة، ومن فساد في الأفكار والأخلاق، ومن عِوَج شمل المادِّيات والمعنويات، والأفراد والجماعات، فلم يسلم من هذا الاعوجاج الدين ولا السياسة، ولا الثقافة ولا الاقتصاد، ولا أي جانب من جوانب المجتمع. ولم يكن الشيخ الغزالي مصلحًا مصريًّا، وإن كانت مصر تأخذ الحظ الأول من تفكيره واهتمامه، ولا مصلحًا عربيًا، وإن كانت العروبة وعاء الإسلام، والعربية لسانه، والعرب جملة دعوته، ولكنه مصلح على مستوى الأمة الإسلامية كلها، من المحيط إلى المحيط"[2].

أهم عناصر الإصلاح عند الغزالي:

"الإصلاح الذي يؤمن به الغزالي، ويدعو إليه في كتبه ومقالاته وخطبه، يقوم على جملة عناصر:

١ـ تزكية الأنفس:

العنصر الأول في الإصلاح هو: الدعوة إلى تجديد الإيمان بالله ورسالاته، وتعميق اليقين بالدار الآخرة، وتزكية الأنفس وإصلاحها في ضوء هداية الوحي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩، ١٠] وهذا العنصر مقدم على كل عناصر الإصلاح.

٢ـ العدل الاجتماعي:

الدعوة إلى العدل الاجتمـاعي، والانتصار للطبقات المسحوقــة، التي تعرق في الزرع، وينعم غيرها

---

(١) رسالة الدكتوراه المقدمة من الباحث/ محمد الصغير عبد الرحيم، بعنوان (قضايا العقيدة في فكر الشيخ / محمد الغزالي) صـ٢٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) الشيخ الغزالي كما عرفته، صـ١٩٤، مرجع سابق، بتصرف يسير.

بالحصاد...وقد تجلى ذلك ـ منذ زمن مبكر ـ في كتبه الأولى: (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) (والإسلام والمناهج الاشتراكية) و(الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين).

٣ـ مقاومة الاستبداد السياسي:

مقاومة الاستبداد والتسلط السياسي، وحكم الفراعنة والهوامين[1] الذين علوا في الأرض، وجعلوا أهلها شيعًا، فهو رَحِمَهُ اللهُ ينتصر لحرية الجماهير، وترسيخ الشورى، وعدِّها فريضة لا مجرد فضيلة، وملزمة لا معلمة، والاقتباس من النظم الحديثة ـ كالديمقراطية ـ ما يدعم هذا المبدأ، ويجعله قابلاً للتطبيق العملي في حياتنا المعاصرة.

لهذا كان من أوائل كتبه: (الإسلام والاستبداد السياسي).. وكان تنديده بمن يقول: إن الشورى للإعلام لا للإلزام.

٤ـ تحرير المرأة من التقاليد الموروثة الدخيلة:

تحرير المرأة من نَيْر التقاليد الشرقية الموروثة، التي فرضتها أفهام سقيمة، أو أوضاع مختلة في فترات الهُوي والتراجع من تاريخنا، وتحريرها كذلك من رق التقاليد الوافدة التي غزتنا مع الاستعمار المستكبر، فسلخت المرأة المسلمة من دينها وشرع ربها، وغيرت من فكرها وخلقها وسلوكها، فأصبحت امرأة أخرى، لا يكاد يبقى لها من الإسلام إلا الاسم، والشهادتان...

وقد تجلى هذا العنصر الإصلاحي في كثير جدًّا مما كتبه الشيخ، ابتداءً من كتابه: (من هنا نعلم) إلى كتاب: (السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث)، ثم كتاب: (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة).

٥ـ محاربة التدين المغلوط:

محاربة التدين المغلوط، والتطرف الممقوت في فهم الدين، والرجوع به إلى اليسر والاعتدال، بعيدًا عن غلو الغالين، وتفريط المفرطين.

نجد ذلك واضحًا في كتبه (دستور الوحده الثقافية للمسلمين) و(مشكلات في طريق الحياة الإسلامية) و(الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر) و(هموم داعية) و(علل وأدوية) و(الطريق من هنا) و(ومستقبل الإسلام خارج أرضه) و(الغزو الثقافي يمتد في فراغنا) و(الحق المر) و(السنة بين أهل الفقة وأهل الحديث) وغيرها...

٦ـ تحرير الأمة وتوحيدها:

تحرير الأمة الإسلامية من كل سلطان أجنبي، فُرض عليها في غفلة من الزمن، وتتابع من المحن، سواء

(١) الهوامين: جمع هامان الذي كان وزيراً لفرعون في زمن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أكان عسكريًّا، أم سياسيًّا، أم تشريعيًّا، أم ثقافيًّا، أم اجتماعيًّا، والعمل على توحيد الأمة، وإزالة العوائق التي تفرق بين أبنائها.

٧ـ الدعوة إلى التقدم ومقاومة التخلف:

الدعوة إلى التقدم ومحاربة التخلف، واللحاق بموكب العالم المتطور، عن طريق التفوق في علوم الكون والرياضيات، واستخدام التكنولوجيا، وحسن الإدارة والتنظيم.

شاعت هذه الدعوة على لسان الشيخ، وسال بها قلمه في كتب ومقالات، فلا يكاد كتاب يخلو منها، ثم أفردها بالبحث والمناقشة في كتابه: (سر تأخر العرب والمسلمين).

٨ ـ تنقية الثقافة الإسلامية:

تنقية الثقافة الإسلامية مما علق بها من شوائب وزوائد، خلال العصور، ومطاردة الأباطيل والأوهام، التي أدخلت على العالم الإسلامي، وللشيخ هنا كلام طويل عن التعليم الأصلي، وعن الأزهر، والجامعات الإسلامية، وعن الأغذية المسمومة، التي يزود بها الدعاة والمعلمون الدينيون، ومن كتبه المستقلة في هذا: (تراثنا بين الشرع والعقل)» [1].

وفاة الشيخ/الغزالى(١٩٩٦م):

«ذهب الشيخ الغزالي إلى الأمم المتحدة، ممثلاً للأزهر الشريف، فخطب في عيدها الخمسين سنة ١٩٩٦م.. وأمضى مع مسلمي أمريكا ثلاثة أسابيع.. وبعد أسابيع من عودته من أمريكا، سافر إلى المملكة العربية السعودية، للمشاركة في المهرجان الوطني للثقافة (المعروف باسم: الجنادرية) [2] حيث صعدت روحه إلى بارئها- وبيده القلم والورقة يكتب نقاطًا يدافع بها عن الإسلام ـ في (١٧من شوال سنة ١٤١٦هـ / ٩ من مارس سنة ١٩٩٦م).. ودفن بالبقيع ـ بالمدينة المنورة ـ عاصمة النبوة الخاتمة، والتي أمضى حياته داعية لها، وحارسًا لتعاليمها، ومجاهدًا في سبيل نصرة دينها» [3].

---

(١) المرجع السابق، صـ ١٩٥ وما بعدها، بتصرف.

(٢) مهرجان الجنادرية هو مهرجان تراثي وثقافي يقام في المملكة العربية السعودية منذ عام ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م ، وكانت الدورة الأولى للمهرجان في ٢٤ مارس ١٩٨٥م، غالباً ما يكون موعده في فصل الربيع بشهري فبراير ومارس، ويجذب العديد من الزوار داخل وخارج المملكة، ويقام تحت إشراف وزارة الحرس الوطني السعودي، موقع: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة مهرجان الجنادرية.

(٣) حوارات الشيخ الغزالي، صـ ١٢، مرجع سابق.

العصر الذي وجد فيه (د/ فؤاد زكريا، والشيخ/محمد الغزالى):

هو العصر الملكي حيث ولد فيه الشيخ الغزالي، وبعده بعشر سنوات ولد د/ فؤاد زكريا، وهذه المعاصرة مع الخلفية الفكرية والأحداث السياسية والاجتماعية...جعلت كلاً من الرجلين ينظر للآخر على أنه خصمٌ له، أو على الأقل مختلفٌ معه، في كثير من الرؤى والمناهج، حيث لكل منهما مدرسته وثقافته ومرجعيته ومنهجه وطريقته الخاصة في الترجيح والرد والإثبات والنفي.. الأمر الذي جعل كلا منهما يرد على الآخر ويفند حججه.

وسيتضح ذلك جليًّا في فصول ومباحث الرسالة ولكن أذكر هنا شيئًا يسيرًا على سبيل المثال لا الحصر:

١ـ تعليق الرجلين على انتصارات العاشر من رمضان/ السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣م، يقول د/ فؤاد زكريا وهو يتكلم عن النصر والهزيمة: «.. لماذا إذن يُكتب النصر للعدو إذا كان مقياس النصر أو الهزيمة هو التقوى مفهومةً بهذا المعنى الساذج؟!

إذا كان انتشار التفكير اللاعقلي أمرًا مفهومًا بالرغم من أنه لا يغتفر في ظروف الهزيمة فإن الأمر الذي لا يمكن فهمه ولا اغتفاره هو أن تظهر ألوان جديدة من هذا التفكير بعد السادس من أكتوبر، فذلك لأننا كنا قد أعددنا العدة لكل شيء منذ زمن طويل، وحسبنا لكل عامل من العوامل حسابًا، وأجرينا مئات التجارب على العبور، وكان واضحًا أن التدريب الشاق والحساب العلمي الدقيق والتوقيت الذكي والتضليل المخطط والمرسوم للعدو وفوق ذلك كله حماسة الجندي المصري وشجاعته، كل هذه كانت العوامل الرئيسية في النجاح الباهر الذي أحرزناه في العبور وفي معارك الضفة الشرقية ومع ذلك فقد عادت التعليلات اللاعقلية تطل برأسها من جديد، وكان ما يثير الإشفاق في هذه التعليلات هو أنها تهيب بقوى غير منظورة قيل إنها حاربت معنا، ولم يدرك مردود هذه الأقاويل أن تصديقها معناه أن الذي انتزع النصر ليس هو الجندي المصري الباسل بدمه وعرقه وشجاعته، ومعناه أن العلم والتخطيط والحساب الدقيق لم يكن له إلا دور ثانوي في كل ما حدث، بل إن تصديق هذه الأقاويل يعني ما هو أشد من ذلك وأخطر، إذ إن قائلها يفترض أن ما حدث كان (معجزة) وأن الأمور لو تركت لكي تسير في مجراها الطبيعي لما أمكن أن يحدث ما حدث، ولست أستطيع أن أتصور ـ في ظروف التضحية الهائلة التي مر بها جيشنا ـ جحودًا أشد من ذلك الذي ينطوي عليه هذا الافتراض الضمني.» [١]

---

(١) صحيفة الأهرام المصرية، ١٨ نوفمبر سنة١٩٧٣م.

هذه الكلمات من د/ فؤاد وجدت معارضة شديدة وإنكارًا واسعًا من كثير من علماء الإسلام[١] و هنا أكتفي ببعض ما قاله الشيخ الغزالي: «..كان النصر من عند الله، لكني استغربت إذ وجدت أن كاتبا من الكتَّاب نشر كلاما تأملته وقلت: يجب أن تعرف خبايا هذا الكلام وأن تكشف؛ لأنه يقول في منطق لا تنقصه صراحة: إن جنودنا قاتلوا وانتصروا وكان يجب أن ينتصروا، لا دخل لشيء وراء جهودهم !! لا إله، لا توفيق إلهي، لا ملائكة ،لا تثبيت من ملائكة، لاشيء من هذا كله، هؤلاء انتصروا لأنهم جمعوا الأسلحة واستطاعوا أن ينتصروا بها!!.

المقال الذي بين يدي، مقال تضمن ثلاث نقط، النقطة التي ينكر فيها تدخل القدر يقول: (انتصرنا بالعلم والإيمان) ما العلم؟ هو الإعداد الصامت والدءوب والتدريبات الشاقة، ما الإيمان؟هو الرغبة في تحرير الأرض الرغبة القوية في تبديد خرافة الجيش الذي لا يقهر.

النقطة التي يبنى عليها المقال أن التفكير في أن هناك إلهًا أيَّد أو قوَّى الجند تفكير غير عقلى!!

أريد أن أوضح أن هذا الكلام ليس جديدًا، الكلام الذي كتبه أستاذ الجامعة هنا ليس جديدًا.. فالتفكير الذي يرويه العامة هو الذي تبناه (فؤاد) الذي يشتغل أستاذًا في الجامعة يقول: نحن انتصرنا لأن الأسلحة في أيدينا، ولأن الرغبة متوفرة في إدراك النصر، أما الإله وأما القوى الغيبة، فهذا كلام غير عقلي كدت أقول للكثيرين الذين جاءوني أقرأت ما نشر؟ كدت أقول لهم: رجل يقرر فلسفة... يريد أن يدرسها للناس! لكن وجدت الأمر هكذا سيجعل الأمة تنتكس انتكاسات خطيرة...

هذا المقال من ثلاثة عناصر.

١- لم يقال: إننا انهزمنا سنة ٦٧.. لأن القيادة كانت ماجنة فاجرة، تحمل الجيش المسكين عبئها ودفعنا الثمن عشرين ألف شاب قتيل على الأقل! ولطخ جبين المصرين بالوحل لم؟ لأن انعدام التقوى هو الذي قاد المعركة، فإذا قادت التقوى المعركة قلتم اليوم لا تقوى، ما هذا؟!.

ويقول الكاتب كلامًا مضحكًا ذكره العلماء في كتبهم، ودرسه العيال الصغار في الأزهر، يقول: إذا كان الجيش قد انهزم لانعدام التقوى في سنة ٦٧ فهل كان اليهود أتقياء؟ والجواب واضح فالصحابة بقيادة

---

(١) انظر كتاب التعالي الزائف، الرد على فؤاد زكريا ، د/ محمد يحيى، ط/ دار النصر للطباعة الإسلامية بدون تاريخ، وكتاب الإسلام لا العلمانية، مناظرة مع د/ فؤاد، والمستشار/ سالم البهنساوي، ط/ دار الدعوة، ط ١، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، وكتاب وجها لوجه الإسلام والعلمانية: رد علمي على د/ فؤاد زكريا وجماعة العلمانيين، د/ يوسف القرضاوي، ط/ دار الصحوة للنشر بالقاهرة، ط/ ١، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م، وكتاب نقد منهج وشبهات د/ فؤاد زكريا على الربانية ، د/ قنديل محمد قنديل، ط/ دار الطباعة المحمدية، ط/ ١، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

نبيهم ﷺ هزموا في معركة (أحد) والذين هزموهم كانوا عباد أصنام ، فهل كان عباد الأصنام أقرب إلى الله من الموحدين؟ طبعا لا، ولكن الله يحاسب كل فريق بميزان خاص، لكل إنسان حساب خاص» [١]

٢ـ وفي موضع آخر يصرح الشيخ/ الغزالي باسم الدكتور/ فؤاد زكريا، ويؤكد أنه يزهد في الرد عليه، وأنه يهتم ببيان الحق أكثر من ذكر صاحب الباطل، يقول: «..سألني أحد الذين حضروا ندوة الإسلام والعلمانية[٢] قائلا: لماذا لم تجب عن تساؤل د/ فؤاد زكريا؟ ماذا يفعل الإسلام لحل الديون المصرية؟ قلت: وجدت السؤال ساذجا، ولو قال ماذا يفعل الإسلام لعلاج أخطاء العلمانية الاقتصادية؟ لسارعت بالجواب!» [٣].

٣ـ وفي موضع آخر يذكر الدكتور القرضاوي بعضًا من المحاولات التي كان الشيخ الغزالي يقوم بها للرد على د/ فؤاد.. يقول: «إن صحيفة الأهرام لم تكن منصفة في الحكم بين طرفي الحوار، فأعطت كل الحرية للدكتور فؤاد زكريا ولم تعط لناقديه مثل ما أعطت بل حولت ردودهم وانتقاداتهم إلى الكاتب نفسه يأخذ منها ويدع على طريقة(لا تقربوا الصلاة)حتى إن الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي بعث بمقالتين إلى (الأهرام)حول الموضوع فلم تنشر أيًا منها ولم تشر إليه، وغطت ذلك بأن دعته إلى المشاركة في ندوة أدارتها الأهرام داخلها، يتكلم فيها الشيخ نصف ساعة ثم يلخص ما قاله في سطرين أو ثلاثة!

وهذا ما جعلني أعلق على دعوة الحوار التي أعلنها د/ زكريا أنها تشبه بسباق يعدو فيه حصان واحد.. ولما دعت اللجنة الثقافية في نقابة الأطباء بالقاهرة إلى عقد ندوة يتحاور فيها الإسلاميون والعلمانيون، دعتني مع فضيلة أستاذنا الشيخ/ الغزالي لتمثيل الجانب الإسلامي، كما دعت عددًا من دعاة العلمانية منهم د/ فرج فودة، ود/ وحيد رأفت، ود/ فؤاد زكريا، واعتذر أكثرهم ولم يحضر منهم إلا الأخير(د/ فؤاد زكريا)، وقد رحبت بهذا الحوار وهذه الندوة، حيث يلتقي الطرفان وجها لوجه لمناقشة قضية هي أخطر قضايا الساعة» [٤].

والأستاذ قطب عبد الحميد قطب في هامش كتاب محاضرات الشيخ/ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع تعليقًا على ما دار في هذه الندوة، وما ذكره الشيخ من بيان خطورة العلمانية على المجتمع المسلم، والحاكم المسلم، والشريعة الإسلامية، وإقامة الدين، وسياسة الدنيا يقول: «..الكلمة التي ألقاها أستاذنا

---

(١) خطب الشيخ محمد الغزالي جـ١، صـ٤١١ ومابعدها، وصـ٤١٧، وما بعدها بتصرف، مرجع سابق، ولقد أخبرني أ.د/ أحمد ربيع، رئيس قسم الثقافة الإسلامية بكلية الدعوة الإسلامية في الوقت الراهن عام٢٠١٤م، أن هذه الخطبة كانت ردًا من الشيخ الغزالي على د/ فؤاد .

(٢) الإسلام لا العلمانية (مناظرة مطبوعة) بين د/ فؤاد زكريا، والمستشار سالم البهنساوي مرجع سابق، وهي الندوة المقصودة في السؤال.

(٣) الحق المر، للشيخ محمد الغزالي، صـ١٥، ط/ دار الريان للتراث، بدون تاريخ.

(٤) وجها لوجه الإسلام والعلمانية: رد علمي على د/ فؤاد زكريا وجماعة العلمانيين، صـ٩ وما بعدها، مرجع سابق.

الشيخ الغزالي في الندوة الشهيرة التي تحاور فيها الإسلاميون والعلمانيون، وذلك في يوم ١١-٧-١٩٨٦م، وكانت الندوة أشبه باستفتاء شعبي على (الإسلام والعلمانية) فقد شهدت قاعة(دار الحكمة) بنقابة الأطباء جمهورًا قَلَّ أن يتوافر لمحاضرة أو ندوة، ضاقت به الدار وما حولها، وجلس الناس على الأرض، وصعدوا إلى سطح المبنى، ووقفوا في الشارع، وانصرف الكثيرون حيث لم يجدوا شبرًا من الأرض، ورد الله العلمانيين بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وجزى الله علماءنا خيرا.»[١]

سابعًا: نبذة مختصرة عن أهم مدارس الإصلاح الاجتماعى فى المجتمع العربى:

مدارس الإصلاح فى بلادنا كثيرة ومتنوعة المشارب والمذاهب والثقافات، ومنها ما له جذور تاريخية قديمة ومنها ما له بعد ديني واضح، ومنها ما له بعد قومي ومنها ما له بعد سياسي، ومنها ما يجمع بين بعدين أو أبعاد، وكل هذه المدارس تدعو إلي الإصلاح الاجتماعي، وترى أنه هدفها المنشود والذي تسعى لتحقيقه.

والحق إن هذه المدارس مع كثرتها وقدمها وتنوعها إلا أنها لم تصل إلى كامل أهدفها المعلنة، كإصلاح الفرد ليكون الإنسان الصالح.. وإصلاح الأسرة لتكون الأسرة المنتجة والحاضنة للقيم المفيدة.. وإصلاح المجتمع العربى ليعود لهويته وريادته ومبادئه.

ولعل هذا الإخفاق كان لعوامل خارجية وداخلية فرضتها ظروف طارئة ليس لهذه المدارس (منفردةً) قدرةٌ أو طاقةٌ فى دفعها والتغلب عليها ـ جُمْلَةً ـ وهذا ما سنذكره لاحقا بالتفصيل فى بعض فصول هذه الرسالة[٢].

وبعد ذكر ترجمة مختصرة لكل من د/ فؤاد زكريا ومدرسته والشيخ/ محمد الغزالي ومدرسته، أذكر هنا بعضًا من مدارس الإصلاح للتعرف عليها.

١ـ مدرسة الشيخ (محمد عبده) ١٨٤٩:١٩٠٥م:

تأثر الشيخ محمد عبده بجمال الدين الأفغانى.. كما تأثر بالحضارة الغربية، وكانت له آراء فى عدة

نظريات فكرية من أشهرها وأخطرها (نظرية الحرية) وخصوصاً حرية المرأة.. الأمر الذى أثار اعتراضاتِ بعض العلماء من الأزهر الشريف والعالم الإسلامى ـ من جهة ـ ومن جهة أخرى لاقى قبولاً ورضى من العلمانيين واللبراليين، ونتج عن ذلك ظهور مدارسَ تسيرُ وفق تعاليم الشيخ.

---

(١) انظر الكتاب المذكور صـ٧٧ وما بعدها، تحت عنوان: الإسلام والعلمانية، ط/ دار البشير، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) انظر المطلب الثالث في المبحث الثالث، من الفصل الخامس، الباب الثاني.

يقول أنصار هذه المدارس:" إن جهود (محمد عبده) ودعوته الإصلاحية التحريرية للنهوض بالمجتمع المصرى، أثرت بقوة وعمق في كثير من تلاميذه و أتباعه ومريديه الذين أصبحوا يمثلون مدارس إصلاحيةً (متكاملةً) يسيرون فيها وفق تعاليم الإمام في إصلاح وتطوير مختلف جوانب المجتمع. وكان من أبرز هذه المدارس.

أـ المدرسة السياسية : سعد زغلول. ب ـ المدرسة الاجتماعية : قاسم أمين.
جــ المدرسة الدينية : مصطفى المراغي. د ـ المدرسة الفلسفية : مصطفى عبدالرازق[(١)].

هذا بالإضافة إلى مدارس أخرى تحررية و إصلاحية، كان من بين أصحابها (علي عبد الرازق وطه حسين) وغيرهما من أقطاب الفكر المصري" [(٢)].وهذه المدارس رَغم كثرتها وتنوعها، وادعاء أبنائها أنها مدارس إصلاحيةٌ (كاملةٌ)، إلا أنها أخفقت، وبعد مُضِي نصف قرن على إنشائها فشلت فى إصلاح المجتمع.

والواقع المشاهد لحال البلاد والعباد يؤكد ذلك.

٢ – مدارسُ ذات اتجاه قومى:

" قبل أن نوضح معنى (القومية العربية) ومحتواها، يجب علينا أن نعرف كيف تسللت هذه الفكرة الدخيلة إلى مجتمع قام خلال ثلاثة عشر قرنًا على أساس العقيدة الإسلامية وحدها؟

يذكر المؤرخون أن القرن التاسع عشر لم يعرف (قضية عربية) في المحافل السياسية الدولية، وقليلاً ما كانت لفظة (عرب) ذاتها تطلق في الكتب والوثائق على سكان الولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية، وإنما كانت تطلق على بدو الصحراء وعلى سكان الأرياف في الشرق الأدنى، وكان الناس يستعملون لفظي (مسلم) و (مسيحي) للتمييز بين الفئتين الكبيرتين من السكان في هذه المنطقة، أما غالبية رعايا السلطان من المسلمين ـ سواء كانوا عربًا أم أتراكًا ـ فقد عرفوا بـ(إخوان في الدين) باعتبارهم (مسلمين) قبل أن يكونوا أتراكًا أو عربًا، ولكن عوامل شتى داخلية وخارجية ـ ومعظمها خارجية ـ جعلت فكرة (القومية) تنتقل من أوروبا إلى الأتراك أولًا ومنهم تسربت العدوى إلى العرب...

يقول جورج انطونيوس:(يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥م حين ألف خمسة شباب من الذين درسوا في (الكلية البروتستنتينية ببيروت) والتي سميت فيما بعد بالجامعة الأمريكية

---

(١) للمزيد من معرفة هذه الشخصيات وتوجهاتها، انظر كتاب الفكر الليبرالي تحت المجهر الشرعي، للدكتور/ محمود الصاوي، صـ ١٠٢وما بعدها، ط/ دار بلال بن رباح، ط/١، سنة ٢٠١٢م/ ١٤٣٢هـ ، وكتاب الشيخ الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية المعاصرة، صـ٥٣ ومابعدها، مرجع سابق.

(٢) الفلسفة والمنطق للثانوية العامة، وزارة التربية والتعليم، مطابع روزاليوسف، لعام ٢٠١٢/ ٢٠١٣م، صـ ٥٤ وما بعدها.

جمعية سرية، وكانوا جميعًا نصارى ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصًا ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد، وكانت (الماسونية) قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوروبا، فاستطاع مؤسسو الجمعية عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسونى ـ الذي كان قد أنشىء في عهد قريب ـ ويشركونه في أعمالهم)»[1].

وكان من أهم المفاهيم التي تعمل هذه المدارس على ترسيخها هي المفاهيم القومية حسب جذور وعروق كل أبناء القُطر الواحد، وخصوصًا (القومية العربية) التي كانت بديلاً عن الأخوة الإسلامية، وللشيخ الغزالي كتاب كامل[2] عن حقيقة القومية العربية، يرى أنها أكبر خديعة وأخطر أسطورة كانت عامل تفريق وعداء بين المسلمين.

٣ـ مدارسُ ذات اتجاه اشتراكي:

«الاشتراكية هي العنصر الثالث في (الشعار المثلث) الذي اتخذه الثوريون لأنفسهم، ولن أناقشهم هنا في المدلول (الفكرى) للاشتراكية، وإنما أناقشهم فيما ادّعوا (هم) أنه هدف الاشتراكية، وأنها الوسيلة اللازمة والوحيدة والحتمية للوصول إليه وهو: إقامة مجتمع الكفاية والعدل الذي ضحوا من أجله بـ (الوحدة) وصادروا باسمه (الحرية)...

يقول (الميثاق) في بابه الخامس: إن الاشتراكية هي إقامة مجتمع الكفاية والعدل، مجتمع العمل وتكافؤ الفرص ، مجتمع الإنتاج ومجتمع الخدمات.

وعلى أساس هذا المفهوم للاشتراكية نريد أن نسأل دعاتها وأنصارها من الحكام الثوريين فى بلادنا العربية: هل أقاموا حقيقة هذا المجتمع المنشود؟ ثم هل نال كل مواطن نصيبه العادل من الثروة الوطنية؟ وهل ذابت الفوارق بين الطبقات بعد القضاء على الطبقة المستغلة من الرأسمالية ومن الإقطاعيين؟ هل تهيأت ـ حقًّا ـ الفرص المتكافئة للمواطنين جميعا فوجد كل عاطل عملاً مناسبًا، وكل عامل أجرًا عادلاً، وكل جائع غذاء كافيًا، وكل مشرد مأوى واقيًا، وكل مريض علاجًا ميسرًا، وكل ذى موهبة مكانًا ملائمًا؟ هل نقل الاشتراكيون العرب مجتمعاتهم من الاعتماد على الاستيراد إلى الاكتفاء الذاتى؟ هل أصبح المجتمع في ظل الاشتراكية مجتمعًا صناعيًا قويًّا قادرًا على حماية نفسه بنفسه، واستغلال خيراته المذخورة والمنشورة؟

---

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، صـ ١٤٧ وما بعدها بتصرف، د/ يوسف القرضاوي، الناشر/ بنك التقوى بدون تاريخ.

(٢) الكتاب بعنوان/ الخديعة حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ط/ دار الروضة للنشر والتوزيع بالقاهرة ، بدون ذكر تاريخ.

وبعبارة موجزة: هل حقق الاشتراكيون الثوريون العرب مجتمع الكفاية والعدل الذي نصبوا أنفسهم لإقامته؟

سندع الوقائع هنا تتكلم ولن نستدعى أحدًا للشهادة بهذه الوقائع غير ثوري وغير اشتراكي وغير تقدمي! فقد التزمنا أن يكون الشهود على الاشتراكية من أهلها.ومن سوء حظ الاشتراكيين الثوريين أنهم كثيرًا ما يختلفون ويختصمون ويعدو بعضهم على بعض، وفى هذا فرصة لظهور كثير من المآسي والمهازل والفضائح المستورة عن أعين الجمهور»[١] هذا عن المدرسة الاشتراكية.

ومن أخطر المدارس والأفكار التى ظهرت بقوة فى الساحة المصرية والعربية (العلمانية والليبرالية) والتي تدعي الصلاح والإصلاح، بل وتحارب بشراسة وبدون هوادة ما عداها من المدارس، وخصوصًا المدارس ذات المرجعية الإسلامية وما حدث منذ قيام الجمهورية المصرية وحتى يومنا هذا يؤكد حقيقة هذه المدارس وخطورتها على المجتمع المصرى المسلم.. الأمر الذي يجعلني أتوسع في البسط والتعريف بهذه المدرسة التي يرفع شعارها د/ فؤاد زكريا ويفخر بانتمائه لها والتي تدعي المدنية والتقدمية والتحررية والقدرة على إقصاء الإسلام من الساحة السياسية والاجتماعية والتي تستبدل مصطلح المجتمع المسلم بمصطلح المجتمع المدني وعقد الذمة بقانون المواطنة.

إن «فكرة المجتمع المدني هي فكرة أوروبية نشأت منذ القرن السابع عشر، وتعني التحلل من سلطة رجال الدين والكنيسة وإقامة المجتمع على أساس علماني يسن قوانينه الوضعية المستمدة من (القانون الطبيعى) والتى تراعى مصلحة الشعب، كما يراها الشعب.. وحول هذه الفكرة أصدر (جون لوك) [٢] كتابه: (الحكومة المدنية) » [٣].

ونتج عن ذلك كثيرٌ من المنظمات الاجتماعية والحركات الإصلاحية غير الحكومية[٤].

---

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا صـــ ٢٢٩ وما بعدها، مرجع سابق بتصرف يسير.

(٢) هو فيلسوف تجريبى ومفكر سياسي إنجليزى، ولد عام ١٦٣٢م وتخرج من جامعة أكسفورد ، واهتم بما وراء الطبيعة ونظرية المعرفة، وفلسفة السياسة والعقل والاقتصاد، وتوفى سنة ١٧٠٤م عن عمر ناهز ٧٢عاماً. للمزيد انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة **ar.wikipedia.org/wiki/جون_لوك**

(٣) هامش كتاب ثقافتنا فى إطار النظام العالمى الجديد، صــــ١٢٦، د/ فوزي محمد طايل، ط/ المركز الإعلامي العربي، سنة ١٩٩٤م.

(٤) وهذا ما سأذكره بالتفصيل في الفصل الخامس من الباب الثاني.

البـــاب الأول

قضايا الفرد والأسرة في المجتمع، وموقف د/ فؤاد زكريا، والشيخ الغزالي منها:

وفيه خمسة فصول:

الفصل الأول: قضايا الأفراد، وعلاقتها بالحياة الاجتماعية.

الفصل الثاني: قضايا الطفولة، والنشء.

الفصل الثالث: قضايا الشباب، وما تواجهها من مشكلات.

الفصل الرابع: قضايا المرأة، وما أثير حولها.

الفصل الخامس: الأسرة وأهميتها في بناء المجتمع.

الفصل الأول

قضايا الأفراد، وعلاقتها بالحياة الاجتماعية

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: نظرة الإنسان للحياة، وأثرها في إصلاح المجتمع.

المبحث الثاني: علاقة أفراد المجتمع ببعضهم البعض.

المبحث الثالث: عقل الإنسان، ومجالات الإصلاح الاجتماعي.

المبحث الرابع: حقوق الإنسان، ووثيقة الأمم المتحدة.

المبحث الأول: نظرة الإنسان للحياة، وأثرها في إصلاح المجتمع:

تختلف نظرة الإنسان للحياة وذلك باختلاف دينه وعقيدته وفكره وثقافته وانتمائه ورغباته، وهذا الاختلاف والتباين ناجم عن تعدد المدارس والأديان والمذاهب والأفكار والأحداث السياسية منها والاجتماعية والاقتصادية؛ وذلك له ـ بلا شك ـ الأثر الكبير ـ سلبًا أو إيجابًا ـ في عملية الإصلاح.

فمن يرى أن الحياة الدنيا قنطرة يعبر من خلالها إلى الحياة الآخرة ـ وهو في الدنيا محكوم بسنن إلهية وقوانين ربانية لا تتبدل ولا تتخلف ـ فهو مخلوق لغاية ويحمل رسالة.. هذا الإنسان يختلف عمن يرى أن الحياة قدر محتوم.. ولسان حاله يقول: جئت لا أدري من أين جئت ولكني أتيت.. فهي(في نظره) أرحام تدفع، وأرض تبلع.. ومن الناس مَن يعيش لا يعنيه شيء من ذلك كله، سوى أن يعيش أيامًا يقضيها.. وهؤلاء وهؤلاء أقرب إلى الانتهازية والرغبات الذاتية، وإشباع الشهوات الحيوانية، ولا يرجى من هذه الفئات أي إصلاح إلا إذا أصلحت هي أولاً نظرتها للحياة؛ لأن النظرة الفاسدة للحياة تعيق كل تقدم وإصلاح في المجتمع، الأمر الذي يوجب تغيير هذه النظرة الفاسدة، كخطوة أولى تتبعها خطوات الإصلاح المنشود.

والحق إن لكل من د/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي، كتابات تتعلق بنظرة الإنسان للحياة، ومدى أثر هذه النظرة في إصلاح المجتمع.

ففي كتابه (الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية) يرى د/ فؤاد زكريا، أن نظرة الإنسان للحياة، تختلف باختلاف مؤثرات النظم الاقتصادية المختلفة، والمكونة لعقلية الإنسان ونوع تفكيره السائد وطبيعة الإطار العلمي والثقافي الداعم للنظام الإقطاعي أو الرأسمالي أو الاشتراكي الملائم للنظام السياسي. وبعد مناقشته لهذه النظم الحديثة، وما ينتج عنها من مشاكل يقول: «هذه المشاكل تثير موضوعا معقدا غاية التعقيد، هو العلاقة بين الجانبين المادي والمعنوي في حياة الإنسان، وقيمه، ومثله العليا، وجوانبه المعنوية، وحياته البشرية.. وعلى ذلك فمن الضروري أن نتنبه ـ حين نتحدث عن تأثير النظم الاقتصادية في أفكار الناس ـ إلى أن هذا التأثير ليس آليا مباشرة، بل هو يسير في عملية معقدة غاية التعقيد، ولا يعمل في اتجاه واحد.. إذ نكتشف في النظم الاقتصادية جوانب، وأبعادًا أعمق مما توحي به جوانبها المادية وحدها، ونهتدي إلى أسس للبناءات العقلية والمعنوية، تكمن جذورها في الحياة الواقعية للمجتمع الذي ظهرت فيه» [1].

---

(١) انظر كتاب الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، د/ فؤاد زكريا صـ٣ وما بعدها بتصرف، ط/ الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية جامعة عين شمس ١٩٧١م.

والملاحظ من كتابات د/ فؤاد زكريا، أنه يعلي كثيرًا من قيمة الفرد وأحاسيسه ووجدانه، ويرى أن الفرد المثقف هو محور الحياة وأساس وجودها، يقول: "كانت الفلسفات السابقة تتعامل مع الإنسان بوصفه(عقلا) فحسب، وحتى حينما كانت تتحدث عن العواطف والانفعالات والقيم ، كانت تعالجها بطريقة عقلية خالصة، كانت تجرد الإنسان من وجوده الحي الملموس؛ لكي تستبقي منه هيكلاً عقليًّا خلا من كل نبض، ومن هنا فقد جاءت نظرية (الوجودية) لكي تضيف بعدًا جديدًا، تجاهلته الفلسفات التي سبقتها ، هو البعد النابض بالحياة في الإنسان، فهي تتابع رحلة الإنسان، بطريقة تتيح لكل منها أن يتعرف عليها في نفسه، وتقدم إلينا صورة للإنسان بلحمه، ودمه، ومشاعره، وضعفه، وقوته، وتصف أحوال حياته اليومية، وهمومه في موقع زمني محدد، أما الإنسان الأزلي الذي لا يتغير ولا يتحول، الإنسان الذي هو (عقل خالص) فلا شأن لها به" [1].

وخلاصة ما يراه د/ فؤاد: أن نظرة الإنسان والمجتمع للحياة ترجع إلى الثقافة والفكر السائد في كل مجتمع ونظامه الاقتصادي والسياسي.. فهذه الأمور هي التي تؤثر تأثيرًا مباشرًا في نظرتهم للحياة حالاً ومستقبلا.

وهذا صحيح، ولا يمنع أن تكون هناك أمورٌ أخرى أكثرَ تأثيرًا في حياة الناس ونظرتهم للحياة، ومن أهم هذه الأمور العقيدة الدينية والأخلاق الإيمانية والشرائع السماوية، وما تحمل من أوامر ونواهٍ وحدود وحقوق وواجبات وهدايات.. لا شك أن هذه الأمورَ إن لم يكن لها الحد الأكبر من التأثير المباشر على الحياة أكثر من الأمور المادية ـ التي ذكرها د/ فؤاد زكريا من وجهة نظره ـ فعلى الأقل لها تأثير مساوٍ لها.

والشيخ/ الغزالي لا يختلف مع د/ فؤاد فيما يتعلق بالمال والثقافة وما لهما من سلطان وتأثير قوي على الحياة، ففي كتاب (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) يقول: "لا تزال هناك أمم تعطي حق الحياة لكبارها أولا.. ثم لصغارها ما عنت وجوههم لهؤلاء الكبار، وما استغنى الكبار عن افتراس هؤلاء الصغار، وإلا فالحكم للسيف والنار، ولمن يملك النار والسيف.. البيئة الحرة الكريمة هي التي تعيش في حضانتها الإنسانية الصحيحة، وهي التي يُنْتَظَرُ منها أن تُنْبِتَ النفوس القوية والعقول الذكية والأجسام الفتية، ولن تجد جراثيمُ الهوان المادي والأدبي بقاء لها في مثل هذه البيئة.. ولكن الاستشراق السياسي والاقتصادي هو عدو البشرية الأول، وسرطان الأمم المعذبة، وفي ليلها الطويل، لا تلمح العقول أشعة المعرفة، ولا تدري الطباع معنى الكرامة، ولا تشرب النفوس حب الخير، وأنت إذ تبحث ـ جاهدًا ـ عن الفرد الذي تعلم في الغرب فاخترع أو الذي انتخب حاكمه ثم جاء دوره هو فحكم، إذ تبحث عن هذا الفرد في ظل

---

(١) خطاب إلى العقل العربي صـ١٧٩ وما بعدها، مرجع سابق.

الاستشراق السياسي والاقتصادي، تجده تائها كاسف البال، يحسب أن وظيفته في الحياة لا تعدو العيش على هامش الفلاحة، في أرض ملكته ولم يملكها، أو الاحتراف في أشغال بدائية لا تُدِرُّ إلا الكفاف» [١].

إن أناسًا يعيشون على هامش الوجود، لا يدرون لم خلقوا؟ وما رسالتهم في الحياة؟ وماذا يريد الله منهم في هذه الدنيا؟ ويعجب الشيخ/ الغزالي ممن يظنون أن الحياة ما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، لا فرق فيها بين الإنسان والحيوان إلا بنسب متفاوتة من العقل والفكر.

يقول: «إن المرء ليعجب، كيف تطابق ألوف من الخلائق(بل ملايين) على أن الحياة مادة بحته، وأنه لا إله، ولا شرائع ولا حساب؟! وكيف قامت للإلحاد هذه الدولة الشامخة، تستمسك به وتدعو إليه؟ وفي رأينا أن هذه الفلسفة الزائفة ـ كالوجودية والفوضوية ـ ما نبتت واستغلظت إلا في غيبة تعاليم الفطرة عن دنيا الناس، وشيوع ألوان من الإيمان الخرافي، والظلم الاجتماعي، مكنت لهذه النزاعات أن تولد وتسير (ثم تحدث الشيخ الغزالي عن هذه الأفكار الضالة، ونظرتها للإنسان والكون والحياة، وكيف تسربت هذه الأفكار ودخلت إلى بلادنا) يقول: ومن هنا حفلت بلاد الإسلام بفنون من الفوضى الاجتماعية والسياسية، يطيش لها الحليم» [٢].

ونجم عن هذه الفوضى وهذه الأفكار أن ظن أناس ـ بما لهم من قوة وسلطان ـ أن الحياة بما فيها ومن فيها، هي حق لهم، وليست لغيرهم، إلا في حدود ما ترتضيه ضمائرهم، وتسمح به قوانينهم ومصالحهم، خصوصا ما يتعلق بالملكية الخاصة، والمنافع والمرافق العامة، إذ صار التحكم في مثل هذه الأمور والنزاعُ حولها جزءًا من نظرة الإنسان للحياة [٣].

والحق الذي تؤكده عشرات النصوص القرآنية والنبوية، أن الإسلام جعل حق الحياة من الأصول الأساسية التي أحاطها الله ﷻ بالحماية والعناية، ووضع من أجل حفظها وبقائها وصيانتها، القواعد والتشريعات، والحدود والعقوبات، والمواعظ والإرشادات، ومن ذلك مثلاً قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: ٢٩] وقوله ﷻ: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة:٣٢] فليس للإنسان في الإسلام أن يقتل حتى نفسه، وليس لأحد- مهما كان- أن يعتدي أو يمنع أحدًا من الحياة، فإن فعل أو اقترب، عوقب بأشد أنواع العقاب؛ لأن الحياة الإنسانية لها

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٢٠١ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـ١٣١ وما بعدها.

(٣) انظر المرجع السابق، صـ١٤٧ وما بعدها.

قدسية وغاية وهدف ونظام ومنهج، لا يجوز الحياد عنه أو الخروج عليه، وعلى هذا أجمعت رسالات المرسلين.

يقول أ/ عباس العقاد في كتابه (الإنسان في القرآن): «قديمًا كان الحكماء يجعلون شعارهم في نصيحة الإنسان: (اعرف نفسك!).

- وقد استمع الإنسان إلى (المادية التاريخية)، فقالت لهم: إن الإنسان عملة (اقتصادية).
- واستمع الناس إلى (الفاشية) فقالت لهم: إن الإنسان واحد من عنصر سيد، أو عنصر مسود، وإن أبناء الإنسانية جميعًا عبيد للعنصر السيد.
- واستمع الناس إلى (العقلية) فقال لهم قائل منها إن إنسانيتهم كذلك شيء لا وجود له، ووهم من أوهام الأذهان، وإن الشيء الموجود حقًّا هو الفرد الواحد، وغير جديد ما استمعوه من أهل العقائد الإلهية، عن مكان هذا الإنسان، من الأرض والسماء، ومكانه من إخوته في آدم وحواء.

سمعوا أنه روح وجسد، ودنيا وآخرة، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره.
وسمعوا أن الإنسان يولد بذنب غيره، ويموت بذنب غيره، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره.
وسمعوا من القرآن غير ذلك.

- فالإنسان في عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب[1]، فلا تدركه الأبصار والأسماع.

والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد، أفضلها من عمل حسنًا واتقى سيئًا، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه» [2].

هذا الذي عرضه أ/ العقاد يبين مدى التباين بين طوائف البشر، على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم، ونظرتهم لحياة الإنسان على الأرض.

ولنا أن نسأل كلَ عاقلٍ هل تصلح الحياة بمن يظن أنها أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر؟ هل تصلح الحياة القائمة على المادة والانتهازية والصراع مع النفس والناس؟ هل تصلح الحياة بمن يظن أن البقاء فيها للأقوى والأقدر على القهر والقتل وامتلاك أسلحة الدمار الشامل وآلات الإرهاب

---

(١) يقصد المؤلف ما لم يرد فيه نص.. أما ما ورد فيه نص قطعي فإن المؤمن يدين به.

(٢) الإنسان في القرآن الكريم صـ٥، ٩، ١٠، لعباس محمود العقاد، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، المشرف العام: د/ سمير سرحان سنة ١٩٩٦م.

ووسائل البطش والتعذيب؟ هل تصلح الحياة التي يتحول فيها الإنسان إلى عملة مادية يرتفع وينخفض بقدر ما يملك من مال أو جاه؟ هل هذه هي الحياة التي خلقها الله لنا وأرادنا أن نحياها؟ إن الإنسان إذا أيقن أنه وجد في هذه الحياة ليعمرها وليكون خليفة فيها، وأن هذا الأمر يترتب عليه ثواب وحياة أخرى أطيب من هذه الحياة الدنيا.. كما يترتب عليها عقاب شديد وأليم، أشد ألمًا وحرمانًا مما يعانيه ويكابده في الحياة الدنيا..

لا شك أن هذه الحياة بهذا الفهم وهذه العقيدة.. هي الحياة الوحيدة التي تصلح، ويصلح بها الفرد والمجتمع، قال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣: ١٢٦] .

إن من نسي آيات الله ﷻ واتبع غير سبيل المؤمنين ورضى بالنظم البديلة عن الإسلام لم يأتِ بخير تسعد البشرية به أو يأمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم من خلاله ولن يعيش فى سعادة أو استقرار.. انظر إلى الحروب العالمية وكيف فتكت بالإنسان وأودت بحياة الملايين وانظر إلى علاقة الإنسان بأخيه الإنسان فى ظل القوانين الوضعية البعيدة عن الشريعة الإسلامية، وكيف جنت على الأخلاق والقيم الإنسانية والمبادئ الحسنة.

هذا ما سأذكر بعضاً منه في الصفحات التالية.

المبحث الثاني: علاقة أفراد المجتمع ببعضهم البعض:

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن للناس مصالح لا تستقيم حياتهم إلا بها، وأنها لا تقضى من تلقاء نفسها .. بل لابد وأن يقضي بعضهم مصالح بعض على نحو متعاون ومتكامل.

إذا تقرر ذلك وضعت خطط وقوانين تنظم العلاقة بين أفراد المجتمع على أساسٍ عادلٍ تراعى فيها الحقوق والواجبات؛ لأنه ما من حق إلا ويقابله واجب.

ويرى د/ فؤاد زكريا أن علاقة الأفراد بعضِهم ببعضٍ في المجتمع العربي تقوم على الطاعة والتبعية والانقياد، وحتى تؤتي ـ هذه العلاقة ـ ثمرتها في الحياة لابد لها من معرفة ووعي فكريٍّ بمقررات الحياة والأسباب التي تحكمها.. وليس مجردَ الطاعةَ العمياءَ التي تلغي عقل الفرد وفكره وشخصيته.

إن مسألة العلاقات القائمة على الطاعة أخذت من كتابات د/ فؤاد حيزًا كبيرًا، أنقل هنا بعضه باستفاضة ثم أعلق عليه، يقول: «لو تساءل المرء عن الصفة الأخلاقية التي يراد من الإنسان العربي أن يتحلى بها في كافة مراحل عمره، وفي جميع الميادين التي يتعامل معها خلال حياته الخاصة، والعامة، لكانت هذه الصفة ـ على الأرجح ـ هي الطاعة.

إن الطاعة في ثقافتنا العربية هي فضيلة الفضائل، وهي الضمان الأكبر لتماسك واستقرار المجتمع.. والقضية التي أود أن أدافع عنها في هذا المقال تسير في الطريق المضاد لهذا التراث الأخلاقي والاجتماعي المتأصل القديم العهد، ففي رأيي أنه إن كانت هناك أسباب معنوية لتخلفنا وتراجعنا واستسلامنا أمام التحديات، فإن الطاعة تأتي على رأس هذه الأسباب إنها ـ بغير تحفظ ـ رذيلتنا الأولى، وفيها تتبلور سائر عيوبنا ونقائصنا.

وأستطيع أن أقول (والكلام لا يزال للدكتور/ فؤاد): إن تنشئة الإنسان العربي ترتكز في مراحلها المختلفة على تثبيت هذه القيمة الخلقية والاجتماعية، وغرسها بطريقة راسخة، حتى تصبح في النهاية جزءًا لا يتجزأ من تركيبه المعنوي.. فمنذ سنوات العمر الأولى تعمل الأسرة على أن تكون العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة (طاعة) وتقدم (طاعة الوالدين) على أنها قمة الفضائل العائلية.. وكأنها هي النموذج الأعلى للسلوك الأسري المثالي، وحين يتكرر هذا النموذج عبر عشرات الأجيال، تكون النتيجة الطبيعية هي جمود المجتمع بأكمله وانعدام التجديد فيه، والتفاخر بشعار رجعي متحجر هو:

وينشأ نـــــــــاشيء الفتيان منا   على ما كـــــــان عوّده أبوه!![1]

---

(١) من نوادر الأصمعي، موقع منهل الثقافة التربوية١٩٨٠٥ /http://www.manhal.net/art/s.

أما العلاقة بين الزوجين، فإن أساسها الذي تفرضه التقاليد، وتحاصر به المرأة من كافة الجوانب، هو طاعة المرأة لزوجها، إن الزوج هو الآمر، وهو الممسك بالدفة، أما الزوجة فإن سيلاً عارمًا من الأدبيات، والتراث الشعبي، والنصائح الموروثة، يؤكد أن فضيلتها الكبرى تكمن في كونها زوجة (مطيعة). !! »(١)

تأمل كيف شنع د/ فؤاد بالمرأة التي تربت على طاعة زوجها دون معارضة، والابن الذي يطيع أبويه دون مراجعة، واعتبر ذلك مرضًا خطيرًا.. يلغي العقل والشخصية والفكر ـ على حد زعمه ـ ومن ثم يورث التبعية والانقياد .. ويجر البلاد إلى التأخر والفساد... وعن علاقة الشباب والأطفال بالمجتمع.

يقول: «وحين ينتقل الطفل العربي من خلية المجتمع الصغرى، أعني الأسرة، ليبدأ في الاندماج في مجالات أوسع وأكبر، يجد نظامًا تعليميًّا، يقوم من أوله لآخره على مفهوم الطاعة... »(٢)

فالدكتور لم يكتف في مقالة السابق بالأبناء والزوجة، ولكنه تطرق إلى جميع فئات الشعب، العامل مع المدير، والمرءوس مع الرئيس.. أليس هذا ما حدث، ويحدث في بلادنا الآن وجَرَّ على أبنائها الفتن والمحن؟ يقول: «وحين ينتقل الشباب العربي إلى مرحلة الحياة العملية، يجد علاقات العمل مبنية في الأساس على مبدأ الطاعة، فعلاقته بالمسئول هي علاقة (رئيس بمرءوس)، وهو في ذاته تعبير يحمل دلالات بليغة، فكلمة (الرئيس) مشتقة من (الرأس)، أي: إن المسئول في أي موقع للعمل هو رأس العاملين فيه، وهو أعلاهم مقامًا، كما أنه عقلهم المفكر، وأهم الصفات التي تعبر عن تقدير المجتمع للموظف العربي، والتي تؤهله للارتقاء في منصبه، هي أن يكون (موظفًا مطيعًا).. وهنا يصبح مبدأ الطاعة، في وطننا العربي، هو السائد والمسيطر بلا منازع.. ذلك لأن السّمة المميزة لعلاقة ربّ الأسرة بأفرادها هي أن له عليهم حق الطاعة، وهكذا فإن الحاكم حين يصبح (كبير العائلة) أو (رب الأسرة الواحدة) يطالب لنفسه بحقوق الأب، الذي لا يخضع لمحاسبة أبنائه، والذي تطاع أوامره، مهما كانت قسوتها... »(٣)

ومضى د/ فؤاد في حديثه عن الطاعة سواء بين الأفراد في علاقتهم أو بين الأبناء والآباء.. أو الزوجات والأزواج.. أو التلاميذ والأساتذة أو العمال والمديرين... حتى الأنظمة العسكرية وعلاقة الجنود بالقادة ينكر عليها مبدأ الطاعة في أول كلامه ثم يبرره مؤكدًا أن هذا النظام (العسكري القائم على الطاعة)

---

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ٧٧ ، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) (٣) المرجع السابق،صـ٧٨.

قد أثبت فاعليته في المهام التي توكل إليه. يقول: « أما في الأنظمة التي تستولي على الحكم بانقلابات عسكرية، وما أكثرها في وطننا العربي، فإن مبدأ الأمر والطاعة، يصبح هو المسيطر بلا منازع ذلك لأن تكوين شخصية الضابط أو الجندي المحارب في الجيش يعتمد أساسًا على تعويده أن يصبح إنسانًا مطيعًا، وانتزاع كل جذور النقد والتساؤل من شخصيته، فالجيش مؤسسة تقوم كلها على ترتيب هرمي، يسود الرتب المختلفة، فيه نظام صارم من الأمر والطاعة.

ومن المؤكد أن هذا النظام قد أثبت فاعليته في المهمة الأساسية التي تضطلع بها الجيوش وهي القتال في سبيل الوطن دفاعًا أو هجومًا، بدليل أن معظم جيوش العالم كانت وما تزال تأخذ بها، ولكن المشكلة الحقيقية تبدأ حين ينقل هذا النظام الصارم من ميدانه الأصلي، ويصبح أساسًا لحكم مجتمع كامل، بحيث تغدو علاقة الحاكم بالمحكوم، مماثلة لعلاقة الضابط الآمر بالجندي المطيع، فمثل هذه العلاقة تؤدي حتمًا إلى تخريب عقل المواطن وضياع قدرته على المشاركة في حل مشكلات مجتمعه، وتولد لدى الحاكم إحساسًا متضخمًا بذاته، حتى ليتوهم أن الوطن كله قد تجسد في شخصه، وما أكثر ما يمكن أن يقال عن النتائج المأساوية المترتبة على تطبيق الأنظمة العسكرية الصارمة على مستوى المجتمع بأكمله، وتحويل مؤسسات الدولة إلى نماذج مبكرة للثكنات الحربية، ولكن يكفينا تحقيقًا لأهداف هذا الحديث أن نشير إلى أن مبدأ الطاعة هو القيمة الأساسية والفضيلة الكبرى لرجل الجيش، وهو الذي يغدو مسيطرًا حين يدار المجتمع بأكمله على النسق المطبق في المؤسسة العسكرية. »[١]

ولم يكتفِ د/ فؤاد بإنكاره على الطاعة بل وصفها بأنها مرض عضال وداء ووباء، يقول: "إن الطاعة وباء لا يفلت منه أحد ذلك لأن كل من يفرض الطاعة على من هم دونه يجد نفسه مضطرًا إلى طاعة من يعلونه.. ويظل التسلسل مستمرًا فلا أحد يفلت من ذل الطاعة.. وهكذا ففي كل مجال من مجالات الحياة، يجد الإنسان العربي مبدأ الطاعة مفروضًا عليه، يدفعه إلى المسايرة والخضوع والاستسلام، ويقضي على كل إمكانات التفرد والتمرد في شخصيته، إن الطاعة تحاصرنا من كل جانب، وتلازمنا في جميع مراحل حياتنا، وتفرض نفسها حتى على مَن يدّعون (الثورية) في مجتمعاتنا، على أنك حين تطيع لا تكوّن ذاتك، بل تمحو فرديتك، وتستسلم لغيرك، وأكاد أقول ـ والكلام للدكتور فؤاد ـ : إن أعظم إنجازات الإنسان لم تتحقق، إلا على أيدي أولئك الذين رفضوا أن يكونوا (مطيعين) فالمصلحون الذين غيروا مجرى التاريخ لم يطيعوا ما تمليه عليهم أوضاع مجتمعاتهم.

وأصحاب الكشوف العلمية الكبرى لم يطيعوا الآراء السائدة عن العلم فى عصورهم، والفنانون

(١) المرجع السابق، صـ ٨١ وما بعدها بتصرف.

العظام لم يطيعوا القواعد التقليدية التى كان يسير عليها أسلافهم، وهكذا فإن كل شيء عظيم أنجزته البشرية كان مقترنًا بقدر من التمرد ومن الخروج على مبدأ الطاعة، وأكاد أقول: إن الإنسان لم يكتسب مكانته فى الكون إلا لأنه رفض أن (يطيع) الطبيعة، ويستسلم ـ كما تفعل سائر الكائنات الحية ـ لقواها الطاغية، وهكذا فإن الإنسان الذى يعرف معنى وجوده، هو ذلك الذى يهتف في اللحظات الحاسمة من حياته: أنا متمرد إذن فأنا موجود» (١).

هذا ما يراه د / فؤاد زكريا، دون أدنى تفريق بين طاعة مشروعة، وطاعة ممنوعة، فالطاعة في المعروف ليست خطيئة، أو مرضًا عضالًا، كما يقول د/ فؤاد، سيما بين الابن وأبيه، والمرأة وزوجها، والتلميذ وأستاذه.. والعجيب أن د/ فؤاد يستثني المؤسسة العسكرية من (الطاعة)، التي يرى أنها: (خطيئتنا الأولى، ووباء ومرض عضال، وأساس التخلف) ولا أدري على أي أساس تقبل الطاعة أو ترفض عند الدكتور!! على أساس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أم ماذا؟ ولا أدري ماذا يقول د/ فؤاد ومن يؤيده أو يناصر أفكاره في الآيات والأحاديث الكثيرة التي تأمر بالطاعة وترتب عليها ثوابًا أوعقابًا في الدنيا والآخرة ومنها على سبيل المثال لا الحصر قوله ﷻ: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[النور:٥١] .

وقوله ﷺ:(اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة)(٢)

إن الطاعة في المعروف قد تكون فريضة وواجبة أو مستحبة وأحيانًا تكون مباحة، وهي بكل درجاتها مندوحة وقيمة محمودة، يترتب عليها ثواب وعقاب في الدنيا والآخرة، أما الطاعة في معصية الله جريمة، وكل معصية لله منكر يترتب على فعله عقاب وعلى تركه ثواب وما أكثر الآيات والأحاديث الدالة على ذلك، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[الكهف:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾[القلم:٨، ٩] وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف:٥٤].

وقال ﷺ: (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)(٣)

(١) المرجع السابق، صـ٨٢ وما بعدها، بتصرف.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك ﷺ كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، برقم(٧١٤٢)، صـ١٠٠٩، ط/ مؤسسة زاد للنشر والتوزيع، ط/ الأولى، سنة١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر ﷺ برقم(٧١٤٤)، المرجع السابق نفس الكتاب والباب والصفحة.

إذن هناك فرق بين طاعة وطاعة، لقد أخطأ د/ فؤاد زكريا حين أنكر مبدأ الطاعة مطلقًا دون أن يستثني منها شيئًا .

كنت أتمنى أن يفرق د/ فؤاد زكريا بين ما للإنسان من حس وعقل ووجدان وإرادة وحرية.. وبين ما للقيم الثابتة (كالنصوص الدينية والعقل الجمعي والعرف العام ومصلحة الجماعة والمجتمع) لكنه ـ دائمًا ـ مع إعلائه القيم العقلية على حساب الثوابت القطعية للشريعة الإسلامية، وهذا ما سأذكره كثيرًا في مباحث ومطالب هذه الدراسة، والحق إن إصلاح الفرد وعلاقته بأخيه لا يمكن أن يكون بعيدًا عن الوحي وهدايات السماء، ولا تكون بالتمرد والخروج على الطاعة الواجبة، ولو حدث.. تكون فتنة في الأرض وفسادًا عريضا.

و د/ فؤاد يرى غير ذلك، يرى أن الطاعة هي خطيئتنا الأولى، وسر تخلفنا، واللحظة الحاسمة هي التي يتمرد فيها المرء، ويرى فيها شخصيته.فهل التمرد هو الخير؟ وهل في تمرد الابن على أبيه، والزوجة على زوجها اسقرار للمجتمع؟

كنت أظنه يفرق ـ كما يفعل العلماء ـ بين طاعة عمياء، وبين طاعة واجبة، الأولى يأثم صاحبها ويُخَطَّأ، والثانية يُؤجر صاحبها ويشكر.. ولكن الدكتور ـ كما تعودت منه ـ لا يلتفت إلى قرآن أو سنة أو حلال أو حرام !!

والسؤال المهم: هل في ظل تمرد الأبناء على الآباء، والزوجة على زوجها يكون هناك قيام بواجبات اجتماعية عمادها الحب والبر والبذل والعطاء؟ لقد تأكد لي ـ بعد قراءتي عن العلمانيين والليبراليين ـ أن خراب عقول الشباب جاء من هذا الفكر المغلوط الذي يقلب الحقائق رأسًا على عقب.

ولا أدري كيف يريدون للمجتمع الصلاح والاستقرار والترابط وهم يدعون جميع أفراده إلى التمرد والعصيان بدعوى إثبات الذات، واحترام العقل، والتطور والتجديد والإبداع !!

وفي ترجمته لكتاب (جمهورية أفلاطون) يظل د/ فؤاد على موقفه من إنكار الطاعة، حتى ولو كانت هذه الطاعة بين الفلاسفة وتلاميذهم فحين قال أفلاطون: «أيتها النفوس الفانية، سوف تبدأ دورة جديدة للحياة الأرضية.. إنكم لن تجدوا جِنِّيًّا يختاركم، بل أنتم تختارون.. واللوم إنما يقع على من يختار أما السماء فلا لوم عليها... إنها اللحظة الحاسمة التي يتقرر بها مصير الإنسان، ولهذا السبب عَيْنِه كان على كل منا أن يتخلى عن أية دراسة أخرى، ويقتصر على بحث الطريقة، التي يهتدي بها إلى شخص يكتسب منه المعرفة الكفيلة، بتمكينه من التمييز بين حياة الخير وحياة الشر ومن اختيار أفضل ما يتسنى له في كل الأحوال

مقدار ما للصفات التي عددناها من تأثير على الفضيلة في الحياة عن طريق تجمعها أو تفرقها، فعليه أن يعرف منه التأثير النافع أو الضار» [١].

تأمل ما قاله أفلاطون! إنه يطلب من الشخص أن يهتدي إلى مَنْ يكتسب منه المعرفة الكفيلة، وتأمل تعليق د/ فؤاد زكريا: «هذه العبارة تفسد تأثير كلمات أفلاطون الرائعة السابقة (اللوم إنما يقع على من يختار أما السماء فلا لوم عليها) ذلك لأن (أفلاطون) أكد حرية كل إنسان في الاختيار، وفي تقرير مصيره بنفسه، ثم يعود هنا فيجعل الفرد عاجزًا عن السير في الطريق السليم إلا بمعونة الفيلسوف وبإرشاده، أي أن الناس جميعًا ـ ما عدا الفلاسفة ـ عاجزون عن الاختيار الصحيح، ولابد لهم من مرشد» [٢].

ولا تعارض ـ فيما أعلم ـ بين ما يقوله أفلاطون من حرية الإنسان في الاختيار، ومن ضرورة وجود مرشد يأخذ بيد البسطاء من الناس، كما كان يفعل الأنبياء والمرسلون، إذ يرشدون أقوامهم من جهة، ويتركون لهم حرية الاختيار من جهة أخرى، والحق أنني لا أفهم كيف يشيد د/ فؤاد زكريا بالفلاسفة في معظم كتبه وكيف ينكر عليهم مبدأ الطاعة والاتباع- ولو بقدر نسبي- بين التلميذ والأستاذ، ويدعو الفرد أن يعتمد على نفسه، ولا أدري ماذا يقول د/ فؤاد لو كانت هذه النفس أمارة بالسوء.

والخلاصة أن ما يراه د/ فؤاد في العلاقة بين أفراد المجتمع، يتلخص فيما يلي:

١ـ الفرد هو محور الحياة وأساس وجودها. ٢ـ الفرد حر فيما يختار ويقرر.

٣ـ الطاعة هي خطيئة المجتمع الأولى، وأنها تضعف من شخصية الفرد.

٤ـ لابد للفرد في تعاملاته من رؤية معرفية صادقة وإن كانت نسبية.

٥ـ لابد وأن تكون للفرد ملكة النقد القائم على الدليل المعقول أو الملموس.

٦ـ لابد للفرد أن يتخلى عن الدراسات والأفكار السابقة مهما كانت درجة قدسيتها.

هذه هي أهم النقاط التي تتعلق بإصلاح الفرد عند د/ فؤاد زكريا.

والشيخ/ محمد الغزالي يتفق مع د/ فؤاد في نقد العلاقة القائمة على التبعية العمياء التي تعطل العقل والضمير، وتقوم على العصبية والمنفعة، ويبين بوضوح خطورة العلاقات القائمة على المصلحة والعصبية وما يقوم به بعض أفراد المجتمع، وما يجب أن يكونوا عليه في المعاملات الحياتية واليومية.

يقول: «أسأل: ما الإنسانية التي تتعشقها، ويستحب الانتماء إليها ألوف المثقفين الآن؟ يقولون إنها الارتفاع بقيمة الإنسان، وتثمير خصائصه الراقية في إنشاء حضارة ذكية نافعة، وتمكينه من ارتفاق الكون

(١) جمهورية أفلاطون، ترجمة ودراسة: د/ فؤاد زكريا، صـ٥٧٩، وما بعدها، بتصرف طـ/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٤م.

(٢) المرجع السابق، هامش صـ ٥٨٠.

كله وتسخيره لخدمته.. ثم تجاوز الفروق بين الأجناس والأديان، وجعل الحياة تعاونًا على المصالح العامة، لا تعاركًا على المآرب الخاصة.

هذا تقريبًا كل ما يقال في تعريف هذه الإنسانية المنشودة...

إن عنوان الإنسانية أبرزته فلسفات كثيرة، ومذاهب اجتماعية متناقضة، أو متنافسة، وقد ظهر بعد التطبيق العملي لهذا المبدأ سواء في المحافل الدولية أو السلطات المحلية، إنه غطاء لقضايا أخرى خبيثة» (١)

وما خلق الناس للخبث والصراع في التعامل فيما بينهم، ولا أجد أعظم من قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] .

ويرى الشيخ/ الغزالي أن علاقة أفراد المجتمع ببعضهم البعض، يشوبها كثير من التعصب والجهل والعنصرية والأثرة وحب الذات، والاستخفاف بالحقوق والواجبات والعقائد والمقدسات، يقول: « مع غلبة الأوهام وانتشار التفاهات، يستكثر الصغار من الأمجاد الكاذبة، ولم لا يستكثرون منها وهي لا تغرمهم ثمنًا، ولا تكلفهم جهدًا، إن اختلاف البشرة في ألوانها يعطي البيض فضلاً ليس للسود! وميلاد المرء فوق قطعة من الأرض دون أخرى، يجعل وطنًا أرقى من وطن، وتكوين جنين في بطن معين من نطفة معينة يخلق نسبة أشرف من نسبة، فإذا اصطنع أقوام من هذه الأحوال وأشباهها فروقًا يتشبثون بها ويدورون حولها، فماذا عليهم؟!...

لقد صَفرت أيديهم من الجد، فملأوها بالهزل، ثم شقوا طريقهم في الحياة، وعلى خدودهم صَعْر، وفي قاماتهم تطاول.

عصبيات للأسر، عصبيات للأوطان، عصبيات للأجناس، (وعصبيات أخرى، لا تعد ولا تحصى، منها ما يتعلق بالعقيدة الباطلة والفكر والمذهب والحزب والحرفة والهوية والقومية، والقبلية والإقليمية والاتحادات الطلابية والنقابية، وأخطرها ما يتعلق بالأفكار العنصرية)...

إن ناسًا يريدون أن يسودوا؛ لأن فروج أمهاتهم يوم قذفت بهم إلى هذه الحياة. أضفت عليهم هالة خاصة» (٢)

ناهيك بالعلاقات القائمة على المصالح الشخصية والقومية والعصبية الدينية، والانتماءات والولاءات

---

(١) علل وأدوية: دراسات في أمراض أمتنا، ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء صـ٥٨، طـ دار التوفيق النموذجية ، ط/ الأولى ١٩٨٤م/ ١٤٠٤هـ .

(٢) التعصب والتسامح للشيخ محمد الغزالي ، صـ١٠ بتصرف، ط/ مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٥م.

السياسية والحزبية، والتي يجب أن يمحى منها ما يضر بالقيم الإنسانية، والأخلاقية، وتُرَشَّد، وتضبط بطريقة شرعية، وقانونية، وهذا واجبٌ يجب أن يقوم به الفرد والمجتمع والدولة.

والخلاصة:

أن ما يراه الشيخ الغزالي في العلاقة القائمة بين أفراد المجتمع يتلخص فيما يلي:-

١ - أن علاقة أفراد المجتمع تشوبها كثير من الشوائب التي تعكر صفوها.

٢- من هذه الشوائب الجهل والأنانية والاستخفاف بحقوق الغير.

٣- ومنها الكبر وصناعة الأمجاد الكاذبة والشرف المزيف.

٤ - ومنها عصبيات الأسر والأوطان والألوان والعقائد وغيرها.

وأنا أتفق مع الشيخ/ الغزالى فى أن العلاقة بين الناس يَشُوبها ويعكر صفوها الجهل بالقيم الإسلامية والمروءة الإنسانية والعصبيات والأنانية والكبر والاستخفاف بحقوق الغير..

كما أتفق مع د/ فؤاد فى أن الفرد هو محور الحياة وإصلاحه أول خطوات الإصلاح الاجتماعى وأنه ينبغى أن تكون ـ لهذا الفرد ـ إرادة ورؤية معرفية صادقة.. ونقد بناء قائم على الدليل.

وأختلف معه فى مسائل الحريات المطلقة والدعوى إلى التمرد بالتخلى عن الطاعة والدراسات السابقة (ولو كانت مقدسة) وكذلك اقتصاره فى الدليل على العقل والتجربة فقط.

وإذا كانت هذه هي علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ـ كما يراها د/ فؤاد والشيخ محمد الغزالى ـ فما هو دور العقل في عملية الإصلاح ومجالاته المتعددة..

هذا ما سنبحثه – إن شاء الله– في الصفحات التالية.

المبحث الثالث: عقل الإنسان، ومجالات الإصلاح الاجتماعي.

العقل هو مناط التكليف وأساس التشريف، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[الإسراء:٧٠] والعقل هبة الله للإنسان، فإذا أخذ الله ما وهب (العقل) أسقط ما أوجب (التكاليف) ولقد ميز علماء المنطق الإنسان بأنه حيوان (ناطق) والحق أن الإنسان لا يمتاز بهذه الخاصية فقط وإنما يمتاز الإنسان بالعقل والتفكير، فالإنسان مخلوق عاقل ومسئول ومفكر وله إرادة حرة يملك بها الاختيار عن قناعة وعلم ووعي. ولقد نبه القرآن الكريم الإنسان إلى هذه الحقيقة وأمر بإعمال العقل في تسعة وأربعين موضعاً [(١)] والاستفادة منه في كل مجالات الحياة، لاسيما التمييز بين ما هو صالح وما هو فاسد، بل وتمييز ما هو أصلح وأنفع.

يقول أنصار د/ فؤاد: "إن الاتجاه العام السائد في كتاباته، إنما هو الاتجاه العقلاني، ذلك الاتجاه الذي يؤمن بأهمية التفكير النقدي، والاتجاه الذي لا يغرق في الموضوعات الميتافيزيقية [(٢)] أي في الغيبيات، وفي الوقت نفسه نجد الدكتور/ فؤاد زكريا يعتقد أن الفلسفة يجب أن تكون أداة لخدمة قضايا الإنسان بمختلف أنواعها ومجالاتها، فالواقع أن د/ فؤاد زكريا لا ينظر إلى العقل نظرة مجردة، أي العقل النظري أو العقل في حد ذاته، بل إنه يكون حريصًا باستمرار على الربط بين العقل والمجتمع، أي بيان دور العقل في الإصلاح الفكري والاجتماعي والسياسي" [(٣)].

وهذا ما يؤكده د/ فؤاد زكريا إذ يرى أن عقل الإنسان لا قيمة له ولا مجال للفائدة منه إلا بالمعرفة المكتسبة (الثقافة) يقول: "الثقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع ويمكن تعريفها بأنها ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف، وأية قدرات وعادات أخرى، يكتسبها الإنسان بوصفه فردًا في المجتمع، ويقترب من ذلك التعريف الوارد في قاموس (إكسفورد) [(٤)] من أنها

---

(١) انظر كتاب المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي مادة (ع ق ل) ومشتقاتها (فقط)، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[يونس:١٠٠]، وغير ذلك كثير من الآيات التي نوهت بقيمة الفكر والوعى والقلب والحواس وخاطبت أولى الالباب وذوى البصائر والاعتبار.

(٢) الميتافيزيقية: هى الأمور الغيبية وماوراء الطبيعة كالجنة، والنار والجن، والملائكة.. إلخ السمعيات التى جاءت بها الأديان السماوية ولا يمكن أن تعرف بحواس الإنسان.

(٣) موقع المصريون **http://www.almesryoon.com/news.aspx?id** :

(٤) قاموس إكسفورد قاموس انجليزي لعدد من المحررين وعلماء اللغة، من بينهم سالي وهمير ، وكولين مكل نتش وآخرون، نشرته مطبعة جامعة إكسفورد، وطبع سبع مرات، آخرها سنة ٢٠٠٧م، انظر صـ٣٥٧، كلمة ثقافة .

الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معين، كما تعبر عنها الرموز اللغوية والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية [١].

والثقافة بالمعنى الإنساني الرفيع، ويمكن تعريفها بأنها صقل الذهن والذوق والسلوك، وتنميته وتهذيبه، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال البشري لتحقيق هذا الهدف»[٢]

والدكتور/ فؤاد بهذه الكلمات السابقة يؤكد أن العقول ليست على درجة واحدة؛ إذ للثقافة دور كبير في ارتقاء هذه العقول، وأن هذه الثقافة لا تكون علمًا بالمعنى الصحيح إلا إذا تفاعلت مع حقائق الكون وتوصل صاحبها إلى معرفة ظواهر الحياة.

ففي كتابه (التفكير العلمي) يقول: «لا يكون النشاط العقلي للإنسان علمًا بالمعنى الصحيح إلا إذا استهدف فهم الظواهر وتعليلها، ولا تكون الظاهرة مفهومة بالمعنى العلمي لهذه الكلمة إلا إذا توصلنا إلى معرفة أسبابها» [٣]

ويمضي د/ فؤاد في بيان قيمة العقل المثقف وعلاقته بالإصلاح الاجتماعي وتدبير شئون الحياة فيقول: «إن القدر الأكبر من الجهد الذي يبذل من أجل تدبير شئوننا يصبح بشريًّا، ويتعين علينا أن نعتمد على عقولنا وعلى طريقة تفكيرنا في (معظم أمور حياتنا)، وبقدر ما تزداد المسافة اتساعًا ـ من الناحيتين الزمنية والحضارية ـ بيننا وبين نزول الوحي تزداد أهمية الاجتهاد البشري، ولابُد أن يملك أقل قدر من الحس الواقعي، ولا ينقاد باستسلام للعبارات الإنشائية المطاطة، وأن يعترف بأن هذا الاتجاه إلى تأكيد دور العنصر البشري سوف يزداد أهمية كلما تغيرت حياة الإنسان في المستقبل» [٤].

وأنا لا أختلف مع الدكتور/ فؤاد زكريا في أهمية الاجتهاد البشري، وحتمية التفكير العلمي، لكن لا أرى أن ذلك وحده كافٍ لوضع منهج تُعرف به ومن خلاله أسرار الحياة ، وأن اعتمادنا على تفكيرنا في معظم أمور حياتنا يقيم مجتمعًا صالحاً، تأمل كلمة (معظم) ولم يحدد بالضبط ما هي الأشياء التي تستثنى من دائرة العقل ولا يمكن للعقل أن يصل إليها منفردًا أو بعيدًا عن الوحي.

ولا أدري هل يجهل الدكتور فؤاد زكريا أن للعقل مجالًا يجول فيه، ومدار يدور حوله لا يتعداه !! أم أنه يُخفى حقيقة أن المجتمع العربي المسلم عندما يشكك في قدرة العقل يقصد (ما وراء الطبيعة)، وعندما

---

(١) المرجع السابق، وانظر موقع: **www.oxforddictionaries.com/definition/english/culture**

(٢) خطاب إلى العقل العربي صـ١٤، مرجع سابق.

(٣) التفكير العلمي صـ٣٧، مرجع سابق.

(٤) كتاب الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ١٩، مرجع سابق.

يعارض العقل يعارضه بالنص المعصوم وليس بالحدس والتجربة الشخصية المباشرة، إذ يرى د/ فؤاد زكريا أن معارضة العقل- بأي شيء- عقبة لا بد وأن تزول، يقول: "..فإذا انتقلنا إلى عقبة (إنكار قدرة العقل) وجدنا هذه العقبة تصول وتجول في عالمنا العربي، ومن المؤسف أن تأثير هذه العقبة لا يرجع إلى أننا نتمسك بقوة أخرى كالحدس مثلاً نعدها منافسة للعقل، ونؤكد أهمية التجربة الشخصية المباشرة على حساب العلمية الموضوعية اللاشخصية، بل إننا نتأثر بهذه العقبة بمعناها الفج: أعني بمعنى عدم الإيمان بأن العقل قادر على تحصيل العلم أو عدم الإيمان بقيمة العلم ذاته، وهناك فئة من الكتاب يجدون متعة كبرى في الحط من قدر هذا العقل الذي هو أعظم ملكاتنا، وهو الذي يميزنا عن سائر الكائنات، وهو الذي صنع للإنسان حضارة وتاريخًا، وجعل له هذا المركز المميز للكون" [١].

ولم يقتصر د/ فؤاد على بيان قدرة العقل على تحصيل العلم واستكشاف أسرار الكون...بل يرى أن الفرد قادر بعقله على السير في الطريق السليم، ولا يحتاج إلى مرشد، كما أراه دائمًا يدافع عن العقل ويلتمس لاخفاقاته الأعذار ويعللها بقلة الإمكانات المادية، أو بعدم التدريب العملي والعلمي الصحيح، أو بالبيئة التي يعيش فيها الإنسان، و الجمود الفكري الموروث، أو باختلاف الزمان والمكان ومواهب الإنسان.. [٢]

والحق إن هذه العلل والأعذار.. التي يلتمسها الدكتور لإخفاقات العقل وقصوره تؤكد خلاف ما يقول وليست دليلًا على قدرة العقل على حل جميع المشاكل وفهم كل الأمور.

وإذا كان د/ فؤاد زكريا له رؤيته ـ كما هو واضح من كتاباته ـ والتي تصل إلى حد القرب من تأليه العقل على النحو الفلسفي الذي تشبع به، بل زاد عليه[٣] فإن الشيخ/ محمد الغزالي مع إعلائه لقيمة العقل لإشادة القرآن الكريم به، وبيان أن العقل مناط التكليف الإلهي.. وأنه لابدّ وأن يعمل ويفكر في أسرار الكون وظواهر الطبيعة، وأن يدرك وظيفته في الحياة دون أن يتعدى عليه أحد.. وأنه قادر على الإبداع والاختراع، و مع هذا كله لا غنى له عن وحي السماء.. ولا يجوز ولا يصح أن يتعدى العقل حدوده، وأن ينفرد بتفسير كل شيء؛ إذ للعقل حدود لا يجوز أن يتخطاها ومجالات لا يتجاوزها.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "قام العقل الإسلامي على الحقائق وحدها، ونَفْي الأوهام والظنون واعتمد على الفكر الذكي والحواس اليقظة في تقرير أنواع المعرفة، وما كانت البشرية تدرك ذلك لولا القرآن الذي عدّ الغباء وبلادة الحواس وقلة الوعي هي طريق النار.. وعلى النسق البلاغي العالي في تعبير القرآن تقرأ

---

(١) التفكير العلمي صـ ١١٤، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، د/ فؤاد زكريا، صـ٢٢، ط/ مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٦٢م.

(٣) انظر تعليقاته في المبحث السابق على أفلاطون القائل بضرورة أن يكون للإنسان مرشد يهتدي من خلاله إلى التمييز بين الخير والشر.

قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٩] »[١]. ويقول ـ أيضًا ـ في كتابه (علل وأدوية): «لقد رأيت القرآن الكريم يتحدث عن (أولي الألباب) يعني أصحاب العقول في ستة عشر موضعًا، نستطيع عند تدبر كل موضع منها أن نعرف المستوى العالي لذوي الإيمان الصحيح، وكيف يتحرك العقل المؤمن في كل اتجاه ليقرر الحق ويقود إليه.

ومضى الشيخ الغزالي في سرد بعض هذه الآيات المنوهة بقيمة العقل الراشد القائم على العلم والفهم والصواب، لا على الجهل والوهم والتقليد.. مركزًا على المواضع التي تحدث فيها القرآن الكريم عن أولي الالباب [٢] ثم قال:أظن أبا الطيب المتنبي كان يستوحي الآيات الكريمة نصًا، وروحًا عندما قال بيته المشهور: ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام[٣]

(وهناك) موضع أخير لكلمة أولي الألباب في (سورة الزمر) يتناول مصدرًا من مصادر الإيمان الحق، وكيف ينبني هذا الإيمان على التفكير الواعي، قال ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:٢١]... »[٤]

وبعد شرح طويل ختم الشيخ كلامه عن العقلاء.. وخطورة إهمال العقل، وعدم إعماله فيما يفيد بهذه الكلمات «ولنزد هذا الكلام وضوحًا أن أساس الفطرة عقل سليم وقلب نقي، وسلامة العقل توجب احترام الحقائق وإدراك الواقع دون نقص أو زيادة، ورفض الأوهام والخرافات والوقوف بالظنون عند حدودها، فلا تتحول النظرية إلى يقين مثلاً، وضبط الأحجام المادية والأدبية للأشخاص والأشياء، فلا يجمح الخيال بها إلى فوق أو تحت...(وختامًا) إن ما أثبتناه هنا نموذج واحد من نماذج كثيرة لأسلوب القرآن في بناء الأمم على الفكر الناضج والعقل السليم.. ونحن نجزم بأن الأمم المتخلفة عقليًّا، لا تتصل بالإسلام إلا دعوى، وأنها ما تصدق في هذا الانتماء المزعوم، إلا يوم تكون من أولي الألباب» [٥].

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية صـ٤٩، مرجع سابق.

(٢) وهي ستة عشر موضعًا كما أشار الشيخ إلا إنه ذكر بالتفصيل ما ورد في سورة آل عمران رقم (٧) ورقم (٩٠)، وسورة يوسف رقم (١١)، وسورة الرعد رقم (١٩ : ٢٠)، وإبراهيم (٥٢)، والزمر(٢١:١٨:١٧) للمزيد ومعرفة الشروح والتفاسير، راجع كتاب علل وأدوية، صـ٣٩ وما بعدها، مرجع سابق.

(٣) ديوان المتنبى(١/ ١٦٣) دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت تحقيق / مصطفى السقا وأخرون سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٤) (٥) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية صـ٤٩، صـ٥٠، مرجع سابق.

ومن خلال ما سبق يتبين أن إصلاح الفرد وإصلاح فكره وعقله من أهم أولويات الإصلاح في المجتمع، وهذا ما يتفق عليه كل من د/ فؤاد والشيخ الغزالي، إلا أن الأول يرى أن الإصلاح المنشود يقوم على العقل والفكر البشري، والثاني يؤكد: أن لا صلاح ولا إصلاح لعقل الإنسان بعيدًا عن الوحي المعصوم والفهم الصحيح له.

ولا ينكر أحد أن الصناعات المتطورة والحضارات المتعاقبة والاختراعات الحديثة من الإبرة إلى الصاروخ.. عمادها وقوامها على العقل، كما لا ينكر أحد أن للعقل سلطانًا قويًّا على عواطف وأحاسيس ووجدان الإنسان، وأن العقل يضع الدساتير والقوانين التي تساعد على ضبط السلوك الإنساني وكبح جماح النفس.. ولكن ما الحكم لو أخفق العقل أو عارضه عقل آخر أقوى منه وأقدر على تنفيذ القوانين والأحكام بصرف النظر عن خيرها أو شرها أو عدلها أو جورها، تُرى أي عقل نتبع؟ (عقل) الغالب أم المغلوب؟ وما الحكم لو تعارض العقل مع العرف العام والدستور القائم، تُرى مَنْ له سلطان على الآخر؟ ومَنْ يحكم على مَنْ؟

ليس العقل وحده (منفردًا) هو الذي يتحكم في الإنسان، ويحكم على سلوكه وتصرفاته، بل معه قوى أخرى لا تقل أهمية عنه، وأحيانًا تتغلب عليه وتجبره على التسليم والاستسلام.

هذه القوى هى :

١ـ قوة العاطفة والأحاسيس والمشاعر. ٢ـ قوة العرف العام أو الدستور والقانون.

٣ـ قوة الدين بما فيه من شرع، وأحكام، وأخلاق.

هذه الجهات الأربع ـ العقل، والعاطفة، والعرف، والدين ـ تجتمع على الإنسان فى وقت واحد، وفى لحظة واحدة، وتطرح بقوة ما عندها، وما تريد، وربما بشيء من التنازع، والخلاف، والاختلاف.. الأمر الذى يجعل الإنسان السوي يقف مع نفسه وقفة تَرَوٍ ومراجعة، يعرف من خلالها مقام كل جهة من هذه الجهات الأربع، ومدى صوابها أو خطئها، أو حقها أو باطلها.

والأهم من ذلك كله، مَن مِنها يتقدم على الآخر ويتحكم فيه، وله سلطان عليه؟ لا شك أن الإنسان إذا فكر فى ذلك بحق، ورغب فى معرفة الحقائق بصدق، سيصل إلى قناعة ويقين: أن العواطف والمشاعر لا يجوز أن تتقدم على العقل، فالعقل يحكمها، ويهذبها، ويكبح جماحها، فهو سيدها والمسيطر عليها، وإن ضعف العقل أمامها، أو انحرف معها، فالقانون يردعه ويوقفه عند حده، وإن جار القانون أو ظلم أو استبد، أو مورس بطريقة جائرة.. تُرى من الذى يُوقف هذا الجور والظلم؟ وبأى سلطان يقف؟

الجواب: الدين، (والدين وحده) وبسلطان الدين؛ لأن الدين الحق، يَحكم ولا يُحكم عليه، ويَرد، ولا يُرد، ويتقدم على كل عرف أو عقل أو قانون أو عاطفة أو عصبية أو قرابة...

ألا ترى الحيوان البهيم لو تُرك دون راعٍ لأكلته السباع؟ أو لقتل نفسه بفرط جهله وكثرة أكله..! ألا ترى الطفل الصغير لو ترك لغريزته دون عقلٍ يرعاه لألقى بنفسه إلى التهلكة ودفع بنفسه إلى المخاطر! ألا ترى العقل لو ترك دون شرع يحكمه لجنح بصاحبه وانحرف عن الفطرة واستخدم قوته وسلطانه فى التدمير لا التدبير!

وكم من أمور لو تركت لعقول الناس وأفهامهم المختلفة لحدثت الفوضى، وما قام نظام أو عرف أو دين، وكم من قوانين وأعراف ودساتير لا تغني عن الدين والشرع شيئًا.

هل استطاع عقل الإنسان – على مدى التاريخ ـ أن يقيم نظامًا سويًّا عادلًا رشيدًا، يفي بمتطلبات الإنسان روحًا وجسدًا؟ هل استطاع الفلاسفة ـ من عهد اليونان إلى اليوم ـ أن يقدموا للبشرية شيئًا تستغني به عن الدين؟ لو أنهم استطاعوا ما ظلت البشرية حائرة تبحث عن هادٍ يهديها السبيل، ويحل لها جميع المشكلات والمعضلات.

والخلاصة:

أن العقل حاكم ومحكوم، ومهما ارتقى العقل وتعلم فهو (فقط) يُعبر ويتكلم، ويَذْكُرُ ويُذَكِّر، ويدرك ويفكر، ومجاله ومداره عالم المادة والمشاهدة، وهو بدون الوحي كالأعور الذى يرى بعين واحدة، والأعرج الذى يسير على عكاز، والأشل الذى فقد إحدى يديه، وهؤلاء يصدق فيهم قوله ﷻ: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

المبحث الرابع: حقوق الإنسان ووثيقة الأمم المتحدة، وموقف د/ فؤاد والشيخ الغزالى منها.

في المبحث السابق تحدثت عن تكريم الله للإنسان، وعن بعض مظاهر هذا التكريم.. ومنها العقل، والإرادة الحرة، وهذا قدر متفق عليه بين جميع بني البشر، بل وأكدت عليه الكتب السماوية قبل القوانين الوضعية.

فالإنسان خليفة في الأرض، خلقه الله منها وأسكنه عليها واستعمره فيها، قال ﷻ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، معنى استعمركم أي: طلب منكم أن تعمروها.

ولا يكون ذلك كذلك إلا بأمور.. من أهمها القوانين والوثائق التي تحدد للإنسان ماله وما عليه.. ولقد كتب النبي ﷺ وثيقة في المدينة تبين ما للناس من حقوق وما عليهم من واجبات[1] منها ما يكون بمقتضى الأخوة الإنسانية فالناس كلهم لآدم عليه السلام ومنها ما يكون بمقتضى الشريعة الإسلامية وما جاءت به من حقوق للمسلم على المسلم والجار على جاره.. ولقد سار الصحابة الكرام رضي الله عنهم على هدي نبيهم ﷺ فكتب عمر رضي الله عنه لأهل إيلياء(القدس) وثيقة.. وكذلك فعل عمرو بن العاص في مصر.

وبما أن هذا المبحث بعنوان/ حقوق الإنسان ووثيقة الأمم المتحدة، فلنبدأ بعرض موجز لأهم بنود هذه الوثيقة، ثم نذكر موقف د/ زكريا، والشيخ الغزالي منها.

أولاً: أهم بنود وثيقة الأمم المتحدة، أو ما يسمى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان باختصار:

"مادة (١): يولد جميع الناس أحرارًا في الكرامة والحقوق، وقد وهبوا عقلاً وضميرًا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء.

مادة (٢): لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد، أو أي وضع آخر دون أية تفرقة بين الرجال والنساء.

مادة (٣): لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

مادة (٤): لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهم.

---

(١) انظر كتاب الروض الأنف، صـ٢٥٠ وما بعدها، الجزء الثاني، ط/ مؤسسة مختار مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ط/ ١، بدون تاريخ.

مادة (٥): لا يعرض أي إنسان للتعذيب أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطَّة بالكرامة.

مادة (٦): لكل إنسان ـ أينما وجد ـ الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية.

مادة (٧): كل الناس سواسية أمام القانون، ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعًا الحق في حماية متساوية، ضد أي تمييز يُخل بهذا الإعلان.

مادة (٨): لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التى يمنحها إياه القانون.

مادة (٩): لا يجوز القبض على أي إنسان، أو حجزه أو نفيه تعسفيًّا.

مادة (١٠): لكل إنسان الحق على قدم المساواة التامة مع الآخرين في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة، نظرًا عادلاً علنيًّا؛ للفصل في حقوقه والتزاماته.

مادة (١١): كل شخص متهم بجريمة، يعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته.

مادة (١٢): لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة، أو أسرته، أو مسكنه، أو مراسلاته، أو شرفه، وسمعته، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل.

مادة (١٣): لكل فرد حرية التنقل، واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة..

مادة (١٤): لكل فرد الحق أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هربًا من الاضطهاد..

مادة (١٥): (١) لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

(٢) لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفًا، أو إنكار حقه في تغييرها.

مادة (١٦): (١) للرجل، والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.

(٢) لا يبرم عقد الزواج إلا برضى الطرفين الراغبين في الزواج رضًا كاملا لا إكراه فيه.

(٣) الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة.

مادة (١٧):(١) لكل شخص حق التملك بمفرده، أو بالاشتراك مع غيره.

(٢) لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفًا.

مادة (١٨): لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاته سواء أكان ذلك سرًّا أم مع الجماعة.

مادة (١٩): لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

مادة (٢٠): (١) لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات، والجماعات السلمية.

(٢) لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما.

مادة(٢١):(١) لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده، إما مباشرة، وإما بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حرًّا.

(٢) لكل شخص نفس الحق الذي لغيره في تقلد الوظائف العامة في البلاد.

(٣) إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة..

مادة (٢٢): لكل شخص ـ بصفته عضوًا في المجتمع ـ الحق في الضمانة الاجتماعية..

مادة (٢٣): (١) لكل شخص الحق في العمل، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية، كما أن له حق الحماية من البطالة.

(٢) لكل فرد ـ دون أي تمييز ـ الحق في أجر متساوٍ للعمل.

(٣) لكل فرد يقوم بعمل، الحق في أجر عادل مرض، يكفل له ولأسرته عيشة لائقة بكرامة الإنسان تضاف إليه- عند اللزوم- وسائل أخرى للحماية الاجتماعية.

(٤) لكل شخص الحق في أن ينشأ، وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته.

مادة (٢٤): لكل شخص الحق في الراحة، و في أوقات الفراغ، ولاسيما في تحديد معقول لساعات العمل، وفي عطلات دورية بأجر.

مادة (٢٥): (١) لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة كافٍ للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية، وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة، وغير ذلك من فقدان

وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن إرادته.

(٢) للأمومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصتين، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية، سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعى أم بطريقة غير شرعية.

مادة (٢٦): (١) لكل شخص الحق فى التعلم، ويجب أن يكون التعليم فى مراحله الأولى والأساسية ـ على الأقل ـ بالمجان..

(٢) يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الإنسان إنماء كاملًا، وإلى تعزيز احترام الإنسان، والحريات الأساسية، وتنمية التفاهم، والتسامح، والصداقة بين جميع الشعوب..

(٣) للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم.

مادة (٢٧):(١) لكل فرد الحق في أن يشترك ـ اشتراكا حرًّا ـ فى حياة المجتمع الثقافى، وفى الاستمتاع بالفنون، والمساهمة فى التقدم العلمى، والاستفادة من نتائجه.

(٢) لكل فرد الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية، المترتبة على إنتاجه العلمى، أو الأدبي، أو الفنى.

مادة (٢٨): لكل فرد الحق فى التمتع بنظام اجتماعى دولى، تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان تحققًا تامًّا.

مادة (٢٩):(١) على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه ولشخصيته أن تنمو نموًّا حرًّا كاملًا.

(٢) يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التى يقررها القانون فقط، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها..

(٣)لا يصح بأي حال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

مادة (٣٠): ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة، أو جماعة، أو فرد، أي حق في القيام بنشاط، أو تأدية عمل، يهدف إلى هدم الحقوق، والحريات الواردة فيه» [١].

هذه أهم بنود وثيقة حقوق الإنسان كما صاغتها الأمم المتحدة.

---

(١) انظر كتاب حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ، للشيخ محمد الغزالي، صـ٢٠٠ وما بعدها، بتصرف يسير، ط/ نهضة مصر، ط/ ٦، سنة٢٠٠٩م، وهذا الإعلان ببنوده المذكورة اعتمد في باريس بقصر شايو، وأعلن عنه من قبل النشر في الجريدة الرسمية، بتاريخ ٩ فبراير ١٩٤٩م بعد موافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة، انظر :

www.ust.edu/open/library/law/١٠/١٠.doc

وبعد ذكرالبنود السابقة، أذكر موقف الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالى منهـا، ثـم أذكـر بعضًا من المسائل التى (أرى) أنها صيغت بمصطلحات تتعارض مع بعض الثوابت والأحكام الإسلامية، ومن ثَم فهى تحتاج إلى توضيح يتناسب مع شرائع الإسلام، وعقائد المسلمين.

أولاً: موقف الدكتور/ فؤاد زكريا من هذه الوثيقة:

هو موقف المؤيد والمناصر، إذ لم يبدِ أي اعتراض أو تعديل على شئ منها.. في حين أنه يبدي ملاحظاتٍ كثيرةً على موقف علماء الإسلام من بعض ما جاء في هذه الوثيقة، فتحت هذا العنوان: الأسس الفلسفية لحقوق الإنسان في العالم الإسلامي المعاصر.

يقول د/ فؤاد زكريا: «إن هناك ما يشبه الإجماع في معالجات المسلمين المعاصرين لموضوع حقوق الإنسان، على اتباع منهج واحد هو العودة إلى نصوص القرآن والسّنة بوصفها المصدر الأساسي لهذه الحقوق، وفي أي بحث يتقدم به مفكر إسلامي معاصر حول هذا الموضوع، نجد في جميع الحالات ـ تقريبًا ـ عرضًا لقائمة الحقوق الأساسية التي تقول بها المواثيق والإعلانات الحديثة، مع إيرادات آيات قرآنية وأحاديث نبوية تدل على أن هذه الحقوق قد عُرفت في الإسلام من قبل...

هذه المحاولات التي تحقق أحيانًا نجاحًا ملحوظًا تُعَد مصدر فخر كبير للمفكر المسلم في العصر الحاضر، ومن الجدير بالذكر أن هذا الفخر لا يرجع إلى اعتقاده بأن قاعدة حقوق الإنسان، في كتاب الإسلام المقدس، أوسع منها في المواثيق الحديثة، بقدر ما يرجع إلى أن تلك النصوص الدينية التي أكدت حقوق الإنسان الأساسية (أقدم) بكثير مما عرفته الحضارة الغربية، هكذا تجدهم يؤكدون أن الحقوق كلها موجودة، وربما أضاف البعض حقوقًا أخرى، أو أكد أن الحقوق المعروفة معروضة بصورة أكثر تفصيلاً، ولكن التأكيد ينصب في أغلب الأحيان على الأسبقية الزمنية أكثر مما ينصب على المضمون نفسه، فالكل تقريبًا يصلون آخر الأمر إلى نتيجة واحدة، لقد عرفنا نحن هذه الحقوق قبلهم!

هذه الحقيقة الأساسية معناها: أن الأساس الأول لفكرة حقوق الإنسان في الذهن الإسلامي المعاصر، أساس ديني، ونستطيع أن نحدد وجهة النظر التي ترتكز على هذا الأساس الديني في عبارة (نموذجية) قالها أحد كبار القانونيين المصريين في صدد حديثه عن حقوق الإنسان في الإسلام، (الإسلام أقرّ الدولة القانونية، التي تحكم بالشريعة وترعى حقوق الإنسان، قبل استقرار هذا المبدأ الذي لم يظهر في أوروبا بوضوح إلا بعد الثورة الفرنسية)[1].

---

(١) ما بين القوسين نقله د/ فؤاد زكريا عن عثمان خليل عثمان، بعنوان/ تطور مفهوم حقوق الإنسان، مجلة عالم الفكر، مجلد ١، عدد ٤ ، صـ١٥.

هذه العبارة (والكلام لا يزال للدكتور/ فؤاد زكريا) تُعد في نظرنا نموذجية؛ لأنها تنطوي على عناصر تتكرر لدى معظم الكُتّاب الذين عالجوا هذا الموضوع من وجهة نظر إسلامية، وهي:

١ ـ إن المقارنة تجري بين الإسلام والغرب من أجل تأكيد مبدأ (الأسبقية الزمنية للإسلام) وهو المبدأ الذي يهتم به الكاتب أكثر من اهتمامه بإثبات تفوق المفهوم الإسلامي لحقوق الإنسان على المفاهيم الغربية.

٢ ـ إن المقارنة تعقد بين (الإسلام) و (أوروبا)، أي بين عقيدة وقارة، أو عقيدة وحضارة (على أساس أن أوروبا = الحضارة الغربية) وهي مقارنة غير جائزة؛ لأن أحد طرفيها مقدس والآخر

دنيوي، وأحدهما وحي إلهي والآخر ممارسة تاريخية.

٣ ـ إن إقرار الإسلام للدولة القانونية شيء مختلف كل الاختلاف عن وجود هذه الدولة بالفعل خلال التاريخ الإسلامي، وعن طريق الممارسة الفعلية في الحكم...

هذا الأساس الديني لحقوق الإنسان تترتب عليه نتائج هامة، وتتفرع عنه أهم السمات التي تتميز بها نظرة العالم الإسلامي إلى هذا الموضوع، وأعني بها: أن أساس حقوق الإنسان:

١ ـ مقدس. ٢ ـ قديم. ٣ ـ ليس مستمدًا من خبرة، أو تجربة إنسانية.

عندما تتخذ فكرة حقوق الإنسان، في ذهن الإنسان العربي المسلم طابعًا مقدسًا، يرجع إلى أصول إلهية، فإن هذا لا يبدو غريبًا كل الغرابة بالنسبة إلى تطور مفهوم حقوق الإنسان بصورة عامة، فمن الأمور التي يتفق عليها معظم الباحثين في هذا الموضوع أن هناك أساسًا ميتافيزيقيًّا لفكرة حقوق الإنسان، يتمثل في وجود نظرة معينة إلى الطبيعة البشرية، تفترض أن الإنسان كيان له كرامته واحترامه، وأنه وُلد حرًّا ومتساويًا مع الآخرين، وأن مظاهر القهر والاستعباد ترجع إلى أسباب اجتماعية... لأن الفلسفات ـ التي كان البعض منها وثنيًّا ـ قد أسهمت أيضًا بدور لا يستهان به في بلورة فكرة الكرامة البشرية، فضلاً عن أن الحكمة التشريعية، التي وصلت إلى درجة عالية من النضج في عصر مثل عصر بركليز[(١)] وقبل ذلك في شريعة حمورابي[(٢)] لم تكن ترجع مباشرة إلى أصول دينية، بل كانت أحيانًا بعيدة عن هذه الأصول كل البعد... ومن جهة أخرى فإن التجارب التي تمر بها الأمم في مراحل مختلفة من تاريخها، كانت هي العامل الأساسي في تطوير مفهوم حقوق الإنسان وظهور مطالب وحقوق جديدة، لم يكن من الممكن أن تُعرف في

---

(١) بركليز: رجل سياسي وخطيب يوناني، واسمه باليونانية القديمة يعنى (المحاط بالمجد)، وله اصلاحات اجتماعية وسياسية واسعة فى أثينا بين عام ٤٩٥ :٤٢٩ قبل الميلاد، للمزيد انظر موقع بركليز **www.marefa.org/index.php** .

(٢) حمورابي: سادس ملوك مملكة بابل القديمة، وشريعته من أقدم الشرائع المكتوبة في التاريخ البشري، وتعود إلى العام ١٧٩٠، ق. م، وتتكون من مجموعة قوانين اجتماعية وسياسية، ويكيبيديا الموسوعة الحرة، شريعة حمورابي، **موقع :www.ar.wikipedia.org/wiki**

العصور القديمة، ولا يمكن أن يضمنها نص قديم، والدليل على ذلك تلك التعديلات المتعددة التي أدخلت على وثائق حقوق الإنسان، منذ أيام الإعلان الأمريكي حتى إعلان الثورة الفرنسية، ومنذ إعلان الأمم المتحدة في ١٩٤٨م حتى إعلان (هلسنكي في ١٩٧٥م) ومازالت الحاجة تدعو إلى التعديل المستمر، والمطالبة بالمزيد من الحقوق، فالعلاقات الاجتماعية المعقدة في العصر الحديث قد أضافت حقوقًا (إيجابية) أو (اجتماعية) مثل حق العمل وحق الثقافة والتعليم، وحق الخصوصية، والعلاقات الدولية المتشابكة قد أضافت إلى حقوق الإنسان من حيث هو شخص أو فرد، حقوق المجموعات البشرية على مستوى الشعوب أوالدول، مثل حق الهجرة واختيار نظام الحكم وتقرير المصير، وكل هذه الحقوق كان من المستحيل تصورها في ضوء مفهوم يلغي التجربة والتاريخ وتأثير الممارسة، ويستمد الحقوق كلها من حرفية النص المقدس، وحتى لو أمكن استخلاص بعض هذه الحقوق، باجتهاد هائل من النص، فإن ذلك لا يكون إلا من خلال نظرة تقرأ الحديث ـ المكتسب بالتجربة ـ في القديم، لا من خلال القوة الكامنة في النص نفسه. »[(١)]

والمؤكد أن الفكر الإسلامي لا يلغي التجربة التاريخية، ولا يستمد قوانينه من النص المقدس فقط، كما يصور د/ فؤاد زكريا، وإنما هناك مصادر للتشريع هي القرآن والسنة والإجماع..وهذا قدر متفق عليه بين العلماء، ثم يأتي العرف والاستحسان والمصالح المرسلة...إلخ، والنبي ﷺ وضع وثيقة المدينة، وسيدنا عمر رضي الله عنه وضع وثيقة بيت المقدس، وعمرو بن العاص رضي الله عنه وضع وثيقة لأهل مصر، وهذه الوثائق وغيرها لم تقف عند حد النص، ولم تلغ العرف والتجربة التاريخية وما وصل إليه العقل من علوم ومعارف..

تأمل ما يقوله د/ فؤاد: «النتيجة التي تظهر لنا صارخة في كافة المعالجات المتحمسة لوجهة النظر الدينية في حقوق الإنسان، هي ذلك التجاهل الصارخ للواقع والاكتفاء بما تقول به النصوص، دون أن يفكر أحد في مناقشة العلاقة بين النظرية والتطبيق في ميدان حقوق الإنسان، ودون أن يفكر أحد في استخلاص دلالة عجز النظرية عن أن تفرض نفسها عمليًّا طوال معظم فترات التاريخ، وهكذا يتحدث هؤلاء الباحثون جميعًا عن نصوص لم تطبق بالفعل، ولا يتساءل أحد منهم: لماذا لم تطبق؟ وعلى أي أساس نتصور أنها ستكون قابلة للتطبيق في المستقبل، إذا كانت قد ظلت بعيدة عن التطبيق طوال التاريخ السابق؟» [(٢)].

---

(١) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، د/ فؤاد زكريا، صـ١٠٣ ومابعدها، بتصرف، ط/ الأولى سنة ١٩٨٥م، الناشر: دار التنوير للطباعة.

(٢) المرجع السابق، صـ١١٦.

هذا الكلام من د/ فؤاد زكريا، للأسف جله ينطوى على ظلم وافتراء وجهل واجتراء على وحي السماء ولا أدرى هل يجهل د/ فؤاد زكريا ما ورد فى القرآن والسنة من حقوق وواجبات للمسلمين في ما بينهم وبين غيرهم من أهل الذمة والجيرة والولاء؟ هل يجهل العهود والمواثيق التي كتبت لغير المسلمين عبر تاريخ الإسلام؟ لدرجة أنه يقول: « إن الفلسفات ـ التي كان البعض منها وثنيًّا ـ قد أسهمت بدور لا يستهان به في بلورة فكرة الكرامة البشرية.. . إنها وصلت إلى درجة عالية من النضج في عصر مثل عصر بركليز وحمورابى.. لأن التجارب التي تمر بها الأمم، في مراحل مختلفة من تاريخها، كانت هي العامل الأساسي في تطوير مفهوم حقوق الإنسان» [1]وأن ذلك ـ في نظر د/ فؤاد ـ أولى بالاتباع والتطبيق.

وأقول: إنه من الظلم البيّن أن يدعي الدكتور أن علماء الإسلام وهم يتكلمون عن وثيقة الأمم المتحدة لا يقدمون سوى الشيء النظري، وادعاء القدسية والأسبقية الزمنية، والمقارنة بين عقيدة الإسلام وقارة أوروبا، أي بين دين مقدس وبين فكر مستمد من خبرة بشرية وتجارب تاريخية، وكأن تاريخ الإسلام (الطويل) خلا من التجارب والفكر البشري، ولا أدري هل يجهل ما كتبه العلماء من كتب ومؤلفات تزيد فى الأهمية عن وثيقة الأمم المتحدة؟ [2].

ثانيًا: موقف الشيخ محمد الغزالي من هذه الوثيقة:

للشيخ الغزالي كتاب كامل بعنوان/ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، ذكر فيه البيان الذي ألقاه جمع من علماء الأمة الإسلامية عن حقوق الإنسان في تعاليم الإسلام مقارنة بما جاء في هذه الوثيقة [3].

كما بين الشيخ أن هذه الوثيقة رغم وجودها ظلت نصوصًا نظرية لا تقيم حقًا ولا تنصف مظلومًا إلا وفق أهواء واضعيها والقادرين على تنفيذ بنودها بخلاف ما ولد مع ديننا الحنيف وارتبط بعقيدة الوحي والإيمان بالله واليوم الآخر، يقول:"خلق الله الإنسان ليكرم لا ليهان، ولتسجد له الملائكة لا ليعيش مع الحيوان ومع أن الإنسان يعاني على الأرض ما يعاني، فهو من بني جنسه إذا صلحوا واستقاموا أفضل عند الله من ملائكة السماء وقد قال ﷻ:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٠] .

---

(١)المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) مثل كتاب نحو دستور إسلامي، مشروع وضع مواده الأزهر الشريف، أ.د/ محمد أحمد المسير، المكتبة التوفيقية، سنة ٢٠٠٨م ـ ١٤٢٩هـ ط/ الثالثة، وكتاب الشيخ الغزالى(حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة) مرجع سابق.

(٣) من أراد النص بتمامه وكماله وأدلته وشروحه وتوضيحاته فليرجع إلى الكتاب المذكور أعلاه صـ٢١٢ وما بعدها، مرجع سابق.

إن المادة الأولى في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، تنص على أن الناس يولدون أحرارًا، يتساوون في الحقوق والواجبات، وكون الناس يولدون أحرارًا متساوين، كلمة نطق بها عمر بن الخطاب ﷺ ارتجالاً لا إعدادًا ولا تكلفًا، بل انطلاقًا من الفطرة الإسلامية!

ولكن هذه الكلمة ظلت دهرًا نظرية خيالية !! فكم من أناس ولدوا ولهم حقوق ليست لغيرهم، وكم من أناس ولدوا مثقلين بواجبات ليست على غيرهم، وكم من وظائف تفاوتت الفرص في شغلها، واختير لها من ليس لها بأهل ولا تسل كيف؟ فإن ناسًا قبلك تجرءوا على السؤال، فلم يوقف لهم على أثر، أو عاشوا ناكسي رءوسهم لفرط ما حل بهم، إن القدرة التي يملكها البعض، ولا يدري كيف امتلكها ـ فعلت مآثم ومناكر لا حصر لها، ومع أنه الله ـ وهو المقتدر الأعلى ـ لا يظلم أحدًا في الملكوت الذي تفرد بحكمه، وقال: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[1] مع ذلك فإن مُلَّاكَ السلطة والثروة دأبوا على الظلم في أقطار كثيرة، وبعد لأي قدرت الجماهير على تقييدهم بالدساتير والمواثيق التي وضعت نصوصها على ضوء التجارب المستفادة والذكريات المرة....!!

إن حقوق الإنسان ولدت في ديننا مع النطق بكلمة التوحيد، فعندما نؤمن بالله الذي لا يعبد غيره، ولا يشرع غيره، ولا يحكم غيره، عندئذ تسقط الوثنيات كلها عقائدية كانت أو سياسية أو اجتماعية !!

نعم إن الإيمان بوحدانية الله وقيامه على خلقه وتدبيره لكل أمر والإحساس بأنه ـ وحده ـ الضار النافع، الخافض الرافع، المعطي المانع، إن ذلك يمنح الإنسان حرية واسعة تجعله لا يبالي بطواغيت الأرض كلها ؛ لأنهم مهما فحش سلطانهم ليسوا إلا عبيدًا لربه» [2].

ومن خلال ما سبق يتبين للباحث أنه لا خلاف ـ من حيث الجملة ـ بين وثيقة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان وبين الذي قاله الشيخ الغزالي، اللهم إلا في أمور ثلاث، وما يتفرع عنها من مسائل، وما يترتب عليها من واجبات وحقوق وهي:ـ

- الأمر الأول: رسالة الإنسان في الحياة والتي من أجلها خلقه الله ﷻ واستخلفه في الأرض، واستعمره فيها فهو مطالب بأعمال وأقوال لا يجوز تجاهلها أو التنكر لها، كعبادة الله تعالى وإقامة شريعته، وخصوصًا الحدود والقصاص والمواريث والزكاة والجهاد في سبيل الله بالكيفية التي جاء بها رسول الله ﷺ وسار عليها خلفاؤه الراشدون.

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي ذر ﷺ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم(٢٥٧٧) صـ٥٨٠، مرجع سابق.

(٢) مائة سؤال عن الإسلام صـ١٥٢وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

- الأمر الثاني: مسألة الحريات والتي تنبع عن ضمير الإنسان وهواه ولا تراعي خلقًا ولا دينًا، والتي خلفت فسادًا لا زالت البشرية تعاني من ويلاته كحرية الاختراع دون تفريق بين ما يدمر الحياة وما يعمرها.. وحرية الإبداع دون تمييز بين بدع حرمها الشرع ولا ينتج عنها إلا السوء، وإبداع مفيد ومنضبط وملهم ومعلم... لأن هناك فارق بين تقرير الحق وبين ممارسته، وما ينتج عن هذه الممارسة من خير أو شر.
- الأمر الثالث: مصطلح المساواة بين الناس في جميع الحقوق والواجبات؛ لأن مسألة المساواة التي أشارت إليها وثائق حقوق الإنسان ـ سالفة الذكر ـ لا تراعي خصوصيات الفرد المسلم والمجتمع المسلم، حيث هناك فرق جوهري بين ما يقره الإسلام في عقائده وشرائعه وحدوده وأحكامه، وما تقوله مواد المساواة المطلقة في الوثيقة المذكورة.

انظر ما جاء في الفقه الإسلامي من أحكام تتعلق بالميراث والقصاص والحدود والحجاب والجهاد، والربا والخمر ومسألة الرق والتكافؤ في الزواج ومصارف الزكاة الخاصة بالمسلمين والشهادة والشهود والولاء والبراء، ومعاملة غير المسلمين في حالتي الحرب والسلم.. كل ذلك وغيره يؤكد أن ما يراه الغير حقًّا له وواجبًا على غيره بمقتضى وثيقة الأمم المتحدة، قد لا يراه الإسلام والمسلمون كذلك بمقتضى ما تشير إليه الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه الأحكام الشرعية المتفق عليها بين العلماء[1] والتي لا يمكن التنازل عنها، أو التفريط في شيء منها.

وهذا لا يعني أبدًا أنني أرفض المساواة بين الناس في معاشهم وفرص حياتهم وأمور دنياهم وأصل خلقتهم، فالناس لآدم عليه السلام و آدم خلقه الله عز وجل من الأرض واستعمره فيها، فهو وذريته أمام ثرواتها وخيراتها سواء.. لذا أقول: الإسلام يقبل من وثيقة الأمم كل ما يراعي مصالح الناس، ويعلي من قيمة الإنسان، ويضمن له حياة كريمة منظمة يتعايش من خلالها مع الآخرين على أساس الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية.

---

(١) انظر كتب الفقه الإسلامي، ستجد فوارق واضحة في هذه المسائل يطول شرحها، ولا يمكن إغفالها عند الكلام عن حقوق الإنسان، وفق وثيقة الأمم المتحدة، ولا تنسى قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:١٢٠] ولا ننسى أن شريعتنا شريعة عالمية، يجب أن تصدر عنها وثائق حقوق الإنسان أو على الأقل لا تخالفها، كما يجب أن نذكر وثيقة أهل المدينة التى كتبها النبي ﷺ ووثيقة بيت المقدس وغيرهما من الوثائق التى كتبها الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، و لا ننسى أن القوم وضعوا هذه الوثيقة وفق أهوائهم، وما يعلمون من ظاهر الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، فلا فرق عندهم بين كلام الله وكلام البشر، وأحكام الله وقوانين العباد.. ترى ذلك واضحًا في مثل هذه المصطلحات: المساواة، الإرهاب، الحرية، الإبداع.. وكلها لا تخدم الشعوب بقدر ما تخدم أهداف العولمة ومطامع الدول الكبرى، وخصوصًا هذا المصطلح (المساواة) الذى سأناقشه باستفاضة ـ إن شاء الله تعالى ـ في الفصل الرابع المبحث الثاني(دعاوى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل).

وحتى نجمع بين ما للإسلام من خصوصيات وأحكام، وما لوثيقة الأمم من أهمية واحترام لابد أن نفرق بين أمرين:

الأول المساواة في الحقوق الدنيوية والتعايش بين البشر، فكل له حق وعليه واجب وهم جميعًا ـ في ذلك ـ سواسية كأسنان المشط، لأن التعامل بين الناس يقوم على الندية وتبادل المنافع،واحترام القوانين، والناس في ذلك سواء ولو اختلفت الأجناس والألوان والعقائد.

الأمر الثانى خصوصيات المسلم والدولة المسلمة، وما ينبغي أن يراعى عند سن القوانين وتنفيذ الأحكام والحدود الشرعية.

لأن المسلم العالم بدينه يعرف يقينًا أن تعاليم الإسلام في قضايا كثيرة ـ كالميراث والقصاص والخمر والربا.. ـ تختلف عن التعاليم النابعة عن الملل والنحل، والأفكار الأخرى.

كما يعرف المسلم أيضًا أن وثيقة الأمم المتحدة لا تفرق بين هذه التعاليم وما جاء فى الإسلام.

ولذلك أرجو ونحن نناقش هذه المسألة ـ حقوق الإنسان ـ ألّا نخجل مما هو ثابت عندنا خاص بنا نحن المسلمين، وما أوجبه الله علينا في التعامل مع غيرنا؛ لأن حقوق الإنسان في الإسلام واضحة بل ويحرسها الإسلام، ويفرضها ويعاقب على إهمالها، سواء ما يتعلق منها بحقوق الحياة الكريمة، وحرية الاعتقاد والاختيار، أو عمارة الأرض والاستفادة من ثرواته، والأمن والأمان والتكافل الاجتماعي.

لقد جاءت الشريعة الغراء بالحق والعدل، وبما لا يضر بأحد، ولا أمة، ولا عرف صالح، والناس ـ بعيدًا عن شريعة الله ـ لا يريدون سوى الحياة والأمن والكرامة الإنسانية، والإسلام يعطيهم ذلك يقينًا، فما هو عندنا أفضل مما عند غيرنا،لأن الإسلام دين الفطرة، وقد جاءت تعاليمه للناس جميعًا لتقودهم وتعلمهم، لا لتخضع لأهوائهم ومآربهم .

تأمل ما قاله الله ﷻ بعد ذكر التوراة والإنجيل وما فيهما من هدى ونور يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨] وتأمل قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٣] تُرى ما درجة ما نزل على نبينا ﷺ مقارنة ـ إن صحت هذه المقارنة ـ بما جاء في الوثيقة الأممية؟هل يساويه في الدرجة، أم يزيد عنه درجات؟

وتأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[النحل: ٩٠] وقوله:﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨] أليس المرء مطالبًا بالعدل بين زوجاته وأولاده؟ لأن المساواة بين الزوجات توقع في الحرج، وبين الأولاد تتعارض مع قوله تعالى ﷻ:﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء:١١].

أليس الجميع مخاطبًا بهذه الآيات، ومطالبًا بالعمل بمقتضاها، لا فرق بين وزير أو مدير أو غفير؟

لم يرد قط ـ فيما أعلم ـ أن الله أمر بالمساواة بين بني البشر في جميع الحقوق والواجبات، كما عممت وأطلقت وثيقة الأمم المتحدة، لذا أرجو أن نفرق بين مساواة (مطلقة) لا تراعي الخصوصيات والدرجات والمزايا والخبرات، وبين حقوق واجبة لا تستقيم الحياة الدنيا إلا بها.

ألا ترى أن القوانين المنظمة لحقوق الإنسان في الوظائف، وشغل الدرجات، وتقدير الرواتب والحوافز، لا تأخذ بمبدأ المساواة وإنما تأخذ بمبدأ العدل لوجود الفوارق.

إذ كيف تسوي بين عامل في البلدية ورئيس جمهورية في جميع الحقوق والواجبات (الدنيوية)؟ تأمل قوانين الحد الأدنى والأعلى في الأجور!! أين المساواة إذن؟ المساواة ممكنة بين أصحاب الدرجة الوظيفية الواحدة لقيامهم بمهام متساوية، وليس كل الدرجات و الأعمال و المواقع.

ولو أن هذه الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان وُضعت بمشورة المسلمين، أو حضور ممثلين عنهم ـ كما هو الحال في الدساتير المحلية ـ لاحترمت خصوصيات المسلمين وشرائعهم.. ولكن يبدو لي أن الأمر مقصود، ويهدف إلى تذويب شخصية المسلم وشريعته وهويته.

لذا أرى ألّا نردد هذا المصطلح (المساواة) إلا مقيدًا (بالعدل) لأنه وُضع بعناية فائقة للّبس والخلط بين المفاهيم الإسلامية الأصيلة، فضلاً عن كونه معبأً بمضامين ومفاهيم لا يمكن أن ننزعها، وتطبيقه بحذافيره على الناس ـ مع فوارق السن والعلم والكفاءة والنشاط.. ـ غير ممكن، ومفهوم العدل يُغنى تمامًا عن مفهوم المساواة وينوب عنه ويحتويه، وهو أدق في التعبير عن الحقوق والواجبات المتبادلة بين الناس، وهو ممكن ومعمول به في الواقع المشاهد.

والخلاصة: أن الدكتور/ فؤاد زكريا يقبل كل ما ورد فى وثيقة حقوق الإنسان..بل ويشيد بها دون تحفظ. وهذا خطأ كبير يعرفه من يعرف شريعة الإسلام وخصوصيات المسلمين.

والشيخ/ الغزالى يقر حقوق الإنسان كما جاء بها الإسلام وولدت مع ديننا الحنيف، وارتبطت بعقيدة الوحي الإلهي والإيمان بوحدانية الله ﷻ وقيامه على خلقه وتدبيره لكل أمورهم وشئونهم، ويذكر بيان علماء المسلمين حول هذه الحقوق، ويرى أن مواده هي الأنفع للبشرية والأقدر على تلبية متطلباتها، ورعاية مصالحها وحفظ كرامتها وقيمها الإنسانية.

وهذا حق أراه يتجلى بوضوح عند النظر فى المصطلحات المتعلقة بالحريات العامة.. والمساواة المطلقة.. وحقيقة الحياة ونظرة الإنسان لها ورسالته فيها، وعلاقتها بالآخرة وما يتفرع عن ذلك من مسائل وأحكام خاصة بأمة الإسلام وآداب المسلمين.

* * * * *

الفصل الثانى

قضايا الطفولة والنشء

وفيه أربعة مباحث:

المبحـــث الأول: أهمية الاعتناء بالنشء، وحمايته.

المبحث الثاني: مسئولية ولي الأمر نحو النشء، وخطورة التخلي عنها.

المبحث الثالث: حقوق الطفل: كالرضاع، والحضانة، والنفقة، والتعليم.

المبحث الرابع: مشكلات الطفولة، وكيفية التغلب عليها.

المبحث الأول: أهمية الاعتناء بالنشء وحمايته:

الاهتمام بالنشء وحمايته والاعتناء به ورعاية حقوقه وواجباته من الأمور المتفق عليها بين جميع المصلحين، فهي من حيث المبدأ محل اتفاق وقاسم مشترك لا اختلاف فيه..

إنما الاختلاف في الوسائل والآليات التي يستخدمها المصلحون، وذلك لاختلاف الدوافع والأهداف.. فالمرء الذي يحرص على الدنيا فقط لا كالذي يحرص على الدنيا والآخرة فالله عز وجل يقول: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران:١٥٢] والمرء المحكوم بعقيدة تُلْزِمُهُ أعمالًا مفروضة لا خيار في غيرها.. ليس كالمرء الذي يظن أن الأمر كله مرهون برؤيته هو ككائن حي يحتاج إلى ما يحتاج إليه جميع الأحياء من مقومات حياة.

والإسلام حين يحث على الاعتناء بالنشء يجعل ذلك تكليفًا مفروضًا يتراوح بين فروض العين وفروض الكفاية..ولقد كان ﷺ يعتني بالنشء قولًا وعملًا، وعلى سبيل المثال حديث عمر بن أبي سلمة ﵁: (كنت غلاماً فى حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصَّحْفَة فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)[١] ولم يقف الأمر في الاعتناء بالنشء عند هذا الحد، بل تعدى ذلك إلى أبعاد أخرى كالرضاع والحضانة والنفقة والتربية والتدريب والرعاية الصحية والفكرية والدينية..

ويبدو لي أن د/ فؤاد زكريا مشغول ـ دومًا ـ بقضايا الكبار والقضايا الكبرى، لذا تجد جل اهتماماته بالفلسفة والفلاسفة وآخر ما وصل إليه العقل والفكر الإنساني.. أما مسألة الطفل وتنشئته والاعتناء به وحمايته مما يهدده.. فلم يفرد لها ـ فيما أعلم ـ كتابًا من كتبه، أو حتى مقالاً في صحيفه.

لقد تفرغت عامًا كاملاً للبحث عن كتب د/ فؤاد ودراستها والاطلاع على ما فيها، وكذلك ترجماته ومناظراته..ما وجدته تكلم مرة عن حقوق الأطفال على الآباء والأمهات- كحسن الاختيار عند الزواج- أو حقوقهم في الرضاع أو التربية الدينية وتعليمهم الأخلاق واحترام الكبير، بل ربما عدَّ بعض هذه الأمور (كالطاعة) جمودًا وتقليدًا يصل إلى درجة الخطيئة الأولى في المجتمع.

يقول:"منذ سنوات العمر الأولى، تعمل الأسرة على أن تكون العلاقة بين الآباء والأبناء علاقة (طاعة) وتقدم (طاعة الوالدين) على أنها قمة الفضائل العائلية، بل إن الأبناء حين يكبرون ينسبون نجاحهم إلى (دعاء الوالدين) الذي حلت بركاته عليهم؛ لأنهم كانوا أبناء (مطيعين) ويعمل تراث شعبي

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث عمر بن أبي سلمة ﵁ كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، برقم (٥٣٧٦) صـ ٧٨٧، مرجع سابق.

كامل على ترسيخ فكرة الطاعة بين الأبناء والآباء، وكأنها النموذج الأعلى للسلوك الأسري المثالي» [١].

والحق إن د/ فؤاد يولي مسألة الثقافة عناية خاصة، ويرجع بدايات الثقافة للبيئة والمجتمع الذي نشأ فيه الفرد وتأثر فيه بمن حوله، وكذلك رغبته الشخصية للوصول إلى درجة عليا في الثقافة، ويكون ذلك بالاكتساب والتدريب والتكوين العقلي ومدى رغبته واجتهاده في تحصيل العلم.. يقول: «والمثل الأعلى للثقافة هو العلو إلى أعلى حد بالتكوين العقلي والروحي والأخلاقي للإنسان، وبطريقته في التفكير وتأمل العلم وتذوقه.. وعلى أية حال لدينا الآن معنيان محدودان للثقافة:

المعنى الأول: اجتماعي أو جمعي بطبيعته، فهي صفة المجتمع نفسه، أو صفة لا يكتسبها الفرد إلا بانتمائه لمجتمع معين.. هذه تمثل نقطة (البداية) في حياة الإنسان الواعية؛ لأن كل فرد يبدأ بقبول ثقافة مجتمعه، أي بقبول القيم، والاتجاهات التي تسود في ذلك المجتمع، عن طريق التنشئة الاجتماعية.

المعنى الثاني: فهو فردي بطبيعته؛ لأن عملية الصقل والتهذيب تتعلق بفرد معين، أو بمجموعة من الأفراد يتسم كل منهم بشخصيته المستقلة، والناتج الثقافي مرتبط ارتباطًا عضويًّا بالفرد الذي أبدعه، وهذا يمثل الحد الأقصى للثقافة.. ومن هنا كانت نقطة (النهاية) فيسعى الفرد طوال حياته إلى تحقيقها ويترتب على ذلك فارق مهم، هو أن الثقافة بالمعنى الأول شاملة، وتوجد حيثما يوجد أي مجتمع إنساني، أي أن أشد المجتمعات بدائية له(ثقافة) بهذا المعنى.

أما في معناها الثاني فهي محدودة النطاق انتقائية، لا يتسنى بلوغها إلا لنخبة مختارة» [٢] والواضح أن د/ فؤاد لا يتعرض لمسألة التنشئة بمفهومها الإسلامي، أو ما يناسب مراحل العمر المختلفة.. بقدر ما يتحدث عن المجتمع البدائي والمجتمع المتحضر والنخبة المختارة، والتي حظيت بالاهتمام والانتقائية، أو بالمجهود الذاتي للإنسان، كل وفق شخصيته المستقلة.

أما الشيخ/الغزالي فله رأي آخر، يتعلق بالتنشئة منذ أيامها الأولى يقول: «.. فقدان المناعة النفسية أو الخلقية يعود إلى ضعف التربية أو سوء التنشئة، ونمو الطفل وهو محروم من ضوابط الخلق الزاكي والعبادة السامية والعادات والتقاليد التي تحرس عقله، وتصون مسلكه، وتشعره بأن هذا حسن يستمسك به، وهذا رديء يبتعد عنه، وهذا امرؤ فاضل يُحترم، وهذا امرؤ فاشل يُزدرى.. والأسرة بلا ريب هي المهاد الأول لهذا التكوين الأدبي، إن الإنجاب المجرد ليس وظيفة الأسرة، فإن الدواب والطيور والزواحف تتناسل

(١) وهذا ما ذكرته سابقًا بتمامه في الفصل الأول، المبحث الثاني (علاقة أفراد المجتمع ببعضهم البعض).

(٢) خطاب إلى العقل العربي، صـ ١٤ ومابعدها، مرجع سابق.

وتتكاثر، وميزة البشر أنهم يلدون ويعلمون ويربون، وعندما تفقد الأسرة قدرتها على حماية الطفولة، وتزويدها بالخصائص الرفيعة، فلا قيمة لنتاجها!»[١].

ويقول أيضًا: "تربية الأولاد عبء مشترك يحمله الزوجان معًا، وإنه لقدر طيب أن يشب الأولاد في حضانة أبويهما مستمتعين بدفء العاطفة وحسن الكفالة، لكن الريح لا تهب رخاء دائمًا، وطبيعة الحياة الابتلاء بالخير والشر، فقد يفقد الأولاد الكافل الحامي، فتبقى الأم أيِّمًا والأولاد يتامى! وَتُوَقُّرُ الأم على صون أولادها ـ والحالة هذه ـ من أَجَلِّ القربات التي تبلغها أعلى الدرجات !» [٢].

إن ما جاء في مصادر الإسلام وعلى ألسنة علمائه، وما طبق عمليًا في دولته على مدار تاريخه الطويل من تربية وتعليم ونفقة وتأديب وتدريب على الإدارة والخطابة وفنون القتال والأعمال والحرف.. لا شك أنه جدير بالاعتبار والاستفادة والنظر، سيما ونحن ننشد الإصلاح الاجتماعي ونتطلع إلى كل ما يمت له بصلة؛ لأن إعداد الرجال أخطر وأهم من إعداد السلاح والمال، إن هذا الأمر هو مسئولية الأب والأم والعاقلة والمجتمع والدولة، كل في موقعه وحسب تخصصه وقدرته.

لأن الحياة لا تستمر ولا تثمر بدون الاعتناء بالنشء وحمايته قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام:١٦٥] والابتلاء يقع على هؤلاء:

١ـ أولياء الأمور وصنّاع القرار وواضعو القوانين.

٢ـ القائمون على دور الرعاية والحضانة والمدارس.

٣ـ الأطباء والصيادلة، وعلماء النفس والاجتماع.

٤ ـ المستثمرون ورجال الأعمال.

وهذا ما سنذكره بالتفصيل لاحقًا إن شاء الله تعالى .

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ١٥١، ط/ دار الشروق، بدون تاريخ.

(٢) المرجع السابق صـ١١٩، وللمزيد انظر كتاب (ظلام من الغرب) للغزالي صـ ٢٢٧، وما بعدها، ط/ نهضة مصر، ط/ السابعة، سنة ٢٠٠٨م.

المبحث الثاني:مسئولية ولي الأمر نحو النشء وخطورة التخلي عنها:

تحدثت في المبحث السابق عن أهمية الاعتناء بالنشء وحمايته.. وبينت أنها مسئولية جميع أبناء المجتمع.. إلا أنني أخص ـ هنا ـ ولي الأمر بمزيد من المسئولية، وذلك من باب ذكر الخاص بعد العام، وذكر الأهم بعد المهم .

وولي الأمر: هو كل إنسان له سلطان شرعي أو قانوني بمقتضاه يأمر وينهى، ويوجه وينتقد، ويعاتب ويحاسب، ويعاقب.. كالأب، والمدرس، والرئيس.

وولي الأمر – أيًا كانت درجة ولايته ـ هو راع ومسئول أمام الله، ثم أمام المجتمع عن رعيته، قال ﷺ: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل في بيته راع، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده، وهو مسئول عن رعيته، ألا إن كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته) [١].

وإذا كانت المخلوقات الأخرى تولي كل اهتماماتها وتعطي جل جهدها لصغارها، ترعاهم صغارًا وتعلمهم الطير والصيد والدفاع عن النفس والحذر من الخطر، وهذا معروف وملاحظ في عالم الطيور والنحل والنمل وجميع المخلوقات ، فكيف بالإنسان الذي ولاه الله ولاية ومنحه العقل وحمله مسئولية وأمانة، فصار ولي أمر، راع ومسئولًا عن رعيته، وهو يعلم أن هذه المسئولية سيترتب عليها ثواب أو عقاب، قال ﷺ: (كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته) [٢].

والدكتور/ فؤاد زكريا يترك أعمال الدنيا لضمير الفرد ورغبته في الإصلاح، والمحفزات المادية والعلمية والقانونية، فالرجل يعترف أنه علماني المذهب: "والعلماني هو ما ليس بديني، ومدلول العلمانية المتفق عليه يعني: عزل الدين عن الدولة، وحياة المجتمع، وإبقاءه حبيسا في ضمير الفرد لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه و بين ربه، وإن سُمِحَ له بالتعبير عن نفسه، ففي الشعائر التعبدية، والزواج، والوفاة ونحوها.. " [٣].

وكل من قرأ العلمانية، وفهم مرادها، عَلِمَ يقينًا أن المسئولية عندها مسئولية دنيوية بحتة، ترجع إلى القانون والدستور لا إلى الدين والعقيدة. والدكتور فؤاد لا يعفي ولي الأمر من المسئولية القانونية، سواءً

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما برقم ٢٤٠٩ كتاب الاستقراض.. باب العبد راع في مال سيده ولا يعمل إلا بإذنه، صـ ٣٣٦، مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث خيثمة رضي الله عنه كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال برقم٩٩٦/ ٤٠ صـ٢١٣ مرجع سابق.

(٣) وجهًا لوجه الإسلام والعلمانية، صـ٥١، مرجع سابق.

أكان ولي الأمر هو الأب، أو الحاكم، أو القائم على التعليم في المجتمع، بل ويعتبر المجتمع، وعلماء الدين، والسلطة القائمة .. هم المسئول الأول عن تخلف الشعوب.

يقول: "إن السلطة هي المسئولة عن توفير أو تعكير الجو الذي تعيش فيه الثقافة، وعن تحقيق الشروط اللازمة لنموها أو وضع المعوقات في طريقها.والواقع أن (المتأمل) الدقيق في أزمة الثقافة في بلاد العالم الثالث..[١] (يجد) أن المشكلة الحقيقية التي تواجهها الثقافة هي تحدي السلطة، لا تحدي العلم.. والسلطة قد تكون سلطة العرف، أو سلطة الدين، أو سلطة الحكومة، وهذه الأنواع الثلاثة من السلطة، تؤثر تأثيرًا سلبيًا، إذا استُخدِمت بطريقة تعسفية غاشمة"[٢].

ولم يقل د/ فؤاد زكريا من الذي يحكم على هذه السلطات أنها استَخدَمت طريقة تعسفية غاشمة؟ ومن يحاسبها إذا أفلتت من القانون؟ ومن يحدد لكل سلطة ـ من السلطات الثلاث ـ مسئوليتها؟

إن مسئولية وليّ الأمر حددها ـ بدقة ـ رسول الله ﷺ في الأحاديث سابقة الذكر، ناهيك بالآيات التي تلزم ولي الأمر بالمسئولية، وتحثه على رعاية شئون الأبناء، والأهل، وتحذر من خطورة التخلي عن هذه المسئولية[٣].

يقول الشيخ الغزالي: "الأولاد المدللون الذين يحرص الآباء على حمايتهم، ينشئون في العادة كالبنات، ويكونون بارعين في الأعمال اللغوية، والأدبية، وضعافًا في الحساب، أما الأطفال الذين منحهم آباؤهم حرية التصرف، والاعتماد على النفس، فقد امتازوا ـ في الغالب ـ بعقليات تحليلية وابتكارية، وشخصيات استقلالية" [٤].

ويقول أيضًا: ".. للبيت أثر بعيد في تنشئة الأولاد، وإحكام سيرتهم، بل لعله الأصل الأول في وراثة الدين، واللغة، وقد قرر علماء الأخلاق أن العنصرين الحاكمين في التربية والسلوك هما الوراثة والبيئة ، وإن اختلفوا في أيها أقوى، وأنفذ.

---

(١) مصطلح العالم الثالث مصطلح سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي، يقصد به الدلالة على الدول التي لا تنتمي إلى العالمين الأول والثاني، وهما الدول الصناعية المتقدمة. استُعمل تعبير العالم الثالث لأول مرة سنة ١٩٥٢م في مقالة صدرت للاقتصادي والسكاني الفرنسي ألفريد سوفيه في إشارة إلى الدول التي لا تنتمي إلى مجموعة (الدول الغربية) أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية وأستراليا واليابان وجنوب إفريقيا (ولا إلى مجموعة الدول الشيوعية) الإتحاد السوفياتي والصين وأوروبا الشرقية .(وقد استوحى سوفيه هذه التسمية من الفئة الثالثة في المجتمع الفرنسي أثناء النظام القديم وقبل الثورة الفرنسية.. للمزيد انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة مرجع سابق.

(٢) خطاب إلى العقل العربي صـ١٩، ٢٠ بتصرف ، مرجع سابق.

(٣) مثل ما ورد برقم (٢٣٣) البقرة، والتحريم(٦)، وسيأتي ذكره بعد قليل.

(٤) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١١٤، مرجع سابق.

يقول الشاعر العربي: وينشأ ناشئ الفتيان فينا على ما كان عوّده أبوه![(١)]

فهل الأب وحده غارس العادات في نفوس الأولاد؟ كلا، فللأم أثرها في المواريث البدنية والمعنوية، وعندما جاءت (مريم) بوليدها النبي العظيم من غير أب معروف قيل لها:﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[مريم:٢٨] إن أثر الأبوين معًا يُرتقب في ذريتها ويُلتمس في الأولاد، بل في الأحفاد.. ومن ثم، فنحن نعدّ البيت مسئولاً عن نتاجه، ونطلب من الأم والأب معًا العناية التامة بحاضر الأولاد ومستقبلهم، ويستحيل بناء مجتمع سليم على بيوت خربة.

إن فقدان التربية إيذانٌ بأن الأمة لا مستقبل لها...

وقد طلب الإسلام من الأب أن يصلي النوافل في بيته، حتى يألف أبناؤه الركوع والسجود! كما طلب أن يُتلى القرآن في البيت ليتعطر جوّه بمعاني الوحي، وفي الحديث (اجعلوا في بيوتكم من صلاتكم، ولا تتخذوها قبورًا) [(٢)] أي: أن البيت الذي لا يصلي فيه كالقبر الموحش، وقال رسول الله ﷺ أيضًا:(مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت) [(٣)] وجاء الأمر بتعليم الأولاد الصلاة منذ نعومة أظفارهم، وتعويدهم أنواع المكارم حتى يشبوا شرفاء صالحين، وقد لاحظ المربون أولو الغيرة أن الاستعمار الثقافي حريص على إنشاء أجيال فارغة لا تنطلق من مبدأ، ولا تنتهي إلى غاية، ويكفي أن تحركها الغرائز التي تحرك الحيوان، مع قليل أو كثير من المعارف النظرية التي لا تعلو بها همّة، ولا يتنضّر بها جبين.. وأغلب شعوب العالم الثالث من هذا الصنف الهابط... »[(٤)]

ومضى الشيخ/ الغزالي في بيان أخطر ما يهدد النشء في بلادنا، موضحًا أن التربية الراقية هي التي تراعي المواهب الربانية والغرائز التي تحرك الإنسان، مع الاعتناء بالدين والعقيدة وتهذيب الشهوات والاستفادة من الجوارح الفتية واللبقة والفعالة.. فكما أن لبعض النشء ذكاء يمكن ان يُنَمَّى ويطور منذ نعومة أظافر صاحبه.. وإلى أن يصير عبقريًّا مبدعًا ونجمًا متألقًا.. فإن لبعضهم أيضًا لباقة في لسانه ويده وبصره وقدمه.

---

(١) يعترض د/ فؤاد على هذا البيت بشدة، ويرى أنه شعار رجعي متحجر، لا يجوز أن نفخر به، انظر صـ٧٨ من كتاب خطاب إلى العقل العربي، مرجع سابق، وقد نقلت كلامه كاملاً في الفصل الأول من الباب الأول، المبحث الثاني صــ٧١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر ﷺ كتاب التهجد باب التطوع في البيت، برقم(١١٨٧) صـ١٧٠، مرجع سابق، ومسلم في صحيحه عن ابن عمر أيضًا، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، برقم(٧٧٧/ ٢٠٨) صـ١٦٨، مرجع سابق.

(٣) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ، برقم(٧٧٩/ ٢١١) المرجع السابق نفس الكتاب والباب والصفحة.

(٤) قضايا المرأة للغزالي، صـ١٣١، مرجع سابق.

يقول الشيخ/ الغزالي: "وقد شكا الأخ الأستاذ/ أحمد موسى سالم من أن الطفولة في بلادنا مهددة بالضياع القومي، والاغتراب الوطني، والاحتواء المذهبي، أي أننا لا نعرف فضائل قومنا، ولا عظمة تاريخنا، ولا قيمة رسالتنا، ولا جمال لغتنا وروعة بيانها، ومنذ أن يتحرك الفم نحو النطق والتعبير يبدو شبح اللغات الأجنبية، أو الألفاظ السوقية، وتتعرض النفوس الغضّة لغزو مشبع بالفكر الأجنبي، ولصور تنقل إلينا ملامح غيرنا، ولكتب ومجلات متخصصة في تشويه شخصيتنا، وإبعادنا عن منابتنا، وتجهيلنا في ديننا، وتعريفنا بالسلوك الأوربي وحده!! ما هي المثل العليا التي ترتسم في نفوس أطفالنا، وهم يدرجون نحو اليفاعة والشباب؟ صورة لاعب كرة يتأنّق والجماهير تُحيِّي قَدَمَه اللبقة وهو يصول ويجول! أو نجمة مسرح وهي تمثل دورها باكية أو ضاحكة ، مقبلة أو مدبرة؟

إن خريجي هذه المدارس، أو هذه المناظر لن يدركوا مجدًا، ولن يصعدوا قمة، هيهات أن تسترد بهم أمتنا شيئًا من خسائرنا الحضارية وتخلفنا الاقتصادي والاجتماعي. وأرى أن دور البيت في تربية البنين والبنات، لابد أن توضع له سياسة علمية، وأدبية جديدة، وإلا فنحن نسير إلى منحدر ... !!

إذا لم يتعلم الولد الصدق في البيت فأين يتعلمه؟ وإذا لم يتدرب على الوفاء، والأمانة، والرقة بين أحضان الآباء والأمهات فأين يتدرب؟...

من أجل هذا قلت: إن وظيفة ربة بيت ليست وظيفة هينة، إنها منصب آخر فوق مآرب اللذة، ومطالب الشهوات الجنسية.. فالأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيب الأعراق!![1]

والغارة الاستعمارية على الأمة الإسلامية كان لها هدفان قاتلان: أحدهما: استبقاء المرأة جاهلة لا تدري شيئًا عن نفسها أو عن العالم، والآخر تعليقها ـ إذا تعلمت ـ بمحاقر الأمور، وأنواع الزينة، وأشكال المدنية الحديثة، والبعد بها عن اللباب والجدّ، والارتقاء الفردي والجماعي.

وقد استعانت على ذلك بتعليم لا تربية معه، فإذا صرخ أحد يطلب دروسًا دينية أمكن إسكاته بمقرر دراسي يحفظ الأولاد فيه سورة (الفيل) أو سورة (الإيلاف)، وهكذا يُمْلَأُ الفراغ!" [2]

ولم يُمْلَأ الفراغ.. بل ظلت المرأة – إلا ما رحم ربي – لا تقوى على توجيه أبنائها التوجيه الصحيح، أو حتى التفاعل معهم بما ينفعهم في دينهم أو دنياهم.

---

(١) هذا البيت للشاعر حافظ إبراهيم من قصيدة العلم والأخلاق، انظر الموسوعة العربية للمعلومات **http://ar-encyclopedia.blogspot.com/٢٠١٠/٠٣/blog-post_٩٧١٧.html#ixzz٢B٢١L٤٢v٤**.

(٢) قضايا المرأة للغزالي صـ١٣١ ، وما بعدها، مرجع سابق.

والحق إن كلاً من الزوجين يحتاج إلى العديد من النصائح والإرشادات في تربية النشء، يذكر الدكتور/ محمد أبو فرحة أهم هذه النصائح فيقول:

«١ – المعامله باحترام.. فابنك إنسان مثلك تمامًا.. يحتاج إلى الاحترام كما يحتاجه أي إنسان بالغ عاقل..

٢- لا تعاقب.. بل صوّب.. إن أفضل ما يبني شخصية ابنك ويجعله ناجحًا في حياته أن يعرف الصواب من الخطأ، أن تشجعه باستمرار كلما أحسن صنعًا في أي شيء، فهذا يدعم شخصيته ويقويها ويجعله يتقبل النقد بصدر رحب، ويصلح أخطاءه بنفسه...

٣- لا تطلب الكثير من ذاكرته.. فذاكرة الطفل محدودة، وبالتالي لا تتوقع أن يتعلم الدرس من المرة الأولى، عليك أن تكرر الدرس عدة مرات، وأن تتحلى بالصبر...

٤- (لا) واحدة تكفي.. فكثرة اللاءات تعمل على إحباط ابنك.. فاجعل أوامرك ونواهيك في حدود الأولويات...

٥- اثبت على مبدأ.. وهذه نقطة خطيرة جدًّا في التربية.. فإن منعت ابنك من فعل شيء خطأ، كالوقوف على الأريكة بالحذاء مثلاً، فلا تسمح له به غدًا، فالمتابعة ضرورية حتى تثبت المعلومة في ذهنه...

٦- لا تعاقب وأنت غاضب.. خاصة إن كان العقاب بدنيًّا، فهذا قد يُحدث أضرارًا كبيرة في نفسيته، بل قد تتعدى إلى إيذائه!!» [(١)]

وهذا الذي أشار إليه د/ محمد لا يتأتى من ولي أمر لا يعرف خطورة هذه المسئولية أمام الله تعالى، ولا يمكن أن يتحقق منه شيء.. طالما المرء خارج البيت باستمرار لا يلاحظ سلوك أولاده أو يجالسهم بالقدر المطلوب.

ومن الحقوق المؤكدة للطفل والتي يعاقب ولي الأمر إذا تخلى عنها الرضاع والحضانة، والنفقة والتربية والتعليم والتغذية والرعاية الصحية وتهيئة الجو والمناخ المناسب.

وهذا ما سنبحثه ـ إن شاء الله ـ في المبحث التالي.

---

(١) أنا وأسرتي والحياة، د/ محمد أبو فرحة صـ٩٠ وما بعدها بتصرف، مؤسسة بداية للإنتاج والنشر ، طـ١ سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

المبحث الثالث: حقوق الطفل وموقف د/ فؤاد والشيخ/ الغزالى منها:

للطفل ـ في الإسلام ـ حقوق مؤكدة وفرائض واجبة، يثاب المرء عليها ويعاقب على تركها، أي ليست هي منح أو هبات متروكة لاختيار المرء وتقديره وكرمه.. فولي الأمر المسئول عن نفقة الصغير وتعليمه ورعايته ولم يقم بمسئوليته، أو قام بها ـ دون القدر المطلوب ـ الذي لا يفي أو يكفي احتياجات الصغير، يُعدُّ ـ ولي الأمر هذا ـ ظالمًا أو سارقًا أو غاشًا لرعيته، وكذلك الأم التي تستطيع أن ترضع ولدها ولم تفعل فهي آثمة ومضيعة لحق ولدها، فالوالدان - أحدهما أو كلاهما ـ إذا أهملا رعاية الطفل أو أهملا تعليم ما ينفعه، فقد وقعا في الإثم، ولنبدأ بذكر هذه الحقوق، كلاً على حده:

أولاً: الرضاع: قال ﷻ: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[البقرة: ٢٣٣] وقال ﷻ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[لقمان: ١٤]، وقال ﷻ: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف: ١٥٠] ولقد أجمعت كلمة الأطباء وعلماء التغذية أن لبن الأم لا يعدله شيء، ولقد قال رسول الله ﷺ: (إنه ـ أي لبن الأم ـ ينشز العظم وينبت اللحم) (١).

ثانيًا: الحضانة: وهي مأخوذة من الحِضَن وهو ما دون الإبط إلى الكشح، وحِضْنا الشيء جانباه، وحَضن الطائر بيضه إذا ضمه إلى نفسه تحت جناحه، وكذلك المرأة إذا ضمت ولدها، وعرّفها الفقهاء بأنها: عبارة عن القيام بحفظ الصغير أو الصغيرة، أو المعتوه الذي لا يميز ولا يستقل بأمره، وتعهده بما يصلحه، ووقايته مما يؤذيه ويضره، وتربيته جسميًّا ونفسيًّا وعقليًّا؛ كي يقوى على النهوض بتبعات الحياة والاضطلاع بمسئولياتها. والحضانة بالنسبة للصغير أو الصغيرة واجبة؛ لأن الإهمال فيها يعرض الطفل للهلاك والضياع، والحضانة حق مشترك للصغير لاحتياجه إلى مَن يرعاه ويحفظه، ويقوم على شئونه، ويتولى تربيته، ولأمه الحق فى احتضانه كذلك، لقول الرسول ﷺ: (أنتِ أحق به مالم تَنْكِحِي) (٢).

"وإذا كانت الحضانة حقًّا للصغير، فإن الأم تجبر عليها إذا تعينت بأن يحتاج الطفل إليها ولم يوجد غيرها؛ كي لايضيع حقه فى التربية والتأديب" (٣).

---

(١) رواه أبو داوود في سننه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، كتاب النكاح، باب في رضاعة الكبير، بلفظ : لا رضاع إلا ما شد العظم وأنبت اللحم، برقم(٢٠٥٩)، صحيح انظر صـ٣٤٤، ط/ دار الفجر للتراث- القاهرة، سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

(٢) رواه أبو داوود في سننه من حديث عبد الله بن عمرو م، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد، وهو حديث حسن برقم (٢٢٧٦) صـ٣٨٢، مرجع سابق.

(٣) فقه السنة، للشيخ سيد سابق جـ٢ صـ ٣٥١، طـ/ الفتح للإعلام العربي، ط ٥، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ثالثًا: النفقة "المقصود بالنفقة هنا: توفير ماتحتاج إليه الزوجة من طعام، ومسكن، وخدمة، ودواء وإن كانت غنية، وهي واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، أما وجوبها بالكتاب:

١ـ لقوله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] والمراد بـ (المولود له): الأب، والرزق في هذا الحكم: الطعام الكافي، و(الكسوة): اللباس، و(المعروف): المتعارف عليه في عرف الشرع، ومن غير تفريط، ولا إفراط.

٢ـ وقوله ﷻ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

وأما وجوبها بالسنة فقد روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: (..فاتقوا الله في النساء...ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[١]

وأما الإجماع[٢] فقد قال ابن قدامة: اتفق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن، إلا الناشز منهن، ذكره ابن المنذر وغيره وفيه ضرب من العبرة، وهو أن المرأة محبوسة على الزوج يمنعها من التصرف والاكتساب، فلابد من أن ينفق عليها" [٣] سيما وهي ترضع وتربي ابنه له، فتكون النفقة لها ولولدها كما أشارت الآيات السابقة.

والدكتور فؤاد زكريا لا كلام له في مسائل الرضاع، والحضانة، والنفقة !

رابعًا: التعليم: لقد سبق القرآن الكريم كثيرًا ممن تكلموا عن تعليم الآباء للأبناء، ويكفي أن نذكر ـ على سبيل المثال ـ قصة سيدنا لقمان عليه السلام وهو يعلم ابنه حيث قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٣ـ١٩].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم (١٢١٨/ ١٤٧) صـ ٢٦٦، مرجع سابق.

(٢) انظر المغني لابن قدامة صـ٦٦ وما بعدها، مطبعة هجر للطباعة والنشر، ط/ الأولى، سنة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م، و كتاب نيل الأوطار للشوكاني جـ/ ٦، كتاب النفقات، باب نفقة الزوجة وتقديمها على نفقة الأقارب، صـ٣٢١، مطبعة/ الأميرية سنة ١٢٩٧هـ.

(٣) فقه السنة صـ٢٢٨ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

والدكتور/ فؤاد لا يزال على طريقته، لم يذكر شيئًا عن دور الآباء في تعليم الأبناء، فهو يتكلم عن الإنسان ذاته، ويسند إليه القدر الأكبر من المسئولية، فالمرء عنده هو الذي يقرر إن كان يريد أن يتعلم أم لا دون أن يذكر لنا متى يكون ذلك؟ وفي أي مرحلة من مراحل عمره؟ وكيف يتحدد إن كان المرء تخطى مرحلة النضج أم لايزال في مرحلة الطفولة ؟ وفي هذه المرحلة من المسئول عنه وعن تعليمه وتربيته؟

يقول د/ فؤاد: «إن العلم يظهر منذ اللحظة التي يقرر فيها الإنسان أن يفهم العالم كما هو موجود بالفعل، لا كما يتمنى أن يكون، ومثل هذا القرار ليس عقليًّا فحسب، بل إنه بالإضافة إلى ذلك، وربما (قبل) ذلك قرار معنوي وأخلاقي، ولابد للعقل البشري أن يكون قد تجاوز مرحلة الطفولة التي نصور فيها كل شيء وفقًا لأمانينا، إلى مرحلة النضج التي تتيح لنا أن نعلو على الخلط بين الواقع والحلم أو الأمنية، وهذا مستوى لايصل إليه الإنسان إلا فى مرحلة متأخرة من تطوره.. فالإنسان يهتم بمشاعره الذاتية أكثر مما يهتم بالعالم المحيط به، وإذا اتجه إلى هذا العالم الخارجى فإنما يتجه إليه من خلال أحاسيسه الخاصة وميوله الذاتية، فلا يرى إلا مرآة تنعكس عليها انفعالاته وعواطفه»[(١)]

هذا بالنسبة للكبير البالغ أما الصغير فالدكتور/ فؤاد لا يتكلم عنه ولا يوجد عنده ما يقوله عن مرحلة الحضانة وما ينفع الصغار وفق ما أوجبه الله على أوليائهم وما شَرَعَه لهم من حقوق وواجبات.

يقول الشيخ الغزالي: «هل دور الحضانة يغني عن جوِّ البيت، وصدر الأم، واستقرار الأسرة؟ ذلك بعيد، وما نقبل هذا الدور إلا لضرورات مُلْجِئة، وطبيعة الضرورة التوقيت، حتى تعود المياه إلى مجاريها، وتنبت الزروع في مغارسها، والإسلام عندما أوجب على الرجل نفقة البيت، كان في الحقيقة يعطي المرأة عوضًا عن تفرُّغها لحسن تَبَعُّله، وتنشئة أولاده، واتجاهها الكامل إلى أداء رسالتها الطبيعية، والذين يَزْدَرون وظيفة (ربة البيت) جُهّال بخطورة هذا المنصب، وآثاره البعيدة في حاضر الأمم، ومستقبلها الأخلاقي، والاجتماعي.وأعباء هذا المنصب داخل البيت، تكافئ أعمال الرجل الشاقة خارجه، وقد وجهت الشريعة كلا الجنسين إلى ما يليق به، ويتفوق فيه، والقدرات الخاصة لبعض النساء لا تلغي هذا التخصص.. ولا ريب أن كيان المرأة النفسي، والجسدي قد خلقه الله على هيئة تخالف تكوين الرجل، فقد بُني جسم المرأة على نحو يتلاءم، ووظيفة الأمومة تلاؤمًا كاملاً، كما أن نفسيتها قد هيئت لتكون ربة الأسرة وسيدة البيت.

وأريد هنا إثبات بعض الملاحظات:(والكلام للشيخ الغزالي)

أولاً: أن النفقة معصوبة بجبين الرجل وحده، وأن إنفاق المرأة في البيت مسلك مؤقت، وتطوع غير ملزم، وعليها أن تجعل أثمن أوقاتها لتربية أولادها، والإشراف العلمي، والأدبي عليهم.

---

(١) التفكير العلمي صـ٥٧، مرجع سابق.

ثانيًا: أن دور الحضانة مأوى موقوت تلجأ إليه ضرورات عابرة، وأن الأساس في الإيواء والتربية هو البيت الأصلي ودفء الأمومة وحنانها!

ثالثًا: حرمات الله حولها في الإسلام أسوار عالية يجهلها كل سكران أو ديوث، وتقاليد الغرب التي تتيح لأي امرئ أن يراقص أى امرأة بإذن أو بغير إذن من زوجها يرفضها ديننا كل الرفض، وليس لرجل أو امرأة أي حرية في انتهاك حدود الله واعتداء حرماته.

رابعًا: الأسرة مملكة ذات حدود قائمة تشبه حدود الدول في عصرنا وطبيعة هذه الحدود الحماية والمحافظة، فليست البيوت مبنية على سطح بحر مائج التيارات، وليست بابًا مفتوحًا لكل والجٍ وخارج..»[1].

وعلى المصلحين أن يناشدوا المسئولين في الدولة بمساعدة الآباء والأمهات على القيام بمهام أعمالهم.. يعينوهم بالدعم المادي والمعنوي والتقني.. فلقد كان الخلفاء الراشدون ﷺ والأمراء المصلحون يعطون كل مولود ما يعين أبويه على تغذيته وتربيته؛ لأن المولود يحتاج إلى ما يكفيه من ضروريات الحياة .

يقول الشيخ الغزالي: «يولد الإنسان طفلاً ضعيف البدن قاصر الفكر، ثم يأخذ على مرّ الزمن طريقه إلى النماء البدني والارتقاء الفكري حتى يبلغ أشده، وهو لا يكبر جسمًا وعقلاً من تلقاء نفسه، بل يتزود بمقادير منتظمة من الأغذية تكفل لعظامه أن تمتد ولعضلاته أن تكتنز، وهو محتاج إلى أقساط منتظمة كذلك من المعرفة حتى يتفتق ذهنه، وتتسع مداركه، ويبصر حقيقة ما يحيط به من الأشخاص والأشياء، ويعي ما يطلب منه وما يجب عليه.

لا يولد المرء عالمًا، بل يبرز إلى الوجود غفل الصحيفة، ثم يستغل حواسه في الاتصال بما حوله وعقله للإفادة من تجاربه وتجارب الأولين، وبذلك يتكون وجوده المعنوي والذي هو أرقى من وجوده الحسي، قال ﷻ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ . . ﴾[النحل:٧٨]

والإسلام يوثق العلاقات بين الإنسان وبين هذا الكون الذي يحيا بين أرضه وسمائه ويشيد حواسه وبصيرته إلى ما يحفل به هذا العالم من أسرار وقوانين حتى لا يعيش محجوبًا ولا جاهلاً »[2].

والمرء حتى يصل إلى هذا المستوى من العلم لابدّ وأن يأخذ حقه كاملاً من رضاع يشبع عاطفته ويمده بالحنان.. ومن نفقة كافية يحصل من خلالها على متطلباته ويأخذ نصيبًا كافيًا من العلم النافع.. ومع الأسف لا يحصل على هذه الحقوق بالصورة الكاملة إلا القليل، وهذا يعني أن هناك مشكلات وعقبات يجب أن تدرس وأن توضع لها الحلول الكافية للتغلب عليها. وهذا ما سنبحثه في الصفحات التالية.

---

(١) قضايا المرأة للغزالي صـ١١٦، ومابعدها وصـ١٥٦ بتصرف، مرجع سابق.

(٢) حقوق الإنسان بين تعاليم الإنسان وإعلان الأمم المتحدة، صـ١٧٨، مرجع سابق.

المبحث الرابع: مشكلات الطفولة وكيفية التغلب عليها :

قد أشرت ـ في المبحث السابق ـ إلى حقوق الطفل ومنها النفقة.. وقد يقر المسئول بهذه الحقوق وبمشروعيتها وأهميتها وخطورة التخلي عنها أو التقصير فيها، ويبدي رغبته في أدائها على أكمل وجه، إلا أنه يتذرع ببعض الأعذار ومنها ضيق ذات اليد وقلة الدخل التي تحول دون الوصول إلى المقصود.

ولا شك أن هناك مشكلات وعقبات تقف في طريق تربية الأطفال.. سواء أكانت هذه المشكلات وتلك العقبات طبيعية أم مصطنعة، ففي الحالتين لابد من التفاعل معها إما بتذليلها، وإما بوضع تدابير وحلول ممكنة للتغلب عليها؛ لأن حقوق الطفل كثيرة وخطيرة ومتنوعة، وتحتاج إلى نفقات وأوقات، وقبل ذلك تحتاج إلى إيمان برسالة الإنسان في الحياة ورحمة وحنان وود؛ لأن الإنسان خلق ضعيفاً، وأشد مايكون الضعف وتظهر مشكلاته في مرحلة الطفولة الأولى، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم : ٥٤] لأن الطفل بعد خروجه من بطن أمه يحتاج إلي مقومات حياة، تختلف كثيرًا عما يحتاجه الكبير.

ولنذكر هنا المشكلة الكبرى التي أخذت حيزًا كبيرًا في كتب وكتابات د/ فؤاد زكريا والشيخ/ الغزالي وبعض العلماء وهي مشكلة الغذاء والدواء والسكن، وكيفية التصدي لها وسبل حلها.

وعن حل هذه المشكلات والتغلب عليها يرى د/ فؤاد زكريا أنها ترتبط بالموارد الطبيعية والحالة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية، ولا يمكن حلها إلا بقيود وضوابط يفرضها القانون على النسل والإنجاب، يلتزم بها المجتمع، ويُغَرِّم ويُجَرِّم من يخالف.

يقول : "ليس المرء في حاجة إلي أرقام أو جداول إحصائية لكي يُقَدِّرَ أن العالم يعاني منذ الآن من أزمة مستحكمة في الغذاء ، ففي العالم أغلبية من السكان لا تحصل من الغذاء علي الحد الأدنى اللازم؛ لكي يحيا الإنسان حياة سليمة وفيه أقلية متخمة، يعاني كثير من أفرادها من العلل والأمراض الناتجة عن الإفراط في المأكل، وإذا كان النقص في كمية الطعام، التي تحصل عليها الأغلبية الفقيرة خطرًا، فإن النقص في نوعيته أخطر ، فالغذاء اللازم لبناء الجسم لا يتوفر إلا بنسب ضئيلة لدي شعوب كاملة، وهو يهدد الأجيال الجديدة في مناطق شاسعة من الأرض بنمو جسمي، وعقلي غير مكتمل .

ومن المؤكد أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين مشكلتي الغذاء والسكان ، فالازدياد الرهيب[1] في عدد السكان يؤدي إلي تضاعف الطلب علي الغذاء، علي حين أن موارد العالم من الغذاء محدودة.. وعلي ذلك فليس في

---

(١) تأمل كيف يصفه الدكتور بالرهيب مع أنه مطلب شرعي وإرادة إلهية، ترجع إلى قدر الله ومشيئته ليس للمرء فيها إلا التنظيم والأخذ بالأسباب كما سأذكر لاحقًا.

وسع أحد أن يجزم بأن مشكلة الغذاء ترتبط بمشكلة السكان وحدها، وأن كمية الغذاء وعدد السكان يتناسبان عكسيًّا، أو يمثلان كفتي ميزان لا يمكن أن ترجح إحداهما إلا إذا خفت الأخرى ، فواقع الأمر هو أن هذا لا يمثل إلا جانبًا واحدًا من جوانب المشكلة، وأن للمشكلة جوانب أخرى كثيرة، من أهمها: نوع العلاقات السائدة بين الدول، وطريقة توجية الموارد العلمية، وإمكان أو عدم إمكان إيجاد أسلوب إنساني في التعامل بين الجماعات البشرية، ومع كل هذا، فإنني لست من المؤمنين بسياسة ترك التزايد السكاني يتضاعف دون ضوابط ، وإذا كنت فيما سبق قد حرصت علي تأكيد وجود عوامل أخري تؤثر في أزمة الغذاء ، إلي جانب عامل السكان...

ثم يمضي د/ فؤاد قائلًا: وفي اعتقادي أن إنجاب الأطفال سيصبح يومًا ما داخلاً في نطاق تلك الفئة من الأفعال التي ينبغي أن تخضع للتقييد والتنظيم الذي يستهدف في نهاية الأمر صالح البشرية كلها ، وصالح الأجيال الجديدة بوجه خاص، وسيأتي اليوم الذي ينظر فيه المجتمع البشري إلي مسألة إنجاب كائن جديد على أنها مسئولية، يجب أن تمارس بحساب، وفي إطار ضوابط، وضمانات معينة؛ لأنها تلقي عبئًا علي مجتمع كامل؛ ولأن هذا المجتمع سيصبح بالفعل مسئولاً عن هذا الكائن الجديد، لا في طعامه أو كسائه أو مسكنه فقط ، بل في تثقيفه وتعليمه ورعايته، ومن ثم فلابد أن تكون للمجتمع كلمة تُقال في هذا الموضوع.. ولعل القارئ يندهش إذ يجدنى وقد اتخذت فى البداية موقف المهاجم لمن يرون فى تحديد النسل الوسيلة الوحيدة لتخفيف أزمة الطعام ، ثم إتخذت فى النهاية موقف المدافع عن مبدأ تحديد النسل حتى بقوة القانون » [(١)].

وأنا لا أستغرب هذا من د/ فؤاد زكريا لأني قرأت كتبه، وما رأيت فيها ذكرًا لدليل شرعي من كتاب الله، أو سنة نبيه ﷺ أو إجماع، أو رأي راجح، سيما وهو يتكلم في أمور شرعية تتعلق بالأخلاق، والأرزاق، والحقوق، والواجبات التي لا يعرف لها حكم، أو يمكن لها حل ، بعيدًا عن الشريعة الإسلامية. وأراه ـ غفر الله له ـ يخالف المنهجيه التي تعلمناها في الأزهر الشريف، ويلجأ ـ غالبًا ـ إلي القوانين الوضعية، والحسابات الرقمية، ونتاج العقل (الغربي) والفلسفات الكلامية، وفي الكلام السابق أكد أن مشكلتي الغذاء والسكن يحلان بقانون يحدد النسل، مع زيادة الإنتاج وإنسانية التعامل، حيث إن زيادة المواليد تلتهم كل إنتاج جديد، والأرض لاتكفى من عليها كما يزعم .

مناقشة هذه المسألة:

القول بأن الأرض لا تكفي من عليها، غير صحيح، والدليل على ذلك: ١ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات] وقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ

(١) التفكير العلمي صـ٢١١ ومابعدها بتصرف، مرجع سابق.

رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾[فصلت:١٠].

٢ـ أن نسبة المعمور من مساحة مصر لا يزيد عن ٨٪ أي هناك أكثر من ٩٠٪ من مساحة مصر لا تزال فارغةً خاليةً لم تستغل حتى الآن.

يقول د/ حلمي صابر: «إن النظرة الفاحصة إلى هذا الاتجاه توضح لنا خطأه وبُعدَه تمامًا عن الاتجاه العلمي الصحيح، وأنه لا يهدف إلا للإثارة، وحجب الحقائق، ويتضح ذلك فيما يلي:

(أ) نظرتهم إلى الأمور نظرة جزئية منفصلة عن التطورات الاجتماعية الأخرى، والاكتفاء بالموارد الطبيعية، وتجاهل قدرة الإنسان على معرفة الطبيعة، واستخدام وسائل التأثير فيها.

(ب) ربط حركة النسل بالمشكلة الاقتصادية مغالطة كبرى؛ إذ يرى بعض العلماء عكس ذلك.

(جـ) ما وصل إليه العلم الحديث والتقدم التقني في حماية المحاصيل الزراعية والغلال من الآفات، واكتشاف التربة الصالحة، والقيام بمسح الأرض الزراعية، ومعرفة خصائصها، واختيار السلالات الأفضل، واستخدام الظروف الأنسب، واستخراج المياه الجوفية بأدوات الرفع الحديثة، وتحلية مياه البحار، وإزاحة ملوحة المستنقعات، وتحوير الظروف الجوية مثل: زرع السحب[1] وتحسين طرق استخدام المياه، والملائمة بين المحصول والبيئة، وتوفير العناصر الغذائية عن طريق التهجين والتطعيم، واستخدام الأقمار الصناعية، والحاسب الالكتروني، والآلات الحديثة.»[2]

وبعد سرد الأدلة ومناقشة المسألة مناقشة علمية ليس هنا مجال ذكرها، يقول الدكتور حلمي صابر رَحِمَهُ اللهُ: «لقد اتضح لي أن أي تفسير للمشكلة بقلة الموارد، وشح الطبيعة، أو عدم وفرتها وكفايتها.. هو جهل صريح بالحقائق، إن تقصير الإنسان لا يقف عند حد إهماله في استغلال ما في الطبيعة من ثروات، كثيرة، متاحة، بل يتعدى تقصيره إلى سوء توجيه ما في يده من ثروات، إن أي كلام في المشكلة يخرجها عن الإطار الإنساني، فهو حجب عن الأسباب الحقيقية لها.

إذن تستطيع أن تقرر في حزم ويقين بأن الإسلام وحده هو الذي أصاب كبد الحقيقة في تحديد المشكلة

---

(١) زرع السحب يعني رش السحب الركامية المحملة ببخار الماء الكثيف بواسطة الطائرات برذاذ الماء؛ ليعمل على زيادة تشبع الهواء، وسرعة تكثف بخار الماء لإسقاط المطر، وهذه طريقة تحتاج إلى كميات كبيرة من الماء وقذف بلورات من الثلج الجاف في منطقة فوق السحب؛ لتؤدي إلى خفض درجة حرارة الهواء، لتعمل على التحام قطرات الماء الموجودة في السحب وسقوطها كما في حالة المطر الطبيعي.. انظر موقع:

www.saaid.net/bahoth/٥١.htm

(٢) مشكلة الجوع في العالم، وكيف عالجها الإسلام (رسالة ماجستير) غير منشورة، د/ حلمي صابر، صـ ٣٥ وما بعدها، بتصرف، مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة رقم (٩٢).

ووضع الحل الجذري لها دون غيره من المذاهب الأخرى»[١].

وهذا الذى أكده د/ حلمى صابر هو الحق؛ لأن المشكلة ليست مشكلة شح موارد، بقدر ما هي مشكلة أخلاق وبعد عن منهج الله .

ويقول الشيخ الغزالي: «على وجه الحضارة الحديثة غشاء ناعم رقيق يخفي قسوتها الدفينة على خصومها في الدين ، وعلي جماهير المستضعفين ! ولذلك لم أدهش عندما قرأت نبأ تجارة الأطفال التي ظهرت أخيرًا في بعض الدول العظمي .

والخبر - كما نشرته صحيفة الشعب الجزائرية، تحت عنوان (أطفال العالم الثالث للبيع) هو - تريد بلدية (فرانكفورت) اتخاذ الاجراءات لمنع أنشطة مؤسسة تقوم بشراء أطفال من العالم الثالث وبيعهم إلي أسر تتبناهم في ألمانيا الغربية .... ويُقدّر متوسط سعر الطفل من البلد الفقير بـ ٧١٠٠ دولار! علي حين تبلغ قيمة الطفل المجلوب من الشرق الأقصي ٨٩٠٠ دولار، وضعف هذا الثمن للطفل المجلوب من الشرق الأدني، ويمكن أيضًا شراء طفل ألماني بمبلغ ٢٦٥٠٠ دولار، وتختلف الأسعار حسب ما تطلبه الأمهات تعويضًا عن أطفالهن.

وصرحت مؤسسة (هميل وكيلير) لإنشاء الأسر أنها أبرمت إلي الآن عقودًا ببيع ثمانية أطفال، وصرح المدير المسئول أن مؤسسته تقوم بأعمال جد ضرورية، وأنه لولا نشاطها لكان مصير هؤلاء الأطفال الضياع، وأن تهديد البلدية له لن يمنعه من المضي في عمله! ويقبض مدير المؤسسه ٢٠٠دولار عن كل طفل يتم بيعه، وباقي المبلغ تتقاسمه الأم والسمسار الذي يتمم معها الصفقه.

هل الفقر من وراء هذه الصفقات المحزنه؟ وهل المتاجرة بالآلام تهبط إلى هذا الدرك ؟ أعرف فى سنة نبينا ﷺ ما يأبى هذه المسالك كلها فعن أبى أيوب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من فرق بين الوالدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة) [٢]...

يتامَى المسلمين؟

لم يخل قطر على ظهر الأرض من يتامى، فإن الموت يطرق البيوت فى كل طرفة عين من ليل أو نهار، ومن الناس من يتوفى دون أن يرى ولده، ومنهم من يخلفهم ذرية ضعفاء أفقر ما يكونون إلى الكافل الرحيم.. وقد كنت أحسب المسلمين أكثر الناس يتامى؛ لأن مغارمهم في حرب العقائد فادحه،

---

(١) المرجع السابق، صـ٤١ ، بتصرف .

(٢) رواه الترمذي في سننه من حديث أبي أيوب الأنصاري ﷺ ، كتاب البيوع عن رسول الله، باب ما جاء في كراهية الفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدها في البيع، برقم (١٢٨٣)، صـ ٣٤٧، وقال: حديث حسن غريب، مرجع سابق.

والطامعون في فتنتهم عن الدين لا ينتهون..ثم بدا لي أن حروب العدوان لا تجف بِرْكَتَها، وقد قتل في الحرب العالمية الأخيرة خمسون مليونًا، وسيل القتلى في الحروب المحلية لا يتوقف، والأيتام يكثرون ولا يقلون، ثم جاءت كوارث الزلازال والفيضانات فحصدت الأخضر واليابس،وخلّفت أعدادًا من الأرامل واليتامى! فلا عجب إذا حثَّ الدين على رعاية المستضعفين وإيواء الأيتام وترقيق القلوب لهم، وإرصاد الأموال لمساعدتهم،وفى الحديث:(أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وقال بأصبعيه السبابه والوسطى)[(١)]

إن مشاركة ذوي الآلام متاعبهم، والاقتراب منهم يعيد التوازن إلى من أسكرتهم لذات الدنيا، وأذهلهم نعيمها.. علي أن المسلك الفردي إن أغني حينًا فهو فاشل في أغلب الأحيان، لاسيما عندما يعم البلاء، وتترادف الآلام.» [(٢)].

والخلاصة: أن د/ فؤاد زكريا يرى أن مشكلة المشاكل التي تواجه النشء والأسرة ناجمة عن قلة الموارد وزيادة المواليد وطبيعة العلاقة بين الدول المتقدمة والغنية والمتأخرة والفقيرة، وعدم توجيه الإمكانات المتاحة والابتكارات العلمية بطريقة عادلة ومفيدة، فالمسألة عنده مادية تعالج بالقانون وزيادة الإنتاج، وأن العلاج يبدأ محليًّا بوضع قوانين تحد من النسل وتوجِّه الطاقات والموارد مع ضرورة تعاون الدول وتحسين العلاقات بينها.

أما الشيخ/ الغزالي فيرى أن المشكلة ليست مشكلة شح موارد، ولا قلة إمكانات.. إنما هي مشكلة أخلاق وبُعد عن منهج الله في عمارة الأرض واستخلاف الإنسان فيها والاستفادة من خيراتها.. والعلاج يكون بالعمل والإنتاج، وتفعيل أحكام التكافل الاجتماعي، والقيام بالواجبات والفرائض التي جاء بها الإسلام، ومراعاة حقوق الضعفاء واليتامى والفقراء والمساكين ووضع قوانين تلزم كل مسئول بذلك وتعاقبه على التقصير.

وأعتقد أن هذا الذي أشار إليه الشيخ/ الغزالي لا يتحقق على أرض الواقع إلا إذا صدقت نوايا المسئولين، وقام كل راع بواجبه نحو رعيته، ووضعت القوانين التي تحمي الأبناء وتعاقب من أهمل في حقهم أو عرضهم للضياع، والأمر يحتاج أيضًا إلى العلماء والخبراء، ودعم أصحاب الأموال ورجال الأعمال؛ لإقامة المشاريع الهادفة والداعمة للغذاء والدواء والتعليم والسكن؛ لأن هذه المشاكل إن لم تحل ستلازم الأبناء في مراحل الشباب. وهذا سأذكره بالتفصيل في مباحث الفصل التالي إن شاء الله تعالى .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث سهل بن سعد الساعدي ﷺ ، كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيمًا، برقم (٦٠٠٥)، صـ٨٦١، مرجع سابق.

(٢) قضايا المرأة صـ ٢٠٥ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

الفصل الثالث

قضايا الشباب وما تواجهها من مشكلات

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : نظرة الشباب للحياة والمستقبل وتقييمها.

المبحث الثاني: الصعوبات والمشكلات التي تواجه الشباب.

المبحث الثالث: المسئولون عن حل مشكلات الشباب.

المبحث الرابع: تدريب الشباب علي مواجهة الصعاب، وتحمل المسئوليات.

المبحث الأول : نظرة الشباب للحياة والمستقبل وتقييمها :

الشباب عماد الحياة فهم نصف الحاضر وكل المستقبل.. وشباب اليوم قادة الغد، وفترة الشباب فترة العطاء؛ لما فيها من القوة والفتوة ، ولقد اختار الله ﷻ الأنبياء في فترة الشباب، ولا يخفى ما للشباب من طموح وأمل ورغبة في إثبات الذات والاعتماد على النفس.

ونظرة الشباب للحياة تختلف باختلاف دينهم وعقيدتهم وتربيتهم وثقافتهم وثقافة أسرهم ومجتمعاتهم قال ﷻ: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد:١٩] .

والباحث في قضايا الشباب يعلم أن كثيرًا من المشكلات التي تعوقهم وتمنعهم من السعادة والاستقرار والنجاح.. للأسف صنعها بعض الشباب بأيديهم، إذ إن كثيرًا منهم ليست لهم نظرة صحيحة للحياة.. وأعتقد أن أي شاب ليست لديه مهنة محترمة يحبها ويطورها، ويخدم من خلالها دينه ودنياه - من ليس كذلك - فهو بحق لا يعرف قيمة الحياة، بل هو جزء من المشاكل التي تواجه حياة الناس لأنه ـ بهذه السلبية ـ يصبح عالة على المجتمع، يستهلك ولا ينتج، أو ينتج ما يضر ولا ينفع.

وكثير من الشباب لا يهمه إلا أن يعيش على أي وضع، ليس له هدف مشروع يسعى لتحقيقه، ولا يعرف قيمة الحياة وبالأخص فترة الشباب التي سيسأل عنها بين يدي الله تعالى قال ﷺ: (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس.. ومنها عن شبابه فيما أبلاه)[1].

والدكتور فؤاد يرى أن الشباب المسلم حياته تقوم على الجمود وحرمان النفس مما تريد، فهو يحذر الشباب من الانضمام للجماعات الإسلامية ، ويدعوهم إلى الاستمتاع بالحياة الدنيا والتفاعل مع مباهجها وزيناتها، والتلذذ بالطرب والفنون، ومشاهدة التليفزيون..

يقول: "..دعونا نفكر في النموذج الذى تقدمه هذه الاتجهات المتطرفة لشبابنا، لتلك الألوف المؤلفة من إخواننا وأبنائنا في الوطن، الذين ينضمون إلى هذا الفكر بلا وعي، ولكن بحماسة جارفة، هل نرضى نحن بحق أن تكون صورة شبابنا، هي صورة ذلك الفتى الذي يغمض عينيه، أو يحلق بهما فى السماء، ولا يعرف كيف يبتسم أو يضحك من كل قلبه، والذي لا يستمتع بالفنون، ولا يطرب لها، ويمتنع عن مشاهدة التليفزيون (كما كان خالد يفعل) أو تلك الفتاة التي ترى أن نظرتها إليك فى عينيك عندما تخاطبك حرام، والتى تلف نفسها بألف غطاء وغطاء؛ لأنها تفترض ضمنًا أن أنوثتها عيب، وأن عيون الرجال لا تقع

---

(١) رواه الترمذي في سننه من حديث ابن مسعود ﷺ ، كتاب صفة القيامة، باب في القيامة، برقم ٢٤١٦، وقال هذا حديث غريب، وبرقم ٢٤١٧ عن أبى بَرزَةَ الأسلمى وقال: حسن صحيح، صـ٦٣٢ مرجع سابق، وانظر صحيح الجامع الصغير ٧٢٩٩ ـ ٢٥٣٠ زيادة المكتب الإسلامى صحيفة،٩٤٦ ط٣ سنة ١٩٨٨ جـ٢ صـ١٠٢٢.

عليها إلا لكي تشتهيها، وأن عليها هي أن تدفع ثمن أطماع الرجال..

هل النموذج الذى نريده لأبنائنا هو ذلك الشباب المطيع، الذي يعطل عقله ويلغيه، ويتبارى مع غيره في التراشق بالنصوص، بدلًا من أن ينقد، ويفكر، ويبدع الجديد» [١].

أعتقد أن من لديه أبسط معرفة بالثقافة والأخلاق الإسلامية، يكشف خطورة وخطأ ما يدعو إليه د/ فؤاد زكريا الشباب المسلم؛ لأنه ـ بكلامه السابق ـ يتجاهل آيات الحجاب، والأمر بغض البصر، ومعلوم أن المرء فى الدعاء ينظر بوجهه إلى السماء، والدكتور/ فؤاد يلوم بشدة البنت على حيائها، متجاهلًا كل ما ورد في الكتاب والسنة عن الحياء مثل قوله تعالى عن بنت نبى الله شعيب عليه السلام: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ [القصص: ٢٥] وقوله ﷺ:(إن الحياء من الإيمان)[٢] .

ولقد كان ﷺ (أشد حياء من العذراء في خدرها)[٣] وقال ﷺ:(إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما شئت)[٤].فالحياء الذي هو خلق الأنبياء، وشعبة من شعب الإيمان عَدَّه د/ فؤاد عائقًا من عوائق التربية الصحيحة والثقافة المفيدة.. بل ويوجب على الشباب- ذكورًا وإناثًا- أن يخرجوا من التقاليد القديمة ويواجهوها بالنقد والتشكك، بل ويعاتب الفتاة المسلمة التى لا تضحك من قلبها، ولا تنظر في عيني زميلها.. ولا تنتقد.. أو تتشكك.. فالشك ضروريٌ (عنده) للوصول إلى اليقين حتى في مصادر الدين.

والدكتور يدعي أن هؤلاء الشباب يمتنعون عن مشاهدة التليفزيون (كما كان خالد يفعل) ولا أدرى ماذا يقصد بكما كان خالد يفعل! مع أنه ـ قبل هذا الكلام وبعده ـ يتكلم عن الجهاد ورموزه والداعين إليه[٥].

والرجل ـ فى الجملة ـ لايرضى بالنموذج الإسلامى للحياة، وفي ذات الوقت يندد بالشباب الذى يقلد الغرب ويَعُدُّ ذلك من مظاهر الهزيمة والتخلف.. يقول: «إن اتباع نمط غريب، أو تقليد حضارة متفوقة، بغير تمييز، أو إعمال للفكر، هو مظهر واضح من مظاهر التخلف، ولكن من الواجب أن ننتبه إلى أن هذا النوع من الاتباع يمكن أن ينطبق على مسايرة الماضي، مثلما ينطبق على محاكة نماذج من الحاضر، ويؤدي في كلتا الحالتين إلى نتائج سلبية.

---

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ١٢٣، مرجع سابق.

(٢) رواه البخاري في صحيحة من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كتاب الأدب، باب الحياء، برقم (٦١١٨) صـ٨٧٣، مرجع سابق.

(٣) هذا ما قاله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه والحديث في المرجع السابق برقم(٦١١٩) نفس الكتاب والباب والصفحة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي مسعود عقبة البدري رضي الله عنه آخر كتاب أحاديث الأنبياء برقم ٣٤٨٤، صـ٥٠٠، مرجع سابق.

(٥) انظر صـ١٢٠ ومابعدها، الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة،مرجع سابق.

فالشاب الذي يحرص على متابعة أحدث الرقصات التي تظهر في الغرب وآخر صيحات الملابس فيه، مقلد لا يرجى منه إبداع، ولكن الشاب الذي يرتدي ملابس أسلافه منذ قرون عديدة، ويفكر كما كانوا يفكرون، وينفصل عن عصره ليتوحد مع عصر قديم، هو أيضا اتباعى لا أمل منه فى إصلاح أو تقدم» (١).

تأمل كيف سوَّى د/ فؤاد بين شباب مستقيم ملتزم مطيع لله ورسوله ـ وإن شابه شيء من الإفراط والجهل ـ وشباب مُفَرِّط ومضيع ومقلد للراقصات في الغرب والشرق، كلاهما عنده سواء لا يرجى منهما إصلاح أو تقدم!!

كنت أود منه أن يقول: إن نظرة الشباب إلى المستقبل ترجع إلى مدى ثقافتهم وفهمهم للواقع، ومدى تفاعلهم معه.. وبقدر ما يصلون إلى العلوم والمسلمات العلمية التي تكشف لهم أسرار الطبيعة والحياة.. بقدر ما تكون لهم نظرة صادقة في الحياة، وأملٌ في المستقبل.. لو قال ذلك لكان هذا القول ـ من حيث الجملة ـ مقبولًا إلى حد ما، ولعله يحكي واقع غالبية الأجيال وإلى الآن، ولكنه للأسف وَجَّه الشباب إلى اللهو واللعب ـ فى مقالته الأولى ـ ثم طلب منهم العمل والجد وإثبات الذات - في مقالته الثانية.

ولا يخفى أن للدكتور كتابًا عن الموسيقى بعنوان: التعبير الموسيقي، يدعو فيه إلى المقارنة بين الموسيقى العربية وعوامل انحطاطها، والموسيقى الغربية ومظاهر تألقها (٢).

ولم يقف الدكتور عند هذا الحد من صد الشباب عن دين الله، بل يدعي أن ما أسماه (بالمثالية) سينتهي إلى هزيمة ـ يومًا ما ـ أمام الثقافة العقلية فهي ـ على حد زعمه ـ الأمل وهي المنتصرة غدًا، ففي كتاب (نظرية المعرفة، والموقف الطبيعي للإنسان) يقول: «لا يخالجني شك في أن البشرية ستصل يومًا ما إلى دحض كامل للموقف المثالي.. وأعني بالمثالية كل مذهب يعارض الموقف الطبيعي في نظرته إلى العالم الخارجي.. وأعني بالموقف الطبيعي نظرة الإنسان العادي إلي العالم الخارجي.. إذ ينسب إلي هذا العالم بما فيه من (أشياء) وجودًا مستقلاً عن ذاته، في حين أن المواقف المضادة له أي: (المثالية) إما أن تنتهي إلي إخفاق، أو تتوقف عند نقطة لا يمكنها المضي بعدها.. إن حواسنا تمكننا من معرفة الأشياء، وتمييزها، وفحصها، بحيث يتسنى لنا تطبيقها في استعمالاتنا، وعلى أنحاء شتى لمواجهة مقتضيات هذه الحياة » (٣).

وهكذا: فالمثالية – عند الدكتور ومن على مذهبه– سَتُدْحَضُ مهما كان مبعثها، ومثلها العليا فهو–غفر الله له– يعلن دون تحفظ في كل كتاب من كتبه بلا استثناء أنه ينظر للحياة بعيدًا عن المفاهيم القديمة بما

---

(١) خطاب إلى العقل العربى ، صـ٢٨، مرجع سابق.

(٢) انظر صـ٩ وما بعدها من الكتاب المذكور، مرجع سابق.

(٣) انظر صـ٦ ، ٧ ، ١٢ ، ١٥ ، بتصرف، مرجع سابق.

فيها التراث والعقائد الماضية، فالحاضر -عنده- يحكم على الماضي، والجديد مقدم على القديم مهما كانت قدسية هذا القديم، تأمل كيف يكون حال الشباب وهم ينظرون إلى الحياة بهذا المنظار بعيدًا عن القرآن الكريم وتعاليم النبي محمد ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم.

والشيخ الغزالى يتحدث كثيرًا عن الشباب المسلم ويحثه على الاقتداء بشباب الصحابة رضي الله عنهم فمثلًا يقول: «...أسامه بن زيد رضي الله عنه جعله النبى ﷺ على رأس الجيش لمقاتلة الرومان، شاب عمره ثمانية عشر عامًا يولى القيادة، وخليفة رسول الله عمره واحد وستون عامًا يمشى إلى جانبه ويستأذنه فى أن يبقى عمر بن الخطاب رضي الله عنه معه وهو مجند فى الجيش..

بهؤلاء الرجال مضى الإيمان في طريقه لم يتوقف والغريب أن ضريبة العمل صاحبت كل إنسان مهما كانت مكانته. كان الرجال الكبار من شباب هذا الدين يعلمون أن مكانتهم عند الله بمقدار ما يضحون، وبمقدار ما يؤدون.. سمعوا في دينهم حديثًا عن الفتية أهل الكهف،كانوا شبابًا، لكنه شباب زانه الإيمان، زانته المغامرة في سبيل الله، زانته المقاومة للضلال السائد، والرفض للشرك المستبد، كانوا شبابًا ذكره القرآن فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف: ١٣] وسمعوا القرآن يتحدث عن شباب (يوسف) عليه السلام كيف زانته العفة وعن شباب(موسى) عليه السلام كيف كان قوة وحكمة: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أهذا له وحده؟ لا ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]..

عندما أتصور شابًّا في الثامنة عشرة من عمره أقول في نفسى: طبيعة الإيمان، تربية القرآن، لو كان هذا في أحد العواصم العربية لرأيناه (يتسكع) في الطرق، سادلاً شعره على رأسه كأنما هو امرأه !! لا تعرف ماذا يصنع؟ ولا يدرى هو أَلَهُ في الحياة رسالة أم لا؟

إني آسف ـ والكلام للشيخ/ الغزالي ـ إذ أقول: إن المسلمين في شئون دينهم جهال، وفي شئون دنياهم جهال، والفراغ العقلي والروحي بين أولادنا وشبابنا فراغ رهيب، وكما تحتاج الصحراء الكبرى إلى أنهار لا حصر لها كي تحول جدبها خصبًا، فإن أمتنا بحاجه إلى أنهار من المعرفة بدينها ودنياها، ترفع مستواها، وتبدل حالتها، وتجعلها أرقي مما هي الآن، فنحن بديننا جُهّال، وبتاريخنا جهال (وبواقعنا أيضًا) حتى تَنَدَّرَ قادة اليهود بأن العرب آخر من يقرأ!!نحن نريد للشباب نهمًا علميًّا، وعسكريًّا، ورياضيًّا، واجتماعيًّا، يملأ حياتهم بالجديد، الذي لابد منه؛ كي يؤدوا ما عليهم لأمتهم» [(١)].

وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

إن كثيرًا من الشباب لا يخطط لنفسه في الدنيا، ولا يعمل عملاً جادًّا لمستقبله فيها، ولا يفكر في الدين

(١) خطب الشيخ محمد الغزالي في شئون الدين والحياة، المجلد الأول، صـ١٣٨ : ١٤٢، بتصرف كبير، مرجع سابق.

وإعلاء رايته، ويكتفي بالحياة التي يجد فيها الحد الأدنى من الطعام والشراب والسكن، والعجيب أن الكثير ـ منهم ـ راض عن هذه الحياة، والبعض غير راضٍ، وفي ذات الوقت لا يفكر تفكيرًا علميًا في المستقبل الأفضل.

رأيت كثيرًا من الشباب يتفنن في قتل الوقت باللهو واللعب، وآخرين يقتلون أنفسهم بالمخدرات والإدمان، وكأن الحياة عدو يجب قتله أو إخماده، أو تخديره والتغلب عليه، والبعض منهم يعلم أنه يخادع نفسه ويحملها قسرًا على الاستسلام للواقع الأليم دون أدنى تفكير في مواجهته.

إن مصارحة النفس ومراجعتها أمر لابد منه، وكيف يمكن للإنسان أن يتقدم إلى الأمام في الدين أو الدنيا، وهو يراوح مكانه وراض عن حاله؟ وإذا كان الشاب لا يستفيد من ماضيه، ولا يسعى في إصلاح حاله ولا يعتبر بمن سبقوه.. كيف يهتم إذن بمستقبله؟

إن نظرة الشباب للحياة تحتاج إلى إعادة نظر في الواقع الحالي ، ومراجعة صادقة وعملية لهذا الواقع للوقوف على الإيجابيات وتنميتها وتفعيلها، ومعرفة السلبيات كالهزيمة النفسية وعلاجها والتخلص منها، وذلك بحب وإقناع ووسطية واعتدال.. بعيدًا عن جلد الذات أو الاستغراق في الشهوات، ولا يكون ذلك كاملاً إلا إذا عرف الشباب الغاية من الحياة ورسالته فيها والموت بعدها.

قال ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك:١، ٢].

وبعد الحديث عن نظرة الشباب للحياة والمستقبل وتقييمها، يحسن بنا أن نذكر أهم العقبات والصعوبات التي تواجه الشباب وكيفية التغلب عليها.

وهذا ما سنذكره في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى.

المبحث الثانى: الصعوبات والمشكلات التى تواجه الشباب:

في هذا المبحث نتناول أهم المشكلات التي تواجه الشباب، ونبين أسبابها، ثم يأتي بعد ذلك ـ في المباحث التالية ـ الكلام عن المسئول عن حلها، وكيفية التصدي لها.

والواقع الذي لا يحتاج إلى دليل أنه لا يوجد تحدٍ يواجه المصلحين أكبر من مشكلات الشباب؛ لأن هذه المشكلات منها ما يتعلق بالشباب أنفسهم، والبيئة التى نشئوا فيها، ومنها ما يتعلق بالإمكانات المتاحه والثقافات السائدة وصلتها بالعمل والإنتاج.

وبما أن هذه المشكلات في بلادنا كثيرة ومتنوعة ومتفاقمة وخطيرة، وتحتاج إلى شروح مطولة ورسالة خاصة، أكتفي هنا بذكر أهمها عند د/ فؤاد والشيخ/ الغزالي.

الدكتور/ فؤاد يرى أن الشباب العربى فى محنة ثقافية، وفجوة كبيرة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فتحت عنوان/ محنة الثقافه عند الشباب العربي، يقول: «العالم كله يتحدث عن الفجوة بين الأجيال الجديدة، عن إحساس الأجيال الجديدة بأن جيل الكبار عاجز عن فهمها والتجاوب معها؛ لأنه عاش في زمن القطارات البخارية، والسيارات الصندوقية البطيئة، والسينما الصامتة.. أفلا تكون الأجيال الجديدة إذن على حق حين تؤكد أنها تعيش في عصر يصعب علي الكبار أن يستوعبوا أبعاده، فيقفوا عاجزين تمامًا أمام الإمكانات الهائلة التي يحملها في طياته؟

هذه ـ بغير شك ـ أزمة حقيقية تمر بها الأجيال الجديدة، التي تشعر بأن المستقبل ملك لها وحدها، علي حين أن الكبار الذين يمسكون في أيديهم بمقاليد الأمور في الوقت الراهن، لا يتيحون لهم ما يتطلعون إليه من فرص للمشاركة في توجيه المجتمع، لا لأن هؤلاء الكبار سيئو النية أو حاسدون، بل؛ لأنهم ـ بحكم موقعهم الزمني نفسه ـ عاجزون عن التكيف بنجاح أمام عالم التغيرات المذهلة الذي ولد فيه شباب تشبعوا منذ حداثتهم بروحه.. وهكذا لا يجد الشباب في مصادر الثقافه المحلية ما يشبع نهمه إلى المعرفة...

والمصدر الأخير الذى يمكن أن يستمد منه الشباب العربي زادهم العقلي هو الثقافة التقليدية، أو التراثية، ولقد تعمدت استخدام تعبير(الثقافة التراثية) بدلاً من لفظ التراث؛ لأن ما أقصده هاهنا أوسع نطاقًا من التراث نفسه، إذ يشتمل أيضًا على الكتابات الحديثة التى تعرض التراث أو تدافع عنه أو تستلهم روحه»[(١)].

من خلال ما سبق يتبين أن المشكلة الأولى التي تواجه الشباب ـ كما يراها د/ فؤاد ـ هي الثقافة، فإذا

---

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ٤٣ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

تغلب الشباب ـ بمعاونة المسئولين ـ على هذه المشكلة حلت جميع المشاكل الأخرى، كما أن بين الشباب والكبار فجوة عميقة وهوة سحيقة، أحدثتها الاكتشافات العلمية الحديثة.

والسؤال:هل الفهم العقلي والثقافة الذاتية والبحث في أسرار الكون يكفي لسعادة الإنسان، وتأمين مستقبله، والقضاء على جميع مشكلاته، كالفقر، والجهل، والمرض؟ الجواب : كلا؛ لأن الله ﷻ خلقنا لمهمة ورسالة، لا يجوز للدكتور/ فؤاد زكريا، ولا للشباب، ولا لأحد أن ينساها أو يتناساها ألا وهي: عبادة الله، والخلافة في الأرض، فنظرة الشباب للحياة لايجوز أن تغفل المهمة التي من أجلها خلقهم الله قالﷻ: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ [هود ٦١] وقال ﷻ :﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال ﷻ :﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾: [البقرة: ٣٠].

إن الثقافة التي يجب أن يبدأ الشباب بها هي التي تعرفه بربه أولاً ثم بالمهمة التي من أجلها خلق وليست الثقافة التي تجعله في صراع مع الطبيعة بعيدًا عن هدي السماء، وتعاليم الرسل.

تأمل هذه الجمل التي ينطق بها العلمانيون، وهم يتعاملون مع الكون ويتفاعلون معه، يقولون: غضب الطبيعة، غزو الفضاء، قهرنا الطبيعة، صراع الحياة، امتلكنا أسلحة الدمار الشامل.. كأننا في حرب مع الكون، وفي صراع دائم مع الحياة..!! أيّ ثقافة هذه؟ وأي حياة تلك التي يريدها د/ فؤاد للشباب العربي المسلم؟ لقد كان الرسول ﷺ إذا نظر إلي جبل أحد قال: (هذا جُبَيْلٌ يحبنا ونحبه) (١) ليعلمنا كيف يكون بين الإنسان وبين الكون تعاون وانسجام وحنين وحب، وليس صراعًا وعداءً واستغراقًا للأوقات والنفقات والطاقات في البحث ـ فقط ـ عن عالم المخترعات دون تفريق بين ما ينفع وما يضر.

إن الثقافة المادية وحدها لا تفي بمتطلبات الحياة، ألا ترى أن كثيرًا من الأغنياء، والأقوياء، وربما بعض العلماء الماديين، هم أعداء الحياة، يسعون بكل ما أوتوا من قوة إلى التدمير لا التعمير، وما حدث في الحروب العالمية أكبر مثال ودليل.

ناهيك بثقافات الاحتكار والاستغلال، والربا والغش، وإثارة الشهوات وتضييع الأوقات والطاقات في اللهو واللعب على حساب الجد والعمل، بل والدين والخلق !! أليس كل هذه الأمور تندرج تحت مسمى الثقافة؟

يقول د/ فؤاد:"..وليسمح لي شبابنا الإسلاميون بأن أطرح عليهم شعارًا، أراه ضروريًّا إلى أبعد حد في

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك ؓ ، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال، برقم(٦٣٦٣)، صـ ٩٠٥، مرجع سابق.

حياتنا الراهنة: قليل من الشك يصلح العقل.. وما عرفت البشرية حقيقة إيجابية قائمة على الدليل المقنع، إلا بعد أن سبقها قدر كبير من الشك..

إن المشكلة الكبرى لدى هذه الألوف المؤلفة من الشبان، والفتيات الذين يدينون بالولاء لتيار من التيارات الإسلامية، تكمن في أنهم يتصورون أن خير مسلك يبدأ به المرء حياته هو أن يصل إلى يقين كامل، ويجد إجابات جاهزة عن كل سؤال، ويزيح عن عقله عبء التساؤل والنقد، وتلك في رأيي بداية لا تبشر بالخير» [(١)].

ولعلك ترى أن د/ فؤاد زكريا ـ كعادته ـ لا يفرق بين عقائد ثابتة بنصوص قاطعة وبين تطورات حياتية خاضعة للسنن الكونية وما وصل إليه العلم الحديث.. يقول: «أعود مرة أخرى فأقول: إن العقل الذي اعتاد أن يسير فى اتجاه واحد، والذي يعجز عن فهم حقيقة النسبية وتعدد طرق الوصول إلى الحقيقة ، لابد أن يوصل أصحابه ـ دون أن يشعروا ـ إلى نتائج خطيرة، وهكذا يصبح من بديهياتهم (أي الإسلاميين) التى لا تناقش، الاعتقاد بأن الشك خطيئة، والنقد جريمة، والتساؤل إثم.

ولكم أود من ألوف الشباب المنخرطين في سلك الجماعات الإسلامية، أن يخرجوا ولو للحظات قصار من إسار القوالب التى حصرهم فيها موجهوهم الروحيون ، لكى يتأملوا فيما كان يمكن أن تكون عليه البشرية لو كان (اليقين) هو الذي حكم موقفها العقلي.. إن عصور اليقين كانت عصور الانحطاط.. وفي العصور الوسطى الأوروبية ـ عصور الظلام ـ كان اليقين يقين الحقائق المقدسة كما تفهمه الكنيسة هو اليقين السائد.

وليسمح لى شبابنا الإسلاميون بأن أطرح عليهم شعارًا أراه ضروريًّا إلى أبعد حد فى حياتنا الراهنة: قليل من الشك يصلح العقل! فالشك ليس دائمًا هدامًا، وليس إنكارًا سلبيًا، وإنما هو وقفة تساؤل لابد منها قبل الوثوب إلى مواقع فكرية وحضارية جديدة، وما أشد خطأنا حين نفصل على نحو قاطع بين الشك أو التساؤل، وبين الحقيقة، فنتصور الأول نقيضًا للثانية! وواقع الأمر أن بين الاثنين ارتباطًا عضويًا وثيقًا إلى أبعد الحدود، السلب، والإيجاب.» [(٢)].

هذا الكلام خطير، فكم من حقيقة مقنعة لم يسبقها شك.. وليس بالضرورة أن يشك الإنسان حتى يصل إلى اليقين، والعجيب أن الدكتور/ فؤاد لم يحدد ـ بدقة ـ الأشياء التي يمكن أن نشك فيها، والأشياء التي لا يمكن للمسلم أن يشك فيها، تأمل قوله ﷻ: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ

---

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ٢٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ٢٤ وما بعدها، مرجع سابق.

وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[إبرهيم]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[الحُجرات:١٥].

إن المسلم لايرى الأشياء ـ وفق ما يرى الفلاسفة ـ ولايشك حتى يتقدم ويتطور ويساير عصره، ويفهم أسرار الكون وما يحيط به. إنه مع إسلامه وولائه لدينه وطاعته لربه وولي أمره، واحترامه لتراثه.. يمكنه ـ بجدارة ـ أن ينافس ويتقدم، ويصنع ويخترع.. بل ويتفوق على غيره كما كان المسلمون الأوائل.

ومتى كانت هذه الأمور التي يراها د/ فؤاد زكريا (مشكلات) تعوق الشباب؟ إن من الظلم أن يسوي د/ فؤاد بين يقين الإسلام وما أسماه يقين الأساطير، فالأول يقين حقيقي نابع عن وحي السماء، والثاني تزييف مصطنع صاغه البشر بدهاء، فكيف بالله نسوي بينهما؟ ثم نجعل اليقين الأول مشكلة على رأس المشكلات التي تعيق الحياة!!

إن من لديه أدني معرفة بتاريخ الإسلام يعلم أن اليقين الذي انطلق منه المسلمون الأوائل وأقاموا به دولة سادت وقادت العالم ثمانية قرون هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة.. فهل يريد منا د/ فؤاد وجماعة العلمانيين أن نترك القرآن الكريم كما تركت أوروبا الإنجيل، ونتجاهل سنة النبي كما تجاهلوا تعاليم المسيح؟ لقد استجاب ـ مع الأسف ـ الكثيرون من المسلمين لمثل هذه الدعوات، فهل حُلت المشكلات؟ الجواب: كلا المشكلات بقيت وزادت وتفاقمت.. إذن ليس الشك هو الحل، وليس يقين المسلمين في نصوص دينهم هو المشكلة.

المشكلات الحقيقية التى تواجه الشباب هي البطالة والجهل بالدين والدنيا معًا يقول الشيخ/ الغزالي: «التعطُّل: هو جريمة خُلقية واجتماعية تصاب الأمم من جرائها بِشرّ مستطير، وقد نهى الدين عنه، ووصى بأن يعمل المرء أي عمل يقيم أَوَدَه ويحفظ حياته وكرامته.

والتعطل نوعان: تعطل المترفين أصحاب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وقد أشرنا إلى الأضرار الناجمة من ترك هؤلاء بلا عمل يشتغلون به، والنكبات التي تصيب الشعوب والأمم من وراء تبطلهم.

ولما كان لابد من سد ذرائع الفساد، وجب الحجر علي هؤلاء السفهاء، وتقييد حرياتهم الشخصية، حتي يتحولوا إلى أفراد منتجين، وحتي تكون ثرواتهم المدخرة مصادر خير لهم ولغيرهم.

وهناك تعطل آخر منتشر بين الطبقات الفقيرة، وينتظمُ الألوف المؤلفة من أبنائها، وتأوي إليه جرائم التسول والتشرد، والفساد والعدوان، وحاجة هؤلاء إلى العمل الشريف لا ريب فيها، وفائدة الدولة من استغلال هذه القُوي المضيعة لا ريب فيها كذلك، وإني لأظن تأخر الشرق الإسلامي يعود إلى التعطل الفاشي في مختلف أقطاره، وإلى القوى المهدرة التي حبسها الشلل في جلود أصحابها، فهم أحياء أموات، المفروض أن الإنسان عنصر من عناصر الإنتاج، وأن ثمرة وجوده تبدو في إثارة الأرض التى يعيش فوقها، لكننا نرى الألوف المؤلفة مُخلدين إلى الكسل؛ لأنه لا عمل لهم، ولا احتراف.

وقد يكون بعضهم محزونًا حائرًا؛ لأنه يبحث عن مورد رزق فلا يجد، وقد يكون بعضهم قد تبلد لطول ما ألف البطالة.. فليس التعطل مشكلة فردية، بل هو أزمة اجتماعية.

ومن المستحيل قطع دابر هذا التعطل بالنصائح والتذكير، مهما ارتفعت فيها حرارة الإخلاص، ومهما سيق فيها آيات الله والحكمة؛ لأن الضوائق الاقتصادية الناشئة عن طغيان الاستعمار الداخلي مُحكمة الحلقات، بل هي تخلق التعطل خلقًا، وستظل السبل مَلْأَى بالمتعطلين، والمتسولين، الأصحاء منهم، أو أصحاب العاهات، إلى أن تُفَضّ هذه الحلقات المضروبة، وإلى أن يصبح العمل ضريبة، يُلزم بها كل فرد، فإما دفعها واستحق الحياة، وإما دفع دونها دمه، وأخلى الطريق للعاملين. وقد سُنّت أخيرًا قوانين للعمل قاربت مثيلاتها فى أوروبا، وحُددت أجور العمال فى مصالح الحكومة، وأنواع الشركات» [١].

ولا يخفى أن هذه البطالة تولد مشكلات أخرى كالفقر والمرض، والذل والجهل.. وربما الجريمة [٢] لذا يجب أن نشغل فراغ الشباب بالأعمال المتنوعة والمثمرة في الدنيا والآخرة؛ حتى يستوعب الشباب أن العمل ليس مقصودًا لذاته، ولا للقيمة المادية منه وحسب وإنما هو مقصودٌ لاعتبارات أخرى أعلاها وأرقاها طاعة الله تعالى والرغبة في الثواب وتحقيق الأهداف الدينية والدنيوية، يقول الشيخ/ الغزالي:"تبدأ البطالة مع مواسم الأجازة وانتهاء الامتحانات، والبطاله شيء رهيب، والنفس إذا لم يكن حق تُكلّف به فإنها تبحث عن باطل تعمل فيه، ومن هنا فإن عمل المربين دقيق، ينبغي أن يضعوا مشروعات كثيرة، وأن يخططوا لبرامج موصولة، ولو كان الأمر بيدي لصنعت معسكرات لا حصر لها للشباب، تبدأ مع الفجر؛ لأن اليوم الإسلامى يبدأ مع الفجر، اليوم الإسلامى يبدأ مع قول المؤذن: الصلاة خير من النوم!! فإذا كان بعض الناس يضيق بالنداء ، ويكسل عن الصلاة ، ويرغب فى دفء الفراش، فهذا إنسان كما جاء فى السّنّه

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـ٦٨ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب/ أمراض الفقر المشكلات الصحية في العالم الثالث، صـ ٥١ وما بعدها، د/ فيليب عطية، سلسلة عالم المعرفة، ط/ المجلس الوطني للثقافة بالكويت، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، وكتاب الديموجرافيا الأمنية، تقرير الأمن العام، مطابع الشرقية، سنة ٢٠٠٧م .

(بال الشيطان فى أذنه) [١] أي: أصبح تافهًا حقيرًا لا يرجى منه خير، ولا ينتظر منه أن يؤدي عملاً كبيرًا .

لكن الوقاحه بلغت في عصرنا أن الكسالى يريدون ألا يسمعوا قول المؤذن (الصلاة خير من النوم) !!إن الوقاحة بلغت بهم حدًّا ألا يصلوا، ثم أن يقولوا: لا نريد أن يُسمعنا المؤذنون هذا، شيء غريب لكن اليوم الإسلامى يبدأ مع الفجر، وعندما تقوم معسكرات للشباب، فيجب أن تكون هذه المعسكرات مزدانة بالنداء، خمس مرات، يسمع فيها الأذان، وتقام فيها جماعات المصلين، لا تنتهي جماعة إلا لتبدأ جماعة أخرى، ثم تزود ببرامج الدراسة، وبرامج الاطلاع الواسع. »[٢]

وهذا الذي أشار إليه الشيخ من تدريب جيد وعمل مفيد هو عامل مهم لحل مشاكل الشباب؛ لأن هذه المشاكل لا تقف عند حد الثقافة، ولا القضاء على البطالة بإيجاد فرص عمل للشاب...

نعم هما أخطر المشاكل وأهمها على الإطلاق، لكن ثمة مشاكل أخرى لا تقل في الأهمية عنهما كمشاكل السكن والعلاج وغيرهما.

وأعتقد أن من أخطر المشاكل التي تحول دون تقدم الشباب (مسألة القدوة) فتقليد الغير دون تمييز، ثم تزييف الوعي وتزيين المنكر، يخرب العقول ويضعف الهمم، يقول د/ محمود بيومي:« نحن في مجال النقد الذاتي لأنفسنا.. لابد أن نؤكد أن هناك عوامل كثيرة قد حجبت الرؤية في الواقع الإسلامي.. منها مناهج التربية فى ديار المسلمين.. والتي أدت ـ بمفاهيمها الغريبة عن الإسلام ـ إلى عدم وجود رؤية محددة للشباب، وانعدام القدوة الحسنة أمامهم فخرجت الأشياء تحاكي الغرب في جميع مجالاته» [٣]

نعم لابد من قدوة.. ولابد من منهج صالح.. ولا مانع أن ننتقد لأن نقد الذات مطلوب، وليس جلد الذات، فجلد الذات كالبكاء على اللبن المسكوب، والندم حيث لا ينفع الندم على الماضي، دون تحول عنه أوالاستفادة منه بما يصلح الحال والمآل، ولا أظن أن القدوة الحسنة قد انعدمت، فبلادنا مليئة بالعلماء والشرفاء والأكفاء، وعلى الشباب أن يحرصوا على ما ينفعهم.. ويبحثوا عن الحق وأهله وعن الخير ومواقعه، وعن أئمة الهدى ومن به المرء يقتدي، والأمر يحتاج مع هذا إلى إخلاص وصدق نية واتباع كامل لما نزل من السماء.

كما يحتاج إلى شوكة السلطان وما معه من إمكانات ومَن معه من أعوان.

وهذا ما سنذكره في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله ﷺ كتاب بدأ الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ، برقم ٣٢٧٠، صـ٤٦٨، مرجع سابق.

(٢) خطب الشيخ محمد الغزالي، جـ/ ١، ص١٣٩، مرجع سابق.

(٣) صحوة الرأي العام الإسلامي، صـ٢٠٢، ط / دار النيل، بدون تاريخ .

المبحث الثالث :المسئولون عن حل مشكلات الشباب:

أعتقد جازمًا وبلا تردد، أن المسئول الأول عن حل مشكلات الشباب هم (الشباب أنفسهم)لأن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١] لذا لابد للشباب أن يتغيروا إلى الأحسن، ويبحثوا بعزم وحزم عما ينفعهم قال ﷺ: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز) [(١)] ثم المسئول الثاني هو الأسرة، ثم بعد ذلك يأتي دور الدولة فيما لا يقدر عليه الشباب ولا الأسرة، مثلاً كإصلاح التعليم.. وإيجاد فرص عمل بإنشاء المصانع واستصلاح الأراضي وبناء المساكن وإقامة البنى التحتية.. والتدريب المهني.. ورفع مستوى التفكير، إذ للدولة أدوار وإمكانات لابد منها في حل مشكلات الشباب والمجتمع [(٢)].

والدكتور/ فؤاد لا يعفي الشباب من المسئولية، ويحثه دائمًا على تكوين الشخصية المثقفة والمستقلة يقول:"أنا لا أدعي ـ على الإطلاق ـ أنني سأغير شيئًا من تفكير مثل هذا الشباب، كل ما أريده هو أن أساعده على أن يكون لنفسه رأيه الخاص، من خلال المقارنة بين وجهات نظر متباينة" [(٣)] ويخاطب د/ فؤاد زكريا القائمين على الإعلام والمسئولين عن التربية بمساعدة الشباب وفتح نوافذ المعرفة أمامهم وعدم الاكتفاء بالمصادر القديمة والمحلية.

يقول: "أما أجهزة الإعلام العربية قد أصبحت ـ في أحيان كثيرة ـ عاجزة عن مخاطبة الشباب من خلال الصحافة اليومية، وأما المجلات الأدبية، والفكرية فقد تدهورت، أو سكتت أصواتها إلي الأبد.. أو لأنه يجد لثقافته مصادر أخرى غير المصادر المحلية، أما الشباب، الذين يعتمدون علي الثقافة المحلية اعتمادًا أساسيًّا والذين تستشعر مثاليتهم الزيف بحساسيه فائقة، فإنهم هم الأكثر اختناقًا في هذا الجو المكبوت"[(٤)]

وهكذا يؤكد الدكتور/ فؤاد أن مشكلة المشاكل في المجتمع، هي عدم تزويد الشباب بالثقافة اللازمة والضرورية لمسايرة عصر العولمة، وكأنه ليس لديه من مشكلات تواجه الشباب إلا الثقافة، وما أسماه بتقليد الماضي، وإن المسئولية هنا تقع على عاتق المجتمع، ولا أدري مَن بالتحديد؟

يقول: "فليس لهذه المجتمعات عذر، إذا هي قصرت في تزويد الشباب بوسيلة الاتصال بالعالم الواسع

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ ، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز.. برقم (٢٦٦٤/ ٣٤) صـ٥٩٧ مرجع سابق.

(٢) سأذكر بالتفصيل، الواقع الذي تتعامل به الدولة، ومنظمات المجتمع المدني ومدى جدواه في حل هذه المشكلات في الباب الثاني، الفصل الخامس والسادس.

(٣) الإسلام لا العلمانية مناظرة بين د/ فؤاد زكريا، والمستشار/ سالم البهنساوي، صــ٣٩، مرجع سابق.

(٤) خطاب إلى العقل العربي صـ٤٨، مرجع سابق.

الذي يتقدم بخطى مذهلة عن طريق رفع مستوى تعليم اللغات الأجنبية في مدارس الدولة إلى الحد الذي يسمح للجيل الحالي، كما كان يسمح للأجيال السابقة بالتزود بالثقافة العالمية، وليس لها عذر إذا هي رسمت سياسة مقصودة تستهدف – فى معظم الحالات- التعبير عن الرأي الرسمي وحده وتأبى على الآخرين حرية الفكر، فتضع بذلك قيدًا ثقيلًا على عقول الشباب، كلما شاءت أن تتزود بالثقافة المحلية، وأخيرًا فإن مجتمعاتنا هي الملومة؛ لأنها برغم كل تعلقها بالتراث الماضي تعجز عن تقديمه للأجيال الجديدة بالصورة التي تسمح لهذه الأجيال بأن تتخذ منه منبعًا من منابع ثقافتها.

وإزاء هذه العقبات كلها لا يعود أمام كثير من الشباب، إلا أن يقفوا من الثقافة الحقيقية موقفًا سلبيًّا على حين أن الطموحين منهم لا يجدون مفرًّا من سلوك سبيل الاجتهاد الشخصي، فيلتقطون كتابًا مترجمًا من هنا، وجريدة مهربة من هناك، ويحاول كل منهم أن يشق طريقه وسط ظروف غاية في الصعوبة، وتكون النتيجة تخبط الكثيرين، وافتقارهم إلى أي نوع من التنظيم الفكري...

صحيح أن أحدًا لا يفكر في صب عقول الشباب في قالب واحد، وأن النمطية شيء بغيض في ذاته، ولكن التشتت الفكري والعجز عن الاهتداء إلى مصادر مقنعة وكافية للثقافة، هو بدوره أمر يدعو إلى الأسف البالغ، ويدل على أن مجتمعاتنا العربية لا تولي التفكير في مستقبلها الذي سيتسلم رايته هؤلاء الشباب ما يستحقه من اهتمام »[(١)].

ومن خلال ما سبق يتبين أن د/ فؤاد تارة يحمل الشباب أنفسهم المسئولية.. وأخرى يحمل المجتمع فيقول:ليس للمجتمعات عذر إذا هي قصرت في حل مشكلات الشباب، وتارة يقول: مدارس الدولة والإعلام لا تزود الشباب بالثقافة اللازمة.. وهو محق في ذلك، ولكن الخطأ في تحميل علماء الدين المسئولية الكبرى في تردي أحوال الشباب.. وهذا يظهر جليًّا في مناظرات الدكتور وعندما يتكلم عن الدين، ومَن أسماهم بالرؤساء الروحانيين، يتكلم بعمومية شديدة الغموض، تتيه معها حقيقة مَنْ المسئول مع الشباب عن حل مشكلاتهم.

الأمر الذى جعل كثيرًا من العلماء يرد عليه بردود علمية ومن خلال منطقه وعباراته[(١)].

على سبيل المثال يقول د/ محمد يحيى في كتابه/ التعالي الزائف الرد على فؤاد زكريا: "إن منطق الدكتور نفسه، وليس ادعاء المؤمنين، أو مرشديهم الروحيين، هو الذي يؤكد أنهم سيحلون مشاكل المجتمع،

---

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ ٥٢ مرجع سابق.

(١) ومن هؤلاء العلماء د/ القرضاوي، وأ.د/ محمد عمارة، والمستشار/ سالم البهنساوي، والدكتور/ محمد يحيى، وهؤلاء لهم مناظرات مطبوعة، أخذت منها ونقلت عنها في هذه الرسالة.

بصورة حاسمة ونهائية؛ لأن التغيير الشامل الذي يريدونه بخطة مرسومة ـ كما يقول هو ـ لابد وأن يقضي على المشاكل التي أفرزها المجتمع والسلوك الحالي، ولا يبقى للدكتور بالمنطق والعقل إلا الادعاء بأن خطط وأهداف المؤمنين للتغيير الشامل ستفرز مشاكل جديدة وهو لا يستطيع تحديد هذه المشاكل إلا على سبيل الظن.. إنه أعطانا الأمل في قدرة التيارات الإسلامية في مصر على العمل الواعي والمدروس؛ لإحداث تغيير شامل في المجتمع المصري...

وإننا نؤمن (بإذعان وتصديق مطلق!) أن تطبيق الشريعة الإسلامية بالمعنى الذي قاله الدكتور سيحل المشكلات الراهنة للمجتمع المصري الناجمة عن سيادة نمط الفكر والسلوك العلماني المتغلب على مواقع الفعالية والتوجيه بما خلق أزمات التبعية وازدواج الشخصية، وفقدان الهوية والانتماء، والتفكك الاجتماعي، واستبداد الأقلية اللادينية، وتسلطها على الأغلبية الشعبية التي لجأت إلى السلبية، ووقعت في الاغتراب، ونؤمن أن المشروع الإسلامي للنهضة، يضع يده على مفاتيح حل المشكلات من إيقاظ وحث العمل الشعبي المنتمي الواسع في إطار ساحة اجتماعية تخلو من قهر المستبدين والمستغلين، وتسود فيها قيم الدين الحنيف، وتحكمها ضوابط شريعته، وتزدهر فيها الآراء والقدرات في حرية شورية عادلة، ونؤمن بأن الفكر الاجتماعي، والاقتصادي، المُرْتَكِن إلى مبادئ الإسلام الكلية والجزئية قادر ـ في هذا المناخ العام ـ على حل المشاكل التي ترجع في معظمها إلى إبعاد الشعب عن السيادة والقيادة، وتوجيه أمور البلاد، وإلى التسلط عليه لتغريبه، ووضعه في موضع الاستعباد.

وإذا كان الدكتور لا يشاركنا هذا الإيمان فليقل لنا عن البديل وليحدد لنا كيف سيخرجنا التيار اللاديني من المشكلات التي أوقعنا فيها بتصرفه في شئون البلاد على مدى القرن؟» [(١)].

والدكتور/ فؤاد يعلن صراحة دون أدنى تحفظ أن العلمانية (بالمفهوم الغربي) هي القادرة على حل جميع المشكلات، والدكتور أول من رفع شعار العلمانية هي الحل، ونادى به طوال حياته، وكتاباته ومناظراته تدل على ذلك.

أما الشيخ/ الغزالى فيقول: «إن الشباب أحوج أهل الأرض إلى مشرفين أمناء، يدركون كيف يستغلون قوته في الخير، وكيف يهذبون غرائزه ويجعلونها لا تتمرد، ولا تنزلق، ولا تنحرف.

الأمر محتاج إلى أولياء أمور في المجتمع كله، وفي الأسرة خاصة، يؤمنون بالله، ويؤمنون بالقيم التى أودعها الله في دينه، وبالقواعد السلوكية والأخلاقية، التي لابد أن يسير الشباب عليها حتى تُؤْمَن عقباه، وينتظر الخير له.

---

(١) التعالي الزائف الرد على فؤاد زكريا، صـ٢٠ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

معروف أن الغريزة الجنسية تستثار عندما تعرض المفاتن بشكل يهيج الكامن في طباع الناس، ولذلك أمر الإسلام بالاحتشام أمرًا مشددًا، وكان في المدينة ناس من المنافقين، وناس من الجبناء، ومروجي الإشاعات، وكانوا يمثلون حزب الشيطان في المدينة، ربما تسكعوا في الطرق ليروا امرأة فيقولوا لها كلمة رديئة، أو ينظروا إليها نظرة مريبة، فأمر النبي ﷺ بأن تحتشم المسلمات حتى لا يظن بهن الظنون، وحتى يدرك كل إنسان أن الفتاة التى تسير هي فتاة مؤمنة تعرف ربه، وتلزم حدوده، وتصون عرضها، وتعرف أن ذلك دينها...

إن الإنسان ينبغى أن يلتزم آداب الإسلام، وفي الحقيقة المجتمع العربى الآن بالنسبة للشباب يفقد كثيرًا من اتزانه، وإيمانه، وأخلاقه، ومثله، وشمائله، وفضائله، والأمر يحتاج إلى شيء من التوضيح » [(١)].

وعن مسئولية الحكومات فى حل مشكلات الشباب يقول أ/ العقاد: «ووظيفة الحكومة قد أصبحت ـ وستصبح ـ عملاً لا امتياز فيه، بل لعله أقل ربحًا، ومظهرًا من أعمال كثيرة، يستطيعها الشبان...

ففى جانب كل شاب يعلق الأمل على الوظيفة، شبان لا يعلقون عليها أملاً، ولا يزالون يبحثون عن العمل الحر في مختلف ميادين الحياة ...

ومن اليوم إلى عشر سنين أو عشرين سنة مقبلة، سيتم كثير من وجوه الإصلاح، التي تتطلب جهود الألوف من الشباب، ثم لا تزال تتطلب المزيد، أرض تستصلح للزراعة، مشروع كهرباء، أو مشروعات عدة للكهرباء، لا تضيق بمن يقصدها من دارسي الهندسة والصناعة، مصارف وشركات، ومكاتب وساطة داخلية، وخارجية تتسع لطلب الرزق، والشراء ولا تكلف طلابها شيئًا من العنت الذي يتكلفونه وهم يطرقون أبواب الدواوين» [(٢)].

وشيئًا من هذا الذي تفاءل به الأستاذ العقاد، لم يحدث، بل حدث العكس، وتعقدت المشاكل، وصار حلها يحتاج ـ مع ما ذكر ـ إلى طرق أخرى مبتكرة، وغير تقليدية، تشرك الشباب (أنفسهم) في حل مشاكلهم، بالتدريب على مواجهة الصعاب، وتحمل المسئوليات.

وهذا ما سنبحثه في الصفحات التالية.

---

(١) خطب الشيخ محمد الغزالي في شئون الدين والحياة، صـ ١٤٠ وما بعدها، بتصرف، المجلد الأول، مرجع سابق.

(٢) دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية، صـ ٢٤٢ وما بعدها، بتصرف، ط/ نهضة مصر، ط/ ٦، سنة ٢٠٠٨م.

المبحث الرابع: تدريب الشباب على مواجهة الصعاب, وتحمل المسئوليات:

التدريب مطلوب، والشاب دون تدريب لايقوم بالواجب المنوط به كما ينبغى، ولايواجه الصعاب بثقة فى النفس، ورغبة فى الإنتصار. لذا أقول: إن تدريب الشباب خطوة لابد منها ولا غنى عنها فى عملية الإصلاح الاجتماعى.. وتحتاج إلى تضافر جهود جميع أبناء المجتمع بدءًا بالأسرة، وإعداد الشباب معنويًا ونفسيًّا، ومرورًا بمدارس الإصلاح الاجتماعي والتربوي والعلمي، وهذا ما فعله النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون، حيث الاهتمام بالشباب، وتدريبهم على تحمل المسؤليات والمهام الصعاب والقيام بالأعمال الجهادية والتعليمية والدعوية، فما خلا موقف من المواقف إلا وللشباب الدور البارز والمميز..

ويكفي أن نشير إلى سيدنا علي بن أبي طالب، وأخيه جعفر رضي الله عنهما في الحبشة، ومصعب بن عمير رضي الله عنه في المدينة، وأسامة بن زيد رضي الله عنه وقدرته على القيادة وفنون القتال، وعبد الله بن رواحة، وابن عمرو، وابن مسعود، وأنس بن مالك، وعمر بن أبي سلمة، وبلال، وعمار، وحسان بن ثابت، وعائشة وأختها أسماء رضي الله عنهم.. وغيرهم ممن امتلئت كتب السير بمناقبهم وعظمتهم ومَن جاءوا بعدهم من التابعين وتابعيهم.. وهذا يطول شرحه وليس هنا محل ذكره كاملًا..

قد يقال: يُدرب الشباب في الجيش على القتال، وهناك مراكز تدريب منتشرة في طول البلاد وعرضها.. وهذا صحيح، ولكن هل يكفي أن يدرب المرء على مواجهة العدو (المقاتل) وترك أعداء آخرين كالجهل والمرض والكسل والهزيمة النفسية، إن هؤلاء الأعداء لا يقل أحدهم في الخطورة عن العدو المقاتل إن لم يزد عليه، أما عن مراكز التدريب فعلى أي شيء تدرب الشباب؟ الجواب: على اللهو واللعب.. ومن الذي يذهب إليها؟ يذهب إليها هواة الرياضة والفنون المسلية.. وما الهدف منها؟ الجواب: شغل الشباب وليس تدريب الشباب على القيم الإيمانية والمبادئ الإنسانية والتنمية لمسايرة العصر والسير مع ركب البشرية.

لو كانت هذه المراكز المخصصة لتدريب الشباب تدرب شبابنا على إصلاح نفسه والقيام بدوره نحو دينه وأهله ووطنه لما وصلنا لهذا الكم الهائل من المشكلات المعقدة والمتراكمة منذ عقود.

والدكتور/ فؤاد يدعو الآباء إلى ترك الأبناء في حرية واسعة وتصرف عفوي بعيدًا عن القواعد الصارمة، ولو أدى ذلك إلى الخطأ.. فإنه الطريق إلى الصواب وتعليم الشباب.. يقول: "هل يمكن أن يلجأ الأب الحريص على رعاية أبنائه، وسلامة نموهم العقلي والنفسي، إلي وضع قواعد ثابتة وأوامر محددة، لا يحيدون عنها طوال حياتهم؟ أليس مما يتمشي مع حرصه عليهم، أن يترك لهم هامشًا واسعًا من حرية التصرف، والخروج عن القواعد الصارمة، بل وممارسة الخطأ ذاته -في بعض الأحيان- كيما يتعلموا منه

دروسًا تفيدهم في مستقبل أيامهم؟» [(١)].

وأنا أوافق د/ فؤاد أنه ينبغي أن يكون هناك هامشٌ كبيرٌ وواسعٌ من حرية التصرف والاختيار لأبنائنا، ولكن بضوابط، مع القدرة على التمييز بين قواعد الدين والأخلاق، وحدود الحلال والحرام، ومطالب الحياة الكريمة، وهذا يستلزم أن يتربى أبناؤنا على الإيمان بالله تعالى، واحترام حدوده وشرائعه، وإذا حدث خطأٌ لابد وأن يُراجَعوا ويُصَوَّبوا، لا أن يمارسوا الخطأ، سيما لو كان الأمر محسومًا في الشرع بنص قاطع، أو بترجيح معتبر؛ لأن المقصود من الاجتهاد الوصول إلى الحق والصواب.. فنحن المسلمين نعلم شبابنا أنه لا اجتهاد مع النص، وإنما الاجتهاد في فهمه وتفسيره، والعمل بمقتضاه.. وهذا يختلف كثيرًا عما أشار إليه د/ فؤاد زكريا.

إن هامش الحرية لا يمنع أن يكون هناك من يُحاسب، ويُعاتب، ويُعاقب، ويُكافئ، ولا يمنع أيضًا من التوجيه والتدريب علي مواجهة الصعاب، والمرء لا يمكن أن يصل بنفسه وتجاربه الخاصة إلى حل جميع المشكلات والتغلب على كل العقبات، لابد من عوامل أخرى تسانده وتدعمه، وترغبه وتدربه، ليس على العمل والإنتاج فحسب، وإنما على الإدارة وفنون القيادة، والتغلب على المشكلات.

وللشيخ/ الغزالي كتاب كامل عن الطاقات المعطلة، والتي يمكن الاستفادة منها، وبالأخص طاقات الشباب، يقول: « أمامي الآن تقارير[(٢)] مَلْأَى بالحقائق المؤذية، فجامعة القاهرة وحدها طردت ١٣٦٤ طالبًا في العام الماضي؛ لفشلهم في الدراسة، وتؤكد الإحصائيات أن ٨٦٪ من شبابنا يقضي فراغه واقفًا خلف النوافذ، وأن ضعف هذا العدد يستغرق الوقت في أحلام اليقظة..!!

وتقارير وزارة الصناعة تقول: أن ٧٦٪ من طاقة العمال عندنا ضائعة؛ لعدم الكفاية!!

ويذكر مدير المعهد القومي للبحوث الجنائية أن بلادنا شهدت في السنين الخمس الأخيرة مظهرًا خطيرًا لانحراف الطلبة، فقد تكونت منهم عصابات مسلحة، تتوسل بالقتل للسرقة، وطلب اللذة...

كما أثبت معهد الخدمة الاجتماعية أن ١٣٪ من الشبان مصابون بأمراض نفسية، وأن ضعف هؤلاء مصاب بخلل عقلي..!!

وجاء في تقرير وزارة الداخلية عن الأمن العام في السنة الماضية أن ٢٠٪ من أحوال الانتحار تعود إلى العلاقات الغرامية عند الشبان.. والاستفتاء الذي وزع على ١٠٠ طالب، أثبت أن المثل الأعلى لشبابنا هم:

---

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الاسلامية المعاصرة، صـ١٨، مرجع سابق.

(٢) يقول الشيخ الغزالي عن هذه التقارير: مستقاة من جريدة الأهرام العددين الصادرين في ١٧/ ٧/ ١٩٥٩م، ٣١/ ٧/ ١٩٥٩م انظر كتاب الإسلام والطاقات المعطلة، صـ١٠، ط ٤، دار التوفيق النموذجية، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

جيمس دين، ومارلين مونرو، وصوفيا لورين، والثلاثة أشخاص يشتغلون في السينما..!

والمقاهي هي أفضل مكان لدى موظفي الدولة، يقضون فيه فراغهم، وموظف الدولة عندما يملك كل أسبوع خمسين ساعة من الفراغ تستغل في لعب (الطاولة) و(الكوتشينة)، وثبت أن ٨١٪ من العمال يستغلون فراغهم في الذهاب إلى السينما، أو لمشاهدة الأفلام الفكاهية. »[(١)]

ثم يمضي الشيخ في بيان هذه الطاقات المعطلة، كمًا وكيفًا، ويدعو المسئولين عن التدريب والإدارة والإنتاج.. إلى تدريب الشباب، والاستفادة من طاقاتهم المهدرة.. يقول: «والطاقة الكبرى في الشباب ـ الذي يجتاز من عمره مرحلة التوقد والمغامرة ـ تدعو للرثاء، فهو على هذا النمط المشئوم من ركود العزم وانطفاء الأمل.. يريد أن يطعم وهو قاعد، وأن يسعد وهو نائم، وألا يلقى الحياة إلا وهي تهب رخاء، لا تجهم فيها ولا رعد، ولا غيم فيها ولا وحل!!..

وفي رسالة جامعية عن (القيم عند شبابنا)، يذكر المؤلف أن أبرز الخصائص في شبان هذا الجيل، طلبهم للأمان، واعتمادهم على الغير، وهروبهم من المسئولية...

يؤكد هذه الحقيقة ما وقع أخيرًا، عندما تقدمت إحدى الشركات العربية للتعبئة والتوزيع باقتراح إلى المجلس الأعلى لرعاية الشباب، تستهدف فيه تعويد الشباب على العمل، وفتح باب العون لهم من طرق شريفة، عرضت الشركة بعض الأعمال خلال فترة العطلة الصيفية، وأبدت استعدادها لقبول أي شاب يقوم بتوزيع منتجاتها مقابل ربح ٣٠٪ وعرضت نموذجًا من الحقيبة التي سوف يستعملها الشباب في البيع، ونموذجًا من غطاء الرأس الذي سوف يرتدونه.. ووضعت هذه النماذج في مركز رعاية الشباب بالجزيرة، وذكرت أنها ستمنح المتقدمين بطاقات تدل على أنهم مندوبون للشركة، وليسوا باعة جائلين، وانتظر المجلس، وانتظرت الشركة، ولم يتقدم لحمل هذه الحقيبة سوى ثلاثة شبان، رغم أن عدد المنتسبين إلى هذا المركز ٧٠٠٠ شاب. هذا في الوقت الذي تتلقى فيه لجنة التربية الاجتماعية، أكثر من ٥٠٠ خطاب كل شهر، بطلب المساعدات المالية من طلاب ينتسبون إلى شتى الكليات بينها الهندسة والطب..!!

هذه التقارير حفلت بأدلة جديدة على قاعدة عرفناها منذ زمن طويل، عرفناها ونحن ـ في ميادين الإصلاح ـ نعالج النفوس، ونواجه المشكلات، فنلقى الهش أكثر من الصلب! والوهن أشيع من الجلادة..!وعرفناها ونحن ـ في ميادين الكدح، والتعمير ـ ننظر حظنا في توجيه الحياة، وتسخير قواها، فلا نرى سوى المخزي.! »[(١)]

---

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق، صـــ١٥.

إنه لمن المؤسف حقًا أن نرى كثيرًا من الشباب لا يتقن عملًا، ولا يقيم للدين وزنًا، ولا للدنيا طريقة مشروعة أو هدفًا مشرفًا، إنه يعيش كما تعيش المخلوقات الأخرى، مع أن بعضها شعلة من النشاط وآية في النظام والاهتمام، إن الشاب الذي لا يجعل لحياته هدفًا لا يبحث عن مهنة شريفة، وإن ساقه القدر إليها أو جاءت إليه تراه غالبًا كالآلة التي تحركها الأوامر والتروس، قلما يضيف جديدًا مفيدًا أو يمحو فسادًا قائمًا أو ينقد نقدًا بناءً، كما يفعل شباب الأمم الأخرى التي تربت على تقديس قيم العمل وتحسين الأداء وتطوير الإنتاج؛ لأن تدريب الشباب لا يقف عند حد اتقان حرفة ما تعين الشاب على الكسب وحسب، إنما مطلوب أيضًا تدريب الشباب على الإبداع المفيد والتطوير الحسن وابتكار الجديد والإدارة الرشيدة والقيادة الحكيمة؛ لأن شباب اليوم هم قادة الغد، وإعداد القائد لا كإعداد الجند، وكلاهما واجب وفرض.

إننا لا نصل إلى شيء مما ذكر.. إلا بالعلاقة الحسنة والتدريب المتواصل في مراحل الدراسة، كل مرحلة بما يناسبها، ويناسب أهلها وميولاتهم ومواهبهم وحاجة المجتمع وسوق العمل لهم، وبهذا يكون التطور الإيجابي الذي يساير العصر والتقدم.

ويمضي الشيخ محمد الغزالي في بيان ما للشباب من قوة وفتوة وتطلع للمستقبل.. وما له -أيضًا- من سلبيات ومساوئ فيقول: « الاستعمار العالمي خلف شبابًا في بلادنا لا يحترم المساجد، ولا يحترم شيئا، فهو يعيش كأي حيوان ليس له صاحب، هذه ثروة مهملة، هذه ثروة ضائعة، هذا الشباب المهمل كان يجب أن يساق إلى معسكرات عمل.. فليس أخطر على البلاد من شباب فارغ، فالفراغ هنا باب التسول الجنسي، باب الانتهاك لحرمات الله، باب التتبع للوساوس، باب للجدل الذي لا يفيد، باب للمهارشات التي قد تنتهي بالسجون.

على العلماء وهم يتحدثون عن التربية أن يقولوا: إن النفس البشرية لها ميول.. وربما قَويَ الميل وأصبح رغبة.. فإذا قويت الرغبة أصبحت إرادة جازمة»[1]

والحق إن الشباب ليسوا على درجة سواء في الاستعداد النفسي والخِلقي والخُلقي، لذا يجب على القائمين على تدريب الشباب أن يراعوا المواهب والقدرات كما أن كل جنس من الشباب له خصوصيته وفطرته التي فطر الله الناس عليها، إذ ليس الذكر كالأنثى، لا في التكوين الجسدي ولا في التفكير العقلي ولا في القدرة على تحمل المشاق والقيام بالمهام والتفرغ لها.

وهذا ما سأذكره بالتفصيل في الصفحات التالية.

(١) كتاب محاضرات الشيخ/ محمد الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع، صـ١١٩ بتصرف، مرجع سابق.

الفصل الرابع

قضايا المرأة، وما أثير حولها

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: نشأة المرأة، وتربيتها، وحقوقها الاجتماعية.

المبحث الثاني: دعاوى تحرير المرأة، ومساواتها بالرجل.

المبحث الثالث: تعليم المرأة، وخروجها للعمل، والكسب.

المبحث الرابع: العلاقة بين عمل المرأة، والترابط الأسري.

المبحث الخامس: حجاب المرأة، ونقابها، والموقف منه.

المبحث السادس: الاستحقاق السياسي للمرأة، وتوليها المناصب.

المبحث السابع: تعدد الزوجات، وقضايا الطلاق، والخلع.

المبحث الأول: نشأة المرأة وتربيتها، وحقوقها الاجتماعية:

المرأة هي الأم التي لها علينا حق البر والأدب والطاعة، وهي الزوجة التي لها حقوق محترمة، أهمها المعاشرة بالمعروف، وهي البنت التي يجب أن نتقبلها بقبول حسن، وننبتها نباتًا حسنًا، وهي الأخت والعمة والخالة، وكل هؤلاء رحم موصولة لا يجوز قطعها.. وكل ذلك معلوم لايحتاج إلى شرح أو دليل، ولكن ثمة أمورًا أثيرت حول حقوق المرأة في العصر الحديث.. وإن غياب هذه الحقوق يؤخر كثيرًا عملية الإصلاح الاجتماعى.. ولنبدأ فى عرض ما يتعلق بهذا الجانب المهم فى حياتنا.

أولاً: موضوع نشأة المرأة وتربيتها:

الدكتور فؤاد زكريا ليس له منهجية واضحة في مسألة تربية المرأة، سوى ما ذكره من نقد التربية القائمة على التراث الماضي، والطاعة للوالدين والكبير..فهو لا يذكر آية واحدة أو حديثًا واحدًا في هذا الموضوع، وجل دعواه تركز على التحرر وإثبات الذات، فالبنت كالولد والمرأة كالرجل وكلاهما يساوي الآخر وأن الجهل قد لحق بالذكر والأنثى وقد سبق وأن ذكرت له نماذج تؤكد ذلك [(١)].

أما الشيخ الغزالى فيرى حتمية التربية والتوجيه للمرأة والرجل يقول: "إن التربية قد تقوي نماء الشجرة، وتهذب امتدادها طولاً وعرضًا، وتظهر ثمارها كيفًا وكمًا، ولكنها لن تغير طبيعتها أبدًا، وتربية الجنسين كليهما واجبة، وتعليق أوسع الآمال على هذه التربية معقول، ولكن انتظار انقلاب إنساني يجعل الرجل والمرأة سواء في كل شيء خطل[(٢)] فستظل المرأة الحامل، والمرضع، وربة البيت، وحاضنة الأولاد، وستظل كل شهر تتهيأ لإنشاء الأجيال الجديدة، وتتعرض أجهزتها الجثمانية لعناء، مستفاده الشدة في الإعداد لهذا الخلق!!

ونحن نعرف أن بعض النساء تكثر في كيانهن هرمونات الذكورة، وربما تمردن على طبيعة الأنثى؛ لهذا العرض الشاذ، وأمكنهن مشاركة الرجال في بعض التكاليف الشاقة" [(١)].

والحق إنه لا فرق في الإسلام بين الرجل والمرأة فيما يحتاجه كل منهما من تعليم وتنشئة حسنة، فإن كليهما إنسان له عقل وروح ودور في الحياة، وكما أن الولد (الذكر) يحتاج إلى طعام ودواء ونفقه وتوجيه وتعليم.. فكذلك البنت تحتاج إلى ما يحتاج إليه الولد بما يناسبها ويعينها على دينها ودنياها.

---

(١) انظر كتاب الحقيقة والوهم، صـ١٣٢، مرجع سابق، وقد ذكرته في المبحث الأول من الفصل الثالث في هذا الباب بما يغني عن إعادته

(٢) الخطل: بمعنى الحمق، والفحش، والحيدة عن الصواب، رائد الطلاب، جبران مسعود، صـ ٣٦١، ط/ دار العلم للملايين، ط٣، سنة ١٩٩٧م.

(١) حقوق الإسلام بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١١٦، مرجع سابق.

ولا يجوز للمسئولين عن تربية المرأة من الآباء والأمهات وأولياء الأمور أن يميزوا بين الولد والبنت في معاملة أو نفقة، فكلاهما يحتاج إلى معاملة صحية، وإلى حنان ونفقات، لا فرق في هذه الأمور بين ذكر وأنثى؛ لأن "الإسلام سوى بين الرجل والمرأة، في جملة الحقوق، والواجبات، وإذا كانت هناك فروق معدودة فاحترامًا لأصل الفطرة الإنسانية، وما ينبني عليها من تفاوت الوظائف! وإلا فالأساس قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]...

إن هناك تقاليد وضعها الناس، ولم يضعها رب الناس، دحرجت الوضع الثقافي والاجتماعي للمرأة، واستبقت في معاملتها ظلمات الجاهلية الأولى، وأبت إعمال التعاليم الإسلامية الجديدة، فكانت النتائج أن هبط مستوى التربية، ومال ميزان الأمة، مع التجهيل المتعمد للمرأة، والانتقاص الشديد لحقوقها" [(١)].

ثانيًا: حقوق المرأة الاجتماعية:

المرأة كالرجل لها الحق في اختيار شريك حياتها، لا يجوز لأحد أن يكرهها على الزواج ممن تكره، كما يجوز لها أن تخلع نفسها من زوج رأت أنه ليس كفئًا لها، أو هي تكرهه، ولا تستطيع الاستمرار معه، ولا يزيد الرجل عنها في مسألة الخِطبة، إلا أنه هو البادئ والراغب والطالب، وهي المطلوبة والمرغوبة، ومن حقها أن تقبل، أو ترفض، وإذا ما رأت ما يخل بشروط عقد الزواج، وأهدافه - سيما المعاشرة بالمعروف، وإنجاب الذرية والقيام على تربيتها- فلها الحق في مراجعة الخاطب، أو عدم إتمام العقد.

يقول الشيخ الغزالي: "كنت أناقش رجلا كنديًّا، يسائلني بضيق عن موقف الإسلام من المرأة، فجاء في حواري أن للمرأة حرية في اختيار زوجها، ولا يمكن إكراهها على قبول من تكره، ولها أن تباشر عقدها، أوتوكل به مَن تشاء.. وكان هناك من يرقبنا وهو ساخط ، وحمدت الله أنه لاذ بالصمت، فلما انتهى الحوار، اقترب مني المعترض المؤدب، قائلاً: لا يجوز أن تباشر المرأة عقدها، بل الدين ضد هذا !.

قلت له:رأيك ضد هذا، قلدت فيه بعض المذاهب الفقهية، ورجحت أنا وجهة النظر الأخرى، واعتقدت أنها أقرب إلى عقول الأوربيين[(١)] والأمريكيين والعمل عليها يجري في أقطار إسلامية محترمة"[(٢)].

والمرأة لا مانع شرعًا أن تبدي رأيها مع اعتبار واحترام رأي وليّها.. وهذا ما عليه جمهور الفقهاء..

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الوافدة والراكدة، صـ ١٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(١) والحق إن عقول الأوربيين والأمريكيين.. لم تكن يومًا عاملاً من عوامل الترجيح بين الآراء الفقهية.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الوافدة والراكدة، صـ٢٩، مرجع سابق.

أما أنها تستقل بعقد زواجها، أو توكل به أحدًا غير وليّ أمرها، فهذا ما قاله الإمام أبو حنيفة، وبشروط وقيود منها:

١ـ أن يكون الزوج كفئًا لها. ٢ـ أن يكون المهر مهر المثل.

٣ـ أن يكون اعتراض ولي الأمر في حدود عام من تاريخ العقد وقبل الحمل.

وإن جاز ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة، ففي بعض الحالات التي بها عضل أو ظلم أو غبن للمرأة..

فلا يجوز أن يعمم في كل الحالات أو جلها [١] وإلا لما كان لمثل هذه الآية الكريمة فائدة، قال الله ﷻ: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ﴾ [النساء: ٢٥] ولا لما نقله البخاري في صحيحه تحت عنوان كتاب النكاح/ باب من قال لا نكاح إلا بولي، وباب السلطان ولي (أي من لا ولي لها) أو ظلمها وليها [٢]ولا لقوله ﷺ: (أيما امرأة نُكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، فنكاحها باطل، فنكاحها باطل) [٣].

والشيخ/ الغزالى في حواره السابق يربط بين ترجيحه للرأي القائل بحرية المرأة في مباشرة عقد زواجها، واختيار ولي أمرها، وبين اقتراب هذا الرأي من عقول الأوربيين والأمريكان، وأن العمل بهذا الرأي يجري في أقطار إسلامية محترمة، ولم يقل ما هي هذه الدول المحترمة؟ وما أدلة ترجيحها لهذا الرأي؟

إن الضوابط التى وضعها العلماء وعليها جمهور الأمة، يجب أن تُراعى ويُعمل بها، سيما ونحن في زمن فوضى الحريات، واستهداف المرأة المسلمة، وما يراد منها وبها.

وأنا أسأل: مَنْ يقبل أن تتزوج ابنته وهو آخر من يعلم؟

أو يعلم ولا يملك من الأمر شيئًا؟ وهل بناتنا قادرات على اختيار شريك الحياة، دون الرجوع لخبرة الأباء والأمهات، في ظل الإعلام الفاسد، وسوء الخلق الواضح والفاضح والذي وصل إلى التحرش في الطريق العام، وفي ظل انحطاط التعليم وضعف الوازع الديني وأزمات الفكر والعقل ومشكلات الحياة؟ هل نحن على يقين أن بناتنا قادرات على الاختيار الأمثل، بعيدًا عن الدين والتراث والأهل؟

وهل كلمة زوجينى نفسك، وقولها: قبلت فى حضور رجلين هل يعد ذلك زواجًا شرعيًا؟ وما الفرق بينه وبين الزنا إن كان برضى الطرفين وحضور شخصين؟

---

(١) هذا ما أخذته مشافهة من أ.د/ محمد رأفت عثمان، عميد كلية الشريعة الأسبق بالأزهر الشريف.

(٢) للمزيد من الأدلة انظر صـ٧٥١ :٧٥٣ من كتاب صحيح البخاري، ط/ مؤسسة زاد... مرجع سابق.

(٣) رواه الترمذي في سننه من حديث عائشة ﵂ كتاب النكاح، باب ما جاء.. لا نكاح إلا بولي، برقم (١١٠٢) صـ ٢٩٤، وقال: حديث حسن وقد رَوَى يحيى بن سعيد الأنصاري ويحيى بن أيوب وسفيان الثوري وغير واحد من الحفاظ عن ابن جريج نحو هذا، مرجع سابق.

إن حقوق المرأة الاجتماعية شيء، وخروجها على حق ولي أمرها.. هذا شيء آخر ، لا يجوز أن نُعَمِّمَ ، بل يجب أن نضع قيودًا وشروطًا تمنع عضل الأولياء(من جهة) وتبقى قيم الأدب، واحترام الولي (من جهة أخرى) وبذلك نضمن للمرأة حقوقها، وتبقى للولي ولايته، وإلا ضاعت هيبة الأب، وضعفت روابط الأسرة، وعُطِّلَت نصوص الشريعة الإسلامية.

ولعل ما قضى به النبي ﷺ للمرأة التي شكت أباها الذي زوجها من ابن أخيه ليرفع بها خسيسته وهي كارهة دليل على ما أقول، إذ خيرها ﷺ بين أن تجيز ما صنع أبوها وبين طلاقها فقالت:(أجزت ما صنع أبى ولكن أردت أن يعلم الأباء أن ليس لهم في الأمر شيء) [(١)].

تأمل قولها : (ليرفع بي خسيسته) تجد أن النبي ﷺ رد أمرها إليها؛ لهذه العلة (علة الضرر) لأنها كارهة. ولم يثبت ـ فيما أعلم ـ أن النبي ﷺ أذن لامرأة قط أن تنفرد بزواجها دون وليها [(٢)].

إن المرأة كما يحق لها أن تمارس حقها في اختيار زوجها، يحق لها ـ أيضًا ـ أن تكون لها ملكية خاصة وذمة مالية مستقلة ، ولها أن ترث من أهلها وزوجها، ولها أن تتصدق من مالها، وأن تصل أهلها ورحمها، وأن تشارك مجتمعها، في تقديم العون والدعم والبر، ولها في ذلك مثل الذي عليها بالمعروف.

وسأذكر ـ بعون الله ـ فى الصفحات التالية أهم هذه القضايا وأكثرها إثارةً وانتشارا.

والله المستعان

---

(١) رواه أبو داود في السنن من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ :(أن جارية بكرًا أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة.. فخيرها النبي ﷺ) كتاب النكاح، باب في البكر يزوجها أبوها ولا يستأمرها، والحديث صحيح برقم(٢٠٩٦) انظر صـ٣٥٠، مرجع سابق، وقال الشوكاني في السيل الجرار، ٢٩٢/ ٢ رجاله: رجال الصحيح.

(٢) هذه المسأله من المسائل الفقهية التى يطول شرحها؛ لكثرة ما ورد فيها، ورغبة في الاختصار أحيل القارئ الكريم إلى كتاب (السّنه فى الزواج) للأستاذ الدكتور الأحمدي أبي النور، وزير الأوقاف الأسبق، صـ٥٩ وما بعدها، بدون، فقد فصل هذه المسأله تفصيلاً جميلاً، فرق فيها بين البكر والثيب، والظروف والأحوال في ضوء الأحاديث الواردة، مع تأكيده على ضرورة رضا ولي الأمر أو من ينوب عنه، وهذا ما أميل إليه اللهم إلا في حالات خاصة كالعضل؛ لأن المرأة لا تستقر حياتها مع زوجها دون ولي أمر يُرجع إليه عند الاختلافات وما أكثرها بين الزوجين.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٥]، وإذا كان ذلك مطلوبًا حتى يدوم البقاء، فهو من باب أولى عند التأسيس والبناء.

المبحث الثاني : دعاوى تحرير المرأة ، ومساواتها بالرجل:

قبل الدخول في تفاصيل هذه الدعاوى ودوافعها، ومَن قام بها، والهدف منها، وموقف الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالى تجاهها.. أحب أن أؤكد على حقائق أهمها:

الحقيقة الأولى: أن المرأة المسلمة اعتراها شيء من الظلم والقهر والجهل، وذلك بنسبٍ متفاوته، ترجع إلى طبيعة البيئة التي تعيش فيها المرأة، والأفراد الذين يتعاملون معها، والعادات والتقاليد البعيدة عن هدي الإسلام وعدله وإنصافه، وفرص التربية والتعليم المتاحة لها، وعوامل الترغيب والترهيب المحيطة بها...

الحقيقة الثانية: أن هذه الدعاوى لم تصدر عن المؤسسة الدينية في مصر، كالأزهر الشريف ، أو هيئة كبار العلماء، أو مجمع البحوث الإسلاميه، أو الهيئات والحوزات العلمية الرسمية في الدول الإسلامية خارج مصر.

الحقيقة الثالثة: جميع من نادوا بتحرير المرأة في مصر، والعالم الإسلامي، كلهم أو جلهم لم يكونوا من أهل الاختصاص في العلوم الشرعية التي تتصل بهذه المسائل، ومن هؤلاء:

١ـ قاسم أمين.	٢ـ هدى شعراوي.	٣ـ راوية عطية.
٤ – درية شفيق	٥ـ ملك حفني ناصف.	٦ـ سعد زغلول.
٧– صفية زغلول.	وغير هؤلاء كثير	

وهؤلاء جميعًا ينتمون للفكر العلماني، الذي يفصل الدين عن مسارات الحياة، ولذلك جاءت هذه الدعاوى بفكر تحرري معادي لكثير من الثوابت الدينية، كالميراث، والحجاب، وقوامة الرجل للمرأة، والتعدد في الزواج، ومسائل الطلاق..

وقد يقال لكن هناك بعض العلماء يؤيد هذه الدعاوى، ويرى أن المرأة ـ فى بلادنا ـ لها حقوق ضائعة يجب أن تحصل عليها، ومن هؤلاء العلماء الشيخ/ محمد عبده، والشيخ/ محمد الغزالي، والشيخ/ رفاعه رافع الطهطاوي، وغيرهم وغيرهم كثير .

أقول:هذا صحيح ولكن ثمة فارقًا (بل فوارق كثيرة) بين من يدعو لإنصاف المرأة وإقامة الحق والعدل كما جاء به الإسلام.. وبين دعاوى تحرض المرأة على دينها، بقصد الخروج على تعاليمه، وبهدف محاكاة الغرب بتغريب المجتمع المسلم، وتذويب شخصية المرأة المسلمة، وخصوصيتها، وآدابها.. وذلك لخدمة أهداف خارجية، وسياسات غربية..

وأعتقد ـ يقينًا ـ أن هذا يضر بالمرأة المسلمة أكثر مما ينفعها، بل ويضر بالأسرة والمجتمع المسلم كله.

ومعلوم أن الإسلام أعطى للمرأة ما لم يعطه لها دين أو عرف، أو قانون [١] وكم أتمنى أن تقتصر هذه الدعاوى على ما جاء به الإسلام، وتنفصل عن الفكر الغربى، والغزو الفكرى، وأهواء الرجال، وتجار الرقيق الأبيض، ومسوقي البضائع في الإعلانات المصورة والمرئية، التي تُستغل فيها المرأة أسوء استغلال.

ومن خلال قراءتي للدكتور/ فؤاد زكريا، فقد وجدته لا يختلف كثيرًا عن هؤلاء الذين ينادون بحرية المرأة في كل شيء، وإنها كالرجل في جميع الحقوق والواجبات.. فهي مساوية للرجل ونِدٌّ له.. وكنت أود منه أن يذكر شيئًا عن خصوصية المرأة المسلمة، وفق أحكام الشريعة الإسلامية.. لكنه لم يفعل.

أما الشيخ/ محمد الغزالي فله مع هذه الدعاوى تفصيلات، وتحليلات، وقبول، ورد، منها ما أصاب كبد الحقيقة، ومنها ما لم يُسَلَّم له به. يقول: «..كل ما يحتاج الأمر إليه، أننا نريد من هذه الأمة الإسلامية تفهم الإسلام ، فالمرأة من حقها أن تتحرر، ولكن ليس على المنهج الغربى فهو إباحي وحيواني، ولكني أريدها أن تتحرر وتصلي الخمس صلوات في المسجد، وتشهد الخير ودعوة الإسلام في صلاة العيد.. نعم نريد حرية المرأة فالمجتمع له ساقان هما: الرجل والمرأة جناحان يطير بهما فلا نترك أحد الساقين أو الجناحين ونقول إن الإسلام يسير، لا لن يسير» [٢].

ويقول أيضًا : «كنت أتحدث فى أحد الأندية عن حقوق المرأة المسلمة ، فقلت: إن لها حق الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتدريس هدايات الإسلام، ومجادلة الملحدين.. فإذا شخص يقول لصاحبه: كنا نظن هذا المحاضر رجلاً صالحًا فتبّين أنه (ألعن من قاسم أمين!) وتذكرت ما قاله الأستاذ أحمد موسى سالم عن قاسم أمين، وعن الدور الذى قام به في الدفاع عن الإسلام ضد الغزو الثقافي الفرنسي الذي حمى واشتد فى عصره، بدأ هذا الغزو بهجوم من المؤرخ (أرنست رينان) على العرب والمسلمين، تصدّى له جمال الدين الأفغاني فأبطل حجته، وكشف تعصبه، وردّ عن الإسلام أباطيله، وبدا الخصم العنيد وكأنه قد لان واستكان لما سمع! ثم اشتبك في هذا الحوار المخَطَّط الشيخ/ محمد عبده؛ ليرد على إفك وزير خارجية فرنسا (مسيو هانوتو) الذي طال افتراؤه على الإسلام، واتهامه لنبيه ﷺ.

قال الأستاذ أحمد موسى: وكان دور قاسم أمين في هذا الحوار جاهزًا، وكان محوره الأساسي هو المرأة في الشريعة الإسلامية، وكانت المبارزة التي خاضها مع الخصم الفرنسيّ الثالث (دوق داركور) الذي أصدر سنة ١٨٩٣م كتابًا عنوانه (مصر والمصريون) تناول فيه حياة المجتمع المصري أيام الحكم المملوكي والتركي، وهي فترة بلغت ستة قرون عجاف تراجعت فيها خصائص الحياة عن جمهرة الأمة الإسلامية، مما

(١) للمزيد انظر كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، د/ محمد البهي، مكتبة وهبة، ط/ ١٤، صـ ٣١١ وما بعدها، سنة ٢٠٠٥م.

(٢) حوارات الشيخ الغزالى السيرة والمسيرة، صـ٩٨، مرجع سابق.

جعل (دوق داركور) يبسط قلمه بالأذى، ويرسم صورة قاتمة، وبذيئة للشعب كله، ويخص المرأة بمزيد من التجريح، والزراية.. ويرد ذلك كله إلى طبيعة الإسلام المتأبية على الترقي والحضارة..!!

ماذا فعل (قاسم أمين) ليدافع عن دينه وأمته؟ سارع إلى تأليف كتاب بالفرنسية فنّد فيه أقوال خصمه، وشرح حقوق المرأة فى الإسلام، وما كفله الدين لها من كرامة مادية وأدبية، ووازن (قاسم أمين) بين حجاب السترة والاحتشام عندنا، وبين تبذل المدنية الحديثة، وما أحاطت به أوضاع المرأة من انحلال وتهتك ..!

إن ما فعله (قاسم أمين) كان محكومًا بأمرين: أولهما: الدفاع عن الإسلام المفهوم من مصدريه الرئيسين، والآخر: الاعتذار عن تخلّف المرأة بأنه من تقاليد غريبة على التوجيه الإلهى ناشئة عن أخطاء الشعوب! »[١]

وأنا لا أختلف مع الشيخ الغزالي رحمه الله في بيان ما أعطاه الإسلام للمرأة.. ولا في الاعتذار عن تخلفها في بلادنا .. ولكن أختلف معه في الدفاع عن(قاسم أمين) مع علمه أنه استخدم في كتبه مصطلحاتٍ تختلف كثيرًا عما أعطاه الإسلام للمرأة كمصطلح (مساواة المرأة بالرجل)(وتحرير المرأة) (وحرية المرأة) لأن هذه المصطلحات وضعت بقصد تفريق المسلمين فكريًّا وثقافيًّا، وهذا ما قد حدث.

فمنذ أن ظهرت كتب قاسم أمين، ولازلنا نعانى من ويلات هذا الخلاف مع العلمانيات والعلمانيين.

ومتى كانت أوروبا وأمريكا تريد للمرأة المسلمة أن تنطلق في حياتها من مفاهيم دينها، وعقيدة ربها

الواضح من كتابات قاسم أمين أنه يريد المرأة ندا للرجل في كل شيء، أي(المساواة المطلقة) في الميراث والشهادة وتبوء المناصب ...والشيخ الغزالي رحمه الله لم يفند فكر الرجل ولكن التمس له الأعذار.

تأمل تكملة كلامه السابق: «وما يستطيع الرجل أن يفعل إلا هذا ! هب أن أوربيًّا أو أمريكيًّا اتهم الإسلام بأنه يحظر على المرأة الذهاب إلى المسجد، وأن الإسلام بهذا الحظر دين شاذ؛ لأن الأديان كلها لا تمنع النساء من التردد على بيت الله، أو على معبدها الخاص بها.. فماذا أقول له؟ أأصدقه فى اتهامه؟ أم أقول له: إن هذا الحظر ليس من تعاليم الإسلام، وإنما هو من تقاليد بعض البيئات ! أدافع عن الإسلام صادقًا؟ أم أدافع عن المنتمين إليه كاذبًا؟ لقد رأيت بعض الإسلاميين يفقد وعيه في الدفاع عن موروثات ما أنزل الله بها من سلطان، كأن من السهل عليه أن يكذّب الله ورسوله، ولا تُمَسّ عادات تلقاها عن آبائه..! »[١]

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ١٧، مرجع سابق.

(١) المرجع السابق، صـ١٨.

الواضح من كلام الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه يقبل، بل ويمدح قاسم أمين ويبرر موقفه على أنه دفاع عن الإسلام أمام اتهام أوروبا وأمريكا بأن الإسلام يحظر على المرأة الذهاب إلى المسجد!! ولم أعلم أن قاسم أمين دعا المرأة إلى أن تتعلم في المسجد .. وأن تقنع بما قسم الله لها.. والحق إن جل ما كتبه الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ عن تخلف المرأة في بلادنا، وما آلت إليه أمورها.. سيما في بيئة البدو وقرى الريف.. ونظرة الغرب لنا.. واحتكاكه بنا.. وأن المرأة قوة لا يستهان بها.. وأنها في ظل القوانين الحديثة كـ(الانتخابات) لا تقل عن الرجل فى الأهمية والتأثير.. وأنها كسب وربح لمن احتواها وضمها إلى معسكره..[1] ينطبق أيضًا على الرجل فالتخلف والجهل أصاب الجميع بنسب متقاربة. وليس في تخلف المرأة وظلمها، ولا فيما تقوله أوروبا وأمريكا عن الإسلام ما يبرر دعاوى قاسم أمين وخصوصًا مسألة (المساواة).

والعجيب أن الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ يؤكد دائمًا قوامة الرجل على المرأة، كما يؤكد قدرة الرجل على المهام الصعاب دون المرأة، ويذكر أبحاث الأطباء وعلماء النفس[2] وما أكدوا عليه مرارًا وهم يشرحون طبيعة المرأة وتكوينها العاطفي، وفسيولوجية جسمها، وما يعتريها ويؤثر على كثير من الغدد المؤثرة على اختيارات المرأة، وسلوكها، وقراراتها.. وفي ذات الوقت يقول: «مساواة المرأة للرجل ثابته في القرآن الكريم »[3] ويستدل ببعض النساء اللواتى اشتهرن في التاريخ ـ بقدرتهن على القيام بالمهام الجسام ـ ففي التاريخ الإسلامي، السيدة خديجة، والسيدة عائشة، وأم عطية الأنصارية، والخنساء رضي الله عنهن، وفي التاريخ الفرعوني، ملكة سبأ (بلقيس) وكليوباترا، وحتشبسوت، ونفرتيتي، وفي العصر الحديث، شجرة الدر، وتاتشر، وأنديرا غاندي ، وأنجيلا ميركل وغيرهن... [1]

ويبدو لي أن الشيخ/ الغزالي حاول أن يجمع بين ما للمرأة من حقوق في الإسلام، وما تنادي به الأعراف الدولية، الأمر الذي جعل كثيرا من العلماء يوجه إليه النقد، ويرى في موافقته لفكر قاسم أمين ضياعًا لبعض خصوصيات المرأة المسلمة[2] بقبوله مصطلح (مساواة المرأة للرجل) والحق إن هذا المصطلح (المساواة) كغيره من الصطلحات وضع بذكاء، ودهاء ومكر؛ لإيقاع علماء الإسلام بين خيارين أحلاهما مرّ:

الخيار الأول أن يقولوا: نعم المرأة مساوية للرجل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٢٨].

---

(١) أشرت باختصار إلى ما قاله الشيخ فى كثير من كتبه، ومن أراد المزيد فليقرأ المرجع السابق.

(٢) انظر صـ٣٩ وما بعدها، وصـ ١٧٠، المرجع السابق.

(٣) انظر صـ٣٤، المرجع السابق.

(١) انظر صـ ٣٢ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٤٧، المرجع السابق.

(٢) انظر كتاب (حوار هادئ مع الشيخ محمد الغزالي)، للشيخ/ سلمان فهد العوده.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب:٣٥] وقال رسول الله ﷺ: (النساء شقائق الرجال) (١) وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾[آل عمران:١٩٥] .

وغير ذلك من النصوص التى سوت بين الرجل والمرأة فى (الثواب والعقاب، وحق الحياة والاختيار والتملك) وليس فيها دليل على مساواة المرأة للرجل فى الخلق والتكاليف ومطلق الحقوق والواجبات وما ينادى به قاسم أمين ومن على شاكلته من العلمانيين.

أما الخيار الثاني وهو أن يقول العلماء : (لا) لم يسوِّ الإسلام بين الرجل والمرأة؛ والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصى، ومنها قوله ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء:٣٤].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[آل عمران:٣٦] وقوله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨] وقوله ﷺ: (لن يفلح قوم ولوا أمرَهم أمرأة) (١) وقوله: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذْهَبَ بِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن) (٢) وقوله ﷺ: (رفقًا بالقوارير) (٣) شبههن النبى ﷺ بالزجاج، وانظر المواريث.. والقصاص في القتلى.. والجهاد فى سبيل الله بقتال الأعداء.. وبهذا يكون مَن قَبِلَ مصطلح المساواة قد وقع فى الحرج وعارضته هذه النصوص القطعية في الثبوت والدلالة. حتى الآية التي (ظاهرها) يوحى بمساواة المرأة للرجل ، وهى قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أعقبها الحق سبحانه بقوله: ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ والشيخ/ الغزالى يقول: إنها درجة القوامة، ورئاسة البيت، والدفاع عن الأسرة، فأين المساواة إذن؟

---

(١) رواه أبو داود في السنن من حديث عائشة ﵂، كتاب الطهارة، باب ما جاء في الرجل يجد البلة في منامه، برقم(٢٣٦) وهو حديث حسن انظر صـ٤٣، مرجع سابق، ورواه الترمذي في السنن من حديث عائشة أيضًا، كتاب الطهارة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً.. برقم(١١٣) صـ٣٥ وقال: حديث صحيح، مرجع سابق. ورواه أحمد والبيهقي وأبو يعلى وابن عبد البر في التمهيد وحكم عليه ابن حجر في تخريج مشكاة المصابيح ٢٣٣/ ١ بالحسن.

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي ﵁ كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، برقم(٤٤٢٥)، صـ٦٢٥، مرجع سابق.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري ﵁، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، برقم(٣٠٤)، صـ٥٤، مرجع سابق.

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك ﵁ بلفظ: ويحك يا أنجشة رويدك سوقًا بالقوارير ، كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز.. رقم (٦١٤٩)، صـ٨٧٨، مرجع سابق.

إن مثل هذه المصطلحات(تحرير المرأة ومساواتها بالرجل) الهدف الحقيقي منها ليس في مصلحة المرأة أو إنصافها، كما أنصفها الله ورسوله.. وإنما الهدف هو إحراج المسلمين، وتحريض النساء على الرجال، ووضع بذور الخلاف، والاختلاف فى المجتمع المسلم.

لقد أكد الشيخ الغزالى رحمه الله على حقوق المرأة التي كفلها الإسلام، والتي لا مثيل لها، مع مراعاة طبيعة المرأة، والوظائف التي تصلح لها [(١)] وكل ما ذكره من أدلة ليس فيه دليل المساواة التي نادى بها قاسم أمين والعلمانيون.

لذلك أرى أن نقول : إن الإسلام أنصف المرأة، وأعطاها أكثر مما أعطى الرجل في أشياء كثيرة، ولم يقل بالمساواة؛ لأن في هذه المساواة المزعومة ظلم للمرأة؛ لأنها ضعيفة ولها طبيعة تختلف عن الرجل، ولا يمكن أن تساوي الرجل في النفقة على الأولاد، وإيجاد السكن، وأمن الأسرة والدفاع عنها، وعن الوطن وفي ذات الوقت هي التي تلد (وحدها) وتحمل وترضع (وحدها) ولا يمكن للرجل أن يشاطرها همومها في مثل هذه الأمور التي لابد منها، فأين المساواة إذن؟

إن الإسلام قسَّم الأدوار(بين الرجل والمرأة) بحكمة وعدل، حيث جعل للمرأة ما تقوم به، وللرجل ما يقوم به، وكلٌ ميسرٌ لما خلق له .والواقع يؤكد أن مساواة المرأة بالرجل ـ كما يريدها أصحاب هذه الدعاوى ـ غير ممكنة، بل مستحيله لطبيعة كلٍ منهما وما فطره الله فيهما.

انظر إلى الدول التى صدَّرت هذه الدعاوى، وتأمل حال المرأة وحال الرجل، وانظر عدد رؤساء هذه الدول والرئيسات، والمحافظين والمحافظات، والوزراء والوزيرات، والمجندين والمجندات، والقضاة والقاضيات، والضباط والضابطات، والمخترعين والمخترعات، والصانعين والصانعات، سترى أن المرأة كانت، ولازالت العدد الأقل، رغم أن عدد النساء في هذه البلاد أكثر بكثير من عدد الرجال!!!ولو سألت: لماذا لا تسوّوا بين الرجال والنساء فى هذه الوظائف بنسبة ٥٠٪؟ لقالوا لك : إن بعض الوظائف لا يقوى على القيام بها إلا من له قدرة بدنية، ونفسية، وعقلية.. وفوق هذا يكون متفرغًا لهذا العمل لا يشغله عنه شيء.

---

(١) بعد أن ذكر الشيخ الغزالي، صـ٣٤، كتاب (قضايا المرأة)، مرجع سابق، إن المساواة ثابتة فى القرآن.. رجع فقال: صـ٣٨ ،٣٩: « في جنون المساواة المطلقة بين الرجل، والمرأة في الأعمال.. إني أرفض هذه المساواة.. »، فهو تارة يقول بالمساواة، وتارة يقيد هذه المساواة بقيود، وانظر صـ ١٩٨ في كتاب (حوارات الشيخ الغزالى السيرة والمسيرة)، مرجع سابق، إذ يقول: «المساواة موجودة بين الرجال والنساء في الإسلام في كل شيء (تأمل) إلا ما كان ـ كما قلت ـ نوعًا من الاستثناء لتحقيق العدالة ..» وبهذا يرى الغزالي أن (المساواة) هي الأصل .

ولو سألت: لم تجعلون للمرأة (كوتة)[١] في التمثيل الشعبي ولم تتركوها لقدراتها؟ ألا يدل ذلك على الاعتراف بأنها غير قادرة على المنافسة كالرجل؟ انظر إلى تدريب الجنود، ومعامل الذرة، وصعود الفضاء.. والغوص تحت الماء، كيف يكون حالها وهي حامل فى الشهور الأخيرة..؟! وكيف هي إذا فاجأها المخاض..؟! وكيف هي وهي ترضع ولدها..؟! ألا يدل ذلك على كذب دعاوى المساواة المزعومة؟ ألا ترى أن الرجل هو أستاذ المرأة في ميادين كثيرة؟ (وبرغبتها) فالمرأة رغم أنها موجودة في المطبخ أكثر من الرجل[٢] إلا أنها تحب أن تتعلم من الرجل فنون الطهى، ومقادير الطعام، وتطوراته، والجديد فيه..

أليست المرأة هي التي تفضل أن تذهب إلى الكوافير (الرجل) وتفضله على (المرأة)؟! أليست المرأة هي التي تذهب إلى الترزي (الرجل) وترى أنه الأقدر على حياكة ثيابها بالصورة التي ترضي زوجها وزميلاتها؟ أليست المرأة هي التي تفضل أن تذهب إلى الطبيب الرجل، وتترك المرأة الطبيبة بدعوى أن الرجل أكثر خبرة وممارسة ؟! هذه هي فطرة المرأة وميولاتها وواقعها ، وإن كنا لا نقرها على كل ذلك .

لقد حَرَّضَت هذه الدعاوى المرأة على الشر، باعتقادها أنها ندٌّ للرجل في كل شيء، وأنها كما تطيعه يجب أن يطيعها.. وكما يأمرها تأمره.. وكما يعاتبها ويعاقبها ويهجرها، فمن حقها أن تفعل مثل ذلك؛ إثباتاً لمبدأ المساواة المزعومة.. بالله عليك هل تقوم البيوت وتستقر في مثل هذا الجو.. انظر كم عدد المطلقات والراغبات في الطلاق بسبب الخلافات الزوجية التي ما كان البيت العربى المسلم يعرفها من قبل. إن المرأة المسلمة في حاجة ماسة إلى التعليم الذي يكشف لها (ما لها وما عليها) نحو دينها، ودنياها، والناس.

وهذا ما سنبحثه ـ إن شاء الله ـ في المبحث التالي.

---

(١) كوتة المرأة: تعني إعطاءها نسبة معينة في التمثيل الشعبي في مجلس النواب والمحليات بالتعيين لا بالانتخاب.

(٢) للمزيد انظر كتاب (حقائق الإسلام، وأباطيل خصومه) للعقاد، صـ١٦٤، ط / دار القلم، طـ ٢،١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

المبحث الثالث : تعليم المرأة، وخروجها للعمل والكسب:

ذكرت فيما مضى نشأة المرأة وتربيتها، وحقوقها الاجتماعية، ودعاوى تحررها، ومساواتها بالرجل.. وهنا أذكر تعليم المرأة، وخروجها للعمل، والكسب.

أولاً : تعليم المرأة :

المرأة أُم، ولا أظن أن عاقلاً يقبل أن تكون الأم ـ وهي الحاضنة للنشء، والمدرسة الأولى للطفل ـ أميّة جاهلة، مقلدة تابعة، مجرد كائن حي بيولوجي، يحمل ويلد، ويرضع ويطعم، لا صلة له بتحديات الحياة ومتطلباتها العلمية، والاقتصادية، والسياسية، وإن كان ذلك واقعًا في الماضي البعيد لبساطة الحياة وسهولتها.. فليس لأن هذا هو الحق الذي اختاره الإسلام للمرأة، وأمرها أن تعيش به ومعه في كل زمان ومكان.

وفي هذا العصر أرى الحياة تغيرت وتعقدت وأوجبت على المرأة علومًا ومفاهيم جديدة، تساير من خلالها روح العصر، ومطالب الحياة، وتسهم في الإصلاحات التي ينشدها المجتمع.

والحق إن مسألة (تعليم المرأة) ـ من حيث المبدأ ـ ليس حولها (الآن) خلافات تُذكر[١] ولكن الخلافات الآن حول مواد التعليم، وأي تعليم تتعلمه المرأة، والوسائل والغايات التى يهدف إليها التعليم، فمَن يرى أن المرأة تتعلم كل ما يتعلمه الرجل تمامًا بتمام، بنفس الوسائل والأهداف الموضوعة عالميًّا دون أي فارق.. ومَن يرى أن المرأة تتعلم ما يناسب طبيعتها فقط، وما يمكن أن يعود عليها وعلى بنات جنسها، وأسرتها، ومجتمعها بالنفع.. وذلك بالوسائل، والضوابط المشروعة في الإسلام.

والدكتور/ فؤاد زكريا ممن يتبنون التوجه الأول، فهو ينكر(بشدة) على المجتمعات التى لا تسوى بين المراة والرجل يقول: « من الحقائق المعترف بها أن المجتمع اليوناني القديم كان مجتمعًا (رجوليًّا) قبل كل شيء، وكانت المرأة فيه تعيش على الهامش، فهي ـ من الوجهة الاقتصادية ـ تعتمد على الرجل اعتمادًا تامًّا، ولم يكن يسمح لها بممارسة أى عمل مستقل، ومن الناحية الثقافية كانت محرومة من فرص التعليم ـ إلا في حالات قليلة ـ ولم يكن لها حق الاقتراع أو الاشتراك في شئون الحكم، بل كان جهدها ينصرف إلى أداء الأعمال المنزلية وحدها، وكانت حياتها العقلية على وجه العموم محدودة للغاية...ومن المسلّم به أن (أفلاطون) كان يعترف بأن دعوته إلى المساواة بين الجنسين، تصطدم بعقبات أساسية، في النظم السائدة،

---

(١) لقد عشت في البلاد التي كان بعض أبنائها ـ من قبل ـ يذكر تعليم المرأة على أنه رذيلة، وهي الآن ملأى بالمدارس والجامعات التي تعلم النساء كثيرًا من العلوم والمعارف، لذا أقول: لا خلاف في تعليم المرأة ـ من حيث المبدأ ـ إنما الخلاف يدور حول الوسائل والممارسات، والاختلاط.. والتخصصات.. والأهداف المرجوة من عملية التعليم.

بدليل أنه جعل من هذه الدعوة (موجة) من الموجات الثلاث التي كان يتردد في التصريح بها؛ لعلمه بمدى ما ستلقاه من معارضة.. لأن جميع الأوصاف التي أراد (أفلاطون) أن تكتسبها المرأة بعد تحررها، هي أوصاف (رجولية)، كالقدرة على الحرب، وممارسة الرياضة البدنية، وهي عارية أمام الرجل، إنه يريد أن يلغي وجود المرأة بوصفها امرأة، ويود أن يراها تختلط بالرجال، وكأنها واحد منهم، دون فارق بين الجنسين، وهو لا يود أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة مبنية على المشاعر الفردية، بل إنه يريدها علاقة لا شخصية تتم فى مواسم معينة بين الأشخاص الذين تختار الدولة كلا منهم للآخر... فالعلاقة بين الرجل والمرأة، هي عنده أشبه ما تكون بعلاقة الحيوانات، التي يريد مربي الماشية تحسين نسلها، ويجمع بينها تبعًا لهذه الغاية وحدها، وهو يصل في ازدرائه للمشاعر الطبيعية للمرأة، وفي امتهانه لكرامتها، إلى حد القول أن المحارب الشجاع، ينبغي أن يُكافأ على بسالته بمزيد من النساء، أو من (حقوق التناسل) وعلى المرأة أن تقبل عن طيب خاطر ذلك الوضع، الذي تكون فيه مجرد وسيلة لمكافأة الشجعان من المحاربين! »[(١)]

ومما سبق يتبين أن د/ فؤاد ينتقد المجتمع اليوناني ويصفه بأنه مجتمع رجولي، تُهضم فيه حقوق المرأة إلى درجة الإهانة، وينكر على (أفلاطون) عدم مساواته المرأة بالرجل، وتمييز الرجل عليها، ثم ينكر عليه أنه لم يراع خصوصية المرأة، ومشاعرها المستقلة.. فهو يريد المساواة مع مراعاة طبيعة المرأة.. ولم يقدم المنهج الجامع والمنظِّم لهذين الأمرين معًا وفي وقت واحد بحيث يتناغم ويتناسق مع طبيعة كُلٍّ من الرجل والمرأة والهدف من وجود كل منهما في الحياة. أعتقد وأجزم أن هذا المنهج لا يوجد إلا في الإسلام.

والعجيب أن د/ فؤاد زكريا لم يعلق على هذا الكلام السابق باية قرانية، أو حجة شرعية، واكتفى بمسألة المشاعر والأحاسيس.. وأنا أسأل: هل صلاح المرأة يكون بمثل هذه الممارسات التى يعترف د/ فؤاد أنها أشبه ما تكون بعلاقة الحيوانات ومربى الماشية!؟ كنت أود من الدكتور أن يقدم شيئاً عن ضرورة تربية المرأة على الفضائل والقيم الإنسانية .. لكنه لم يفعل.

أما الشيخ/ محمد الغزالي فيقول: "خطر لي أن أعرف المستوى الثقافي للمرأة المسلمة في صدر الإسلام، وقبيل شروق شمسه! لأن الثقافه الغزيرة تعين الرجل والمرأة، كليهما، على ضبط الحقائق، وإحسان الحكم على الأمور، والإشراف على تربية الأجيال الناشئة، تربية مثمرة مجدية.. ولقد كانت (المرأة) قبل الاستعمار الحديث أمية لا تقرأ ولا تكتب، وفُرضت عليها هذه الأمية باسم الإسلام المفترى عليه! فلما اجتاحت بلادنا الحضارة المادية المعاصرة، فتحت أبواب المدارس للمرأة، فلم تتعلم فيها حقائق التراث الغالي ومناقب المرأة في عصرها الأول.. كلا لقد غزا عقلها الفكر الأوروبي ونهجه الشارد، فإذًا نحن أمام تقاليد

---

(١) مقدمة ترجمة جمهورية أفلاطون، صـ١٠١ وما بعدها، مرجع سابق.

لا تسرّ، ومناهج لا تنفع، بل قد تضر!!

والسبب هو القصور العلمي، الذي بلغ مرتبة الجهل المركب، عند بعض الإسلاميين، المتحدثين عن موقف الإسلام من المرأة، والصائحين بأصوات منكرة: المرأة لا ترى أحدًا ولا يراها أحد، تخرج من بيتها إلى الزوج أو إلى القبر!» (١).

والحق إن كثيرًا من هذه الآراء تراجعت، ولم يعد لها ذكر الآن، ربما كان ذلك موجودًا، في الوقت الذي كتب فيه الشيخ/ الغزالي هذه الكلمات؛ لأن تعليم المرأة قد عم جميع المجتمعات العربية والإسلامية، والمطلوب الآن ليس إقرار الفكرة، وإنما المطلوب هو التطوير ومراعاة البعد الديني والقيمي والخصوصيات الخاصة بالمرأة والمجتمعات المسلمة.

ثانيًا: خروج المرأة للعمل والكسب:

حكى لنا القرآن الكريم عن المرأة كثيرًا.. بل وعن خروجها للعمل والكسب، ولكن أي عمل؟ وأي كسب؟ وكيف تخرج؟ ومتى تخرج؟ وتحت أي ظرف تخرج؟ ويكفي أن أنقل هنا قصة ابنتي شعيب ، قال تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص: ٢٥] إذن المسألة ليست في خروج المرأة.. ولكن في كيفية خروجها، وبأي لباس تخرج؟ وإلى أين تخرج؟ ومع مَن تعمل؟ ولصالح مَن؟ وما ثمرة هذا العمل ومدى نفعه؟

وليست المسألة مسألة إيمان أو كفر، كما يصورها د/ فؤاد زكريا، وهو يتحدث عن الجماعات الإسلامية، يقول: «أما مسألة عمل المرأة وخروجها من البيت، فقد كانت وجهة نظرهم فيها (أحط) مستوى من وجهة نظر المشايخ الذين عارضوا قاسم أمين منذ ثمانين سنة؛ لأن خروج المرأة للعمل، بل مجرد خروجها من البيت، يعد في نظرهم كفرًا بشريعة الله» (١).

في نظر مَن؟ هذا غير صحيح، ولم يقل به أحد، ويكفي للرد على هذا الكلام ما قاله د/ فؤاد نفسه وهو يشيد بكتاب (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة) للغزالي، في المناظرة التي دارت بينه وبين د/ محمد عمارة، يقول:«إن هناك دعوة دائمة للاجتهاد، وكل فكرة جديدة يلقى ترحيبًا كبيرًا، انظروا إلى كتاب الشيخ محمد الغزالي الأخير وترون كم من الكتاب الذين يوصفون أنهم عالمانيون كتبوا عنه كلامًا رائعًا (يمدحوه) (٢)إلى أقصى حد، هؤلاء عندما يجدون بادرة يرحبون بها».

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ٦٠ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ٩٨، مرجع سابق.

(٢) هكذا في الأصل، أنظر كتاب أزمة العقل العربي صـ٥٢، ط/ الآفاق الدولية للإعلام، ط/ ١، بدون تاريخ، والصواب (يمدحونه).

ولعل الدكتور/ فؤاد زكريا أشاد بهذا الكتاب (بالذات) لسببين:

السبب الأول: أن الشيخ/ الغزالي دافع فيه بصورة واضحة عن (قاسم أمين).

السبب الثاني: أنه الكتاب الوحيد الذي انفرد بقضايا المرأة، وأقر فكرة المساواة بضوابط وقيود.. الأمر الذي جعل د/ فؤاد يرى أنه تطوُّرٌ إيجابيٌّ في موقف الشيخ/ الغزالي.[1]

مع أن الشيخ الغزالي رحمه الله وهو يقر عمل المرأة وخروجها للكسب، يرفض بشدة أن يكون هذا الخروج، وهذا الكسب وفق المنهج الغربي.. يقول: "واعتقادي أن الفقهاء المسلمين المعاصرين ـ وهم يحسون المحنة الاجتماعية التي يمر بها المسلمون ـ سوف يسدون هذه الثغرات، وينتقون من أقوال الأئمة والمجتهدين ما يلم شمل الأسرة، ويقيها عبث العابثين...

ويجيء بعد ذلك عمل المرأة؛ لتنفق على نفسها! إن الإسلام له منهج آخر، غير ما يعرف الآن في الحياة الغربية بشقيها الشيوعي والرأسمالي، والمرأة هناك ـ عند البلوغ ـ تستقل بنفسها، وتواجه مستقبلها، وتكلف بتحصيل قوتها والضرب في فجاج الأرض لتأمين عيشها، وهي تزاحم الرجل في كل ميدان!

ماذا نشأ عن هذا الوضع؟ فقدان أغلب النساء لعفتهن، واستطالة الذئاب في أعراضهن، لسبب أو لآخر! والمجتمعات الأوربية والأمريكية والاسترالية كادت تُطْبِقُ[1]على اعتبار الناحية الجنسية حاجة جسد لا علاقة لها بالخلق والدين، وكانت لهذه الفلسفة الحيوانية نتائج رهيبة!

والإسلام يرفض هذا الفكر وآثاره كلها، نعم قد تعمل المرأة في ظروف تختارها، أو تُختار لها، وبعد توفير ضمانات الصون، وحماية الشرف، ومرضاة الله.. أما تكليفها بالكدح لتقتات، ولتوفر مهرًا للرجل المنتظر فلا.. ولا.. وهنا يوجب الإسلام نفقتها على أبيها، أو أخيها، أو ذوي قرابتها، فإن لم يوجد أحد، أُرصد لها ما يكفيها من بيت مال المسلمين.. وإعانة للرجل على النهوض بهذا العبء جعل حظه في أغلب المواريث ضعف حظ المرأة.. وقد يتساويان في حالات كثيرة، كما أمره بأن يدفع هو للمرأة مهرها، لا أن تدفع له كما توصي بعض الديانات.

وعلى الرجل أن يَنْصَبَّ ليقوت زوجه وولده، فإذا عرضت ظروف لتعمل المرأة خارج البيت، كان لذلك وزنه الخاص، وملابساته المقدورة!

---

(١) انظر كتاب (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة)، صـ١٧ وما بعدها، مرجع سابق، وانظر صـ ١٢٨ وما بعدها من هذا البحث.

(١) تُطْبِق: أي تتفق على هذه المفاهيم.

أعتقد أنه ليس من تكريم المرأة تكليفها بالارتزاق في أحوال مقلقة، ولا من تكريمها أن تجمع بين وظيفة ربة بيت ووظيفة أخرى ترهق أعصابها وتستغرق انتباهها » [١].

فهذا ظلم لا ترتضيه المرأة (ذاتها) لأنه ليس فى صالحها، ولا فى صالح المجتمع.

إنها العدل والصالح لها وللمجتمع أن تتعلم دينها، ثم تعرف من خلاله ما لها في دنياها.

هذا ما يؤكد عليه الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ ومن كتبوا عن منهجه وقضاياه الكبرى.

يقول الدكتور/ محمد أبوزيد الفقى:«مع أن صلاة النساء في المساجد، وإسهامها في توعية بني جنسها مفيد جداً للمجتمع الإسلامي؛ لأن المرأة في المسجد وفي جوه الروحي تتشرب تعاليم الإسلام التى تمدها بالزاد الطيب فى حياتها وفى حياة أسرتها ومجتمعها، ومع هذا تمنع المرأة من الخروج إلى المساجد.. وبعد جهاد سنين طويلة لم يسمح في (بعض بلاد) العالم الإسلامى إلا بفتح ١٠٪ من المساجد للنساء»[١].

والخلاصة أنه لا مانع أن تتعلم المرأة.. ولكن إذا تعلمت فلتتعلم ما يناسب طبيعتها، وما ينفعها، وينفع بنات جنسها، كالطب الخاص بالنساء والأطفال وما شابه...لأن عمل المرأة وخروجها ينبغي أن يكون لصالح المرأة والأسرة والمجتمع، لا على حسابها، أو حساب دينها، وزوجها وأولادها، وأسرتها.

وهذا ما سنبحثه ـ إن شاء الله ـ في الصفحات التالية.

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، صـ٤٤٨، مرجع سابق.

(١) الشيخ محمد الغزالى منهجه وقضاياه الكبرى، صـ ٢٣٢ تأليف د/ محمد أبوزيد الفقى أستاذ الدعوة جامعة الأزهر، ط/ مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا، بدون تاريخ.

المبحث الرابع: العلاقة بين عمل المرأة والترابط الأسري:

عمل المرأة في إطاره الصحيح، وبالضوابط الشرعية التي تُراعِي فيها المرأة حق ربها عليها، وحق دينها، وحق أولادها، وزوجها، وأسرتها.. عمل مقبول ومشروع، ولا يمنعه عقل ولا دين، وهو يدور بين الوجوب، والاستحباب، والإباحة، أما العمل الذي لا يُراعِي حرمةَ دينٍ، أو عرضٍ، أو زوجٍ، أو ولدٍ.. فهو عمل ممنوع شرعًا، وعقلاً، وهو يدور بين الكراهة، والتحريم.

وأعتقد أن المرأة التي تجمع بين العمل المناسب، وتلك الحقوق، أعتقد أنها امرأة جديرة بالاحترام، بل وأومن أنها نموذجٌ صالحٌ، وقدوةٌ يحتذى بها، في العصر الحديث.

والدكتور/ فؤاد زكريا ـ من خلال بحثي في كتبه ـ لا يتحدث لا من قريب أو بعيد عن الترابط الأسري، وعلاقته بعمل المرأة، فهو لا يفرق بين المرأة والرجل في عمل أو علم.. ويرى أن جميع المشاكل التي تواجه المجتمع لا يختلف في حلها، ومواجهتها الرجل عن المرأة.. العبرة عنده بالتعليم والثقافة، وليس بالذكورة، أو الأنوثة.

وفي ترجمته لجمهورية أفلاطون ينتقد الفلاسفة الذين لم يتزوجوا أصلاً، ولم يفكروا قط في الإنجاب ولا في تكوين أسرة ولا تربية أولاد.. وبعد حديثه عن اليونانيين وموقفهم من المرأة وظلمهم لها يقول: ".. فإذا أضفنا إلى ذلك دعوة (أفلاطون) في الجمهورية إلى إلغاء الأسرة، وإنكاره قدسية الزواج، والمشاعر العائلية المألوفة، لكانت في ذلك كله قرائن قوية على أن أفلاطون لم يُكِنُّ للمرأة مشاعر طبيعية، وكان كارهًا للنساء بمعنى ما، على حين أن موقفه من الجنسية المثلية، كان متعاطفًا إلى أبعد حد.

إن (سارتون)[١] يحمل بشدة على شراح (أفلاطون) لما يبدونه من نفاق في محاولة إخفاء هذه الجنسية المثلية عنده، إذ يتحدثون عن (المحبوب) على نحو يحتمل معنى الرجل أو المراة، على حين أن التركيب النحوي اليوناني، لا يترك مجالاً للشك، في أنه يقصد الرجل، ويذهب (سارتون) إلى أن المجتمع اليوناني ـ على الرغم من انتشار الجنسية المثلية فيه ـ كان حتمًا يبدي مزيدًا من الاعتراف بالجنسية المغايرة، ولولا ذلك لانقرض النوع كله، ولابد في رأيه أن الأوساط الاستقراطية الخاملة التي كان أفلاطون يعيش فيها، هي التي كانت تمارس هذا النوع من العلاقات، أما الإنسان اليوناني العادي فلابد أنه لم يكن يختلف في هذا الصدد عن إنسان اليوم.

---

(١) هو جورج سارتون صيدلي ومؤرخ بلجيكي، ولد سنة ١٨٨٤م، ويعتبر مؤسس علم تاريخ العلوم، وهو باحث مشارك لمؤسسة كارنيجي بواشنطن، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة جينت سنة ١٩١١م، للمزيد انظر موقع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

وأخيرًا، فهناك دليل آخر لابد أن نشير إليه، وهو أن أفلاطون ذاته لم يتزوج مطلقًا، ولم نعرف عنه أية علاقة نسائية، ولم يحاول بالطبع أن ينجب أطفالاً، وقد حاول (ليفنسون) الدفاع عن أفلاطون في هذا الصدد أيضًا، فقال أنه كان يشعر بنفسه غريبًا في مجتمعه، ولم يشأ تكوين أسرة في مجتمع يعتقد أنه يفتقر إلى الفضيلة؛ حتى لا يفسد أطفاله بدورهم في هذا المجتمع، ويرى أنه لو كان قد عاش في مدينته الفاضلة لانتهى به الأمر فعلا إلى تكوين أسرة وإنجاب أطفال، وهذا دفاع غريب حقًا؛ لأن مدينة أفلاطون الفاضلة قد ألغت الأسرة تمامًا» (١).

والذي تعودته من الدكتور/ فؤاد زكريا أنه عقب تقديمه للشخص أو ترجمته له، يعلق عليه بنقد أو تصويب لما يراه ـ من وجهة نظره ـ خطأً.. وبالنظر إلى كتاب (جمهورية أفلاطون) هذا، ستجد الدكتور/ فؤاد قد تكلم عنه، وقدم له في صفحات تصل إلى (١٧٣) صفحة، هذا بجانب ما يكتب في الهامش.. ومع هذا لا توجد له جملة واحدة فيها إنكار الأفكار التي تخالف تعاليم الإسلام وأهدافه من الزواج وتكوين الأسر، أوخطورة هدمها أو عدم الرغبة في تكوينها، في حين أنه أنكر (بشدة) تمييز الرجل على المرأة، وتفضيله عليها (٢).

أما الشيخ محمد الغزالي رحمه الله فهو واضح في دفاعه عن الترابط الأسري، والتحذير من العمل الذي يهدد الأسرة، ويضر بالأولاد أو الزواج، ويؤكد باستمرار على أهمية عمل المرأة في بيتها، وأنه هو الأول وهو الأصل، وأنه لا يجوز الاستهانة به أو التقليل من شأنه، وأن خروج المرأة للعمل لا يكون إلا بعد قيامها بمطالب بيتها ومصالح أولادها.

يقول: «.. فمن وضع الأمور في مواضعها أن تشغل المرأة الوظيفة العتيدة المهيئة لها، وظيفة (ربة البيت).. وأن يشغل الرجل الوظائف الحيوية في كل ناحية من نواحي الحياة الشاقة، ولا يجوز أن تشغل امرأة إحدى هذه الوظائف مع وجود شاب عاطل كفء لها، فإن ذلك حكم على الرجل بالقعود، حيث يجب أن يعمل، ويستطيع الأداء الكامل، ثم هو ـ في الوقت نفسه ـ حكم على المرأة بالعمل، حيث لا تستطيع الإجادة، وتعطيل لها عن الوظيفة التي تتقنها، والتي لا يحسن الرجل شيئًا منها، وهي القيام على البيت والأولاد.

---

(١) جمهورية أفلاطون، صـ١٠٤، مرجع سابق.

(٢) انظر صـ١٠١ وما بعدها، المرجع سابق، وانظر صـ٥١، كتاب (التعالي الزائف): الرد على فؤاد زكريا، مرجع سابق، حيث ينكر المؤلف بشدة على الدكتور/ فؤاد زكريا موقفه الناقد للرجل الشرقي المسلم، الذي لا يرضى لزوجه أو ابنته الخروج؛ خوفًا على شرفها وعفافها.

أريد أن أقول ـ والكلام للشيخ الغزالي ـ في جلاء: إن (استخراج)[1] المرأة من البيت ليس سدادًا لثغرات في ميدان الزراعة، والصناعة، والتجارة ـ ودعك من ظروف الحرب ـ وليس إنجازًا للأوراق المهملة في الدواوين، ولا ترويجًا للبضائع المكدسة في (الدكاكين).

إنه مجون من بعض الرجال الذين يريدون تيسير المتاع بالمرأة، وابتذال محاسنها، وجعلها تحت بصر الذئاب، أو بين أيديهم كلما شاءوا.

وتوظيف المرأة في الجهاز الإداري للدولة، يتبع الصالح العام للأمة، والإسلام يقبله في نطاق محدد...

أما النمو النفسي والعقلي والتهذيبي والسيطرة على الغرائز، فإنه يكون كاملاً في الطفل بين أبويه، بينما يكون دون ذلك بكثير في الملجأ أو دور الحضانة...

وذلك ليس هو النظام الشرعي الاجتماعي فقط، بل هو النظام الطبيعي، ولهذا قلنا: إن عمل المرأة لا يكون من الناحية الشرعية والاجتماعية أصليًّا، بل يكون استثنائيًّا وأعلنا رأينا: هو أن المرأة تعمل في أحوال أربع:

الأولى: أن تكون المرأة ذات نبوغ خاص يندر في الرجال والنساء معًا، والمصلحة الاجتماعية توجب في هذه الحالة أن تعمل، ليعود ذلك النبوغ على المجتمع بنفع عام.

والثانية: أن تتولى المرأة عملًا هو أليق بالنساء، كتربية الأطفال في سنينهم الأولى وتعليمهم، وذلك إلى سن التاسعة، أو الحادية عشرة، وهي السن التي قررتها الشريعة لحضانة الأطفال، فيكون الطفل في حضانة أمه داخل البيت، وفي عطف المرأة ورعايتها بالمدرسة...

الثالثة: أن تعين زوجها في ذات عمله، وهذا كثير في الريف، فالمرأة الريفية إذا كان زوجها عاملاً زراعيًّا، أو مالكًا صغيرًا، أو مستأجرًا لمسافة ضئيلة تعاونه امرأته في عمله معاونة كاملة...

الرابعة: أن تكون في حاجة إلى العمل لقوتها وقوت عيالها إذا فقدت العائل هي وهُمْ، فكان لابد أن تعمل لهذه الضرورة، أو تلك الحاجة الملحة...

والبيت هو المستقبل الطبيعي للمرأة، والمجال المهيأ لها كي تنشئ الحياة، وتعد الأجيال، وعمل المرأة فيه

---

(١) طلب خروجها بترغيبها فيه أو إكراهها عليه.

بعيد المدى، فإن أنوثتها هي وحدها التي تشيع فيه السكينة والرضا، وهذا الجو الصافي هو الذي يستعمل فيه الطفل نماءه النفسي والبدني. وعلاقة الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، أكبر من أن تخطها نصوص القانون وأحكام القضاء، »[(١)].

والبيت لا يستغني أبدًا عن المرأة .. كذلك الزوج الذي يريد حاجته منها في بيتها، إذ كيف يتحقق قوله تعالى ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٨٧] والمرأة شاردة في عملها، تعطيه كل وقتها، أو جل وقتها، والشيخ الغزالي رحمه الله يؤكد على هذه المعاني فيقول: «.. ووظيفة (ربة البيت) من أشرف الوظائف في الوجود، وما يحسنها إلا مَن استكمل لها أزكى الأخلاق، وأنقى الأفكار.

أليست هي حضانة الأجيال الجديدة، وشق الطريق أمامها حتى تنبت نباتًا حسنًا؟ إن تصور المرأة في البيت إنسانًا قاعدًا لا شغل له جهل شنيع بمعنى الأسرة... »[(٢)]

ويمضي الشيخ الغزالي في توضيح هذه الحقيقة فيقول: « قرأت دفاعًا شديدًا عن احتراف المرأة، وتقليدها أي وظيفة كأي رجل، وكان هناك تساؤل: لماذا تسلك المرأة العاملة سلوك الأنثى، لا سلوك الرجل، وكيف يعالج هذا؟ ثم جاء الجواب بعد إجراء بحوث ذكية في مصنع كبير للطائرات.. فمن ذلك مثلاً، أن النساء المستخدمات في مصانع (كونسوليداتد فولتي اير كرافت كوربريشن) أكثر من الرجال، والغياب بين النساء خمسة أضعاف الغياب بين الرجال، ومن خمس نساء يعملن، لوحظ أن أربعًا يتركن العمل قبل أن يقضين فيه سنة..

والنساء المشتغلات في مصانع الطائرات مجموعة نموذجية وافية، فأعمارهن تتراوح بين ١٦ و ٧٨ سنة، وتربيتهن تتفاوت من الأمية إلى إتمام الدراسة الجامعية، وفيهن المتزوجة، والعزبة، والمهذبة، والعسرة، والرقيقة، والشكسة، والبيضاء، والسوداء، فخصائص العاملات المجتمعات في هذه الشركة هي خصائص المرأة، في كل مكان وفي كل زمان....

والنساء يتأثرن بالنقد الجاف الخشن أكثر مما يرى الرجال، فلابد من أن يكون التأنيب معسولاً، كأن تقول للمرأة: (إنك يا (جين) تؤدين على التحقيق عمل اليوم أداء رائعًا، فلماذا لا تحاولين أن تواظبي على الحضور أكثر مما تفعلين؟).

وإثارة التنافس بالجوائز تستحث همم الرجال، وكثيرًا ما تزيد إنتاج القسم كله، ولكن ذلك بين النساء

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١١٦ وما بعدها، وصـ ١٢٠، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، صـ٢٢١، بتصرف، ط/ دار الشروق، بدون تاريخ.

أسوأ دواء، فإذا أعصابهن تتوتر فيضطربن لفرط ما يستثرن..والفتاة الجميلة مبعث متاعب، فإذا حسن عملها ورقاها رئيسها، أَوَّلَ النساء الأخريات بواعثه تأويلاً سيئًا، وإذا أنّبها، فإن المرجح أن تعد تأنيبه إهانة شخصية، لطول ما ألفت أن تسلم من العقاب بفضل حسنها وفتنتها، والمزاح الخشن، والمباسطة، وذلك ما تتفتح له قلوب الرجال، لا يصلح للنساء على الإطلاق؛ لأنهن يبغين اللمسة الناعمة الرقيقة، والمتزوجون من الرجال أصلح لملاحظة العمل من العزاب، ولعل ذلك لأنهم أدرى بالمرأة وأخبر، وقد يكون تفاوتهم غير راجع إلى أكثر من موقفهم اليومي الذي يتخذونه وهم مدركون له، أو عن غير وعي منهم» [١].

لقد صدق الله عندما قال: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[آل عمران:٣٦]، وصدق رسوله ﷺ عندما شبههن بالقوارير في قوله:(رفقًا بالقوارير)[٢]

إن حقيقة ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ ينبغي أن تؤخذ في الحسبان، عند اختيار المرأة للعمل خصوصًا الأعمال الشاقة، البدنية القيادية منها والإدارية والسياسية.

وإذا كان الإسلام لا يمنع عمل المرأة، ويضع له ضوابطَ وحدودًا وأهدافًا، فلا شك أن هذا العمل له آدابٌ وسمتٌ ومظهرٌ يليق بالمرأة المسلمة، ويميزها عن غيرها من نساء الدنيا، ألا وهو الحجاب مع غض البصر وعدم الخضوع بالقول و الخلوة المحرمة والاختلاط المريب.

وعن حجاب المرأة ونقابها وآدابها ستكون الصفحات التالية.

(١) المرجع السابق، صـ ٢٣٣ وما بعدها، بتصرف.

(٢) صحيح سبق تخريجه في الفصل الرابع: قضايا المرأة.. المبحث الثاني: دعاوى تحرير المرأة... صـ١٣٧.

المبحث الخامس: حجاب المرأة، ونقابها، والموقف منه:

أولا: تعريف الحجاب:

ـ الحجاب في اللغة: يأتي بمعنى الستر، والمنع، والتغطية. يقال: حجب عنه الرؤية، أي: منعها، وحجب الشيء، أي: ستره وغطاه والحجب: المنع والحاجب: الساتر والمانع، وكل ما يحول بين شيئين ويمنع الرؤية يسمى حجابًا، ومنه الحاجب (البواب) الذي يمنع الدخول، وللعين حاجب، أي: جفن يمنع دخول الأشياء، والحجب في الميراث هو المنع من الميراث[١].

ـ الحجاب في الاصطلاح:

لم تتفق كلمة العلماء على اصطلاح معين لتعريف الحجاب، فمنهم مَن يرى أن الحجاب يشمل النقاب (تغطية الوجه واليدين مع سائر الجسم) ومنهم مَن يفسره بالثياب الواسع الفضفاض السابغ للجسد، من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين.. ومنهم من يتوسع في التعريف، فيشمل كل ما يمنع الرؤية من ثياب وجدار وأبواب ونحوها فهو حجاب.

ولعل أقرب التعاريف للآيات والأحاديث التي وردت في هذه المسألة، هذا التعريف: «هو لفظ ينتظم جملة من الأحكام الشرعية والاجتماعية، المتعلقة بوضع المرأة في المجتمعات الإسلامية بمن لا يحل لها أن تظهر زينتها أمامه» [٢].

ثانيًا: حكم الحجاب في الإسلام:

اتفق العلماء سلفًا وخلفًا على وجوب الحجاب، واختلفوا في تغطية الوجه، والكفين (النقاب) والراجح أن المرأة إذا خرجت أو صلت أو جالست الرجال الأجانب، لا يحل لها أن تكشف شيئًا من جسمها إلا الوجه والكفين [٣] .

ثالثًا: علاقة الحجاب بالإصلاح الاجتماعي:

لا شك أن هناك علاقة وثيقة بين حجاب المرأة، وبين الإصلاح الاجتماعي، الذي يهدف إلى إصلاح الأفراد، والأسر ـ الشباب منهم والكبار، الرجال منهم والنساء ـ إصلاحًا شاملاً للأخلاق والسلوك، داعمًا للقيم والآداب والفضيلة والعفاف، وحفظ الأعراض بتغطية الأجساد والعورات .. فالحجاب عامل مهم

(١) انظر لسان العرب، جـ١، صـ٢٨٩، مادة (ح ج ب)، مرجع سابق، وكتاب (مختار الصحاح) صـ١٢٢، ط/ دار الحديث، بدون تاريخ، و(المعجم الوجيز) في اللغة، صـ١٣٥، مرجع سابق.

(٢) عودة الحجاب لمحمد أحمد إسماعيل المقدم، ٣/ ٧١، دار طيبة، ط ٢، سنة ١٩٩٣م.

(٣) للمزيد انظر كتاب/ المرأة المسلمة بين الحجاب والنقاب أ.د/ أحمد ربيع أحمد يوسف، صـ ٤١ وما بعدها، ط/ دار المنار، بدون تاريخ.

من عوامل إصلاح أبناء وبنات المجتمع المسلم، وتربيتهم على الفضيلة والاحترام، فهو يعين على غض البصر، ويمنع النظر للحرام.. وهذه مطالب مشروعة، ولها فوائد عظيمة على المجتمع.

ويكفي الحجابَ شرفٌ أنه زي المؤمنات المسلمات الصالحات، وأنه عون على الطاعة والاستقامة والالتزام، والتشبه بالصحابيات، وزوجات الرسول ﷺ ومَن تشبه بقوم حُشر معهم.

في حين أن التبرج والتعري تشبه بغير المسلمات، وهو عون على المعصية والرذيلة.

رابعًا: موقف الدكتور/ فؤاد زكريا من الحجاب والنقاب:

في كتاب/ الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة يرى د/ فؤاد زكريا، أن مسألة الحجاب والجلباب لا يجوز أن تأخذ هذا الاهتمام البالغ من جهد العلماء، بينما تترك الأمور الهامة ـ على حد زعمه ـ معلقة بلا حل، ويرى أن هذه الأمور كانت وراء العداء الشديد بين الجماعات الإسلامية، والرئيس الراحل أنور السادات يقول: "..السادات قُتل لأنه داعب آمال هذه الجماعات التي أعادها هو ذاته عمدًا إلى الحياة، ونافقها ووعدها بقرب تحقيق أهدافها.. أي أنه قتل لأنه من بين كافة الزعماء الذين يفصلون الدين عن السياسة، هو وحده الذي تجرأ على أن يلعب هذه اللعبة الخطيرة، لعبة تقديم الوعود العريضة للجماعات الإسلامية، والتلويح لها بأن أهدافها على وشك أن تتحقق...

وأخيرًا، فقد كان هناك سبب أساسي، تكرر على لسان الأعضاء الرئيسيين في التنظيم (أي الجماعة الإسلامية) يتعلق بوضع المرأة في المجتمع، وأعني به موقف السادات من الحجاب، فقد تحدث (عبد الحميد عبد السلام)[١] باستنكار عن لجوء (السادات) إلى السخرية من الحجاب الذي فرضه الله تعالى على نساء المسلمين، كما استنكر (عطا طايل)[٢] معارضة رئيس الجمهورية لأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن تبقى المرأة في بيتها ولا تخرج إلا بالضرورة، والاستهزاء من حكم النقاب للإسلام والسخرية به وهو حكم إلهي به نص شرعي في القرآن.. كما صدر قانون الأحوال الشخصية[٣] الذي أثار الجماعة الإسلامية، باعتباره خروجًا على الشريعة الإسلامية.

---

(١) عبد الحميد عبد السلام هو أحد المتهمين في قضية اغتيال الرئيس الأسبق/ محمد أنور السادات، وتم التخطيط للاغتيال في منزله بضاحية عين شمس شرق القاهرة، للمزيد انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة.

(٢) عطا طايل حميدة رحيل هو أحد منفذي عملية اغتيال الرئيس الأسبق/ محمد أنور السادات، وتم إعدامه شنقًا في سجن الاستئناف صباح يوم الخميس الموافق ١٥ إبريل١٩٨٢م المرجع السابق.

(٣) هذا القانون أنشأ عام ١٩٢٤م، ثم طُوّر عام ٢٠٠٠م والمادة التي أثارت خلافًا فقهيًّا وضجة إعلامية بعد تطويره هي المادة رقم (٢٠) التي نصت على حق المرأة في الخلع إذا رفعت أمرها للقاضي سواء رضي الزوج أم لم يرض، والقاضي في مثل هذه الحالة له الحق المطلق في أن يقف بجوار المرأة، ويحقق لها رغبتها في الانفصال أو الخلع لمجرد أنها لا تريد أن تستمر معه أو لأنه تزوج بأخرى أو تقليدًا لأختها التي خلعت =

نحن ـ والكلام للدكتور فؤاد ـ إذن أمام سبب رئيس تردد على لسان أهم شخصيات الجماعة باستنكار شديد، وهو يعبر عن ثلاث ظواهر أساسية في فكر هذه الجماعات:

الأولى: هي الدور الهام الذي تلعبه أخلاق الجنس في تفكيرهم، وانصراف قدر كبير من جهودهم إلى موضوع حجب المرأة عن المجتمع، والخوف المرضي (تأمل) من التعامل مع المرأة، بوصفها ندًّا للرجل وشريكًا متساويًا معه

والثانية: هي سيادة الأمور الشكلية على تفكيرهم، إلى حد أن يجعلوا من رأي رئيس الجمهورية في زي المرأة سببًا رئيسًا لقتله.

والثالثة: هي التجاهل التام لمسار التاريخ، واتجاه التطور الاجتماعي، بحيث يتمسكون بالزي الذي كان صالحًا لزوجات الرسول، في مجتمع معين وبيئة معينة وعصر معين، كما لو كان صالحًا لكل مجتمع وبيئة وعصر، مع أن الزي بوجه عام ليس من أساسيات العقيدة على الإطلاق، فضلاً عن أنه حتى لو كان قد ورد فيه نص (فهو) من الأمور القابلة بطبيعتها للتغير تبعًا للظروف التي يعيش فيها الإنسان» [(١)].

وبعيداً عن مقتل السادات وملابساته أعتقد أن من لديه أدنى علم بأحكام الشريعة الإسلامية يمكنه ـ بسهولة ـ أن يكشف خطأ الدكتور/ فؤاد زكريا؛ لأن مسألة الحجاب من المسائل المتفق عليها بين علماء الأمة سلفًا وخلفًا؛ لورود الأمر به في القرآن الكريم والسنة المطهرة. ولا أدري ماذا يفعل الدكتور/ فؤاد زكريا ومن معه فيما ورد في كتاب الله من أمر صريح وواضح بالحجاب، وعمل به زوجات رسول الله ﷺ وأجمع على قبوله علماء الأمة[(٢)] في مثل قوله ﷻ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩].

=

نفسها أو طلقت من زوجها، انظر كتاب الوجيز في الإثبات في مواد الأحوال الشخصية/ أحمد إبراهيم سيد، ط/ الإسكندرية مصر المكتب الجامعي الحديث، سنة٢٠٠٣م، مادة رقم(٢٠).

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ٩٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ٣، سورة النور صـ ٢٧٣ وما بعدها وسورة الأحزاب صـ ٤٩٧ وما بعدها، ط/ دار الحديث، سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ط/ ٢، وكتاب المرأة المسلمة بين الحجاب والنقاب، أ.د/ أحمد ربيع، صـ٤١ وما بعدها، مرجع سابق.

إن ما أسماه د/ فؤاد بالظواهر الأساسية في فكر الجماعات الإسلامية، ليست ظواهر مستجدة كما يدعي، إنما هي دين قديم بقدم القرآن الكريم وتاريخ المسلمين، وهي ليست فكرًا قابلًا للأخذ والرد إنما هي حكم شرعي لا يمكن أن نستخف به، ونقلل من تأثيره على المجتمع، ونصف المتمسكين به والداعين إليه بالمرضى النفسيين.. وما يحدث في قلب القاهرة وفي أشهر ميادينها من تحرش جنسي وهتك للأعراض أكبر دليل على أن بعض الرجال صاروا ذئابًا يسيطر عليهم الهاجس الجنسي، فلا زالت وستظل أخلاق الجنس تلعب دورًا خطيرًا في الفساد طالما هناك من يستخفون بالحجاب والآداب الشرعية بين المرأة والرجل.

إذن لا يجوز أن يقال: إن الحجاب مسألة شكلية وقابلة للتغيير لأنها من الأمور القديمة التي تغيرت بتغير الزمان والمكان.

أما قوله إن جهد العلماء ينبغي أن يصب في حل المشاكل الهامة والأمور المهمة، فهذه كلمة حق لا أدري ماذا يقصد بها؟ وما علاقتها بالحجاب؟ وما هي الأمور المهمة بالتحديد عند د/ فؤاد زكريا؟ وأي تاريخ تجاهل العلماء مساراته؟ وأي مسارات؟ ويتكلم عن الشكليات.. فيقول: "والحق إن الاهتمام بالأمور الشكلية يبدو أمرًا غير مفهوم، ولكي نزيد هذا الأمر وضوحًا، فإننا سنقسم تلك الشكليات إلى ثلاث فئات، يمكن تحليل كل فئة منها، على نحو يتكشف فيه قصور الموقف الذي تتخذه منها الجماعات الدينية:

(أ) أولى هذه الفئات تتعلق بالمظهر الخارجي والملبس، فإطلاق اللحية، وحلق الشارب، وارتداء الجلباب، إلى منتصف المسافة بين الركبة والقدم، أمور يرونها أساسية للشاب المتحمس لدينه، ويقابلها الحجاب عند الفتيات، والأمر الذي لا يناقشه أنصار هذه الاتجاهات، هو أن الملابس بوجه عام لها وظيفة اجتماعية في الأساس، وأن ملابس كل عصر وكل بيئة تتحدد تبعًا لنوع الأعمال التي يقوم بها الناس في البيئة المعينة (أي لا علاقة لها بالعورات ووجوب سترها شرعًا)

(ب) أما الفئة الثانية فهي فئة الأمور المتعلقة بالحياة الجنسية بوجه عام. ولا شك أن حجاب المرأة ينتمي إلى هذه الفئة، مثلما ينتمي إلى الفئة السابقة، ولكن من المعروف أن التركيز على منع الاختلاط بين الجنسين يمثل جانبًا رئيسيًّا من جوانب (كفاح) الجماعات الإسلامية، وكل مَن عاش في جو الجامعات ومعاهد العلم العربية يعرف هذه الحقيقة ويلمس لها كل يوم أمثلة صارخة"[1]

(١) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، صـ٢٢ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق، وفي كتاب (أزمة العقل العربي) ، يصرح د/ محمد عمارة أمام د/ فؤاد زكريا، أن الأخير يكتب في الكتب والمجلات أن الحجاب ردة حضارية، واكتئاب، وحجاب على العقل، انظر صـ ٥٦، مرجع سابق.

ولم يقل الدكتور ما هي هذه الأمثلة الصارخة!! فلقد عشت في جو هذه المعاهد في الجمهورية اليمنية من عام ١٩٩٢ إلى ١٩٩٩م مدرسًا ومصححًا ولم أجد مثالًا واحدًا لا صامتًا ولا صارخًا.

يقول: «هذه التحريمات التي تستهدف إقامة حواجز قاطعة بين نصفي المجتمع تقدّم إلينا أنها تستهدف (العفة) وترمي إلى صون الأخلاق، غير أن حقيقة الأمر هي أن التحريم المفرط لأبسط مظاهر الاختلاط، وإعطاء الجنس بوجه عام حجمًا أكبر بكثير من حجمه الحقيقي، وكأنه هو المشكلة الكبرى التي تتوارى إلى جانبها مشكلات الخبز والمأوى والإحساس بالعدل والأمان...

(جـ) أما الفئة الثالثة من الاهتمامات التي نسميها شكلية، فهي فئة الشعائر الدينية، وهذه الفئة، وإن كانت تُقصد لذاتها في الدين بوصفها أركانًا أساسية فيه، لابد أن تترجم على أفعال تنعكس إيجابيًّا على حياة الناس، وإلا فقدت فعاليتها، ولم تعد مقبولة، حتى من وجهة نظر الدين نفسه.» [(١)].

هذا الكلام من الدكتور/ فؤاد زكريا يؤكد أن الرجل لا يدافع عن أي نوع من أنواع الحجاب، ولا ينطلق من قواعد شرعية، ولا يعتمد على آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو أحكام علمية.. بقدر ما ينطلق من فلسفات كلامية لا وزن لها في الميزان الشرعي، الرجل لم يصرح بجملة واحدة تفيد أن الحجاب وانتشاره في المجتمع ظاهرة صحية، وأنه مظهر من مظاهر العفة والطهارة، وهما ركيزتان أساسيتان في بناء المجتمع الصالح ، فالمسألة عنده مسألة تراث قديم قابل للتجديد والتطوير.

أما مسألة الاستغراق في الجزئيات على حساب الكليات.. فهذا حق، أقره عليه، ولكن الحجاب ليس من الجزئيات التي تتغير بتغير الزمان و المكان، هذا خلط يقع فيه الدكتور/ فؤاد وكثير من دعاة التمدن والحضارة على حساب الآراء الفقهية الراجحة، فضلا عن الثوابت المجمع عليها بين علماء المسلمين، فمسألة الحجاب التي نحن بصدد الحديث عنها، لا تتغير ولا تنسخ مهما طال الزمن؛ لأن العلة التي من أجلها فرض الحجاب باقية، فالناس هم الناس، والمرأة هي المرأه، والنظر المحرم هو هو في الماضي والحاضر والمستقبل، وإذا كانت الثياب ـ عند أستاذ الفلسفة ـ لا ترتبط بذلك إنما ترتبط بالبيئة، فالأرض هي الأرض، والبرد هو البرد، والحر هو الحر، والحجاب جاء لجميع نساء المسلمين، وليس لزوجات الرسول فقط، اللهم إلا في مسألة النقاب .

إن ما قاله د/ فؤاد زكريا عن الحجاب (قد) يقترب قليلاً من رأي بعض العلماء في النقاب (تغطية المرأة للوجه والكفين) لكن الرجل يعي جيدًا ما يقول، فهو يستهدف الحجاب.. فالمعركة بين الدكتور فؤاد

---

(١) المرجع السابق، صـ٢٣ وما بعدها.

زكريا ومدرسته، وبين علماء الإسلام في الحجاب هي معركة بين التبرج والحجاب، وليست معركة بين المهم والأهم أو الراجح والمرجوح أو النقاب والحجاب، فلننتبه لذلك جيدًا.

تأمل السطور التالية، والرد عليها.. يقول د/ فؤاد زكريا: «أنا أُعرف من ضمن هؤلاء الذين يسمون العلمانيين وأنا أصر على هذا التعبير، ولكنه غير دقيق.. وأنا (شفت) الحقيقة أشياء جعلتني أندهش، مثلاً أن بعض الناس من هذا الفريق الآخر يحرم لبس المرأة إذا كانت محتشمة، من قال هذا؟ جميع من يتحدثون في هذا الموضوع يبدون احترامهم لإرادة أي امرأة تريد أن تتحجب أو (تتنقب) [١] لكن المهم في الأمر ما (يبقاش) الهجوم الجارح على النمط الآخر من النساء؛ لأن بينهن المحتشمات في حدودهن الخاصة، وبينهن مَن تؤدي رسالتها في المجتمع الآخر على أكمل وجه، ولكن لم أرَ شخصًا واحدًا من هؤلاء يهاجم الحجاب لذاته أبدًا؛ لأنه لو فعل ذلك كان متناقضًا مع نفسه، وكيف تنادي بالحرية في جانب وتحرم مجموعة من الحرية في الجانب الآخر، ولن يحدث ذلك.. » [٢]

هذا كلام د/ فؤاد (وقد تم الرد عليه بهذه الكلمات) تُرى أين هؤلاء العلمانيون (الطيبون) الذين يحترمون حق المرأة المسلمة في ارتداء الحجاب، ولا يثيرون حوله ضجيجًا ولا جلبة، ولا يطمعون في أكثر من عدم توجيه الهجوم الجارح على النمط الآخر من النساء؟! ترى هل أتاه نبأ إخوانه من العلمانيين، وهم يشنون الغارة على الحجاب، ويصفونه بأنه حجاب على العقل! وأنه ردة حضارية، وعودة بالأمة إلى عصور الانحطاط! ويسودون في ذلك الكتب والمقالات التي تغص بها الصحف القومية وغير القومية؟

ترى هل أتاه نبأ فصل المذيعات المحجبات، أو منعهن من الظهور أمام الشاشة الصغيرة، بقرار سيادي لا رجعة فيه، وأنباء مسلسل الإيذاء الذي تتعرض له (المنقبات)[٣] داخل ما سمي الحرم الجامعي، وغيره من مؤسسات الدولة ومرافقها العامة، تحت سمع وبصر دعاة الحرية والديمقراطية؟

إن صور الكاريكاتير التي نشرت في الهجوم على لباس المرأة المسلمة، تكاد تكون وحدها سفرًا ضخمًا بلغ عدد صفحاته بضعة آلاف!! »[٤].

كنت ولازلت أود ممن يتكلم عن أمور تتعلق بأحكام شرعية، أن يلتزم منهج علماء الإسلام، في فهم الأحكام، ودلالة النصوص، وأدلة الترجيح... لكن د/ زكريا لم يلتزم بشيء من ذلك، ولم يذكر نصًّا أو

---

(١) تتنقب: هذا تعبير خطأ، والصواب: تنتقب، ومنتقبة، وليس منقبة.

(٢) قد جُمِعَ بين كلام د/ فؤاد والرد عليه في مناظرة دارت بينه وبين أ.د/ محمد عمارة وطبعت بعنوان/ أزمة العقل العربي، أنظر صـ٥٠ وما بعدها مع الهامش، بتصرف، مرجع سابق.

(٣) الصواب: المنتقبات، وليس المنقبات.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

رأيًا معتبرًا يؤيد ما ذهب إليه، لا أدري هل يجهل، أم يتعمد؟ إن كانت الأولى فتلك مصيبة، وإن كانت الأخرى فالمصيبة أعظم.

خامسًا: موقف الشيخ الغزالي من الحجاب والنقاب:

يؤكد الشيخ رحمه الله أن الحجاب (الخمار) عامل مهم في إصلاح المجتمع، حيث إن التعري والتبرج فساد يجب على القادرين إصلاحه.. يقول: "الملابس لابد منها للإنسان رجلاً كان أو امرأة، فهي كسوة تحتاج إليها صحته، وهي غطاء يواري ما يستحي أن ينظر الآخرون إليه، ثم هي زينة تستحبها الفطرة دون حرج، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف:٢٦] فالريش ما يكسب صاحبه لونًا من الجمال، وكلا الجنسين يستريح، ولكن ما قيمة ثوب وسيم على خلق دميم؟ وما معنى أن يكون المرء قبيح الباطن جميل الظاهر؟ لذلك أوصى القرآن بلباس التقوى، ونبه إلى أنه أشرف وأزكى، وينصح النبي صلى الله عليه وسلم المسلم بهذه النصيحة الجديرة بالدراسة: (كُل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة) [1] أي: اجتنب الإسراف والخيلاء وكل ما تشاء، والبس مما أحل الله لك..

وقد فكرت في الملابس العسكرية فوجدتها ثابتة على اختلاف الليل والنهار، لا تكاد تتغاير إلا بالرتب المتفاوتة وما يصاحبها من شارات، أما الملابس المدنية فقلما تثبت على حال، خصوصًا ملابس النساء فإن أشكالها وألوانها لا تنتهي، قد تطول وقد تقصر، وقد تضيق وقد تتسع، وللفصول الأربعة أزياؤها متشابهة وغير متشابهة، وللسهرات ملابس ـ أو شبه ملابس ـ وهناك سباق مسعور بين محالّ الأزياء؛ لتقديم صيحات جديدة تستهوي النساء، وترضي غرائزهن، وعند التأمل نجد أن وراء هذا النشاط المحموم، الخصلتين الكريهتين: الإسراف والخيلاء..!!

من حق المرأة أن تكون جميلة المظهر[2] بعد أن تكون تامة العقل كريمة الشمائل، هل (الساري) الهندي الذي يكشف قدرًا من البطن والظهر يكفل هذا الجمال؟ هل الفستان الأوروبي الذي يكشف أدنى

---

(١) ذكره البخاري(تعليقًا) في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا، كتاب اللباس، باب قوله تعالى:(قل من حرم زينة الله..) وقوله صلى الله عليه وسلم: (كلوا واشربوا.. في غير إسراف ولا مخيلة) صـ ٨٣٧، مرجع سابق، ورواه الإمام أحمد في المسند والحاكم في المستدرك في كتاب الأطعمة وقال الحاكم: صحيح الإسناد. ورواه ابن حجر العسقلاني في تخريج مشكاة المصابيح، (٢١٧/ ٤)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: وصله ابن أبي شيبة، وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح للتبريزي برقم (٤٣٠٦) ط/ دار النشر المكتب الإسلامي، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢) أمام زوجها ومحارمها وبنات جنسها، أمَّا أمام الأجانب فالله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] .

الفخذين، وينحسر ـ عند الجلوس ـ عن أواسطها يكفل هذا الجمال؟ الحق يقال أن حائكي هذه الملابس لا يوفرون للمرأة كرامتها، ولا يرجون لها وقارًا وإنما يهيجون ضدها غرائز السوء...

إن تعرية المرأة حينًا، وحشرها في ملابس ضيقة حينًا آخر، عمل لم يشرف عليه علماء الأخلاق، وإنما قام به تجار الرقيق، ولكي نوفر تربية شريفة للجنسين، يجب أن نعترض هذا الموكب الساخر من الكاسيات العاريات.. وقد قلنا: إن من حق المرأة أن تتجمل، ولكن ليس من حقها أن تتبرج! ولا أن ترتدي ثوب سهرة تختال فيه، وتستلفت الأنظار بل إن الإسلام رفض ذلك من الرجال والنساء جميعًا، قال رسول الله ﷺ: (لا ينظر الله يوم القيامة إلى مَن جرّ ثوبه خيلاء) [(١)] وإنها لطفولة عقلية سخيفة أن يرى امرؤ ما مكانته في حذاء لامع، أو رداء مطرّز بالحرير أو الذهب! » [(٢)].

أما عن نقاب المرأة فيرى الشيخ رحمه الله أن النقاب ليس فرضًا تعاقب المرأة على تركه، وإنما هو من قبيل العادات التي سكت الشرع عنها، يقول: «لقيني رجل فوق الأربعين، يتحدث وكأنه يافع غِرٌّ! قال لي بصوت مهتاج: أنت الذي تفتي بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة؟ قلت بهدوء: نعم! قال: أما تتقي الله؟ قلت: أوصيك ونفسي بتقوى الله .. قال: إنك مخطئ فيما تذكره للناس، ويجب أن تتوب! قلت له: لست وحدي الملوم، فإن كبار المفسرين سبقوني إلى هذا الخطأ، كما سبقني إليه رواة عشرة من الأحاديث الصحاح، وشاركني في خطئي أيضًا أئمة المذاهب الفقهية الأخرى ،أولئك جميعًا هم الذين استقيت منهم قولي، أو تابعتهم في غلطهم، ولا أشعر بغضاضة إذا كنا جميعًا أصحاب تهمة واحدة.. قال الرجل وهو دهش: ماذا تقول: أهؤلاء جميعًا يفتون بأن وجه المرأة وصوتها ليسا بعورة؟ قلت: نعم! ولكنكم تؤثرون التقاليد السائدة وتتشبثون بآراء مرجوحة.. ولنفرض جدلاً أن في المسألة قولين اخترت أنا أحدهما فلم الغضب، ولم التحامل والشتم؟ هل سمعت حديث سلمان وأبي الدرداء؟ قال: لا! قلت له اسمع: روى البخاري عن أبي جحيفة قال: (آخى النبي ﷺ بين سلمان الفارسي، وأبي الدرداء.. فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة ـ عليها ثياب لا جمال فيها ـ فقال لها: ما شأنك؟ لماذا هذا المنظر؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في النساء! وجاء أبو الدرداء وصنع طعامًا، وقال لسلمان كُل فإني صائم، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل! فأكل ـ أفطر لأداء حق الضيف ـ فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له نم فنام! ثم ذهب يقوم، فقال له نم فنام، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن فصليا جميعًا، وقال سلمان إن

---

(١) رواه البخارى في صحيحه من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كتاب اللباس، باب قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ﴾ وقوله ﷺ: (كلوا واشربوا.. في غير إسراف ولا مخيلة) برقم (٥٧٨٣)، صـ ٨٣٧ مرجع سابق.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ١٩٢ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

لربك عليك حقًّا وإن لنفسك عليك حقًّا وإن لأهلك ـ زوجك ـ عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى ـ أبو الدرداء ـ النبي ﷺ فذكر له ذلك، فقال ﷺ: صدق سلمان) (١).

والذي يعنيني من سرد الحديث الحوار الذي جاء في صدره، فلو أن هذا الحوار وقع في عصرنا لضُرِبَ الزائر، وقُتِلَتْ المرأة!! ولقيل للرجل: ماذا يعنيك من النظر إلى ملابس الزوجة؟ ولماذا تتطفل بهذه الملاحظة، ولقيل للزوجة: كيف تشكين زوجك، وتكشفين للآخرين انصرافه عنك؟ لكن سلامة الفطرة في عصر الصحابة تنفي كل شبهة، ولا تدع لظنون السوء مكانًا، فلما التاثت النفوس وجدنا الطباع المريضة تصف كشف الوجه بأنه الفجور وأنه حرام؛ لأنه في مشاعرهم (المعتلة) باب إلى الكبائر، والعياذ بالله» (٢).

والملاحظ من كلام الشيخ الغزالي، وكتبه أنه يرى أن النقاب ليس فرضًا ولا واجبًا، لكن هناك علماء آخرون يرون أن النقاب فرض، أو واجب، ولا يجوز للمرأة أن تكشف سوى العين اليسرى، وأن هذا ليس بدافع المشاعر (المعتلة) كما يقول الشيخ رحمه الله. (٣)

ولذا أحب أن أبين نقاط الاتفاق بين العلماء في موضوع النقاب:

١ـ أن النقاب كان موجودًا قبل رسول الله ﷺ فهو عادة عربية قبل مجيء الشريعة الإسلامية.

٢ـ أنه لم يرد نصٌّ قاطعٌ صريحٌ يأمر بالالتزام بالنقاب، أو يعاقب على تركه.

٣- أن زوجات رسول الله ﷺ خصهن الله بمزيد من الحجاب، فالتزمن النقاب.

٤ـ أن النبي ﷺ نهى عنه في الحج والمرأة مُحْرِمة.

وما أميل إليه أن النقاب عادة، والعادة إذا نوى المرء بها وجه الله وكانت عادة حسنة، صارت عبادة، وذلك كالأكل والشرب والثياب.. والمرأة التي تنوي بالنقاب أن تتشبه بزوجات رسول الله ﷺ فهي في عبادة وطاعة، لايجوزأن نوجه إليها سهام النقد كالمتبرجة، وأقل ما يقال أن الأولى قصدت الحق فأصابته، وبالغت فيه، والثانية قصدت الباطل فأصابته، أو جهلت الحق فابتعدت عنه، وليس من أصاب الحق وزاد، كمن قصد الباطل وزاد.

وبعد الحديث عن المرأة وحجابها... يأتي الحديث عن حقوقها السياسية..

وهذا ما سأذكره إن شاء الله في الصفحات التالية.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه من حديث عون بن أبي جحيفة عن أبيه رضي الله عنه كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليُفطر في التطوع.. برقم(١٩٦٨) صـ٢٧٥، مرجع سابق.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ١٦٢ وما بعدها، مرجع سابق.

(٣) انظر موسوعة الأحكام والفتاوى الشرعية، لفضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن باز، والشيخ/ محمد بن العثيمين، وآخرين من أعضاء اللجنة الدائمة للإفتاء، صـــ١٤٣٠، ١٤٣٨، ١٤٤٣، ١٤٥٣، ١٤٥٥، ط/ دار الغد الجديد، ط ١، سنة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

المبحث السادس: الاستحقاق السياسي للمرأة وتوليها المناصب:

هذا المصطلح (الاستحقاق السياسي للمرأة) صار كدينٍ معلومٍ لأهل السياسة بالضرورة، ولا يوجد ناشط سياسي إلا ويناور بهذه المسألة، ويلعب على هذا الوتر الحساس، لا لأجل المرأة، ولا ما يسمونه المكاسب التي حصلت عليها وإنما الهدف الحقيقي هو كسب أصوات النساء، وخطب وُدِّهِنّ، وهن شريحةٌ كبيرةٌ في المجتمع ولها وزنها وتأثيرها على الصعيدين المحلي والعالمي ومن ثم كانت هذه المسألة، ولازالت مثار جدل بين التيارات المتباينة، بل ومحل نزاع وخصومة وعداء.

ولأهمية هذا الأمر أحب أن أوضح بعض المعاني المتعلقة به:

أولاً: معنى كلمة (الاستحقاق):

يأتي الاستحقاق بمعنى طلب الحق المشروع، فهو من (ح ق ق) لشيء أي: استوجبه واستأهله، فهو واجب له يسعى للحصول عليه .. وهو أهل له باكتمال شروط الأهلية واللياقة[1].

ثانيًا: معنى كلمة (السياسي):

يقال ساس البعير والخيل، أي: قام بأمره وترويضه على الطاعة والعمل والتعاون والقيام بالمهام[2] فهو السايس مدرب الخيول.. ويقال لمن ينظم السيارات في أماكن وقوفها سايس، والسياسة فن الممكن، والمستطاع من الأقوال، والأفعال المشروعة، والهادفة؛ لإقامة الدين والدنيا، ومنها قوله ﷺ:(كانت بنوا إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي) [3] والسياسيون هم مَن يشتغل أو ينشغل بالسياسة سواء أكان مستقلاً أو عن طريق الانضمام إلى الأحزاب.

وأعتقد أن السياسة الرشيدة هي القادرة على إدارة المجتمع بما فيه من تناقضات واختلافات انطلاقًا من الثوابت الدينية والقيم الإنسانية والمصالح الدنيوية.

ثالثًا: المقصود بـ (المرأة) هنا:

هي كل أنثى بلغت السن القانونية (١٨) سنة، واستخرجت تحقيق الشخصية فهي وفقًا للدستور والقانون أهلاً للممارسات السياسية المشروعة، كالإدلاء بالصوت وإبداء الرأي، أو التعبير عن الذات

---

(١) انظر كتاب رائد الطلاب في اللغة، صـ٦١، لجبران مسعود جبران، ط/ دار العلم للملايين، ط/ ٣، سنة ١٩٩٧م .

(٢) المرجع السابق، صـ٤٣٣ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم(٣٤٥٥)، صـ٤٩٦، مرجع سابق.

أوالفكر، والترشح لشغل المناصب في الدولة.

رابعًا: المقصود بكلمة (المناصب):

هي الوظائف والأعمال السيادية والإدارية والسياسية، كالرئيس، والوزير، والمحافظ، وعضو مجلس الشعب، وأعضاء الهيئات، والمحليات وغيرها.

والدكتور/ فؤاد زكريا لا يفرق بين الذكورة والأنوثة في هذه الوظائف السابقة، العبرة ـ عنده والمهم ـ الثقافة والعلم [(١)].

أما الشيخ الغزالي رحمه الله فهو يفرق بين الإمامة العظمى، وبين المناصب الأخرى فيرى أن المرأة مثل الرجل في اختيار الأمراء، فلقد بايعتْ الرسول ﷺ وخلفاءه، كما بايع الرجل، ولذلك يحق لها أن تدلى برأيها، وتترشح لتولي المناصب الإدارية والوزارية، حاشا المناصب الصعبة التي تحتاج إلى عضلات، وسفر، وسهر الرجال، يقول: «لقد شاركت المرأة في بيعة العقبة الكبرى، وشاركت في بيعة الرضوان تحت الشجرة! ومن المؤكد أنها كانت ستُمنع من مثل هذه المبايعات في تاريخ المسلمين الأخير، وسيقال لها: امكثي في بيتك!... » [(٢)]

ويقول أيضًا: « قال لي أحد المستمعين غاضبًا: أيسرُّك أن تكون (بنازير بوتو) رئيسة وزراء؟ فقلت ضاحكًا: سألني مسلم انكليزي: هل يحاربون (مستر تاتشر)؛ لأنها امراة تولت الحكم؟ فقلت له: بماذا تجيب هذه المرأة! إذا قالت لك ـ وهي واسعة الثقافة ـ إنني توليت الحكم على مذهب أهل الظاهر في الفقه الإسلامي! » [(٣)].

هذا فيما يتعلق بالمناصب الإدارية، والتي تناسب طبيعة المرأة، أما منصب رئاسة الدولة فلا .. يقول الشيخ: «لكن الإسلام لا يرى في المرأة الكفاية لتولي رياسة الدولة وتوجيه دفة الحكم، ويأبى على المسلمين اختيارها لهذا المنصب.وصح أن الرسول ﷺ لما بلغه أن الفُرس ولَّوا بنت كسرى ملكة عليهم، قال: (ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) [(٤)] وجمهور الفقهاء على أن الرجال أولى بالمناصب السياسية، والإدارية من النساء، وعلى ذلك جرت سنة الخلافة الراشدة، كما جرت سنة الرسول ﷺ من قبل، فلم يسند منصب رياسي للمرأة.

---

(١) وقد سبق أن أشرت إلى هذه المسألة، انظر المبحث الثاني من هذا الفصل: دعاوى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ٦٦ ، مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق، صـ١٦.

(٤) سبق تخريجه في المبحث الثاني (دعاوى تحرير المرأة) من هذا الفصل.

إن القدرة الوظيفية لأعمال المرأة وأفكارها تحتاج إلى شرح علمي وثيق حتى لا نكلفها فوق طاقتها، فنظلم الأعمال التي توكل إليها، ونضيع الأعباء المنوطة بها.

والحق إن الإسلام لما قرر إعفاء المرأة في أثناء الحيض والنفاس من الصلوات المكتوبة، كان متمشيًا مع منطق الطبيعة في ضرورة الرفق بها.

ولما قرر الاستيثاق من شهادتها بضميمة أخرى إليها كان كذلك متمشيًا مع ما أكده الطب من تغيرات عامة وهامة ..تصيبها باستمرار، وأن هذا التخفيف في تكاليفها الشرعية والعقلية يجعلنا لا نسوي بينها وبين الرجل في مشقات الحياة ومشاغلها.

إن البحث في الفروق المادية والمعنوية بين الرجال والنساء لا يزال موضع اهتمام العلماء في بلاد كثيرة، ومع استفحال الشيوعية والنظريات الإباحية، يحاول كثير من الناس الزعم بأن هذه الفروق معدومة، أو تافهة.

ونحن نؤكد قيام هذه الفروق، ونرى أنها بالنسبة إلى الحقيقة الإنسانية بين الجنسين تافهة حقًّا، ولكنها بالنسبة إلى توزيع الوظائف والأعباء عليها جميعًا لا يمكن تجاهلها أبدًا » [1] لأن هناك وظائف ترفضها المرأة ولا تقبلها، مهما كانت درجة ثقافتها، وقوة جسمها، ورجاحة عقلها، مثل أن تكون منفِّذة لأحكام الإعدام، وإقامة حدود القصاص، ببتر الأعضاء.. ومثل أن تكون سجَّانة على حراسة المجرمين من الرجال في السجون..

أذكر أنني كنت ألقي محاضرة في رئاسة الحي الذي أقطنه، وكانت عن حقوق المرأة، وكان بالقاعة مجموعة من النساء النشيطات سياسيًّا، واللاتي أبدين اعتراضهن، وقلن إنهن كالرجال يقبلن جميع الأعمال.. فرفعت بيدي صحيفة تعلن عن فرص عمل في دولة عربية برواتب مجزية، فرأيت عددًا من الرجال والنساء (على حد سواء) يسأل عن تفاصيل هذا الإعلان.. ولما علموا أنها أعمال ليلية تحتاج إلى سفر وسهر.. سكت النساء تمامًا.. فقلت مَن منكن تذهب للقيام بهذه الأعمال؟ فلم تجبني امرأة واحدة، في حين أن عشرات الحضور من الرجال أبدوا موافقتهم، على عجل، وقبولهم لهذا العمل .

ولقد رأيت من الأزواج من يضيق ذرعًا بزوجه، ويشكو عنفها وسلوكها معه لأنها تعلمت بعضًا ألعاب القوى الرياضة والبدنية .. ويصل الأمر أحيانًا إلى الطلاق.

ولعل في قصة نبي الله موسى عليه السلام وابنتي شعيب عليه السلام وسؤاله لهما، وتعاونه معهما .. أكبر دليل على أن

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١٠٨ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

للمرأة حدودًا تنتهي، حيث يبدأ عمل الرجل، ومجاله الذي لا يجول فيه سواه.

إن مَن يسوي بين المرأة والرجل في الإستحقاق السياسى على أساس الندية التامة، يقع في حيرة وارتباك، ومن مظاهر هذه الحيرة أن المرأة لم يثبت ـ عبر تاريخها الطويل ـ أنها مثل الرجل في الكفاءة والأداء في جميع المجالات ومنها السياسة والإدارة والقضاء.

ومن يذكرهن الشيخ محمد الغزالي من النساء (كتاتشر وبنازير بوتو) وغيرهما إنما هو من الشاذ والنادر الذي يؤكد القاعدة، ولا يلغيها، فهو مما يعرف ويحفظ ولا يقاس عليه.

لقد تعالت الأصوات بتحرير المرأة[١] ومساواتها بالرجل، لدرجة وصلت إلى منع التعدد (الزواج بأكثر من زوجة) أو وضع قانون معادل للمرأة، مع أن الفطرة مع معظم المخلوقات تجعل للذكر عدة إناث وليس العكس.

ولتوضيح هذه المسألة ننتقل إلى المبحث السابع، وهو الأخير في هذا الفصل.

---

(١) انظر كتاب/ تحرير المرأة في عصر الرسالة، للسيد/ محمد عبد الحميد أبو شقة.

المبحث السابع: تعدد الزوجات، وقضايا الطلاق، والخلع:

أولاً: تعدد الزوجات:

قال ﷻ: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء:٣] وفي قوله تعالى: انكحوا.. فعل أمر، والأمر إن لم يكن للاستحباب فهو للإباحة.

وفي قوله ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾[المؤمنون:٥، ٦] دلالة على مشروعية التعدد إذ خاطب الله الرجال باعتبار أن لهم أزواجًا (زوجات) وليس (زوجة) واحدة.

واختار النبي ﷺ التعدد، فهو سنة عنه، كما اختاره الخلفاء الراشدون، وكثير من الصحابة والتابعين، وكان التعدد موجودًا في الجاهلية ومشروعًا في اليهودية وأخذ به كثيرٌ من الأنبياء كسيدنا إبراهيم وسيدنا يعقوب وابنه يوسف وسيدنا داوود وسليمان عليهم السلام.

قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾[الرعد: ٣٨]، ولقد أمر ﷺ غيلان بن سلمة الثقفي الذي أسلم وعنده عشر نسوة قائلًا:(امسك منهن أربعًا وفارق سائرهن) [١].

وعلماء الإسلام أجمعوا على مشروعية التعدد بشروط وضوابط سأذكرها لاحقًا إن شاء الله تعالى

حكم التعدد:

الراجح أن التعدد يختلف حكمه من شخص إلى شخص، فقد يكون واجبًا في حق شخص ومحرمًا في حق آخر.. فقد يكون مباحًا وقد يكون مكروهًا وقد يكون مستحبًا فهو يدور مع الأحكام الخمس[٢] مثله مثل الزواج أول مرة، فليس له حكم ثابت يعم جميع الحالات.

وقبل ذكر كلام د/ فؤاد والشيخ / الغزالي في هذه المسألة، أبدأ بذكر شبهة يرددها أعداء التعدد وهي أن الله ﷻ خلق لآدم عليه السلام زوجة واحدة.

الرد على هذه الشبهة:

صحيح أن الله ﷻ خلق لآدم عليه السلام زوجة واحدة، وليس في ذلك دليل على حرمة التعدد ولا على كراهته، إذ لو كان كذلك لما شرعه الله ﷻ واختاره كثير من الأنبياء عليهم السلام ومن اكتفى بزوجة واحدة فله

---

(١) رواه الترمذي في سننه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما كتاب النكاح عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر نسوة، والحديث صحيح برقم(١١٢٨) صـ٣٠٣، مرجع سابق.

(٢) هذا ما فهمته من كتاب بيان للناس من الأزهر الشريف، جـ٢، صـ٢٢٧ وما بعدها، ط/ الأوقاف، سنة ١٩٩٤م، ولفوائد التعدد انظر كتاب الفتاوى للشيخ عطية صقر، جـ/ ٢، صـ١٨٨ وما بعدها، ط/ المكتبة التوفيقية بدون تاريخ.

ذلك، حيث إن الواقع يؤكد أن الاكتفاء بزوجة واحدة هو اختيار السواد الأعظم من الناس، ونسب التعدد في المجتمعات التي تبيحه قليلة.

ولم أقرأ ولم أسمع أن أحدًا من هذه القلة القليلة التي اختارت التعدد أنكرت على الكثرة الكثيرة التي اكتفت بواحدة، ولو حدث لكان باطلاً وفي غير محله، في حين أن الإنكار يكون دائمًا من بعض مَن اكتفوا بواحدة، فهم ينكرون بشدة على التعدد، وأهله، بدعوى أن الله ﷻ قد خلق لآدم عليه السلام زوجة واحدة وليس زوجتان.. وهذا صحيح، ولكن لم يمنع ذرية آدم من التعدد، بل شرعه لهم، على مدار تاريخهم الطويل، ودعا إليه في كتبه، وعلى ألسنة رسله، ورغب فيه، وأثاب عليه، ورتب عليه مصالح ومنافع خاصة وعامة، عاجلة وآجلة، في الدنيا والآخرة.

ولقد سبقت الإشارة أن د/ فؤاد زكريا لا تهمه مسألة الزواج ـ أصلاً ـ وهو لا يُنكر على الفلاسفة الذين حرّموا على أنفسهم الزواج بواحدة [(١)] وهو يرى أن ثمة اتهامًا متبادلاً بين الغرب والمسلمين في مسألة (الجنس).. يقول: «..ويزداد العجب إذا تأملنا الموضوع، من أكثر زواياه حدة، وأعني بها نظرة الجانبين إلى الجنس، فعلى حين يشيع في الغرب النظر إلى المجتمع الإسلامي على أنه يبدي اهتمامًا زائدًا بالجنس، نجد أن المفكرين الأخلاقيين الإسلاميين لا يملون من التنديد بالانحلال الجنسي الغربي، والتحذير من أخطاره، والتفاخر بالعفة التي لا تزال سائدة في العالم الإسلامي، والدعوة إلى التحكم في الشهوات، والتمسك بالقيم المحافظة...» [(٢)].

وهذا صحيح فالإسلام جعل للمسلم من الأزواج (الزوجات) الحلائل ما يستغنى به عن الخلائل، ويكفي أن أنقل رد الشيخ/ الغزالي على مَن يتخذ الغرب قدوة له في هذه المسألة، سواء أكانوا من الفلاسفة القدامى أم المعاصرين مبيناً مشروعية التعدد..

يقول: «أكانت هناك ديانة أرضية أم سماوية تنهى عن تعدد الزوجات؟ أو ترى فيه أدنى شائبة؟ لا ، بل إن أنبياء العهد القديم ألفوا التعدد دون حدود! والمذكور (الوارد) عن سيدنا سليمان عليه السلام وحده أنه تزوج بثلاثمائة امرأة. وليس في النصرانية نهيٌ عن التعدد، وقد حكى صاحب كتاب قصة الحضارة[(٣)] عن آثام الأحبار والرهبان ما يثير الاشمئزاز! فلنترك الدين إلى الفلسفة! ولننظر إلى فلاسفة الإغريق لنرى كيف

---

(١) انظر المبحث الرابع، بعنوان/ العلاقة بين عمل المرأة والترابط الأسري، في الفصل الرابع، من الباب الأول.

(٢) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، صـ١٦٩، مرجع سابق.

(٣) ويليام جيمس ديورانت بالإنجليزية(**William James Durant**): من ١٨٨٥ إلى ١٩٨١ فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب قصة الحضارة والذي شاركته زوجته أريل ديورانت في تأليفه، انظر موقع: ويكيبيديا الموسوعة الحرة **ar.wikipedia.org. wiki /**

يعيش قادة الفكر القديم..!وقد كنت راغبًا عن ذكر هذه الدنايا، ولكني رأيت الطاعنين في محمد ﷺ يجمعون قلة الحياء، وكثرة الافتراء، فقلت: ما بُدٌّ من حمل العصا...

ويذكر الشيخ/ الغزالي رحمه الله ما كتب (ماجد نصر الدين) في صحيفة اللواء الأردنية مقالاً، عنوانه (لماذا ينهل المثقفون من تراث موبوء بالشذوذ؟) نقتطف ـ والكلام للشيخ الغزالي ـ منه هذه الجملة: (إن الفلاسفة الذين يعتبرهم البعض مثله الأعلى هم لواطيّون، شاذون جنسيًّا، يفخرون بشذوذهم، ويتباهون بمضاجعة الغلمان!! وقد كرهت امرأة سقراط رجلها، وعافت عشرته؛ لتعلقه بأحد تلاميذه، وقس على ذلك أفلاطون، الذي تعرّف على سقراط، وهو صغير، وسقراط مشهور بهذا الداء، ومتهم بإفساد الشباب، ويزعم أرسطو أن نسبة الشواذ في عصره تعادل نسبة الطبيعيين(٥٠٪) وقد جرت على لسانه عبارات لا نجرؤ على نقلها هنا، وتقول مؤلفة (الجنس في التاريخ: إن معظم المجتمعات حرمت اللواط، أو تجاهلته إلا اليونان، فإن البغاء المذكر كان شائعًا، ويمكن استئجار الغلمان!).

والحضارة الغربية الحديثة ورثت عن اليونان والرومان مباذل وضيعة مخزية، ومع ذلك فهي تتغافل بخبث عن عللها، وتتناسى الدنس الذي تصبح فيه وتمسي، وتبسط لسانها بالأذى، في سيرة أمير الأنبياء، ومُعلّم الأمم الطهر والعفاف!! وهل تنتظر من بيئة (الإيدز) إلا هذا التدني؟!» [(١)].

لا وجه للمقارنة بين بيئة تجيز الزواج الحلال مع القدرة عليه وتحمل مسئولياته، وبين بيئة تُحرم الحَلِيلَة وتُجيز الخَلِيلَة. قال تعالى : ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾[المائدة: ٥] وقال: ﴿ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء:٢٥].

«إن الإسلام لم (يأمر) بتعدد الزوجات[(٢)] فإن الزواج ليس نُشْدَانًا للذة فقط، وإنما هو قدرة على التربية، ورعاية الأسرة، فمن عجز عن ذلك كلفه الإسلام بالصوم،ونحن نوجه للأوربيين سؤالاً لا مهرب منه: هل التعدد الذي أذن الإسلام به أفضل أم الزنا؟

إنني أسائل كل منصف صادق، هل المجتمعات الأوروبية تكتفي بالواحدة، أم أن التعدد قانون غير مكتوب يخضع له الكثيرون؟وثم سؤال آخر:هل الضرورات هي التي تدفع إلى التعدد الحرام أم أن الإثارات المتعمدة في الاختلاط المطلق، وفي تقاليد الرقص التي لا آخر لها من وراء هذا الفيضان من

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والرافدة، صـ٧٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء:٣] ظاهر الآيه الأمر.. والأمر يدور بين الوجوب والاستحباب، والإباحة وفق كل حالة بعينها لاختلاف المقتضى وحيثيات الطلب، ولعل الشيخ يقصد أن الإسلام لم يأمر بمعنى (يوجب) فهو لم ينشئ التعدد، ولم يفرضه على الناس جميعًا.

العلاقات الآثمة؟؟»[(١)].

أعتقد أن كلام الشيخ/ الغزالي السابق يكفي للرد على من يشيد بالغرب والفلاسفة القدامى كالدكتور/ فؤاد زكريا الذي لم أره يوجه أي نقد للغرب ولا للفلاسفة في هذه المسألة.. بل أراه دائمًا يغض الطرف عن العلاقات الآثمة بين الرجال والنساء، وفي أحسن أحواله، إن كان ولابد وأن يوجه نقدًا يوجهه إلى الغرب والمسلمين معًا وبالتساوى.

تأمل قوله السابق: فعلى حين يشيع في الغرب النظر إلى المجتمع الإسلامي على أنه يبدي اهتمامًا زائدًا بالجنس، نجد أن المفكرين الأخلاقيين الإسلاميين لا يملون من التنديد بالانحلال الجنسي الغربي.

ولا أدري إلى أي مرجعية يرجع الدكتور/ فؤاد؟ وبأي شريعة يحكم؟ هل يحكم بالإسلام الذي يدين به، أم بشريعة الأنبياء السابقين الذين رغبوا في الزواج واختاروا التعدد أم يحكم بالإباحية التي كان عليها فلاسفة اليونان والغرب الآن؟

يقول الشيخ/ الغزالي: "لقد أباحت التوراة لليهودي الزواج بأكثر من واحدة، ولم تحدد له عددًا ما، إلا أن (التلمود) حدد العدد بأربع، على شرط أن يكون الزوج قادرًا على إعالتهن، إذ يقول: (إنه لا يجوز أن يزيد الرجل على أربع زوجات، كما فعل يعقوب، إلا إذا كان قد أقسم بذلك عند زواجه الأول، وإن كان قد اشترط لمثل هذا العدد القدرة على الإنفاق) هذا هو العدد الموجود في العهد القديم، فإذا جاءت النصرانية ونظرنا في الإنجيل، لا نجد نصًّا تقريبًا يمنع التعدد، ويكاد يكون التعدد في المسيحية أمرًا كنسيًّا يشبه تقييد الملكية التي فرضها الاشتراكيون عندنا، فالتقييد كما رأيته غير موجود في الديانات ... والذي قَيَّد بشروط مادية وأدبية هو الإسلام، ولكن قبل أن أتحدث عن الدين أرجع إلى منهجي، أنا لا أفرق بين الدين والعقل، أنا لا أشعر بأن هناك حكمًا عقليًّا يتفاوت مع حكم ديني (يستحيل)[(٢)] ولذلك أنا أنظر إلى هذا الأمر من الناحية العقلية البحتة وأريد أن أتصور الموضوع، أقول: إن البشرية بين أمرين: إما أن يكون عدد النساء أكبر من الرجال، أو يكون مساويًا، أو يكون العكس عدد الرجال أكثر من عدد النساء.

التعدد ينتفي بطبيعته في مجتمع تكون فيه النساء مساويات للرجال، أو يكون النساء أقل عددًا من الرجال؛ لأنه سيكون هناك أزمة في النساء إنما التعدد يظهر مع وجود فائض نسائي، كما يقال: فعندي

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ٨٠، مرجع سابق.

(٢) لا.. ليس مستحيلًا فكم من عقلاء بلغوا بعقولهم عنان السماء، ومع ذلك كفروا بالدين أو اختلفوا معه، فالدين منه ما يعرف بالعقل ومنه ما لا يعرف إلا بالوحي ولو اجتمعت العقول لا يمكن أن تصل إلى الدين كاملًا، وهذه المسألة بينتها بالتفصيل في الباب الأول، الفصل الأول، المبحث الثالث (عقل الإنسان ومجالات الإصلاح)، وفي المبحث الرابع بينت بعضًا من التفاوت بين ما صاغه العقل من قوانين وما جاء به الشرع من أحكام.

عشرة إذا كان ستة رجال وأربع نساء، فهناك أزمة نساء، وإذا كان خمسة وخمسة فالتعدد لا يظهر؛ لأن كل واحد سيكتفي بواحدة، إنما لو كان ستة أو سبعة نساء مع ثلاث رجال، هنا يكون التعدد، وأسأل نفسي أي الحلول أفضل في هذه الحال؟ أن تفرض رهبانية على العدد الزائد، هذا حل من الحلول، أم نبيح البغاء؟ حل من الحلول!! أم نشرك امرأة مع أخرى في رجل، وأنا أريد أن أسأل النساء، أي: الحلول أشرف لهن؟!» (١).

الجواب:التعدد الذي أجازه الإسلام بقيود وشروط، ومنها القدرة على مسئوليات الزواج، وفتح بيت جديد، وتربية الأولاد والنفقة عليهم لم يجعله فرضًا عامًا على كل رجل، فهو لا من فروض العين ولا فروض الكفاية، وإنما هو يختلف باختلاف الظروف والأحوال والأهداف والغايات.. فحكمه قد يكون فرضًا، وقد يكون غير ذلك.. وهذا يدل على مرونة الإسلام ومراعاته في الأحكام للصالح العام، إذ قد يكون فى هذا الزواج الثاني مصلحة للمرأة قبل الرجل، وقد يكون الرجل بزواجه من المرأة قد حلّ لها أعقد مشاكلها، وحقق لها أعظم أمانيها .. كما يحلو للبعض أن يقول: التعدد مشكلة نسائية بالدرجة الأولى، والنساء هن مَن يصنعنها بامتياز، والرجال هم من يتصدون لحلها! أليست المرأة هي التي ترضى أن تكون زوجة ثانية وثالثة ورابعة، وهي تعلم أن للرجل زوجة وأولادًا (٢) ومع ذلك تقبل بهذا الزواج على ما فيه من علل؛ لأنها تعلم أن لها في هذا الزواج مصالح لا يمكن الحصول عليها إلا به، كإنجاب الأولاد مثلًا.

المرأة لا يمكن لها أن تنجب أولاداً إلا بالنكاح الصحيح أو السفاح القبيح، لذا كانت حكمة الله ﷻ أن يكون التعدد تشريعاً قديماً لم ينشئه الإسلام.

والشيخ الغزالي يرد على من يزعم أن الإسلام هو من جاء بالتعدد يقول: «في قضية تعدد الزوجات أريد أن أسأل أولاً: هل الإسلام مبتدع التعدد، مخالفًا بذلك الأديان التي سبقته؟ إن الأديان كلها، وثنية أو سماوية أباحت التعدد، فلماذا يسأل الإسلام عنه ويؤاخذ به؟ ليس في العهد القديم حظر على تعدد الزوجات، وقد جمع سليمان الحكيم ألف امرأة في بيته بين حرائر وإماء !..وليس في الأناجيل التي كتبها تلامذة عيسى عليه السلام حظر التعدد!

إن التحريم الذي وقع بعد ذلك كان تشريعًا مدنيًا لا دينيًّا، أو كان كنسيًا يعتمد على الاجتهاد...

ولا يعني ذلك أني أدافع عن تصرفات سيئة ارتكبها المسلمون باسم التعدد؟ كلا لقد عدد من لا يعدل، وهذا مرفوض! بل عدد من لا يستطيع الإنفاق على واحدة! وهذا مرفوض!

---

(١) حوارات الشيخ الغزالي السيرة والمسيرة، صـ٢١٣ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) بحكم عملي في مجال الدعوة، ولجان الفتوى، رأيت مَن تقبل الزواج برجل، ولو كانت الزوجة الرابعة، وبدون شروط، ولعل ما يسمى بزواج المسيار دليل على أن المشكلة نسائية خالصة، والتعدد يعمل على حلها، والإسلام يشترط أن يكون حلاً عادلاً ونافعًا.

إن التعدد جائز بشروطه المادية والأدبية، فإذا لم تتوفر الشروط فلا تعدد..

وحل المشكلات الاجتماعية من هذا النوع يرجع إلى يقظة القلوب وسلامة الأخلاق قبل أن يرجع إلى سطوة القانون، ومكاسب النساء من التعدد ـ والحالة هذه ـ ليست أقل من مكاسب الرجال!»[(١)].

ثانيًا: قضايا الطلاق:

الطلاق شريعة قديمة، كانت ولا زالت عند جميع الأمم، باستثناء النصارى ومن تأثر بهم، والنبي محمد ﷺ لم يكن بدعًا من الرسل، والمعلوم أن الله ﷻ ما شرع شيئًا إلا وفيه حكمة ومصالح عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها.

كيف يكون الحل إذا أخطأ أحد الزوجين في الاختيار، وعلم أنه لا يستطيع الحياة مع صاحبه؟ كيف ينهي هذا العقد ويفك هذا الارتباط؟ بالقتل والتصفية الجسدية؟ أم بتلفيق تهمة توجب السجن مدى الحياة؟ أم بترك المنزل والهروب من المسئولية؟ أم تعيش المرأة معلقة، أم ماذا؟

إن الطلاق حق مشروع للرجل، لقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٢٠] لكن هناك من يسيء استخدام هذا الحق، كالذي بيده سلاح للدفاع عن النفس، يسيء استخدامه بإشهاره في وجه كل مَن يختلف معه، تُرى هل يلام قانون تراخيص السلاح، أم يلام المسيء لاستخدام القانون؟ إن بعض الرجال أساءوا استخدام هذا الحق، فأضروا المرأة والأولاد والمجتمع، بل وأضروا أنفسهم، والدعوة إلى دينهم.

يقول الشيخ/ الغزالي: «..إن الحياة الزوجية أشرف من أن تعصف بها أزمة عابرة أو غيمة عارضة، وما بين الزوجين من وشائج لا يرخصه إلا لئيم.. بيد أن سياج الأسرة لا يقيمه إلا الخلق الزكي، والأسر التي يمسكها القانون هي أسر على الورق وحسب، وقد سئم الأوربيون هذا الخداع، واضطروا إلى الاعتراف بالواقع المرير، فأباحوا الطلاق في انتخابات عامة هزمت وصايا الكنيسة في الموضوع»[(٢)].

ويؤكد الشيخ/ الغزالي على مشروعية الطلاق إذا استحالت الحياة بين الزوجين.. يقول:« ..وإذا دب الشقاق إلى البيت، وتعذر جمع شمله، وتنافر ود أهله، فلا محيص من الفرقة بين الزوجين.

والفرقة أمر بغيض، وقد يتعدى شرها الزوجين إلى غيرهما، ولذلك لا يصار إليها إلا بعد اليأس من المصالحة، واستئناف حياة أهدأ وأطيب، والمفروض من التئام شمل الأسرة إقامة حدود الله، فيعف أحدهما

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، صـ٤٤٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) مائة سؤال عن الإسلام، صـ٤٤٦، مرجع سابق.

الآخر، ويعينه على السكينة النفسية، ويمكنه من أداء واجباته الاجتماعية والتفرغ لإتقانها...فإذا استحال ذلك فلكلا الزوجين أن يترك الآخر...

ونبدأ بحق الزوجة في الانفصال، لو جاز الكلام فيه.

إذا أبغضت المرأة زوجها فإن إمساكها بالعصا لا معنى له، وليس المقصود من البيت أن تتحول جدرانه إلى سجن تحبس المرأة فيه بقوة رجال الشرطة، قال ﷻ: ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ [الطلاق:٢]... »[1].

ومن رحمة الله بالأسرة (كلها) لا تُحَرَّم المرأة على زوجها من الطلقة الأولى ولا الثانية، وكأن الشرع يلتمس العذر في الطلاق، فيعتبر الطلقة الأولى (رجعية) مع كونها صريحة ومباشرة إلا أنها قد تكون بسبب جهل الرجل، أو المرأة ـ أو هما معًا ـ بأحكام الطلاق.. و كذلك الثانية لأنها قد تكون بسبب استفزاز المرأة للرجل، بطريقة جعلته يتلفظ بالطلاق الصريح دون رَوِيَّة قال ﷻ :﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ [البقرة:٢٢٩] ومع هاتين الطلقتين (عدة) توجب على المرأة البقاء في بيت زوجها، وعدم الخروج منه، وإن بانت منه بينونة صغرى، تعود له بعقد جديد.. تأمل قوله ﷻ: ﴿ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ [الطلاق:١] حرصًا على بقاء الأسرة قائمة.

يقول الشيخ الغزالي: «قد يرى الفقيه أن يأخذ الحكم من الظاهر القريب للنص، وقد يتجاوز هذا الظاهر لأسباب تلوح له من أدلة أخرى لها وزن أرجح! غير أننا نشعر بالدهشة عندما نرى حكمًا فقهيًّا يترك النص الظاهر القريب دون نظر إلى مصلحة أرجح أو دليل أقوى!! وقد رأيت ذلك في كثير من قضايا المرأة، ولأضرب مثلاً يوضح ما أريد، إنهاء الحياة الزوجية لا يتم بضربة قاضية ـ كما يقال في ألعاب الملاكمة ـ وكلمة الطلاق في نظر الإسلام هي وقفٌ مؤقت لعلاقة تحتاج إلى إعادة نظر، وليست حسمًا صارمًا لهذه العلاقة .. ومن هنا لا يرتضي الإسلام هذه الكلمات في كل وقت، بل جعل لها أوقاتًا خاصة.

وبعد وقوعها، كما استبقى الحياة الزوجية داخل البيت مدة طويلة لعل المياه تعود إلى مجاريها، لعل مشاعر الجفاء تبرد وعواطف الحنان تغلب.

واستنفر الإسلام أقارب الزوجين؛ ليمنعوا تفاقم الأزمة، ووفاة الحياة الزوجية!! وآيات القرآن في هذا الصدد كثيرة، وأنقل هنا أول آية في سورة الطلاق: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ــ لا في أي وقت ـ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ ـ يَحْرُمُ خروج الزوجة

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١٣١ وما بعدها، مرجع سابق.

من بيتها أو إخراجُها منه عند سماع الطلاق ـ ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق: ١].

والجملة الأخيرة تشير إلى حكمة بقاء المرأة في البيت، فهو لايزال بعد الطلاق بينها كما تشير إلى سبب جعل الطلاق في وقت محدد، فهو لا يحلّ وقت الحيض، ولا يحل في طهر تمّ فيه الاتصال بين الزوجين! إن له زمانًا محدّدًا يحل فيه.

والتزام هذه المعالم عبرت عنه الآية بهذه الجملة ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، وهذه الجملة في بيان الأسلوب الذي ينهي الحياة الزوجية تشبه الختام الذي تمت به آيات المواريث ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٣ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا ....﴾[النساء: ١٣، ١٤].

ويمضى الشيخ محمد الغزالى فى بيان رأى بعض العلماء فى الطلاق البدعى.. مرجحاً ـ خلافًا للجمهور ـ عدم وقوعه.. يقول: وقد أجمع المسلمون على أنه ليس لبشر أن يغيّر شيئًا من أنصبة المواريث، وأن من فعل ذلك حكمنا ببطلان تصرفه، وأمضينا التقسيم الإلهي كما جاء به النص، وكما عُبِّر عنه بأنه حدود الله!!

وأما حدود الله في أحكام الطلاق فقد واجهت موقفًا آخر، فإن العلماء اتفقوا على أن الطلاق قسمان: سنيّ وبدعيّ! فأما الطلاق المشروع الذي جاءت به السنة، ودل عليه القرآن فهو أن يطلق المرأة طلقة واحدة في طهر لم يمسسها فيه، وتبقى المرأة في بيتها طوال أيام عدتها.. وأما الطلاق البدعيّ فهو أن يطلق في أثناء الحيض، أو في طهر مسَّها فيه، أو يوقع أكثر من طلقة في طهر واحد!

وهذا المسلك حرام باتفاق العلماء، وهو بدعة لا يعرفها الدين! وكان المفروض أن يرمى هذا الطلاق في سلة المهملات، وأن ينظر إليه كما ينظر إلى مسلك رجل غيّر نظام المواريث، ووضع أنصبة جديدة من عنده، فهذه وتلك حدود الله التي لا يُسَوَّغ إهدارها، لكن الذي وقع للأسف غير ذلك ! فإن عددًا من الفقهاء قَبِل الطلاق البدعي، وأمضاه وأنفذ جميع آثاره، إنه عدد كبير! والذي صدع بالحق في هذه القضية من أهل السّنة، هو ابن تيميّة، وابن القيم، وابن حزم ـ تقريبًا ـ وثلة من الآخرين تمردوا على تيار الخطأ، وقاوموا الانجراف معه.

روى ابن حزم في المحلى أن رجلاً جعل امرأته عليه حرامًا، فسأل عن ذلك حميد بن عبد الرحمن الحميري؟ فقال له حميد: إن الله قال لنبيه: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح:٧،٨] وأنت رجل تلعب فاذهب فالعب.. إن التحليل والتحريم ليس إلى أهواء الناس وفتاواهم ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾[النحل:١١٦]، إنني أريد الرشد، والاستقامة للأسرة

المسلمة، ولي ولغيري أن نلقي نظرة فاحصة على أحكام الطلاق،ولن نجيء بشيء من عندنا ولكننا نختار من أقوال الفقهاء أدناها إلى الكتاب والسنة، وأغيرها على مصلحة الوالدين والأولاد ومستقبلهم، وأعرف أن هناك مَن يُحَمِّرُ وجهه غضبًا كي تبقى للطلاق البدعي مكانته العملية! ورضا هؤلاء أو سخطهم لا يعنيني. إن اهتمامي الأول والآخر بتعاليم الإسلام ومصلحة المسلمين» [(١)]. والحق إن كثيرا من العلماء ـ ليس الشيخ الغزالي فقط ـ رغب في أن يكون هناك تشريع لا يوقع الطلاق البدعي، بل ويوجب إثبات شهود على طلاق السنة الصريح، وهذه المسألة لا تزال مثار خلاف بين العلماء مع أن الجميع حريص على بقاء الأسرة قائمة وتفادي هدمها بأي طريقة مشروعة.

والذي أراه أن هذه المسألة لا تترك لضمير وعلم المفتي وحده، بل يجب أن يقضي فيها جمع من العلماء كـ (مجمع البحوث الإسلامية) لنجمع بين ما عليه الجمهور- بما فيهم الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب- وبين اجتهاد الإمام ابن تيمية، والإمام ابن القيم، وابن حزم، مع مراعاة ظروف وملابسات ونتائج كل حالة على حده.. حيث يختلف الطلاق الرجعي عن الطلاق البائن، فقد نوقع الأول، وتبقى الأسرة قائمة، ولا نوقع الثاني لقيام الشبهة التي تدرأ الحكم، وهذا يقدره جمع من العلماء المعاصرين حسب كل حالة من الحالات للجمع بين الأحكام الشرعية ومرونة الفقه وتعدد آراء الفقهاء، والمقاصد والمصالح المتفق عليها بين العلماء؛ لأن الإسلام دين حكيم، والقائم بأعماله ينبغي أن يكون كذلك، فالحكمة وضع الشيء في موضعه المؤدي إلى الغاية منه، والجمع بين الحكم الشرعي وبقاء الأسرة قائمة حكمة بالغة..[(٢)].

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ١٨٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) ولقد وضح الإمام ابن حجر مسائل الطلاق البدعي بعدما ذكر بعض أحاديث الطلاق ومنها حديث ابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض وقد أمره النبي ﷺ أن يراجعها قال ابن حجر:(وقوله: حسبت تطليقة، وفي رواية للبخاري: حسبت علي بتطليقة، تمسك به الجمهور في وقوع الطلاق البدعي، وذهب آخرون إلى عدم وقوعه، ومن حججهم ما روى أحمد وأبو داوود والنسائي عن ابن عمر بلفظ: فردها على النبي ﷺ ولم يرها شيء. قال ابن حجر: إسناد هذه الزيادة على شرط الصحيح، وقد طول الحافظ ابن القيم في تهذيب سنن أبي داوود في الاستدلال على عدم وقوع هذا الطلاق ككل طلاق بدعي..أهـ

والطلاق الثلاثي طلاق بدعي أيضًا يقع طلقة واحدة يقول ابن حجر:(معناه أن الطلاق الواقع الآن ثلاثًا كان مُوَقَّعًا في عهد النبي ﷺ وأبي بكر وصدر خلافه عمر واحدة. قال الحافظ في الفتح: ومن القائلين بالتحريم واللزوم من قال: إذا طلق ثلاثًا مجموعة وقعت واحدة، وهو قول محمد بن إسحاق محتجًا بحديث ركانة، وهذا الحديث نص في المسألة لا يقبل التأويل الذي في غيره من الروايات: وهذا المذهب منقول عن علي وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف والزبير ونقله بن المنذر عن أصحاب بن عباس كعطاء وطاوس وعمرو بن دينار أهـ. وقال ابن القيم: فهذا خليفة رسول الله ﷺ والصحابة كلهم معه في عصره وثلاث سنين من عصر عمر على هذا المذهب فلو عدهم العاد بأسمائهم واحدًا واحدًا أنهم كانوا يرون الثلاث واحدة لوجدهم يزيدون على ألف قطعًا. كما ذكر يونس بن بكر عن ابن إسحاق، وكل صحابي من لدن خلافة الصديق إلى ثلاث سنين من خلافة عمر كان على أن الثلاث واحدة. وهذا الإجماع أثبت وأصح مما يدعيه الطرف الآخر أن الإجماع انعقد من عهد عمر إلى الآن على وقوع الثلاث ثلاثًا، فإنه لا يزال في كل عصر من الأئمة والعلماء من يفتي بوقوع الثلاث واحدة..) للمزيد انظر كتاب بلوغ المرام من أدلة الأحكام، صـ٢٢٥، ط/ دار الفكر، بدون تاريخ.

يقول الشيخ الغزالي: «.. والطلاق شيء بغيض! لاسيما بعد أن يتحول الزوجان إلى وَالِدَيْنِ فإن ضرر الانفصال يتجاوزهما إلى غيرهما من الأبرياء! وأرى أن الوقاية خير من العلاج، وأن استدامة الحياة الزوجية أولى من تعرضها للانقطاع، ثم مواجهة الآثار السيئة للطلاق..

وهذه الاستدامة لا تتوافر إلا مع الإيمان الحق، والإخلاص الطاهر، واكتفاء الرجل بزوجته التي يسَّرها القدر له، وكذلك رضاء المرأة بزوجها، وحياطتها له.. وهذه العناصر المستفادة من قوله تعالى في صفة عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان:٧٤] إن اسقرار العين على شريك الحياة أو على شريكة الحياة، أمر مهم، بل هو ركن في بقاء البيت، فهل تقاليد الحضارة الحديثة تحقق هذه الضمانات؟ الإجابة البعيدة عن التعمية والنفاق: لا..! بل إن هذه الضمانات، تذوب وتستخفي في المراقص المائجة، بذكور وإناث يحتضن أحدهما الآخر، ويتواثبان في دائرة مغلقة يتنفس فيها الحيوان الرابض في دمها، خصوصًا عندما تكون المرأة في ملابس السهرة، شبه عارية! إذا كان هذا لا يهدم علاقة المرأة بزوجها للفور فهو زلزال يسقطها بعد حين! ثم هناك الاختلاط المُطلق الذي أُبعد الوحي الإلهي عن ضبط أمكنته وأزمنته، واستعدت النساء له بفنون شتى من الزينة والتبرج! هل يُبقي هذا الاختلاط على كرامة الأسرة أو استقرارها؟ كلا...

إن الإسلام بتعاليمه الدقيقة يحفظ حاضر الأسرة ومستقبلها، ويبعد شبح الطلاق المرعب عنها! لكن الطلاق أخذ يشيع في مجتمعات إسلامية كثيرة؛ لأن انحلال المدنية الغربية تسلل إلينا، وشرعت جراثيمه تدق بعنف الأبواب المغلقة» (١).

فالطلاق في الإسلام علاج حاسم إذا استُنفِدت الحلول الأخرى، ولم يبق إلا الطلاق، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٣٠].

ثالثًا: الخلع:

من عدل الإسلام وإنصافه للمرأة أن جعل لها حق التطليق، مقابل الطلاق الذي يملكه الرجل .. وذلك إن كانت متضررة، وتريد حقوقها كاملة، أما إن كانت غير متضررة، وتريد إنهاء الحياة الزوجية لشيء ما في نفسها فلها أن تخلع نفسها إما بالتراضي بينها وبين زوجها، وإما عن طريق القضاء بعد إثباتها للضرر الواقع عليها واستحالة الحياة مع زوجها، فللقاضي أن يحكم لها بالتطليق أو الخلع مع الحقوق المترتبة على ذلك حسب ظروف كل حالة على حدة.

(١) المرجع السابق صـ ٢١، وما بعدها.

وللأسف كما أن بعض الرجال يسيئون استخدام حقهم في الطلاق، فإن بعض النساء ـ أيضًا ـ يفعلن نفس الشيء في موضوع الخلع، فيتعجلن هذا الأمر، ويلجأن إلى المحاكم المستعجلة دون تروٍّ ونظر في عواقب الأمور، وما يترتب عليه من مضار -أحيانًا- تتعدى الزوجين إلى الأولاد والمجتمع.

والسبب الأول في اعتقادي هو الجهل وقرناء السوء، وقانون الأحوال الشخصية المعدل عام ٢٠٠٠ وخصوصًا المادة رقم (٢٠) التي تلبي رغبة المرأة في الانفصال[١] ثم تأتي أسباب أخرى كسوء خلق أحدهما أو كليهما، أو تقديم رغبات الوالدين والأهل على مصلحة بقاء الأسرة. يتأكد ذلك ويتضح جليًّا عندما ترى وتسمع ما يدور حول هذه الأمور، ومن أشهر الجمل التي سمعتها مرارًا ـ اخلعيه.. وخلعته من حياتي.. انتصرت لكرامتي.. خانني فتزوج عليَّ.. ورفض طلاقي فطلبت الخلع.. والحق أن المرأة تخلع نفسها بفراق زوجها، وربما بعوض أو مال أو ثمن غال وكم تشرد من النساء والأطفال بسبب هذا الجهل الخطير[٢]

لذا نود أن يعلم جميع أبناء المجتمع أن الطلاق، أو التطليق، أو الخلع لا يجوز أن يتأتى منه ضرر يفوق الحكمة منه في قوله تعالى﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾ [النساء] لأن هذه الأمور جُعلت لحل المشاكل لا لتعقيدها.

والإسلام لا يجبر أحدًا من الزوجين أن يعيش مكرها مع صاحبه، سيما إذا كان أحدهما يكره الآخر وقد يكون الكره من الزوجة يقول الشيخ/ الغزالي: « مهما كان الرجل محبًّا لزوجته، فإن رفضت البقاء معه يجب أن يُقدَّر ويُجاب، وقد أعطاها الشارع ـ والحالة هذه ـ حق الخلع، وهو أن ترد على زوجها المهر الذي دفعه (أو أكثر منه أو عطاء آخر غيره) ويحكم القضاء بالفرقة، فعن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس ـ زوجها ـ في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام .. لا أطيقه بغضًا، فقال لها النبي ﷺ (أتردين عليه حديقته) وهي المهر الذي أداه لها، قالت: نعم، فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق، ولا يزداد [٣].

---

(١) وقد أشرت إلى هذا القانون وخطورته في المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٢) تكرر أن جاءت نساء تبكي في المسجد، وتطلب الوساطة لتعود لزوجها، حيث تعجلت أو سمعت لأمها أو لأهلها أو لصديقاتها، فخسرت زوجها وأولادها، وكم من نساء أصبن بأمراض نفسية؛ بسبب التعجل في أمور قد جعل الله فيها أناة وتؤدة، وقد استغلت القانون المذكور أعلاه، وكم أتمنى أن تستخير المرأة ربها، وأن تستشير العقلاء من أهلها قبل الإقدام على مثل هذه الأفعال، أو تصبر كما صبرت زوجة فرعون.

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عباس ﷺكتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه برقم ٥٢٧٣، صـ٧٧٢، مرجع سابق.

والإسلام الذي جعل للمرأة أن تتخالع، وأباح للقضاء أن يقدر رغبتها، جعل الطلاق من حق الرجل مباشرة، ذلك أنه ـ من الناحية المالية ـ هو الغارم دفع المهر وتحمل النفقة، فليس من السهل عليه أن يرمي ماله في البحر، ثم هو أضبط لعواطفه، وأملك لزمام نفسه، فلا يفكر في الفرقة إلا مكرهًا، ولو تصورنا الطلاق حقًّا للمرأة لتصورنا رجلاً يدفع مهره اليوم، ويؤثث البيت، ثم تضع المرأة يدها على ذلك كله.. وتطلق.

إن لكل من الزوجين تحت وطأة الظروف العصيبة أن ينفصل عن الآخر، وقد أقر الشارع هذا، ووضع له نظامًا عادلاً مقبولاً » [(١)].

إن الأسرة لا تقوم على امرأة تبغض الرجل، وتشتهي مفارقته، ومن هنا قال تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾[البقرة:٢٢٩] وإذا كان الرجل يملك الطلاق والمرأة تملك الخلع ، فعلى كل منهما أن يفهم أولاً الحكمة من مشروعية هذه الأحكام، فإنهما شُرِعا للإصلاح لا للإفساد، وللخير لا للشر، قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٣٠] فقد يكون صلاح الزوج مع زوجة أخرى وصلاحها مع زوج آخر بعد استحالة الحياة بينهما.

والخلاصة:

أن الزواج والتعدد والطلاق أمور مشروعة شَرَّعَها الله ﷻ لعباده، وكلها خاضعة للأحكام الخمس[(٢)] وكلها تختلف باختلاف ظروف أصحابها، وما يقال عن الطلاق ومشروعيته والحكمة منه يقال عن الخلع، وهذا ما يجب أن يفهمه ويعمل به القاضي، والمفتي في الأحكام الشرعية ، والإنسان المسلم.

وإذا كنا ـ في هذا الفصل ـ قد تكلمنا عن المرأة وحقوقها وما أثير حولها من شبهات، فجدير بنا أن نتكلم باستفاضة عن الأسرة التي تعد المرأة ركنًا هامًا من أركانها، واعتناء الإسلام بهذه الأسرة ودروها الاجتماعي في بناء المجتمع السليم..

هذا ما سنذكره ـ إن شاء الله ـ بالتفصيل في الصفحات التالية

---

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ ١٣٢، مرجع سابق.

(٢) الأحكام الخمس هي: ١ـ الحلال أو المباح ٢ـ والحرام ٣ـ والمكروه ٤ـ والمستحب ٥ـ والفرض أو الواجب.

الفصل الخامس

الأسرة وأهميتها في بناء المجتمع

وفيه ستة مباحث:

المبحـــث الأول: الوضع الاجتماعى للأسرة، وتقييم الغزالي والدكتور/ فؤاد له.

المبحـــث الثاني: اعتناء الإسلام بالأسرة، مقارنة بالقوانين الوضعية.

المبحـــث الثالث: أركان الأسرة، وثمراتها، ودورها في بناء المجتمع.

المبحـــث الرابع: العادات والتقاليد الاجتماعية، والموقف منها.

المبحث الخامس: عوامل هدم الأسرة، وتفكيكها، وخطورة ذلك على المجتمع.

المبحث السادس: النماذج الاجتماعية الغربية، والنماذج العربية الإسلامية.

المبحث الأول: الوضع الاجتماعى للأسرة، وتقييم الشيخ/الغزالى، والدكتور فؤاد زكريا له:

الأسرة هي اللبنة الأولى والخلية الحية والحيوية في بناء المجتمع.. وصلاح الأسر يعنى صلاح المجتمع، والعكس صحيح.. والحق أن الأسرة هي ما تبقى للإسلام متماسكًا ـ إلى حد كبير ـ فى المجتمع العربى المسلم، إلا أنه اعتراها شيء من الضعف الاجتماعي، والتفكك الملحوظ في كثير من الأحوال.. الأمر الذي جعل كثيرًا من العلماء يقيم الوضع الاجتماعي المعاصر من خلال الأسرة العربية ومدى تماسكها وترابطها وقيامها بواجباتها.

ولقد تحدثت في الصفحات الماضية عن التعدد والطلاق والخلع، وبينت بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه المسائل الثلاث وما يترتب عليها من آثار، والدكتور/ فؤاد زكريا لا يذكر شيئًا يتعلق بالإسلام وأحكامه إلا في معرض النقد.. ما رأيته أبدًا يذكر حكمًا شرعيًّا ويثني عليه، وهو كالعادة المعهودة عنه ينتقد الأسرة المسلمة؛ لأنها تقوم على الطاعة، وقوامة الرجل والتراث القديم، وأن العلاقة بين الأزواج علاقة محكومة بالتقاليد.

يقول د/ فؤاد زكريا: «..أما العلاقة بين الزوجين فإن أساسها الذى تفرضه التقاليد وتحاصر به المرأة من كافة الجوانب هو طاعة المرأة لزوجها. إن الزوج هو الآمر وهو الممسك بالدفة، أما الزوجة فإن سيلًا عارمًا من الأدبيات والتراث الشعبى والنصائح الموروثة يؤكد أن فضيلتها الكبرى تكمن فى كونها زوجة (مطيعة) فإذا خالفت أوامر (الزوج القائد) أو حاولت الإفلات من قبضته فهناك دائمًا بيت الطاعة، أعنى سجن التمرد» [1].

فالدكتور -غفر الله له- ينظر إلى الأسرة العربية بمنظار عجيب، ويقيمها بموازين مخالفة لموازين الشرع والخلق. انظر كيف يجعل الدكتور من الفضائل كالطاعة وقوامة الرجل رذائل يجب الخروج عليها حتى الأبناء يعيب عليهم الدكتور طاعتهم للآباء، ولا أدري من أين يأتي البر؟ وكيف تُدار الأسرة؟ ومَن يقودها إن لم يقدها الرجل؟

والدكتور يدعو المرأة والأبناء إلى التمرد على نظام الأسرة[2] المأخوذ من شريعة الإسلام والتراث العربي الأصيل، وكنت أود من الدكتور أن يقول: إن الأسرة هي الوحدة الأولى في بناء المجتمع القوي

---

(١) خطاب إلى العقل العربى، صـ٧٨، مرجع سابق.

(٢) انظر المرجع السابق، صـ٧٩ وما بعدها.

المتماسك والمترابط[١] وهي الحاضنة الأقوى لأبنائه حيث لا سكينة ولا استقرار ولا راحة ولا اطمئنان إلا في جو الأسرة القائمة على الآداب الإسلامية المتبادلة.

يقول الشيخ الغزالي: «الأسرة هي: المأوى الطبيعي لكلا الجنسين، والمستقر الوحيد الزكي لعلاقتهما. إن الإنسان وحده نصف، ما يبلغ تمامه إلا إذا انضم إليه نصفه الآخر، والشهوة الجنسية ـ لو صححنا النظر إليها ـ عامل ثانوي في تكوين الأسرة، أو عاطفة مساعدة.

أما الأساس الكريم الراقي فهو الصحبة القائمة على الود، والإيناس والتآلف..!! وهذا الأساس هو الذي نوّه القرآن الكريم به عندما ذكر قصة الخليقة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩] هذا السكن معناه استقرار الشعور، والسلوك، واطمئنان المرء إلى أنه مع شخص يزيد به، ويستريح معه، ويهدأ في كنفه عند القلق، ويلتمس البشاشة معه عند الضيق.. وفهم الزواج على أنه رباط جنسي وحسب، سقوط في التفكير، وفي الشعور...

إن الأمر أعلى من ذلك وأكبر، وتدبر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم:٢١] لكن بناء البيوت على هذه الحقيقة الروحية، يحتاج إلى كثير من التثقيف والتأديب، أو بالتعبير الصحيح يحتاج إلى الخلق والدين.. إن العلاقات بين الزوجين عميقة الجذور، بعيدة الآماد، إنها تشبه ـــ من القوة واللصوق ـ صلة المرء بنفسه، ومن ثم عني الإسلام بالمحافظة عليها، والارتفاع بجوهرها، وصيانة ظاهرها وباطنها، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧].

وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ: (إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشرها)[٢] وحسن الخلق مع الزوجة من أمارات الإيمان: (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)[٣] وقال رسول الله ﷺ: (..كل ما يلهو به الرجل المسلم باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه

---

(١) وهو يعرف هذه الحقائق التي اتسمت بها الأسرة المسلمة، وما تميزت به على غيرها من الأسر الغربية، إلا أنه لا يذكر ذلك إلا على استحياء وليس في معرض الثناء، يذكره عندما تهاجم وتشوه الأسرة العربية من قبل الكتاب الغربيين.. وهذا سأذكره في المبحث التالي عندما قارن الدكتور/ فؤاد بين الأسرة العربية والأسرة الغربية.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، برقم (١٤٣٧/ ١٢٣)، صـ٣١١، بلفظ :(إن من أشر الناس.. ثم ينشر سرها)، مرجع سابق.

(٣) رواه الترمذي من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب فضل أزواج النبي ﷺ، برقم(٣٨٩٥)، صـ١٠٠٠، وقال: حسن غريب صحيح، ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه برقم(٦٤٧٥) وقال: صحيح.

لفرسه، وملاعبته أهله فإنهن من الحق) [(١)] فانظر كيف عدّ من الحق هذه الصلة الإنسانية الخاصة بين الزوجين! وقال رسول الله ﷺ: (الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)[(٢)].

وبهذا النصح أفهم الرجل أن أفضل ما يستصحبه في حياته ويستعين به على واجباته الزوجة اللطيفة العشرة القويمة الخلق، أو التي وصفها في حديث آخر(.. التي تسره إذا نظر، وتطيعه إذا أمر، ولا تخالفه في نفسها ولا مالها بما يكره) [(٣)].

إن هذه الزوجة هي دعامة البيت السعيد وركنه العتيد، والروابط بين الأسرة تعلو على الفناء، فإذا انتهت هذه الدنيا، وتركها أهلوها فرادى أو جماعات، التأم شملهم مرة أخرى هناك في الدار الآخرة، على نحو ما كانوا عليه في هذه الحياة ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ [الرعد:٢٣].

وفي سبيل جمع الشمل لا بأس أن يلتحق الأبناء المقصرون بآبائم المجدين﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور:٢١]، وإذا كانت الأسرة المؤمنة يبقى عقدها في النعيم، فالأسرة الأخرى يبقى عقدها كذلك فيما استحقت من عذاب، ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات:٢٢-٢٣] وإنه لشيء عجاب أن تظل هذه الروابط الإنسانية موصولة قائمة، ولكن العجب ينقطع إذا فقهنا طبيعة الحياة الزوجية قبل الإنجاب وبعده، إنها تقوم على عاطفة أسمى من الزمالة والصداقة، عاطفة يستبطن بها كلا الزوجين صاحبه، ثم ترعرع في ظلها الأجيال الناشئة، ولن توجد بيئة أزكى ولا أجدى من الأسرة في تربية الأولاد.

أجل في ظل الأمومة الحانية والأبوة الكادحة ـ وهما أوثق وأعمق المشاعر الإنسانية ـ تتم كفالتهم وتتفتّقُ براعمهم، وتستوي أعوادهم، وترتقب ثمارهم.. لذلك كانت حماية الأسرة من أعظم الواجبات، وكان تمهيد الطريق أمامها من أفضل القربات» [(٤)].

وإذا كانت الأسرة بهذه المكانة وهذه الأهمية في الإسلام، فجدير بنا أن نعرف كيف اعتنى الإسلام بها مقارنة بالقوانين الوضعية.

وهذا ما سأذكره في المبحث التالي.

---

(١) رواه الترمذي في السنن من حديث عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين رضي الله عنه كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله، برقم(١٦٣٧) صـ٤٤٤، وقال: حسن صحيح، المرجع السابق. وذكره الألباني في تخريج أحاديث ابن ماجه عن عقبة بن عامر برقم(٢٢٨٥) وقال: حديث صحيح.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة برقم (١٤٦٧/ ٦٤) صـ ٣٢٠، مرجع سابق.

(٣) رواه النسائي في سننه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه كتاب النكاح، باب أي النساء خير؟ برقم(٣٢٣١) حسن صحيح صـ٥٣٦، ط/ دار الفجر للتراث ـ القاهرة، سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، وأخرجه السيوطي في الجامع الصغير عن أبي هريرة أيضًا برقم(٤٠٤٥)، وقال: صحيح وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه(٧٨٠١١)، وقال: حديث حسن ، وذكره الألباني في صحيح النسائي برقم (٣٢٣١)، وقال: حسن صحيح.

(٤) هذا ديننا للغزالي، صـ١٣١ وما بعدها، مطبعة حسان، دار الكتب الحديثة، ط ٣، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

المبحث الثانى : اعتناء الإسلام بالأسرة مقارنة بالقوانين الوضعية:

من نافلة القول أن نطيل الشرح ونسرد الأدلة التى تؤكد اعتناء الإسلام بالأسرة عند تكوينها وطيلة حياتها، والعمل على بقائها قوية متماسكة مترابطة ؛ لأن هذه الأمور وإن لم تكن واقعًا ملموسًا عامًّا في جميع الأسر يراه كل ذِي عينين، فهو دين، ويتجلى واضحًا منذ الخِطبة، وحسن الاختيار، والكفاءة، والالتزام بالآداب العامة، ومرورًا بالمعاشرة بالمعروف، وحتى نهاية الحياة، وما بعد الحياة..

بيد أن القوانين الوضعية التي زاحمت الشريعة الإسلامية دفعت العلماء إلى الحديث عن محاسن الإسلام وقيمه فى تكوين الأسر، مقارنةً بالقوانين الأخرى، وذلك من باب: وبضدها تتميز الأشياء.

وتحت عنوان/ محاولة لفهم العقل العربى يعقد د/ فؤاد زكريا مقارنة بين الأسرة فى البلاد العربية وعند الغرب يقول: «.. أمامى كتاب عن العرب، ألفه كاتب إنجليزى اسمه (جون لافين) عنوانه الرئيسي/ العقل العربي تحت الفحص، أما عنوانه الفرعي/ الحاجة إلى الفهم، وهو موجه أساسًا إلى قراء غير العرب، ويهدف إلى مساعدة هؤلاء القراء على فهم العقل العربي.. هذا الكتاب لم يترك فرصة للتشويه إلا استغلها إلى أقصى حد.

ثم مضى د/ فؤاد يشرح عبارات الكتاب، ويتحدث عن الأثر الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الهائل الذي تركه العرب فى أوروبا، وعند الحديث عن علاقة العرب بالنساء ـ وفق رؤية المؤلف ـ يقول: .. وحين يتحدث عن خطورة العربي على النساء الأجنبيات، يغفل الحقائق التى يعرفها الجميع عن المجتمعات العربية، فهو حين يأبى على العربي أن تكون له شخصية فردية، ينسى أنه هو نفسه القائل: أن العربي ينطوى على نفسه، وأن مركز اهتمامه يكمن فى داخله...وحين يعلل ذلك بإن اندماجهم في الأسرة يقضى على استقلاله، ينسى أن الاستقلال المفرط والمبكر عن الأسرة قد خلق للإنسان الغربي مشكلات اجتماعية ونفسية هائلة، يشكو منها كل باحث منصف في نفس هذه البلاد، وأن التماسك والتكافل العائلي في المجتمعات العربية من أبرز السمات التي يتحسر عليها زوار هذه المجتمعات من الأجانب »[(١)] لأن التماسك الذي أشار إليه د/ فؤاد والتكافل قيم إيمانية، وشريعة ربانية، أكدت عليها جميع الشرائع السماوية في بلاد العرب، وأضفت عليها شريعة الإسلام مزيدًا من الاعتناء والاهتمام، والتقديس والاحترام.

بل واعتبرت ذلك كله طاعة لله تعالى، وليس (جينات) خاصة بالجنس العربي دون سواه، فهي دين وليست تقاليد موروثة وحسب.

وكم أتمنى أن ينتصر المسلم لدينه، ويقدم النصوص الشرعية عند الرد على الشبهات، بدلًا من المفاهيم

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ ١١٢ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

العقلية والقومية التي يثيرها غير المسلمين لكن د/ فؤاد -غفر الله له- لا هو انطلق في رده على الكاتب من فهمه للإسلام وما فيه من أدلة تؤكد ما للأسرة من قدسية واحترام، ولا ساق نصًا دينيًّا واحدًا ولكنه اكتفى بما يلوم عليه غيره (الموروث القديم) و(العادات والتقاليد) والحق إن التكافل الاجتماعي والتماسك الأسري في المجتمعات العربية ليس سمات أنتجتها هذه المجتمعات بعيدة عن الدين الذي جاء به موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

وأول خطوات الاعتناء بالأسرة أن شرع الإسلام الزواج واعتبره عبادة يتقرب بها الزوجان إلى الله تعالى.يقول الشيخ الغزالى: « الإسلام يَعُدُّ الزواج من العبادات، ويرفض وصف النزوع الجنسى بأنه دنس، مادام يتحرك فى حدود الشريعة، ويمشى وفق ضوابطها.

إن الشخص الذى طعم باسم الله، ويستغل القوى المذخورة في بدنه في مرضاة الله شخص صالح، وكذلك الرجل يفضي إلى المرأة، أو المرأة تفضي إلى الرجل، وكلاهما ما يستحل الآخر إلا باسم الله.

إن هذه الصلة قربة.. ومن ثمرتها يتصل مركب الحياة على ظهر الأرض، ويزداد الإيمان قوة بما ينضم إلى الآباء من أولاد ، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] وقد شرد بعض الناس عن الجادة، وظن اعتزال النساء عبادة، فأنكر عليهم النبي ﷺ ذلك، وقرر أن الزواج من سنن النبوة. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[الرعد:٣٨] وطبيعي أن الزواج يكون عبادة مطلوبة ممن توافرت لديه دواعيه المادية والمالية، أما الذين ضعفت غرائزهم، أو لا طاقة لهم على تكوين أسرة فهم معذورون، ولماذا ينكل الرجل عن الزواج، وهو في المرأة راغب وعلى نفقتها قادر؟ إن هذا القعود مظنة شر أو هو الشر عينه، ولو قدرنا أن رجلاً رائع العزم استطاع أن يقهر مطالب هذه الغزيرة الجنسية وأن يخرس نداءها فى دمه فما قيمة هذا الانتصار؟ وما نتيجة تلك الرهبانية؟ نتيجتها: تغليب الفناء على الحياة والسلبية على الإيجابية، ثم إن رضوان الله لا ينال بتلك الوسيلة القاهرة...

هل كبت الرهبانية يتبعه حقًّا صفاء النفس ونصاعة الضمير؟ إن ذلك ما نماري فيه، بل نجزم أن إلحاح الوساوس وتنغيص العقد يملأ الحياة الإنسانية في هذه الأحوال، وقلّما يصفو إيمان أو يكتمل دينه مع هذه الأحوال، ولذلك حثّ نبي الإسلام على الزواج حثًّا بالغًا، قال: (يا معشر الشباب مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء) [(١)] وعن أبي

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث علقمة رضي الله عنه كتاب النكاح، باب قول النبي ﷺ من أستطاع الباءة... برقم(٥٠٦٥) صـ٧٤٣، مرجع سابق.

أمامة عن النبي ﷺ: أنه كان يقول: (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنه نصحته في نفسها وماله)[(١)].

وقد نظر كثيرٌ من الفقهاء إلى هذه النصوص، وبنى عليها أن الزواج واجب[(٢)] وهم متفقون على أنه عبادة ومنهم مَن ارتقى به إلى رتبة الفرائض التي لا يجوز لمسلم التفريط فيها، على أنه لا خلاف بين علماء المسلمين في أن الزنا فاحشة من أشد الفواحش نكراً، وأن المجتمع الذي ييسرها ويستبيح مقدماتها ويستهين بنتائجها، مجتمع فاجر ظلوم، والقرآن الكريم يضع جريمة الزنا في صف واحد مع الشرك بالله، وقتل النفس، التي صان الله دمها وتوعد بالخلود في الجحيم، مَن يقارف ذلك قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾[الفرقان: ٦٨ :٧٠]. »[(٣)].

ولو نظرنا إلى بدء الخليقة وتأملنا ما ورد في قصة أبي الأنبياء آدم عليه السلام لرأينا كيف اعتنى الإسلام بالأسرة وكيف قرن بين الأسرة وبين العالم أجمع.. وكيف أن هذا العالم جاء من رجل وامرأة، أي من أسرة واحدة، وكيف أن هذه الأسرة الأولى اعتنى الله تعالى بها.. خلقها بيده، ونفخ فيها من روحه، وأسجد لها ملائكته، وأدخلها الجنة، وكرمها على كثير ممن خلق تكريمًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣] وتأمل الآية الأولى من سورة النساء: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء:١].

وإذا انتقلنا إلى بني آدم فما أكثر الآيات والأحاديث التي تحث على الزواج وترغب فيه وتبين فوائده والغاية منه، ولقد ذكرت بعضًا منها في المبحث السابق وزيادة على ما سبق أذكر قوله ﷻ: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾[النحل:٧٢] وقوله ﷺ: (.. وأتزوج النساء وهذه سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني)[(٤)] فالأسرة في الإسلام آية من آيات الله

---

(١) سبق تخريجه في المبحث السابق.

(٢) والحق إن الزواج يخضع للأحكام الخمس، فقد يكون واجبًا، أو غير ذلك.. والشيخ هنا يشير إلى حكم الوجوب، إذا كان المرء قادرًا ونفسه تتوق إلى الزواج، وإلا كان له حكم آخر يناسب حالة الراغب.

(٣) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١٢٣ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٤) رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، برقم(٥٠٦٣) صـ٧٤٣، مرجع سابق، ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس أيضًا، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه.. برقم (١٤٠١/ ٥)، صـ٣٠٠، مرجع سابق.

تستوجب التدبر والتفكر قبل الإقدام على تأسيسها لنوليها الاهتمام اللازم، وتختار الاختيار الصحيح.. وكذلك بعد إقامتها ينظر كلا الزوجين إلى حاله مع صاحبه وما يدور بينهما، ومن قبل كان أجنبيا عنها، وكانت أجنبية عنه، وهو الآن أقرب إلى أخص خصائص جسمها من أمها وأبيها وأختها وأخيها، وما نال هذا القرب وهذا الوضع إلا بالميثاق الغليظ (عقد الزواج) الذي جعله الله أساسًا لبناء الأسرة وقاعدة تقوم عليها تأمل قوله ﷻ: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء: ٢١]

ولقد بين الله ﷻ أن الرهبانية بدعة..قال ﷻ: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ﴾[الحديد:٢٧] ولبقاء الأسرة واستمرارها شرع الله ﷻ الحقوق المادية والأدبية الواجبة على الزوجين كليهما، قال ﷻ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ ﴾ [البقرة:٢٢٨] ثم عالج مسألة النشوذ المحتمل قبل وقوعه فقال ﷻ: ﴿ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٤] وقال ﷻ: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾[النساء:١٢٨]

والفقه الإسلامي مليء ببيان هذه الواجبات والحقوق .. بدءًا بآداب المعاشرة، وحضانة الأولاد، والنفقة، والتكافل بين الأقارب، والتعاون في دفع الديات والغرامات، وانتهاءً بالميراث بين الزوجين قال ﷻ: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:١٩] وقال ﷻ: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة:٢٣٣].

هل هناك تشريع اعتنى بالأسرة كما اعتنى بها الإسلام، لقد حرم الاختلاط المريب والنظر إلى الأجنبيات حماية للأسرة واحتراما لمشاعر أفرادها تأمل قوله ﷻ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور:٣٠، ٣١] مجرد النظر فهو حرام..(فالعين تزني وزناها النظر) والدكتور/ فؤاد يطالب الشباب والبنات بتدقيق النظر في العين حين يكلم أحدهما الآخر..«وفي الشرائع الأرضية ـ خصوصًا الغربية ـ يباح الرقص واللمس بل والمخاللة طالما برضى الجنسين..

وقد يحدث ذلك بحضرة الزوج أو الأب أوالأخ»[١] .

ويتوج الإسلام اهتمامه بالأسرة بما شرع من ميراث بين الزوجين يفوق ـ أحيانًا ـ ميراث الأبوين والأولاد، قال ﷻ: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: ١٢] .

وأنا لا أعرف دينًا أو ملةً أو نحلةً، أو قانونًا يحيط الأسرة بسياج منيع، وتشريع بديع يحمي الأسرة، ويضمن بقاءها غير الإسلام؟

لقد تسرب إلى الأسر المسلمة شيء من الضعف بسبب الثقافات الوافدة علينا.. والقوانين المعمول بها في بلادنا.. وهذا لا ينسب إلى الإسلام، إنما ينسب إلى من شرعوه أو ارتضوه وعملوا به.

ويقول الشيخ الغزالي: « الرجل ـ في شريعة الله ـ ربّ البيت وقيم الأسرة، وهذه ميزة تكليف أكثر مما هي ميزة تشريف، والغرض منها أن يسير البيت وفق نظام سائد، لا وفق مآرب متدافعة ورغبات متنازعة، ومن العبث أن تكون أي شركة من غير رئاسة مسئولة، وترك زمام البيت في يد المرأة وضع للأمور في غير نصابها، أو هو تحميل العبء للكاهل الضعيف.

والرجل أجدر من امرأته بحق إدارة البيت ورياسة الأسرة، فإن ما ذرأه الله عليه من احتمال وصلابة ومقدرة واسعة على الكسب والنفقة، كل ذلك يجعله أولى بالترجيح قال ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء:٣٤] .

وقد يحدث في بعض البيوت أن يستنوق الجمل، أو أن تكون المرأة أبين قدرة من رجلها وهنا تسقط منه الرياسة أو يسقط هو من الرياسة، وتنتقل إمرة البيت إلى المرأة، وهذا الوضع الشاذ لا يقدح في القاعدة العامة، وهو على شذوذه محظور العواقب حيث يقع.

ومن الخير أن تراعى طبيعة الحياة التي استتبعت هذا الحكم قال ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:٢٢٨] وتقرير هذا المبدأ لم يخل الإسلام من جملة تعاليم تشرح حق المرأة على الرجل، وحق الرجل على المرأة. وهى تعاليم وفرت من الخير للأسر ما يملأ أرجاءها برًّا و تقوى، وودًا وتعاونًا، وفيها ضمانات موثقة للحياة الزوجية واستقرارها، وضمانات أعظم لينبت الأولاد نباتا حسنا، وينالوا من حظوظ الصحة النفسية ما يجعلهم أصلح بالًا، وأسعد حالا.

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية للشيخ الغزالي، صـ٥١ وما بعدها، مرجع سابق.

إن القانون لايصنع شيئًا حيث يكون المجال لقوة العقيدة، وحسن الخلق !!

ونحن نعلم أن هناك من أساء استعمال حقه في تعدد الزوجات، وإيقاع الطلاق.. ولكننا موقنون أن الأسرة لم تصب من ذلك إلا بخدوش، أو علل متداركة البرء...

أما الهدم الذى أصاب دعائم الأسرة فمن الفوضى الجنسية، والخلفية التى زحفت علينا من الغرب»(١).

إن ما يعرف عن الغرب من إباحية وفوضى جنسية لا يخفى على أحد.. ولا أظن أن يرتضيه عاقل فيه بقية من دين أو خلق حسن.

والخلاصة:

الإسلام يختلف عن غيره من أصحاب الملل والقوانين الوضعية، فهو يعمل على بناء أسرة قوية متماسكة مترابطة، تكون نواة لمجتمع فاضل وشعب صالح، ولذلك جعل للأسرة مجموعة من المقومات والروافد والواجبات.. مثل الإختيار الحسن القائم على الكفاءة.. والاحترام المتبادل، والنفقة والتكافل، والبر والمودة والرحمة والتسامح والتناصر.. ثم الميراث ودفع الديات والتعاون في الغرامات، والنفقات وذلك حتى تستمر الحياة وتدوم وتثمر خيراً.

وهذا نظام فريد لا يعرفه إلا الإسلام.

ولتكملة الفائدة أذكر في الصفحات التالية أركان الأسرة ودورها في بناء المجتمع.

والله المستعان

---

(١) هذا ديننا، صـ١٣٤ وما بعدها، وصـ١٤٥، بتصرف، مرجع سابق.

المبحث الثالث: أركان الأسرة، وثمراتها، ودورها في بناء المجتمع:

أولاً: أركان الأسرة:

تقوم الأسرة في الإسلام على ثلاثة أركان هي:

الزوج، والزوجة، والعلاقة الشرعية بينهما، ولقد ذكرت في المبحث السابق اعتناء الإسلام بالأسرة واختيار الزوجين، ومسئولية كل منهما، ويكفي لتأكيد هذه الحقيقة أن نعي قوله ﷺ : (.. والرجل راع في بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها...) [(١)].

وحتى تقوم الأسرة على أسس متينة، وقواعد سليمة، لابدّ من تحقيق الأمرين السابقين (الاختيار الصحيح ـ واستشعار المسئولية والعمل بمقتضاها) وهذا لا يتم ولا يكون إلا في ظل الإسلام.

ثانيًا: ثمرة الأسرة:

لكل شجرة ثمرة، والأسرة شجرة ينبغي أن تكون مباركة تنبت في أرض طيبة، وتسقى بماء طاهر؛ لتثمر ثمرة طيبة قال ﷻ: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨] وثمرة الأسرة هي الاستقرار، وتحقيق الخلافة فى الأرض، وإنجاب الأولاد الذين جاءوا عن طريق هذا الزواج المبارك.. وهذه كلها عبادات يعرفها كل من يفهم رسالة الإنسان فى الحياة.

يقول الشيخ/ الغزالي : « لا يستغرب أحد من الإسلام أن يجعل الزواج عبادة، وأن يجعل قضاء الوطر فى ظلّه قربى يؤجر المرء عليها.

لكن السؤال الذي يجب التريث في إجابته هو : مَن التي يتزوجها المسلم؟ يجب أن نعرف أن الزواج ليس اتقاء لمزيد من الإنتاج الحيواني، إن الأسرة في الإسلام امتداد للحياة والفضيلة معًا ! امتداد للإيمان والعمران على سواء.

ليست الغاية إيجاد أجيال تحسن الأكل والشرب والمتاع، إنما الغاية إيجاد أجيال تحقق رسالة الوجود، ويتعاون الأبوان فيها على تربية ذرية سلمية الفكر والقلب، شريفة السلوك والغاية.وتدبر موقف أبي الأنبياء إبراهيم بعدما أنعم الله عليه بالأولاد، إنه يقول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩:٤٠]

---

(١) سبق تخريجه في الفصل الثاني، المبحث الثاني مسئولية ولي الأمر نحو النشء، صـ٩٤.

إنه يريد أولادًا يركعون لله ويسجدون ! ما أقبح أن ينسل رجل فساقًا وملاحدة، وفي الأرض الآن أمم لا تبالي ما تلد! أيحيا أولادها كفارًا أم يحيون مؤمنين؟ المهم رفع مستوى المعيشة، وليكونوا بعد حطبًا للنار!!.

ونحن المسلمين نأبى هذا التفكير، ونعدّ أصحابه دوابّ مهما كانت سماتهم الظاهرة..

ومن دعاء عباد الرحمن عندما يختارون أزواجهم ويؤسسون بيوتهم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

إن العين المتنقلة بين شتى الوجوه عين خائنة، تقود صاحبها إلى الضياع، ينبغي أن يكون كلا الزوجين قرة أعين لصاحبه، وأن يوطن نفسه على هذا الاستقرار، وأن يتعاونا بعدُ على تربية أولادهما وصيانة حاضرهم ومستقبلهم.

وإذا كان باب التنافس في الخيرات مفتوحًا، فليكن المسلم بعيد الهمة واسع الطموح.

ليكن إمامًا يُقتدَى به، ولا يتكاسل حتى يجيء في المرتبة التالية التابعة، إن علوّ الهمة من الإيمان، وإن الله يحب مَن يطلب الفردوس الأعلى. وإقامة البيت المسلم يحتاج إلى جهد كبير» (١).

وهذا صحيح فالزواج المطلوب شرعًا ليس هو الزواج التقليدي الذي يتزوجه ملايين من الناس وإن استوفى الشروط والأركان، فالمسلمون جميعًا- تقريبًا- يتزوجون زواجًا مكتمل الأركان وشروط الصحة من إيجاب وقبول وولي وشاهدين.. ومهر وإشهار.. وذلك باستثناء بعض الجهلة ومن في قلوبهم مرض ممن يقيمون علاقات مشبوهة بزواج سري أو فاقد لبعض الأركان أو شروط الصحة.. وكثير من هؤلاء وهؤلاء لا تعنيهم كثيرًا الحكمة من الزواج والهدف منه، اللهم إلا الميول الفطرى للجنس.. وقضاء الوطر وتلبية نداء الشهوة.

أما قضية الإنجاب.. والتربية.. وبناء الأسرة.. فهذا يحتاج إلى المزيد من العلم بأهمية الزواج، وعلاقته برسالة الإنسان في الحياة؛ لأن أخطر ما يضر بالاسرة والمجتمع، الجهل بهذه الأمور.

ثالثًا: دور الأسرة في بناء المجتمع:

يتكون المجتمع من مجموعة أسر، ولا يقوم المجتمع ولا يمكن له أن يقوم، ويؤدي رسالته، إلا إذا صلحت الأسرة صلاحًا يكفي لمكافحة الفساد، وإقامة الحق والعدل، وتحقيق الخلافة التي أرادها الله في الأرض.

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ ١٠٢ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

لكن للدكتور/ فؤاد زكريا رأي آخر حيث يرى أن أخطر ما يضر بالفرد والأسرة والمجتمع، هو عدم التوفيق بين الماضى والحاضر، والأصيل والبديل، والاتباع والابتداع، فهو لا ينهج المنهج الشرعى فى تقييم الأسر، ولا في بيان دورها في بناء المجتمع، إذ لايهتم كثيرًا بمسائل الحلال والحرام فى الزواج وتبعاته، والأسر وما يبقيها، أو يلغيها، ولا بموازين الإسلام وأحكامه وضوابطه.

فهو يرى أن الاتباع والأصالة، والأخذ بمفاهيم الماضى.. هو ما يعيق المجتمع، ويعمل على تقويضه.. وأراه ـ دائمًا ـ يقارن بين ضدين لا وسط لهما.. ولا فرق عنده بين ما هو ركن، أو فرض، أو واجب أو مباح، سواء فى تكوين الأسرة أو المجتمع، فلا كلام عنده عن أركان الأسرة، ولا عن واجباتها كما يرى علماء الإسلام .

يقول: «.. معنى الأصالة في نظر هؤلاء (يقصد علماء الشريعة) هو (العودة إلى الأصل) أي أن المطلوب من المجتمع.. أن يعيش في ماضيه دون حاضره، وأن يستلهم التاريخ ويبني حياته على أساسه.

هل يستطيع أي مجتمع أن يجمد التاريخ، ويتشبث بفترة واحدة منه، ويتجاهل كل ماقبلها ومابعدها، ويجعل من هذا الماضي حاضرًا أبديًّا، لا يسرى عليه التغير، ولا يخضع لتقلبات الزمن؟ وهل يمكن أن يعيش أي مجتمع بأمجاد ماضيه وحدها، وينسى أن ما كان (مجدًا) في عصر معين قد يصبح (تخلفا) إذا ما نقل بحذافيره إلى عصر آخر؟»[(١)]

والملاحظ أن الدكتور يتكلم بعمومية لا يفرق فيها بين أصيل يجب أن يبقى أصيلًا أبد الدهر مثلًا: كالزواج وأركانه وشروط صحته.. وبين حديث يجب الأخذ به، كتوثيق الزواج عن طريق الموثق (المأذون).. عند خراب الذمم.. وهكذا في عموم الأصيل والحديث، ولكن الدكتور يخلط في المفاهيم دون تحديد ما يمكن تغييره وما لا يمكن.. وما يقبل الجديد وما لا يقبل، ثم يتهم علماء المسلمين والمدافعين عن الإسلام بعدم فهم الواقع وتلبيس الأمور على الناس، ويطالبهم بوضع صيغ واضحة تزيل الصعوبات والتداخل في المفاهيم بالجمع بين الاتباع للماضي، والإبداع في الحاضر، وهو - بهذا التعميم- لا يستثني عقيدة، ولا حكمًا قطعيًّا، ولا حدًّا من حدود الله.

تأمل ما يقوله تحت عنوان/ الاتباع أم الإبداع يقول: «لابد من صيغة تقضي على هذا التداخل، وتتجنب هذه الصعوبات، والصيغة التي أعتقد أنها تخلصنا من كل هذه الالتباسات، وتضع أمامنا بدائل تمثل التحدي الحقيقي الذي يواجه مجتمعنا، شأنه شأن سائر مجتمعات العالم الثالث هي صيغة (الاتباع أو الإبداع) أعنى أن الإشكال الحضارى الذى نواجهه هو: هل نظل إلى الأبد مقلدين محاكين، نساير

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ٢٥، بتصرف مرجع سابق.

الآخرين، ونمسك بذيل تطور لم نصنعه، أم نصبح مبدعين نبتكر حلولنا الخاصة، ونقف ندًا للآخرين بأفكارنا الخلاقة؟

هذا التقابل بين الاتباع والإبداع الذي اقترحه بديلاً للتقابل (المضلل) بين الأصالة والمعاصرة، يمتاز على هذا الأخير بمزايا واضحة، فهو يتخلص من كل مظاهر الخلط بين المعنى الزمني والمعنى التقويمي؛ لأنه يستبعد الإشارة إلى الزمن، أو على الأصح يتخطى حدودها؛ ذلك لأن اتباع نمط غريب، أو تقليد حضارة متفوقة بغير تمييز أو إعمال للفكر، هو مظهر واضح من مظاهر التخلف، ولكن من الواجب أن ننتبه إلى أن هذا النوع من الاتباع يمكن أن ينطبق على مسايرة الماضي، مثلما ينطبق على محاكاة نماذج من الحاضر، ويؤدي في كلتا الحالتين إلى نتائج سلبية» (١).

ولعلك أيها القارئ الكريم تقول: هو يقصد التطور العلمي المادي وليس الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقيدة أوالأبناء والأسرة.. لكن الدكتور نفسه لم يقل ذلك ولم يشر إليه من قريب أو بعيد.

ولو أن الدكتور فؤاد زكريا يعلن أنه مع التوفيق بين الأصالة والمعاصرة في المستجدات العلمية، لكان هذا جيدًا ونوافقه عليه، إلا أنه في طرحه لمشروعه هذا تراه يخرج عن حد الاعتدال إلى الميل نحو كل جديدٍ على حساب القديم، ولو كان عقيدة أو إجماعًا، والحق أنه لا توجد ـ حقيقة ـ مقابلة بين الاتباع والإبداع إلا في تصور د/ فؤاد زكريا ودعاة العلمانية، وقوله: بوجود مقابلة مضللة بين الأصالة والمعاصرة، افتراء واضح.. واقتراحه بوضع صيغة (الاتباع أو الإبداع) محاولة منه لتحويل المسار الطبيعى للأمة الإسلامية فى الجمع بين الاتباع والإبداع، أو الأصالة والمعاصرة بالضوابط المعروفة..

إن المقابلة المضللة هى التى يقترحها د/ فؤاد زكريا، وليس الأصالة ولا المعاصرة. لان الجمع بين الأصالة والمعاصرة ممكن، وقائم بالفعل ولو بنسب تحتاج إلى ارتفاع فى بعض جوانب الحياة، وانخفاض فى البعض الآخر، وفق موازين الشريعة.

يقول الشيخ الغزالي: «هناك معالم ثلاثة ينبغي أن تتوفر في البيت المسلم، أو أن تظهر في كيانه المعنوي؛ ليؤدي رسالته، ويحقق وظيفته، هذه الثلاثة هي: (السكنية، والمودة، والتراحم).

وأعني بالسكينة الاستقرار النفسي، فتكون الزوجة قرة عين لرجلها، لا يعدوها إلى أخرى، كما يكون الزوج قرة عين لامرأته، لا تفكر في غيره.

أما المودة فهي شعور متبادل بالحب، يجعل العلاقة قائمة على الرضا والسعادة، ويجيء دور الرحمة؛

---

(١) المرجع السابق،صـ٢٧ وما بعدها، بتصرف.

لنعلم أن هذه الصفة أساس الأخلاق العظيمة، في الرجال والنساء على سواء، فالله ﷻ يقول لنبيه ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩] فليست الرحمة لونا من الشفقة العارضة، وإنما هي نبع للرقة الدائمة، ودماثة الأخلاق، وشرف السيرة.. وعندما تقوم البيوت على السكن المستقر، والود المتصل، والتراحم الحاني، فإن الزواج يكون أشرف النعم، وأبركها أثراً...

وسوف يتغلب على عقبات كثيرة، وما تكون منه إلا الذريات الجيدة! لقد شعرت أن أغلب ما يكون بين الأولاد من عقد وتناكر، يرجع إلى اعتلال العلاقة بين الأبوين، وفساد ذات البين!

فهل المعنويات تغنى عن الماديات؟ إن هناك عناصر أخرى تحف بالبيت أو تخرج منه لها أثر في سعادته. ولننظر إلى هذا الحديث النبوى، عن سعد بن أبى وقاص قال رسول الله ﷺ: (ثلاث من السعادة المرأة تراها فتعجبك، وتغيب عنها فتأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق، وثلاث من الشقاء المرأة تراها فتسوؤك، وتحمل لسانها عليك، وإن غبت لم تأمنها على نفسها ومالك، والدابة تكون قطوفا ـ بليدة ـ فإن ضربتها أتعبتك، وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق) [(١)].

وكل امرئ يميل إلى ما يسعده ويتباعد عما يشقيه، وفي الحديث(احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز) [(٢)] ومن حق المسلم أن يتطلع إلى بيت مريح، واسع المرافق، يزود منه بالطاقة النفسية الدافعة إلى العمل المثمر، ومن حقه أن يكره المواصلات الرديئة ، وأن يكره – قبل ذلك– قصور المرافق، وسوء العشرة .. !

إن الدين لا يكبت مطالب الفطرة، ولا يصادر أشواق النفس إلى الرضا والراحة والبشاشة ، وللإنسان عندما يقرر الزواج أن يتحرى عن وجود الخصال التى ينشدها، وأظن ذلك حق المرأة أيضا فيمن تختاره بعلا...

وقد لاحظت أن الخاطب قد يتكلف أخلاقا إلى حين! فإن كان غضوبا، تصنع الحلم، وإن كان شحيحًا، تصنع الكرم!

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عمر ﷺ بلفظ: (إن كان الشؤم في شيء ففي الدار والمرأة والفرس) كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، برقم (٥٠٩٤) صـ٧٤٧، مرجع سابق.

وباللفظ الذي ذكره الشيخ الغزالي خرجه السيوطي في الجامع الصغير، عن سعد بن أبي وقاص ﷺ برقم (٣٥٠٨) ، وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم(٣٠٥٦).

(٢) سبق تخريجه في الفصل الثالث، المبحث الثالث، تحت عنوان/ المسئولون عن حل مشكلات الشباب، صـ١٢٠.

حتى إذا زُفَّت إليه امرأته انكشف المخبوء، وبدت خلائقه الطبيعية!وفوجئت المرأة بها لم تكن تعهد» [(١)]

وهذا الذي يذكره الشيخ الغزالي عن أخلاق الرجل وما يقوم به من تمثيل وتكلف لا يلبث أن ينكشف، يصدر أيضًا من المرأة فكم من شباب تزوجوا المحجبات لحجابهن أو لنقابهن.. أو لالتزام الوالدين ببعض السنن ومظاهر الدين.. ثم بعد الدخول بها يجد ما لم يكن يتوقعه من ألفاظ وسلوك لا تصدر إلا عن جاهلة تبارز الله بالمعاصي.

إن ما يجب أن يتحلى به الرجل يجب أن تتحلى به المرأة، وكلاهما يمثل ركنًا هامًّا في الأسرة قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ﴾ [البقرة:٢٢٨] فلا يجوز لها مثلًا أن ترفع صوتها في وجه زوجها، بينما يجوز للزوج أن ينهرها ويزجرها بما يناسب مقتضى الحال، وكذلك ما يتعلق بالهجر والضرب غير المبرح.

لذا أقول: يجب على كلا الزوجين أن يعرفا ما عليهما من واجبات، قبل أن يعرفا ما لهما من حقوق؛ لأن الزواج ليس رحلة عابرة، إنه صحبة دائمة وشراكة قائمة وميثاق غليظ، والوفاء بتبعاته ضرب من الجهاد في الحياة، ودليل صدق مع الله، وشرف ومروءة مع الناس، لا سيما أقارب الزوجين، ولا يخفى أن الوفاء لهذه الأمور يسهم بقوة فى بناء مجتمع فاضل ومتماسك.

يدخل في ذلك الوفاء بالمهر وشروط الزواج، وما وعد به كل منهما الآخر، والنفقة والتربية والرعاية.

قال ﷺ : (أحقُ ما أوفَيْتُم منَ الشروط أن تُوفُوا به ما استحللتم به الفروج) [(٢)] ولقد رأيت أن البيوت التي تقوم على الصدق ومراعاة الأمانة تدوم وتبقى وتثمر خيرًا كبيرًا في تربية الأولاد الذين هم ثمرة هذه الأسرة، وفي الاستقرار النفسي والحب الحقيقي الذي يحقق السعادة.

والرجل حين يجد في زوجه ما يريد من هذه الخصال الجميلة والأخلاق الكريمة..قلما يفكر في ظلمها، أو حتى الزواج بأخرى، أو طلاقها.. كما كان رسول الله ﷺ مع السيدة خديجة رضي الله عنها تقول عائشة رضي الله عنها : (ما غرت على أحد من نساء النبيﷺما غرت على خديجة وما رأيتها ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها)[(٣)]

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ ١٢٥ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث عقبة رضي الله عنه كتاب النكاح، باب الشروط في النكاح، برقم (٥١٥١)، صـ٧٥٥، مرجع سابق.

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها برقم(٣٨١٨) صـ٥٤٢، مرجع سابق.

وفي رواية:(ما حسدت أحدًا ما حسدت خديجة، وما تزوجني رسول الله ﷺ إلا بعدما ماتت..)[(١)].

والثابت أن النبي ﷺ ما تزوج على خديجة في حياتها قط.. إنما تزوج جميع زوجاته بعد خديجة.

وكما أن المرأة يمكنها أن تؤثِّر في زوجها بأخلاقها.. فكذلك الرجل يمكنه أيضًا فعل ذلك.. وعندما تجد في زوجها ما تميل إليه بطبعها وتطمئن إلى مستقبل حياتها معه ماديًّا وأدبيًّا.. تعطيه مالها ونفسها وحنانها وما يريد.

يقول الشيخ/ الغزالي: «إن الوظيفة الاجتماعية للبيت المسلم تتطلب مؤهلات معينة، فإذا عز وجودها فلا معنى لعقد الزواج.. وهذه المؤهلات مفروضة على الرجل وعلى المرأة معًا، فمن شعر بالعجز عنها فلا حق له فى الزواج إذا كانت المرأة ناضبة الحنان قاسية الفؤاد، قوية الشعور بمآربها، بليدة الإحساس بمطالب غيرها، فخير لها أن تظل وحيدة ! فلن تصلح ربة بيت !إن الزوج قد يمرض، وقد تبرح به العلة فتضيق به الممرضة المستأجرة !المفروض أن تكون زوجته أصبر من غيرها وأظهر بشاشة وأملاً ودعاء له...

ومنطق الحب الشريف يعطى من الوفاء والولاء ما لا تعرفه القوانين التجارية والمبادلات المنفعية!! وما أكثرما يفتدي الرجل بيته بحياته، وتفتدي المرأة بيتها بحياتها... وما نقوله بالنسبة إلى المرأة نقوله بالنسبة إلى الرجل، فالعاجز عن أعباء الأسرة المادية والأدبية لايجوز له أن يتزوج...والمرأة الجبانة تعجز زوجها عن النهوض بواجباته وتحمل المخاطر واقتحام العقبات!والمرأة البخيلة تمنع رجلها من بذل العون وإكرام الضيف ودعم الضعاف!

إن خذلان الداخل يعوق الامتداد في الخارج، ويجعل الرجل خادما لمطالب بيته ومآرب زوجته وأولاده، وهذا طريق لا نهاية له، وقد أمر الله الرجال أن يلبوا نداء التضحية ولو تعلقت نساؤهم بأذيالهم، وحذرهم من النكوص، وإيثار الراحة، واجتماع الشمل على حساب المبادئ والعقائد، وهذا معنى الآيات ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن:١٤].

العداوة هنا ليست الخصومات المعروفة، وإنما هي انهزام الرجل أمام مطالب أسرته وقعوده عن الهجرة والجهاد؛ كي يبقى إلى جوارهم... وقد تدبرت تاريخ السلف الأول، فوجدت تعاونًا فريدًا بين أعضاء الأسرة على خدمة الإسلام، والوفاء بحقه، واقتسام المغارم في نصرته بين الأزواج والزوجات» [(١)].

---

(١) رواه الترمذي في السنن من حديث عائشة رضي الله عنها كتاب المناقب، باب فضل خديجة، برقم (٣٨٧٦) وقال: حديث حسن صحيح، صـ ٩٩٧، مرجع سابق.

(١) المرجع السابق، صـ١٢٧ وما بعدها، بتصرف، والشيخ رحمه الله يشير الى ما ورد فى صدر الإسلام من تعاون المراة مع زوجها كالسيدة أسماء بنت أبى بكر مع زوجها الزبير بن العوام، والسيدة أسماء بنت عميس مع سيدنا جعفربن أبى طالب، وأم سلمة هند بنت أبى أمية مع زوجها المغيرة بن عبد الله المخزومى وغيرهم رضي الله عنهم كثير .. للمزيد أنظر البداية والنهاية لأبن كثير المجلد الرابع صـ٢٥٤، جـ٧، صـ ٢٧٢، صـ ٢٧٦، جـ٨ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، الطبعة السابعة، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

إن هذا التعاون الفريد الذي أشار إليه الشيخ بين أعضاء الأسرة لم يكن يهدف إلى إقامة الدنيا فقط.. إنما كان هذا التعاون لإقامة الدين والدنيا معًا، وهذه هي الثمرة الكبرى من بناء الأسر...

فلا خير في دنيا بلا دين، ولا قوة للدين بدون الدنيا.

قد يقال: قوة الدين تكمن في عقيدة أبنائه، وهذا صحيح إلا أن العقيدة وحدها لا تكفي.. بل لابد أن تترجم هذه العقيدة في أعمال ملموسة تبين لخصوم هذا الدين قوة أبنائه.

أما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]

وقال رسول الله ﷺ: (ألا إن القوة الرمي) قالها ثلاثًا [١].

وإذا كان ذلك كذلك، فمن المسئول الأول عن غرس هذه القيم وتلك المبادئ في نفوس الأبناء الذين هم ثمرة الأسرة؟ يقول الشيخ/ الغزالي: «كان البيت الإسلامي في تاريخه الأول ينشيء الأخلاق الزاكية، والعبادات الوضيئة، ويرعى أصول الفضائل حتى تزهر، كما ترعى الأرض الطيبة البذرة الجيدة حتى تصير حبوبًا وفواكه. وكان الفتيان والفتيات يشبّون على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة وقول الحق، ورعاية العهود والأمانات، فكان البيت ـ بهذه الوظيفة ـ الرافد الأول لمجتمع راشد طاهر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. وكان الطفل يتعلم في سنينه الأولى كيف يصلي مؤتمًا بأهله، فإذا اشتد عوده بدأ يصوم! والمرحلة الأولى في العمر هي أساس ما بعدها من مراحل... » [٢].

ومثال ذلك ما ورد عن الربيع بنت معوذ رضي الله عنها قالت: (.. كنا نصوم.. ونُصَوِّم صبياننا، ونجعل لهم اللعبة من العهن فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك حتى يكون عند الإفطار) [٣]

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد قال: (كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ وسراياه، ويعدها علينا ويقول: يا بني هذه مآثر أبائكم فلا تضيعوا ذكرها) [٤]

لذا يجب على الأسر حتى تؤدي رسالتها وتقوم بواجبها أن تربي أولادها على العقيدة الصحيحة، والأخلاق النبيلة والصبر على العبادة، والعادات الحسنة، والتقاليد الأصيلة...

وهذا ما سأذكره بالتفصيل في المبحث التالي.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه كتاب الإمارة، باب فضل الرمي... برقم (١٩١٧/ ١٦٧) صـ٤٤٤، مرجع سابق.

(٢) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ١٨٨ وما بعدها، مرجع سابق.

(٣) خرجه البخاري في صحيحه برقم(١٩٦٠) كتاب الصوم، باب صوم الصبيان، صـ٢٧٤، مرجع سابق، ومسلم في صحيحه كتاب الصيام، باب من أكل في عاشوراء .. برقم(١١٣٦) صـ٢٤٣، مرجع سابق.

(٤) كتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، جـ٢، صـ١٩٥، الناشر: مكتبة المعارف بالرياض، سنة ١٩٨٣م.

المبحث الرابع: العادات والتقاليد الاجتماعية، والموقف منها:

العادات والتقاليد الاجتماعية لا يجوز أن نضعها في سلة واحدة، أو نحكم عليها حكمًا واحدًا، فكم من عادات وتقاليد أضفى عليها الشرع الإسلامي مشروعيته فصارت دينًا أو عرفًا له تقدير واحترام، وذلك كالكرم، والتعاون، والتكافل، ونصرة الضعيف.

وهناك عادات آثمة وتقاليد مجرمة محرمة، كالأخذ بالثأر على الطريقة الجاهلية، وكحرمان النساء ـ أحيانًا ـ من الميراث.

وهذه العادات تنقسم إلى ثلاثة أقسام.

الأول: العادات المقبولة شرعًا وعرفًا، ومثاله: الاعتزاز بالنسب والحسب دون تعصب.

الثانـي: العادات المرفوضة شرعًا وعرفًا، ومثاله: ممارسة الفاحشة أو الدعوة إليها.

الثالث: العادات المرفوضة شرعًا والمقبولة عرفا [1] ومثاله: الأخذ بالثأر.

هذه العادات وغيرها ـ كما هو واضح ـ منها ما هو صالح جاء الإسلام فشجع عليه، ووعد فاعله بالثواب الجزيل، ومنها ما هو طالح، يجب التخلي عنه، فهو ممنوع ومحرم.

والدكتور/ فؤاد زكريا لا يفرق بين عادات ولا عبادات بين عقيدة ولا شريعة ولا بين تقاليد أصيلة يقرها الدين.. أو تقاليد دخيلة يرفضها الدين.. فهو- غفر الله له- يرى أن أخطر العادات التعلق بالماضي والعجز عن التكيف مع الحاضر، ولم يذكر لنا: أي ماض أو أي حاضر؟ بل ويضع كلامه بذكاء ودهاء يوحي للقارئ أنه يقصد التقدم العلمي المادي.

يقول: «.. وحسبنا أن نشير إلى أن هذا التعلق المفرط بالماضي ينطوي ضمنًا على إنكارٍ لمبدأ التقدم، بل على عدم الإيمان بإمكان هذا التقدم، فمثل هذا المجتمع يرى أن كل علامات التقدم المحيطة به إنما هي مظاهر خادعة، ويعتقد أن مضي الزمن لا يؤدي إلا إلى زيادة تدهور البشرية، أو على أحسن الفروض يتركها على ما هي عليه، دون أن يخطو بها إلى الأمام خطوة واحدة.

هذه الظاهرة تتمثل في بعض المجتمعات التي ظلت خاضعة أمدًا طويلاً لسيطرة الإقطاع فضلاً عن أنها تنتشر أيضًا في المجتمعات التي كان للنظام القبلي فيها دور هام في تحديد طبيعة العلاقات الاجتماعية.

وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على عجز التكيف مع الواقع، أو على رغبة لا شعورية في الهروب منه، وحين تتخذ عبادة الماضي طابعًا متطرفًا فإنها تصبح عاملاً من عوامل تخدير المجتمع، وصرف أنظاره عن

---

(١) هذا بالنسبة للمجتمع العربي، أما غيره من المجتمعات فقد تختلف العلاقة بين العادات وما عندهم من عبادات؛ لأن العرف يعنى ما تعارف عليه الناس فى مجتمع ما، وإن لم يكن له أصل فى دين أو خلق.

مشاغله الحاضرة، وعن واجباته في المستقبل، ولذلك كان لزامًا على كل مجتمع يتطلع إلى إحداث تغيير ثوري في حياته، أن يجعل لتأثير ماضيه حدودًا لا يتعداها، وأفضل ما يمكن عمله في هذا الصدد، هو أن يتخذ من ماضيه قوة تعينه على السير قدمًا نحو مستقبل أفضل، وهذا أمر لا يصعب إنجازه، إذ إن قدرة الأمة على اكتشاف نفسها، والاهتداء إلى هويتها الأصلية، تعد من أهم العوامل التي تساعدها على النهوض في مستقبلها، بل إن البعض يرى أن تعمق الأمة في معرفة ماضيها، وفهم أبعاد شخصيتها، يعينها حتى في عمليات التنمية ذاتها، سواء أكانت تلك تنمية اقتصادية أم اجتماعية في هذا الإطار.

ويعد التعلق بالماضي، والسعي إلى استكشاف أبعاده أمرًا مشروعًا، أما الوقوف عند حدود هذا الماضي، دون نظر إلى متطلبات الحاضر، وأهداف المستقبل فمظهر من مظاهر عقلية معتلة ربما كان من أهم أسباب تكوينها انتشار عادات التفكير التي ترجع إلى العصور الإقطاعية» [(١)].

ومع أن كلام الدكتور في السطور السبعة الأخيرة لا غبار عليه، بل فيه نصيحة عظيمة للأمة لتثق بقدرتها، وتعرف هويتها، ولكن لا أدري ماذا يقصد بالهوية الأصلية؟ هل هي الدين الإسلامي أم العروبة أم الدولة المصرية الفرعونية؟ مع أنه (لأول مرة) يصرح بمشروعية التعلق بالماضي.. ولم يقل أي ماضٍ يقصد؟ الماضي القريب أم البعيد، أم ماذا؟

لا يجوز أن نضع الماضي كله في سلة واحدة ونحكم عليه حكمًا واحدًا، أو نزنه بميزان غير ميزان الإسلام. يقول الشيخ الغزالي: «في بلادنا تقاليد ربما كرهت الحرام أو الرذيلة؛ لأن في الضمير الديني بقية حياة، ولكن هذه التقاليد لا توسع دائرة الحلال، ولا تزيح العوائق المبعثرة في طريقه، فكانت النتيجة أن حرمة الزنا مثلاً بقيت! ويجب أن تبقى ـ ولكن الزواج تكاثرت حوله الصعاب، حتى يئس البعض من مناله..

وهذه السلبية في الفكر الديني ترشحه للموت، ولا تؤهله للحياة.. ومثل ذلك إجماع أهل الدين على أن الظلم حرام، والكذب حرام، مع ذلك فهم يسكتون سكوت المقابر إذا وقع تزوير عام في انتخاب لخدمة فرد، كأن الكذب يستنكر إذا كان بسيطًا، ويُسلم له إذا كان مركبًا!

ومن المستحيل أن تصلح الأوضاع السياسية للمسلمين إذا كان الدين – فى فهمهم– يهتم بفقه الحيض والنفاس، ولا يكترث لفقه المال والحكم» [(١)].

---

(١) الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، صـ٢١ وما بعدها، مرجع سابق.

(١) الفساد السياسي في المجتمعات العربية، والإسلامية، للغزالي، صـ٩٧، ط/ نهضة مصر، ط ١، سنة ١٩٩٨م.

ويمضي الشيخ/ الغزالي في بيان التقاليد والعادات الدخيلة على المسلمين والتي يجب أن تتغير يقول تحت عنوان: (تقاليد لابد من تغييرها): «أغلب البيوت يستقبل رمضان بقلق؛ لأن ميدان التجارة يغزوه الكساد، وميدان الزراعة يغزوه الجفاف، والأسعار جانحة إلى الغلاء! وتقاليد المسلمين جعلت شهر الصيام شهر الطعام، وجعلت النفقة فيه أربى من غيرها في سائر الشهور..

ما العمل؟ لنكن صرحاء ولنقل: إن على المسلمين تغيير تقاليدهم القائمة على الإسراف! ويجب أن تعود صبغة العبادة لشهر العبادة، وأن يبرز في الصيام معنى الجهاد، والقدرة على مقاومة شتى الرغبات!

كنت أحب ممن صرعتهم عادة (التدخين) أن ينتهزوا الفرصة فينسلخوا عن هذه العادة، إما بإرادة قاهرة ناجحة، وإما بتدرج مقرون بالعزم!!

كنت أحب ممن يغلبهم الفتور في الدراسة، أو في الإنتاج، أن يتعودوا القراءة، والتدبر، والإجادة المثمرة لكل عمل...

إن البيت الإسلامي يقوم على إعداد الطعام لأهله، وليست مهمته أن يكوِّن عادات البطنة والتشبع، أو أن يدخل في منافسات مادية سفيهة، لتقديم الأشهى والأغلى. والظروف السياسية والعسكرية التي تمر بأمتنا تفرض علينا ألوانًا من التقشف لا ألوانًا من اللذات.» [١]

ولم يقف الأمر عند عادات الأكل والشرب والتي ارتبطت بكثير من المناسبات والأعياد، فما خلا عيد ولا مناسبة من أكل معين.. وإنما ورث المجتمع العربي عادات خطيرة وسيئة مثل عادة الثأر (قتل القاتل أو أحد أقاربه) يقول الشيخ/ الغزالي: «عندنا في الإسلام القتل عمد أو خطأ أو شبه خطأ، فمن قتل عمدًا يقتل إلا إذا عفا ولي الدم، وفي المسافة بين ولي الدم وعفوه، وبين القصاص، يمكن أن يتدخل الناس والمجتمع وتحدث أشياء كثيرة، والذي يقع الآن أن حوالي عشرين ألف جريمة قتل لا يعاقب بالإعدام فيها إلا نحو خمسين، ثم يرى مَن قُتل أبوه أن القاتل في الطريق، فيأخذ بالثأر فطبيعي؛ لأن القوانين غير صحيحة، ويقولون حاربوا عادة الأخذ بالثار، كيف أحاربها والقوانين تملي بها، وتجعلها لابد منها؟ احكم بالشريعة الإسلامية مَن قتل يقتل، إلا إن عفى ولي الدم.. ويوم أن نلقى أسرة قُتل أحدهم وجاء القاتل يلبس كفنه وقال لهم: أنا فى أيديكم اقتلونى إن شئتم، ولكن ما يحدث الآن يثير الغضاضة، والعداوة، ويبقى لا بد من القصاص، طلبت فعلًا أن نتخلص من الأحكام الفرنسية ونحكم بالشريعة، فهي أولى بنا وأصلح» [١].

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ١٨٨، مرجع سابق.

(١) حوارات الغزالي السيرة والمسيرة، صـ١٠٢، مرجع سابق.

والواقع يؤكد أن عادة الأخذ بالثأر من أخطر العادات الذميمة في المجتمع، فأنا ولدت في صعيد مصر، وعشت فيه أكثر من عشرين سنة،ورأيت ما تشيب له رءوس الولدان، ورأيت في اليمن ما رأيته في الصعيد أو يزيد، إذ كل قبيلة تحشد عشرات أو مئات من المسلحين تنتظر إشارة البدء من شيخ القبيلة.. (١)

وعندها لا تفلح المواعظ وذكر الآيات والأحاديث الدالة على خطورة القتل وعقاب القاتل،ولاتسمع ألا الجهل والكبر والجحود، فلا وزن ولا قيمة عند هؤلاء لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣٣] لأن كثيراً من القبائل العربية لا ترضى القصاص ولا الدية لاعتقادهم (الخاطئ) أن حياتهم ودماءهم تفوق حياة ودماء الآخرين.

إن عادة ادعاء الشرف والفضل إذا ما أضيفت إلى عادة الأخذ بالثأر تظهر بجلاء خطورة هذه العادات.. وضرورة العمل على مواجهتها.

يقول الشيخ/ الغزالي: "إن بني آدم من ناحية الخلقة يستوون في أنهم نفخة من روح الله الأعلى، حتى في إهاب من تراب هذه الأرض، فالبشر كلهم ينميهم أصل واحد، ويجمعهم نسب مشترك، قال تعالى يشرح تلك الحقائق: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٧: ٩].

لا فرق بين جلد أبيض أو أسود، أو أصفر أو أحمر، إن هذه الألوان المختلفة تشابه ما تراه العيون من اختلاف في ألوان الأزهار والورود، ولا دلالة على عراقة أو تفاهة..

بيد أن كثيرًا من الناس يسرهم أن يختلقوا من عند أنفسهم هذه الفروق، وأن يقيموا حولها عصبيات، وأن يجعلوا لها وزنًا خاصًا في التقديم والتأخير، والقبول والرفض، وقد رأيت البعض يتشبث بهذه الأوهام؛ لأنها رجحت كفته دون جهد، ومنحته شرفًا جعله ـ دون حركة ـ يسبق الناشطين! إنه لشيء ظريف أن يحسب المرء سيدًا؛ لأنه تكون في بطن معين، ونشأ الناس من ماء مهين أما هو فمن ماء شريف.

إنه ـ مع احترامنا لقوانين الوراثة ـ نقرر أن الوراثة لا تنشئ عظمة، ولا تكسب نجاحًا، فهناك أنبياء من أصلاب كافرة، وهناك فجار من أصلاب أنبياء، وقد كان أبو الطيب شاعرًا مفلقًا من أب لا يعرف شعرًا ولا نثرًا، وكان أبو العلاء فيلسوفًا متشائمًا من أب لا يدري شيئًا عن الفلسفة.

---

(١) كانت هذه الواقعة سنة ١٩٩٤م في محافظة شبوة مركز الصعيد حيث طال مسلسل القتل للأبرياء، واستمر الصراع بين القبائل، الأمر الذي جعل بعض العقلاء يدعون علماء الدين، وخصوصًا البعثة الأزهرية للصلح، ومع أن العلماء كانوا مُوَفَّقِين جدًا في إبداء النصح وذكر النصوص الرادعة.. إلا أن عادة الجاهلية في الأخذ بالثأر غلبت الجميع.

ثم إن روافد الوراثة غامضة المنبع والكنه في أبناء الجيل الواحد، فكيف إذا تكاثرت الأجيال؟ ونحن نعرف النكتة المروية عن امرأة جميلة، أحبت عبقريًا دميمًا، وعرضت عليه الزواج لينجبا ابنا يرث جمالها وذكاءه! فقال لها الرجل: أخشى أن يرث غباوتك ودمامتي!!

إن القول بأن جنسًا ما ذكي بأصل الخلقة، وجنسًا آخر غبي بأصل الخلقة قول فيه ادعاء ظاهر، إن ظروف البيئة هي التي تصنع الأعاجيب، وهي التي تنمي المواهب أو تقتلها، بل هي التي تحيي الفطرة أو تميتها» [١]. والغرور والكبرياء بلاء ما رأيت مثله بلاءً إذ كثير من الناس بسبب هذه الأمراض خسر دينه ودنياه. يقول رسول الله ﷺ: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) ثم فسر الكبر قائلًا: الكبر بطر الحق ـ أي عدم قبوله ـ وغمط الناس أي احتقارهم[٢].

إن هذه العادات السيئة ـ وما أكثرها في البلاد ـ تحتاج إلى شجاعة من أهل الإيمان والتقوى لاسيما الأقارب وأصحاب الولايات لأنهم أقدر على التأثير والتغيير. قال ﷺ: (انصر أخالك ظالمًا أو مظلومًا. قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلومًا فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: تأخذ فوق يده) [٣].

فهل يستجيب كبير القوم بما له من سلطان وتأثير؟ وهل يستخدم هذا النفوذ في الخير لا في الشر.. امتثالاً لأمر الله القائل: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: ٤١] وقد قيل: لا يهز الشجرة إلا فرع منها.

والصلح مطلوب، وفي الصلح خير حتى بين الزوج والزوجة، فضلا عن العلاقات الأسرية والقبلية.. والجنايات الكبرى.. وقد يحتاج الأمر إلى القصاص العادل والعقاب الرادع، وقد يكون العفو ويتم الصلح، لذا يجب أن لا نستسلم لظروف البيئة وتقاليد الناس.. على حساب شريعة الله. وأخص بالذكر هنا (ولي الأمر) وأؤكد على العادات المتعلقة بالحدود والقصاص، وضرورة تطبيقها والعمل بمقتضاها.. لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وأعتقد أننا إذا رجعنا إلى كتاب ربنا وسنة نبينا، والعادات الأصيلة التي تربى عليها آباؤنا وأجدادنا في التسامح والعفو والمروءة، لاستطعنا بيسر وسهولة أن نميز بين عادات نافعة يجب أن تحرس وتصان، وعادات سيئة يجب أن تمحى وتهان، وفي ذلك بقاء للأسر وقوة للمجتمع.

وعن عوامل هدم الأسر وتفككها وأثر ذلك على المجتمع تكون الصفحات التالي.

---

(١) مائة سؤال للغزالي، صـ ١٤٢ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه برقم (٩١/ ١٤٧)صـ٣٠ مرجع سابق.

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه كتاب المظالم والغصب، باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، برقم(٢٤٤٤) صـ٣٤٣، مرجع سابق.

المبحث الخامس: عوامل هدم الأسرة وتفكيكها، وخطورة ذلك على المجتمع:

لقد بينت فيما مضى مكانة الأسرة، واعتناء الإسلام بها وأركانها، ودورها في بناء المجتمع.. وأتناول في هذا المبحث أخطر العوامل الهدامة والمدمرة لها.

وأعتقد أن دمار الأسرة وتفككها أو إضعافها، وعدم قيامها بواجباتها في بناء المجتمع.. يرجع إلى عدة أمور منها:

١ـ سوء الاختيار ابتداءً، فقد يُفَاجَأُ أحد الزوجين بأنه انخدع.. فلا كفاءة.. ولا دين.. ولا خلق.. وقد يكتشف ذلك بعد إنجاب الأولاد.

٢ـ سوء الخلق والمعاملة من أحد الزوجين بطريقة تستحيل معها الحياة.

٣ـ انفصال الزوجين بالطلاق، أو الهجر الدائم، أو السفر المتواصل.

والذي يبدو لي من كتب د/ فؤاد زكريا أنه ينظر إلى المجتمع ككل على أنه هو الذي يصنع الأسرة، وليست الأسرة هي التي تصنع المجتمع، وأن ما يهدد هذا المجتمع هو الجهل بالعلوم الحديثة، فهوـ غفر الله له ـ لا ينظر إلى مسألة بر الوالدين، ولا الضوابط الشرعية لأفراد الأسرة، ولا التربية اللازمة لكل فرد من أفراد المجتمع، ولا مسألة نشوز أحد الزوجين، ولا علاج هذا النشوز، ويخلط بين ما يحتاجه الفرد من إصلاح، وبين ما يحتاجه الناس في تجمعاتهم، وغالباً يحمل الفكر الإسلامي مسئولية أي إخفاق يظهر في المجتمع .

يقول: "المشكلة الحقيقية لا تكمن في عدم وجود برنامج محدد المعالم، قابل للتطبيق في ظروف المجتمع الحديث.. ذلك؛ لأن الاتجاه السائد لدى الجماعات الدينية.. هو تركيز الاهتمام على الفرد، وتجاهل البعد الاجتماعي، أو السكوت عنه.. وعندما يثار ضدهم الاعتراض القائل بأن دعوتهم تفتقر إلى برنامج اجتماعي، واضح المعالم، يردون بأن هدفهم الأول هو بناء (الفرد المسلم)، وحين يتحقق هذا الهدف ، يصبح إصلاح أمور المجتمع أمرًا هينًا.

والفلسفة الكامنة من وراء هذا، هي أن المجتمع ليس إلا مجموعة أفراد، وأن إصلاح الأفراد معناه إصلاح المجموع، وتلك بغير شك (نظرية تجزيئية) أو إن شئت فقل إنها (نظرية ذرية) إلى المجتمع؛ لأنها تتجاهل أمرين على جانب كبير من الخطورة:

الأول: هو أن المجتمع ليس مجرد أفراد، فالمجتمع حقيقة قائمة بذاتها، تتجاوز نطاق الأفراد المكونين لها، وله قوانينه ومطالبه ومقتضياته...

الثاني: هو أن هذه النظرية تتناول وجهًا واحدًا من أوجه ظاهرة، ذات جانبين متفاعلين، يستحيل الفصل بينهما، فإن قلنا صلاح المجتمع ينبغي أن يسبقه إصلاح الأفراد الذين يؤلفونه، لكان من الطبيعي أن يعترض علينا مَن يقول: وكيف نصلح الأفراد إن لم نصلح المجتمع الذي يعيشون فيه؟

هل يمكن إصلاح الأفراد في فراغ؟ أليس الفرد مرتبطًا، ارتباطًا وثيقًا بالمجتمع، والبيئة التي يعيش فيها؟.. وهل من المعقول أن يظل المجتمع فاسدًا، ثم نبدأ بإصلاح أفراده، على أمل أن هؤلاء هم الذين سيصلحونه فيما بعد؟» [1].

ولا أدري من أين أتى د/ فؤاد زكريا بهذه الظنون، القائمة على الخيال والوهم، لا الحقيقة والواقع؟ ومَنْ قال إن صلاح الفرد يتعارض أو يعطل إصلاح المجتمع؟ أليس لدى الجماعات التي ينتقدها الدكتور برامج متعددة لإصلاح الأفراد، والأسر، والجماعات، بل ورؤية مستقبلية لإصلاح العالم أجمع؟

والسؤال الجدير بالذكر هنا مَن جاء أولاً للحياة الفرد أم المجتمع؟وَلِمَ لا يكون الإصلاح للاثنين معًا على التوازي؟

الواضح أن الدكتور ـ غفر الله له ـ يبحث عن أخطاء ليست موجودة إلا في خياله هو !! أليس لإصلاح المجتمع رؤى، ووسائل تسير جنبًا لجنب مع إصلاح الفرد؟ أليست الأسرة مكونة من رجل وهو فرد، وامرأة وهي فرد أيضًا، وأولاد وهم أفراد.

والأعجب من هذا أنه يربط بين هذا الأمر عند العرب المسلمين، وعند أمريكا في كتاب آخر بعنوان (العرب والنموذج الأمريكي)، يتكلم فيه عن الفكر الرأسمالي الغربي، والذي شعاره عن الفرد (دعه يعمل، دعه يمر) وبعد حديث طويل عن مساوئ هذا الفكر، وما فيه من أنانية، وظلم لغالبية المجتمع.. ينكر بشدة فكرة (مجتمع الأسرة الواحدة) .

يقول: «..أما القاعدة الشعبية الواسعة فهي تنظر بحسرة إلى القلة المحظوظة، وسوف تتضاعف معاناتها.. ومن المستحيل معالجة موقف كهذا عن طريق التبشير بفلسفة (مجتمع الأسرة الواحدة) بين أفراد المجتمع الفقير؛ ذلك لأن فلسفة (الأسرة الواحدة) ينبغي أن تكون التزامًا من كلا الجانبين، فكما تطلب من الفقير بألا يحقد على الغني أو يتمرد عليه، ينبغي أن نطالب الغني بأن لا يثير حقد الفقير، وتمرده، ولكن الذي يحدث هو أن فلسفة (الأسرة الواحدة) في هذه المجتمعات الفقيرة، لا تتذكر سوى التزامات طرف

---

(١) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، صـ٢٧ وما بعدها، بتصرف يسير، مرجع سابق.

واحد من أطراف (الأسرة الواحدة)، بينما تتغاضى تمامًا عن التزامات عضو الأسرة الغني تجاه (أقربائه) الجياع» [(١)]

وأقول: ليست المشكلة تحل بالمطالبة فقط، وإلقاء الأوامر، أوسن القوانين، أو التركيز على الفرد، دون الجماعة، أو الجماعة دون الفرد.

إن خطأ مَن يَقْصُرُ اهتمامه على الفرد، على حساب المجتمع، لا يقل عن خطأ مَن يقصر اهتمامه على المجتمع على حساب الفرد، والسلامة في التوازن والعدل والانصاف، وإعطاء كل ذي حق حقه، والإسلام خير من وازن بين هذه الأمور، ووضع لها القواعد، والأحكام، لكن د/ فؤاد يتكلم بعموميات، وفلسفات بعيدة عن القواعد الفقهية في الإسلام، فهو لا يتكلم عن آداب، ولا ثواب، ولا عقاب، ولا واجبات، ولا حقوق متبادلة بين أفراد الأسرة، ولا حتى المجتمعات.

أما الشيخ/ الغزالي رحمه الله فهو يرى أن أخطر ما يهدد كيان الأسرة الطلاق، وسوء التربية، والفهم الخاطئ للقوامة. يقول:«طلاق السنة أن يطلق الرجل امرأته في طهر لم يمسها فيه.. وتكون طلقة واحدة، وتبقى في البيت لا تخرج من البيت طوال مدة العدة.. هذا هو طلاق السنة الذي يعني طلاق بنية وليس رجلاً مجنونًا دخل سكرانًا غضبانًا لأمر ما غلب عليه.. أنا أستطيع أن أضع قواعد إسلامية لتنظيم البيت الإسلامي، اليوم المرأة تسمع الطلاق تذهب إلى بيت أهلها.. كم من أولاد يتامى مع وجود آبائهم؛ لأن الأب طلق (بهبل) واعتبر طلاقه مع البلاهة ومع أنه بدعة حقًّا، أي إسلام هذا؟![(٢)] لابد من مراجعة تعاليم الإسلام، نحن نريد أن نعرف الحقائق كما جاء بها إسلامنا، ونستطيع بهذا أن ننظم الأسرة، وأن نجعل لها موازين تمشي عليها» [(٣)].

وفي موضع آخر يقول الشيخ رحمه الله: «إن لكل من الزوجين تحت وطأة الظروف العصيبة أن ينفصل عن الآخر، وقد أقر الشرع هذا ووضع له نظامًا عادلاً ومقبولاً..!!

لقد جعل الإسلام الطلاق على مراحل متأنية متراخية، لا تسمح للنزوات العارضة، ولا للغيوم العابرة أن تهدم بناء الأسرة، فإذا رغب الرجل في الطلاق تريث... » [(١)].

---

(١) العرب والنموذج الأمريكي، صـ٨٠ وما بعدها، بتصرف يسير، مرجع سابق.

(٢) مسألة الطلاق البدعي ومرقف العلماء منه ذكرتها بالتفصيل في المبحث السابع من الفصل الرابع بما يغني عن إعادتها هنا.

(٣) حوارات الشيخ الغزالي، صـ٢٢٥ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق، وللمزيد انظر كتاب (قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة)، صـ١٧٢ وما بعدها، تحت عنوان (هواة خراب البيوت، وضرب الزوجات، وبيت الطاعة)، مرجع سابق.

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١٣٣، وعن تبرج المرأة، والاختلاط المريب، وعقوبة الزنا، انظر صـ١٢٦: ١٣١، مرجع سابق.

نعم إن أخطر ما يهدد كيان الأسرة هو التعجل والتعسف في الطلاق، وكم من أناث تعجلوا في هذا الأمر وأحبوا أن يتراجعوا فيه فما استطاعوا، لاسيما لو كان الطلاق الثالث الصريح؛ لأن الكلمة كالسهم، وكالطلق الناري، إذا خرجت لا تعود.

ومن الأخطاء التي يقع فيها البعض، قولهم : (طلقت زوجتي، وأريد الشيخ أن يرد لي هذا اليمين)، والصواب: أن اليمين الصريح لا يرد، إنما ترد الزوجة إلى عصمة زوجها إذا كان الطلاق رجعيًّا، أو بائناً بينونةً صغرى، وتكون الرجعة بالقول أو الفعل دون الحاجة إلى وسيط.

يقول الشيخ الغزالي: «علاج التطليق هو رفع المستوى العلمي، والخلقي، وإعادة الأمة الإسلامية إلى قواعدها الاجتماعية الأولى، وهي قواعد من أنبل وأشرف ما وعى التاريخ.

نحن نعلم أن هناك مَن أساء استعمال حقه في تعدد الزوجات، وإيقاع الطلاق ... أما الهدم الذي أصاب دعائم الأسرة من الفوضى الجنسية، والخلقية التي زحفت علينا من الغرب» [(١)].

وكثيرًا ما يذكر الشيخ الغزالي هذه المسألة ويحذر منها ويطالب المسلمين بالرجوع إلى المنبع الصافي، شريعة الإسلام، فإنها تسع الأمة كلها وتحميها وتحيطها بالرعاية، وتمدها بالقوة والثبات.

وفي مكان آخر يبين الشيخ ما يهدد المجتمع ويقوض أركانه ويصيبه في مقتل فتحت عنوان/ أسباب انهيار المجتمع يقول: «إن الانهيار الذي عرض لأمتنا في العصور الأخيرة يرجع إلى أسباب علمية واقتصادية وسياسية كثيرة .. بيد أن فقدان التربية السديدة، والأخلاق الصلبة يرجع للعوج الهائل في مسائل التربية، وأول ذلك المرأة المخرفة الغافلة، والبيت الساذج المحدود...

لقد كانت النساء في العصر الأول تصلي التراويح في مساجد خاصة بهن، حتى جاء أخيرًا ما يمنعهن أداء الفرائض في بيوت الله، وكنّ يبايعن الإمام على نصرة الإسلام، ومكارم الأخلاق .. حتى جاء مَن يقوم بتجهيلهن عمدًا في قضايا الإسلام الكبرى، ومكافحة أعدائه المتربصين به..» [(١)].

هذا عن فقدان التربية السديدة والأخلاق الرشيدة، فماذا عن المخدرات والعقاقير التي انتشرت وتطورت بصورة مذهلة، تأمل ما يقوله الشيخ رحمه الله: «بين يدي العدد ٣٨ الذي أصدرته منظمة الصحة العالمية سنة ١٩٨١م عن الكحول والعقاقير المخدرة، وقد أجلت النظر في صحائفه فوجدتها ملآى بالنذر

---

(١) هذا ديننا للغزالي صـ١٤٥، مرجع سابق.

(١) الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، صـ١٥، مرجع سابق.

من ضراوة الخمر، وفتك المخدرات، ووجدت دراسات طبية اجتماعية تثير التشاؤم بسبب كثرة السكارى والمدمنين!

تحت عنوان (ثمن الكأس) جاءت هذه العبارة: إن الخمر شراب يبعث على السرور، والاسترخاء لدى الألوف المؤلفة! ولكن المشكلات التي تنشأ عنها تعوق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، بل تهدد بفيضانها العرم كل الخدمات الصحية المتاحة...

وفي مقال عن الخمر والشباب، بدأ الكاتب حديثه بهذه العبارة: عندما يشرب الآباء الخمور، فإن الأبناء هم الذين يدفعون الثمن!. » (١) .

لأن الأبناء يقلدون الآباء غالبًا، ويتعلمون منهم، ويأخذون عنهم، ويتأثرون بسلوكهم وعاداتهم، فكم من مدخن أو مدمن تعلم من أبيه أو أمه أو أحد أقاربه أو صديق السوء.

ولا أدري لماذا لا يطبق حد الجلد على شارب الخمر؟

إذا كان لبعض المتأولين شبهة في حدٍّ كحد السرقة وهي شبهة عدم توفير الكفاية المادية.. والرعاية الاجتماعية، وفرص العمل..فما هي الشبهة التي تمنع من إقامة حد الجلد على المخمور والسكير كي يطهر المجتمع من أمثال هؤلاء؟

يبدو لي أنه لا توجد النية الصادقة، والإرادة السياسية لتحقيق هذا الهدف! هناك عشرات البارات في المنطقة الواحدة، مثلًا كمنطقة الهرم، ناهيك بالمنتفعين من هذه التجارة والصناعة.

يقول الشيخ: «إن الإسلام حرم الخمر، وعدّها من كبائر الإثم! ونظمها في سلك واحد مع الزنى، والسرقة ففي الحديث: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) (١) وعن أنس بن مالك ﵁ قال: لعن النبي ﷺ في الخمر عشرة! عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وواهبها، وآكل ثمنها!! (٢) وظاهر من هذا الاستقصاء أن الشارع يريد قطع دابرها، ومحو آثارها، وإغلاق كل الأبواب التي تؤدي إليها.

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، صـ٤١٥ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة﵁كتاب الحدود، باب ما يُحذر من الحدود (باب لا يُشرب الخمر)، برقم ٦٧٧٢، صـ٩٥٧، مرجع سابق.

(٢) رواه الترمذي في سننه، من حديث أنس بن مالك ﵁ بألفاظ متقاربة كتاب البيوع، باب النهي أن يُتخذ الخمر خلًّا، رقم (١٢٩٥) وهو حسن صحيح انظر صـ٣٤٩، وقد روي بنحوه عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر عن النبي ﷺ، مرجع سابق.

والقرآن عدّها مع الوثنية، والقمار، وأوهام الشرك قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠: ٩١].

والخمر كل ما غطى العقل، وأعجز الفكر أيًا كان مصدره! يستوي فيه العنب، والموز، والقصب، ويستوي فيه الجامد والسائل.. فإن القصد واضح، والله ﷻ كرّم الإنسان بالعقل، فما أضاع العقل حرام، ومن السخف أن تتصور الشارع يحرم الخمر السائلة، ويتجاوز عن عقاقير جامدة قد تكون أشد من الخمر ضراوة وأعظم فتكًا.

إن فترة الغيبوبة التي يحدثها السُّكر، تعطل عمل العقل، وتترك الشهوات سائبة دون قيدٍ وتتيح الانطلاق الحيواني دون خوف، أو كرامة، أو تهيب لسلطة» [(١)].

نعم فالخمر وأخواتها تعطل العقل، وتجعل الإنسان أقرب إلى الحيوان، وكم من مخمور وقع على أمه أو أخته أو ابنته، وكم من نساء يبكين ويشكين مرّ الشكوى من هذا الداء الذي يهدد حياتهن وحياة أولادهنّ؛ لما يعانين من سلوك وأخلاق أزواجهن المدمنين للخمور[(٢)].

وحتى تقوى الأسر وتستمر في تأدية رسالتها في الحياة لابد وأن يرجع جميع أفرادها إلى الله ورسوله، ويعلم كل واحد ما عليه من فروض عينية وواجبات اجتماعية، وما هو مسئول عنه وما سيحاسب عليه في الدنيا والآخرة.

إن المرء الجاحد لتعاليم السماء المعطل لعقله كالأعمى الذي لا يبصر الطريق.

قال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣: ١٢٦].

ولا ننسى أن أشياء كثيرة تصيب الأسرة بالوهن والأذى، كالفقر والمرض والجهل والبيئة السيئة، كجيران السوء وقرناء السوء، والتعليم السيء والإعلام المضلل، والإستغراق في اللعب على حساب الجدّ والعمل.. وهذا كله يطول الكلام فيه، ولقد تحدثت عن بعضه. وسيأتي الحديث عن البعض الآخر لاحقًا إن شاء الله تعالى.

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، صـ٤١٦ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) بحكم عملي في الدعوة والفتوى، تكرر أمامي مثل هذه الحالات التي تترك أثرًا مدمرًا على أفراد الأسرة، وتصيبها بخلل كبير وشرخ خطير يبقى طويلاً في النفوس.

المبحث السادس: النماذج الاجتماعية الغربية، والنماذج الاجتماعية العربية الإسلامية:

يمتاز المجتمع المسلم عن غيره في المجتمعات الأخرى بمزايا وسمات، وقيم وأصول، تجعله متميزًا وفريدًا، فهو مجتمع متدين منذ القدم، وهو مهد الرسالات، ومنه انطلقت دعوات الأنبياء الثلاث: نبي الله موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

ففي هذا المجتمع لا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة، إلا على الزواج الصحيح، القائم على المسئولية المتبادلة، والأهداف النبيلة، كالإنجاب والاستقرار، المودة والرحمة، والسكن والتعاون، والنصيحة، ولا يخفى أن المجتمع العربي المسلم لا يزال متمسكًا بهذه القيم إلى حدٍّ كبير.

ترى ذلك واضحًا في الزواج، والطلاق، وإثبات النسب، والإنتماء للقبيلة، والتكافل الاجتماعي، والترابط الأسري..

بيد أن المجتمعات الغربية، لا تلتفت كثيرًا إلى تعاليم السماء ولا إلى هذه القيم، خصوصًا في العلاقة بين الرجل والمرأة، وهذا يجعل البون شاسعًا، بين النماذج الاجتماعية الغربية، والنماذج الاجتماعية العربية والإسلامية .

أولاً: موقف د/ فؤاد زكريا من النماذج الاجتماعية الغربية:

للدكتور فؤاد زكريا كتاب كامل بعنوان: (العرب والنموذج الأمريكي) كما له كتابات أخرى في كتب أخرى، هذا الكتاب، وهذه الكتابات – على عادة الدكتور زكريا– تتكلم في ثقافات وأفكار دخيلة على المجتمع العربى المسلم ، وتركز بقوة على الجانب العلمي والاقتصادي، وأثرهما على حياة الناس، والحق أن الدكتور فؤاد زكريا لا يشيد بها كلها، ولا يرفضها كلها ـ وهذا جيد ـ ولكن مازلت في حيرة من أمره !! فأنا لا أدري على أي أساس (هو يقبل) وعلى أي أساس (يرفض) وفي آرائه ـ لا يخضع للأدلة الشرعية، وموازين الإسلام في الحكم، واستنباط الأحكام، والقبول، والرد.. وفق ما اصطلح عليه العلماء عبر عصور الإسلام.

فمثلاً يقول: "النموذج الأمريكي يفرض نفسه علينا بقوة متزايدة، والأسلوب الأمريكي في الحياة، قد يرفضه الكثيرون في العلن، يقابل في السر بإعجاب متزايد، والقوة الأمريكية العسكرية والاقتصادية والإعلامية، تبهر أعدادًا متزايدة من العرب، بل إن أجهزة الإعلام في أكبر دولة عربية ـ وهي مصرـ أصبح يسيطر عليها أشخاص لا هدف لهم سوى تجميل صورة أمريكا، وعرضها بأزهى الألوان، ولن أكون مبالغًا إذا قلت: إن هذه الأجهزة قد نجحت بالفعل في إقناع الكثيرين بروعة هذه الصورة.

ووصل هذا الإقناع إلى حد الاقتناع السائد على أعلى المستويات، بأن محاكاة النموذج الأمريكي يمكن أن يحل جميع مشكلات بلد كمصر، ويدفعها بخطوات سريعة إلى الأمام، مادام هذا النموذج قد جعل من أمريكا ذاتها، أعظم وأقوى دول العالم، في مائتي سنة فقط.

هذه هي العقيدة الجديدة، التي لا توجد فقط في عقول بعض الزعماء، بل تتسرب بشتى الوسائل إلى عقول الناس العاديين...

من طبيعة أمريكا أنها بلد يدعو إلى الانبهار، إنها بلد جمع في داخله أكبر كمية من (أفعل التفضيل): فهي أقوى، وأغنى، وأحدث من كل بلاد العالم، كل شيء فيها أضخم، وأسبق، وأعظم مما تجده في أي بلد آخر، إنها البلد الذي وصلت فيه سيطرة الإنسان على الطبيعة، وتسخيرها لخدمته، وتأكيد سيادة العقل البشري على العالم المادي، وقدرته على تشكيله وفقًا لغاياته ،إلى حد يفوق ما كان يحلم به الفلاسفة والأدباء، وأصحاب (المدن الفاضلة) على مرّ التاريخ، هذه حقيقة لا يقدر على إنكارها من عالمنا المعاصر أحد.ولكن القضية التي أود أن أدافع عنها، في الدراسة هي:

أولاً: أن النموذج الأميركي فريد من نوعه، حدث مرة واحدة، ولا يقبل التكرار.

ثانيًا: أن هذا النموذج الأميركي، الذي يدعو حقًّا إلى الانبهار، مليء بالعيوب الذاتية.

ثالثًا:أن هذا النموذج لا يصلح لأي بلد في العالم الثالث ولا لأي بلد في العالم العربي بوجه خاص»[(١)].

وأنا أعجب من أسلوب د/ فؤاد زكريا، كيف يحذر من الانبهار بالنموذج الأميركي، وأنه مليء بالعيوب، وأنه لا يصلح لأي بلد من بلدان العالم الثالث.. وأنه نموذج لن يستنسخ ولن يتكرر.. وفي ذات الوقت يقول:! إن أمريكا بلد جمع في داخله أكبر كمية من (أفعل التفضيل) فهي أقوى وأغنى وأحدث وأوضح وأسبق وأعظم بلد في العالم.. وهي.. وهي.. حيث وصلت إلى حد يفوق ما كان يحلم به الفلاسفة والأدباء في مدينتهم (الفاضلة).. ويؤكد ذلك بقوله.. وهذه حقائق لا يمكن إنكارها.. بل ويؤكد في هذا الكتاب كله على ما أسماه حقائق ويزيد هذا التأكيد، تأكيدًا آخر ـ لكنه هذه المرة ـ لا يخص أمريكا وحدها، إنما يعم جميع الدول الغربية المتقدمة.

يقول: «.. وإذا كان العلم في الميدانين السابقين (الاقتصاد، والاجتماع) يستخدم على نحو بشري بروح الإنسان، أو يزيد من قدراته الروحية والجسمية، ففي ميدان الفنون أتيح للأجيال التي تعيش في القرن العشرين أن تتلقى دروسًا وتدريبات ـ في ميادين الإبداع أو الأداء الفني ـ لم تكن متاحة إلا على نطاق ضيق للأجيال السابقة، وكان من نتيجة ذلك اتساع ثقافة الفنان وإلمامه بأصول فنّه، وبلوغ الفنون الأدائية

(١) العرب النموذج الأمريكي، صـ٥ ، ٦ ، ٨، مرجع سابق.

(كالموسيقى والرقص والتمثيل) مستويات تصل أحيانًا إلى حد الإعجاز، كذلك أصبحت الرياضة البدنية علمًا بالمعنى الصحيح، بعد أن كانت تعتمد على الاجتهاد الشخصي، وتمكن الإنسان بفضل التدريب المنهجي المدروس من بلوغ نتائج كانت تدخل من قبل في باب المستحيلات.

وهكذا أصبحت حياة المجتمعات الحديثة، في سياستها وحربها وسلمها، وجدها ولهوها، منظمة تنظيمًا علميًّا منضبطًا ودقيقًا، ولم يعد في وسع مجتمع لديه أدنى قدر من الطموح، أن يسير في أموره بالطريقة العفوية، التي كانت سائدة في عصور ما قبل العلم، وإذا كنا ـ في الشرق بوجه خاص ـ نسمع بين الحين والحين أصواتًا تحن إلى العهد التلقائي، في أي ميدان من الميادين، فلتكن على ثقة من أن أصحاب هذه الدعوات إما مغرقون في رومانسية حالمة، وإما مدفوعون بالكسل إلى كراهية التنظيم العلمي الذي لا ينكر أحد أنه يتطلب جهدًا شاقًّا، وسواء أكان الأمر على هذا النحو أم ذاك، فقد آن الأوان لأن نعترف، في شجاعة وحزم، بأن عصر التلقائية والعشوائية قد ولى، وبأن النظرة العلمية إلى شئون الحياة- في ميادينها كافة- هي وحدها التي تضمن للمجتمع أن يسير في طريق التقدم خلال القرن العشرين، وهي الحد الأدنى الذي لا مفر من توافره في أي مجتمع، يود أن يكون له مكان في عالم القرن الحادي والعشرين، الذي أصبح أقرب إلينا مما نظن» [1].

ونوافق الدكتور على الاستفادة من الغير فى مجال التعليم والتخطيط، وفيما هو خير وحلال، ويعود على المجتمع بالفائدة، ولا يتعارض مع الدين الذي نؤمن به، والأخلاق التي تربينا عليها، أما مجالات اللهو واللعب والرقص والطرب فعندنا ما يكفينا ولا حاجة لنا أن نستزيد أو نستورد.

انظر كيف ينكر الدكتور/ فؤاد ـ غفر الله له ـ على الغرب في ميادين الاقتصاد والسياسة، ويشيد بما أنتجوه في ميادين الفن والموسيقى والرقص .. تأمل.!!

ثانيًا: موقف الشيخ/ الغزالي ﵀ من النماذج الاجتماعية الغربية:

يقول الشيخ/ الغزالي: "إذا ذكر الارتباط ارتسمت في الذهن الصورة الدميمة للعلاقات الاجتماعية، بين الرجال والنساء، كما استقرت في الغرب، والحق أن هذه العلاقات سيئة، وأن وضع المرأة هناك لا يرتضيه دين!

إن التبرج، وإبداء الزينات الباطلة هما أساس الملابس العادية، وكأن سرور المرأة لا يتم إلا إذا أثارت الانتباه، ولفتت إليها الأنظار!

(١) التفكير العلمي، صـ١٤ وما بعدها، مرجع سابق، فما أسماه الدكتور حقائق هي ليست كذلك، فأمريكا بها من الإفساد ما يجعل هذه الحقائق أباطيل، وأوهام.

ثم حشرت النساء في أعمال شتى تتيسر فيها الخلوة، وتعجز المرأة الشريفة فيها عن التصون! بل إن الحضارة الغربية في إباحتها للرقص، واستباحتها لإرواء اللذات بسبل كثيرة، أرخصت قيمة الأسرة، وجعلت الزواج محدود الأثر في حماية الأعراض، وقصر كِلا الزوجين على صاحبه!..

إن الحضارة البشرية السائدة في العالم، اعتبرت اللذات الجسدية حقوقًا طبيعية، ولم تَرَ في الاعتراف بها ما ينافي الأخلاق، ووجهت نشاطها بعد ذلك إلى الميادين العملية، من مدنية وعسكرية، وسبقت سبقاً بعيداً. أما الأمة الإسلامية فإنها لم تسر مع فطرة الإسلام المقررة، ووضعت أمام الزواج عقبات اقتصادية، واجتماعية صعبة، وأنشأت تقاليد صارمة في إمكان رؤية كلا الجنسين للآخر.

وعندي أن تقاليد الغرب إذا وصفت بأنها لا شرف لها، فإن التقاليد الشرقية لا عقل لها، الأولى فاضحة،والأخرى فادحة، وضحايا التقاليد المرعية هنا وهناك، كثيرة ومتشابهة!

فلننظر إلى تقاليد الإسلام كما تعرف من مصادره، ومن تطبيقات سلفه الأول!

إن هذه الرؤية العابرة من أحد الجنسين للآخر لا شيء فيها شرعًا، وإن جادل المجادلون!» [(١)].

ولا اعتقد أنه يوجد الآن من يجادل في إمكانية الرؤية عند الخِطْبة، فلقد عشت بين أشد القبائل العربية تعصبًا للعادات العربية العتيقة وأكثرها تمسكًا بمثل هذه التقاليد.. ولكن ما وجدت أن أحدًا منهم يجادل في رؤية الخاطب لمخطوبته، فلقد رأيت كثيرًا من المنتقبات يخلعن النقاب ويكشفن الوجه والكفين عند جلوسهن مع خطيبهن في حضرة الأهل.. ويتكرر ذلك مرات عدة دون نكير من أب أو أخ.. بل رأيت الآباء والأمهات هم مَن يهيء هذا الجو الطبيعي ويرتب له بهذه الصورة، وقد يحتاج الأمر أحيانا إلى مفاوضة مع البنت التي نشأت بين الكهوف والجبال.. وهذا لا يعني أن هذه الأمور التي أشار إليها الشيخ/ الغزالي رحمه الله ظاهرة منتشرة في بلاد العرب والمسلمين.

وعن العادات في الإعلام والإذاعات الغربية والتقليد الأعمى لها يقول الشيخ/ الغزالي: «أَتَسَمَّعُ الإذاعات الأجنبية لأعرف أحوال الخلق بعد أن أعرف أحوال قومي، وقد وقفت أسفًا دهشًا، وأنا أتابع ما يطلبه المستمعون من الموسيقى، والغناء الغربي!

ناس فيهم الذكران، وفيهم النسوان، من أحياء وطنية وأماكن بدوية، هذا يطلب سماع المغنية الفرنسية فلانة، وهذا يريد أن يسمع المغني الإنجليزي فلان، وتلك تهدي الألحان لحبيبها، وذاك يهديها لحبيبته الغالية جدًّا!

وبلغ الضياع القاع عندما عرضت رواية (عايدة) باللغة الإيطالية قريبًا من أهرام الجيزة، وحضر الألوف وانصرفوا وهم بحمد الله لم يفهموا شيئًا غير بغام يعلو ويهبط!!

---

(١) مائة سؤال عن الإسلام، صـ٤٠٥ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

وتذكرت ما حكي عن المغنى الزنجي (المحقور مايكل جاكسون) الذي يكره العرب أشدّ الكراهية، فقد قيل له: إن العرب يحبون أن يسمعوا أغانيك! فقال: لو علمت ذلك ما غنيت!! قلت: هذا المغني يخدم اليهود، وكان جديرًا أن يسقط من عين العرب، ولكن عشاق الطرب لا دين لهم ولا غيرة!!

لقد فكرت طويلاً في هذا المسخ الذي أصاب طوائف من أمتنا فأصابها ما أصاب اليهود قديمًا عندما جعلهم الله قردة وخنازير ..!

إن هذا المسخ بدأ بين المثقفين الذين احتقروا لغتهم، وأهانوا تراثهم الأدبي، وشعروا ألا كيان لهم إلا إذا تحدثوا بلسان أجنبي، وتعاملوا بتقاليد مستوردة.

وأخذت شخصية الأمة تتفتت، حتى شعرت أنها (كالإسفنجة) التي تمتص كل ما حولها؛ لأنها خاوية خالية تجتذب ما يعرض لها.

إن الشعر العربي العامر بالجمال، والحكمة اختفى من لغة التخاطب .. وكنا قديمًا نحارب الغزو اللغوي، فأمسينا اليوم ننشئ للأطفال مدارس اللغات التي تؤخر العربية، أو تهملها لتبنى على أنقاضها اللغات الأخرى.

وما نحارب معرفة اللغات، ولكننا نأسى عندما نرى النطق بالعربية رديئًا حافلاً بالأغلاط الفاضحة بينما نرى الحديث بالإنجليزية أو الفرنسية مضبوطًا لا عوج فيه .. ليس للعربية كرامة ولا للحفاظ عليها حراس ولا يخزى من الجهل بها رئيس، أو مرءوس.

والآن أسمع شخصًا من بولاق في القاهرة، أو من الباسطة في بيروت، أو من القصبة في الجزائر يريد أن يشنف آذانه أو آذان حبيبته بسماع أغنية من أغاني (البوب) أو موسيقى (الروك والرول).

إن هناك انحدارًا تهوى به أمتنا في مجال اللغة والأدب والفن، وإذا لم نسارع إلى علاجه سقطنا في هاوية لا قرار لها» (١).

هذا كلام واضح في خطورة التقليد الأعمى إذ الأمر لا يقف عند حدّ التمثيل والرقص والفن والموسيقى، بل يصل إلى حد تدمير المجتمع بالقضاء على قيم الزواج والأسرة والحقوق المتبادلة والنسب والأولاد بمدنية مزيفة تقضي على الترابط الأسري والتماسك الاجتماعي كالقرابة والجيرة والصداقة والولاء.

يقول الشيخ رحمه الله: «والمدنية الحديثة الآن تفرض نفسها على القارات الخمس..ويكافح بعض المسلمين

(١) قضايا المرأة للغزالي صـ١٤٥ وما بعدها، مرجع سابق.

في جو مربد، لينقذوا أقطارهم من هذا الشرود الجنسي الطافح، ولكنهم ـ إلى يوم الناس هذا ـ يحاربون في معركة انسحاب!

ولكي نعرف المدى الذي تبغي هذه المدنية أن تصل إليه، ننقل هنا فقرات لكاتبة فرنسية تدعى (سيمون دي بوفوار) وهي كاتبة وجودية[١] إلا أنها تصور الوقائع والآمال التي يتبناها، ويتمناها صحافيون عرب منبثون في كل مكان.

ترى هذه المرأة أن من حق الزوجة أن تزني!!!

وإذا كان زوجها يضيق بوليد من أب آخر، فإن التقدم العلمي حل هذه المشكلة!

يقول (أندريه موروا): فيما يتعلق بإقحام طفل غريب على كيان الأسرة وفراش الزوجية، ترد (سيمون دي بوفوار): بأن من مآثر العلم الحديث أنه هدم هذه الحجة العتيقة بما ابتدعه من وسائل منع الحمل، وبذلك تمكن المعاشرة الجنسية بلا قيد ولا شرط.

وليس من رأي (سيمون دي بوفوار) أن الزواج أفضل حل للعلاقات بين الرجال والنساء، بل تؤيد بدلا من الزواج الذي يعتبر وظيفة اقتصادية واجتماعية، قيام الحب باعتباره هبة مجانية متبادلة بمحض الإدارة لا بالجبرية أو القهرية القانونية.»[٢]

إذن الزواج الشرعي الذي جاء به الأنبياء وشرعه رب السماء منذ أبي البشر آدم عليه السلام وحتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليس هو أفضل الحلول للعلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء.. هذا ما تقوله الكاتبة ويجد قبولا واسعًا في البلاد الغربية، إنه بلاء- للأسف- وجد طريقه في مجتمعاتنا، ووجد من يروج له، ويستميت في الدفاع عنه دون أدنى حياء أو تحفظ، ويمضي الشيخ الغزالي في نقل هذه العادات الاجتماعية السيئة فيقول: « إن سيمون دي بوفوار تقول صراحة:

إن مبدأ الزواج مبدأ فاضح ناب؛ لأنه يحول بين حق وواجب ما هو بحكم الطبيعة تبادل حر ينبغي أن يقوم على الباعث التلقائي!وتأسف (سيمون)؛ لأن غالبية النساء مازلن إلى اليوم متزوجات، أو يتأهبن للزواج، ويتعذبن إن لم يظفرن بزوج!ذلك أن المرأة حين تتزوج تلتحم بعالم زوجها، فأهلها يقولون إنهم قدموها زوجة لفلان، وفلان يقول: إنه اتخذها زوجة.

---

(١) تعريف الفلسفة الوجودية التي تنطلق منها هذه الكاتبة:هي اتجاه فلسفي يغلو في قيمة الإنسان ويبالغ في التأكيد على تفرده وأنه صاحب تفكير وحرية وإرادة واختيار ولا يحتاج إلى مُوجِّه. وهي فلسفة عن الذات أكثر منها فلسفة عن الموضوع. وتعتبر جملة من الاتجاهات والأفكار المتباينة التي تتعلق بالحياة والموت والمعاناة والألم، وليست نظرية فلسفية واضحة المعالم انظر موقع:شبكة التأصيل تعريف الفلسفة الوجودية taseel.com/display/pub/print.aspx?id=٢٠٥٩

(٢) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، صـ٢٢٩ وما بعدها، مرجع سابق

ومعنى هذا أن صور الحب في أذهان الناس إنما هي صورة خدمة تقدمها المرأة للرجل، وله أن ينال لذته ومتعته منها مقابل تعويض مادي هو ضمان الاستقرار.

ومعنى ذلك أن المرأة لا تختار بحريتها الرجل الذي يستهويها جنسيًّا، إنما هي تتزوج لتنتمي إلى رجل معين. ومأساة الزواج إلى يومنا هذا أنه يمني المرأة بالسعادة، ثم لا يتيحها لها، وأنه يشوه نفسية المرأة الشابة بإجبارها على حياة التكرار والروتين الممل.

فبارتباطها بفراش رجل واحد وإثقال ذراعيها بالأطفال تنتهي حياتها، فهي حتى سن العشرين تمتعت بوجود سخي خصب ما بين دراستها وصداقتها وانتظار الحب، وبعد الزواج يتلاشى كل مستقبل أمامها، فيما عدا هذا الزواج الواحد، الذي لا يتيح لها اللذة غالبًا، فالزواج التقليدي أبعد ما يكون عن خلق الظروف الملائمة لإيقاظ رغبة الأنثى الجنسية وتفتحها، وليلة الزفاف التي لم تسبقها التمهيدات الأولية لحب طبيعي تبدو في نظر البكر وكأنها نوبة سخيفة من نوبات مصاب بالصرع التشنجي.

وتمضي المرأة الوجودية شارحة مذهبها المعجب فتقول: والمثل الأعلى في نظر (سيمون) أن يختار كل شخص الطرف الآخر برغبته، ويبقى معه برغبته، بحيث لا يربط كل منهما إلى الآخر إلا الرغبة التلقائية الحرة النابعة عن حبهما المتبادل.

فالفتاة اليوم تعمل متحررة من كل قيد في سلوكها، وتلتقي في عملها وخارج عملها بشتى صنوف الرجال، وهكذا لم تعد في حاجة إلى الارتباط بما كان يسمى (زواجاً مدبراً) يكفل لها الغذاء والكساء والوضع الاجتماعي اللائق. »[1]

وهنا أود أن أقول:إن هذا الكلام الذي ينقله الشيخ الغزالي عن الكاتبة الغربية ليس كلامًا نظريًّا موجهاً إلى المجتمع الغربي ليبدي فيه رأيه.. لو كان الأمر كذلك لقلنا إنما هي أفكار لا تعدو أصحابها.. ولكن الحقيقة المؤكدة بالواقع والتي يعرفها كل من ذهب إلى الغرب الأمريكي والأوروبي، وينقلها لنا الإعلام ومواقع الاتصال على شبكة الإنترنت.. أن الأمر تَعَدَّى حدود النظرية إلى الواقع الذي تحرسه القوانين، ويمارسه كثير من الرجال والنساء على حد سواء، حتى صار من السهل جدًا واليسير على أي إنسان حتى لو كان تلميذًا في مرحلة الابتدائي أن يدخل على مواقع التواصل الاجتماعي، ويرى ويسمع هذا الفساد .. دون رقيب أو حسيب، اللهم إلا ما رحم ربي.

---

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

ويواصل الشيخ نقله لهذه المرأة الوجودية التي تقول: «إن هذا كله يتيح للمرأة العصرية المتحررة التجارب المتلاحقة، ولو داخل إطار الزواج المشروع، بل ذهبت المرأة إلى أبعد من هذا في كثير من الأحوال، فَتَيَسَّرَتْ للفتاة خارج رابطة الزواج أنواعٌ من الخبرات والتجارب في الحب والجنس على نحو ما يتيسر للشباب من الذكور سواء بسواء.

وما من شك أن تقدم العلم ومبتكرات التحكم في النسل ومنع الحمل قد وفرت على الفتاة العصرية المتحررة كل متاعب القلق، التي كانت تزعج النساء في العصور السابقة.

وتأسى (سيمون دي بوفوار) أشد الأسى؛ لأن الفتاة غير المتزوجة لم تحصل بعد على حق الأمومة بغير زواج في نظر المجتمع الحديث، وترى من حق المرأة أن تكون أمًّا من غير أن ترغم على الارتباط بالزواج.

وهنا أسأل: كيف تكون المراة أُمًّا بدون زواج شرعي؟ إننا نذكر الكاتبة أن مريم أم المسيح عليه السلام عندما بشرها الملك بغلام قالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[مريم:٢٠].

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله: إن كلام هذه المرأة نشر في بلادها ثم ترجم إلينا، وتُدُول بيننا دون أن تصحبه كلمة نكير أو يلحق قائلته لفظ تحقير! فما معنى هذا؟

لقد قرر هذا العهد على أنه فلسفة عادية، ووجهة نظر في الحياة لا غبار عليها ولا عار من ترددادها، فما معنى هذا؟ ثم ما تكون هذه الأسرة التي تتكون في جو النكر والإسفاف؟

شاب يتصل بعشرات الفتيات قبل أن يتزوج، وشابة تتصل بعشرات الفتيان قبل أن تتزوج!! أي زواج ذاك الذي يتم بعد هذا الماضي الأسود؟

وما هي ضمانات استقامته إذا كانت أسباب العوج لاتزال قائمة هنا وهناك؟» [(١)].

هذا نموذج من النماذج الاجتماعية الغربية، وهذا هو الفكر الغربي العلماني الذي يؤمن به د/ فؤاد زكريا، ويدعو إليه ويناصره، ويلتمس له الأعذار ويدعو شبابنا وبناتنا إلى الأخذ عنه والتعلم منه بدعوى التقدم والحرية.

إن هذه النماذج الغربية الأوربية والأمريكية مهما بلغت من التقدم العلمي، والغنى المادي فهي نماذج فقيرة وقاصرة، وتتسم بالنقص والأنانية والنفعية والمادية، وعدم الاهتمام بالدين والخلق وصلة الرحم، وعدم التكافل الاجتماعي والترابط الأسري اللهم إلا ما يمليه الضمير أو ينظمه القانون كدور الإغاثة ورعاية المسنين.

---

(١) المرجع السابق، صـ٢٣٠، وما بعدها.

أما شريعة الإسلام فقد امتازت بالقيم الإيمانية التي لابد منها في الحياة الاجتماعية بدءاً بالخِطبة ثم الزواج الشرعي والتعهد على القيام بواجباته والرغبة الصادقة في الوصول إلى أهدافه التي أرادها الله لعمارة الحياة.

وبعد مقارنة أجراها د/ محمد عمارة عن حقيقة العلمانية في مجتمعاتها، وما وصلت إليه من انحلال أخلاقي وإباحية فاضحة، لا تُراعى فيها قيمة حيث لا يهم كثير من الشباب في هذه البلاد إن كانت خطيبته عذراء لا زالت بكرًا أم مارست الجنس مع غيره.. كما لا يهم كثير من النساء إن كان للزوج خليلات يمارس معهن ما يمارسه مع زوجته .

يقول: «تلك هي مضامين العلمانية (أي في أخلاق الجنس).. وهذه هي سمات مجتمعاتها.. وفي المقارنة الموجزة بينها وبين معالم الإسلام السياسي والاجتماعي تظهر جلية حقيقة المقولة التي نزكيها وهي: أن لا مكان (للعلمانية) مع الإسلام، ولا حاجة للمسلمين بالعلمانية إذا كانوا حقًّا يسترشدون بالإسلام» (١) .

لأن الإسلام غني بذاته وتشريعاته وأخلاقه ونظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وقد أقام دولة عظيمة عاشت مئات السنين تقود العالم وتعلمه وتؤدبه وتؤثر فيه.

وإذا كان كثيرٌ من المسلمين تأثروا بالغرب فإن الإسلام بمصادره وثوابته وقيمه لم يتغير ولم يتأثر، هذا ما يجب أن يعرفه المسلمون حتى يخرجوا من حالة الضعف والتبعية التي وصلوا إليها.

وسنذكر -إن شاء الله- في الباب التالي.. مظاهر هذا الضعف.. وأسبابه وآثاره.. وما نتج عنه من مشكلات ومعوقات.. ودور الدين ومنظمات المجتمع المدني والدولة في إصلاح الوضع الراهن.

والله المستعان

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) الإسلام والعروبة والعلمانية، د/ محمد عمارة، صـ٦١، ط/ دار الوحدة، بيروت –لبنان، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

الباب الثاني

العلاقات الاجتماعية وسبل إصلاحها بين الدكتور/فؤاد زكريا، والشيخ/محمد الغزالي

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: مظاهر ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع المصري.

الفصل الثاني: أسباب ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع.

الفصل الثالث: الآثار المترتبة على ضعف العلاقات الاجتماعية، وما نتج عنها من مشكلات ومعوقات.

الفصل الرابع: أثر العقيدة ودورها في الإصلاح الاجتماعي.

الفصل الخامس: منظمات المجتمع المدني، وعلاقتها بقضايا الإصلاح.

الفصل السادس: علاقة الدولة بالمجتمع ودورها في الإصلاح.

الفصل الأول

مظاهر ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع المصري

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: تأخير سن الزواج وزيادة عدد العوانس، وظهور حالات التحرش الجنسي.

المبحث الثاني: العلاقات غير المشروعة، وزيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع.

المبحث الثالث: الهروب من المسئولية الزوجية، وعدم القيام بالواجبات الاجتماعية.

المبحث الرابع: آثار الهروب من المسئوليات الاجتماعية على الكيان الأسري، ويشتمل على الآتي: -

١ - الخلافات الزوجية ٢- زيادة معدلات الطلاق ٣- التفكك الأسرى.

المبحث الخامس: انتشار الجهل والبدع، والخرافات في المجتمع.

المبحث الأول: تأخير سن الزواج، وزيادة عدد العوانس، وظهور حالات التحرش الجنسي.

الإسلام يدعو إلى الزواج ويحث عليه ويرغب فيه، ويرتب عليه منافع ومصالح ودرجات في الدنيا والآخرة، فهو قربة يتقرب بها المرء إلى الله تعالى، وسكينة تطمئن بها ومعها النفوس، فمنذ أن خلق الله أبانا آدم عليه السلام خلق له زوجة ليسكن إليها قال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾[البقرة:٣٥] ولقد أمر الله عباده بالزواج حيث قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ﴾ [النساء:٣].

والنبي ﷺ يبين أن الزواج من سنته، وحذر من العزوف عنه لغير سبب شرعي يقول:(..وأتزوج النساء وهذه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني)[(١)] وقال ﷺ :(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج..)[(٢)]. والإسلام يَعِيبُ الرهبانية ويرفضها ويعتبرها بدعة من أخطر البدع التي تضر بالمجتمع وتضعف من قوته، قال تعالى: ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ ... ﴾ [الحديد:٢٧].

ولقد كان المسلمون ـ وإلى عهد قريب ـ يهتمون بزواج أبنائهم وبناتهم مبكرًا، بل كانوا يُفردون لهذه المسألة مساحة كبيرة في حياتهم وتفكيرهم وعلاقاتهم بمن حولهم، فمنذ أن يناهز الولد أو الفتاة الحلم - وربما قبل ذلك - وترى الوالدين والأقربين يتكلمون عن الزواج، ويرون أن هذه المسأله من أهم الروابط الاجتماعية في المجتمع، وأنها أوثق عرى المحبة والولاء، لا يتقدم عليها سوى رابطة الدم والقرابة، الأمر الذي أثرى الحياة الاجتماعية وجعلها متماسكة وقوية.

وما فتئ الزمان يدور حتى تغيرت الأمور، فصار الشاب الذي كان ـ غالبًا ـ يتزوج دون العشرين يصل إلى الثلاثين، وربما إلى الأربعين لا يتزوج؛ إما زهدًا وعزوفًا عن الزواج لقصر ذات اليد والظروف الاقتصادية التي تمر بها البلاد.

وقبل ذكر رأي الدكتور فؤاد زكريا، و الشيخ الغزالى يجدر بي أن أذكر الإحصائيات والنسب المخيفة في هذه المسألة "يقدر عدد العوانس في مصر بـ (١٣) مليون، الإناث بـ(٨) مليون أي ٤٠٪ من مجموع الفتيات في سن الزواج ولم يتزوجن وفقا لتقارير الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء. "[(٣)].

---

(١) متفق عليه وقد سبق تخريجه في المبحث الثاني، من الفصل الخامس، في الباب الأول، تحت عنوان/ اعتناء الإسلام بالأسرة صـ ١٨١ .

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث علقمة رضي الله عنه كتاب النكاح باب قول النبي ﷺ من استطاع الباءة، برقم(٥٠٦٥) صـ٧٤٣، مرجع سابق.

(٣) موقع الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء **www.misrinternet.capmas.gov.eg**

هذا العدد ليس قليلاً، ويُعَدُّ مشكلة اجتماعية خطيرة، نتجت عنها مشاكل أخرى كالتحرش الجنسي[١] الذي بلغت نسبته ـ مع حالات الاغتصاب ـ ٢٠ ألف حالة سنويا في مصر[٢].

فهل يا ترى سنجد لها حلاً عمليًّا عند الدكتور/ فؤاد زكريا، ومَن على مثل فكره مِن العلمانيين؟

للأسف هذه المسألة بأبعادها الاجتماعية وضوابطها الشرعية لم يُعِرها الدكتور أيَّ اهتمام يذكر، يقول: «..أفلاطون ذاته لم يتزوج مطلقًا، ولم نعرف عنه أية علاقة نسائية، ولم يحاول بالطبع أن ينجب أطفالاً، وقد حاول (ليفنسون)[٣] الدفاع عن أفلاطون في هذا الصدد أيضًا، فقال: إنه كان يشعر بنفسه غريبًا في مجتمعه، ولم يشأ تكوين أسرة في مجتمع يعتقد أنه يفتقر إلى الفضيلة حتى لا يفسد أطفاله بدورهم في هذا المجتمع، ويرى أنه لو كان قد عاش في مدينته الفاضلة لانتهى به الأمر فعلا إلى تكوين أسرة وإنجاب أطفال، وهذا دفاع غريب حقًّا؛ لأن مدينة أفلاطون قد ألغت الأسرة تمامًا...

إن دوافع الجنس تخضع في هذه المحاورة لقيود أقسى بكثير من تلك التي تفرض عليها في المجتمعات المسيحية، فهو يرى في قصر العلاقات بين الجنسين على مواسم خاصة تفصل بينها فترات طويلة، ويرى في ذلك عزوفًا وزهدًا قد يكون أقسى من ذلك الذي يفرضه على نفسه الراهب الذي يأخذ على عاتقه أن يتعفف. وأصحاب هذا الدفاع (والكلام للدكتور/ فؤاد زكريا) يتصورون أن العفة أو الأخلاقية تتحدد تبعًا (لعدد مرات) ممارسة الجنس، ولم يفكروا على الإطلاق في طريقة هذه الممارسات، وما فيها من افتقار تام إلى المشاعر الإنسانية، وتجاهل كامل للأحاسيس الشخصية عند الرجل والمرأة معًا.»[٤]

غفر الله للدكتور/ فؤاد زكريا، لا تهمه مسألة الحلال والحرام في الإسلام، ولا أهداف الزواج ولا أحكامه بقدر ما تَرَسَّخَ في ذهنه من مفاهيم ومقاييس علمانية وفلسفية، يحاول من خلالها التماس العذر لأفلاطون وتبرير موقفه في عزوفه عن الزواج وإلغاء نظام الأسرة .

---

(١) كتاب التحرش الجنسي أسبابه وعلاجه، إعداد/ لجنة التأليف بالإدارة العامة لبحوث الدعوة، ط/ وزارة الأوقاف، سنة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م للمزيد انظر هامش صـ٥ وفيه: اثبتت الدراسة أن ٦٢٪ من الرجال اعترفوا بالتحرش أكثر من مرة، و٦٩٪ من حالات التحرش تقع في الشارع، ٤٢٪ من حالات التحرش تقع في وسائل المواصلات، ٢٢٪ من حالات التحرش تقع على الشواطئ، ٦٪ من حالات التحرش تقع في مواقع العمل.

(٢) انظر موقع الأهرام الرقمي **www. digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=١٦٨٩٢٩&eid=٦١٦٧**

(٣) هو رونالد بارتليت ليفنسون، فيلسوف أمريكي مشهور، ولد في ١٨ اكتوبر ١٨٩٦م في شيكاغو إلينوي، وتوفي ٢١ نوفمبر ١٩٨٠ في بانجور مين، وركز جميع أعماله في الدفاع عن أفلاطون، وألف كتابا بعنوان الدفاع عن أفلاطون في مواجهة انتقادات كارل بوبر (١٩٥٣)، وكان ليفنسون عضوًا في الجمعية الفلسفية الأمريكية وجمعية الفلسفة القديمة، للمزيد انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مرجع سابق.

(٤) جمهورية أفلاطون، تقديم وترجمة د/ فؤاد زكريا، صـ١٠٤ وما بعدها، بتصرف ، مرجع سابق.

ويستمر قائلاً: « فهو (أفلاطون) يود إلغاء الأسرة الصغيرة من أجل تكوين الأسرة الكبيرة، أو على الأصح لكي تصبح الدولة كلها أسرة واحدة، أي أن اتجاهه الحقيقي كان ضد الانقسام والتنافر في المسارات العائلية، أما الشعور العائلي ذاته فهو يريد الاحتفاظ به، ولكن دون تنافس أو أنانية بين الأسر بعضها وبعض، ووسيلة تحقيق هذا الهدف هي أن تمتد المشاعر العائلية بحيث تشمل الدولة كلها، أي إلغاء الحد الفاصل بين المجتمع العائلي والمجتمع المدني أو السياسي الكبير، ولكن كيف يمكن أن تظل المشاعر العائلية موجودة بعد هذا التغيير؟ وهل يظل لمشاعر الأخوة أو البنوة أو الأبوة نفس قيمتها، ونفس معناها، ونفس قوتها إذا توزعت على نطاق الدولة بأسرها؟ ألن يؤدي تشتتها على هذا النحو إلى ضياعها بعد جيلين أو ثلاثة؟ من المؤكد أن نقل هذه المشاعر وتوسيعها على هذا النحو لابد أن يؤدي إلى تغيير أساسي في طبيعتها، وربما إلى اختفائها تمامًا؛ لأن الذي يصبح (أخًا) للجميع لن يعود أخًا لأحد، وكذلك الحال بالنسبة إلى ابن الجميع، أو والد الجميع، ألا يظل كثير من الناس في عصرنا الحالي يعتقدون أنهم جميعًا أبناء (آدم وحواء) دون أن يحول ذلك بينهم وبين الاقتتال؟» [1]

هذا كلام د/ فؤاد زكريا، وهذا أعلى ما وصلت إليه عقليته في إنكاره على أفلاطون، وكلامه في مجمله لا يتعلق ـ من قريب أو بعيد ـ بما شرعه الله تعالى لخلقه، أو بما جاء به رسله عليهم السلام .

المسألة عنده لا تخرج عن دائرة المشاعر والأحاسيس المتبادلة بين الجنسين. يقول: « لقد كان أفلاطون حريصًا على منع زواج المحارم، فهو يمنع زواج الشباب والشابات في فترة معينة خشية أن يكونوا إخوة أو أبناء، وهذا التحريم بدوره مستمد من نظام الأسرة الحالي ومرتبط به، وبالاختصار فإن أفلاطون لم يستطع أن يكون متسقًا مع نفسه في دعوته إلى إلغاء نظام الأسرة، بل إنه وضع عناصر من النظام الحالي مع عناصر من نظامه المقترح جنبًا إلى جنب، وكون منهما مركبًا ينفر منه العقل والعاطفة معًا» [2]

تأمل كلام الدكتور فؤاد زكريا، مرجعه فيه (العقل والعاطفة) بصرف النظر عن الأحكام الشرعية، فمسألة الدين والعقيدة وثقافة المجتمع الذي ينتمي إليه، و المشاكل الخطيرة التي أثخنت جراح هذا المجتمع وكادت تودي به بسبب العزوف عن الزواج، والعلاقات المحرمة وما نتج عنها من كوارث، هذا كله لا يشغل بال الدكتور ولا فكره.

والعجيب أنه يتحدث كثيرًا عن المشاكل التي تواجه المجتمع، وقد لا يخلو كتابٌ من كتبه إلا ويذكر

---

(١) المرجع السابق، صـ١٠٥.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

بعضًا من هذه المشاكل، ففي أحد كتبه [(١)] جعل بابًا كاملاً عن المشاكل الاجتماعية التي تؤرق المجتمع وتستعصي على الحل، ومنها كثرة الإنجاب، وزيادة عدد السكان ومشاكل السكن والغذاء والدواء، والتلوث البيئي والإنفاق على التسليح، ولم يذكر شيئاً عن العنوسة والزنا وزيادة عدد اللقطاء، والتفكك الأسري والانهيار الأخلاقي، وقتل الأطفال غير الشرعيين، والأمراض المزمنة والفساد، كل ذلك، وغير ذلك من مشاكل اجتماعية طاحنة لا تحرك قلم الدكتور ولا تشغل ضميره وعقله.

والشيخ الغزالي ينظر إلى هذه المسألة من زاوية الفطرة الإلهية التي لا تستقيم حياة المجتمعات الإنسانية إلا بها يقول : «..كم تعاني الفطرة من غياب بعض المنتسبين إلى الله، وكم أدى ذلك إلى فتنة جماهير وزيغ عقلاء، ونحن المسلمين نعرف موقف ديننا من هذه القضية (أي الرهبانية والعزوف عن الزواج) لم تشع نزعات الرهبنة إلا في سيرة بعض المتصوفة الجهال، ولا ندري أكان ذلك تقليدًا للنصرانية وابتداعها ؟ أم هو سوء فهم الآثار المروية عن حياة الرسول وصحبه الأبرار[(٢)] أيّاما كان الأمر فإن سذاجة فريق من الأتقياء وتأثره بأهواء المبتدعين والمنحرفين يوجبان علينا أن نزيد الفكر الإسلامي وضوحًا، حتى نحط عن أمتنا بعض أوزار التخلف الذي نعانيه في هذا العصر ..»[(٣)].

ومع أننا نؤكد أن الإسلام يدعو إلى الزواج ويرغب فيه، ويحرم الرهبنة، ويصرح أنها بدعة اخترعها النصارى من عند أنفسهم، ما أنزل الله بها من سلطان، فإننا نؤكد أيضًا أن من لم يتزوج من أتقياء وعلماء المسلمين ـ وهم كُثُر - لم يكن اختياره تأثرًا بأهواء المبتدعين والمنحرفين، أو إنكارًا للأهداف التي من أجلها شُرع الزواج، إنما كان لظروف قاهرة تخص كل حالة على حدة، كالحرب أو استفراغ الوقت والجهد في تحصيل العلم وتدوينه والحفاظ عليه، فلا يجوز أن يوصف ـ مَنْ كان كذلك ـ بالسذاجة سيما ومنهم علماء كالإمام ابن تيمية، والإمام ابن القيم، والإمام النووي، والمسلم التقي لا يزهد في الزواج رغبة عنه، ولا هروبًا من تبعاته، ولا إنكارًا لفضله وثوابه، خصوصًا لو كانت نفسه تتوق إليه، ولايستبدله بالفواحش ما ظهر منها وما بطن. ومن أخطر هذه الفواحش العلاقات غير المشروعة، كالزنا واللواط والسحاق والأنكحة الفاسدة التي، وجدت بصورة مخيفة، ونتج عنها جرائم ومفاسد أضرت كثيرًا بالأسرة والمجتمع، كالأمراض المزمنة، وزيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع.

وهذا ما سأذكره إن شاء الله في المبحث التالي.

---

(١) كتاب التفكير العلمي للدكتور فؤاد زكريا صـ ٢٠٧، وما بعدها، مرجع سابق، وانظر خطاب إلى العقل العربي من صـ٤٣ إلى صـ٥٣، مرجع سابق، ذكر فيه معظم مشاكل الشباب، ولم يذكر مشكلة الزواج والعنوسة، فالملاحظ أن كل ما يمت للإسلام بصلة يتجاهله د/ فؤاد.

(٢) لم يرد ـ فيما أعلم ـ عن حياة الرسول ﷺ وصحابته الكرام ما يفهم منه العزوف عن الزواج والرغبة في الرهبنة ، والوارد عكس ذلك تمامًا (الحث على الزواج والتعدد).

(٣) ركائز الإيمان للغزالي صـ٨٠، مرجع سابق.

المبحث الثاني: العلاقات غير المشروعة، وزيادة عدد اللقطاء وأطفال الشوارع:

تحدثت في المبحث الأول عن تأخير سن الزواج، وما يترتب عليه من مفاسد أخلاقية وضعف للقيم الاجتماعية، وفي هذا المبحث أذكر شيئًا عن النتيجة الطبيعية الناجمة عن هذا الضعف وتلك المفاسد.

إن الإنسان كائن حي له حاجات ملحة لا يمكن الاستغناء عنها، فكما أنه يحتاج إلى الطعام والشراب والإخراج يحتاج إلى تفريغ الشهوة، فمنذ بلوغه سن العاشرة تقريبًا وتتحرك لديه نوازع الفطرة والميول الطبيعي إلى الجنس الآخر.

يبدأ هذا الأمر صغيرًا، ويتدرج المرء فيه ويتطور معه حتى يصل به إلى حالة قصوى لا علاج لها سوى الزواج.وما سوى الزواج فهو إما مسكنات مؤقتة، وإما انحراف عن الفطرة ينتج عنه من المشاكل والجرائم الكبرى ما يضر بالفرد والمجتمع والدولة.

هل كنا ـ في مجتمعاتنا العربية المحافظة والمسلمة ـ نصدق أن حالات متكررة من الاغتصاب [١] تتم في وضح النهار، وربما في الأماكن والميادين العامة!!

هل كنا نسمع أو نصدق أن عدد اللقطاء وأطفال الشوارع قد بلغ في مصر وحدها سنة ٢٠٠٦ ٢مليون كما تقول التقارير والإحصائيات آنذاك[٢] مع أن هذا العدد في ازدياد رغم محاولات الإصلاح والعلاج حيث تقول الإحصائيات الحديثة أن عدد أطفال الشوارع في مصر يصل إلى ٣ مليون معظمهم تعرض للانحراف[٣].

هل كان أباؤنا وأجدادنا يعرفون شيئًا عن أمراض العلاقات الآثمة كالإيدز والسيلان وغيرها من الأمراض الخطيرة؟

لقد أصبح في كل محافظة تقريبًا مصابون بهذه الأمراض، كما أصبح أيضا للقطاء دور (رعاية)

---

(١) انظر كتاب الاغتصاب أسبابه وعلاجه، تأليف ناصر بن محمد السليماني، ط/ مكتبة الدعوة، سنة ٢٠٠٢م.

(٢) حيث تشير أن القاهرة أكثر الأماكن كثافة لظاهرة أطفال الشارع، ٩٢٪ منهم من الذكور، و٨٪ من الإناث، ٣٢٪منهم يقع سنهم بين(٥ـ٩ سنوات) و ٤٤٪ يقع سنهم بين (١٠ـ١٤سنة) و ٦٦٪ منهم متسربون من التعليم، أو لم يلتحقوا بالنظام التعليمي، ٨٠٪منهم معرضون لحالات عنف مختلفة، ١٣٪ اعترفوا بتعرضهم لحالات اعتداء جنسي، للمزيد انظر كتاب المجلس القومي للأمومة والطفولة، حماية وتأهيل وإدماج الأطفال بلا مأوى(أطفال الشوارع) القاهرة ٢٠٠٦م.

(٣) انظر موقع www.bbc.co.uk/arabic/multimedia/.../١٤٠٤١٢_egypt_street_children.sht... ١٢/ ٠٤/ ٢٠١٤: قدرت دراسة أعدها المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر، وانظر الأهرام الرقمي الصادر بتاريخ ٧-٩-٢٠١٢م حيث يقول الكاتب عطا عبد العال: (مجهولي النسب سنويًا في مصر يتجاوز ١٥٠٠ طفل).

يجتمعون فيها دون عناية كاملة أو مقبوله، ودون أدنى اعتبار لخصوصيات الإناث والذكور في سن المراهقة وما بعدها.

لقد كنا منذ زمن ليس بالبعيد نرى هذه الأمور - سالفة الذكر - من النادر والشاذ الذي يطوى ولا يروى مخافة أن يتأثر الناس سلبًا بذكره.

أما ما يعانيه هؤلاء المساكين في نشأتهم الأولى فحدِّث ولا حرج، رأيت بعيني - فيما يسمى بدور الرعاية الاجتماعية في مدينة السلام بالقاهرة - أطفالاً دون العامين، وهم يواصلون البكاء وبجوارهم موظفة، وعندما سألتها: لم لا تحاولين إسكاتهم، قالت: هل أنا أرحم عليهم من آبائهم وأمهاتهم الذين ألقوا بهم في الشوارع وصناديق القمامة.. انظر يا شيخ: هذا ولد وجدنا القطط تأكل من جسده..

ناهيك بتربيتهم بعد ذلك وعند المراهقة وحتى البلوغ، لقد رأيت الاختلاط المريب والكلمات الرخيصة والأحوال المؤسفة. فالكثير منهم ينشأون في جهل وحياة متدنية تفقدهم الكثير من القيم والمبادئ الدينية والإنسانية، كالشجاعة الأدبية وآداب الحوار، والمروءة والصبر، والاعتماد على النفس، والأمل في الله تعالى والرضا بقضائه وقدره، والبحث عن عمل شريف يستغني به المرء عن السؤال، والتطلع لمستقبل أفضل، هذا فضلاً عن إدمانهم المخدرات، وجنوحهم إلى عالم الجريمة بشتى أنواعها، وامتهانهم مهن متدنية وأحياناً غير مطلوبة.

هل فكر، أو ذكر الدكتور/ فؤاد زكريا شيئًا لهؤلاء؟ هل تكلم عن حالهم ومآلهم وظروف حياتهم والأسباب التى جاءت بهم في هذه الحياة وموقف الشرع منها؟

لم يذكر د/ فؤاد جملة واحدة في كتبه - وهي كثيرة - عن حرمة الزنا في الشرائع السماوية، ولا عن عقوبة الزاني، بل حارب الدكتور (بقوة) دعوة تطبيق الحدود الإسلامية، حتى رفقاء الدرب - من العلمانيين الذين يرون في تطبيق الشريعة (تطبيقًا جزئيًا) خيرًا للبلاد والعباد - لم يسلموا من هجومه.

ولقد سبقت الإشارة عن موقفه من د/ حسن حنفي[1] لمجرد أنه كتب عدة مقالات في جريدة (الوطن) الكويتية ١٩٨٢م تحت عنوان (مستقبل الأصولية الإسلامية) فقد وجه إليه د/ فؤاد زكريا عدة انتقادات لاذعة، قال في إحداها :".. إن ما ذكره د/ حسن حنفي في سلسلة مقالاته الطويلة عن (الحركة الإسلامية المعاصرة) بناها على دراسة استمرت سنة كاملة أقول له - والكلام للدكتور/ فؤاد زكريا - : هل أخفقت كل البدائل في العالم العربي، ولم يبق إلا (البديل) الإسلامي، وهل هذا البديل حقًّا هو طريق الخلاص؟

(١) في الفصل التمهيدي، في الترجمة الخاصة بالدكتور/ فؤاد زكريا.

هذا يكشف عن تعاطف وتقدير من الكاتب (د/ حسن حنفي) لأصالة الفقهاء القدامى، وتقديم تبرير لارتباط الجماعات الإسلامية المعاصرة بتراثها!!.. لا يملك المرء إلا أن يعترض بشدة على ما تعبر عنه من اتجاهات شديدة الرجعية»[١].

أرأيت أن مجرد التعاطف مع من يتمسك بدينه وتراثه من المسلمين يُعَدُّ في نظر د/ فؤاد زكريا خطيئةً يجب الاعتراض عليها بشدة؟ إذ كيف يقول د/ حنفي: إن المستقبل لهذه الجماعات المتمسكة بالأحكام الشرعية؟ ومنها الحدود التي يراها د/ فؤاد زكريا تخلفًا ورجعية.

إن هذه الكلمات وغيرها منه لا تؤكد بُعْدَهُ عن الشريعة الإسلامية وحسب، وإنما تؤكد بُغْضَهُ لها ولكل من يذكرها وأهلها بخير، ولو كان على مذهبه ومن نفس مدرسته.

يقول الشيخ محمد الغزالي: «.. الإسلام حكم أولاً بتحريم الزنا، ثم ربى على ذلك أمته، أما القانون القائم فهو لا يحكم بتحريم الزنا، وإنما يعاقب على الإكراه أو الاعتداء على فتاة قاصرة، أو على الخيانة الزوجية إذا رفضها الزوج.. وفارق بين الأمرين بعيد!!

ثم إن من حق الإسلام أن يحتاط في إقامة حد قد يكون فيه قتل مادي أو أدبي، لكنه يحرم الزنا برفض دواعيه وما يؤدي إليه، ويعاقب ـ بما دون الحد ـ مَن يرتكبون عملًا فاضحًا لا يستكمل الشروط الموجبة للحد المقرر، ويعني هذا أن الخلاف أساس في نظرة الشريعة إلى الجريمة، ونظرة القانون إليها.

إننا إذا اتفقنا على أن السُّلَّ مرض لم نختلف في منع ما يؤدي إليه من تقاليد التبرج والانطلاق.. ولن يحتاج الأمر إلى جهد، يوم تُقَدَّسُ الأعراض، ويحكم الشرع، وينبذ هذا القانون المجلوب من بلاد تمردت على الله ورسوله»[٢].

إن الفرق بين أحكام الشريعة الإسلامية وبين القوانين الوضعية المستوردة من الدول الأجنبية كالفرق بين الحياة والموت، لأن مواجهة جريمة الزنا وما ينتج عنها من مسالب ومصائب لا يكون بالإنكار والقانون فقط، إنما يكون بمراعاة الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

يقول الشيخ الغزالي: « الزنا جريمة خلقية واجتماعية بالغة الفحش.. ومواجهة هذه المشكلة لا تكون بالاستنكار السلبي.. ثم يمضي قائلاً: إن الشهوة الجنسية لابد وأن تتحرك، فإذا لم تتح لها الحركة الطبيعية (أي الزواج الشرعي) لم يبق أمامها غير الحركة الخبيثة .. إن إتاحة الزواج للراغبين مسألة لا تقل عن ضمان الأقوات للشعوب، وعندي إن وزارة التموين لا تمثل إلا نصف المشكلة المادية، وإن شئون الزواج والأسر

---

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ٣٥، وما بعدها ، بتصرف، مرجع سابق

(٢) معركة المصحف، للشيخ الغزالي صـ٢٢٩وما بعدها، بتصرف، ط/ نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط/ ١، سنة ١٩٩٦م.

تحتاج إلى وزارة أخرى.. فمَن أبى إلا ارتكاب الفاحشة بعد أن مهدنا له طريق الفضيلة وَجَب جلده أو رجمه»[١]. وهذا من جمال وكمال الإسلام، إذ يسد الذرائع والثغرات ولا يتربص بالمخطئين، وهو ـ أيضًا ـ يعالج الأمور بحكمة ورحمة، فالوليد الذي يولد من سِفَاح لا يجوز أن يترك بدون رعاية، فهو أخ لنا في الدين يجب الاعتناء به وموالاته قال ﷻ: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥]

وإذا وُجِدَ هذا الوليد في مكان "وجب على مَن رآه أن يلتقطه إن علم أنه يهلك إن تركه، لما في ذلك من السعي في إحياء نفس وإغاثة إنسان ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٣٢] وفي التقاطه رحمة به، وعلامة من علامات الإيمان. قال ﷺ: (ليس منا مَن لم يرحم صغيرنا....)[٢]

وتعود إعالة اللقيط وكفالته على الدولة، ومَن أراد من المسلمين أن يقوم برعاية اللقيط والإنفاق عليه فله في ذلك أجر كبير ومثوبة عظيمة» [٣] لا تقل عن كفالة اليتيم وربما تزيد؛ لأن اليتيم له أهل يعرفهم ويعرفونه، فهو معروف النسب، أما اللقيط فلا يُعرف له نسب ولا أهل ولا ميراث، وحاجته للمساعدة أشد.

والعجيب أن الناس يفضلون كفالة اليتيم؛ لورود النصوص الشرعية الصريحة بفضل كفالته، وأراهم يزهدون في كفالة هؤلاء اللقطاء (المساكين) بدعوى أنهم ليسوا يتامى بل لقطاء آباؤهم أحياء.

أقول: أَمِن العدل أن نَحْسِبَ عليهم آباءً لا صلة لهم بهم، ولا أثر لهم في حياتهم، ولا يعرفون عنهم شيئًا؟ وما رأيته بعيني فيما يسمى بدور الرعاية يشيب له الولدان، فهل آن الأوان أن ننظر في حقوق هؤلاء اللقطاء وأطفال الشوارع، قبل أن يتحولوا إلى قنابل موقوتة لا أدري متى تنفجر؟ نسأل الله السلامة

وبعد الحديث عن العلاقات الاجتماعية غير المشروعة، ومظاهرها وأضرارها، نتحدث عن الأسباب؛ لأنه إذا عُرِفَتْ الأسباب وتَحَدَّدَتْ تمكن المصلحون من إزالتها.

وهذا ما سنذكره إن شاء الله في الصفحات التالية.

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، للغزالي صـ٦٦ ، ٦٧ ، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) رواه الترمذي في سننه من حديث أنس ﷺ كتاب (البر والصلة)، باب (رحمة الصبيان) برقم (١٩١٩) وهو صحيح صـ٥٠٩، مرجع سابق، وأبو داود في سننه من حديث عبد الله بن عمرو كتاب (الأدب) باب(الرحمة)برقم (٤٩٤٣) صـ٨٢٣، مرجع سابق، وقال الألباني: صحيح انظر: صحيح الجامع (٥٤٤٥).

(٣) رحماء بينهم صـ٧٤ ، ٧٥ بتصرف يسير، د/ راغب السرجاني، ط/ دار نهضة مصر، ط/ ٤، سنة ٢٠١٣م.

المبحث الثالث: الهروب من المسئولية الزوجية، وعدم القيام بالواجبات الاجتماعية:

قد يُقَصِّرُ الإنسان في التطوع المندوب ولا يأثم، غايةُ ما فى الأمر أنه يُحرم الأجر، وكذلك فروض الكفاية لايعاقب المرء عليها، لأنها إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين، أما أن يقصر الإنسان في فرض عينٍ أو واجبٍ منوطٍ به، فهذا غير مقبولٍ شرعًا وعقلاً وعرفا.

ومع أن النبي ﷺ يقول: (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته، ألا إن كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[1] إلا أن كثيرًا من هؤلاء المسئولين ـ على اختلاف مواقعهم ودرجات مسئولياتهم ـ قصروا كثيرًا في القيام بواجباتهم، وذلك لأسباب من أهمها: ضعف الإيمان بالله، وخراب الذمم وموت الضمائر، وتراجع القيم النبيلة كالمروءة والحياء وغياب القانون.

وسأكتفي هنا بمسئوليات الزواج والواجبات المتعلقة به، لأن الهروب من هذه المسئوليات من أخطر الأمراض الاجتماعية إن لم تكن أخطرها على الإطلاق.

والدكتور/ فؤاد زكريا لم يذكر شيئًا عن شريعة الإسلام في المسئوليات بين الزوجين، ولا الواجبات الاجتماعية بين الأقارب والمسلمين، ولا ما يترتب عليها من ثواب أو عقاب. حتى في ترجمته لكتاب (هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية) لم يعلق ـ كما تعودت منه ـ على المؤلف [2] الذي يُرجع مسائل الهروب من المسئوليات، وعدم القيام بالواجبات الاجتماعية إلى ضعف الأخلاق، أو غياب الشرطة والقانون.

يقول: «فالأخلاق ـ عند المؤلف ـ تنبع من روح الإنسان، وهي نسبية متفاوتة بين الناس، لكنها تشمل جميع نشاطات المرء الواعية والهادفة في المجتمع، وهذه الأخلاق تجيء بدافع العقيدة أو بنواتج ذات عاقلة تخلقها الظروف والممارسات الاجتماعية» [3].

وفي مكان آخر يقول : « في غياب الأخلاق أو ضعفها يكون القانون والشرطة الرادعة هو البديل، مع احترام الملكية والحرية الخاصة بين جميع أفراد المجتمع، بحيث يقوم النظام الصالح المشترك بين الكافة.. ولاستمرار هذا النظام لابد من توفيق المصالح المتعارضة سواء أكانت بسبب المنافسة أو الظلم

---

(١) رواه البخاري وقد سبق تخريجه في المبحث الثاني في الفصل الثاني من الباب الأول تحت عنوان/ مسئولية ولي الامر نحو النشء صـ٩٤.

(٢) وهو : هربرت ماركيوز.

(٣) انظر صـ٧٦ وما بعدها، مرجع سابق.

والتعسف.. لأن مجرد المساواة بين الناس في القانون لا تزيل التفاوت المادي بينهم، ولا تقضي على العوارض العامة التي يتعرض لها المجتمع.» (١)

كنت أود من د/ فؤاد زكريا أن يعلق (كعادته) في هامش الترجمة ويقول: لا ننكر أن الأخلاق النابعة عن عقيدة إيمانية صحيحة، أو تربية اجتماعية صالحة يكون لها دور فاعل في القيام بالمسئوليات الاجتماعية، واحترام الواجبات الإنسانية. لكنه للأسف لم يفعل!

وخلاصة القول عنده أن الهروب من المسئوليات الزوجية مرده ضعف الأخلاق، وغياب القانون.

أما الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله فيرى أن الواجبات الاجتماعية لا تقوم في جو الأنانية وحب النفس، وغياب التربية الإيمانية والرحمة الإنسانية يقول: «إن القلب يتبلد في المجتمعات التي تَضِجُّ بالمرح الدائم، والتي تصبح وتمسي وهي لا ترى من الحياة غير آفاقها الزاهرة ونعمها الباهرة، والمترفون إنما يتنكرون لآلام الجماهير؛ لأن الملذات التي تُيَسَّرُ لهم تغلف أفئدتهم وتطمس بصائرهم، فلا تجعلهم يشعرون بحاجة المحتاج وألم المتألم وحزن المحزون.

الناس إنما يرزقون الأفئدة النبيلة والمشاعر المرهفة عندما يتقلبون في أحوال الحياة المختلفة ويَبْلَوْنَ مس السراء والضراء عندئذ يحسون بالوحشة مع اليتيم وبالفقدان مع الثكلى وبالتَعِبَة مع البائس الفقير» (٢).

حقًّا إن ضياعَ الحقوق والهروبَ من المسئوليات يكون بسبب تَبَلُّد الحس، والاستغراق في اللهو وحب الدنيا والترف الفاحش الذي يطمس البصر والبصيرة، ويميت القلب ويجعل المرء لا يعرف إلا نفسه.

وليعلم كل عاقل أن الهروب من المسئوليات والواجبات الاجتماعية لا يعني الإفلات من العقاب. يمكن للمرء أن لا يعاقب ـ في الدنيا ـ أو حتى يحاسب أو يعاتب، ولكن المسلم يعلم أنه سيقف بين يدى الله تعالى وسيحاسبه. أليس الله ﷻ هو القائل: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[الأعراف:٦] ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾[الصافات:٢٤] ﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾[الإسراء:١٤] ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾ [التكوير:٨، ٩] .

وفي كتابه (الحق المر) تحت عنوان: رقابة الله أساس المسئولية يبين الشيخ/ الغزالي رحمه الله أن ضياع الحقوق وعدم القيام بالواجبات يرجع أيضًا إلى جهل الإنسان بحقوقه، وبالطرق المشروعة الموصلة إليها، وعدم مطالبته المسئولين بها، فالإنسان هو المسئول الأول عن كل ما يحدث له أو يؤثر عليه (١).

---

(١) المرجع السابق صـ٢٠٦ وما بعدها.

(٢) خلق المسلم للغزالي صـ٢١٦، ط/ دار الريان للتراث، ط/ ١، سنة ١٩٨٧م.

(١) انظر صـ٣٢ وما بعدها، مرجع سابق.

وخلاصة القول: أن الشيخ الغزالي يرى أن الهروب من المسئوليات الزوجية والواجبات الاجتماعية مرض خطير وشر مستطير، بلغ حد الظاهرة وبات ينخر في عظام المجتمع، ويضر بمصالح الناس ودينهم وقيمهم الإنسانية، وعلاجه يكون بالإيمان واتباع تعاليم الإسلام، ونشر الوعى بين الناس واحترام القانون وتطبيقه.

ولا يتم ذلك بصورة كاملة وصالحة طالما هناك من يهرب من المسئولية ويفلت من العقاب.

وبما أن أخطر وأظهر أنواع الهروب من المسئوليات يكون في الأسرة بين الزوجين أتحدث بعون الله تعالى ـ في المبحث التالي ـ عن آثار هذا المرض على الأسرة وتماسكها، والأولاد ومستقبلهم، والزوجين ودوام الحياة والسكينة بينهما.

والله المستعان.

المبحث الرابع: آثار الهروب من المسئوليات الاجتماعية على الكيان الأسري:

ذكرت ـ من قبل ـ أهمية الأسرة ودورها في بناء المجتمع، وعوامل قوتها وتماسكها[١] وحتمية القيام بالواجبات الاجتماعية المنوطة بها، وخطورة الهروب منها أو النكوص عنها[٢].

وحتى تؤدي الأسرة رسالتها ولا يصل بها الحال إلى الانهيار والتفكك والفشل والضياع، لابد من تعاون كلا الزوجين مع بعضهما، بحب ورضا وصبر ومثابرة، طاعة لله ورغبة في رضاه.

ولقد ذكرت أن أخطر مظاهر الفشل والمرض الاجتماعي، هي تلك التي تتعلق بعدم القيام بالواجبات والهروب من المسئوليات، وأُؤكد في ذات الوقت أنها ـ أيضاً ـ من أبرز مظاهر الضعف في المجتمع، وبدايات هذا الضعف تنشأ بالاختلاف بين الزوجين ثم الخلاف، ثم الشقاق ثم الطلاق[٣].

ولتمام الفائدة أذكر هذه الأمور بشيء من التفصيل.

أولاً: الخلافات الزوجية.

هناك فارق بين اختلاف الزوجين وبين تطور هذا الاختلاف لدرجة الخلاف والشقاق والضرر والأذى، ومن ثَمَّ الطلاق، ولا أتصور بيتًا واحدًا أو أسرة قائمة ليس بين أفرادها اختلاف، لأن الاختلاف في وجهات النظر طبيعة بشرية، وظاهرة صحية تثري الحياة الزوجية وقد قيل: الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.

والحق إن كثيرًا من الأزواج لا يوظف الاختلاف لصالح الأسرة، ولا يعتبره رافدًا من روافد الفكر والرأي والمشورة، وذلك لأسباب منها ضعف ثقافة الحوار، والجهل بالواجبات والحقوق بين الزوجين، وعدم التمييز بين اختلاف مشروع تستمر معه الحياة، وبين خلاف مذموم يهدد كيان الأسرة ويقضي عليها.

ثانيًا: زيادة معدلات الطلاق.

بلغ عدد المطلقات في مصر في إحصاء نهاية عام ٢٠١٤ (٢) مليون ونصف[١].ومعلوم أن الطلاق

---

(١) في الفصل الخامس من الباب الأول تحت عنون/ الأسرة وأهميتها في بناء المجتمع.

(٢) في المبحث السابق.

(٣) انظر المبحث السابع بعنوان/ تعدد الزوجات وقضايا الطلاق .. الفصل الرابع من الباب الأول.

(١) انظر موقع الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء الذي أكد أن مصر تشهد حالة طلاق كل ست دقائق بمعدل ٢٤٠ حالة طلاق يوميًا، وخصوصًا المتزوجون حديثًا فإنهم يتطلقون في العام الأول بنسبة ٣٤٪.

وهو أبغض الحلال شرع لحل مشاكل الزوجين[1] وليس لتعقيدها، ولذلك حرص الإسلام على حماية الأسر حيث شَرَّعَ قبل الطلاق النصح والصلح، والهجر والضرب الخفيف، والتحاكم إلى الأقارب من أهل الفقه والصلاح، وبين ما يجب أن يكون عليه الزوجان من وعي وحكمة. قال ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[النساء:٣٤].

تأمل قوله تعالى:﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾كأنه يقول لا ترى (أيها الزوج) بوادر النشوز ثم تسكت إلى أن تكتوي بناره، بل عليك (فورًا) أن تبادر بعلاجه بما ذكرت الآية الكريمة، هذا إذا بدأ النشوز من المرأة ، أما إذا بدأ النشوز من الزوج، فتأمل قوله ﷻ: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[النساء:١٢٨] .

تأمل ﴿خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾ فهو ﷻ يقول للمرأة كما قال للرجل: لا ينتظر كل منكما حتى يكون الآخر ناشزًا، بل يجب التحرك فورًا لعلاج هذا الخلل فور ظهوره، وإبعاد شره عن الأسرة، وهذا يذكرني بوصية أمامة بنت الحارث، زوج عوف بن ملحم الشيباني، وقد عاشت أمامة فى العصر الجاهلي، واشتهرت بالعقل والحكمة وفصاحة اللسان وسداد الرأى، حيث أوصت ابنتها أم إياس عند زفافها إلى عمرو بن حجر وصية غالية.

---

(١) يقول الأستاذ العلامة محمد الطاهر بن عاشور : (.. قد جعلت الشريعة لكل آصرة وسيلة إلى انحلالها إذا تبين فساد هذه الآصرة، أو تبين عدم استقامة بقائها.. وبيان انحلال آصرة النكاح إذا كان معنى التعاقد فيه عارضاً غير مقصود، مع أن النكاح منزلته أسمى من منازل العقود، فكان انحلال آصرة النكاح بالطلاق من تلقاء الزوج وبطلان الحاكم وبالفسخ. والمقصد الشرعى فيه ارتكاب أخف الضررين عند تعسر استقامة المعاشرة وخوف ارتباك حالة الزوجين، وتسرب ذلك الى ارتباك حالة العائلة. فكان شرع الطلاق لحل آصرة النكاح فقد أشار إلي ذلك قوله ﷻ : ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٢٩] وجعل أمر الطلاق بيد الرجل، لأنه في غالب الأحوال أحرص على استبقاء زوجه، وأنفذ نظراً في مصلحة العائلة (والأسرة من باب أولي).

علي أنه قد جعل للمرأة الوصول إلي الطلاق بطريق الرفع إلى الحاكم إذا حصل ضرر أوبطريق الخلع، كما جعل لها مخلصاً مما عسي أن يكون في بعض الرجال من حماقة أو غلظة أو تسرع إلي الطلاق اتباعاً لعارض الشهوات، بأن تشترط أن يكون أمر طلاقها بيدها. وأما حكم الحاكم بالطلاق أو بالفسخ فلأجل الضرر، أو لكون النكاح وقع علي غير الصفة التى عنيت له فى الشرع . أنظر كتاب مقاصد الشريعة صــ١٦٢، بتصرف، طبعة دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الثانية،سنة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م .

منها:(انظري إلى ما بين عينيه وأنفه فلا تقع عيناه منك على قبيح ولا يشمن منك إلا أطيب ريح)[1] لأن النشوز لا يكون إلا بعد مخالفات شرعية أو خلافات زوجية، ولو أنصف كِلا الزوجين صاحبه، وتعاملا معًا بالفضل قبل العدل، وتداركا (فورًا) الأخطاء والاختلافات لَـمَـا وصل الحال إلى الخلاف والشقاق، أو الضرر الذي يحدث جروحًا غائرةً لا تطاق، ولا علاج لها إلا الطلاق.

وإذا كان الطلاق في هذه الحالة جائزًا، أو مستحبًّا، أو واجبًا، فهو كالعلاج المر الذي يتجرعه المريض ليقوى به على المرض، ويرجو من خلاله السلامة.

والواقع يؤكد أن الطلاق الآن لا يتم بالصورة التي من أجلها شرع، وإنما يتم بصورة ظالمة جائرة تظهر آثارها على الزوجين والأولاد كالقطيعة وضعف وشائج الرحمة ومن ثم تفكك الأسرة وضياعها.

ثالثًا: التفكك الأسري.

إن من أخطر عواقب الطلاق وأشدها ضررا على كيان الأسرة وتقطيعا لروابطها هو الأذى النفسي والمادي الذي يصيب الزوجين والأبناء والمجتمع. لذا أرى أن الطلاق هو بمثابة الكي بالنار أو بتر العضو الفاسد من الجسد لمن استنفد جميع وسائل العلاج.

ويكون الطلاق مقبولًا وفي صالح المجتمع إذا تفادينا به شرًّا أكبر منه، سواء أكان هذا الشر واقعًا فعلاً أو محتملاً مستقبلاً، كالتهديد بالقتل أو الشروع فيه، أو الهروب المتكرر من المنزل، أو اشتداد الاختلاف وتفاقم الخلاف ، أو المرض المعدي، أو الإيذاء النفسي وما شابه.

والدكتور/ فؤاد زكريا ليس له كلام يذكر في هذا الموضوع.

أما الشيخ الغزالي فيقول: "بالرغم من الدمار البالغ الذي يصيب المجتمع كله إثر تقويض الأسرة بعمل طائش، وبالرغم من المكانة الملحوظة التي وفرها الإسلام للأسرة بتعاليمه المحكمة، فإن المسلمين ظلموا أنفسهم في السنين الأخيرة ظلمًا بينًا عندما جهلوا أو تجاهلوا منهج دينهم في ذلكم الموضوع الجليل! لقد تعمدوا إهمال بعض الأحكام، وتركوا للعقول الكليلة أن تشوه البعض الآخر، ونشأت عن ذلك فوضى عملية وفقهية مؤسفة، خذ مثلاً: الأمر بالتحكيم عندما يعجز الزوجان عن حل مشكلاتهما، إن المسلمين يكادون يتفقون على إهمال هذا الأمر، وقلما يكترثون لإنشال الأسرة الغارقة عن طريقه.مع أن التوجيه الإلهي في هذا صريح كل الصراحة قال ﷻ:﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:٣٥]

---

(١) للمزيد انظر كتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى رحمه الله جـ٢ ، كتاب أداب النكاح الباب الثالث فى أداب المعاشرة والنظر فى حقوق الزوج صـ٥٤، طبعة دار العلم بيروت لبنانا ط١ بدون تاريخ.

إن الجماهير لا تعي هذا المعنى ولا تنفذه، والمرأة تدع البيت فور سماعها الكلمة الكريهة، ولو فكرت في المُكث لاستخرجها الرجل الغاضب.»[(١)] وهذا يدل على منتهى الجهل بأحكام الطلاق والعدة، فكثير من الناس يقطع الطريق على زوجته وأولاده، وربما على نفسه ومصلحته الشخصية، لقد رأيت كثيراً من الحالات التى ندم أهلها أشد الندم بسبب هذا الجهل، ولو أن كلا الزوجين التزم أمر الله ورسوله فى مسائل الطلاق وتبعاته لما تفككت آلاف الأسر، وخربت آلاف ـ بل مئات الألوف من - البيوت، وشردت العوائل التى لم تجد لها عائلًا أو حاضنًا، وما ذاك إلا بسبب الغباء والجهل والعجلة وسوء التقدير.

ويستمر الشيخ فى بيان خطورة إخراج المرأة من بيتها، أوخروجها لمجرد سماع لفظ الطلاق من زوجها يقول: « أهذه العواطف الصبيانية.. هى التنفيذ لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق:١] والإسلام لما أوجب على المطلقة البقاء في البيت، إنما يريد الانتظار حتى تهدأ العاصفة وتتحرك الضمائر، ويراجع كلا الطرفين موقفه ويستعرض ذكريات الماضي وتبعات المستقبل، ويدرس أحوال الأطفال إن كان هناك أطفال، فالهروب من البيت عقب كلمة الطلاق تضييع لفرص التفاهم ولعودة المياه إلى مجاريها، ولانتصار الرشد على الحمق، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ [الطلاق:١]. وليس الطلاق كلمة تقال في أي وقت، أو ترسل بأي صيغة، فإن الله رسم له أسلوبًا معينًا يجب التزامه»[(٢)] حتى تبقى الأسرة قائمة، ونُبعد عنها شبح التفكك والانهيار. إذ ما فائدة افتراق الزوجين ومن ثَمَّ الأولاد مع إمكانية البقاء والجمع بصورة مقبولة شرعًا وتستمر معها الحياة؟

ومعلوم أن الإسلام يحث على الصبر، ويعد بالثواب الجزيل عليه، حبذا لو كان هذا الصبر جميلاً، نتفادى به شرًا مستطيرًا، واعتقد أن هذا الأمر يتجلى في أجمل صوره بين الزوجين الصالحين قال ﷺ: (لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر)[(٣)].

يقول الشيخ الغزالي: «إن عقد الزواج لا يتم إلا عن بصيرة وإرادة، فكذلك إنهاؤه ما يتم إلا عن وعي وعزم، ولذلك ينبغي رفض أكثر ما يجري على ألسنة من تطليق هو إلى اللغو أقرب منه إلى الحق. هل معنى هذا أني أقبل تقييد الطلاق، وإجراءه أمام القاضي؟ لا لا.. إنني أرفض ـ والكلام للشيخ الغزالي ـ هذا العبث رفضًا باتًا.. لأن الطلاق حق الزوج، ولن تستطيع شرطة القاهرة، ولا شرطة العالم أجمع إلقاء

(١) هذا ديننا، للشيخ الغزالي صـ١٤٢ ، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـ١٤٣.

(٣) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة، برقم (١٤٦٩) كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، صـ٣٢٠، مرجع سابق.

الرجل في أحضان امرأة تنافر ودّه معها، وأجمع أمره على قطعها، وليس من كرامة المرأة أن يسن قانون بهذا الوضع الشاذ.

علاج سوء التطليق هو رفع المستوى العلمي والخلقي، وإعادة الأمة الإسلامية إلى قواعدها الاجتماعية الأولى، وهي قواعد من أنبل وأشرف ما وعى التاريخ. »[١].

حقًّا هي كذلك ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولقد أحسن الشيخ رَحِمَهُ اللهُ عندما أَبْعَدَ عن هذه المسألة سلطة القانون، وتركها للدين والمروءة والعلم الشرعي والعالمين به.

لذا يجب قبل الشروع في الطلاق أن يتفكر كلا الزوجين طويلًا في عواقب هذا الأمر عليهما، وعلى الأطفال والمجتمع، وأن يستخيرا الله تعالى، ثم يستشيرا أهل العلم والرأي والخبرة، حبذا الأقرباء والمحبين، فما خاب من استخار وما ندم من استشار.

وإذا كان الطلاق ـ بالصورة سالفة الذكر ـ أخطر ما يهدد الأسرة ويقضي على ترابطها ويشرد أفرادها، ويزرع بينهم الكراهية والعداء، فإن انتشار الجهل والبدع والخرافات يضر بالمجتمع، ويحول بينه وبين العلم النافع والعمل المفيد.

وهذا ما سأذكره ـ إن شاء الله ـ في الصفحات التالية.

---

(١) هذا ديننا للشيخ الغزالي، صـ ١٤٤ وما بعدها مرجع سابق.

المبحث الخامس: انتشار الجهل والبدع والخرافات فى المجتمع:

مظاهر الجهل في المجتمع كثيرة ومتعددة ومتنوعة، فمنها الأمية بجميع أشكالها وأنواعها كالتخلف التقني والحضاري، ومنها السحر واعتقاد البدع والشعوذة والخرافات المبنية على الأساطير والتي تصل ـ أحيانًا ـ إلى حد العقائد والمسلمات.

ومما لا شك فيه أن العلم الذي يستند إلى نص ديني قطعي الثبوت والدلالة، أو تجربة صادقة مؤكدة بالدليل المادي أو البرهان القائم على الملاحظة والاستقراء لا شك أن هذا العلم يقضي على الجهل والبدع والخرافات في المجتمع.

والدكتور / فؤاد زكريا يرى أن انتشار الجهل والخرافات في المجتمع يرجع إلى سببين رئيسين هما:

١ـ عدم تعرف الإنسان على الملكية الفردية بمعناها الصحيح.

٢ـ عدم قدرة الإنسان (علميًّا) على فهم ظواهر الكون، والقوانين التي تحكمها.

يقول: « لم يعرف الإنسان الملكية الفردية بمعناها الصحيح في المراحل البسيطة الأولى من حياته.. في هذه المراحل كان الفكر الإنساني يتسم بنفس البساطة والبدائية اللتين كان يتسم بهما الإنتاج، فكل حوادث الطبيعة كانت تفسر تفسيرًا أسطوريًّا يتمشى مع العجز عن فهم الظواهر الكونية، وعدم القدرة على كشف أي قانون من قوانينها، وكان العالم يحتشد بالقوى التي تنسب إليها صفات إلهية، فهناك: آلهة للرعد والمطر، والزرع والبحر، والخصب والموت ...إلخ، بحيث كان الحد الفاصل بين عالم الطبيعة وعالم الإنسان يكاد يكون منعدمًا، فالطبيعة تشعر بنفس الأحاسيس الإنسانية وتتحكم فيها نفس العوامل التي تتحكم في أفراد البشر...

وكان السحر هو التعبير الواضح عن مجتمع يعجز فيه الإنسان عن السيطرة على الطبيعة من خلال فهم قوانينها، فيلجأ إلى القوى الخفية والغيبية التي يتصور أنه يستطيع عن طريقها التحكم في مجرى الأشياء.

ومن الملاحظ أن السحر بدوره يفترض نوعًا من العلاقات المشاعية المشتركة بين الإنسان والطبيعة، إذ إن الطبيعة تخضع لكلمات الإنسان وأوامره وتعاويذه ويزول كل حد فاصل بين المجال البشري والمجال المادي الخارجي»[1].

ولا ننكر أن البساطة والجهل بحقائق الكون وقوانينه عاملٌ من عوامل التخلف، وسببٌ من أسباب السذاجة وقبول الدجل والسحر والشعوذة، ولكن كيف تواجه هذه الأمور؟

---

(١) الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية صـ٧، بتصرف، مرجع سابق.

في نظر الدكتور/ فؤاد زكريا تواجه بالعقل والتجربة، فالعقل شب عن الطوق، وبلغ مرحلة النضج والرشد، وتجاوز كثيرًا مراحل الطفولة، وهو قادر على الوصول إلى المعرفة بنفسه [(١)].

الواضح أن الدكتور/ فؤاد تجاهل العلم الذي جاء به الأنبياء، فمن خلال قرائتي لكتبه ونقولي المتكررة عنه لم أرَه يَعُد القرآن أو السنة مصدرًا من مصادر المعرفة الحقة التي يمكن للمرء أن يميز من خلالها الحقائق والأساطير، مع أن الله ﷻ يقول: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة:٣١: ٣٣].

إننا نؤمن أن المجتمع فيه جهل وبدع وخرافات، لكن لا تعرف بالعقل والتجربة وحسب، ولا ترد ولا تنقض بهما دون غيرهما، فهناك أمور أخرى تتقدم على العقل في معرفة حقائق الأمور كالوحي الصادق المعصوم، ورؤية الحقائق أو إدراك آثارها بالحواس الخمس لكن د/ فؤاد زكريا يركز جل جهده في البرهان العقلي، وأحيانا في التجربة المادية.

فتحت عنوان/ دور العقل فى مشكلة المعرفة يقول:« كثير ما نستخدم فى أحاديثنا المعتادة عبارة: لن أصدق حتى أرى بعينى! وقد يكون قائل هذه العبارة قد استمع إلى حجج ذات مظهر مقنع تماما.. وأن المشاهد بالعين أصدق إنباءً من أية حجة عقلية. وكم حدث أن رويت لنا أمور تبدو غير مقنعة لعقولناا ثم تبدد كل شك بشأنها حين أكد لنا مصدر موثوق به أنه شاهد الواقعة أو سمع الأصوات المشكوك فيها بأذنيه.. كل هذه الحالات تعبير عن إيماننا بأن هناك أموراً معينة تكون شهادة الإدراك المباشر فيها أقوى من شهادة العقل. بل إن انتشار قدر كبير من الخرافات كان راجعًا إلى إقناع الناس بها، بل إلى اعتقادهم بإدراكها، فإيمان الناس بوجود الأشباح لم يكن بسبب قوة الحجج، وإنما كان بسبب أشخاص قد ظلوا يرددون أنهم رأوا الأشباح بأعينهم، أو أدركوها على أى نحو من أنحاء الإدراك المباشر.. إن الإيمان بأن المعيار الحاسم بوجود الأشياء هو إدراكها لا البرهنة عليها هو إيمان قد يصل فى قوته إلى حد إقناع الجزء الأكبر من البشر وقتًا طويلا من تاريخنا بوجود أشياء خرافية كالأشباح.»[(١)].

والبرهنة التي يريدها د/ فؤاد ليست الدليل النقلي كما تعلمناه في دراسة علم التوحيد وعند الحديث عن الغيبيات، وإنما هي البرهان العقلي القائم على الفكر الفلسفى، وهذا خطأ كبير وقع فيه د/ فؤاد زكريا، إذ

---

(١) انظر كتاب التفكير العلمي، صـ ٥٥ ، ٥٦، مرجع سابق.

(١) نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، د/ فؤاد زكريا، صـ ١١٥ : ١١٦ بتصرف، مرجع سابق.

كيف نثبت معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء؟ بل كيف نثبت وجود الله وملائكته ورسله والجن والجنة وعالم الغيب؟ ألم تعرف هذه الأمور بالوحي؟! هل نقول كما قال غيرنا لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] .

إن أشياء كثيرة لا تعرف بالفلسفة، ولكن تعرف بنصوص الوحى التى جاء بها المرسلون عليهم السلام ولعل قائلًا يقول: إن الدكتور فؤاد زكريا (رجل فلسفة) وهكذا تكون الدراسات الفلسفية !! أقول: يدرس المرء ما يريد، إلا أنه في البداية والنهاية رجل (مسلم) ينتمي إلى عقائد المسلمين، وإلى مصادر علمهم، فكيف لا يجعل من هذه العقيدة وتلك المصادر مادة علمية على أساسها يقبل، وبميزانها يزن، وعلى هديها يسير؟

إن ما يحيرني في معظم كتابات د/ فؤاد زكريا أنها لا تثبت على حال ولا تستقر على رأي، فقد تؤكد شيئًا وسرعان ما تتحول عنه أو تشكك فيه أو تنفيه، فمثلاً يقول:« إن إمكان حياة الإنسان العلمية تقتضي الاكتفاء بالتجارب المباشرة في الوقت الذي يتعامل فيه مع الأشياء ـ وبعد سطور من هذا الكلام يقول ـ ولنتوسع قليلاً في مسألة الصلة بين فكرة وجود العالم الخارجي، وبين سلوك الإنسان العلمي في الحياة، فهناك في حياة الإنسان أمور واضحة لا ينكر الإنسان وجودها على الإطلاق، لكنه يظل دائمًا عاجزًا عن إثباتها فهو يعني عدم وجودها »[(١)].

وللدكتور/ فؤاد زكريا رأيٌ في الأحلام والرؤى والمنامات من المفيد أن أذكره هنا يقول: «..من أمثلة حالات الشذوذ هي حجة الأحلام، وأول ما يتبادر إلى الذهن أن الحلم ظاهرة مألوفة إلى أبعد حدّ، وإن من الخطأ إدراجها تحت حالات الشذوذ (يعني الفكري) ولكن الواقع أن الحلم مألوف من حيث هو ظاهرة نفسية، أما من حيث هو طريقة من طرق الإدراك، على نحو ما يستخدمه الفلاسفة في حجتهم هذه، فهو حالة شاذة بالقياس إلى ما اصطلحنا على تسميته بإدراكنا في حياة اليقظة »[(٢)].

ولا أدري مع مَن اصطلح الدكتور؟ وعلى ماذا؟ ثم يُصَرِّحُ أن الأحلام المنامية وسيلة تبرر الشك لا تُثْبِت يقينًا، يقول: «ولقد كانت حجة الأحلام ممتازة بوصفها تبرر الشك، إذ إن من أقوى الأسباب التي يرجع إليها الاعتقاد الساذج بأن إدراكاتنا تسببها أشياء موجودة بالفعل في عالم واقعي وحدوث هذه الإدراكات رغمًا عن إرادتنا، وهذه اللاإرادية في فئة معينة من الإدراكات سلاح قوي جدًا في يد الواقعي، إذ أنه يستطيع دائمًا أن يخرج المثالي غير الدقيق»[(١)].

(١) المرجع السابق صـ ١٢٢، ١٢٣.

(٢) المرجع السابق صـ١٦٦.

(١) المرجع السابق صـ١٦٨.

وإذا كان الفلاسفة قد اختلفوا في حجية الرؤى والأحلام، وهل هي من وسائل المعرفة أم لا، ونظروا إليها نظرة واحدة، وحكموا على جميعها حكمًا واحدًا فهذا شأنهم (وهو خطأ) ما كان للدكتور/ فؤاد زكريا (بصفته مسلمًا) أن يقع فيه، كان يجب عليه أن ينظر في مصادر الإسلام حيث قسّم الرؤى والأحلام إلى ثلاثة أقسام:

١ـ أضغاث أحلام من الشيطان. ٢ـ حديث النفس للنفس.

هذان القسمان لا علاقة لهما بالعلم ولا القَدَر ولا المستقبل، لأنهما من الشيطان أو النفس، والإنسان المؤمن لا يلقي لمثل هذه الرؤى بالاً، لأنها لا تنفع ولا تضر.

٣ـ الرؤى الصادقة التي تكون من الله، فهي بشرى للعبد أو تحذيرٌ أو إنذارٌ، والقرآن الكريم والسنة المطهرة فصلت هذه المسألة تفصيلاً لا يمكن لمسلم ـ يتحدث في هذا الموضوع ـ أن يتجاهله[1].

وغاية ما في الأمر أن الرؤى والأحلام لا تثبت حكمًا شرعيًا يوجب حدًّا أو حقًّا لأحد على أحد.

والشيخ/ الغزالي يرى أن البدع والخرافات الموجودة في المجتمع ترجع إلى أسباب أخرى غير التي ذكرها د/ فؤاد زكريا يقول: "ما أكثر الوراثات والإشاعات والأفهام التي لا تثبت على التمحيص، وهي عند أصحابها عقائد مكينة، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى المنطق العلمي الصارم في تقويم كل شيء، وترتيبه حسب منزلته من اليقين.. إن نشدان اليقين هو غاية المفكرين المسلمين في مزدحم الآراء التي تلقاهم...

وتأمل في هذه الآيات التي تجمع الرذائل الفكرية والنفسية لأي رأي تحذر من مفارقتها: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠ : ١١] التخرص والانغماس في الغفلة والسهو عن الواقع هذه الآفات لا تنتج حقيقة أبدًا. ومثلها غفلة الحواس: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] . فكم من حاضر الجسم غائب اللب، والمرء المغمور بصورة مادية ومعنوية قلما يخرج من محبسه ليدرك مشاهد أخرى للحياة، أو جوانب من الحق لا يحسها"[1].

وفي موضع آخر يؤكد الشيخ رحمه الله أن تراث الأمة العلمي شَابَهُ بعض شوائب البدع والخرافات التي اختلطت فيها الحقائق بالأساطير في نواحٍ كثيرة، لابد من النظر فيها وخضوعِها إلى قانون السببية، وضوابط الشريعة الإسلامية، ويخص بالذكر غلاةَ التصوف، يقول: "هناك نواحٍ مخيفة.. ما هذه النواحي؟

(١) انظر سورة يوسف، وصحيح البخاري كتاب التعبير باب الرؤيا من الله والحلم من الشيطان صـ ٩٨٨ وما بعدها مرجع سابق، وكتاب تفسير الأحلام لابن سيرين من صـ٣ : ١٧، طـ/ المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.

(١) ركائز الإيمان للغزالي صـ ٣٢ ، ٣٣، بتصرف، مرجع سابق.

النواحي كثيرة أكتفي منها بثلاثة أمور:

الأمر الأول: كثرة المبتدعات مع جماح العاطفة، بمعنى أن ناسًا كثيرين اخترعوا من عندهم أمورًا كلفوا الناس بها، وعندما أنظر إلى العبادات أجد أن الشارع هو الذي استقل بتكليف الناس بها، فمعنى الحكم الشرعي: خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين.. ولذلك لا يمكن أن يضع حكمًا شرعيًّا بشرٌ، لأن رب البشر هو الذي يكلف (العباد) وعندما أخذ بعضنا يكلف البعض الآخر نشأت مفارقات كانت من بين أسباب ضعف الأمة الإسلامية الفكري والفقهي، يقول الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] هذا نص قرآني على رأسي، ما معنى أن أدعو الله باسمه الحسن؟ واحد يقول لك: قل يا لطيف مائة ألف مرة بالليل، هذا تكليف من عند واحد من الناس..

الأمر الثاني: ما يتصل بقانون السببية.. الحقيقة أن قانون السببية قانون ملزم، وأن ما يقع لهذا القانون من خوارق هو شذوذ، والشذوذ كما قيل: يؤكد القاعدة ولا يهدمها، فإذا كانت النار تحرق، فالنار تحرق، كون النار لم تحرق إبراهيم عليه السلام فليس معنى هذا أن النار تَخَلَّفَ حريقها أو انهدم قانونها، لا فإبراهيم عليه السلام وحده له معجزة خاصة، وبقي القانون على امتداده يطبق على الكل، فلو رميتُ أحدًا في النار فينبغي أن يُقبض عليَّ على أنني قاتل، وما يغني عني أن يقال: النار كانت بردًا وسلامًا على إبراهيم، لا.. هذا كلام لا يقال، فالقاعدة قاعدة.

ومن أسباب انهيار الثقافة الإسلامية أن قانون السببية دَعِيّ مع المتصوفين فإن كل رجل طيب فيهم جعلوا خوارق العادات تحشو حياته، فهو يفتح الباب بغير مفتاح، ويطير في الجو بغير جناح، كل شيء سهل، كانت النتيجة أن البحر أصبح (طحينة) كما يقولون... »[1] وما ينتج عنها من ضعفٍ فكري، وجدلٍ فقهي، وفقرٍ مادي، ودعوةٍ إلى التواكل وتركِ الأخذ بالأسباب اللازمة للنهوض بالأمة فكريًّا وماديًّا.

ثم يمضي الشيخ الغزالي في بيان خطورة الأوهام التي تناقلها بعض المتصوفه، وأصحاب المذاهب يقول: «الطامة التي يقولها الأحناف أن رجلاً في المشرق تزوج امرأة في المغرب وولدت دون أن يتصل بها، كيف هذا؟ يقولون هو ابنه فقد يكون من أهل الخطوة!! هذا الكلام عيب أن يقال، قانون السببية طحنه المتصوفون بكثير من خوارق العادات.. ويجيء رجل ببلاهة فيقول لك: هل تنكر خوارق العادات؟ هل تنكر كرامات الأولياء؟ وفرضنا رجلاً أنكر هذا.. ابن حزم أنكر هذا ودينه محفوظ، وغيره أقرّ بها إذا كانت مروية بسند صحيح، ورفضها إذا كانت بغير سند صحيح، فالمسألة فرعية لا دخل لها في العقائد،

---

(١) خطب الشيخ الغزالي، جـ ١، صـ ٣٨٤ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

ولا دخل لها في الكفر والإيمان.

الأمر الثالث: هو ما يتصل بالدنيا، الدنيا سلاح خطير، يستطيع بها الإنسان بمالها وجاهها وسلطانها أن يخدم عقيدته، وأن يرفع شأنها إذا كان مؤمنًا، وإذا عبدها الإنسان أودت به، وإذا سخرها في خدمة الحق رفعت مستواه، وأعلت درجته وذهبت به إلى عليين.

انظر إلى رجل كسيدنا عثمان بن عفان ﷺ أنفق على جيش واستطاع أن يجعل المسلمين يكسبون معركة.. كيف نستهين بالدنيا: (نعمّا المال الصالح للرجل الصالح)(١).

هكذا علمنا رسول الله ﷺ ويقول الله ﷻ: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴾ [النساء:٥] التمكين في الدنيا وولاية منصب كبير هذا شيء عظيم، يقول الله في يوسف الصديق ـ لمّا ولاه شئون التموين والأموال، وأصبح على خزائن الأرض ـ تعليق القرآن على هذا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف:٥٦] سمي التمكين في الأرض رحمة، هذا في الدنيا، لأنه بعد ذلك يقول: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف:٥٧] فلما جاء من قبح وجه الدنيا للناس على كل حال خسر المسلمون دنياهم، فلما خسروا دنياهم وتمكن منها أعداؤهم ساوموهم على عقائدهم وشرائعهم وشمائلهم، فكانت النتيجة ما نحن فيه.

الأمر يحتاج إلى إدراك للحقائق، ولذلك فإن التراث الصوفي كله كالفقه، ككثير من أبواب الثقافة الإسلامية المختلفة.. كل هذا يحتاج إلى غربلة، وحسن نظر، والعصمة لكتاب الله، ولما صحّ من سنّة رسول الله ﷺ » (١).

وهذا حق ومتفق عليه بين علماء المسلمين، فلا خلاف ـ فيما أعلم ـ بين علماء الأمة من أهل السنة والجماعة منذ عهد رسول الله ﷺ إلى يوم الناس هذا في أن العصمة من الضلالة تكون في العمل بكتاب الله وما صح من سنة رسوله ﷺ وما أجمعت عليه الأمة.

وحتى تزول البدع، ونقضي على الخرافات في المجتمع يجب أن يعي المسلمون أهمية العمل بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وضرورة الإجماع على ذلك، وحث الناس عليه، وهذه مهمة الأمة المسلمة، لاسيما

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد عن موسى بن علي من حدبث عمرو بن العاص ﷺ باب المال الصالح للمرء الصالح، برقم (٣٠٠) صـ٢٨٧، ط/ المدني بشارع العباسية بالقاهرة، ط/ ١، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م وقال أ. أحمد بن محمد طاحون في تعليقه على الحديث: رواه أحمد وأبو عوينة في الزكاة، وابن حبان والحاكم في الديات، وقال: صحيح الإسناد.

(٢) المرجع السابق، صـ ٣٨٥ وما بعدها، بتصرف.

العلماء والدعاة، لأنهم الأقدر على فهم الأمور واستنباط الأحكام، ولأن علاج الجهل والبدع ومحو الخرافات من المجتمع لا يكون بالمفاهيم العلمية فقط، أو بالأفكار الفلسفية كما يرى د/ فؤاد زكريا، وإنما يكون (أولاً) بالوحي المعصوم، ثم بالعلم الثابت والعقل الرشيد.

وكما ذكرت ـ في هذا الفصل ـ مظاهر ضعف المجتمع والعلاقات القائمة بين أبنائه، وخطورة هذا الضعف على الأفراد والأسر والناس، وعلى القيم الدينية والمبادئ الإنسانية، وخلصت ـ عن قناعة تامة ـ إلى حتمية العلاج بتضافر الجهود، وتصدي جميع أبناء الأمة لهذه الأوبئة ومكافحتها، والتخلص منها ومن تبعاتها سيما العلماء والأمراء، أذكر بعد تشخيص الداء والرغبة الصادقة في الدواء أسباب هذه الأدواء، ومَن ورائها؟ ومَن المسئول عنها؟ وكيف تسللت إلى أمتنا المسلمة المحافظة؟ لأن معرفة الأسباب لا ريب أنها تساعد كثيرًا للوصول إلى الهدف المنشود.

وهذا ما سنذكره بالتفصيل في الفصل التالي، إن شاء الله تعالى.

* * * * *

الفصل الثاني

أسباب ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع

وفيه ستة مباحث

المبحث الأول: إحياء القوميات والنعرات القبلية والترويج لها.

المبحث الثاني: تدني مستوى التعليم والإعلام والتربية الأسرية.

المبحث الثالث: الانشغال بتحصيل القوت الضروري بما يستغرق أوقات الفراغ.

المبحث الرابع: تسلل الروح الانهزامية، والرضا بالواقع.

المبحث الخامس: عدم التخطيط للمستقبل، وعدم الاستفادة من علوم العصر.

المبحث السادس: تقليد النظم الاجتماعية البعيدة عن هدي الإسلام.

المبحث الأول: إحياء القوميات والنعرات القبلية ، والترويج لها:

الإسلام لا يمنع أن يعرف الناس أنسابهم وأصولهم، وما لهم وما عليهم نحو أقوامهم وبني جلدتهم ووطنهم، فإن ذلك إما أن يكون مباحًا أو مستحبًا، أو واجبًا مفروضًا، قال ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣] وفي غزوة حنين نادى النبي بأعلى صوته يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب (١)

وكان ﷺ يقول : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم...)(٢) وقال ﷺ عندما خرج من مكة مهاجرًا : (والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت)(٣).

فالتعارف بين الناس مطلوب، وكذلك احترام الحسب والاحتفاظ بالنسب، ومعرفة حقوق الأقرباء والأرحام والقبيلة، وكذلك الجيران والأصدقاء والإقليم الذي أسكن فيه، والدولة التي أنتمي إليها، كل ذلك لا غبار عليه طالما كان في الإطار الشرعي الذي أشارت إليه الآية الكريمة السابقة، والذي علمه النبي ﷺ لأمته، وصارت عليه هذه الأمة الإسلامية عبر العصور والأزمان، وكانت ثمرته الوحدة الإسلامية، والأخوة الإيمانية، والتعاون على البر والتقوى.

أما إحياء القوميات، والنعرات القبلية، والترويج لها فهو مرض هذا العصر، وهو التحدي الأخطر والأكبر الذي يواجه تعاليم الإسلام ووحدة المسلمين، ولا تستطيع الأمة الإسلامية أن تقوم بواجبها نحو الإسلام عقيدة وشريعة، ونحو المسلمين وحدة واتحادًا، إلا إذا تغلبت على هذا المرض الخطير (العصبية والقومية والنعرات القبلية)

والدكتور/ فؤاد زكريا يدعو ـ بوضوح ـ إلي عدم التعصب، يقول: « التعصب هو اعتقاد باطل بأن المرء يحتكر لنفسه الحقيقة أو الفضيلة وبأن غيره يفتقرون إليها، ومن ثَمَّ فهم دائمًا مخطئون أو خاطئون، ومن هنا فإن التعصب الذي يتخذ شكل تحمس زائد للرأي الذي يقول به الشخص نفسه أو العقيدة التي

---

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام جـ٤ صـ١٤١ مؤسسة مختار للطباعة والنشر سنه١٣٩١هـ ١٩٧١م.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث واثلة بن الأسقع ﵁ كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ برقم (٢٢٧٦) صـ٥٢١ مرجع سابق.

(٣) رواه أصحاب السير، والسنن والإمام أحمد ومستدرك الحاكم، ورواه ابن ماجة من حديث عبد الله بن عدي﵁ كتاب المناسك، باب فضل مكة، برقم (٣١٠٨)، صـ٥٣٣، ط/ دار الفجر للتراث ـ القاهرة سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

يعتنقها[(١)] يتضمن في واقع الأمر بُعدًا آخر: فهو يمثل في الوقت نفسه موقفًا معينًا من الآخرين، فحين أكون متعصبًا لا أكتفي بأن أنطوي علي ذاتي وأنسب إليها كل الفضائل، بل ينبغي أيضاً أن أستبعد فضائل الآخرين وأنكرها وأهاجمها بل إنني في حالة التعصب لا أهتدي إلى ذاتي، ولا أكتشف مزاياي إلا من خلال إنكار مزايا الآخرين .

وهذا هو الفرق بين التعصب، وبين الاعتداد بالنفس الذي هو شعور مشروع إذ إن المعتد بنفسه لا يبني تمجيده لنفسه حتمًا علي أنقاض الآخرين، بل قد يعترف لهم بالفضل مع تأكيده لفضله هو أيضًا، أما المتعصب فلا يؤكد ذاته إلا من خلال هدم الغير، ولا فارق عنده بين هذه العملية وتلك، لأنه يهدم غيره وليس في ذهنه إلا تأكيد ذاته، كما أنه لا يؤكد ذاته إلا مستهدفًا الحط من الآخرين...

فالتعصب يلغى التفكير الحر، والقدرة على التساؤل والنقد، ويشجع قيم الخضوع والطاعة والاندماج، وهذا ينطبق على كل شكل من أشكال التعصب، فالتعصب العنصري، والتعصب القومي المتطرف، والتعصب الديني ـ كل هؤلاء يشاركون في سمات واحدة: الانحياز إلى موقف الجماعة التي ننتمي إليها دون اختيار ودون تفكير...ومن هنا كان أساس النازية هو (أسطورة) الجنس الآري المتفوق، وكان أساس التفرقة العنصرية هو (أسطورة) الجنس الزنجي المنحط ، إلى غير ذلك من الأساطير التي يستند إليها كل شكل من أشكال التعصب.

ومجمل القول فإن التعصب (عقبة مركبة) تعترض طريق التفكير العلمي، ومن هنا كانت المعركة التي ينبغي أن يشنها عليه هذا التفكير حاسمة، إذ إن العقل البشري لا يستطيع أن يجد حلاً وسطًا بين الاثنين، فإما العلم وإما التعصب، ولابد من القضاء على أحدهما لكي يبقى الآخر »[(١)].

وهكذا فالدكتور/ فؤاد زكريا كعادته يخلط بين حق وباطل فمن خلال كلامه السابق يؤكد على رفض التعصب ولو كان للدين، ويدعو إلى التحرر وعدم التقيد بالماضي ـ أيًّا كان هذا الماضي ـ وأراه يقابل بين العلم والتعصب، على أن وجود أحدهما يقضي على الآخر.

وهذا صحيح إذا كان التعصب للدم أو الجنس أو الحزب أو القوم والعشيرة ـ بغير حق ـ فهو تعصب ممقوت، يقوم على جهل ويؤدي إلى فتن وشر.

---

(١) تأمل كيف يخلط د/ فؤاد زكريا بين التعصب للرأي الذي يحتمل الصواب والخطأ، والتعصب للعقيدة التي يعتنقها المرء ولو كانت عقيدة الإسلام التي جاء بها الأنبياء.

(١) التفكير العلمي، صـ٩٨ وما بعدها بتصرف مرجع سابق.

أما التعصب لكتاب الله وهدي رسوله ﷺ وجماعة المسلمين فهذا تعصب للحق ولا يأتي إلا بخير، وهو من الولاء الذي قال الله ﷻ عنه: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣] والنبي ﷺ وهو يشير إلى أصحابه في غزوة بدر كان يقول: (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعد اليوم) سماهم (عصابة) لأنهم تعصبوا للحق ونصرته، ولو أدى ذلك إلى قتال الأقارب والأرحام كما حدث بالفعل في هذه الغزوة.[١]

وفي الصحيح عن جابر بن سمرة ؓ عن النبي ﷺ قال:(لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة)[٢]

وتأمل ما حكاه القرآن عن إخوة يوسف، ولم ينكر عليهم نبي الله يعقوب حيث ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾[يوسف:١٤].

إن كلمة عُصْبَة وعصابة وعَصَبَةٌ ـ في الميراث والديات والغرامات والولاءات ـ أمور معروفة في الإسلام بدلالاتها وأحكامها ومآلاتها، وهذا يؤكد أن التمسك بالإسلام عقيدة وشريعة دينًا ودولة، والتعصب له لا يُعد من التعصب المذموم الذي يشير إليه د/ فؤاد زكريا.

ففي كتاب/ العرب والنموذج الأمريكي يقول: "عرفت من العرب المقيمين في أمريكا أناساً كان يغيرون المبني الذي يقيمون فيه لو سكنه زنجي، حتى لو كان ذا مركز اجتماعي محترم، وكان عددٌ منهم يردد نفس الحجج التي يرددها غلاة المتعصبين الأمريكيين عن (الملونين) ولحسن الحظ أن بلادنا تضم عدداً غير قليل من خريجي الجامعات والمعاهد الأمريكيه، ممن لا يكتفون بالمشاهدات السطحيه، ولا ينجرفون وراء التحيزات الضيقه، وإنما تنفذ بصيرتهم إلي ما وراء المظهر السطحي البراق، ومن ثم يحتفظون بموضوعيتهم طوال إقامتهم وبعد عودتهم.." [١].

ولا نرى عيبًا ولا مانعًا ولا غضاضة أن يعتز أو ينحاز العربي لدينه و لعروبته ولغته وهويته وتراثه الإنساني، سيما وهو خارج أرضه، ونحن فى عصر العولمة بأهدافها الثلاثة المعروفة.[٢] ولكن الدكتور/ فؤاد ـ غفر الله له ـ لا يلتفت لهذا بقدر ما يلتفت إلى الحضارة المادية وسلطانها على الإنسان المعاصر.

---

(١) انظر الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، جـ٣، صـ٣٨، مرجع سابق.

(٢) اخرجه مسلم برقم (١٩٢٢)، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق.. صـ ٤٤٤، مرجع سابق.

(١) المرجع السابق، صـ١٢.

(٢) وهى السيطرة الثقافية والسياسية والاقتصادية على الدول العربية والإسلامية .

أما الشيخ الغزالي، فقد ألف كتابًا كاملًا بعنوان:(الخديعة) حقيقة القومية العربية ذكر فيه خطورة الدعوة إلى القومية، وما جنته على أمتنا الإسلامية من فرقة وعداء وخلاف واختلاف، أضرت الأمةَ، وجعلتها فى ذيل الأمم ومؤخرة الركب سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا، يقول: "العروبة التى عرفناها من قديم، وآزرنا نهضتها يوم قامت، واستبشرنا بجامعتها يوم وُلدت شيء آخر غير العروبة التي نسمع الآن (لفظها) من بعض الساسة والكُتّاب، فنسمع له رنينًا كرنين النقد الزائف.

أجل هناك عروبة ذات دلالة غريبة ومعنى مزور ومفهوم مجلوب من الخارج ليست له علاقة بواقعنا ولا بتاريخنا. ومن حق أي عربي أصيل، ومن حق أي مسلم مخلص أن ينفر من هذا التدليس، وأن يعد القومية العربية بهذا التفسير الجديد حركة التفاف ماكرة خبيثة للقضاء على شخصيتنا وتاريخنا وإيماننا ومصالحنا القريبة والبعيدة !!

إن المحاولات ناشطة للإجهاز على الإسلام، تارة بتسويغ الارتداد عنه عقيدة وشريعة، وتارة بإحلال (العروبة) مكانه بعد تجريدها من أربطة الإيمان ووشائج التاريخ لتكون مفهومًا فارغًا ميتًا، ثم افتعال يقظة عربية يلتفت حولها المخدوعون، ومن ثَم نفقد كل ما ربحناه في معارك التحرير خلال القرن الأخير، وتتقلص ظلال الإسلام في سكون. أهذه هي القومية العربية التي يطن النداء بها في الآذان ؟

إنني ـ كأي مسلم يحب العربية وأهلها ـ أجزع من هذا الانحراف الثقافي والسياسي، وألفت الأنظار إلى خطورة الفوضى الفكرية والاجتماعية التي أحدثها البعثيون والقوميون بهذا المسلك، وأثر ذلك كله في تضليل الأجيال التي كُتب عليها ألا تسمع غير هذه الصيحات الكذوب... "[1]

وإذا كان الشيخ/ الغزالي يجزع من هذه الدعوة ويراها انحرافًا ثقافيًّا وسياسيًّا خطيرًا لا يجلب سوى الفوضى الفكرية والاجتماعية ـ وهو ابن العروبة وينتسب إليها ـ فماذا يقول المسلم غير العربي، الباكستاني والإيراني مثلًا؟

والشيخ رَحِمَهُ اللهُ يرى أن الوقوف في وجه هذه الدعوة ضرورة يمليها الإخلاص للعرب، والحماس لحاضرهم ومستقبلهم، والدفاع عن كيانهم المادي والمعنوي.

يقول: "ولقد عجبنا أشد العجب لمؤلف يقول: كان أول مَن بشّر برسالة القومية بين العرب هم أبناء (الرعايا) أي: المسيحيين الذين وجدوا في القومية أداة صلح ليس فقط للتخلص من السيادة العثمانية، بل للخروج كذلك من حدود الدائرة الإسلامية إلى وسط أرحب، حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين من العرب أن يذيبوا أنفسهم في ولاء شامل.كانت حملة (نابليون بونابرت) على مصر والشام من عوامل

(١) الخديعة حقيقة القومية العربية، وأسطورة البعث العربي، صـ ٥ وما بعدها، مرجع سابق.

ضعف (الجامعة الإسلامية العثمانية) وظهور (القومية العربية)، ويقول (المؤلف): أيقظ (نابليون) الشعور القومي العربي، وبعث فكرة استقلال العرب عن العثمانيين، ويقول: عملت الحملة الفرنسية على نهضة الثقافة العربية، ثم أكملت هذا العمل العظيم الجمعيات التبشيرية المسيحية، ونتج عن هذا كله اهتمام العرب بتراثهم القومي، مما أدى إلى بعث القومية العربية!!..

إن القومية العربية داخل هذا الإطار الأجنبي في مبناه ومعناه شيء غريب على نفوسنا وعقولنا، دخيل على ماضينا وحاضرنا، خطير على ديننا ودنيانا، وهي ـ بهذا المفهوم المبتدع ـ جسر يعبر عليه الاستعمار الغربي والشرقي ليعيث فسادًا في أرجاء حياتنا كلها، وحسبه أن يتمكن من إقصاء الإسلام عن مجال التربية النفسية والتنظيم الاجتماعي، وأن يملأ الفراغ الفكري والروحي الناشئ عن هذا الإقصاء بمبادئ مبهمة، وشهوات مُزوَّقة، وصيحات مجنونة، وفوضى ليس لها آخر.» (١).

هذا جزء يسير من كتاب الشيخ رحمه الله عن (القومية العربية) ومضارها وما جنت على العرب والمسلمين من فرقة وعداء، ولا يخفى أن العصبية للقبيلة والعرق والأرض واللون والجنس أمور تعود في مجملها إلى عصور الجاهلية الأولى والتي عبر عنها النبي ﷺ بأنها (منتنة) في قوله: «دعوها فإنها منتنة، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ..» (٢) لأنه ﷺ يعلم ما لهذه الدعوة من خطورة على وحدة الأمة وقوتها وتماسكها، بل وعلى دينها وعقيدتها. ولقد وصلت العصبية القومية في العصر الحاضر إلى الدرك الأسفل، وهي في انحدار مستمر، تأمل ما كان يردده مؤسسو حزب البعث العربي في العراق والشام إذ يقول أحدهم:

آمنت بالبعث ربًا لا شريك له ... وبالعروبة دينًا ما له ثاني

ويقول آخر:

هَبُوا لي دينًا يجعل العرب ملة ... وسيروا بجثماني على دين برهم

فيا مرحبًا بالكفر إن وحد بيننا ... وأهلا وسهلا بعده بجهنم(١)

ولقد كانت الأناشيد القومية والشعر العربي يحافظان كثيرًا على اللغة العربية والذوق العربي العام، وكانت الكلمات موجهة إلى الأمة كلها، أو على الأقل إلى القوى الوطنية جميعها، وكانت تهدف ـ بعض الشيء ـ إلى الاعتزاز بالوطنية مع الصبغة الإيمانية والشجاعة العربية، وكانت ولازالت هذه الأناشيد محل احترام وتقدير جميع أبناء الأمة العربية والإسلامية وذلك مثل: الله أكبر فوق كيد المعتدي..

---

(١) المرجع السابق، صـ٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه كتاب تفسير القرآن، باب قوله (سواء عليهم استغفرت لهم...) برقم (٤٩٠٥) صـ٧١٥، مرجع سابق.

(٣) جريدة الشرق الأوسط، الخميس ٢٤ يناير ٢٠٠٨م، مقالة للدكتور/ عائض القرني تحت عنوان/ الفكر العربي بلا هوية.

ومثل : بـلادي بلادي بلادي لك حبي وفـؤادي[١].

ومثل: دع سمائي فسمائي محرقة دع قناتي فقناتي مغرقة واحذر الأرض فأرضي صاعقة

هـــذه أرضـي أنــــا وأبـــي ضـحـــى هنـا وأبي قـال لنا مزقـوا أعـداءنـا

وهذا كله جميل وفيه دعوة إلى الوطنية المقبولة شرعًا وعقلاً، حيث لا إثارة لحفيظة مسلم أو عربي، أو عصبية لحزب أو جماعة أو عرف أو تاريخ أو جغرافية أو تراب، كما هو الحال الآن، ولعل ما يتردد الآن من أغاني هابطة ومدمرة للغة والأخلاق الحسنة، وما يصاحب ذلك من ترويج ودعم من بعض المثقفين والمسئولين[٢] يؤكد ما وصلت إليه الأمة من تردي بسبب العصبيات البغيضة التي أوقعت أبناءها فى الاختلاف والخلاف، والفرقة والاستقطاب، والعداء والدمار والتفكك والانهيار، وهذا أخطر ما يمكن أن نتصوره في بلادنا العربية المسلمة.

نسأل الله السلامة، آمين.

---

(١) الشاعر يونس القاضي ، انظر كتاب اللغة العربية المقرر على الصف الثالث الابتدائي، صـ ٨١، ط/ وزارة التربية والتعليم، ٢٠١٤م.

(٢) هذا لا يحتاج إلى دليل إنه ـ مع الأسف ـ صار معلومًا لكل ذي عينين وأذنين، تطالعنا به كل يوم وسائل الإعلام المتعددة.

المبحث الثاني: تدني مستوى التعليم والإعلام والتربية الأسرية:

أعتقد أن هذه الأمور لا تخطئها العين ولا يختلف فيها اثنان؛ لأن نسبة الأمية في مصر تجاوزت ٤٠٪ من عدد السكان[١] ناهيك بالأمية الدينية، والأمية التقنية وضعف الإعلام، والتربية الأسرية.

وهذا أمر متفق عليه بين من ينشدون الإصلاح عمومًا، والدكتور/ فؤاد زكريا والشيخ/ الغزالي خصوصًا، فكلاهما يقر بهذه الحقائق ويؤكد وجودها وخطورتها في المجتمع، بل وعلى الأمة كلها.

وإن كان ثمة خلاف فهو في أسباب هذه المشاكل والأساليب والسبل المتاحة لمعالجتها، حيث يرى البعض أن المشكلة أخلاقية بالدرجة الأولى، ويرى آخرون أنها مشكلة إدارة وإمكانات مادية وتقنية وعلمية، ويرى غيرهم أن المشكلة سياسية تديرها أصابعٌ خفيةٌ لخدمة أهداف ومطامع سياسية محلية وعالمية.

أولاً: تدني مستوى التعليم:

يرى د/ فؤاد زكريا أن تدني مستوى التعليم يرجع إلى ترك العلوم العصرية، والقيم الثقافية التي سبقت إليها الدول المتقدمة، وعدم القدرة على ترسيخ القيم هذه والمفاهيم الثقافية المعاصرة يقول:«وفي اعتقادي أن موضوع التفكير العلمي هو موضوع الساعة في العالم العربي، ففي الوقت الذي أفلح فيه العالم المتقدم ـ بغض النظر عن أنظمته الاجتماعية ـ في تكوين تراث علمي راسخ امتد في العصر الحديث طوال أربعة قرون، وأصبح يمثل في حياة هذه المجتمعات اتجاهًا ثابتًا يستحيل العدول عنه أو الرجوع فيه، في هذا الوقت ذاته يخوض المفكرون في عالمنا العربي معركة ضاربة في سبيل إقرار أبسط مبادئ التفكير العلمي، ويبدو حتى اليوم ونحن نمضي قدمًا إلى السنوات الأخيرة من القرن العشرين أن نتيجة هذه المعركة مازالت على كفة الميزان، بل قد يخيل إلى المرء في ساعات تشاؤم معينة أن احتمال الانتصار فيها أضعف من احتمال الهزيمة.

وفي هذه المضمار لا أملك إلا أن أشير إلى أمرين يدخلان في باب العجائب حول موقفنا من العلم في الماضي والحاضر:

الأمر الأول: هو أننا بعد أن بدأ تراثنا العلمي في العصر الإسلامي للحضارة الإسلامية بداية قوية ناضجة سبقنا بها النهضة الأوربية الحديثة بقرون عديدة، مازلنا إلى اليوم نتجادل حول أبسط مبادئ

(١) وزير العدالة الانتقالية يقول: نسبة الأمية في مصر تتجاوز ٤٠٪ الجمعة ١١/ ٤/ ٢٠١٤م انظر موقع: المصري اليوم
www.almasryalyoum.com/news/details/٤٢٦٩٧٦

التفكير العلمي وبديهياته الأساسية، ولو كان خط التقدم ظل متصلًا منذ نهضتنا العلمية القديمة حتى اليوم، لكنا قد سبقنا العالم كله في هذا المضمار إلى حد يستحيل معه أن يلحق بنا الآخرون...

وأما الأمر الثاني فهو أننا لا نكف عن الزهو بماضينا العلمي المجيد، ولا عن الدور الرائد الذي قام به العلماء المسلمون في العصر الزاهي للحضارة الإسلامية.»[1]

وهذا ليس عيبًا، إنما العيب هو التخلف عن ركب الحضارة المعاصرة، وعدم الاستفادة من هذا الماضي العتيق.

والدكتور/ فؤاد زكريا يعلم أن سبب هذا التخلف هو إخفاق السياسات التعليمية المتعاقبة، وكذلك التحديات التي فرضها المستعمرون على بلادنا بواسطتهم أو بواسطة عملائهم، وليس بسبب الذين يعتزون بتاريخ الدولة الإسلامية.

يقول تحت عنوان/ إخفاق السياسة التعليمية: «..لدينا أجيال كاملة عاجزة عن فهم أية لغة أجنبية، ولنؤكد في هذا الصدد أن العجز في هذه الحالة ليس ناتجًا عن الاعتزاز باللغة القومية، وإنما هو نتيجة إخفاق طويل الأمد في السياسة التعليمية، هذه الأجيال لن تستطيع أن تكتسب من الثقافة العالمية إلا ما ينقل إليها معرَّبًا، أي أن التعريب هو نافذتها الوحيدة للإطلال على العالم...

والأهم من ذلك أن التعريب لا يصبح في هذه الحالة دليلاً على الاستقلال الثقافي بل يغدو مظهرًا من مظاهر التبعية والاعتماد على الغير.

بل إن هذه الأوضاع المتردية قد انعكست في كثير من الأحيان على عملية التأليف عينها، ففي ظل الجهل باللغات الأجنبية لدى الغالبية العظمى من أفراد الأجيال الحالية أصبح قدر لا يستهان به من التأليف أقرب إلى النقل المباشر أو التلخيص أو حتى انتقاء الأسهل من المصادر الأجنبية»[1]

والشيخ الغزالي لا يختلف كثيرًا عن د/ فؤاد زكريا في هذه المسألة، إلا إنه يربطها بالدين لا بالدنيا فقط، يقول: «التعلُّم: فضيلة طالما أطنب الدين في مدحها؛ حتى جعل منزلة العالم بين العباد كمنزلة البدر بين سائر الكواكب، وحتى جعل فضل العالم تشهد به الطيور في الجو، والحيتان في البحر.

ولكن بمقدار ما مَدح الدينُ العلم بمقدار ما تهاوى به المسلمون في الجهل، فما حولتهم نصائحه بُدورًا ولا شموعًا ولا شهد لهم بالفضل طير ولا دابة، بل قَلَّت نسبة المتعلمين وفحشت نسبة الجهال، وأضحى مستوانا العلمي لا يُشَرِّف أبدًا...

---

(١) التفكير العلمي صـ٨ ، مرجع سابق .

(١) كتاب خطاب إلى العقل العربي صـ٣٣ ، ٣٤، مرجع سابق.

وبديهي أن تعميم التعليم بالنصح والإرشاد والترغيب أمر لا طائل تحته، فإن الأمر يحتاج إلى إلزام عام، تُسَخَّر فيه قوى الدولة ومواردها، ويجب أن تُسَنّ أنظمة الأمة الاقتصادية والاجتماعية تبعًا لذلك، حتى لا يبقى في البلاد جاهل واحد ، وإلا فلا قيمة مع الجهل لدين يبقى لنا أو لدنيا نحيا فيها...

وينبغي أن نجزم بأن العلة الأولى في فساد التديُّن وتأخر أصحابه هي الجهل الثقيل الذي ضيَّق آفاق الحياة في أعينهم، وأفسد الذوق الإنساني في فطرتهم»[1] وأضر بالدين والدنيا معًا، إذ لو ترك المسلم لفطرته التي فطره الله تعالى عليها لاستفاد من العلوم النافعة كلها، سواء ما ورد منها عن طريق الوحي، أو ما وصل إليه السابقون.

يقول الشيخ الغزالي:«كان حريًّا بنا ـ نحن المسلمين ـ أن نكون أسبق أهل الأرض إلى التمرس بعلوم المادة والبراعة في فهمها، والنفاذ إلى أسرار الكون من خلالها. ذلك أن قرآننا هو الكتاب الفذ في العالم الذي يلح على قرائه أن يفكروا ويعقلوا وينقلوا أنظارهم بين فجاج الأرض وآفاق السماء.

أجل إنه الكتاب الفذ الذي يجعل الإيمان أول نتائج العلم والذي يحض على النظر في عالم النبات والحيوان والجماد، لأنه لا يخشى عقبى هذا النظر، بل يرى أن هذا النظر أداة لمعرفة الله وخشيته، والمنطق الحديث الذي نهض على مهاده صرح العلم المعاصر لا يطلب من أولي الألباب أكثر من هذا النظر الدقيق والفكر الوثيق، ولأمور كثيرة لم يستقم تاريخنا على هذا المنهج، فقد بدأ أول أمره حصيفًا فيما يأخذ ويدع، حذرًا فيما يكذب ويصدق، ثم ضلله الاشتغال بالفلسفات الدخيلة، فاستهلك قواه في بحوث ما وراء المادة، وهو إنما أمر بالبحث في المادة لا فيما وراءها، ثم زاده خبالا أنه خلط بين مناهج البحث في عالم الغيب والشهادة، فلم يرجع بعد عناء طويل إلا بما يضر ويسيء.

ولنشرح هذه النقطة فمصادر العلم الإنساني ينبغي أن تكشف بجلاء حتى لا نخلط بين بعضها والبعض الآخر.

إن شئون الدنيا وعلوم الحياة مصدرها الأول والآخر العقل والسمع والبصر، أما علوم الشريعة وحقائق الأمور الإلهية والأخروية فمصدرها الأول والآخر هو الوحي الأعلى، أي أننا في هذا النوع من العلوم يكفي أن نستوثق من أن الله قال أو ألهم نبيه المقال، لنعد ما وصل إلينا عن هذا الطريق علمًا، وذلك منهج في المعرفة يخالف الأسلوب الذي نستقي به المعارف المادية ولا مساغ للخلط بين المنهجين، وعندما

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـ ٨٦ وما بعدها ، بتصرف مرجع سابق .

نقول: إنه لا خلاف بين العلم والدين، فنحن نعي أن القرآن يستحيل أن يتضمن غلطًا في حقيقة كونية وصل إليها العلم. »[١]

والخلاصة التي فهمتها عن الشخصيتين محل الدراسة:

أن التعليم هو قاطرة النهضة الحديثة، وأن إصلاح التعليم إصلاح للمجتمع كله، ويستوجب إعدادَ الكوادر المدربة، والمناهج المفيدة، والإمكانات المادية والتقنية، وتشجيع الكفاءات واختيار الأكفاء في القيادات، وتقدير المتميزين والمتفوقين، هذا ما اتفق عليه د/ فؤاد والشيخ/ الغزالي، إلا أن الشيخ/ الغزالي ـ كما هو واضح من كلامه السابق ـ يربط بين العلم والدين، ويجعل المصدر الأول للعلوم والمعارف القرآن الكريم والسنة الصحيحة، مع إمكانية الاستفادة من كل جديد مفيد لا يتعارض مع وجهة المجتمع العربي المسلم وأخلاقه وثوابته.

ثانيًا: تدني مستوى الإعلام: [٢]

يقول الدكتور/ فؤاد زكريا تحت عنوان/ الإعلام المضلل: «الإعلام هو نقل المعلومات أو توصيلها، وهو يختلف عن التعليم في أن هذا الأخير يتخذ طابعًا منتظمًا، ويتعلق بفئة هي في الغالب في مقتبل العمر يعدها المجتمع لمواجهة الحياة ويلقنها قيمه المعنوية ومعارفه العلمية .

أما الإعلام فليس له مثل هذا الطابع المنتظم، ولا يقتصر على فئة معينة من الناس، ولا يحتاج في كثير من جوانبه إلى استعداد للإفادة منه.. » [١]

ثم يمضي د/ فؤاد زكريا مبينًا خطورة الإعلام بصورته الحالية، وأنه لا يهتم بتعليم الأمة، ولا خدمة التفكير العلمي الرشيد، بقدر اهتمامه بالإعلانات التجارية، وغرس المفاهيم السياسية التي تخدم أهدافًا أيديلوجية ونظمًا اقتصادية، يقول: "ويتمثل هذا الخطر بوجه خاص في ما تنقله الوسائط الإعلامية الشعبية من أعمال يفترض أنها فنية، ولكنها مليئة بالأفكار والاتجاهات الضارة التي يراد منها تحقيق أغراض مرسومة مقدمًا.

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، صـ٨٩، ٩٠، مرجع سابق.

(٢) الإعلام في بلادنا لا يؤدي عشر معشار رسالته المرجوة منه ، ولو سألت أحدًا هل أنت راضٍ عن الأداء الإعلامي في بلادنا ؟ لقال لك: لا يرضى عن الإعلام ـ بصورته الحالية ـ إلا عشاق الطرب واللهو واللعب ، وطلاب الشهوة والمال والشهرة ، وكل محاولة لإصلاح الإعلام باءت بالفشل ؛ لأن الإعلام وراءه قوى خفية داخلية وخارجية تنفق عليه الأموال الطائلة كي يبقى على حاله لخدمة أهداف اقتصادية وسياسية وأجنبية وفكرية. وإصلاح الإعلام يحتاج إلى وعي كامل برسالته وأهميتها وخطورة الانحراف عنها .

(١) التفكير العلمي صـ١٠٣ وما بعدها ، مرجع سابق .

وقد تنبهت كثير من الدول المتقدمة، بل الهيئات الدولية، إلى أخطار وسائل الإعلام الجماهيرية التي تنقل أعمالًا فنية جذابة مشوقة، كالأفلام والمسلسلات التلفازية، لكن حصيلتها النهائية هي تكوين اتجاهات تميل إلى العنف الدموي، أو فقدان الإحساس بالتعاطف الإنساني، أو الإعجاب بأنواع زائفة من البطولات، أو التفنن في أساليب ارتكاب الجرائم، أو الميل المفرط إلى الاستهلاك المقصود لذاته، والذي لا يخدم أي هدف معقول.

هذه الأعمال الإعلامية ذات القشرة الفنية الهشة، التي تتغلغل في كل بيت وتُثبت قيمًا غريبة غير مقبولة حتى بالنسبة إلى كثير من المجتمعات الصناعية المتقدمة، والتي يحذر من أخطارها المفكرون حتى في بلادها المنتجة نفسها، هي التي تشكل بالفعل فكرًا مستوردًا ينبغي أن نقف منه موقف الحذر الشديد، ومع ذلك فإن من عجائب المفارقات في بلادنا العربية أن الدول التي تحارب الفكر المستورد بضراوة، هي عينها التي تفتح أبوابها على مصراعيها لهذا النوع من الإعلام المغرض، ولا تبذل أي جهد لحماية مجتمعها من التأثير الهدام لهذه الأعمال الفنية ذات الجاذبية السطحية الرخيصة، وهكذا ففي كثير من المجتمعات التي كانت تقوم على التكافل والتساند، بدأت تظهر قيم الأنانية والتزاحم وحب الظهور والرغبة في التسلق على أكتاف الآخرين، وأخذت الأجيال القديمة في هذه المجتمعات تتساءل يوميًا عما حدث لتراثها المعنوي الذي يزداد اختفاء يومًا بعد يوم، وتترحم على أخلاق الأجداد وقيمهم الإنسانية دون أن تبذل أي جهد في محاربة هذا النوع بالغ الضرر من الفكر المستورد»[(١)].

وأنا أتفق تمامًا مع د/ فؤاد زكريا في كل ما ذكره آنفًا عن الإعلام، وأزيد عليه أن الإعلام مضلل في ميادين كثيرة، وليس في ميدان السياسة والعلم والفن والاقتصاد وحسب، وإنما هو مضلل ـ أيضًا ـ وبصورة أكبر وأخطر في ميدان الوعي الديني وما يتصل به من عقيدة وعبادة وأخلاق وآداب وواجبات، وهذا غالبًا لا يلتفت إليه الدكتور/ فؤاد زكريا ومَنْ على شاكلته من العلمانيين.

الإعلام مضلل ولايزال كذلك في ميادينَ أخرى، كميدان التنمية البشرية، والقيم الإنسانية والرياضية الهادفة، والفن المبدع المفيد، والطب والدواء، والثقافة واللغة، وحقوق المرأة، واللهو المدمر للوقت والمال والإنتاج، ومضلل أيضًا فيما هو أخطر من ذلك فهو يعلم الشباب التدخين والتعاطي، والفتيات المكياج والموضة، ويروج للسلع الاستهلاكية أكثر من القيم الإيمانية والإنسانية، ومضلل أيضًا فيما يتعلق بالمجد والتراث، والتاريخ والجغرافيا والمفاهيم القومية، والعلاقات البينية العربية والإسلامية والعالمية، وغير ذلك من أنواع الضلال والفساد التي خالف الإعلام فيها أبسط قواعد المهنية والموضوعية، والأخلاق

---

(١) خطاب إلى العقل العربي صـ٩٠ ، مرجع سابق .

الإنسانية التي يفخر بها كل من ينتسب إلى هذه المؤسسة المؤثرة والخطيرة.

وأنا أسأل ماذا يقدم الإعلام المقروء والمسموع والمرئي للأمة من أخلاق ونُبْلٍ، أو دعوة إلى الألفة والمحبة أو تعاون على البر والتقوى وهو قادر على ذلك؟ إن كثيرًا من الأجهزة الإعلامية موجهة لخدمة أهداف بعيدة كل البعد عن قضايا الأمة ومصالحها ودينها وتاريخها ومستقبل أبنائها.

أين ما سمي بميثاق الشرف الإعلامي الذي وُعِدْنَا به مرارًا ؟

إن أول مَن يُخاطَب بإصلاح الإعلام ـ بعد المسئولين عنه ـ هم علماء الأمة ومثقفوها من الخطباء والفقهاء والمصلحين؛ لأنهم هم حماة الدين وحراس قيمه ومبادئه.

يقول الشيخ الغزالي تحت عنوان/ أجهزة الإعلام رسالة: «من نماذج عرض الدعوة الإسلامية هذا القول المحدد: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ... ۖ ﴾ [الأنبياء:١٠٨ـ١٠٩] .

أي: أَعْلَمْتُكُم بما عندي فأصبحنا جميعًا أنا وأنتم سواء في معرفة العقيدة التي أُنادي بها، فإن انصرفتم بعد ذلك فعن تجاهل لا عن جهل، إذ إني أفرغت جهدي في البلاغ المبين! إن ما أدعو إليه معروف لكم كما هو معروف لي.

وهذا الكلام يفرض على الإعلام الإسلامي الشمول التام ، فكما أن رسالة الإسلام عامة إلى الخلائق لا يشذ منها أحد ، فكذلك تعاليم الإسلام يجب أن تتقدم كلها عن طريق أجهزته العاملة فلا يخفى منها شيء

والعرض الإعلامي الحريص على بث الحق وإيثار السلام ورفض الشحناء يستطيع أن يبرز تعاليم الإسلام في صور شتى، لعل أيسرها الخبر المجرد، لكن أيكفي ذلك في عالم تبرجت فيه الدعوات وافتتنت فيه أساليب الاستهواء، إن الحوار الزكي في قصة شائقة أو تصوير الواقع في هذه القصة بل الصورة الساخرة والنكتة البارعة، إن هذه جميعًا أصبحت من وسائل البلاغ المبين، بل أصبحت وسائل محتومة لقولة ﷻ: ﴿ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء:٦٣] وذلك ما لابد أن تدركه أجهزة الإعلام الإسلامي»[(١)].

هذا الكلام للشيخ الغزالي عن الإعلام كتبه منذ بضعة عشر عامًا أو يزيد ، ولا أدري ماذا كان سيقول الشيخ رحمه الله لو عاش إلى عام ٢٠١١م وما تلاه من أحداث، كان للإعلام دورٌ خطيرٌ فيها.

---

(١) الدعوة الإسلامية في القرن الحالي صـ١٤٨ بتصرف، وما بعدها ، طـ. دار الشروق ، ط/ الأولى سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

إن الكلام عن مفاسد الإعلام لا ينقطع، والعلماء المطالبون بإصلاحه لا يتوقفون [(١)] ويكفى هنا أن أشير إلى أمر فى غاية الخطورة، وهو:

التباعد الذي أحدثته وسائل الإعلام (الحديثة) بين أفراد المجتمع.

فالمتبادر إلى الأذهان أن وسائل الإعلام الحديثة بتنوعها المذهل، وتأثيرها الساحر ستقرب البعيد، وتجمع شتات الشعوب، وتؤلف بين القلوب، يقول الشيخ/ الغزالي: «..وقربت وسائل النقل الحديث ووسائل الإعلام الكثيرة المسافات المادية والفكرية بين الأمم، فانطوت الأبعاد التي كانت تجعل الجماعات البشرية تعيش في جو من الاستيحاش والغربة، لا يدري بعضها عن البعض الآخر إلا القليل.. وقد تكون اختلافات العقائد والمذاهب باقية في هذه الدنيا.

وربما ظل التعصب القديم لها يباعد بين طوائف كبيرة من الخلق، إلا أن هناك ـ بلا شك ـ عَبَّدَتْهَا حاجة العالم إلى التفاعل، وأمكن في سعتها أن يتلاقى الخصوم في الرأي، وأن يعرف بعضهم الآخر عن كثب..!!

هذا ارتقاء عالمي يبعث على الرضا، غير أننا نراه جزءًا من كل، وخطوة من خطوات»[(٢)]

والحق إن شيئًا مما يأمله الشيخ في وسائل الإعلام لم يحدث، ولا حتى خطوة واحدة إلى الأمام، بل حدث عكسُ ما هو مطلوب، وخلافُ ما هو مأمول، وضدُ ما يرجوه الصالحون والمصلحون، وذلك لأسباب أهمها ما يلى :-

١ـ لم يكن من أهداف القائمين على أجهزة الإعلام ـ إلا ما رحم ربي ـ إصلاح المجتمع بالمعنى الشرعي والعلمي والفني للإصلاح.

٢- الإرادة الحالية للقائمين على الإعلام، والمتحكمين فيه، والممولين والموجهين له لا تستهدف الفساد والمفسدين.

٣ـ عدم وضع الخطط المناسبة والعملية للإصلاح، في حين وُضِعَت ولا زالت توضع في ميادين الدعاية واللهو واللعب.

---

(١) للمزيد عن فساد الإعلام ، انظر كتاب صحوة الرأي العام الإسلامي صـ٩٢ ،وما بعدها / د.محمود بيومي ، مرجع سابق.. إذ يرى أن صلاح الإعلام والتعليم والتربية ... يحتاج إلى صحوة فكرية وإيمانية ، بعزيمة وإرادة قوية وهادفة ؛ لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

(٢) معركة المصحف، صـ٣، مرجع سابق.

ترى ذلك واضحًا في البرامج الثقافية والسياسية، والاقتصادية والدينية، والعلاقات الداخلية والخارجية، حتى الجرائم فكم من مجرم وهو يمثل الجريمة، يذكر أنه تعلم من الإعلام وما فيه من مسلسلات وأفلام.

٤ـ لم يكن من أهداف الإعلام ـ غالبًا ـ التقريب بين أفراد المجتمع، أو أحزابِه، أو مدارسِه الفكرية والثقافية، إذ لو كان هذا ـ عندهم ـ هدفًا معتبرًا ومحترمًا، لَبحثوا عن الأكفاء من أهل الاختصاص في كل فن، ولَوقفوا موقف المدافع عن الوسطية التي امتازت بها أمتنا الإسلامية، ولبحثوا عن القيم والقواسم المشتركة التي تجمع ولا تفرق، وتؤلف ولا تنفر، أو على الأقل وقفوا موقف المحايد، وتركوا الثقافات تتلاقح وتتفاعل، وتقرض وتقترض، ولَنقلوا الحقائق بأمانة ومهنية وموضوعية وشرف، لكنهم لم يفعلوا.

ثالثًا: التربية الأسرية:

كما تدنى مستوى التعليم والإعلام، تراجعَ أيضا دور الأسرة، فلم تعد الأسرة تؤدى واجبها فى تربية الأولاد وتعليمهم بالقدر المطلوب، ولقد بينت موقف د/ فؤاد زكريا، وعدمَ اهتمامه بالتربية الدينية والأمور الشرعية، وما يترتب عليها من ثواب وعقاب، بقدر اهتمامه بالثقافة العصرية والحرية التى تصل إلى درجة التمرد والخروج على تعاليم الأسرة بدعوى الإبداع وإثبات الذات [١].

أما الشيخ الغزالي فيرى أن الأسرة هي الحاضنة الأولى للطفل، وأن التربية الأسرية لها دور كبير وخطير في تكوين الفكر والوعي للأبناء، وأنها تحتاج إلى جهد ووقت وصبر، لأن التربية ليست بالشئ الهين أواليسير، يقول: « التربية معاناة وتعب، وهي لا تتم إلا بمراحل طويلة، وعلاج النفس البشرية قد يكون أصعب من علاج الحجر الصلب، أو الحديد ذو البأس الشديد، ولكن ما منه بدٌّ إذا شئنا الكمال.

أما إذا رغبنا في الحياة على ما تستحلي فلن يكلفنا ذلك إلا أن نرتع كما ترتع البهائم، والمصير أخيرًا إلى الذبح !!

لكي تُكَوِّن إنسانًا له خلق كريم يستقيم من منطق الفضيلة، يهرب من الدنايا ويأبى مقارفتها فماذا تصنع ؟»[١].

ثم يمضي الشيخ الغزالي مبينًا أسس التربية السليمة يقول: «..لا ريب أن المسلمين بحاجة إلى تصحيح مفاهيم شتَّى في أذهانهم وأحوالهم، وقد وفّـر الإسلام ضمانات كثيرة لتكون التربية الدينية ناجعة في كل

---

(١) انظر الباب الأولأ الفصل الثانى، بعنوان/ قضايا الطفولة والنشء، المبحث الثانى، بعنوان/ مسئولية ولي الأمر نحو النشء...

(١) الدعوة الإسلامية في القرن الحالي صـ١٦٦ ، مرجع سابق .

ميدان، مؤتية ثمارها في كل وقت.

وأولى الضمانات التحكم في البيئة إذ إن البيئة السيئة تهزم الإيمان والشرف في الأغلب، إن إنبات أجيال كريمة الشمائل، نامية الفضائل يقتضي هيمنة ورقابة صارمتين. ليس البيت ملتقى ذكر وأنثى لإشباع الغرائز الدنيا، إنه مَحْضِنٌ حصين لتكوين الأولاد الشرفاء المؤيدين لحقوق الله وحقوق الناس، والذين تمتد بهم القيم الرفيعة والسير الزاكية، وقد علّم الله عباده المكرمين أن يستعطفوه ليحقق لهم هذه الغاية، علّمهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان:٧٤].

وهل يتعلم الأولاد الصدق والحياء والنبل وإقام الصلاة وإعطاء الصدقة والبر بالجار وإكرام الضيف والاهتمام بالزي النظيف السابغ واحترام التقاليد والآداب العامة. هل يتعلمون ذلك إلا من مسالك والديهم، والاقتباس منهم وهم في أخص شئونهم؟

إن تربية الأولاد تحتاج إلى علم خاص يُدَرَّس للجماهير حيثما تجمعوا.

ورب البيت وربة البيت ليس واجبهما فقط توفير الغذاء والكساء للأولاد، بل واجبهما الأهم إحسان التنشئة، وغرس العادات الطيبة في دماء أعقابهم ... والإسلام مع ذلك كله يحث المسلم أن يسعه بيته فلا يهجره إلى ناد أو ملهى.

نعم ينبغي أن يألف جو الأسرة كما يحث المسلمة على إحسان تبعل رجلها حتى يكون البيت عامرًا بالود والبشاشة والسكينة. »[1]. وهذا يقتضي الإحساس بالمسئولية، والفهم الدقيق لأهمية التربية الأسرية القائمة على تواجد الأبوين مدة كافية لملاحظة سلوك الأبناء، وتقييم هذا السلوك المتكرر والمتجدد وتقويم المعوج منه وتشجيع المستقيم، بالترغيب تارة، وبالترهيب أخرى.

لكن ثمة عوامل تحول دون تحقيق ذلك منها: الانشغال بتحصيل القوت الضروري بما يستغرق أوقات الفراغ.

وهذا ما سأذكره بالتفصيل في الصفحات التالية.

---

(١) المرجع السابق صـ١٦٩ ، ١٧٠ بتصرف، وللمزيد من معرفة أسس التربية في الإسلام انظر كتاب (دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية للعقاد) ، وكتاب (إصلاح الزاد والمجتمعات في الإسلام) فوزي محمد أبو زيد ، كتاب منهج التربية الإسلامية / محمد قطب وكتاب منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، د/ محسن عبد الحميد.

المبحث الثالث: الانشغال بتحصيل القوت الضروري بما يستغرق أوقات الفراغ.

إن من أخطر ما يشغل الإنسان، ويصيب تفكيره بالشلل، هو عجزه عن توفير القوت الضروري له ولمن يعول. إذ كيف يفكر في الإصلاح من لا يحصل على قوت يومه إلا بجهد جهيد، وعناء شديد؟ هذا ـ مع الأسف ـ موجود في بلادنا، وبأرقامٍ تفوق العد والحصر.[(١)]

ثم كيف نطلب من رجل يخرج كل صباح، يخوض معركة ضارية للحصول على لقمة العيش والتي بدونها لا يعيش!! كيف نطلب منه أن يسهم في إصلاح المجتمع؟ وهو يستهلك وقته وجهده، وعقله وأعصابه في توفير الاحتياجات الأولية والضرورية من الطعام والدواء.

إن كثيرًا من الناس عندما يُسئل عن تربية أولاده وإصلاح حالهم يقول: أين الوقت الذي يجمعني بهم؟ أخرج مبكرًا وهم نيام، وأعود إلى البيت متأخرًا وقد ناموا[(٢)].

يقول د/ القرضاوي:« روي عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة أن الجارية أخبرته يومًا في مجلسه أن الدقيق نفذ، فقال لها: (قاتلك الله لقد أضعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه) ويروى عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: (لا تستشِرْ من ليس في بيته دقيق) أي: لأنه مشتت الفكر مشغول البال، فلا يكون حكمه سديدًا، وفي نحو هذا قال الشاعر[(٣)]:

إذا قَلَّ مـــال المـــرء قل بهاؤه ... وضـــاقت عليه أرضـــه وسماؤه

وأصبح لا يـدرى وإن كـــان داريًا ... أَقُدَّامَـــهُ خيـــــر له أم وَرَاءَهُ»[(١)]

ولا يعني هذا أن المـرء معفيٌّ من المسئـولية، أو أن ظروفَه المعيشيةِ تبرر له الفساد، أو عـدم المشاركة في الإصلاح كلا كلا، فكـل إنسان مطـالب بإصلاح نفسه ومن يعـول، ثم بإصلاح من يقدر على إصـلاحه، ثم بالمشاركة الفعالة في الإصلاح العام كل حسب قدرته وموقعه وتخصصه وإمكاناته.

ولقد ذكر الله ﷻ عن نبيه شعيب عليه السلام قوله:﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا

---

(١) نشرت جريدة التحرير يوم ٢٥/ ٤/ ٢٠١٣م تحت عنوان/ ربع المصريين تحت خط الفقر، قالت: كشفت الإحصائيات الرسمية أن نسبة من يعيشون تحت خط الفقر تزايدت إلى حد كبير، في ظل الاضطرابات المتواصلة بعد ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، لتتجاوز ٢٥٪.

(٢) هذه الحجة يرددها كثيرون ظنًا منهم أنها تبرؤهم وتعفيهم من المسئولية والحساب.. وأنا هنا أذكرها على أنها سبب من أسباب ضعف العلاقات الاجتماعية، وواقع ملموس يحتاج إلى توجيه من المصلحين حتى ينظم المرء وقته وجهده ويوازن بوعي وعدل بين ضرورة الحصول على القوت اللازم للحياة، وبين مسئولية تربية الأولاد، وإعطائهم جزءً من الوقت والجهد، فكلاهما لا يلغي الآخر ولا يقل في الأهمية عنه.

(٣) البيتان لمنصور الكريزي، روضة العقلاء (١/ ٢٢٥)، دار الكتب العلمية بيروت، سنة ١٣٩٧م.

(٤) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د/ القرضاوي، صـ ١٥، مكتبة وهبة، ط/ السابعة، سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

ﵟٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُﵞ [هود :٨٨].

والدكتور/ فؤاد زكريا يُقِّرُ بأن المشاكل الاقتصادية والانشغال بضروريات الحياة سبب من أسباب الضعف في المجتمع، بل ويذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ يرى أن مشكلات الفقر توجب على ولي الأمر التفكير الجاد في حلها قبل تطبيق الحدود الشرعية بدعوى الاضطرار والغلاء والأزمات يقول: "هل يستطيع أحد أن يساوي بين ارتكاب الزنا في مجتمع تستفحل فيه أزمة الإسكان، ولا تجد فيه الغالبية العظمى من الشباب سبيلاً إلى الزواج الحلال؛ لأنها تعجز عن الحصول على مسكن مناسب، وبين ارتكاب هذه الجريمة ذاتها في مجتمع مترف تتوافر لدى أفراده جميع وسائل العيش المرفه؟ صحيح أن الزنا يظل جريمة في كل الأحوال، ولكن هل يُلام الرجل الذي اضطرته أزمات الغلاء والإسكان إلى أن يظل أعزب عشرات السنين، بنفس القدر الذي يُلام به من يرتكب الزنا عامدًا وهو يمتلك كل شيء؟

من الواضح أن الجرائم والآثام التي يراد تطبيق الحدود الشرعية عليها ليست شرورًا مجردة، معزولة عن سياقها الاجتماعي، وتظل تحمل نفس المدلول مهما اختلفت الظروف، بل إن معناها ودرجة خطورتها تتفاوت وفقًا لتغير أوضاع المجتمع وشروط حياة الناس فيه، وهنا أيضًا يكون دعاة التروي على حق، ويكون من الواجب ضمان حد أدنى من العدالة الاجتماعية قبل أن نفكر فى تطبيق هذه الحدود. " [1]

ولا أدرى إلى متى يكون هذا التروي؟ وكيف يتحقق الضمان الاجتماعى المطلوب؟ وماذا لو كانت السياسات القائمة تريد أن يظل الوضع كما هو؟ هل تبقى الحدود معطلة إلى أن تصدق نوايا الإصلاح؟[2]

الحق إن الإنسان ما خُلق لنفسه وعياله فقط وإنما هو مكلف بواجبات أخرى، لاتقل في الأهمية عن متطلبات حياته وحياة أهله فعليه أن يكون ميزان عدل، يعطي كل ذي حق حقه دون أن يجور حق على حق.وليقنع المسلم بما قسم الله له، فلا يطمعُ ولا يُضَيِّعُ الحقوق ويهمل الواجبات بدعوى النفقات اللازمة فكم من نفقات يظـن أهلُهـا أنها من الضروريـات، وهي ليست كذلك، كاشتراك النوادى والمصايف

ومسايرة الموضة وأحدث الموديلات وغيرها..والشيخ الغزالى ﵀ يرصد الوضع القائم، ويفرق بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، وحالِ الفقير الكادح، والغنى المترف، وسياسات الظلم والفساد فى البلاد، يقول: "شتان بين ما هو كائن وما يجب أن يكون في بلاد الإسلام البائسة المنكوبة بأفانين من الاستعمار الداخلي

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ١٧٧، مرجع سابق.

(٢) موضوع تطبيق الشريعة وموقف د/ فؤاد زكريا منه وجد نقدًا شديدًا وتفنيدًا علميًّاً بَيَّنَ فيه العلماء الذين ناظروا الدكتور/ فؤاد أن الشريعة الإسلامية ليست حدوداً فقط إنما هى عقائد وآداب وسلوك وعبادات، وأن الحدود تُدْرَأُ بالشبهات، ولا يجوز الخلط فى الحكم وأولويات التطبيق. للمزيد انظر كتاب نقد منهج وشبهات د/ فؤاد زكريا على الربانية، للدكتور/ قنديل محمد قنديل،صـ٥٥وما بعدها، مرجع سابق، وكتاب الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، رد علمي على د/ فؤاد زكريا، للدكتور/ القرضاوي، صـ١٢٣، مرجع سابق.

والخارجي.إن الغِنَى والفقر ـ وحدهما ـ مِيزَانُ الطبقات هنا وهناك، الغِنَى الذي لا يُعرَف من أين جاء، والفقر الذي لا يُعرَف كيف حَلَّ.

في مصر شعب تضطرب به سهول الوادي الفسيحة يكدح ويَنصَب ليرتاح على ثمار جهوده نفر من الأعيان ووجهاء شعب أقعده الشقاء وأضره الحرمان، وقِلَّةٌ أَبطرها النعيم، وأغواها الطغيان»[1]

وعلاج هذا الوضع المزرى يكون بالإيمان بالله تعالى، فالإيمان يوقظ الضمائر ويحرك المشاعر الإنسانية، ويبعث الأمل والفهم الصحيح للحياة الكريمة يقول الشيخ: «المؤمن إنسان ناضج الفهم والتأمل والحكم على الأمور، إنسان جيد الإنتاج والآثار والتصرفات.

فإذا اضطربت هذه المعاني في نفسه اضطرب معها مصدر الإيمان في قلبه ولبه، وتقلصت معها حقيقة إنسانيته. ولا تزال طوائف من الناس تفقد إيمانها وإنسانيتها معًا، حتى تُدمغ بوصف القرآن لها :﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢] والمرء يستحيل دابة يوم يموت فيه عقله المفكر، وترتكس فيه مشاعره اليقظة، فيصبح غير مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده؛ لأنه ليس له من ذلك إلا ما للحيوان السائم حواس مُسخَّرة في أغراض الحياة الدنيا فقط»[2]

إن كل إنسان يؤمن بالله واليوم الآخر يجب أن يعيد النظر ـ باستمرار ـ فى أسلوب حياته، ويراجع نفسه ـ خصوصاً ـ في مسائل المال وطريقة كسبه، واستغراق الوقت فى تحصيله حتى لايكون ذلك على حساب دينه، فالدين أغلى وأعز ما يملكه الإنسان، وأخطر ما يضيع.

والمؤمن العاقل ينظم وقته ويقسمه بالعدل، حسب الأولويات والفرائض والواجبات والحقوق، فيعرف حق الله تعالى، ثم حق نفسه ومن يعول، ثم مجتمعه وأمته.. قال ﷺ :(..إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لضيفك عليك حقا، فاعط كل ذي حق حقه)[1] .والإنسان بهذا التوجيه الراشد يمكنه الجمع بين متطلبات دينه ودنياه، فلا يجعل من ضروريات الحياة ما يعطل به أحكام دينه فَيَضعُفُ،ويُضعِفُ أولاده ومجتمعه وأمته، وبهذا الضعف تسود الروح الانهزامية ويركن أبناء المجتمع للواقع الأليم.

وهذا ما سأذكر خطورته في المبحث التالى بعون الله تعالى.

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـــ ٣٥، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـــ ١٩٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، من حدبث وهب بن عبد الله ﷺ برقم (٦١٣٩)، صـ ٨٧٦، كتاب الأدب، باب صنع الطعام والتكلف للضيف، مرجع سابق.

المبحث الرابع: تسلل الروح الانهزامية والرضا بالواقع:

الهزيمة النفسية أخطر أنواع الهزائم؛ لأنها تَفُتُّ في العَضُدِ وتوهن العزائم، والإنسان المهزوم نفسيًّا الذي تسللت الهزيمة إلى نفسه لا يمكن أن ينتصر على عدو أبدًا، اللهم إلا إذا تغلب على ضعفه وقاوم هذه الروحَ الانهزاميةَ التي تسللت إليه واستولت على عقله وفكره، وأوصلته إلى قناعة أنه ضعيف ومهزوم، أو غبي وجاهل، أو فقير وذليل، أو مريض وسيموت قريبا، ومهما بذل من جهد أو قاوم فهو خاسر لا محالة؛ لأنه دون المستوى المطلوب لمواجهة الأعداء أو الصعاب، وأن الأمراض حاصرته من كل جانب، وأن كل محاولة منه ستبوء بالفشل، وأنه كما خسر من قبل سيخسر كل معركة في المستقبل، وأن معاركه كلَّها صفرية.

ويزداد الأمر سوءًا لو اعتقد المهزوم نفسيًّا أن هذا قَدَرُ محتوم وقضاء مبرم، لم ولن يتغيرَ أبدا.

والحق إن هذا كله وهم وخيال، ووَسواس شيطان، ونتاج فكر سقيم، فكم من ضعيف صار قويًّا، وكم من فقير صار غنيًّا، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والسيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، بل والقرآن الكريم مليء بمثل هذه النماذج(١).

والدكتور/ فؤاد زكريا يرى أن الأزمة أزمةُ إبداع وعدمُ منافسةٍ للدول المتقدمة، وأن مظاهر الحيرة والعجز والاكتفاء بالأسف والندم ولطم الخدود لا يجعلنا نستسلم، بل علينا أن نعيد النظر في طريقة تفكيرنا وإبداعنا، وما تمليه علينا عقولنا.

يقول: «أنا أعتقد أن أزمة العقل العربي في جوهرها أزمة الفكر العربي، يعني المضمون نفسه، محتوى التفكير الذي تمتلئ به عقولنا، الأزمة هنا هي أزمة إبداع، أزمة افتقار إلى الإبداع.. نحن نعيش - والكلام للدكتور/ فؤاد زكريا - في عالم فوجئنا منذ ثلاث سنوات بانقلاب شامل في أوضاعه، كل المفاهيم والمقولات التي اعتدنا عليها طوال عشرات السنين السابقة فجأة اختفت وفجأة انقلبت.

فوجئنا بموقف جديد، وهذا الموقف يؤثر على حياتنا على سلوكنا، على أوضاعنا وعلى علاقتنا بالعالم المحيط بنا، لا نستطيع أن نتجاهله على الإطلاق، لكن للأسف الشديد المثقفون في بلادنا وقفوا حائرين أمام هذه التغيرات واكتفوا بأن يظهروا الحيرة ويظهروا العجز، وبعضهم ممن كان يدين بالاتجاهات التي انهارت اكتفى بالتعبير عنها بالأسف والندم ولطم الخدود في بعض الأحيان! وانتهى الأمر عند هذا الحد.

---

(١) تأمل ما ورد عن نشأة نبي الله موسى ﷺ، وما حدث لنبي الله يوسف ﷺ، وقصة الهدهد والنملة، والذي حاج إبراهيم ﷺ في ربه، وأول سورة الروم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] وغزوة بدر والأحزاب ومؤته وقتال الروم والفرس والصليبيين، وغير ذلك كثير.

هل نستسلم؟ هل نقول إن هذا العالم أصبحت هناك قوة وحيدة فيه هي المسيطرة ونستسلم لهذه السيطرة؟ أبدًا أمام أعيننا منذ الآن علامات واضحة على أنه هذا المعسكر الواحد الذي يزعم أنه يملك العالم بلا منافس، عوامل الانهيار موجودة فيه كاملة، فيه أزمة اقتصادية طاحنة في أمريكا وانجلترا وغيرها من البلاد، هناك أزمات سياسية لا أول لها ولا آخر، هناك أزمات اجتماعية ـ الإدمان ـ الجريمة »[(١)].

من خلال ما سبق يتبين أن د/ فؤاد زكريا يتكلم عن المجتمع العربي وموقفه من الدول الصناعية الكبرى، وقبوله أن يكون تابعًا لها لما وصلت إليه من تقدم علمي وصناعي، بدلا من أن يكون منافسا لها، ويلقي باللوم على العلماء والأمراء والمثقفين الذين اكتفوا بإظهار الأسف والحيرة والعجز والندم ولطم الخدود، دون أدنى عمل يذكر فى ميدان التطور والتنافس وإثبات الذات والتعامل مع الغير بندية منبعثة عن حاضر علمى مشرف.

والحق إن هذا نقدٌ جيدٌ، ولكن لم يذكر لنا د/ فؤاد زكريا من أين نبدأ، وكيف نسير، وما هو المطلوب ممن اكتفوا بإظهار الأسف والحيرة والعجز من العلماء والأمراء والمثقفين.

هل من خطوات عملية مدروسة يقدمها لنا د/ فؤاد زكريا؟ الجواب كلا! لقد اكتفى د/ فؤاد بالنقد وإلقاء اللوم، وإن ذكر شيئًا لإصلاح هذا الوضع لا يخرج ـ ما يذكره ـ عن دائرة العموميات كندائه بالتطور والتنافس والندية والعمل المشرف.

والشيخ/ الغزالي يرى أن هذا الأمر لا يُعالج بالنقد وحده، ولا الفلسفة الكلامية، ولا الفوضى ولا العموميات ولا إشباع النزوات، وإنما يعالج بالرجوع إلى صحيح الدين، ومعرفة قيم العمل ويفرق الشيخ بين الزهد فى الدنيا مع امتلاكها، ومصادر القوة فيها، وتسخيرها فى نصرة الحق، والزهد الكاذب هو ما يدعيه من لا يملك شيئًا يزهد فيه، يقول الشيخ: «أَحْسَبُكَ لن تتصور السجن الذي ضم هؤلاء البائسين بُرجًا عاجيًا، أو تتخيل ابتعادهم عن الطيبات والمباهج زهدًا مقصودًا ، وتعاليًا محمودًا.

إنما هي فوضى الأوضاع وفلسفة الحرمان، وهذه لا تساوي في (سوق النقد) شيئًا نشتري به من الغرب دبابات ولا هراوات، وما تقدم الغرب إلا يوم مشى في طريق بعض ترابه الموطوء بالأقدام، هذه الفلسفات البائسة!!..

إن نزوات الأجسام إلى الطعام والشراب والنساء أخذت صورتها الحالمة في ألف ليلة وليلة ! وأخذت صورتها الواقعية في قصور الواجدين الفاسدين»[(١)].

---

(١) أزمة العقل العربي صـ ١٧ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٩٠ ، بتصرف مرجع سابق .

وفي مكان آخر يقول الغزالي رحمه الله: « ألا فليفهم ذلك النيام ! ليفهم الشرقيون الكسالى ممن يصطنعون الفلسفة والإدراك ! ليفهم ذلك الذين أتاهم الله العزيمة والقدرة ، فهانت عزائمهم ووهنت قدرتهم ، وناموا في ظلال الهزيمة والعار، على حين برز في الحياة أصحاب الهمم الجبارة والسبق البعيد.

ليفهم أولئك الذين ظنوا عقيدة (القضاء والقدر) ثغرة في الإسلام ينفذون منها إلى حماه الكريم و﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الجاثية:٧] »[1].

يقول أ/ العقاد: «..تعجبني كلمة لجمال الدين الأفغاني حين قيل له: (إن المستعمرين ذئاب) فقال: (لو لم يجدوكم نعاجًا لما كانوا ذئابًا) وهذه كلمة جديرة بأن تذكر ولا تنسى كلما تحدث المتحدثون بالجناية على الأمم والجماهير.

فمن الواجب أن نقول لمن يشكون الظلم وهم قادرون على دفعه إنكم أنتم الظالمون ، بل أنتم أظلم من الظالمين؛ لأن الظالم له عذر فيما يكسبه من ظلمه أو يستطيل به من قوته، وأما أنتم فإنكم تقبلون الظلم وتستديمونه ، وإنكم لخاسرون مهانون.

يجب أن نقول لمن يشكون الدجل في الكتابة إنكم أنتم الملومون وأنتم المسئولون؛ لأن الكاتب الدجال ينتفع ويرتفع، وأما أنتم فإن أدركتم الغفلة وسكتم عليها فأنتم شرٌّ من الدجال الذي تنفعه الغفلة وترفعه، وإن مرت بكم الغفلة وأجزتموها فليس المغفل بأفضل من الدجال، وليس الدجال لولاكم بقادر على الاستغفال»[1].

والمؤمن يجب أن يكون حذرًا يقظًا قويًا ثابتًا على مبادئه، لا خِبًّا ولا الخب يخدعه، تأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٧١:٧٢] .

وفي غزوة أُحد بعدما أصاب المسلمين ما أصابهم، قال الله لهم :﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إن أنصار الحق وأتباع الأنبياء يجب أن يكونوا أقوياء لا تتسلل إليهم روح الهزيمة والشعور بالضعف والخوف والجبن والهوان.

تأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ

---

(١) عقيدة المسلم صـ١١٧ ، طـ/ دار الريان للتراث ، بدون ذكر تاريخ ورقم الطبعة.

(١) دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية صـ٢٣٥ وما بعدها .

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦] وقوله ﷻ: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩]

إن أخطر ما يصيب المرء بالهزيمة هو عدم الثقة فى قدرته على النجاح ومنافسة المتفوقين، وهذا غباء وقع فيه الكثيرون فأرداهم.

يقول الأمير شكيب أرسلان: «من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل الثقه بأنفسهم.. كيف يرجو الشفاء عليل يعتقد ـ بحق أو بباطل ـ أن علته قاتله؟.. أصبح المسلمون في الأعصر الأخيرة يعتقدون أنه ما من صراع بين المسلم والأوربي إلا وينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه، وقرَّ ذلك في نفوسهم، وتخمر في رءوسهم،لاسيما الطبقة التي تزعم أنها الطبقة المفكرة.. مازالت تنفخ في بوق التثبيط وتبث في سواد الأمة دعاية العجز.. بل زعمت أن مجاراة الفرنجة في علم أو صناعة أو زراعة أو حرب هو ضرب من المحال، و كأن الفرنجة من طينة والمسلمين من طينة أخرى.. وقد أَحَسَّ الأوربيون بها عند المسلمين من هذه الحالة التي توافق أهدافهم فصاروا يروجونها فيهم»[(١)].

والنبى ﷺ يقول: (المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف..احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، و إن اصابك شيء فلاتقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان) [(١)].

ومع الاستعانة بالله سبحانه وتعالى والثقة في النفس والعقل لابد من التخطيط للمستقبل والاستفادة من علوم العصر، وهذا ـ مع شدة الأسف ـ لم يتحقق بالقدر المطلوب لإصلاح البلاد والعباد.

وسأذكر ـ إن شاء الله ـ في الصفحات التالية هذا الأمر، وخطورته على المجتمع.

---

(١) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم صـ١٤١ وما بعدها، بتصرف الأمير شكيب أرسلان، ط/ دار البشيربالقاهرة، بدون تاريخ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حدبث أبي هريرة رضي الله عنه كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز..برقم(٢٦٦٤) صـ٥٩٧، مرجع سابق.

المبحث الخامس: عدم التخطيط للمستقبل والاستفادة من علوم العصر:

هذا سبب آخر من أسباب ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع المعاصر، إذ لكل عصر رجاله وثقافته واحتياجاته، فضلاً عن مستجداته وقوانينه وإمكاناته، والخطط المدروسة والمجربة، والتجارب الناجحة أو الفاشلة وآليات العمل، وخبرات الأشخاص وعمل الهيئات ومعامل التدريب والاختبار، وتبادل المصالح وتلاقح الأفكار، وما هو في متناول اليد، وما يمكن أن نوجده أو نحصل عليه، والأولويات الملحة.. كل ذلك ـ مع الأسف ـ لا يُنظر إليه، ولا يستفاد منه بالقدر المقبول ـ فضلاً ـ عن المطلوب.

انظر إلى الزراعة في بلادنا، وفي البلاد التي نستورد منها القمح.

انظر إلى الصناعة في بلادنا، وفي البلاد التي نستورد منها السلاح.

انظر إلى الدواء في بلادنا، وفي البلاد التي نستورد منها العلاج.

انظر مِنْ حولك في شوارعنا سترى التنفيذ ـ غالبًا ـ يسبق التخطيط، كم من شوارع رصفت ثم كُسِّرَت؛ لأنهم ما أكملوا المرافق، كم من أماكن عشوائية قامت دون أدني تخطيط حتى صارت قنبلة تضاف إلى مئات القنابل الموقوتة في بلادنا.

حدثني عن شيء خُطِّطَ تخطيطاً علميًا وفق المقاييس العالمية والضوابط الإنسانية.

في بلادنا مصر تجد العجب العجاب، تجد أفران الخبز والناس حولها يضعون الخبز على الأرصفة فوق التراب، بينما توضع الأحذية في فتارين من زجاج، وتُستصلح أراضي للزراع، وتُبور أراضي زراعية من أخصب الأراضي بهدف البناء، تشق ترع في سيناء وتوشكى[١] والصحراء، بينما تُردم ترع قائمة وفيها مياه، تسن قوانين حديثة مع أن القوانين الصالحة معطلة، وتصنع دساتير بدعوى التطور وحقوق الإنسان، وأبسط هذه الحقوق مُضَيَّعَةٌ!! والأعجب من هذا أن الكثير في مصر يعرف هذه المثالب، ولا يسهم بشيء يُذْكَر في تلافيها، وهذا عيب لم أر مثله قط.

يقول المتنبي: ولم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام[٢]

وعن التخطيط للمستقبل والاستفادة من علوم العصر يقول د/ فؤاد زكريا: "أما على مستوى

---

(١) مفيض توشكى هو مفيض طبيعي لتصريف المياه الزائدة خلف السد العالي بأسوان، ووجوده ساعد على إنشاء مشروع توشكى القومي الموجود الآن في منطقة توشكى بمدينة أبو سمبل، وقد دخلت المياه إلى مفيض توشكى لأول مرة في ١٥ أكتوبر ١٩٩٦م ، وهدف المشروع استصلاح واستزراع ٥٤٠ ألف فدان في جنوب الوادي الجديد بتوشكى، للمزيد انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مرجع سابق.

(٢) ديوان المتنبي جـ١ ،صـ١٦٣ ط/ دار المعرفة بيروت، تحقيق مصطفي السقا وآخرون، بدون تاريخ...

المجتمعات البشرية، فقد أصبحت النظرة العلمية ضرورة لاغناء عنها فى أى مجتمع معاصر لا يود أن يعيش فى الظل بين سائر المجتمعات. وحسبنا أن نشير إلى أن مبدأ التخطيط، وهو مبدأ أساسى حاولت بعض الأنظمة الاجتماعية إنكار أهميته فى بادئ الأمر ولكنها اضطرت إلى تطبيقه على نطاق واسع فيما بعد، هذا المبدأ إنما هو تطبيق مباشر لمفهوم التفكير العلمى المنهجى من أجل حل مشكلات المجتمع البشرى، ولقد أصبح من المألوف فى عالمنا المعاصر أن نسمع تعبيرات كالتخطيط الاقتصادى أو الخطة الاقتصادية والتخطيط الاجتماعى، والتخطيط التربوي والعلمي، والتخطيط الثقافي، وكلها تعبيرات تدل على اعتراف المجتمع الحديث بأن ميادين أساسية للنشاط البشري، كالاقتصاد والشئون الاجتماعية والتربية والعلم والثقافة، أصبحت توجه بطريقة علمية منظمة وكل نجاح يحرزه التخطيط في عالمنا المعاصر إنما هو نجاح للنظرة العلمية في تدبير شئون الإنسان. بل إن العلم تغلغل إلى ميادين ظل الناس طويلاً يتصورون أنها بمنأى عن التنظيم المنهجي والتخطيط المدروس. »(١)

هذا الذي ذكره د/ فؤاد زكريا واقع ملموس في دول أجنبية. يريد من الدول العربية والإسلامية أن تحذوا حذوها بنفس المنهجية وأدوات التخطيط. تأمل تكملة كلامه السابق إذ يقول: «وإذا كان العلم في الميدانين السابقين يستخدم على نحو قد يتعارض أحيانًا مع القيم الإنسانية الشريفة، فإنه في ميادين أخرى يستخدم على نحو يثري روح الإنسان أو يزيد من قدراته الروحية الجسمية، ففي ميدان الفنون أتيح للأجيال التي تعيش في القرن العشرين أن تتلقى دروسًا وتدريبات ـ في ميادين الإبداع أو الأداء الفني ـ لم تكن متاحة إلا على نطاق ضيق للأجيال السابقة، وكان من نتيجة ذلك اتساع ثقافة الفنان وإلمامه بأصول فنه، وبلوغ الفنون الأدائية كالموسيقى والرقص والتمثيل مستويات تصل أحيانًا إلى حد الإعجاز، كذلك أصبحت الرياضة البدنية علمًا بالمعنى الصحيح، بعد أن كانت تعتمد على الاجتهاد الشخصي، وتمكن الإنسان بفضل التدريب المنهجي المدروس من بلوغ نتائج كانت تدخل من قبل في باب المستحيلات...

لقد آن الأوان لأنْ نعترف في شجاعة وحزم، بأن عصر التلقائية والعشوائية قد ولى، وبأن النظرة العلمية إلى شئون الحياة في ميادينها كافة هي وحدها التي تضمن للمجتمع أن يسير في طريق التقدم خلال القرن العشرين، وهي الحد الأدنى الذي لا مفر من توافره في أي مجتمع يود أن يكون له مكان في عالم القرن الحادي والعشرين، الذي أصبح أقرب إلينا مما نظن»(٢).

---

(١) التفكير العلمي صـ١٣ وما بعدها ، بتصرف، مرجع سابق ..

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة، بتصرف. والملاحظ ـ أيضًا ـ أن ما يسمى بالفنون والرياضة قد بلغ في بلادنا من الدقة والإتقان ما لم تبلغه العلوم المهمة.. انظر إلى مباريات الكرة مثلاً.. كيف هي منظمة ومخطط لها سلفًا.. وكذلك الرقص الشرقي والغربي وما يرافقه من حركات وكلمات كلها مدروسة ومؤكد عليها ، ويعاقب من يخل بشيء منها.. ناهيك بالأموال التي ترصد لها ، وتغدق على أهلها.

من خلال ما سبق تلاحظ أن الدكتور/ فؤاد زكريا، يتحرق ألمًا على حال بلاده، وما وصلت إليه من التخلف مقارنة بالدول الأخرى، ويخص بالذكر فنون (الرقص والموسيقى والتمثيل) الذي وصلت في الدول الأخرى ـ على حد قوله ـ إلى درجة الإعجاز! كذلك الرياضة واللعب. ويبدو لي أن القائمين على الأمر في مصر والعالم العربي استفادوا جيدًا من نصائح د/ فؤاد زكريا وأمثاله وطبقوها بحذافيرها في الميادين التي ذكرها!! لا في ميادين الإصلاح الاجتماعي، وما يتعلق به من أعمال وعقائد وأحوال.

وأنا أوافق د/ فؤاد زكريا على ضرورة التخطيط والتنظيم والاستفادة من الغير، ولكن فيما هو خير وحلال ومفيد لمجتمعاتنا، وليس الرقصَ واللعبَ والموسيقى لأن مشكلاتنا المعقدة ليست في إدارة هذه الأمور بعشوائية، فهي (يقينًا) تدار ـ في بلادنا ـ بخطط مدروسة ومحكمة ومنظمة، إنما المشكلة في مشروعية هذه الأعمال وما تهدف إليه من غايات، وما تثمر عنه من نتائج، ومدى التزامها بشريعة الإسلام وقيم الإنسان.

بالله أسألك هل عندنا أزمة أو مشكلة في الرقص أو الفن أو الكرة أو عموم الرياضة؟

المشكلات الحقيقية في الأخلاق والثقافات والآداب والسلوك والأعمال التي يمارسها هؤلاء.

المشكلات الحقيقية في قلة الإنتاج الزراعي والصناعي والعلمي والتقني والتربوي.

والدكتور/ فؤاد زكريا لا يخفى إعجابه بالفكر المادي الغربي يقول: "إن الروعة العقلية لليونانيين يمكن أن تبهرنا إلى حد يصعب علينا معه أن نتبين أن تأثير معرفتهم وذكائهم كان مرتبطًا بالمظاهر أكثر مما كان مرتبطًا بالحقائق العلمية والمادية للحياة، فجمال المدن والمعابد والتماثيل والأواني اليونانية، ودقة منطق اليونانيين ورياضتهم وفلسفتهم، تخفى عنا حقيقة أن أسلوب الحياة في معظم شعوب البلاد المتحضرة كان عند سقوط الإمبراطورية الرومانية، مماثلاً إلى حد بعيد لما كان عليه قبل ذلك بألفي عام"[(١)].

وهذا التخطيط المحكم لليونانيين في فنون العمارة والرياضة يوجد مثله وأرقى منه عند الفراعنة وعاد وثمود، ولا أدري لماذا خص د/ فؤاد زكريا اليونانيين بالذات؟ أَلِأَنَّهُمْ أساتذة الفلسفة التي ينتمي إليها؟ أم لأن فرعون وثمود ذكروا في القرآن الكريم حيث قال ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر] نعم ذُكروا في القرآن الكريم بما يغني عن ذكرهم عند د/ فؤاد زكريا ولكن ذكروا في سياق الذم ولم تغن عنهم مدنهم ولا علومهم من الله شيئًا.

وعن موضوع التخطيط والاستفادة من علوم العصر يقول الشيخ/ الغزالي:"من المستحيل إقامة مجتمع

(١) التفكير العلمي صـ ١٤١ ، مرجع سابق ، نقلًا عن الكاتب الإنجليزي (برنال) كتاب علم التاريخ ط/ الثالثة صـ٢٣٥ بدون.

ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا عجزة في الحياة، والصالحات المطلوبة تصنعها فأس الفلاح، وإبرة الخياط، وقلم الكاتب، ومشرط الطبيب، وقارورة الصيدلي، ويصنعها الغواص في بحره، والطيار في جوه، والباحث في معمله، والمحاسب في دفتره، يصنعها المسلم صاحب الرسالة وهو يباشر كل شيء، ويجعل منه أداة لنصرة ربه وإعلاء كلمته!! وإنه لفشل دفعنا ثمنه باهظًا عندما خِبْنا في ميادين الحياة، وحسبنا أن مثوبة الله في كلمات تقال ومظاهر تُقام.

تخيل رجلاً وصل إلى الحكم وقال لأتباعه: أمامكم أجهزة الدولة أديروها لإثبات وجودكم وتحقيق هدفكم.. فإذا هم يتركون الأجهزة عاطلة، ويجتمعون بين الحين والحين أمام قصره للهتاف باسمه! إنه لو طردهم من ساحته ما بغى عليهم، ولو أمر الحراس بضربهم ما ظلمهم، إنهم مخربون لا مخلصون ! »[(١)].

أقول: وهؤلاء المخربون في بلادنا كثيرون، ولكن هل وجدوا من يَطْرُدُهم؟ أم وجدوا من يساعدهم على الخراب، ويدعمهم بالمال والإمكانات التي يحتاجها المصلحون؟

والشيخ رحمه الله يذكر صِنْفًا آخر من المخربين هم أصحاب التدين المنقوص ممن يظنون أن العبادة والقرب من الله لا تعدو الأذكار والصلوات والتسابيح التي يرددونها، أو من اجتهدوا في ميدان العبادات على حساب ميادين أخرى لا تقل في الأهمية عن هذه العبادات.

يقول الشيخ: «من قديم رأى نفر من العابدين أن يحصروا عبادتهم في الصلوات والأذكار، يُبدءون ويعيدون ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة، فمن ينصر الله ورسوله؟ إذا كان أولئك جهّالًا بالحديد وأفرانه ومصانعه؟ والله يقول في كتابه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥] إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط واستخراجه والانتفاع بمشتقاته، لا نعرف منها شيئًا، فهل تُخْدَم عقيدة التوحيد وما ينبني عليها بهذا العجز المهين؟

إنه لو قيل لكل شيء في البلاد الإسلامية: عُد من حيث جئت، لخشيت أن يمشي الناس حفاة عراة، لا يجدون ـ من صنع أيديهم ـ ما يكتسون، ولا ما ينتعلون، ولا ما يركبون، ولا ما يضيء لهم البيوت، بل لخشيت أن يجوعوا؛لأن بلادهم لا تستطيع الاكتفاء الذاتي من الحبوب!!

إن الله لا يقبل تدينًا يشينه هذا الشلل المستغرب، ولا أدري كيف نزعم الإيمان والجهاد ونحن نعاني من هذه الطفولة التي تجعل غيرنا يطعمنا ويداوينا؟! ويمدنا بالسلاح إذا شاء .إنها طفولة تستدعي الكافل المهيمن، والحديث عن إنجاح رسالة ما ـ ونحن في طوقها ـ حديث يثير الهزء، فما للأطفال وتكاليف

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية صـ١١ وما بعدها ، مرجع سابق.

الأبطال؟!»[١].

ويستمر الشيخ في بيان الإخفاقات المتعددة والمتكررة في بلادنا، بسبب الجهل بالدنيا وعدم التخطيط لها، وعدم الاستفادة من تجارب الأمم وتفوقها في ميادين العمل والإنتاج يقول: « لقد استعدنا سيناء على النحو الذي عرف الناس، فما استطعنا إلى الآن أن نبني قرية، وفي ميدان الإعلام ترى كل أجهزة الإرسال والاستقبال، السلكية واللاسلكية والمواصلات، وتخزين المعلومات واستخدامها والآلات الحاسبة .. إلخ كل ذلك حكر للغرب وحده تأخذ منه بقدر ما يأذن ، فإذا طردك عن بابه بقيت صفر اليدين.

أين الصحوة الإسلامية في مظاهر هذا العوز؟ أين العلم الذي يسعفنا ويقيم لنا صناعة مستقلة؟! أين العلم الذي يصون عقائدنا وآدابنا ويجعل يدنا العليا؟ أين العلم الذي يحكم علاقتنا بكتابنا وينقلنا إلى جوه الممدود بين الأرض والسماء؟ أين العلم الذي يقدرنا على أن نثير الأرض ونعمرها كما أثارها وعمرها غيرنا ، بل أكثر منا ؟» [٢]

ويذكر الشيخ رحمه الله مثلاً معاصرًا ملموسًا كان ولا يزال أروع وأجمل نماذج التطور المادي والتفوق التقني والصناعي، إنه (اليابان) منذ تحولها من عصر الركود إلى عصر النهضة بعد الحرب العالمية. وبعد ذكره لهذا التاريخ وما فيه من عقبات واضطرابات ومشاكل استطاعت اليابان التغلب عليها يقول: هل نحس أن الذكاء الياباني وحده وراء هذا النجاح الرائع؟ كلا ! إن الاستقرار النفسي والاجتماعي في طول البلاد وعرضها كان نعم العون في ذلك المضمار، كأن الحكومة جسد روحه الشعب، أو كأن الشعب جسد روحه الحكومة، لا انشطار في عزم، ولا اختلاف على هدف، ولا تحاقد على منصب !

أما اليقظة التي عاصرت الصحوة اليابانية في العالم الإسلامي فقد تبددت قواها في الصراع الداخلي،

وذهبت جهود هائلة في الدفاع والهجوم والأخذ والرد والإقرار والإنكار، إذ إن حكومات كثيرة كانت تريد نظامًا علمانيًا، وترفض استدامة الفكر الإسلامي، وكانت الشعوب وجلة من هذه الطلائع المتمردة على عقائدها وتقاليدها»[٣].

وفي كتاب آخر يقدم الشيخ الغزالي توصيات ونصائح غالية للأمة والمسئولين عن إدارة شئونها يقول: « .. وبين يدي القرن المقبل أطلب من المسلمين أن يطرحوا الأسمال العقلية (أي الأفكار العمياء البالية) والاجتماعية التي أزرت بهم، وحطت من مكانتهم، وأن ينصفوا الإسلام من أنفسهم حتى يستطيع هذا

---

(١) المرجع السابق، صـ١٢ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) الطريق من هنا صـ٣٠ وما بعدها ، بتصرف، ط/ دار الشروق، ط/ ٢، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

الدين أن ينطلق في الأرض لإسعاد البشرية وتحقيق الرحمة العامة للعالمين..

ـ أما استقبال هذا القرن بحكم فردي يخنق الحرية، ويستبيح الحرمات ...

ـ أما استقباله بقوانين تملك المال ولا تملك العدالة والرحمة ...

ـ أما استقباله ببطالة عقلية تهمل العقل والفكر، وتحقر نتاجهما، وتؤخر العباقرة، وتقدم التافهين.

أو استقباله بعوائق همها في الحياة المتعة لا التربية، والفوضى الاجتماعية، لا الأخلاق الحميدة والتقاليد الزكية.

أو استقباله بذاكرة مفقودة لا تستفيد من التجربة، ولا تنتفع من عبر التاريخ.

أو استقباله بدعاة يتساءلون عن دم البعوض، ولا يتساءلون عن مستقبل أمة أُرحض دمها، حتى أصبح سفكه لا يثير جزعًا ولا فزعًا..

إن استقبالنا للقرن الخامس عشر على هذا النحو هو خزي للأبد.. فإما عشنا مسلمين حقًّا.. وإما ممات لا قيمة بعده .. ممات لعمري لم يُقَس بممات»[١]

رحم الله الشيخ/ الغزالي رحمة واسعة، لقد استقبلنا القرن الجديد بأسوأ مما كنا عليه في القرن الماضي، ومرت سنون والحال هو الحال، بل يزداد خبالاً.

إن المرء ليعجب! بل ليحزن ويأسف عندما يرى سوء التقدير والتخطيط الذي يكلف الأمة ملايين الجنيهات فضلاً عن الأذى والضرر الصحي والنفسي الواقع على المخلصين من أبناء هذه الأمة؛ لما يرون من مشاهد وأحوال[٢].

ومن الأسئلة المحيرة التي لا أجد لها جوابًا مقنعًا، لماذا لا يُستفاد من العلماء وأهل الاختصاص وذوى الخبرة والرؤى الصادقة وهم فى بلادى كثيرون؟ ولماذا لا نستفيد من الدول المتقدمة في الميادين النافعة كالزراعة والصناعة والتطور العلمي النافع والتخطيط للمستقبل؟ ثم لماذا نقلدهم في ميادين الفساد كالرقص واللهو واللعب وإشباع الشهوات والمكر السيئ في السياسات، ثم لماذا نتبع النظم الاجتماعية البعيدة عن هدي الإسلام وأخلاق العرب والمسلمين؟

أسأل الله الهدى والرشاد.

---

(١) هموم داعية صـ ١٧٢ ، ١٧٣، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ط/ ٢، سنة ١٤٠٥هـ.

(٢) وعلى سبيل المثال لا الحصر: انظر كتاب (استراتيجية محافظة القاهرة في التنمية الشاملة) يوليو سنة ٢٠٠٢م ، الكتاب حصلت عليه في الاجتماع السنوي لحي مدينة السلام سنة ٢٠٠٥م ، وهو غاية وآية في الروعة والجمال، من حيث الطباعة والصور، والخرائط، والمحتويات والبرامج الموضوعة للإصلاح الحالي المستقبلي لجميع أحياء القاهرة، الأمر الذي أفرحني كثيرًا ، وعلى إثر هذه الفرحة نظرت ببصري أتصفح الكتاب ، وأنظر في البرامج والخطط الشاملة والتي عبر عنها الكتاب أحسن تعبير، بأدق عبارة، وبحروف ملونة على أوراق فاخرة، وبخرائط وخطط تتفق والنظم العالمية، ولكن شيئًا من ذلك الذي وعد به الكتاب لم يحدث على أرض الواقع منه إلا القليل.

المبحث السادس: تقليد النظم الاجتماعية البعيدة عن هدى الإسلام:

بلادنا العربية أكثر البلاد احترامًا وتمسكًا بالنظم الاجتماعية الشرعية التى تقوم على الدين الحق؛ لأن الله ﷻ خصها وأهلها بمزايا لا توجد في بلاد أخرى، أو أمة أخرى.

اختار الله ﷻ رسله موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام من هذه البلاد، وجعل أهلها حملةَ رسالات هؤلاء الرسل، وحُمَاتَها والمدافعين عنها والداعين إليها.

ومن أهم ما جاءت به هذه الرسالات علاقة الرجل بالمرأة، ومقتضيات هذه العلاقة، وأهدافها وثمارها المرجوة في الدنيا والآخرة.

ولا ينكر أحد ـ حتى الغرب أنفسَهم ـ أن هذه البلاد وأهلها لا يزالون متمسكين بهذه التعاليم، فلا تقوم علاقة بين الرجل والمرأة ـ يقبلها المجتمع ـ إلا بالزواج الصحيح القائم على الشرع بآدابه وأهدافه، كالمسئولية الزوجيه والإنجاب والتربية والاستقرار و السُّكْنَى والترابط الأسري.

بيد أن المجتمعاتِ الغربيةَ لا تلتفت كثيرًا إلى الحلال والحرام في مثل هذه الأمور، اللهم إلا في حدود مصالحهم الدنيوية وفهمهم للنصرانية التي تحرفت وترومت[(١)].. الأمر الذي يجعل العلماء والعقلاء والمخلصين، يفرقون بين النظم الاجتماعية الغربية، وما تبعها من عادات وتقاليد وتطورات جمعت كل ألوان وأشكال المعاصى والرذيلة، وبين شريعة ربانية عاش بها ولها ومن أجلها الأنبياء والمرسلون، وسار على نهجها الصالحون.

والحق الذي لا يماري فيه إلا مكابر أن تقليد الثقافات الغربية في الشئون الاجتماعية وغيرها قد أضر كثيرًا بالمجتمع العربي المسلم، وأثر كثيرًا على أخلاقه ومعاملاته حتى وصلت إلى علاقة المرأة مع زوجها، والبنت مع أبيها؛ لدرجة فاقت ـ في بعض الأحيان ـ التبعية والتقليد إلى الولاء والتقديس، وهذا هو مكمن الخطورة؛ لأن النظم الأوربية اختزلت ـ عن عمد ـ متطلبات الحياة الاجتماعية في أطر مادية بحتة، وهي بهذا قد ابتعدت كثيرًا عن شريعة الأنبياء موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ولم تُبق سوى بعض الطقوس والترانيم التى يرددها علماؤهم عند الزواج .

---

(١) أي أن النصرانية تحولت إلى دين آخر غير ما جاء به المسيح عليه السلام، وذلك بفعل الملوك والأمراء عن طريق المجامع المسيحية التي دعوا إليها، بدئًا بمجمع نيقية عام ٣٢٥م، الذي دعا إليه قسطنطين الحاكم الروماني الوثني، وما تلاه من مجامع عام ٤٥١م، فترومت النصرانية عبر هذه المجامع، أي امتزجت بالفكر الروماني الفلسفي.. للمزيد انظر كتاب دراسات في الأديان والنحل د/ أحمد غلوش صـ٦٢٠ وما بعدها، ط/ مؤسسة الرسالة، ط/ ٢، عام ٢٠٠٧م ـ ١٤٢٨هـ .

والدكتور/ فؤاد زكريا، كعادته يبحث عن الجديد فى عالم المادة والتطور الفكرى، ولا يبحث عن مزايا النظام الاجتماعى الإسلامى. ففى كتابه الجوانب الفكرية فى مختلف النظم الاجتماعية[1] تكلم باستفاضة عن النظم الاجتماعية القديمة كالقبلية، ونظام الرق، والنظم المادية الحديثة وأثرها على النظام الاجتماعى فى البلاد الاشتراكية والرأسمالية، وما نتج عن ذلك من رفاهية وطبقية وتبعية، ولم يذكر الإسلام وما فيه من نظام اجتماعى فريد فى جماله وكماله وأهدافه .

أما الشيخ الغزالي رحمه الله فينظر إلى دعاة الإصلاح فى البلاد ومدى تأثرهم بالشرق والغرب.. ثم يبين ضرورة الفهم الصحيح للدين، وما يجب أن يكون عليه المصلحون يقول: « انقسم زعماء الإصلاح إلى فريقين، فريق ينظر إلى قديم الشرق والمسلمين، يتغنى به ويستوحيه، وفريق ينظر إلى ما حقق الغرب في حاضره من تفوق، فهو يزينه للمصريين ويدعوهم إلى احتذائه والسير على خطاه.

وسرى هذان الأسلوبان في كل شئون الحياة، فأصبحنا أمام فريقين متقابلين، فريق يدعو الناس إلى الثورة على الماضي، يدفعهم إلى الجديد دفعًا لا رفق فيه ولا هوادة، ويحملهم عليه حملًا لا تدرج فيه، وفريق آخر يريد أن يوقظ ضمائر الناس ووعيهم عن طريق الدين ، ثم يتركهم بعد ذلك للتطور الطبيعي محذرًا مما تنطوي عليه الطفرة من أخطار لا يؤمن معها العثار، مناديًا بأن أي بناء لا يقوم على أساس تنقية النفس وإحياء الضمير هو بناء فوق رمال، لا يعلو إلا لينهار.

ظهرت آثار هذين التيارين في السياسة..وظهرت في الأدب وفي الفن، فكان هناك فريق يتخذ مثله الفنية من الأوربيين. وكان فريق آخر يستمد قيمه من قيم العرب ومن تقاليد الشرق، وظهرت في التعليم، فكانت هناك مدارس عصرية تأخذ بأساليب الدراسة الأوربية ومدارس أوربية للجاليات الأجنبية أقبل عليها أبناء الأغنياء من المصريين، وكان إلى جانبها معاهد دينية تقتصر على العلوم الشرعية والإسلامية وما يتصل بها.

وظهرت في المجتمعات وفي سائر شئون الحياة، فكان هناك مجددون، أو مقلدون إن شئت، يبغضون إلى الناس قديمهم البالي ويصرفونهم عنه داعين إلى مسايرة العصر والأخذ بكل مستحدث طريف، وكان هناك المحافظون في الأزياء وفي آداب الاجتماع وفي أساليب العيش وأنماط الحياة.

وقد نشأ عن هذين التيارين المتباينين تناقض في الحياة المصرية، التي جمعت بين المحافظة المتزمتة، وبين التطرف في الأخذ بأسباب المدنية الغربية، وبين التوسط الذي يأخذ من كل من الاتجاهين بنصيب..»[2].

---

(١) انظر صـ٤٥ وما بعدها مرجع سابق، وللمزيد انظر كتاب العرب والنموذج الأمريكي د/ فؤاد زكرياً مرجع سابق.

(٢) ظلام من الغرب صـ١١١ وما بعدها بتصرف، مرجع سابق .

ويمضى الشيخ الغزالى فى بيان خطورة التقليد الأعمى للغرب دون التمييز بين ما ينفع وما يضر، وما هو خير وما هو شر يقول:"..إن أنصبتنا من التقدم العام لا تزال قليلة مخزية، وقد تسأل: مَن الذي يحمل تبعة هذا التخلف؟إنهم الرجال الذين اتصلوا بالغرب ولم يحسنوا فهمه ولا النقل عنه.إنهم ـ في نظري ـ المتهمون الأوائل في هذه القصة..!! إن الحضارة الحديثة لباب وقشور، وعمل وترفيه، وجد ومجون.فمن ينقذنا من أقوام لا يريدوننا إلا مقلدين للقشور والمجون والترفيه فحسب؟.. إن الشرق الإسلامي في مطالع يقظة جديدة، وهو أحوج إلى العمل منه للعبث، بل إنه قد يكلف بتضحيات ومغارم ثقيلة، بإزاء طمع المستعمرين وإصرارهم.

ومن نكد الحظوظ أن يبتلي بمن يصور له المدنية الحديثة خروجًا على مقتضيات الإيمان والخلق، ولا يصورها له على أنها ارتقاء إنساني في استغلال الكون، ومماشاة الفطرة المستقيمة بين جماهير الأحياء"[(١)].

وفي كتاب حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام والأمم المتحدة، يعقد الشيخ الغزالى رحمه الله مقارنة بين الغرب والإسلام فى علاقة الرجل بالمرأة وما ينجم عنها من كوارث وآثام وصلت عدواها إلى بلادنا بفضل المقلدين لها والمولعين بها يقول:"إن الغرب قليل الاكثراث بالحلال والحرام في علاقة الذكر بالأنثى، لكن الإسلام ـ على العكس من هذا التحلل ـ شديد الاكثراث بهذه العلاقة، شديد الحساسية بكل عوج يتهدد الأسرة قبل تكوينها وبعده.

ولقد فحشت نسبة اللقطاء في عواصم الغرب، واهتمت الحكومات هنالك ببناء الملاجئ لاستقبالهم، وارتفعت الأصوات تطلب التسوية بينهم وبين الأبناء الشرعيين !! ومستقبل الأسرة تتهددها أمواج من الآثام الطاغية حتى ليوشك أن يغرق فيها.

ونحن مصابون ـ والكلام للشيخ الغزالي ـ بالقردة التي تقلد في الشر، وتزوق صورة للأمة الإسلامية فهي تطلب بقاء التبرج الذي تسرب إلى مجتمعنا،وتكره اعتراضه وتوسع دائرته بالقلم واللسان، وهي الشفقة على اللقطاء.. وتريد أن يعترف القانون بهم اعترافه بالأبناء الشرعيين.

وهي تغري المرأة في كل مكان ، وتنادي ببناء دور حضانة تودع فيها النسوة العاملات أولادهن، مع أن الحرف والوظائف التي تساق لها أولئك العاملات يمكن أن يسدها الشباب العاطل ، وما أكثره ..!!"[(٢)]

إن هذا التقليد الخاطئ والخطير ـ الذى أشار إليه الشيخ ـ جر على الأمة الإسلامية ألوانًا من البلاء والفساد ظهرت آثارها واستفحل شرها، ترى ذلك جلياً في الاختلاط المريب بين الرجال والنساء،

---

(١) المرجع السابق صـ٢٥٢ ، بتصرف.

(٢) حقوق الإسلام بين تعاليم الإسلام والأمم المتحدة صـ ١٣٠ ، ١٣١، مرجع سابق .

وكذلك التبرج وانحرافات البنين والبنات فى الجامعات، وأنواع الزواج الفاسد والباطل بدعوى الحرية الشخصية، ناهيك بالمجون والزنا والشذوذ والتعاطى للمخدرات والعقاقير المنشطة والأمراض المستعصية كمرض نقص المناعة المسمى بـ(الإيدز) والأمراض القلبية كالخضوع بالقول والأغانى الهابطة والأمراض العضوية، والأفلام الإباحية والنظرات والقبلات والمخادنة والمخاللة، كل ذلك وغيره ما كنا نعرفه فى بلادنا العربية والإسلامية، ولكن زحف إلينا من الغرب.

والخطير فى الأمر أن بعض هذه المخالفات ـ كمخالفات الأفراح ـ تجد من يروج لها ويسعى فى نشرها، بل ونرى بعضها فى شوارعنا ومدارسنا وأعيادنا تُفرض قسراً على مسامعنا وأبصارنا وعبادتنا وشعائر ديننا وسكينتنا في بيوتنا.

ولقد حضرت عشرات المنازعات بين الجيران وأهالى الزوجين بسبب هذه الأمور.

ويصل الحال إلى الخصام والصدام، وإلى فسخ الخِطبة وأحياناً الطلاق.

وهذا يزيد المجتمع ضعفًا على ضعفه، وخلافًا وشقاقًا على ما فيه من خلاف وشقاق.

* * * * *

الفصل الثالث:

الآثار المترتبة على ضعف الوضع الاجتماعي وما نتج عنها من مشكلات

وفيه خمسة مباحث

المبحـــث الأول : هجرة الكفاءات العلمية ، والعمالة المدربة خـارج البـــلاد.

المبحث الثاني : زيادة الأطماع الدولية ، والتقلبات الفكرية والســـياســـية.

المبحث الثالث : انتشار الأمراض النفسية ، والسلوك الانطـوائي والســـلبي.

المبحث الرابع: الزواج بأجنبيـــات واستخـدام المربيـــات غير المسلمـــات.

المبحث الخامس : ظهور المشكلات الاجتماعية الخطيرة ومنها على سبيل المثال :

١ - مشكـــلات الغــذاء والـــدواء والسكـــن.

٢- مشكلات العمــل والبطـالة، والمــوارد المالية.

٣- مشكلات التعليم والارتقاء بالمستوى الفكري.

المبحث الأول: هجرة الكفاءات العلمية، والعمالة المدربة خارج البلاد.

هذا أثر ناجم عن ضعف الوضع الاجتماعى فى بلادنا، فكم من كفاءات علمية وفنية فى مجالات شتى هجرت البلاد وذهبت إلى الخارج لتجد نفسها، ومن يعرف قدرها ويثمن جهدها، ويأخذ بيدها ويقدم لها العون المادى والمعنوى لتكمل أبحاثها العلمية، أو مشاريعها الإنتاجية، أو مخترعاتها الأولية، حيث المعامل المجهزة والمواد الخام والإمكانات المالية والمشجعون والمتعاونون.

وأعتقد أن هذه المسألة لاتحتاج إلى دليل، سيما والعقود القريبة الماضية مليئة بهجرة الكفاءات العلمية العربية عمومًا، والمصرية خصوصًا إلى أمريكا وأوروبا[١] لأن العَالِم الطموح يُحِسُّ باختناق وغبنٍ وظلم وهو يرى نفسه فى مجتمع يموج بالجهل، وربما بازدراء العلم والاستخفاف بالعلماء وأفكارهم ومخترعاتهم.

ناهيك بقلة الإمكانات، وتحطيم المعنويات بالتثبيط وإضعاف الهمم، وعدم الاكتراث بأي فكر نافع، أو عَالِمٍ عامل، أو عامل ماهر.

فى هذا الجو الداكن إما أن يموت العَالِمُ معنويًا وتموت بموته طموحاته ومخترعاته وعلومه، ومن ثَم يستسلم للواقع المرير ويعيش كما يعيش غيره وانتهى الأمر، وإما أن يقاوم ولا يستسلم، ويستعين بالله ولا يعجز، ويبحث عن أرض أخرى، وأناس آخرين يُقَدِّرون العلم والعلماء.

ولا تحسبن الهجرة إلى الخارج شيئًا هينًا مريحًا يروق لكل عالم، كلا، فكم من عالم لو وجد في بلده معشار ما يطمح إليه من عون وتقدير ما خرج من أرضه ووطنه.

والدكتور فؤاد زكريا يذكر بعضًا من الأسباب التى تبعث على هجرة الكفاءات العلمية خارج البلاد، يقول: «لعل موضوع المال هذا أن يثير مشكلة أصبحت تلقى فى السنوات الأخيرة اهتمامًا كبيرًا فى بلاد العالم الثالث، ومنها بلادنا العربية، وكذلك فى الهيئات الدولية التى تعنى بشئون البلاد النامية، وأعنى بها تلك المشكلة المعروفة باسم هجرة العلماء، أو تسرب العقول، فنحن نعانى من رفض عدد كبير من أبنائنا الذين يتعلمون فى الخارج، العودة إلى أوطانهم التى هى فى أشد الحاجة إلى خبرتهم وعملهم لكى تبنى لنفسها مستقبلًا أفضل. ومن المعترف به أن قوة الجذب التى توجد لدى بعض الدول المتقدمة، والتى تتمكن بواسطتها من احتجاز أعداد كبيرة من علماء البلاد النامية، هى من أهم العوامل التى تؤدى إلى مضاعفة معدل التقدم فى تلك البلاد، وتباطؤ هذا المعدل فى البلاد التى يهاجر منها العلماء.

---

(١) ومن قبل الأستاذ الدكتور أحمد زويل، والطبيب المصرى مجدى يعقوب..وغيرهما كثير.

والتفسير الشائع هو أن المال عامل حاسم فى هجرة العلماء، لاسيما وأن البلاد التى يهاجرون إليها قادرة على إغرائهم بأجور تزيد أضعافًا مضاعفة عن أقصى ما يحلمون به فى بلادهم الأصلية. وقد يكون عامل المال ذا تأثير بالفعل فى بعض الحالات، ولكن أغلب الظن أن هناك عوامل أخرى تنتمى إلى صميم العمل العلمى، هى التى تدفع العلماء إلى ترك بلادهم الأصلية، وتقديم خبراتهم إلى بلاد غريبة عنهم، وعلى رأس هذه العوامل وجود الجو الذى يسمح للعالم بممارسة عمله على الوجه الذى يتطلع إليه، ففى اعتقادى أن عامل تحقيق الذات يقوم ـ فى حياة العالم ـ بدور يفوق بكثير جميع التطلعات المادية، وإحساس العالم بأنه يحقق كل ما لديه من إمكانات، وبأن فرص البحث مهيأة له بلا عوائق، وبأن الجو العام فى المجتمع الذى يعيش فيه يسمح له بالمضى فى عمله العلمى دون أن تشغله الدسائس والمؤامرات والمشاغل التافهة، هذا الإحساس هو العامل الحاسم فى اختياره للمكان الذى يفضل أن يعمل فيه» [(١)].

وكما أن كثيرًا من العلماء يهاجر بقصد الشهرة والمال، أو الإمكانات العلمية والتقنية أو الراحة النفسية، كما يقول د/ فؤاد زكريا، فلا يمنع أن كثيرًا منهم أيضًا يهاجر لأسباب أخرى كالدعوة إلى الله تعالى، أو الهروب من الاضطهاد، أو طلبًا للحرية، يقول الشيخ الغزالى: «ليست الأمة الإسلامية جماعة من الناس همها أن تعيش بأى أسلوب، أو تخط طريقها فى الحياة إلى أى وجهة، ما دامت تجد القوت واللذة فقد أراحت واستراحت.

كلا كلا، فالمسلمون أصحاب عقيدة تحدد صلتهم بالله، توضح نظرتهم إلى الحياة، وتنظم شئونهم فى الداخل على أنحاء خاصة، وتسوق صلاتهم بالخارج إلى غايات معينة.

وفرق بين امرئ يقول لك: همي فى الدنيا أن أحيا فحسب! وآخر يقول لك: إذا لم أحرس الشرف وأصن الحقوق، وأُرْضِ الله وأغضب من أجله، فلا سعت بى قدم ولا طرفت لى عين »[(٢)].

وهيهات هيهات بين الاثنين، بين من يطلب الدنيا ويهاجر من أجلها، فإن وجدها فى أى مكان ركن إليها، وبين من يطلب الأخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن يعرف حق الله تعالى فيها، لا شك أن الفرق بينهما كالفرق بين الدنيا والآخرة، أو بين النور والظلام.

---

(١) التفكير العلمى، صـ٢٨١ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) فقه السيرة للغزالى، صـ٢٠٧، ط/ دار الدعوة للطباعة والنشر، ط١، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

وعن ظروف هؤلاء المهاجرين يقول الشيخ/ الغزالى رَحِمَهُ اللَّهُ: «أضحت الهجرة ـ مؤقتة أو دائمة ـ فريضة على كثير من المسلمين الذين يسعون لطلب الرزق، أو لطلب العلم، وصار مألوفًا فى عواصم أوربا وأمريكا أن نرى الألوف من العرب والهنود والأتراك وغيرهم يزحمون بعض الأحياء، وينشغلون بما جاءوا من أجله، والضرب فى أرجاء الأرض خلق إسلاميّ حسن، أما التقوقع فرذيلة تضير الدين والدنيا معًا.

لقد درست ظروف المهاجرين طورًا عن خبرة، وطورًا عن أخبار وثيقة، فشعرت بالقلق! وخيّل إلىَّ أن خسائرنا تربو على أرباحنا، وأن جماعات المغتربين والسائحين لم تجد من يعنى بها العناية الصحيحة، والسبب واضح فإن هناك سكرة عامة أبعدتنا عن قضايانا المهمة، وشغلتنا بما لا غناء فيه.

إن الحصول على العملة الصعبة قد يكون الباعث الأكبر على العناية بالمغتربين وتتبع أخبارهم، أما أوضاعهم الروحية والاجتماعية حيث يحلُّون فشأن آخر!.

وأنبه هنا إلى أن كثيرين من المهاجرين يعودون إلى أوطانهم بوجه آخر غير الذى ذهبوا به، هذا إن عادوا! أما الذين تبتلعهم الحياة الجديدة فجمهور فوق الحصر..! » (١)

إذ منهم الذين يتنازلون ـ بوعي أو بدون ـ عن بعض أحكام دينهم، وعن لغتهم العربية، ويندمجون ويذوبون في المجتمع الجديد، يتخلقون بأخلاقه، ويخضعون لسلطانه، فلم تعد لهم أيُ صلة بأوطانهم الأولى، وإن بقيت (صلة) فهي يومئذ واهية، لا قيمة لها ولا أثر ولا وزن ولا ذكر.

وعن مشكلات وآلام المسلمين فى الخارج، وتجاهل المسؤلين لأوضاعهم، يقول الشيخ الغزالى: «للمسلمين فى الخارج آلام ومشكلات لا مساغ لتجاهلها، ولست محاولًا التماس الراحة لكل ما يعانيه إخوان العقيدة الذين تركوا أرض الإسلام، واحتواهم مستقبل غامض، فمِن هؤلاء فارّون من الطغيان السياسي وجدوا طمأنينتهم في أوربا أو أمريكا إلى حين! ومن هؤلاء من تبعه الطغاة فى مهجره وقضوا على حياته! ومن المهاجرين ناس تنازلوا عن (جنسياتهم) الأولى وحملوا جنسيات البلاد التى انتقلوا إليها، وأكثرهم نسي دينه الموروث، أو بقي عليه وهو زاهد فيه!

ومن المهاجرين طلاب أرزاق لم ينقطعوا عن دينهم ولا عن وطنهم، ولكن استغرق أوقاتهم وأعصابهم طلب القوت لأنفسهم وأهليهم! وفيهم من كان اسمه محمدًا، ولكن الكنديين أو غيرهم يبغضون هذا الاسم أشد البغض، ويستحيل أن يفتحوا لحامله باب رزق، فهو يتنازل عنه إلى اسم آخر، كى يحيا على أى وجه! وفيهم طلاب علم انتسبوا إلى جامعات معروفة، وكانوا من قبل غير متشبثين بالتعاليم الدينية، فلما وجدوا التعصب المقابل اعتصموا بدينهم، والتزموا حدوده!وفيهم من أمره فرط، وشهواته جامحة، وجد

(١) الحق المر، صـ١٤١، بتصرف يسير، مرجع سابق .

المجال هناك ميسورًا لفنون اللذات، فأخذ يركض فيها كأنه حيوان مسعور! وفيهم من انتقل إلى الخارج ببدنه، وبقي روحه معلقًا بمواطنه وشعائره، فهو يحن إليهما أبدًا، ولا يسليه عنهما شئ.وفيهم من كان وثيق الصلات بالإسلام، عارفًا بعلل الأديان الأخرى، فبدأ جريئًا يأخذ ويرد، ويهاجم ويدافع، وقد يستطيع أن يجتذب آخرين إلى دينه بالجدال الحسن، والاستعراض الجميل. وفيهم من بقي عزبًا، وفيهم من تزوج، وفيهم من أنجب ونَشَّأَ أولاده على دينه، وفيهم من فقد نفسه وزوجته وأولاده واستقر فى القاع.وما أغالط نفسي فأهوِّن خسائر الإسلام فى هذه الهجرات المتتابعة، لقد خسر الكثير بلا ريب! فهل المسلمون فى الوطن الأم ـ أعنى دار الإسلام الرحبة ـ يعرفون شيئًا عن هذا؟ وهل لديهم أجهزة ترصد وتسجل؟ كلا! إنهم فى رقاد عميق!

ومن المقطوع به أن جماهير المسلمين المهاجرين ـ وهم ألوف مؤلفة ـ يمكن استبقاؤهم على دينهم، بل يمكن جعلهم طلائع لنشره، لو أرادت الأمة الإسلامية ذلك وعملت له..» (1)

والأمة تريد ذلك وتعمل ما في وسعها، لكننا ندعوا الحكام والمسئولين إلى الاهتمام بهذه المسألة لأن لديهم إمكانات، ويملكون سفاراتٍ وعلاقاتٍ دبلوماسيةً معترفًا بها دوليًّا ويمكن من خلالها عمل الكثير والكثير للدين والدنيا معًا.

ولم يقف الحال على من هاجروا سلفًا أو لايزالون يهاجرون إلى الخارج، بل في الداخل مآسٍ تدفع المتميزين والمتفوقين باستمرار إلى ترك البلاد التى ولدوا ونشأوا فيها، خصوصًا الريف والمحافظات الصحراوية؛ لأنهم لم يجدوا فيها من يأخذ بأيديهم ويعينهم على الفلاح، فخرجوا منها مكرهين ـ كما خرج غيرهم إلى الخارج ـ ولسان حالهم يقول: .. لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت، وهؤلاء منهم من عاش ومات وتزوج وأنجب خارج وطنه ولم تستفد البلاد منه بشيءٍ.

والخلاصة: أن الدكتور/ فؤاد زكريا يرى أن هجرة الكفاءات إلى الخارج واستوطانهم البلاد التي هاجروا إليها يحرم بلادهم من علمهم وخبرتهم، وعلى المسئولين في البلاد أن يوفروا لهؤلاء العلماء ما يحتاجون إليه من مال وراحة بال وإمكانات تساعدهم في الوصول إلى ما يتطلعون إليه، فالمشكلة عند الدكتور/ فؤاد مشكلة مال وإمكانات

والشيخ/ محمد الغزالي يوافقه في أن المال والإغراءات المادية الباعث الأكبر لهجرة هؤلاء العلماء، إلا

---

(١) مستقبل الإسلام خارج أرضه، صـ٧٧ وما بعدها، ط/ دار الشروق، ط ١، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

أن المشكلة الأكبر والأخطر هي ما يعاني منه المهاجرون في بلادهم، وفي البلاد التي هاجروا إليها من تضييق على حرياتهم وعقائدهم لدرجة تصل إلى تتبعهم وربما قتلهم أو إغرائهم للتنازل عن أفكارهم.

الأمر الذي يدفعهم لترك جنسياتهم وعدم الرجوع إلى بلادهم، وعلاج هذه المشكلات يكون بتوفير ما يحتاجون إليه من مال وإمكانات وحريات حتى لا يهاجروا.

ومن هاجروا لأسباب أخرى كالتعليم والتجارة يجب على المسئولين في الدولة حمايتهم مما يتهددهم، ليبقوا على دينهم وهويتهم، وليكونوا سفراءَ وطلائعَ ودعاةً في هذه البلاد التي هاجروا إليها.

وذلك على المسئولين يسير وفيه للبلاد والعباد خير كثير.

وأخيرًا أسأل الله تعالى أن يرزق المسئولين فى البلاد الصدق فى القول والعمل.

وأن يفطنوا لهذه المسألة الخطيرة، حتى لا تتسربَ الكفاءات إلى الخارج، أو تموتَ فى الداخل، فيموتَ بموتها خلق كثير، وهذه مصيبة كبرى، وخسارة عظمى.

وبعد ذكر الهجرة وهروب الكفاءات وذوي الخبرة والمال إلى الخارج يجدر بي أن أذكر بعض أطماع الدول الكبرى وأهدافها الفكرية والسياسية.

وهذا ما سأذكره ـ إن شاء الله ـ في المبحث التالي.

المبحث الثاني: زيادة الأطماع الدولية، والتقلبات الفكرية والسياسية.

الأطماع الدولية فى بلادنا كثيرة ومتنوعة، ولا يخفى على أحد ما نتج عنها وما ينتج من تقلبات فكرية وسياسية فهو واضح لكل ذي عين وحس. وتأتي في مقدمة هذه الأطماع أطماع إسرائيل والدول الكبرى التي احتلت بلادنا عسكريًا، ولايزال بعضها يحتله ـ بنسب متفاوتة ـ فكريًّا وثقافيًّا وسياسيًّا.

وهذا واضح وتؤكده العلاقات والاتفاقيات القائمة بين الدول العربية من جهة، وأمريكا وإسرائيل وأوروبا من جهة أخرى، وكذلك الواردات والصادرات، وتبادل المعلومات والاستفادة من الثروات.

ناهيك بالتنافس المحموم بين هذه الدول (الغربية) وبين روسيا ودول شرق آسيا (الصين والهند واليابان) على النفوذ والتدخل والتغلغل الفكري و السياسي والاجتماعي في بلادنا، فتحت عنوان/ التغلغل الأمريكي في عقولنا وسياساتنا يقول د/ فؤاد زكريا: «أعتقد أن العالم يشهد في السنوات الأخيرة مدًّا أمريكيًا واسع النطاق، وصل إلى حد محاربة حركات التحرر الوطني أينما كانت.. وفي مصر ـ مفتاح الشرق الأوسط ـ تسير السياسة الرسمية في اتجاه التحالف الصريح مع أمريكا على جميع الاتجاهات، وحيث يتوقع الأمريكيون من المعاهدة المصرية الإسرائيلية أن تكون الخطوة الأولى فى طريق السيطرة الشاملة على المنطقة، والقضاء على الحركات المعارضة.. ولكنى أود أن أركز حديثى على منطقتنا وأستطيع أن أقول: إن آمال أمريكا في المنطقة قد انتعشت إلى أقصى حد فى السنوات الأخيرة، ولكن الأهم من ذلك أن هناك مدًّا أمريكيًا داخل عقولنا ونفوسنا »[(١)]

ويرى د/ فؤاد زكريا أن أطماع هذه الدول تستهدف الثروات وعلى رأسها البترول، وكذلك الثقافات وفي القلب منها الاستيراد والاستهلاك لتبقى هذه البلاد سوقًا مستهلكة للمنتوجات والصناعات الواردة من الدول الكبرى، ويلقي د/ فؤاد باللائمة على المسئولين فى المجتمعات البترولية، يقول:«إذا علمنا أن إقبال المجتمعات الإسلامية البترولية على شراء سلع الدول الصناعية، يزداد يومًا بعد يوم... فهكذا تكتمل حلقات المؤامرة، فالإسلام البترولي يبعد أذهان الشعوب التي تدين به عن المشاكل الداخلية والخارجية لمجتمعاتنا، ولكنه لا يمس مصالح الدول الرأسمالية في البترول، ولا يمس ميولهم الاستهلاكية والتي تصل إلى حد السفاهة، والتي تسهم في إدارة عجلة الإنتاج الاقتصادى في الدول الصليبية كما يلقبها وعاظ هذا الإسلام»[(٢)]

والحق إن هذه الدول هي التي تلقب نفسها (بالصليبية) وكتبها (المقدسة) عندهم وطقوسها

---

(١) العرب والنموذج الأمريكي، صـــ٣، ٥، بتصرف يسير، مرجع سابق.

(٢) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ٣٢ وما بعدها، بتصرف يسير، مرجع سابق.

وسياساتها وحروبها التى شنتها على البلاد الإسلامية ـ وخصوصًا القدس ـ تشهد بذلك، والدكتور/ فؤاد زكريا يعرف جيدًا أسباب وأحداث وأهداف هذه الحروب، فلا داعي أن نكيل التهم لدعاة الإسلام.

نعم إن أطماع هذه الدول التي احتلت بلادنا لازالت باقية، فالمحتل قبل أن يخرج من البلاد يترك له أذيالاً وأذنابًا وأبواقًا من مُحْتَرِفي الغزو الفكري والثقافي، ليظل هذا المحتل باقيًّا له أعين وعملاء يمدونه بكل ما يُيَسِّر له الوصول إلى الهدف المقصود، وهو تجهيل العباد، ونهب ثروات البلاد، وهؤلاء العملاء يعرفهم جيدًا الدكتور/ فؤاد زكريا. وسأذكر بعضًا من الحقائق التى تؤكد ما أشرت إليه:

يقول د/ محمد عمارة وهو يناظر د/ فؤاد زكريا: «إن سقوط المعسكر الشيوعى، وتراجع دوره على الرقعة العالمية قد استنفر المجتمعات الغربية للبحث عن بديل تحشد حول عداوة شعوبها وأوليائها، فوجدت فيما سموه الأصولية الإسلامية ذلك البديل المنشود، فانطلقت مراكز بحوثهم ومؤتمراتهم ووسائل إعلامهم تدق طبول الحرب وتستنفر العالم كله.

وفي هذا الإطار كان كتاب (انتهزوا الفرصة) الذى كتبه الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون يستنفر فيه العالم المسيحي لمهاجمة الإسلام والمسلمين، ويقرر فيه أن المواجهة القادمة بعد انتهاء الشيوعية ستكون مواجهة بين المسيحية والإسلام!! وفي هذا الإطار كذلك كانت مقولة جيفانى دى بكليس وزير خارجية إيطاليا وسكرتير عام المجمع الأوربي في النيوزويك بتاريخ ٢/ ٧/ ١٩٩٠م التى يدعو فيها إلى ضرورة تقوية حلف الناتو حتى بعد هزيمة دول حلف وارسو وإلغاء الحلف نفسه، لمواجهة الخطر المستقبلى، وهو الإسلام!! »[(١)]

ويستمر د/ عمارة فى سرد الأحداث التى تؤكد أهداف وأطماع هذه الدول، ومدى التجاوب الذي وجدوه فى بلادنا، وخطورة هذا الأمر على الأمة ودينها واستقلالها.

والعجيب أن ما حذر منه الدكتور/ محمد عمارة منذ أكثر من عشرين سنة لم يُسْتَفَدْ منه ـ بالقدر الكافي ـ على المستوى الرسمي والشعبي والفكري.

يقول: «وعلى مستوى القادة وصناع القرار رأينا تهديد الرئيس الفرنسى (ميتران)[(٢)] بعودة فرنسا إلى احتلال الجزائر، إذا حكمتها الأصولية!

---

(١) أزمة العقل العربي، مناظرة بين د/ فؤاد و د/ محمد عمارة، صـ٢ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) فرانسوا ميتران (م١٩١٦ـ ت١٩٩٦) هو رجل سياسة شغل منصب رئيس الجمهورية لفترتين رئاسيتين بين عامي (١٩٨١ـ ١٩٩٥)، وكان ينتمي للحزب الاشتراكي حيث شغل منصب أمينه العام، للمزيد انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة، مرجع سابق.

ورأينا السفيرة الأمريكية بالجزائر والمسئولة سابقًا في إدارة الاستخبارات بالخارجية الأمريكية تنقل إلى الرئيس الجزائرى الأسبق (الشاذلى بن جديد)[١] قبل ٢٤ ساعة من استقالته أن اجراءات تنوى بلادها اتخاذها ضد الجزائر بالتعاون مع أوربا؛ بسبب سماحه بقيام دولة إسلامية، ورفضه لاقتراحات الجيش بالتدخل، بل بلغ الأمر (بشامير)[٢] أن يطالب قادة الدول العربية بمحاربة حماس، لأن أصوليتهم تهدد الجميع!! هذا حال القادة الأجانب كما ينقله بالدليل والبرهان د/ عمارة، وعن حال بعض العرب والمسلمين يقول: وسرعان ما تجاوبت مع هذه النغمة الوافدة جميع مؤسسات الحكم وأجهزة الإعلام فى عالمنا العربى والإسلامى، وتوحدت مصالح هذه الأجهزة فى هذه المواجهة حتى بلغ الأمر بالحسن بن طلال ولى عهد الأردن[٣] أن يصرح للنيويورك تايمز فى ٢٩/ ٥/ ١٩٩٠ بأن إسرائيل ليست هي العدو الحقيقى للدول العربية! وإنما العدو للحكومات العربية وإسرائيل هو موجة التعصب الدينى!! وينبغى قيام تعاون مشترك بين الحكومات العربية وإسرائيل لمواجهة هذه الموجة حتى لا تشهد المنطقة حربًا من باكستان إلى المغرب العربى!! وهكذا أصبح التهييج على دعاة الإسلام هو القاسم المشترك الذي يجمع بين هؤلاء في تظاهر وتواطئ لا تخطئه العين» [٤]

أعتقد أن هذا الكلام السابق واضح لايحتاج إلى تعليق، وإن كان لابد فأقول: إن هذه المطامع زادت وتضاعفت وتطورت أساليبها وأدواتها، كما زاد أنصارها من العملاء والخبثاء والسماسرة، كما زادت مبررات المنتفعين والسلبيين والإعلاميين وأعداء الدين، وذلك بسبب الطمع وحب الدنيا والجهل بمفاهيم الولاء للدين والوطن، والبراء من الأعداء والطامعين.

قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ [المائدة].

والشيخ الغزالي رحمه الله له كتاب كامل يتحدث فيه عن الزحف الأحمر وأطماع الاتحاد السوفيتى آنذاك ولا تخلو كتبه الأخرى من التحذير من أطماع الدول المناوئة للإسلام والمسلمين، وبيان خطورة البعد عن

---

(١) الشاذلي بن جديد(م ١٩٢٩ـ ت ٢٠١٢) الرئيس الرابع للجزائر، شغل منصب رئيس الجمهورية منذ ١٩٧٩ إلى ١٩٩٢ م، وكان ينتمي لجبهة التحرير الوطني، للمزيد انظر الموقع السابق.

(٢) إسحاق شامير(م ١٩١٥ـ ت٢٠١٢) رئيس الوزراء السابع للكيان الإسرائيلي في فترتين(١٩٨٣ـ ١٩٨٤) و(١٩٨٦ـ ١٩٩٢)، ولد في بولندا وهاجر إلى فلسطين في عام ١٩٣٥م.. الموقع السابق.

(٣) الحسن بن طلال بن عبد الله بن الحسين بن على، ولد عام (١٩٤٧) وهو الابن الأصغر للملك طلال، وولي عهد الأردن (١٩٦٥ـ ١٩٩٩) اختاره أخوه الملك حسين والملكة زين الشرف وليا للعهد، واستمر متقلدا مهامه حتى عزله، للمزيد انظر الموقع السابق.

(٤) أزمة العقل العربي، مناظرة بين د/ فؤاد و د/ محمد عمارة، صـ٢ وما بعدها، مرجع سابق.

تعاليم الإسلام، يقول: «.. لم تكن أجهزة الحكم مشغولة بنشر الدين.. كان الحاكم المسلم أشبه بتاجر يفخر بنفاسة ما عنده من سلع، فهو لا يحسن العرض ولا الإغراء ولا استجلاب (الزبائن) فحاجة الناس إلى الأجود ستضطرهم إلى الزحام على بابه.

على حين كانت هناك سلع مغشوشة قيض القدر لها سماسرة مهرة يسحرون بها الأعين، ويستدرجون بها السُذَّج. ومضت القرون والإسلام بما له وما عليه ينطلق هنا وهناك، ويشتبك مع القوة المناوئة فى حرب سجال، ثم تكاثرت الفتوق والخيانات فى الجانب الإسلامى، وطلع القرن الرابع عشر على أمة أنهكتها العلل، ودين ليس له رجال، فانفرط العقد كله وتفرق المسلمون شذر مذر، واستنصر بأرضهم البغاة، وحكمتهم شراذم دخيلة من الملحدين واليهود والنصارى الذين لا تصح لهم صلة بالسماء.

ما الوضع فى القرن الرابع عشر؟ استمكن أعداء الإسلام فى خناقه، فتم لهم تمزيق جماعته الكبرى أشلاء منثورة على صعيد القارات الخمس، وانشغل كل شلو بنفسه، فما يدرى عن صنوه شيئًا، ثم قامت كيانات مستقلة للمسلمين، افتقدت روح الإسلام الحقيقية، واجهت تركة ثقيلة من التخلف ومضاعفات النزف الاستعمارى لثرواتها، ولم تستطع هذه الكيانات أن تحفظ كرامة الإنسان المسلم فى داخلها، ولا أن تعترف بأيسر حقوقه فى الشورى والمشاركة فى الحكم »[١].

وعن هزيمة الاحتلال عسكريًا وانتصاره ثقافيًا وسياسيًا وإصراره على مواصلة الحرب على الإسلام والمسلمين يقول الشيخ/ الغزالي: «..ونظرة عجلى إلى الماضى، لقد أبى الأوربيون التسليم بالهزيمة التى أصابت الدولة الرومانية وأنزلت أعلامها عن إفريقية وآسيا، وانتهزوا فرصة من غفوة المسلمين واسترخائهم فشنو حربًا صليبية طويلة الآماد، هجمت فيها ألوف مؤلفة من المتعصبين القساة، كلما انتهى زحف تبعه آخر فى حركات متشنجة مشبوبة الحق، ميتة الضمير، وظلت كذلك مائتى عام دون جدوى.. والغريب أن المسلمين الذين انتصروا لم يستفيدوا من هذا النصر، ولم يأخذوا منه العبر الواضحة، أما الصليبيون الذين انهزموا فقد درسوا أسرار الهزيمة وقرروا أن يتلافوها فى هجوم آخر يدكون به أسوار الإسلام ! وأكد ذلك (لويس) التاسع فى وصييتة .

ويسوءنى أن أقول: إننى ما كنت أعرف شيئًا عن وصية (لويس التاسع) [٢]حتى الأربعين من عمرى، ومن أين أعرف ودراستنا للتاريخ رديئة كل الرداءة، ثم قرأت ترجمة للوصية المذكورة فى كتاب عن

---

(١) الفساد السياسى فى المجتمعات العربية والإسلامية ، صـ٣٩ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) لويس التاسع عاش في (واسي) ١٢١٤م ، وصار ملكًا لفرنسا (١٢٢٦ـ ١٢٧٠) هزم في معركة المنصورة في مصر، في حملة صليبية بقيادته، وأسر في مدينة (منية عبد الله) المعروفة(بميت الخولي عبد الله) بعد أن استسلم.. مات عام (١٢٧٠)، للمزيد انظر موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة مرجع سابق.

(العلاقات بين الشرق والغرب من الحروب الصليبية إلى اليوم)[١] فعرفت العلل الكامنة وراء كثير من المصائب الاجتماعية والعلمية التى نواجهها.

إن لويس التاسع يرى أن يؤخر دور السيف، ويقدم دور الخديعة!! وأن يُجَنَّدَ جيشٌ كثيفٌ من المبشرين لتحويل المسلمين عن إيمانهم، وعلى أوروبا أن تنظم هذا الجيش وتحميه. ويرى لويس التاسع أن المعالنة بالقضاء على الإسلام خطأ، ويوصى قومه باستبطان ذلك وإظهار غيره، ويرى ضرورة دراسة الشرق الإسلامى وأحواله ـ أى إنشاء طائفة المستشرقين ـ لتيسر وضع اليد الصليبية عليه، كما يرى ضرورة الانتفاع بنصارى الشرق فى الكيد للمسلمين عمومًا » [٢].

حقًا لقد استفاد الغرب وإسرائيل من وصايا لويس التاسع، فاستطاعوا بذكاء ودهاء أن يجمعوا بينها وبين التدخل العسكري الذي لا يزال باقيًا، فما الغزو الفكري إلا تمهيدٌ له يتقدم عليه أو يسير معه جنبًا إلى جنب. وهذا ما يؤكده الواقع والأحداث التى تلت وصية لويس التاسع وإلى الآن، ولقد استخدم الاستعمار بجانب الغزو العسكري لبلاد المسلمين الغزو الفكري والثقافي، وتنوع هذا الغزو وتطور وتعددت وسائله، وإن كان الهدف واحدًا وهو السيطرة على العالم الإسلامي، ونهب ثرواته والحيلوله دون قيام نهضة حقيقية شاملة فى بلاده، كي يبقى ضعيفًا تابعًا محتاجًا على الدوام.

«وقد تركزت أهداف هذا الغزو أخيرًا في خلق التخاذل الروحي، وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين، وحملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية»[٣].

وبدلاً من أن يتخلص المسلمون من آثار الهزيمة النفسية التى أرادها الأعداء، وخططوا لها بمكر ودهاء، سكتوا عنها! وما فكروا بجد أن يواجهوا هذا التحدى الخطير! حتى توالت الهزائم فأصابت الأفراد والجماعات ..الأمر الذي زاد الطين بِلَّة فظهر مع هذه السلبية في المجتمع بعضٌ من الأمراض النفسية كالانطواء والاكتئاب واللامبالاة.

وعن هذه الأمراض وأسبابها وعلاجها يكون المبحث التالى إن شاء الله تعالى .

---

(١) للكاتب: محمد على الغتيت، إذ اعتمد في مؤلفه على ترجمات الوثائق والمصادر الفرنسية نفسها، وأخذ هذه الاعترافات من أفواه المؤرخين الأوروبيين أنفسهم.

(٢) ظلام من الغرب، صـ١٢٣، وما بعدها بتصرف، مرجع سابق.

(٣) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د/ محمد البهي، صـ٤٣١، مرجع سابق، وللمزيد انظر كتاب ثقوب في الضمير صـ٧٦، د/ أحمد عكاشة، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠٠٧م، وكتاب الحقيقة والوهم في الواقع المصري صـ٤٥، ومابعدها، د/ رشدي سعيد، ط/ دار الهلال سنة ٢٠٠٢م.

المبحث الثالث: انتشار الأمراض النفسية، والسلوك الانطوائى والسلبى.

تحدثت من قبل عن: تسلل الروح الانهزامية[١] وبينت خطورة ذلك على الفرد والمجتمع، وأذكر الآن أثر هذه الهزيمة النفسية وما ينتج عنها من أمراض، أقلها الانطواء والسلبية واللامبالاة، لأن الحرمان وقلة الإمكانات، والتفكير المضني والمرهق والمتواصل والمشتبك باستمرار مع الحياة دون هوادة يصيب المرء بالإحباط والتوتر العصبي، أو البرود والسلبية، حيث لا يوجد بريق أمل أو بصيص نور يبعث على التفاؤل فى إصلاح الحال وحل المشكلات.

كل ذلك أو جله أو بعضه كفيل بإصابة الإنسان ـ إلا ما رحم ربى ـ بالأمراض النفسية وعدم التعاون مع الآخرين، أو الإسهام في أعمال البر والخير، هذا فضلاً عن قضايا الإصلاح الاجتماعي وما يتطلبه من علم وعقل وإرادة.

وهل يمكن لمريض نفسى ـ بأى درجة من درجات المرض ـ أن يكون مصلحًا اجتماعيًا، أو حتى صالحًا فى نفسه، مصلحًا لولده وزوجه، فضلًا عن أهله وأمته؟

والمؤسف أن هذه الأمراض انتشرت بمعدلات مخيفة وفى ازدياد مطرد، وهذا يؤثر سلبًا على المجتمع، تقول الدراسات النفسية : "إن الأعراض الاكتئابية قد انتشرت فى الريف بمعدل ٣٤٪ من مجموع السكان، والمدينة ٢٨٪ ففى مصر وحدها مليونا مكتئب، حيث إن من ٥ـ ٧ ٪ من الشعب يعانى الاكتئاب وتشير كل المؤشرات أن القرن القادم سيشهد مزيدًا من الاكتئاب "[٢].

ومعظم هذه الأمراض التى تصيب العقل بأى لون من ألوان الخلل لا أظن أن المجتمع برئ منها، وأن الإصلاح فى معزلٍ عنها، إذ هناك ترابط وعلاقة وثيقة ـ سلبًا أو إيجابًا ـ بين أهداف الإصلاح الاجتماعى، وبين الصحة النفسية للمصلِحين ومن يراد إصلاحهم.

والدكتورفؤاد زكريا فى ترجمته لكتاب العقل والثورة، هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية، يوافق هيجل فيما يراه من أن السلوك الانطوائى والسلبى ليس هو نهاية المطاف، بل يمكن أن يكون بداية الإصلاح؛ لأن الروح لا تتأثر، إنما هي عوارض سرعان ما تزول. يقول:".. لايمكن أن يحدث للروح شئ جديد، إن كل ما يحدث لها يسهم بمضي الوقت في تقدمها.. هناك بطبيعة الحال أمثلة للإخفاق والارتداد. والتقدم لا يحدث في خط مستقيم، بل يؤدى إليه التفاعل بين صراعات لا تتوقف عند حد.. فكل صراع ينطوى على حَلِّه..ويصبح التغير في وجهة نظر هيجل واضحة في اليقين الراسخ الذى يحدد به نهاية المسار، ففى رأيه أن

---

(١) المبحث الرابع بالفصل الثانى الباب الأول من هذا البحث.

(٢) كتاب تشريح الشخصية المصرية، صـ ٢١٣، صـ٢١٦ ، بتصرف د. أحمد عكاشة، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠١٠م .

الروح - برغم كل انحرافاتها وهزائمها، وبرغم البؤس والانحلال - ستبلغ هدفها، أو هي على الأصح بلغته فعلاً في النظام الاجتماعى السائد، ويبدو أن السلبية مرحلة مستقرة في نمو الروح، بدلًا من أن تكون هي القوة التي تحفزها إلى السير قدمًا، ويظهر التضاد في الجدل على أنه (الانطواء) لعبة مقصودة لا صراع حياة أو موت »[١]

والدكتور فؤاد يشير بوضوح إلى أن هذه هى وجهة نظر (هيجل) ويوافقه عليها، بل ويسوق عددًا من المبررات التى فى جملتها توحى بأن ظاهرة الانطواء والسلبية هى كظاهرة الشك، وهى بداية الطريق الصحيح للفهم المتنامى والتطور المطرد باستمرار الوقت والأحداث، وهذه الأمور التى يقرها د/ فؤاد زكريا هى مظاهر ضعف فى المجتمع، تحتاج إلى الانتباه والوعي والسعى نحو القوة، يقول: «..ويبدأ هيجل بتجربة الوعى العادى فى الحياة اليومية، ويبين أن هذا النوع من التجربة، شأنه شأن أي نوع آخر ينطوي على عناصر تقضي على ثقته - أي المرء - بقدرته على إدراك (الواقع) وتدفع بالبحث إلى الانتقال إلى طرق في الفهم تزداد علوًّا على الدوام.

وهكذا فإن التقدم نحو هذه الأنواع الأعلى هو عملية داخلية للتجربة، ولا ينتج بفعل عوامل خارجية، فلو انتبه المرء بدقة إلى نتائج تجربته لتخلى عن نوع من أنواع المعرفة وانتقل إلى نوع آخر، أي لانتقل من اليقين الحسى إلى الإدراك، ومن الإدراك إلى الفهم، ومن الفهم إلى اليقين الذاتى حتى يصل إلى حقيقة العمل» [٢].

ثم يقول: « ويعلن هيجل مشيرًا إلى هذه المهمة(إيقاظ الذات) أن الذات (سلب مطلق) ويعنى بذلك أن لها القدرة على إنكار كل وضع معطى» [٣].

ولا أدرى كيف (لسلب مطلق) أن ينكر منكرًا أو يقر معروفًا، فالمعلوم أن من ينكرشيئًا أو يرتضيه يميز بين المعروف والمنكر، وبهذا يوسم بالإيجابية وليس بالسلبية. فليس لصاحب (السلب المطلق) القدرة على إنكار كل وضع معطى، أو عنده من المعرفة الذاتية ما يغنيه عن غيره.

أعتقد أن السلبية والإيجابية ضدان لا يجتمعان، إن حضر أحدهما ذهب الآخر.

وللشيخ الغزالى رحمه الله كتاب كامل بعنوان/ علل وأدوية دراسات لأمراض أمتنا ووسائل الاستشفاء منها يقول فيه:«السلبية لا تخلق بطولة؛ لأن البطولة عطاء واسع، ومعاناة أشد»[٤] .

---

(١) صـ١٠٧، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـ١٠٨.

(٣) المرجع السابق، صـ١٠٩.

(٤) علل وأدوية، صـ٢١٣، مرجع سابق.

وهى مرض لا يرجى منه خير، ولا يأتى إلا بشر، والسلبية وحدها لا تغير صاحبها، فهى ليست بذرة تلقى فى تربة صالحة وحسب. إنما هى علامة توجب على المرء أن يتغير، إذ تعرفه بقدر نفسه فيراجع مواقفه فيخرج من الانطواء والعزلة والسلبية ويستفيد من غيره، لعل هذا ما أراده هيجل والدكتور/ فؤاد زكريا.

والشيخ/ محمد الغزالى يؤكد حقيقة قدرة المرء على إصلاح حاله إذا ما استخدم عقله وما وهب الله له واستفاد ممن سبقوه إلى المعرفة، يقول: « فى البيئة ما يضعفها أو يقويها، وقبل ذلك كله تجد في الإنسان نفسه ما يرجح كفة على أخرى، وما يسلم زمامه إلى الخير أو الشر، كما يريد هو لنفسه دون تدخل من أحد فى اتجاهه هنا أو هناك.

إن إيثار الوقوف عند الإشارة الحمراء، أو المروق منها والتعرض لأخطار الانطلاق الأحمق تصرف إنسانى محض، وفى هذا يقول ﷻ: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ أى لو تسامى وترفع ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٥،١٧٦] فتركه الله حيث شاء لنفسه. لابد من توكيد هذه الحقيقة، حقيقة الإرادة الحرة فى الصعود والهبوط.. » [(١)].

وكيف تكون الإرادة حرة وصاحبها مصاب بالأمراض النفسية كالخوف وقلة العزيمة وعدم الثقة بالنفس، ومن ثَمَّ البعد عن المشاركة في أي عمل إيجابي؟

أليس هذا ـ مع الأسف ـ من أخطر أمراض المجتمع إن لم يكن أخطرها على الإطلاق؟

يجب على العقلاء والمصلحين وخصوصًا العلماء بهذه الأمراض وخطورتها والمسئولين عن مكافحتها وعلاج من ابتلوا بها، وأخص بالذكر الأطباء النفسيين والمسئولين في البلاد، بما لهم من قدرة وإمكانات أن يتداركوا الأمر، ويقوموا بواجبهم نحو شعوبهم، بدءًا بالاعتراف بوجود هذه الأمراض، ومرورًا بالبحث عن الدواء الناجع، وتهيئة الأجواء المناسبة لتعاطيه، والاستعداد لقبوله وصولاً إلى التعافي والشفاء.

هذا ما يرجوه ويتمناه كل مخلص يريد الصلاح .

وبما أننا لازلنا ـ في هذا الفصل ـ نتحدث عن الآثار المترتبة على ضعف الوضع الاجتماعي وما نتج عنها من مشكلات وآفات تضر بالمجتمع فإننا ـ تكملة للفائدة ـ نذكر في الصفحات التالية خطورة الزواج ببعض الأجنبيات واستخدام المربيات غير المسلمات.

والله المستعان

---

(١) المرجع السابق، صـ١١.

المبحث الرابع: الزواج بأجنبيات، واستخدام المربيات غير المسلمات.

الزوجة أمٌ للأولاد، واختيارها على أسس سليمة أمر اهتم به الإسلام كثيرًا، كذلك اهتم الإسلام بتربية النشء، واعتبر ذلك حِمْلًا ثقيلًا يشترك في حَمله الأبوان معًا، لا يستقل به أحدهما دون الآخر طالما كلاهما على قيد الحياة[١].

لذا وجب على الزوج أن يفكر جيداً في شريكة حياته وحياة أبنائه، ويتروى في اختيارها فلا يختار إلا من تأكد لديه أنها مؤهلة للقيام بواجب تربية الأولاد خير قيام. والإسلام لا يحرِّم الزواج من أجنبيات مسلمات أو كتابيات[٢] طالما لديهن القدرة على إقامة أسرة صالحة تحافظ على القيم الإنسانية النبيلة والأخلاق الحميدة.

ولكن الملاحظ أن الزواج بأجنبيات ـ في هذا العصرـ لا يراعي هذه القيم الفاضلة، ولا الأهداف الكبرى للزواج بقدر ما يراعي المصالح المادية لكلا الزوجين أو أحدهما، كالحصول على الجنسية أو فرص العمل أو الإقامة، أو التجارة، أو التعليم في بلد الزوج أو الزوجة، بصرف النظر عن العقيدة والدين والهوية، وما يتبع ذلك من تعاليم .

وكذلك الحال في اختيار المربيات الأجنبيات، وأحيانا غير المسلمات، وغالبا غير الملتزمات المستقيمات، وأحيانا العاصيات الخاطئات المائلات المميلات.

تأمل مَن فيهن هذه الصفات مجتمعة أو بعضها، كيف يصبحن حاضنات لأبناء وبنات المسلمين؟ وهم في سن التلقي والتقليد والمراهقة وحتى البلوغ، وهي أخطر مراحل العمر، إذ تتكون فيها شخصية الإنسان وعقيدته وفكره.

والدكتور فؤاد زكريا لا يوجد له كلام في هذه المسألة، المهم عنده والمتواتر في كتبه والذي يؤكد عليه دائما هو (الفكر العلمانى) الذى لايفرق بين المرأة و الرجل، أو دين وآخر، فهو يؤكد دائما أنه لا يرضى أن يقوم المجتمع على أسسٍ دينيةٍ، أو نصوصٍ مقدسة.

ولا شك أن الزواج بأجنبيات، واستخدام المربيات بدلاً عن الأمهات لا شك أن هذا تطور وتجدد.

---

(١) ذكرت ذلك بالتفصيل، فى المبحث الثانى، الفصل الخامس من الباب الاول عند الحديث عن اعتناء الإسلام بالأسرة، وبينت أن الأم هي المدرسة الأولى للأبناء.. لذا يجب أن تُختار بعناية وعلى أساس من الدين والخلق والعلم.

(٢) على الرأي الراجح، لأن ما نزل في سورة المائدة أية(٥) لم ينسخ، ولم يقم الدليل على معارضته، مع الاتفاق على أفضلية الزواج من المسلمة الصالحة.

لكنه للأسف تطور للأسوء، سيما وهؤلاء المربيات يختلفن كثيرًا عن الوالدات وحنانهن، ويقمن بأعمالهن من أجل العائد المادي، بصرف النظر عن مسائل الدين وآداب المسلمين.

يقول الشيخ الغزالي: "..إنك مسافر تطلب القوت ـ وأخشى إذا وجدت من ترضى بك لأمر ما ـ أن ينشأ أولادك لا يعرفون صلاة ولا صيامًا، بل أخشى أن يشُبُّوا غير مؤمنين بالله ولا باليوم الآخر، وستكون زوجتك أقوى منك شخصية، وسوف تستعين بسلطان البيئة على إبعادهم كل البعد عن دينك.

ثم إن كلمة أهل الكتاب أبعد ما تكون عن وصف أهل الرجال والنساء في أووبا وأمريكا، إن التوراة والإنجيل فقدا سلطانهما على الناس! والدين في منظره العلمي لا يعدو أن يكون عطلة الأحد، أو احتفال عيد الميلاد، ثم السخط على الإسلام والنيل من محمد بسفه غريب...

أما الخمر فسيل لا يغيض، وأما الغريزة الجنسية فإن مجراها في المجتمع ممتد لا يعوقه شيء، وفي الشذوذ متسع لمن سئم الزنا!! ومن يدري فقد يعود إلينا مصابا بالإيدز..!

إن الزواج بالكتابية المحصنة كان جائزا لمسلم قدير على الإمساك بزمام بيته وتربية أولاده وفق تعاليم ربه.. فأين هذا الآن؟" (١)

وهذا الذي حذر منه الشيخ قد وقع بالفعل، فقد رأيت بعيني من أنجب أولادًا لا يعرفون شيئا عن دينهم أو لغتهم أو بلدهم، وكم نعاني من هذا الاضطراب، وقلة الاكتراث بشئون الجماعة المؤمنة والمجتمع المسلم؛ لأن جمهور هؤلاء يعيشون في حدود مطالبهم الخاصة كما تعلموها هناك، لا كما تعلمناها نحن من ديننا، ونعلمها لأولادنا في بلادنا.

ولا أدري كيف يرضى الرجل المسلم أن يخالف هدي رسول الله ﷺ في اختيار الزوجة الصالحة المؤمنة التي تعينه وأولاده على طاعة الله ورسوله.

قد يكون بينه وبين أهله أو مجتمعه خصومة تمنعه من الزواج منهم، وقد يكون متطلعا للمال والجمال، ولكن ليعلم أنه ليس بينه وبين دينه خصومة تحمله على العصيان، وأن المال والجمال لا يقومان مقام الدين.

إن من يترك الصالحات ويتزوج بأجنبيات غير صالحات يخالف تعاليم دينه، وسنة نبيه ﷺ وسنن الصالحين.

---

(١) قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، صـ٢٠٣ ومابعدها، مرجع سابق .

ويكفي أن أذكر قوله ﷻ: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم:٢١]

وقوله ﷺ:(إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[١]

وقوله ﷺ:(تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[٢]

وفي غيبة الأم تكون المربية(الدادة) هي الأم البديلة، لذا يجب أن نعيد النظر في اختيار المربيات، ولا نأمن في تربية أولادنا إلا لأهل الإيمان والتقوى، وليس أهل الضلال والمعصية.

هذا واجبنا نحو أولادنا، وسنسأل عنه بين يدي ربنا سبحانه.

وبعد حديثنا عن الزواج بأجنبيات، واستخدام المربيات غير المسلمات، وخطر ذلك على الأولاد والمجتمع يجدر بي أن أذكر أهم المشكلات التي تعيق عملية الإصلاح الاجتماعي.

وهذا ما سأذكره بعون الله في المبحث التالي.

---

(١) رواه البخاري في العلل الكبير من حدبث أبي هريرة ﷺ برقم(١٥٤) وقال مرسلا، ورواه الترمذي في سننه من حدبث أبي حاتم المزني، كتاب النكاح، باب إذا جاءكم من ترضون دينه، برقم(١٠٨٥)، صـ٢٩٠، وقال حسن غريب، مرجع سابق، وأخرجه أبو داوود في المراسيل(٣٠٥)، وذكره الألباني في إرواء الغليل(١٨٦٨) وقال حديث حسن.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، برقم(٥٠٩٠) صـ٧٤٦، مرجع سابق، ورواه مسلم من حديث أبي هريرة أيضًا، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، برقم (١٤٦٦) صـ٣١٩، مرجع سابق.

المبحث الخامس: ظهور المشكلات الاجتماعية الخطيرة فى المجتمع.

هذا أثر ـ أيضًا ـ من الآثار الناجمة عن ضعف الوضع الاجتماعي في بلادنا، مجتمع يعج بالشكوى من تردي الأوضاع العلمية والإعلامية والاقتصادية والخلقية، ويعتمد فى حياته وثقافاته وفنونه وآدابه وفي تربية وتعليم أولاده على الأجانب.

لا شك أن مجتمعا كهذا - مقصر فى حق نفسه ودينه ـ مليئ بالمشكلات المعقدة التي أعيت المصلحين منذ عقود وإلى الآن، فهي لا تُعالج في بلادنا إلا بالمسكنات الأشبه بالإسعافات الأولية التي لا تفي ولا تكفي ولا تشفي عليلًا، ولا تغني ولا تسمن من جوع.

وسأقتصر في هذه الدراسة على ثلاث مشكلات فقط لأهميتها وقوة تأثيرها:

المشكلة الأولى: مشكلة الغذاء والدواء والسكن.

المشكلة الثانية: مشكلة العمل والبطالة والموارد المالية.

المشكلة الثالثة: مشكلة التعليم وتدني المستوى الفكري.

هذه المشكلات الثلاث أعتقد أنها من أخطر المشكلات الاجتماعية، وأعقدها وأقدمها في بلادنا، إذ إنها ظهرت منذ زمن بعيد [(١)] وفشلت كل الحلول في التصدي لها والقضاء عليها.

أولاً: مشكلة الغذاء والدواء والسكن.

لا حياة بدون غذاء، ولا صحة ولا عافية بدون دواء، ولا استقرار بدون سكن، فمن لا يملك هذه الأشياء كيف تراه يحيا كريمًا عزيزًا؟ وكيف يتفاعل مع غيره تفاعلا إيجابيا منصفاً سوياً؟ كيف يصلح نفسه ويسهم في إصلاح مَن حوله؟ هذا على المستوى الفردي، ولقد تحدثت ـ مِن قبل[(٢)]ـ عن مشكلات الشباب، والآثار المترتبة عليها.

أما على مستوى الدول والشعوب، والتأثير والتأثر في مجريات الأحداث الإقليمية و الدولية. تُرى كيف يكون حال هذه الدول التي لا تملك قوتها أو دواءها أو سلاحها أوضروريات حياة أبنائها؟ هل تملك قرارا؟ هل لها إرادة؟ وإذا كان لها إرادة هل هي قادرة على إنفاذ إرادتها؟ أوـ على الأقل ـ فرض احترام إرادتها، ومعاملة الغير لها بندية وسيادة وتقدير؟

---

(١) بدأت هذه المشاكل في الظهور تدريجيا منذ سنة ١٩٥٠م.. ثم اشتدت وتفاقمت.. انظر كتاب المجتمع المصري، صـ٢٧٣ وما بعدها، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب جامعة القاهرة، مراجعة أ.د/ محمد حمدي إبراهيم، طبعة خاصة بالكلية سنة ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥م.

(٢) في الفصل الثالث، المبحث الثاني الباب الأول، الصعوبات والمشكلات التي تواجه الشباب في التعليم والتدريب والإنتاج.

أليس حقا أن الفكرة تكون من الرأس عندما تكون اللقمة من الفأس؟

والدكتور/ فؤاد زكريا يعترف بوجود هذه المشكلات فى بلادنا كما يعترف بتأثيرها على الفرد والمجتمع، إلا أنه يربط بينها وبين زيادة الإنجاب.

يقول: "ليس المرء في حاجة إلى أرقام أو جداول إحصائية، لكي يقرر أن العالم يعاني منذ الآن من أزمة مستحكمة في الغذاء. ففي العالم أغلبية السكان لا تحصل من الغذاء على الحد الأدنى اللازم لكي يحيا الإنسان حياة سليمة، وفي أقلية متخمة يعاني كثير من أفرادها من العلل والأمراض الناتجة عن الإفراط في المأكل، وإذا كان النقص في كمية الطعام التي تحصل عليها الأغلبية الفقيرة خطرا، فإن النقص في نوعيته أخطر. فالغذاء اللازم لبناء الجسم لا يتوافر إلا بنسب ضئيلة لدى شعوب كاملة، وهو يهدد الأجيال الجديدة، في مناطق شاسعة من الأرض بنمو جسمي وعقلي غير مكتمل.

ومن المؤكد أن هناك ارتباطا وثيقا بين مشكلتي الغذاء والسكان: فالازدياد الرهيب في عدد السكان يؤدي إلى تضاعف الطلب على الغذاء، على حين أن موارد العالم من الغذاء محدودة"[١].

ولقد ذكرت وجهة نظر د/ فؤاد زكريا فى حل هذه المشكلات، ودَعوته إلى تحديد النسل بقوة القانون..[٢] وها هو هنا يؤكد على ضرورة الحد من الزيادة السكانية، ويضيف إليها طلباً آخر، مساعدات الدول الغنية للدول الفقيرة.

يقول: "ولعل مما يزيد من قوة الارتباط بين مشكلة الغذاء ومشكلة السكان، أن البلاد التي تعاني من نقص واضح في التغذية، هي تلك التي يزداد عدد سكانها بمعدلات سريعة، على حين أن البلاد التي تتمتع بمستوى جيد في الغذاء هي عادة بلاد تقل نسب الزيادة في سكانها، وربما استقر عدد سكانها عند مستوى معين منذ مدة طويلة. فالازدحام السكاني وارتفاع نسبة المواليد مرتبط ارتباطا وثيقا بسوء التغذية.

ولكن هل يعني ذلك أن البشرية ستقف عاجزة عن إيجاد حل، وستنتظر المجاعة المحتومة دون أن تحرك ساكنا؟ وهل المخرج الوحيد من هذه الأزمة المرتقبة، والتي ظهرت بوادرها بوضوح منذ الآن، هو أن تتوقف الزيادة في سكان العالم، وخاصة في البلاد الفقيرة؟ لاشك أن هذا الحل لا يتناول إلا جانبًا واحدًا من جوانب الموضوع، وهو يفترض أن عدداً كبيراً من الأوضاع الجائرة في العالم لن يطرأ عليه أي تغيير...

على أن هذا الحل يغفل عددًا هائلًا من العناصر الأخرى، والتي يرجع الكثير منها إلى عوامل خارجة تماما عن إرادة البلاد الفقيرة، . وهو يتجاهل مثلا أن هناك بالفعل بلادٌ غنيةٌ، كالولايات المتحدة، تدفع

(١) التفكير العلمي، صـ ٢١١ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) في البحث الرابع، الفصل الثانى، الباب الاول، تحت عنوان/ مشكلات الطفولة وكيفية التغلب عليها.

للمزارعين إعانات طائلة من ميزانيتها السنوية كيلا يزرعوا حقولهم؛ لأن زراعة هذه الحقول وإنتاج كميات وفيرة من المحاصيل يؤدي إلى انخفاض السعر العالمي لهذا المحصول، وهو يغفل أن زيادة السكان ترتبط بعوامل من بيئة الأمية والتخلف الاقتصادي والاجتماعي، وأن هذه العوامل ترجع أساسا إلى خضوع كثير من البلاد الفقيرة لدول استعمارية كانت حريصة على استمرار تخلفها حتى تضمن استسلامها لها، وأن ذيول هذه السياسة ظلت باقية حتى بعد تخلص هذه الدول من قبضة الاستعمار المباشر. »[(١)]

وهذا حق ويمثل تحديًا كبيرًا، ولكن لا يُواجه بالحلول التي وضعها د/ فؤاد زكريا والتى لا تخرج عن فكرة تحديد النسل، وطلب المساعدات من الدول الأخرى، بل يجب على الشعوب والحكام معًا التصدى لهذا التحدى بالعلم النافع، والعمل الجاد والإنتاج الوافر والمفيد، وذلك بإحياء الأرض الموات، والاعتماد على النفس فى استخراج خيراتها وكنوزها، وتطوير الصناعة والزراعة والتعليم والإعلام، ليعلي من قيمة العمل، وتفعيل فريضة الزكاة، والتكافل الاجتماعى والعدالة الاجتماعية، وحراسة الحقوق ومواجهة المفسدين.

والشيخ الغزالي يتفق مع د/ فؤاد زكريا في إقرار هذه المشكلات وحتمية التصدي لها، لكنه يرى أن هذه المشاكل ليست ناجمة عن قلة الموارد اللازمة لبقاء الإنسان، وإنما هي مشاكل صنعها الإنسان نفسه، وذلك بسبب عدم مقاومتها والتصدي لها، يقول: «إنه لمن الأمور الخطيرة التي تسترعى الاهتمام أن العالم المعاصر يمر بمرحلة من الأزمات التي تهدد كيان الحضارة الإنسانية، وليس هذا بسبب نقص في المصادر الأساسية اللازمة للبقاء على المستوى الرفيع لثقافة الإنسان ومستوى معيشته، ولكن ما يهدد كيان الحضارة يكمن في أن الإنسان المعاصر نفسه يقف عاجزا أمام الاستفادة الكاملة للمواد الوفيرة التي من الله بها عليه: فبفضل العلم المتقدم ونظم التقنية والطاقات الاقتصادية استطاع الإنسان أن يحقق تقدمًا علميًّا وتقنيًّا ونموًّا اقتصاديًّا هائلاً.

لكن تقدمه الرائع هذا لم يصحبه تطور مماثل في قواه الروحية والمعنوية. »[(٢)] لأن العزيمة والإرادة لا يأتيان من فراغ، ولا يُلْهَمُ المرء بهما وحياً من وراء حجاب، وإنما يحتاجان إلى عقيدة، وتحفيز من حكومات رشيدة، وعلماء خبراء بشئون الدنيا وشمولية الدين لجميع مناحى الحياة، وقدرته على علاج جميع الأمراض التى انتشرت بكثرة فى بلادنا فأضرت العقل والجسم معاً.

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) الإسلام والطاقات المعطلة، صـ٢٠٣، ط/ ٤، ط/ دار التوفيق النموذجية، سنة١٤٠٤هـ- ١٩٨٣م.

يقول الشيخ الغزالي: «في مصر أمراض متوطنة كثيرة، تنبعث من الديدان المنتشرة في تربتها ومياهها، والغبار المنبث في جوها يرمد العيون. وثمة أمراض أخرى فتاكة تنشأ من قلة التغذية وكثرة الإرهاق، وسوء توزيع الأعمال والأموال والعلوم المختلفة.والتقدير المالي لقيم النفوس والأجسام يفرض على الحكومة العاقلة الراشدة أن تحارب الأمراض بكل الوسائل التي يملكها البشر. ذلك فضلا عن التقدير الأدبي لقيم الناس، وضرورة إنقاذهم من الغوائل التي تأتي على عقولهم وقلوبهم؛ فيما تأتي عليه من أجسامهم وقواهم المنتجة.

إن الجائع لا يحتاج إلى وحي من السماء، يقال له: كُل.والمريض لا يحتاج إلى وحي كذلك يقول له: استشف.بل الناس- بفطرتهم- تحت سورة الجوع والمرض يتطلعون إلى الغذاء والدواء.

فمن التمسح الباطل بالدين أن تقصر في توفير الأغذية والأدوية، ثم نرسل - بدل ذلك- جملة من الوعاظ.

لقد(أُممت) مهنة الطب في بلاد كثير، وأضحى لكل مريض حق واجب على الدولة أن تتعهده حتى يشفى، مهما بلغت نفقات دوائه.والتأمين الصحي على حياة الجمهور لا تستكثر في سبله الألوف. وإنها لجريمة أن تتاح فرصة التداوي للأغنياء؛ بل لكلابهم في مستشفيات خاصة، وأن يرمى بغيرهم في الطريق. وأخشى أن تضطرب العلائق بين العمال وأصحاب العمل، فتستعين الحكومات برجال الوعظ؛ لتسكين الخواطر وتهدئ الثوائر، بدلا من الجنوح إلى الحلول الصحيحة الواجبة في أمثال هذه المشكلات؛ لأن الأمر لا يعدو الاستغلال الصغير للدين مما تضيق به طبقات المنكوبين والمظلومين!. »[١]

وهذا الذى أشار إليه الشيخ رحمه الله ـ مما أسماه الاستغلال الصغير للدين ـ يضر بالدين أكثر مما ينفع؛ لأن الدين يؤخذ كله لا بعضه، وقد ينخدع (بعض الدعاة) ويرددون ما يملى عليهم دون روية ووعي، فكم من حق أريد به باطل، ولقد تعلمنا أنه ليس كل ما يعرف يقال، وليس كل ما يقال حضر وقته، وليس كل ما حضر وقته حضر أهله، وأعتقد أن العَالِم المسلم الفاهم كقائد سيارة، يسير فى طريق وعر، وبه كثير من الحفر والأحجار وفيه أيضًا السائرون عكس الاتجاه، فضلا عن إشغالات الطريق، لا شك أن هذه العوامل تؤثر فى القيادة والقائد والسرعة التى يسير بها، بل وتوجب على القائد أن يتعامل بحكمة يتفادى بها الأخطاء والأخطار، ويتعامل من خلالها مع المخالفين بالقدر الذي يسمح به الدين والخلق ليحافظ على النفس والناس والسيارة.

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـ١٣٧ وما بعدها، مرجع سابق.

وكثير من العلماء يعرف ذلك جيدا، ولا يرضى لنفسه وغيره أن يُستغل الدين في أضيق نطاق، أو أن يكون وعظًا سلبيًّا لا يسمن ولا يغني من جوع، أو أن يُستغل فى نصرة المجرمين والمفسدين والمخالفين لرب العالمين، على حساب المظلومين والمستضعفين.

وكما قيل: ليس بالعلم وحده تحيا الشعوب، بل لابد مع العلم من عدل وعمل.

ثانيًا: مشكلات العمل والبطالة والموارد المالية.

هذه المشكلات لا تخفى على أحد، وأظنها لا تحتاج إلى دليل إثبات، وذلك لكثرة مظاهرها وآثارها، والمتحدثين عنها والمتضررين منها، فهي واقع ملموس طالما تحدثت عنه وسائل الإعلام، وذكره المسئولون، بل ووعدوا مرارًا وتكرارًا وعلى مدار عقود متتالية بالتصدي وإيجاد الحلول العاجلة والآجلة.

وقبل ذكر موقف د/ فؤاد زكريا والشيخ/ الغزالى من هذه المشكلات يحسن بي أن أذكر الإحصائيات الرسمية الأخيرة لعدد العاطلين في الدولة.

أصدر الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء بيانا أشار فيه إلى ارتفاع نسبة البطالة إلى ١٣.٤٪ من إجمالي قوة العمل خلال الربع الثالث من عام ٢٠١٣، ويرجع استمرار الزيادة في هذا المعدل إلى التباطؤ في الأنشطة الاقتصادية بشكل عام خلال تلك الفترة.

وأضاف الجهاز أن عدد العاطلين بلغ ٣.٦ مليون عاطل بنسبة بلغت ١٣.٤٪من اجمالي قوة العمل وبزيادة ٣٠ ألف عاطل بنسبة ٠.٨٪ ، وأن نسبة البطالة بين الشباب بلغت ٨٠ ٪التي تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ إلى ٢٩ سنة.[١]

والدكتور/ فؤاد زكريا (كعادته) يرى أن هذه المشاكل ـ وكانت في زمانه بنسب أقل ـ ترجع إلى قلة موارد الطاقة.. وحلها يتمثل فى وجود بدائل تغطى احتياجات الناس، وأنها ترتبط بمشاكل أخرى سياسية ودولية وأخلاقية واجتماعية.

فتحت عنوان/ مشكلة الموارد الطبيعية، يقول: « لهذه المشاكل وجه نعرفه في بلادنا العربية حق المعرفة، هو الوجه المتعلق بأزمة الطاقة، فمصادر الطاقة وعلى رأسها البترول أصبحت في وقتنا الراهن موضوعًا من أهم الموضوعات التي تبحثها المؤتمرات العلمية والتجمعات السياسية، والتي تتغير بسببها

---

(١) هذه إحصائية عام ٢٠١٣م أما إحصائيات ٢٠١٤ فقد نشرها موقع الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء مفصلة حسب فصول السنة الأربعة، بما يوحي بأن نسبة البطالة تراجعت قرابة ٢٪ عن العام الماضي، للمزيد من معرفة هذه الإحصائيات والتعليق عليها انظر الموقع السابق وموقع مصرس http:masress.com.elwady٢٠٠٢٣٨.

الاستراتيجيات، وتتشكل الأحلاف وتنشب النزاعات وتحاك المؤامرات، والمشكلة التي يواجهها العالم والتي أصبح على وعي تام بها في أيامنا هذه هي أن مصادر الطاقة التقليدية وخاصة البترول محدودة...

على أن الأمر المؤكد هو أن العلم لا يقف مكتوف الأيدي أمام هذا الاحتمال المخيف: فالبحث لا يتوقف لحظة واحدة عن مصادر بديلة للطاقة وعلى رأسها الطاقة الذرية.. وطاقة الحرارة الأرضية، وطاقة المد والجزر...

ويهمنا في هذا الموضوع أن نؤكد ارتباطه بمشكلات أخلاقية، كمشكلة أنانية الأجيال، وبمشكلات اجتماعية، كمشكلة التقريب بين مستويات المجتمعات البشرية. ولكن ربما كانت من أهم المشكلات العقلية التي يثيرها هذا الموضوع تلك المشكلة الأساسية المتعلقة بالقيم، وأعني بها قيمة الحياة الاستهلاكية التي تعيشها المجتمعات الصناعية الحديثة.وهذا يقتضي من الإنسان الحديث مراجعة شاملة لأهدافه في الحياة، يحدد فيها نوع الغايات التي ينبغي أن يسعى إليها ويضع على أساسها خطط المستقبل.» (١)

وهذه المراجعة لا تؤتي ثمارها ولا تأتي بخير بمجرد التمني والرغبة في مواجهة الأنانية، أوالتقليل من السلع الاستهلاكية.

صحيح نحن في حاجة إلى مراجعة شاملة لسلوكنا وأفكارنا، بل وأهدافنا في الحياة والغايات التي نسعى إليها، كما نحن في حاجة إلى وضع خطط ناجحة للمستقبل، والدكتور فؤاد لم يذكر لنا كيف تتم هذه المراجعة؟ وما المطلوب منا معها وبعدها حتى نستفيد منها؟

إن الناس إذا علموا الغاية التي من أجلها خلقوا، وطبيعة الأرض التى عليها وجدوا، وقيمة العمل في الدنيا وثوابه في الآخرة وأهميته فى الحياة الكريمة، لا شك أنهم سيراجعون أنفسهم وسيعملون ويتقنون العمل، ويبغضون الكسل.

إن الله ﷻ ذكر لنا أهمية العمل وعمارة الكون.. حيث قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١] وقال ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥].

يقول الشيخ/ الغزالي: «منذ أن هبط آدم عليه السلام وبنوه إلى الأرض وهم مكلفون بالكدح في ثراها، حتى يستطيعوا العيش، فإن أبدانهم لا تتماسك بها حرارة الحياة، ولا تواتيها قدرة الحركة، إلا بوقود متجدد من الغذاء، كلما نفد منه مقدار تبعه مقدار آخر، وهكذا دواليك دون انقطاع، إلى أن ينتهي الأجل المكتوب.

(١) التفكير العلمي، صـ٢٢٦ وما بعدها، مرجع سابق، بتصرف.

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء:٨] وكل امرئ مطالب بتحصيل هذا الطعام عن طريق (أي عمل)[١] يوافق مواهبه وملكاته. إن ينابيع الرزق كثيرة، بيد أن تفجيرها يحتاج إلى مشقة بدنية وعقلية، لابد أن يتحملها الإنسان وهو جلد. وعندما ذرأ الله الحياة الإنسانية على ظهر هذه الأرض هيَّأ شتى العناصر لخدمة الإنسان، ثم أمر هذا الإنسان أن يتزود بالخير الذي ينفعه من هذه المصادر المتاحة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [المُلك:١٥] وقد نبه النبي ﷺ إلى أن العمل للدنيا من الدين، وأنه شيمة الأنبياء والمرسلين، سواء أكان هذا العمل زراعة أو صناعة أو تجارة أو حرفة أو وظيفة.قال ﷺ: (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) [٢]» [٣]

نعم بالعمل والإيمان بقيمة العمل والاعتماد على الله ﷻ ثم على النفس تُحل مشكلات الفقر والبطالة، وتزيد الموارد المالية والمادية، وهذا ما يؤكد عليه الشيخ/ محمد الغزالي رحمه الله في كلامه السابق. أما طلب المساعدات أوتحديد النسل ـ كما يرى د/ فؤاد ـ لن يحل شيئًا من المشكلات.

<u>ثالثا: مشكلات التعليم والارتقاء بالمستوى الفكري.</u>

التعليم الجيد هو أساس الرقي والنهضة، وهو قاطرة التقدم والازدهار، ولايمكن لأي مجتمع يحرص على العزة والشرف والحياة الكريمة أن يهمل العلم، أو حتى العمل بما وصل إليه العلماء من حقائق ومفاهيم.

والعلم والتعلم عملية صعبة ومعقدة وليست بالهينة أو البسيطة، وذلك لكثرة مجالات العلم، وتعدد طرقه ونظرياته، وضروريات الحياة وعلاقتها بالتطور العلمي، كالعلاج والطاقة والتقنية الحديثة والهندسة الوراثية وإمكانية الاستفادة منها.

ولا أظن أن أحدًا ينكر حقيقة ضعف المستوى العلمي في مصر، فالواقع يؤكد هذه الحقيقة وكذلك الإحصائيات الرسمية لنسب الأمية فى البلاد.

إذ تجاوزت نسبة الأمية في مصر ٤٠٪ وهذا معدل مرتفع للغاية، كما يقول وزير شئون مجلس النواب والعدالة الانتقالية (محمد أمين المهدي) الذي أضاف في حوار له ببرنامج (الحياة اليوم) على قناة (الحياة)

---

(١) شريطة أن يكون حلالا، لا يحرمه الإسلام ولا العرف العام.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حدبث المقدام رضي الله عنه كتاب البيوع، باب كسب الرجل عمله بيده، برقم (٢٠٧٢) صـ٢٨٩، مرجع سابق.

(٣) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـ١٥٤، مرجع سابق، وللمزيد انظر كتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ٦٨، وما بعدها، مرجع سابق.

الفضائية أن وزير التعليم أوضح في اجتماع مجلس الوزراء أن هناك تلاميذ بالمرحلة الإعدادية لا يعرفون كيف يكتبون أسماءهم.(١)

هذه النسب المخيفة ترجع لأسباب أهمها:

١ـ عدم وجود إرادة صادقة تهدف إلى الارتقاء بالمستوى الفكري والعلمي في البلاد.

٢ـ عدم وجود الإمكانات المادية والمعنوية ـ لدى الأفراد ـ للنهوض بالتعليم.

٣ـ وضع خطط ومناهج غير جيدة وغير قادرة على منافسة الدول المتقدمة.

والدكتور/ فؤاد زكريا يطالب العلماء والناس بالعلم العملي وعدم الاكتفاء بالعلم النظرى والوعظ السلبى.

فتحت عنوان/ الازدواجية الواضحة بين الفكر والسلوك يقول : « من الجوانب التي تلفت النظر في الأزمة التي نعانيها في طريقة تفكيرنا تلك الازدواجية الواضحة بين الفكر النظري وبين السلوك العلمي، كثيرا ما نجد في مجتمعاتنا، وعلى كافة المستويات سواء على مستوى الفئات المثقفة أو الإنسان العادي حديثا يتسم في كثير من الأحيان بالمثالية وبالأخلاق وبالسمو إلى آخره، على حين أن السلوك الفعلي والتطبيقي يكون عكس ذلك على خط مستقيم. هذه الازدواجية خطيرة جدا؛ لأنها تحول فكرنا في كثير من الأحيان إلى مجرد مواعظ كلامية تقال فقط على سبيل إرضاء الناس في ظروف معينة، على حين أن القائل وربما المستمع ـ في كثير من الأحيان ـ لا يأخذ ما يقال بمحمل الجد، الأمثلة كثيرة جدا على ذلك في حياتنا. الأمثلة الواضحة بين دعوة الكثير من الناس إلى الزهد، في الوقت الذي يجري الكثيرون منهم وراء المنافع والمال والمناصب...» (٢)

وأنا مع الدكتور فؤاد فيما يتعلق بضرورة التطبيق العملي، وعدم الاكتفاء بالشرح النظري وإبداء الرغبة والأماني وحسب، لكن فيما يتعلق بالزهد فأقول: ليس من العيب أن نحث الناس على الزهد، طالما نعرف المعنى الشرعى والحقيقى له، فالزهد يعنى أن يملك الانسان شيئا ثم يزهد فيه، فيكون فى يده وليس فى قلبه، والفقير الذى لا يملك شيئاً لا يُعَدُّ زاهداً ولو ادعى ذلك، والبحث عن المال والمنافع والمناصب لا

(١) أماني عبد الغني يوم ١١-٤-٢٠١٤م صحيفة المصري اليوم انظر الموقع الإلكتروني للصحيفة:
http://www.almasryalyoum.com/news/details/٤٢٦٩٧٦

(٢) أزمة العقل العربي، صـ١٤، مرجع سابق.

يتعارض مع الزهد، فقد يملك المؤمن هذه الأشياء مجتمعة ويكون زاهدًا وتاريخنا الإسلامى ملئ بالنماذج التى تؤكد هذه الحقيقة. [١]

وفي موضع آخر يرى الدكتور/ فؤاد أن جيل الكبار يساعد على تفاقم مشكلات التعليم والارتقاء بالمستوى الفكرى للأجيال اللاحقة، وذلك باحتكار العلم وحبس منابعه والرغبة فى التميز يقول:« ومما يزيد في فداحة الخسارة أننا نعيش في عالم يعد فيه التقدم من الجيل السابق إلى الجيل اللاحق أمرًا طبيعبا، وتتاح فيه للشباب- في العالم المتقدم- فرص لم تكن متاحة من قبل للكبار، ويسير فيه منحنى المعرفة والإنارة الفكرية في خط صاعد على الدوام. وحين يقارن المرء بين هذا الوضع وما هو سائد في الوطن العربي، يبدو له أن جيل الكبار يستمتع بتفوقه الثقافي دون أن يشعر بأنه ـ أو على الأقل أصحاب المسئولية من أفراده ـ يحبس منابع الثقافة عن الأجيال الجديدة عمدا. وقد يعطي هذا الاستمتاع لجيل الكبار إحساسا بالامتياز، ولكن حين يكون الأمر متعلقا بمستقبل أمة فأظن أن الأمر كله يحتاج إلى إعادة نظر شاملة. » [٢]

والحق إن هذه المشكلات لابد وأن يتصدى لها الجميع الكبار والصغار، كلٌّ في موقعه ووفق قدرته وطاقته وإمكاناته، يقول الشيخ/ الغزالي: "قبل أن أدخل في هذا الموضوع أرى أن أذكر سببه في رأيي أن الأمة الإسلامية انحدرت (عقليًا) في العصور الأخيرة، وبدأ انحدارها (العقلي)[٣] يؤثر على كيان الدولة وعلى حقائق الشعوب، وانتهى هذا الانحدار بأنها انهارت عسكريا وسياسيا، فدار الخلافة تلاشت وأصبحت الأمة أنقاضًا مبعثرة هنا وهناك، وفي هذه الحال هجم علينا الاستعمار الغربي، وأنا أنظر إلى الاستعمار الغربي نظرة مزدوجة قد يكون من الناحية العسكرية احتل البلاد بجيوشة ليست هذه هي المشكلة الخطيرة.

هناك مشكلة أخطر منها، وهي احتلال العقول بثقافتهم.. الغزو الثقافي الذي استطاع أن يفعل شيئا عجيبا بتاريخ الأمة الإسلامية وهو ازدواج التعليم فوُجِد أصحاب التعليم المدني ووجد أصحاب التعليم الديني، أصحاب التعليم الديني تقوقعوا في كتبهم التي ورثوها وربما كانت لديهم دراية بالماضي، والماضي في أفضل صورة، أما أصحاب التعليم المدني فإن الاستعمار قصد قصدا أن يخرج مهندسا أو طبيبا أو صيدليا أو أخصائيا اجتماعيا أو أي شيء لا صلة له بالإسلام فهو قد يعلم من الإسلام بعض مبادئ

---

(١) كالخلفاء الراشدين، وسيدنا عمر بن عبد العزيز، وهارون الرشيد، وصلاح الدين، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين لقد زهدوا في الدنيا بعدما أقاموها وملكوا زمامها وخدموا من خلالها دينهم وعقيدتهم.

(٢) خطاب إلى العقل العربي، صـ٥٢،٥٣، مرجع سابق.

(٣) الأصوب انحدرت فكريًا... وانحدارها الفكري؛ لأن الانحدار العقلي يعني الجنون.

العبادات أو بعض مبادئ الأخلاق التي يعرفها الوثنيون » (١).

والجدير بالذكر أن الازدواجية، والانحطاط العلمي وتدني مستوى الفكر الذى أشار إليه الشيخ الغزالي ما ترك علمًا من العلوم المفيدة إلا وأصابه بشيء من العطب والخمول، وأخص بالذكر العلوم الإنسانية التي تتصل بموضوع هذا البحث، وهي العلوم التي تَدْرُس طبيعة الإنسان (كإنسان) فطره الله على حب الحياة.

أما ترى أن إبليس ـ عليه اللعنة ـ فى إغوائه لأبينا آدم وحواء عليهما السلام ـ دخل لهما من هذا المدخل الخطير حيث ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا﴾[طه: ١٢٠-١٢١] إن الإخفاق فى دراسة الإنسان وما جُبِلَ عليه، والمجتمع ومستوى تفكير أبنائه، ومدى إدراكهم لحقائق الكون وسننه وتطوراته لا يؤدي إلى إصلاح.

وكذلك الجهل بما في الأرض من ثروات وخيرات، وتناقضات ومفاسد، وتبادل منافع وتضارب مصالح، وما شرعه الله من ضوابط وأحكام ـ الجهل بها وعدم تفعيلها ـ لا يؤدي إلى إصلاح، إنما الإصلاح الحقيقي والكامل والشامل يتأتى بالعلم بما سبق ذكره، واحترام ما نزل من السماء، والأخذ بما توصل إليه العلماء وأهل الاختصاص من حقائق ومسلمات تخدم الإنسان، وتيسر له الوصول إلى الأفضل فى دنياه والأصوب في دينه.

وهذا يحتاج إلى معرفة دور الدين والعقيدة الإيمانية فى إصلاح الإنسان والمجتمع.

وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل فى مباحث الفصل الآتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) حوارات الشيخ الغزالي، صـ ١٣٧، مرجع سابق.

الفصل الرابع:

أثر العقيدة ودورها في الإصلاح الاجتماعي

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: أثر الدين على الفرد والمجتمع، وضبط السلوك الإنساني.

المبحث الثاني:الاستفادة من تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة في الإصلاح.

المبحث الثالث: أهمية الفروض الدينية في القيام بالواجبات الاجتماعية.

المبحث الرابع: الإنسان بين الرقابة الذاتية والرقابة الإلهية.

المبحث الخامس: أثر عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر في إتقان العمل.

المبحث الأول: أثر الدين على الفرد والمجتمع وضبط السلوك الإنساني.

الدين له أثر عظيم على سلوك الأفراد والمجتمعات، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو جاحد، هذا بوجه عام، أما دين الإسلام فقد تضافرت الأدلة والوقائع التاريخية والأحداث القريبة والبعيدة أنه المحرك الأول والأقوى للقلوب والعقول والجوارح، وهو الرباط المتين لأفراد الأمة، والمرشد الأمين إلى حقائق الحياة السامية والكريمة وما تقتضيه هذه الحياة من أسباب، وفرائض وواجبات، وسنن واجتهادات تتصل بسلوك الأفراد والمجتمعات.

إن قوة الدين على التأثير والإصلاح ـ فيما سبق ذكره ـ لا ينكرها مؤمن (١) خالط الإيمان بشاشة قلبه، أو مصلح يريد حقا الإصلاح ويسعى في تحقيقه، لأن الدين الإسلامي بمنهجه الفريد وشرعه الرشيد يخاطب القلوب ويوقظ الضمائر، ويلزم أتباعه باتباع الحق والخير والهدى في كل زمان ومكان.

الأمر الذي يفسح المجال دائما أمام الناس في الحياة الواقعية والمستقبلية لمعرفة حقائق القيم والمبادئ الإسلامية وفوائدها العاجلة والآجلة في الدنيا والآخرة.

والدين الإسلامي- دون غيره - هو الذي يقدر على ضبط سلوك الأفراد والأمم فى السر والعلن، وسببُ تفوقه وتميزه على قوانين البشر أمورٌ كثيرةٌ أهمها ما يأتي:

أولاً: أن الإسلام دين من عند الله، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩].

ثانيًا: لأنه يجمع بين الثبات والمرونة والاستقرار، قال ﷻ عن القران الكريم، المصدر الأول من مصادر التشريع: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

ثالثًا: أن هذا الدين يربي الفرد والجماعة على مراقبة الله، ويكفى لتأكيد هذه الحقيقة ما ثبت فى الحديث أن امرأة من جهينة أتت نبى الله ﷺ وهى حبلى من الزنا، فقالت: يا نبى الله أصبت حدًّا فأقمه عليّ(٢).

---

(١) حتى الملاحدة الدهريون، يعترفون أن الدين يؤثر تأثيرا مباشرا على الفكر والسلوك لدرجة تصل – على حد تعبيرهم – إلى التخدير الناجم عن تعاطي المخدرات، يقولون: الدين أفيون الشعوب، والحق إن الدين الحق إذا فهم بحق، وطبق بصدق.. فهو مكون قوي وإيجابي للعقل والسلوك.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، من حدبث عمران بن حصين رضي الله عنه كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، برقم (١٦٩٦) صـ ٣٨٩، مرجع سابق.

وكذلك قصة ماعز والغامدية، والثلاثة الذين خلّفوا، والهجرة وتحريم الخمر، ألا يدل ذلك على أن هذا الدين قادر بتعاليمه وآدابه وحدوده على ضبط سلوك الناس وأعمالهم فى كل شئون حياتهم؟

رابعًا: شمول هذا الدين لكل مناحى الحياة.

فكما أنه اهتم بالعقيدة والعبادة اهتم بضبط السلوك والأخلاق وأعمال البر، قال ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[١]. »[٢]

والدكتور/ فؤاد زكريا ـ مع الأسف ـ لا توجد له جملة واحدة عن فضل الدين الإسلامى على السلوك الإنسانى ، وما بدأ كتابًا أو مقالاً أو مناظرةً أو حديثًا وذكر اسم الله!! ولقد لوحظ ذلك عليه ووجه له سؤالٌ صريحٌ: هل أنت مؤمن؟ وماموقفك من قضية الإيمان بالله؟[٣]

إن الخطيئة الكبرى التي وقع فيها د/ فؤاد زكريا، وعاش بها وسجلها في معظم كتبه، هي المساواة في الحكم بين الإسلام ـ الدين الحق ـ وبين الديانات المحرفة والنحل المختلفة، وبين علماء الدين هنا، ورجال الدين هناك، فهو يربط دائما بين ما حدث في أوروبا، وما حدث أو يحدث في بلاد المسلمين، والعجيب أنه يفهم جيدًا الفوارق التى أشرت إليها في السطور السابقة، ويعبر عنها بأبلغ الجمل وأفصح العبارات.

تأمل ما يقول: «لماذا الدعوة إلى تطبيق الشريعة؟ الجواب: الشريعة آتية من عند الله، بينما القوانين الوضعية من صنع البشر.. وأنه لا وجه للمقارنة بين قانون يأتي من عند الله وقانون يصنعه البشر!! وكلما أحكمت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبضتها على رقابهم قالوا: أرأيتم إلى أين يؤدي بكم حكم البشر؟!!!

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة ﷺ باب حسن الخلق بلفظ (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)برقم (٢٧٤) صـ ٢٦٧، مرجع سابق، وقال الألباني: رواه الحاكم ٢ / ٦١٣ ، و أحمد ٢ / ٣١٨ ، و ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦ / ٢٦٧ / ١ من طريق ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعا . و هذا إسناد حسن ، و قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ، و وافقه الذهبي! انظر السلسلة الصحيحة ١ / ٧٥ ط/ مكتبة المعارف بالرياض بدون تاريخ.

(٢) للمزيد انظر كتاب الخصائص العامة للإسلام للدكتور/ القرضاوى، ط٥، مكتبة وهبة سنة١٩٩٩م، ذكر هذه الخصائص وغيرها بالتفصيل في الكتاب المذكور، ولقد اقتصرت هنا على ما فهمته منه، وأضفت إليه من الأدلة والعناوين والجمل ما يناسب هذا البحث.

(٣) فأجاب قائلاً:(لم يكتفِ السائل أن يفتش ما فى قلبى، يريد أن يفتش روحى من الداخل، أتمنى أن يقدم لى التفويض الإلهى الذى سمح له أن يسأل الناس عن عقيدتهم حتى أجيب!! قال أحد الحضور: هذا هروب، فرد عليه د/ فؤاد إذا كنت تعتبره هروبًا يبقى كل واحد على راحته ثم قال: يا جماعة أنا قلت من البداية كلامى مختلف عنكم ..انظر كتاب الإسلام لا العلمانية مناظرة مع د/ فؤاد زكريا، صـ٦٣ وما بعدها، مرجع سابق.

ثم يمضي د/ فؤاد مناقشًا مسألة الشورى في الإسلام، ثم يعقد مقارنة بين الشورى والديمقراطية، وبعد كلام كثير يطول ذكره يقول: «..نستنتج من هذا كله أن الهدف الأصلي الذي تسعى إلى تحقيقه دعوة تطبيق الشريعة هو هدف يستحيل بلوغه!!..لأن عملية الحكم عملية بشرية أولاً وأخيرًا، ومادام الذين يمارسونها بشرًا فسوف يقحمون مشاعرهم وميولهم في أي نص يحكمون بمقتضاه حتى لو كان نصًّا إلهيًّا»(١).

وهذا صحيح ولكن ـ أيضًا ـ ينطبق هذا على كل قانون، بل إن الناس مع قانون البشر أجرأ، وعلى تغييره أقدر وأسرع، هذا بخلاف قانون السماء، إذ إن الأول لا قدسية له، والثاني له من القدسية ما يجعل من تغييره أمرًا صعبًا يحتاج إلى تدابير أو على الأقل مبررات مقنعة وهيهات.

تأمل ما يقوله الدكتور: «هناك مجتمعات تتصور الألوهية عالية مترفعة عن عالم البشر، وتقيم نوعًا من تدرج المراتب بين هذه الألوهية وبين عامة الناس، فبعد الله يأتى الأنبياء والقديسون، ثم كبار الكهنة أو رجال الدين، ويتدرج الترتيب بعد ذلك حتى يصل آخر الأمر إلى الإنسان العادي، ولابد للارتقاء إلى كل مرحلة من هذه المراحل من المرور بالمراحل السابقة، أي أن الإنسان العادي لا يستطيع مثلًا أن يتقرب إلى الله، أو يحظى بشفاعة أحد القديسين إلا عن طريق الكاهن الذى يتوسط بينه وبينهم.

والدليل على أن هذه النظرة إلى الدين انعكاس لنظام اجتماعي يتسم أيضًا بالتدرج وتفاوت المراتب، هو أن هناك نظرات أخرى إلى الدين تختفي فيها هذه الحواجز، ويشيع فيها التقارب بين الله والإنسان، إذ يُعَدُّ الله قريبًا من البشر مستجيبًا ومعينًا لهم.

بل إن بعض المذاهب الدينية تؤكد حلول الله فى العالم، وإمكان اتحاد الإنسان به إذا ارتقى إلى مستوى معين من الروحانية، هذه الفكرة الأخيرة ترتبط بنظرة أكثر ديمقراطية إلى المجتمع البشري، لأنها لا ترتكز على تأكيد الفوارق فى المرتبة بين الموجودات، ولأنها تعطي الإنسان العادي أملاً فى بلوغ أهداف العقيدة الدينية دون حاجة إلى واسطة. وبالفعل سادت هذه النظرة فى العصور التى كانت أقرب إلى الروح الديمقراطية، على حين أن فكرة تسلسل المراتب من الأعلى إلى الأدنى كانت مقترنة بالتفاوت والفوارق التى هى أول خصائص المجتمع الإقطاعى»(٢).

---

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة،صـ١٦٣ وما بعدها ، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، صـ ٢٦، ٢٧، مرجع سابق، وللمزيد انظر صـــ١٧٣: ١٨٠ الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة، فهو يرى أن الشريعة الإسلامية وتطبيق الحدود لا يؤثر إيجابيًا على السلوك، ولا يغير الواقع، وإنما الصلاح عنده فى فهم الواقع والتعامل معه على الطريقة الأوروبية العلمانية، وبآليات الديمقراطية، وليست المفاهيم الماضية بما فيها الشريعة الإسلامية.. انظر صـــ٢٩: ٣١ كتاب الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل، مرجع سابق، وانظر كتاب نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان صـــ٦٣، مرجع سابق.

وهذا الذي ذكره د/ فؤاد زكريا يصدق على الدين الباطل، لا على الدين الحق(الإسلام) ومع أنه ـ غفر الله له ـ يعلم يقينًا أن ما يذكره هو ما قرأه وعلمه عن الملل والنحل الأخرى، وأن الإسلام وعلماءه أبعد ما يكونون عما ذكر، وشريعة الإسلام ليست كالشرائع الأخرى، وعلماء الإسلام ليسوا كقساوسة النصارى، أو كهنة المعابد اليهودية والبوذية وغيرها من الملل والنحل.

ومادام الأمر كذلك، فمن الظلم أن نسوى بين القرآن المحفوظ بحفظ الله والكتب المحرفة، وبين الملل والنحل المحرفة والدين الكامل والشامل لجميع مناحي الحياة، وبين الطقوس البشرية أو القوانين الوضعية التي أثبتت فشلها وشريعة الإسلام التي قادت العالم قرونًا فأثبتت نجاحها وصلاحها. ومع أن د/ فؤاد وضع دين الإسلام والديانات الأخرى في موضع واحد، وأجرى عليها حكمًا واحدًا دون أدنى تمييز فتأمل ما يقوله عن الفراعنة ودياناتهم القديمة، وآثارها في الحياة الاجتماعية والعلمية، يقول : « قد كان للمعتقدات والأديان الشعبية تأثير هام فى نمو معارف علمية كثيرة، وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد أهمية العقيدة الدينية عند الفراعنة فى عمليات البناء الهائلة التى تحققت تلبية لمطالب دينية، كالأهرامات والمعابد الضخمة، وكذلك الحاجة إلى تخليد الإنسان والرغبة فى قهر الإحساس بفنائه. لقد حفزتهم إلى اكتساب المقدرة الخارقة على التحنيط، والإيمان بالتنجيم، ومعرفة الطالع من التطلع إلى النجوم، وذلك أعطى بعض الناس فى تلك العهود القديمة طاقة هائلة من الصبر، أتاحت لهم أن يقوموا بملاحظات وعمليات رصد مرهقة، أضافت إلى رصيد البشرية فى ميدان الفلك معلومات لها قيمة لا تقدر » (١).

كنت أتمنى أن يذكر الدكتور/ فؤاد زكريا شيئًا عن أثر الدين الإسلامي على الحياة الاجتماعية والعلمية، كما ذكر عن الشريعة الفرعونية، لكنه ـ غفر الله له ـ ما فعل!! مع أن العدل مطلوب، ولا يكون إلا بتجرد وإخلاص، ورغبة صادقة فى الوصول إلى الحق، ومعرفته واتباع أهله، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وقد قيل: اعرف الحق تعرف أهله، إذ لابد من معرفة الحق أولاً، حتى لا نسوي بينه وبين الباطل، ثم لابد من التجرد والموضوعية، إذ لا يمكن أن يقام العدل بالمواقف المتصلبة الرافضة لشريعة الإسلام وثوابته وعلمائه والدعاة إليه، لا لشيء إلا لأنه من عند الله ﷻ وجاءنا به رسوله ﷺ وأنه تراث قديم عرفته البشرية منذ قرون، ولو كان فكرًا حديثًا مصدره العقل لكان للدكتور/ فؤاد معه موقف آخر، وهذا يذكرنا بقوله ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾ [البروج:٨ - ٩].

---

(١) التفكير العلمي، صـ١٢٧ وما بعدها، بتصرف يسير، مرجع سابق.

لذا أقول لأنصار د/ فؤاد زكريا: لابد من إعادة النظر وإعمال الفكر، بعيدًا عن الهوى والتقليد والنظر السطحي القاصر الضيق، حتى نصل إلى آفاق رحبة تجمع بين القديم والجديد فيما ينفع ويفيد، ويضبط السلوك الإنسانى ويُبقي الحق حقًا كما هو، ويبطل الباطل لأنه باطل لا بسبب أهله وما يدينون، ولا يتم ذلك ولا يكون بعيدًا عن الدين الحق بنصوصه القطعية المحكمة العادلة.

هل يمكن أن يتصور مسلم إصلاحًا اجتماعيًا أو سياسيًا أو علميًا بدون الدين الحق الذى ارتضاه رب العالمين للخلق؟ سيما فى مصر وبلاد العرب، هذه البلاد التي اختصها الله بإرسال خاتم الرسل هل صلحت وصلح أهلها إلا بالدين؟ التاريخ خير شاهد، ولك أن تقارن بين هذه البلاد وغيرها، ولتقرأ ما ذكره الله فى كتابه، والكتب التى يقدسها أصحاب الديانات السماوية، وعلى ألسنة رسله عليهم السلام وما حكاه التاريخ عن علماء هذه البلاد وأبنائها، ستجد أن الدين يُكَوِّنُ شخصية وسلوك أبناء هذه البلاد، ومن تبعهم بإحسان.

ومن أراد إصلاح هذه الأمة وأهلها بعيدًا عن الدين فقد باء ويبوء وسيبوء بالفشل الذريع، بل ويضر البلاد أكثر مما ينفعها، ويفسدها أكثر مما يصلحها، لأن هذا الدين فى هذه الأمة قديم بقدم الأنبياء، ليس نظرية حديثة خاضعة للتجربة والنقد، ولقد أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم وكُلَّ مؤمن أن يوقن بهذه الحقيقة، وأن يصدع بها فقال: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١] وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٤٠].وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] فكيف لأبناء هذه البلاد ومن تبعهم بإحسان أن يعيشوا على هذه الأرض بعيدًا عن هدي السماء؟ هذا الهدي الذي عاش به وله الآباء والأجداد فكانوا سادة وقادة وأئمة هدى ورشاد.

يقول الشيخ/ الغزالي:« لا يجوز للناس أن يتخذوا غير الله ربًّا أو حكمًا والذي يعبد غير الله جاحد للحق، خائن للنعمة، وكذلك الذي يتبع غير ما شرع، ويحكم بغير ما أنزل!!

لماذا نعطى بشرًا (ما) حق منازعة الله فى أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه؟

لماذا يملك إنسان (ما) أن يدع كلام الله جانبًا، وأن يطرحه وراءه ظهريًّا، ثم يأتى لنا من عند نفسه بأحكام يزعم أنها أولى بالاتباع من أحكام الله؟! أهو أصدق من الله؟ أهو أبصر منه بمصالح الخلق؟ أم هو أذكر لما نسي رب العالمين من حاجات الناس؟!

إن إهمال التشريع الإلهى واعتناق القانون الأرضى عبث شائن وجاهلية منكرة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا ﴾ [الأنعام:١١٤]

وقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]

الواقع أن إماتة شرائع السماء معصية كبرى، وكل ما هنالك من فرق بين هذه المعصية وبين غيرها من الرذائل أن الأفراد قد يتورطون في الإثم عن غفلة أو ضعف أو انزلاق قدم، أو سورة شهوة، أما وأد أحكام السماء فما يكون إلا عن تعمد وعلانية وقلة مبالاة بالله.

وقد توعد الله ـ جل شانه ـ من يميلون عن الحق ويجنحون إلى الهوى، فقال ﷻ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦] »(١).

انظر كيف يربط الشيخ الغزالي رحمه الله بين الإيمان بالله ووحدانيته، وبين الحكم بما أنزل والعمل بما شرع، وبين السلوك والقيام بالواجبات والقضاء على بواعث الهوى، ومن ثَمَّ فمنهج السماء ـ في الإصلاح ـ أولى بالاتباع، وأن إهماله واتباع قوانين الأرض عبث شائن، وجاهلية منكرة.

وهذا حق لا يماري فيه إلا جاهل أو جاحد أو عدو.

ولا يعني ذلك أننا لا نقبل ما وصل إليه العقل من مسلمات علمية، أو تجارب أو صناعات مفيدة، ولكننا ـ نحن المسلمين ـ نجعل قبل ذلك ما جاء به القرآن الكريم، والصحيح القطعي من السنة الشريفة، وما أجمع عليه العلماء والفقهاء منذ فجر الإسلام وإلى يوم الناس هذا، ونؤكد على ذلك دائمًا، لنجمع بين مصادر ديننا، وما نخلص إليه بعقولنا، لتتم الفائدة والغاية التى من أجلها وجدنا على هذه الأرض.

وبعد الحديث عن أثر الدين في إصلاح الفرد والمجتمع.. والإشارة إجمالاً إلى أهم مصادره ومدى الاستفادة منها نذكر شيئًا من التفصيل لتتم الفائدة.

وهذا ما سنبحثه في الصفحات التالية

(١) هذا ديننا، صـ١٩٤، مرجع سابق.

المبحث الثاني: الاستفادة من تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة.

لا أظن أن مسلمًا يؤمن بالله واليوم الآخر ويعرف حقيقة الدين الحق ينكر حاجة العالم الآن وفى كل زمان ومكان إلى وحي السماء.

إننا نقطع ونجزم أن حاجة الناس إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة تفوق بكثير حاجتهم إلى العلوم المكتسبة كلها مجتمعة. قال ﷻ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩]. وقال ﷻ: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١]، وقال ﷻ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

والفكر كثيرًا ما يتيه وينحرف، ويضل ويخزى حتى في العلوم المادية والحسية، ولا يمكن للعقول مجتمعة أن تهتدي لمعرفة الكون وما فيه من أسرار وحقائق بدون هادٍ يهديها، ومرشد يرشدها ويأخذ بيدها،ة وهذا الهادي والمرشد (هو الوحي).

وقد أشرت أن المشكلة التي عاش بها، وأظن أنه مات عليها الدكتور فؤاد زكريا[1] هي الخلط بين الإسلام وعلمائه، وديانات الغرب وكُهَّانه، والنظر إليهما بمنظار واحد، والحكم عليهما بمنطق واحد، هذه هي السوءة الفاضحة، والخطيئة الكبرى التي يقع فيها العلمانيون ولا يزالون، مع إعلانهم الدائم أنهم مسلمون،وأنهم أَغْيَر على الإسلام من غيرهم.

تأمل ما يقوله د/ فؤاد زكريا: " الإسلام وحي مباشر، والقرآن هو كلمة الله الحرفية التي لا يتناولها تغيير ولا تبديل، وقد أدى هذا الوضع في أوقات التدهور الحضاري بوجه خاص إلى حالة من التصلب وعدم المرونة إزاء كثير من التطورات العلمانية التي تتم خارج نطاق الدين، إذ تواجه هذه التطورات بنصوص دينية، تفسر تفسيرًا متزمّتًا،فتكون النتيجة عداء لا داعي له بين العلم والإيمان الديني وبطبيعة الحال فإن المفكرين المستنيرين كثيرون، وهم لا يكفون عن بذل المحاولات لمواجهة أحدث تيارات العلم

---

(١) قرأت أن كثيرًا من العلمانيين تاب إلى الله، وتراجع عن كثير من الأفكار الهدامة للدين وقيمه، مثل طه حسين، ورفاعة الطهطاوي، وعلى عبدالرازق وغيرهم، انظر كتاب د/ محمد عمارة، طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام، طبعة مؤسسة الأهرام بالقاهرة، بتاريخ سبتمبر ٢٠١٤م، صـ ٧٧ وما بعدها، وانظر كتاب الفكر الليبرالى تحت المجهر، صــــ١٠٢ وما بعدها، مرجع سابق، ولقد تتبعت كثيرًا من الشخصيات العلمانية، فوجدت فارقًا واضحًا بين كتاباتهم القديمة والجديدة، بما يوحى أن تطورًا إيجابيًا حدث لصالح الدين وأهله، انظر الخلاف بين د/ فؤاد زكريا ود/ حسن حنفى في كتاب الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صــــ٣٥ وما بعدها، سترى أن د/ فؤاد – يغفر الله له– ما تراجع عن أفكاره عن الإسلام، بل كان يلوم بشدة من أبدى مرونة مع الإسلاميين، مثل د/ جابر عصفور، ود/ حسن حنفي وغيرهما.

بأفق واسع. ولكن بذور التشكيك فى صدق إيمانهم تظل موجودة، وفي الوقت الذي استوعب فيه الغرب أشكالًا مختلفة للعلاقة بين الله والعالم ، مثل صورة الإله الذي يحكم العالم بالرياضيات، أو مهندس العالم ـ عند ديكارت ـ أو صورة الصانع الذي لا يخطئ لساعة كبرى تظل تؤدي عملها بكفاءة وثبات، هي الكون عند (ليبفتش) فإن العالم الإسلامي لا يسمح بمثل هذا التغيير في شكل العلاقة بين الله والعالم بسهولة، ولا يدمج هذه الصور المتغيرة التي تعمل حسابًا لتطورات العلم، فيي إطار العقيدة الدينية، كما فعل هؤلاء الفلاسفة، وعلى حين أن كبار مفكري العرب المتدينين، يقبلون بسهولة الفكرة القائلة بأن عناصر كثيرة من الأفكار الدينية ينبغى أن تتغير؛ نتيجة للمعرفة الجديدة التي جلبها العلم، والتقنية، فإن مثل هذه الأفكار مرفوضة – من حيث المبدأ– في معظم الأوساط الدينية الإسلامية.

هذا كلام الدكتو/ فؤاد، وأنا لا أدرى على أى أساس يكون القبول أو الرفض عنده، ولا أدرى لماذا هذا الإصرار منه على الخلط بين الإسلام والفلسفات الأخرى وتعميم الاتهامات، والرمى بالنقص وسوء التقدير، تأمل تكملة كلامه يقول: "وهكذا فإن المشكلة النظرية المتعلقة بالصلة بين العلم – في أحدث تطوراته– وبين الإيمان الدينى، لم تجد بعد حلًّا حاسمًا متفقًا عليه في العالم الإسلامي المعاصر، وما زال يشوبها قدر كبير من اختلاف الرأي الذي قد يصل أحيانًا إلى حد اتخاذ أشد المواقف تناقضًا.

ولا يبدو أن في الإمكان حل هذه المشكلة على النحو الذي يلغي نهائيًا هذه المعركة المزعومة بين نشاط الإنسان في ميداني المعرفة والعقيدة الدينية، إلا إذا ظهرت مبادئ تجديدية في مجال الفكر الديني، تهدف إلى القضاء على التزمت والجمود، وتسمح بقدر من المرونة الفكرية، لا يدع للمجتمع الإسلامي مجالًا للتوقف عند حدود عفا عليها الزمان، وإذا كان للفكر الديني دور هام في أحداث هذا التحول المرغوب، فإنه لا يمكن أن يتحقق مكتملًا إلا بحدوث تغيرات اجتماعية جذرية في العالم الإسلامي، ذلك لأن التفسير السلطوي المتزمت للدين إنما هو في الأغلب انعكاس لأساليب متسلطة في إدارة شئون المجتمع، ولا يمكن أن تحقق المرونة والاستنارة على المستوى الفكري إلا إذا ابتعدت أشكال العلاقة بين الحاكم والمحكوم في البلاد الإسلامية عن مظاهر التسلط والاستبداد"[(١)].

ولا أدرى ما هي أشد المواقف التي يتخذها علماء الإسلام ضد العلم؟

وما هو التفسير السلطوي المتزمت للدين في إدارة شئون المجتمع؟

وما علاقة ذلك بالحاكم والمحكوم؟

هل يملك د/ فؤاد أو غيره إثبات واقعة واحدة لعلماء الإسلام يحرمون فيها علمًا مفيدًا، أو اختراعًا جديدًا لا يضر بالإنسان، كما حرم علماء الدين النصراني في أوروبا؟

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـــ٧٤ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

ومع ذلك أنا أوافق الدكتور/ فؤاد في مسألة جمود البعض عند فكر معين، واعتقادهم أنه حق اليقين ..

يقول الدكتور/ فؤاد:"ومن الحقائق الواضحة أن الإيمان المفرط بمفكر من المفكرين أو بنص من النصوص يخفي عن الأعين كثيرًا من العيوب التي كان من الممكن أن تظهر واضحة لو لا هذا الإيمان" [(١)].

تأمل! كيف سوَّى الدكتور بين الإيمان بمفكر من المفكرين، والإيمان بنص من النصوص وأن الإنسان يرى بعينه ويعرف ببصيرته أكثر مما في النص المعصوم، بل إن النص ـ أي نص ـ قد يُضل الإنسان، ويخفي عن عينه كثيرًا من العيوب التي كان يمكن للعين المجردة أن تراها لو لا هذا (الإيمان)!! و لا أدرى أي إيمان يقصده الدكتور/ فؤاد وأي نص؟

يقول الشيخ/ الغزالي تحت عنوان (المصحف) للنفس والمجتمع والدولة: " يستطيع أي قارئ للمصحف الشريف، من أي قارة على ظهر الأرض أن يستيقن من أن الإسلام ينتظم الحياة العامة والخاصة، وأنه يتناول النفس الإنسانية في أعمق أغوارها، والمجتمع البشري في أوسع دوائره.

وتزداد هذه الفكرة رسوخًا ووضوحًا، عند التامل في سيرة الرسول ﷺ الذي تلا على الناس قرآنه، وخط في الحياة منهجه.. والذي ترك ثروة من التعاليم، وفنونًا من المسالك الخلقية والسياسية، تتسق مع روح (المصحف) ووجهته، وتشرح عمليًا مراد الله من خلقه.

ومن الجهل الشائن بعد مطالعة (المصحف) آية آية، وبعد متابعة النبوة سنة سنة، أن يزعم زاعم أن القرآن كتاب مواعظ نفسية محدودة، أو أن محمدًا كان يستهدف وصل الناس بالله عن طريق الدعاء والرجاء.. وحسب!!

إن أوامر الله ونواهيه تتجه إلى البيئة التي يعيش فيها الإنسان، كما تتجه إلى الإنسان نفسه..! والإسلام في أوامره ونواهيه، وفي قصصه التي يرويها لنا عن الأمم الأولى، والحضارات القديمة، بل في وصفه لمشاهد الحياة وقوى الكون، يتجه بهذا الأسلوب الجامع الرائع إلى الفرد والمجتمع؛ كي ينشئ أمة تعرف الله الواحد، وتتعاون كُلًّا وجزءًا على عبادته وإنفاذ شريعته..لا انفصال في الإسلام بين الحياة الفردية والكيان الاجتماعي العام.وشرائع الإسلام للوصاية على الضمير مثل شرائعه في تنظيم البيت، مثل شرائعه في إقامة العدل السياسي والاجتماعي عند بناء الدولة.. " [(٢)].

---

(١) جمهورية أفلاطون، صـــ١١، مرجع سابق.

(٢) معركة المصحف صـــ١٤ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

والسؤال الذى يطرح نفسه هل استفادت الأمة الإسلامية من تعاليم القرآن الكريم فى بناء المجتمع وإصلاح حاله ومستقبله، ومعالجة أمراض النفوس وجوانح الهوى وجرائم الفساد؟ الجواب: كلا.

يقول الشيخ/ الغزالي: "القرآن وحي يفطم الأنفس عن الهوى، ويسوق الأمم إلى الحق، ويسرد قصص

الأولين، ويصف مشاهد الجزاء الأخروي كي يخلق إنسانًا على حظوظ وفيرة من التربية والسمو، فليس يصلح لخدمته عبيد الشهوات، من أصحاب العزم الفاتر والاشتهاء الفائر، وإنما يُصْطَفى له أولو الشرف في سيرتهم ومعاملاتهم.

والقرآن كتاب تشريع يحارب الجريمة في المجتمع، ويرسل الأحكام صارمة لاجتثاث جذورها، وإشاعة الرهبة في أفئدة الميالين إليها، وهو يضبط العقود بين شتى الأطراف حتى لا يضيع حق، ولا تفلت مصلحة، ثم يمزج بين هذه التوجيهات القانونية، وبين ما ينشده لبني آدم من عودة إلى الله، وتوبة نصوح إذا أخطأوا، ومن ثم لا يصلح لدراسة أحكامه وتطبيقها إلا عارفون بأسرار التشريع، واقفون على طبائع الخلق وعلل الجماعات.

أما (الأجلاف السطحيون) فهيهات أن يقيموا أحكام السماء، أو يصلحوا بها عوج الخلائق.

والقرآن دعوة عامة تجابه دعوات مضادة، وتلقى خصومًا للحقيقة ما يخلو منهم جيل، وتلقى كذلك أقوامًا استكانوا إلى ما ورثوا من عقائد ومذاهب ما تكشف لهم عوارها، ولا بان لهم بطلانها. والدعاة إلى الله إذا لم يجمعوا بين عمق العلم ولباقة التصرف فهم فاشلون يقينا» (١) لأن القرآن الكريم كتاب فريد في مصدره، وفي علومه وحكمه، وفى شموله وعدله، وفى أسراره وتوجهاته، ولفت أنظار الناس إلى الكون وسننه ونواميسه وكوامنه وظواهره، وعجائبه وآياته، وما فيه من خلق وإبداع ونظم وإحكام.

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران]

ولا يخفى على عاقل ـ يريد الإصلاح ـ أن هذه الأمور سالفة الذكر تعين المصلح على الإصلاح.«لأن القرآن الكريم كتاب الله إلى الإنسانية، ضمنه الحق أصول هدايتها وأسباب فلاحها، وكلفها بالعمل بها

(١) المرجع السابق، صـ١٢٠.

فيه، والسير على هديه وتعاليمه، ففي ذلك وحده سبيل نجاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة »[١]

ويكفي هنا أن أذكر ما ورد في القرآن الكريم عن عمارة الكون،وما فيه من ثروات ومعادن لابد منها لإقامة المجتمع الصالح والحياة المستقرة؛ لأن كثيرًا من العلماء والمصلحين يؤكدون على أهمية الثروات المادية في إصلاح حياة الناس، ويرون أن وفرتها وسهولة الحصول عليها تأتي في مقدمة الخطوات الأولى في الإصلاح المجتمعي.

ولقد نبه القرآن الكريم على الثروات الطبيعية[٢]النباتية والبحرية والمعدنية، كما بين المنهج الراشد للإفادة من هذه الثروات. مثاله ماورد في سورة يوسف عليه السلام إذ كيف تصدى نبي الله يوسف لأخطر مشكلة جوع واجهت مصر، بل والعالم.

لقد بين القرآن الكريم «معالم النجاح لكل معارك الحياة، منذ البدء وحتى الختام.

تأمل سياق السورة (تقوى + عمل + صبر + إحسان = نجاح) ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] ثم أرشد سبحانه وتعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام إلى:-

١ـ زيادة الإنتاج ﴿سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾. ٢ ـ زيادة المدخرات ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾

٣ـ قلة الاستهلاك ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾[يوسف:٤٧]

نوع الاقتصاد (تزرعون) أحدث طرق التخزين وحفظ الغلال، (فذروه في سنبله) موهبة مصر الزراعة وحل مشاكلها يكمن ـ أولًا ـ في الزراعة» [٣].

ولقد عرض علينا القرآن نموذجًا حيًّا لأهمية العمل في حياة الشعوب.

مثاله ما ورد في مشهد ذي القرنين عندما مرّ على أمة ـ لضعفها وهوانها ـ لا يكادون يفقهون قولًا أو يحسنون صنعًا، ولا يقدرون على البناء ولا الدفاع حتى عن أنفسهم، فهم يبحثون عن قائد ماهر (من غيرهم) يدفعون له مالاً ليحميهم من عدوهم (يأجوج ومأجوج) .

قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ [الكهف: ٨٣،٨٤] .ثم قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّٗا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ

---

(١)الشيخ محمد الغزالي رائد منهج التفسير الموضوعى فى العصر الحديث صـ ١٣٥ تأليف د/ مسعود فلوسيّ أستاذ المعهد الوطني للتعليم العالى بالجزائر طبعة دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة، ط الأولى، سنة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٢) للمزيد انظر دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي صـ١٣٢، د/ يوسف القرضاوى، ط مكتبة وهبة سنة ٢٠٠١م.

(٣) منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين صـ ٣٢٦، د/ كمال مصطفى، ط١، دار أبو المجد للطباعة، سنة ١٤٠٧هـ.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف:٩٦:٩٣] .

تدبر قول(ذي القرنين لهم): ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ ﴿ٱنفُخُواْ﴾ ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ وقد كان في وسعه أن يقوم بهذا العمل وحده، لكنه ﷺ أشركهم معه ليتعلموا، ويعتمدوا على أنفسهم ويعرفوا قيمة العمل.

والآيات التي تذكر نعم الله ﷻ وترشد إلى ما أودع الله في الطبيعة من خيرات، وما أودع في الإنسان من طاقات أكثر من أن تحصى، وما نقلته على سبيل المثال لا الحصر.

ولقد كان النبي ﷺ قرآنًا يمشى على الأرض، كان خلقه القرآن، وأجمع علماء الإسلام على أن سنته ﷺ بيان وتطبيق عمليّ للقرآن، وكتب السنة والسير مليئة بهذه الحقائق العملية من أنه ﷺحارب وسالم، وعاهد ووادع، وقضى بين الناس وأقام الحدود، ونفذ الأحكام بدءًا من التعزير وانتهاءً بالرجم، وأنه ﷺ نصح الأمة وأرشدها إلى العمل، وإلى الخلق الحسن والسلوك القويم، وحسن الجوار، وإقامة الحق والعدل، والتكافل الاجتماعى بمعناه الواسع وأبعاده المختلفة، والبحث عن الرزق الحلال، وحفظ الموارد الطبيعية واالطاقات البشرية والنعم، والعمل بالصناعة والتجارة، وإحياء الأرض الموات بالزراعة والبناء، والاستفادة من الأوقات والثروات، بما يعود على الناس بالنفع، بل وربما رفع قدر هذا العمل إلى درجة الجهاد في سبيل الله، وأنه أعلى درجات الكسب الحلال، وقصته ﷺ مع الرجل الذي علمه كيف يحتطب وصنع له القدوم بيده معلومة، وحثّه لأهل المدينة على زراعة القمح بين النخيل، ومشاركته ﷺ في بناء الكعبة، وفي بناء مسجده بالمدينة، وفي مساعدته أهله في بعض أعمال البيت، كل ذلك الذى أشرت إليه إجمالًا - خشية الإطالة -[1] فصلته كتب السنة والسيرة النبوية .

وحتى يستفيد الإنسان من القرآن الكريم والسنة المطهرة لابد وأن يعرف أهمية الفرائض التى فرضها الله عليه، وعلاقتها بالإصلاح الاجتماعى.

وهذا ما سأذكره فى المبحث التالى.

---

(١) اكتفيت بالإشارة لسببين الأول: أننى سأذكر فى الصفحات التالية ـ إن شاء الله ـ بعض هذه الأمور بالتفصيل، الثانى: أن الشرح الكامل يحتاج إلى بحث مستقل ورسالة خاصة، والمقام هنا لا يحتمل.

المبحث الثالث: أهمية الفروض الدينية في القيام بالواجبات الاجتماعية.

يظن كثير من الناس أن الفروض الدينية هي العبادات فقط كالصلاة والصيام والحج، والحق إن الفرائض منها مايتعلق بالعقيدة والعبادة، ومنها ما يتعلق بالمعاملات والعلاقات الخاصة والعامة بين الأفراد والأسر والشعوب والحكام والمحكومين، ومنها الآداب والأخلاق والتكاليف التي كلفنا الله ﷻ بها وفرضها علينا، ورتب عليها ثوابًا وعقابًا فى الدنيا والاخرة.

ولقد عرَّف علماء الأصول الفرض فقالوا: هو ما طلب الشارع من المكَلف فعله على وجه اللزوم والحتم بحيث يثاب فاعله، ويعاقب أو يذم تاركه[١] وهو يشمل الفرائض والواجبات في عموم الدين وما جاء به خاتم النبيين ﷺ.

والمتأمل فيما فرض الله على العباد يجد أنها جميعًا في صالح الفرد ومصالح الناس، والله غنيٌّ عنها حيث لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية. قال ﷻ:(.. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني.. إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه)[٢].

وبالتأمل أيضاً فيما أوجب الله تجد أنه ﷻ ما فرض فريضة أو أوجب شيئا إلا وربطهُ بخلق حميد، بحيث يكون هذا الخلق ثمرة لهذه الفريضة، أو هذا الواجب.

تأمل قوله ﷻ:﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا ﴾ [العنكبوت:٤٥].وقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٨٣]وقوله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٣] وقوله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[الحج:٤١] هذه وغيرها من الآيات تدل دلالة قاطعة على أن الفروض الدينية والواجبات الشرعية ليست مقصودة لذاتها، إنما هي مقدمات وتمارين وتدريبات يُقصد بها ما يترتب عليها من عمل صالح، وأثر طيب، ومنافع للناس.

والمرء الذي يحافظ على الفرائض والواجبات ويؤديها بالتمام والكمال، لا شك أنه أقرب إلى الصلاح والطاعة في الأمور كلها. والدكتور/ فؤاد ما رأيته يذكر فرضًا شرعيًا، أو يعلق عليه أدنى أمل في عملية

---

(١) أصول الفقه للشيخ محمد أبو زهرة، صـ٢٥، ط/ دار الفكر االعربي.. بدون تاريخ.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٧) صـ٥٨٠، مرجع سابق.

إصلاح المجتمعات، في حين أنه يشيد كثيرًا بالفلاسفة، وما هم عليه من قوانين ونصوص تحكم المجتمع، فمثلاً في كتاب (هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية العقل والثورة) يقول: «.. والحق إن قارئ هذا الكتاب لا يملك إلا أن يشهد لمؤلفه بالبراعة في استخلاصه للنصوص المؤيدة لوجهة نظره، ولا يستطيع أمام وفرة هذه النصوص أن يتهم المؤلف بالتعسف في تأويل أقوال الوضعيين، بحيث تتمشى مع الرأي الذي يدافع عنه. فهناك نصوص قاطعة تشهد فعلا أن الفلسفة الوضعية لم تكن في جميعها فلسفة ثورية» [(١)].

وهنا أسأل: متى تكون النصوص قطعية في ثبوتها ودلالتها حتى تُحْتَرَم وتَجِدُ من يُدافع عنها، ويَدفع بها حجة خصومه ويشيد بواضعها؟ فالنصوص الفلسفية تختلف عند د/ فؤاد زكريا إن هي نشأت في ظروف ثورية، أو نشأت في ظروف طبيعية، أما اختلافها مع القرآن والسنة فليس له نصيب في اهتمامات الدكتور .

والسؤال الثانى: هل القرآن الذي يحتوي على (٦٢٣٦) آية قرآنية، والصحيح القطعي من السنة النبوية والذي يضاهي هذا الرقم أو يزيد، ألا يدخل ضمنًا في النصوص الوفيرة المتواترة التي تشفع لصاحبها إذا استند إليها؟

يقول د/ فؤاد: «إن أحكام الشريعة باعتراف الجميع[(٢)] تمثل في أغلبها مبادئ شديدة العمومية، يتعين بذل جهد كبير من أجل ملء تفاصيلها بمضمون صالح للتطبيق في ظروف كل عصر بعينه.. وكلما تعقدت أوضاع الحياة ازداد الدور الذى تلعبه هذه التفاصيل أهمية. ومن المؤكد أن مجتمعنا المعاصر يمثل قمة التعقيد الذي بلغته البشرية طوال تاريخها، نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي المذهل...

فمبدأ الإحسان مبدأ معترف به في الإسلام، تنص عليه آيات كثيرة تهدف كلها إلى إشعار الأغنياء بأن للمحرومين في أموالهم حقًّا، أي إلى ضمان حد أدنى من المعيشة للفقير، أي أن الإحسان صيغة أساسية، تستهدف تحقيق شكل من أشكال العدالة الاجتماعية، غير أن تعقد المجتمعات الحديثة وعدم وجود إتصال وثيق أو تعارف مباشر بين الغني والفقير في مجتمع المدينة الضخم المزدحم، يحتم علينا أن نأخذ من مبدأ الإحسان روحه العامة، وهي السعى إلى تضييق الفجوة بين الغني والفقير، ثم نبذل جهودًا هائلة من أجل تحديد الوسائل، التي تكفل تحقيق شكل من أشكال العدالة الاجتماعية في هذا المجتمع المعقد، وتتفاوت الصيغة التى يمكننا تطبيقها، بين قيام الغني بتقديم صدقة مباشرة إلى الفقير، وهي لم تعد مجدية في معظم المجتمعات المعاصرة، وبين منع الأغنياء من أن يمتلكوا الوسائل التي تمكنهم من استغلال الفقراء والضعفاء، في الطرف الآخر من سلم الحلول الممكنة، وفيما بين هذين الطرفين تدور خلافات لا أول لها

(١) هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية: العقل والثورة، صـ١٣، مرجع سابق.

(٢) ولا أدرى مَن هؤلاء (الجميع) الذين يشير إليهم د/ فؤاد؟ انظر كتاب الإسلام والعلمانية رد علمي على د/ فؤاد زكريا، فلقد أفاض د/ القرضاوي في الرد عليه وعلى جماعة العلمانيين، صـ١٢٥، وما بعدها مرجع سابق.

ولا آخر، كلها خلافات بشرية خالصة، وإن كانت كلها قابلة لأنْ تندرج تحت المبدأ الديني العام، مبدأ الإحسان » (١).

والمعلوم أن مبدأ الإحسان فى القرآن والسنة أكبر وأشمل مما ذكر الدكتور/ فؤاد حيث قصره على الصدقات وإعانة المحتاج، وهذا جزء من الإحسان أو مظهر من مظاهره، وفى الحديث (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإلم تكن تراه فهو يراك)(٢) والإحسان بالمعنى الذى فهمه الدكتور/ فؤاد منه ما هو فرض عين معلوم، كالزكاة قال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [المعارج] ومنه ماهو تطوع متروك لجود المرء وكرمه، ومنه ما يفرضه الحاكم على الأقارب من نفقات ومعاملات. وعلماء الإسلام يفرقون بين الفرائض والواجبات والمستحبات والمباحات في أمور الدين كلها ومنها الإحسان، ولم ينظروا إليها وإلى أحكام الشريعة نظرة إجمالية أو بمنظار د/ فؤاد زكريا.

يقول الشيخ/ الغزالي : «المعروف في دراستنا النظرية أن الدين عقائد وعبادات وأخلاق، وأن الصلة بالله هي القائد الأول لبقية الشرائع، وأن صحة هذه الصلة ضمان النجاة، وإن قلت حظوظ المرء من بقية التكاليف الشرعية.» (٣)

ولأهمية الفرائض الدينية فى القيام بالواجبات الاجتماعية وغيرها، يؤكد الشيخ/ الغزالي أن العبادات هي تمارين، تُعَوِّدُ المرء على الأخلاق الحميدة، وتثمر العافية في البدن والسلامة في الحياة، وليست طقوسًا مبهمة، يقول : «.. والعبادات التي شرعت في الإسلام، واعتبرت أركانًا في الإيمان به ليست طقوسًا مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة، ويكلفه بأداء أعمال غامضة وحركات لا معنى لها، كلا كلا فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة، وأن يظل مستمسكًا بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف..إنها أشبه بالتمارين الرياضية التي يُقبل الإنسان عليها بشغف، ملتمسًا من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة.

فالصلاة والصيام والزكاة والحج وما أشبه هذه الطاعات من تعاليم الإسلام هي مدارج الكمال المنشود، وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها، ولهذه السجايا الكريمة ـ التي ترتبط بها أو تنشأ عنها ـ أعطيت منزلة كبيرة في دين الله.فإذا لم يستفد المرء منها ما يزكي قلبه وينقي لبه، ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى، وفي المجتمع المتحاب بروح الله، الملتقي على شعائر الإسلام يقوم إخاء العقيدة

---

(١) الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ١٦٤ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه من حدبث سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. برقم (٨) صـ١٥ مرجع سابق.

(٣) عقيدة المسلم، صـ١٤٠، مرجع سابق.

مقام إخاء النسب، وربما رَبَتْ رابطة الإيمان على رابطة الدم..

والحق إن أواصر الأخوة في الله هي التي جمعت أبناء الإسلام أول مرة، وأقامت دولته، ورفعت رايته، وعليها اعتمد رسول الله في تأسيس أمة صَابَرَتْ هجمات الوثنية الحاقدة، وسائر الخصوم المتربصين، ثم خرجت بعد صراع طويل وهي رفيعة العماد وطيدة الأركان، على حين ذاب أعداؤها وهلكوا. »[١]

ويستمر الشيخ في بيان ثمرة الفروض الدينية في عهد الرسول ﷺ وما نتج عنها من قوة وترابط ومحبة وتعاون وإخاء فاق أخوة النسب والدم، وكيف عمل الإسلام على بقاء هذا الإخاء، وحمايته من كل ما يعكر صفوه يقول الشيخ: «وكانت تعاليم الإسلام ترعى هذا الإخاء حتى لا يعود عليه ما يكدره، فلا يجوز لمسلم أن يسبب لأخيه قلقًا، أو يسير في نفسه فزعًا.قال رسول الله ﷺ:(لا يحل لمسلم أن يروع مسلمًا)[٢]وما يؤدي إلى إيذاء المسلم، أو يقرب من العدوان عليه يعتبر جريمة غليظة، فكيف بإيذائه والاعتداء عليه؟قال ﷺ:(من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي، وإن كان أخاه لأبيه وأمه)[٣] وبهذه الوصايا كانت الأخوة تأمينًا شاملًا بَث في أكناف المجتمع السلام والطمأنينة.. »[٤]

هذا الذى ذكره الشيخ من تعاليم ووصايا وآداب هو ما تفتقده النظم الوضعية التى ينادى بها د/ فؤاد زكريا ويجعلها بديلاً عن الشريعة الاسلامية، والدكتور يعلم أن الشريعة بتعاليمها وفرائضها العينية المتكررة كل يوم هى قمة الإصلاح. ومثال ذلك الصلاة التى تفرض على الناس جميعا أن يتلاقوا كل يوم خمس مرات ينظر بعضهم فى وجوه بعض فيتعارفوا ويتآلفوا، ويتعاونوا على البر والتقوى، كإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج وكفالة اليتيم ومساعدة ذوى الاحتياجات والأرامل والمطلقات وكبار السن وطلاب العلم، والمرضى والمنكوبين، وهذه كلها أعمال دينية تحركها العقيدة الإيمانية والرغبة فى مرضاة الله ﷻ وهى تتراوح فى حكمها بين فروض العين والكفاية والاستحباب، وتؤكد على أهمية التعاليم الإسلامية فى القيام بالواجبات الاجتماعية.ولذا أقول للدكتور/ فؤاد وجماعة العلمانيين: هذا ما قدمه الإسلام بأحكامه وفرائضه وشرائعه وما يترتب عليها من وعد ووعيد، ماذا قدمتم (أنتم) لهذه الفئات المطحونة والمظلومة في المجتمع من فوائد تذكر، أو قوانين تحترم؟

هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

---

(١) خلق المسلم، صـ٧، وما بعدها بتصرف، مرجع سابق.

(٢) رواه أبو داوود في سننه من حدبث عبد الرحمن بن أبي ليلي ﷺ كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، برقم (٥٠٠٤) وهو صحيح، صـ٨٣٢، مرجع سابق.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه من حدبث أبى هريرة ﷺ برقم(٢٦١٦) كتاب البر والصلة والآداب باب النهى عن الإشارة بالسلاح صـ ٥٨٧ مرجع سابق.

(٤) خلق المسلم، صـ١٧٦ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق، وللمزيد انظر صـ ٢٣٩، جـ/ ٢ من كتاب (خطب الغزالي)، مرجع سابق.

المبحث الرابع: الإنسان بين الرقابة الذاتية والرقابة الإلهية.

رقابة الله ﷻ ومحاسبة النفس من أهم وأخطر أمور الإصلاح عمومًا، والإصلاح الاجتماعي خصوصًا؛ لأن من لا يخشى الله ﷻ ولا يشعر برقابته ومعيته، ولا يذكر حسابه وعقابه لا يلوم نفسه على تقصير مع الناس، أو حتى تفريط في جنب الله!!

إن المؤمن الحق يعلم أن الله ﷻ ترك له مساحة يراجع فيها نفسه وضميره ومروءته وخلقه وفطرته وحياءه، أليس يخلو المرء باخته وبنته وأمه وجميع محارمه؟

أليس له ـ شرعًا ـ أن يسافر أو ينفرد بإحداهن دون رقيب إلا الله؟

إن المرء الذي يراقب الله ويخشاه، ويحاسب النفس ويلومها، قلما يقع في كبيرة، أو يصر على صغيرة؛ لأن رقابة الله تعالى وخشيته والاستحياء منه ومن ملائكته تقتضي مراجعة الخاطر النفسي قبل أن يترجم إلى فعل، ولقد أقسم الله ﷻ بالنفس اللوامة فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة] والمرء الذي يضعف أمام نفسه ولا يجعل منها رقيبًا على سلوكه وأعماله، لا يمكن أن يقوِّمَه شيء، أو يرده راد، اللهم إلا أن يعود لرشده، ويرغب بنفسه عن شرورها، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٣].

والدكتور/ فؤاد زكريا يعول كثيرا على النفس وثقل مواهبها، وتدريبها على الفهم العلمي القائم على الدليل المادي والتجربة بعيدًا عن ربطها بدين أو عرف، فالنفس ذاتها (عنده) قادرة على التكيُّف الصحيح مع الواقع، ولا يمكن لها أن تتلاءم مع كل عصر ومتطلباته إلا إذا تركت حرة طليقة لا يقيدها شيء ولا يحدها حد مهما كان، ومهما كانت درجة قدسيته أومثاليته فالمثالية أو الأخلاق (عنده أيضًا) نظريات نسبية قابلة للأخذ والرد والتقديم والتأخير.

يقول: « إن المثالية في رأينا تعبير عن موقف معنوي، أو أخلاقي (moral) بأوسع معاني هذه الكلمة، وليس تعبيرها المعرفي أو الميتافيزيقي إلا نتيجة لهذا الموقف المعنوي للإنسان، وهي نتيجة ينبغي أن تكون لها المرتبة الثانية، لا المرتبة الأولى... فالمثالية من حيث هي نظرية معرفية، أو ميتافيزيقية، مناقضة للموقف الطبيعي للإنسان، وبوصفها مذهبًا يتنافى مع إمكان تعامل الإنسان مع العالم الخارجي، ولا يمكن أن تظهر – تلقائيًّا – في ذهن الإنسان، بل لابد أن قوة (معنوية) معينة هي التي تدفع الإنسان إلى تجاهل ميله الطبيعي إلى معاملة العالم الخارجي.

إن نوعًا معينًا من الأخلاق، أو من النظرة إلى مجتمع الناس هي التي تدفع الإنسان إلى القول بهذا المذهب، ومن الجلي أن هذه الأخلاق، وهذه النظرة إلى المجتمع، ينبغي أن يكون لها صلة بالزهد، وباحتقار

العالم المادي ولاشك أن هذا يؤدي إلى دعم نوع معين من الأخلاق، ونوع معين من تقويم الإنسان ومجتمعه. هذا النوع من الأخلاق، ومن التقويم هو القوة الأولى الدافعة إلى ظهور المثالية، وليست النظريات المثالية المعرفية أو الميتافيزيقية إلا نتيجة لاحقة له، وتأييدًا تاليًا لاتجاهه. »[١].

هذا كلام د/ فؤاد ولا أدرى عن أي مثالية أو أى أخلاق يتكلم؟ أو على أى أساس يقدم ويرتب الدرجات ويحدد المقاييس التى تُقَوِّمُ سلوك الإنسان؟ هل يتكلم عن الأخلاق التي تعلمناها في الإسلام والتى بها نستحي من الله ونراقبه ونخشاه؟ الأخلاق عندنا ـ نحن المسلمين ـ دين، والدين عندنا قمة المثالية، وأساس التقويم والتقييم، لكنها عند الدكتور/ فؤاد نظريات نسبية تخضع للمعرفة والحس الذاتي لا صلة لها بثواب ولا عقاب في الآخرة.

يقول الشيخ الغزالى: "رقابة الله أساس المسئولية، لماذا لا تقوم الأعمال في أرجاء الأمة الإسلامية على رقابة الله وحده في استقلال الشخصية، وتحمّل كل امرئٍ مسئوليته بشجاعة واعتزاز؟ إن العمل لاسترضاء الغير وتأسيس مكانة عنده هو لون من الشرك..

الغريب أنني راقبت العمل في ميادين أخرى، وبين جماهير غير جماهيرنا، فوجدت كل امرئٍ يؤدي واجبه في صمت، ويستند إلى عمله وحده في تقرير حقه وتثبيت كرامته دون تعويل على زلفى، أو ذوبان في رئيس!...» [٢] والأولى بجماهيرنا العربية والمسلمة أن تتخلق بهذه الأخلاق، وتنهج هذا النهج الذي أشار إليه الشيخ لكنها ـ مع الأسف ـ لم تفعل!! مع أن دينها ومعرفتها بربها يوجب عليها أن تسبق الأمم في كل ميادين الحياة.

يقول الشيخ الغزالي: "معرفة الله والخضوع له، والإعداد للقائه والرهبة من عقابه، هي لباب الدين وروح شرائعه...

نعم في تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة، تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة، لكن هذه التعاليم كلها بناءٌ دعامته العقيدة، أو هي أعمال غايتها وجه الله، فإذا انهارت الدعامة، أو اختلفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية والاجتماعية طابعها المميز، وقيمتها النفسية، وصارت شيئًا آخر له قيمة أخرى، كما تفقد الأوراق المالية قيمتها إذا فقدت رصيدها الذهبي.

الدين قبل كل شيء شعور بوجود الله، واعتراف بحقه في حكم عباده، ووضع المبادئ التي ينطلقون منها، والحدود التي ينتهون إليها.

---

(١) نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، صـ١٤١ ومابعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) الحق المر، صـــ٣٣ ، مرجع سابق.

ومقتضى هذا الشعور الباطن والاعتراف الظاهر أن نفعل ما يوصينا الله به، لا على أنه خير فقط، بل على أنه انقياد لله وقيام بحقه إلى جانب ما فيه من خير ذاتي.. »(١)

ويمضي الشيخ/ محمد الغزالى فى بيان رقابة الله، ومحاسبة النفس،وأهمية ذلك فى الإصلاح ويذكر بعضًا من الأمثلة كالصدق وعلاقته بالعمل الصالح، والعمل مع الصالحين، فيقول: «إن الأعمال الصالحة كلها ـ نفسية كانت أو اجتماعية ـ عندما تكون جزءًا من تعاليم الدين أو جزءًا من سلوك المؤمنين تأخذ طريقها في الحياة مقترنة بهذا اليقين السماوي، أو مصطبغة بهذه الصبغة الإلهية، فيكون الإيمان بالله هو الباعث على العمل، وتكون تقواه جلَّ شأنه إحساسًا دائمًا مصاحبًا.

ونحن بهذا الكلام نلفت الأنظار إلى خطورة ما شاع من مسالك بشرية مجردة، تجعل الناس يتواضعون على أعراف وتقاليد قد تكون حسنة، وقد لا تكون، ثم يرون فى الوفاء لهذه الأعراف والتقاليد الخير والفضيلة.. مع أن صلتها بالإيمان مقطوعة، بل ربما لم يفكر صاحبها في الله لحظة...

وهذا الفريق من الناس قسَّم الدين إلى قسمين: فما كان من عقائد وعبادات طرحه جانبًا وازورَّ عنها وما كان من معاملات ونظم احتفى به وروجه، وأكثر من الحديث عن قيمته!!. »(٢).

والمرء كما أنه يراقب مواقيت الصلاة، ويهتم بوضوئه وطهارته وخشوعه وعبادته وهو حريص على أن لا ينتقض وضوؤه، وإن انتقض قام لتجديده، وهو حريص على الصيام فلا يبالغ في مضمضة ولا استنشاق كي لا يصل الماء جوفه فيفسد صيامه، وهو حريص على أن لا يرفث ولا يفسق في حجه، فلا يقترف شيئًا من المحظورات، فإن فعل سارع بأداء الكفارة لأنه يعلم أن الله ﷻ مطلع عليه يعرف سره ونجواه.

هذه الرقابة الصارمة في العبادة، لماذا لا تكون في المعاملة والسلوك والأخلاق؟

ولقد بين الحق ﷻ فى كتابه العزيز أنه يعلم السر وأخفى وأنه لايرضى لعباده إضمار السوء أو المكر السيء والتآمر على الشر قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨]

إن المسلم الملتزم بأوامر الله، والمستقيم على منهجه والواقف عند حدوده والراعي لأحكامه والمحافظ على عبادته يجب أن يستشعر رقابته سبحانه وأنه لا تخفى عليه خافية.

فكما أن العبادات تحتاج إلى نية خالصة وطهارة كاملة وخضوع وإذعان ومعرفة تامة بما يصلحها أو

(١) عقيدة المسلم، صـ١٣٨، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـ١٣٩.

يفسدها، فكذلك أعمال البر والسلوك والآداب.

والمرء كما هو مطالب بأداء العبادات على أكمل وجه فهو مطالب أيضًا برقابة الله فى السر والعلن، ومراجعة النفس ومحاسبتها على التقصير فى الواجبات المنوطة بها . إذ لا يجوز ولا يليق أن يكون المسلم متناقضًا مع نفسه يُتقن جانبا من التكاليف ويهمل جانبًا آخر يقضي ما فاته أو ما فسد من العبادات، ولا يفعل نفس الشيء في المعاملات.

يقول الشيخ/ الغزالي: "جلست يومًا أختتم الصلاة وأردد الألفاظ المائة المأثورة، متدبرًا ما تدل عليه من تسبيح وتحميد وتكبير، بيد أن الشيطان سرق فكري دون أن أدري، فإذا أنا أسرح في إحدى القضايا، أستعرض أحداثها وأتتبع مراحلها وأتوجس من نتائجها! وغصت في أعماق القضية العارضة حتى ارتطمت بقاعها، ولساني يحصي آخر الكلمات المائة التي تعقب الصلوات المكتوبة، لتكون ذكرًا بعد ذكر وتحية بعد تحية!! وشعرت بتناقض بين حالي ومقالي، وساءلني ضميري: أكنت حقًّا تذكر ربك، وتسبحه وتحمده وتكبره؟ ولم يكن للكذب مجال، لقد كان فؤادي في واد آخر، وإن كان لساني يردد ما تعوده من كلمات. لقد كنت حاضرًا كغائب، أو غائبًا كحاضر، وما أستطيع الزعم بأني فيما هممت كنت من الذاكرين...

إن أسوأ ما يعتري الفرائض المكتوبة والعبادات الرتيبة أن يؤديها المكلفون وهم في شبه غيبوبة، لا تلاحق عقولهم معانيها، ولا تحصل نفوسهم حكمتها... والتكاليف الدينية يوم تؤدى على أنها عادات مجردة، ليس معها الصحو العقلي المطلوب، تصبح إلى الأدواء أقرب منها إلى الأدوية. » (١)

وحتى يرتفع الوعى الديني وينتبه العقل الإنسانى، ويصحو الضمير وتُضبط السلوك وتصلح الأحوال، لابد من ربط الأعمال الدنيوية بعقيدة الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، بحيث يؤثر كلٌّ منهما فى الأخر تأثيرًا إيجابيًا.

وهذا ما سنبحثه ـ إن شاء الله ـ فى الصفحات التالية.

---

(١) كتاب ركائز الإيمان، صــ١٠٧ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق

المبحث الخامس: أثر عقيدة الإيمان بالله واليوم الأخر فى إتقان العمل.

المؤمن بالله واليوم الآخر يمكنه بكل سهوله ويسر أن يجعل أمور الدنيا تسير جنبًا لجنب ـ بإتقان ـ مع هذا الإيمانٍ بل ويرى أن صلاح حاله ومآله فى الدنيا مرهونٌ بفهمه للدين والاعتزاز به وتنفيذ أحكامه في كل ميادين الحياة. قال ﷻ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام].

ويبدو أن ما يراه العلمانيون ويجهرون به دون خجل من أن أمور الدنيا وصلاحها لا ترتبط بالدين وعقائده وتعاليمه لا يختلف كثيرًا عما يقوله النصارى، بل ويعتقدونه وينسبونه للمسيحعليه السلام: (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله)(متى١٧: ٢١) (ما تحلونه في الأرض يحله الله في السماء، وما تحرمونه في الأرض يحرمه الله في السماء)(متى١٦: ١٨).

ونحن المسلمين نشك أن المسيح قال ذلك؛ لأن الله أخبرنا في القرآن الكريم أن القوم يحرفون الكلم عن مواضعه ويكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله، ليشتروا به ثمنًا قليلاً.

ولو كان ذلك صادرًا عن المسيح ـ وفق عقيدتهم فيه أنه الله، أو ابن الله ـ لقال المسيحعليه السلام: دعوا ما لقيصر لقيصر، وما لأبي لأبي، أو ما لي لي، ولقال: ما تحلونه في الأرض يحله أبي في السماء، أو أحله أنا في السماء.. [1]

والعجيب المؤسف أن العلمانيين يأتون بكل مساوئ النصرانية وعلمائها ويلصقونه بالإسلام وعلمائه، مع ادعائهم أنهم يدافعون عن الإسلام وينطلقون من فهم نصوصه، ولقد ذكر لي أحدهم قول رسول الله ﷺ:(أنتم أعلم بأمر دنياكم)[2] وترك عشرات الآيات والأحاديث الصحيحة الواضحة مع أن الحديث ورد في تلقيح النخل، يعني في أمور الزراعة والإنتاج، وليس في الميراث ولا القصاص ولا الحجاب ولا الآداب، ولا في شيء مما يجادل فيه العلمانيون.

ولم يكتف العلمانيون بتصدير ترهات وأباطيل نصارى الغرب إلينا، واعتبارها المصدر الأول للتشريع، فقد أضافوا إلى ذلك ضلالات الفلاسفة.

---

(١) رغبة في الاختصار اكتفي بما أشرت، ومن أراد المزيد، وردود العلماء، فليرجع إلى كتاب الإسلام لا العلمانية، مناظرة مع د/ فؤاد زكريا، والمستشار سالم البهنساوي، صـ٢٢، ٢٣، مرجع سابق، ولقد بين المؤلف أن هذا القول يستحي منه المنصفون من النصارى كالأستاذ نظمي لوقا، في كتابه (محمد الرسول والرسالة) يقول: إن المقولة (دع ما لقيصر لقيصر) يراد بها أن يشطر العالم شطرين نصفه لله ونصفه لقيصر، لكن القرآن يقرر أن الأمر كله لله.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، من حديث أنس ؓ برقم (٢٣٦٣)، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأى، صـ ٥٣٥، مرجع سابق.

تأمل كلمات الدكتور/ فؤاد زكريا وتعليقاته عليها يقول: "هناك صور للحس وصور للخيال، الثانية أبعثها بإرادتي، والأولى تأتي عن مصدرٍ خارج عني، لا أملك التحكم فيه (هذا مذهب باركلى) يؤكد ـ وهو تأكيد له أهميته الكبرى ـ أن التمييز بين الحقائق الواقعة والخيالات يظل (في مذهبه) أقوى ما يكون، فصور الحس لها مصدر غير إرادة ذهننا التلقائية، وهذا المصدر الآخر (في نظره) هو الله، الذي يبعث فينا هذه الصور، وينظمها في شكل قوانين الطبيعة...

والذي يهمنا ـ والكلام للدكتور فؤاد ـ هو أن باركلي اعترف بوجود اختلاف أساسي في الطبيعة بين صور الحس، وصور المخيلة التي ترجع إلى إرادة الإنسان، وأكد أن النوع الأول من الصور ينبغي أن يكون راجعًا إلى مصدرٍ خارج عن الإنسان، وإلى هذا الحد ينبغي أن نسجل تسلسل التفكير هذا على باركلي.. وبعبارة أخرى فقد حاول باركلي أن يثبت أن هذا المصدر الآخر هو الله، على أساس أن كيفيات الأشياء لا تدركها إلا روح، والروح البشرية وحدها عاجزة عن ضمان استقلال الأشياء، فلابد أن روحًا إلهية هي التي تدركها وتضمن استقلالها، فإذا أمكن تفنيد هذا النصف الثاني من الحجة فسيظل النصف الأول قائمًا، أي سيظل من الضروري الاعتراف بمصدر للمدركات الحسية خارج عن الإنسان، ولكنه ليس الروح الإلهية في الوقت ذاته. "[١]

كنت آمل من د/ فؤاد زكريا بعد عرضه وتحليله السابق، أن يعتز بدينه وعقيدته، فيبرز بعض ما جاء في الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة، لكنه ـ مع الأسف ـ لم يفعل! بل أراه يعارض باركلي في إقراره بما أسماه (بالذهن الإلهى[٢] والروح الإلهية) يقول في الكتاب ذاته: ".. والآن ما الذي يستطيع الذهن السليم أن يقبله، وما الذي يتحتم عليه أن يرفضه في هذا كله؟ إن الذهن السليم يقبل حتمًا قول باركلي بأن الإدراكات الخارجية مستقلة عن الذات، لأنها لا تنبعث كلما أرادت الذات ذلك، بل تحتاج إلى شروط محددة إذا توافرت فسوف ندرك إدراكات خارجية، سواء أرادت الذات ذلك أم لم ترد، فلابد إذن من البحث عن مصدر خارج عن الذات لهذه الإدراكات، ولكن المصدر الذي يقول به باركلي ينبغي أن يرفض بلا تردد. "[٣]

إن المتأمل فيما سبق يتبين له أن د/ فؤاد لا يربط العمل وبواعثه في الدنيا بعقيدة الإيمان بالله، إنما يربط

---

(١) نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان، صـــ٨٦ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) ليس عندنا شيء يسمى بالروح الإلاهية ولا بالذهن الإلهى، الذى ذكره د/ فؤاد زكريا فى كتابه نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، صـــ ٨٩ وما بعدها... وكان الواجب على الدكتور الفيلسوف ـ بصفته مسلمًا ـ أن يوضح هذه المسألة، وألا تمر في بحثه دون تعليق أو نقض.. يفرق فيه بين الوحى الإلهى المعصوم، وبين الذهن البشرى، ووحى الفكر، والخيال لدى الفلاسفة .. لكنه لم يفعل.

(٣) المرجع السابق صـ٩٠.

الأعمال في الدنيا بقدرة الإنسان على الفهم والتعقل والتعامل مع ظواهر الكون، ثم بدوافع الحافز المادي والتكوين النفسي والعلمي، ويرفض ـ بشدة ـ أي قوة خارجية تؤثر في فكر وسلوك الإنسان حتى لو كانت ـ هذه القوة ـ بتعبير باركلي (الروح الإلهية والذهن الإلهى والإدراكات الخارجية).

ولقد رأيت أن الدكتور/ فؤاد زكريا يحاول باستمرار (وبدهاء منقطع النظير) قطع الصلة بين الله وخلقه، ليثبت فكرة أن الإنسان (بعقله) لا يحتاج إلى شيء آخر في فهم الطبيعة وعمارة الدنيا، والسنن التى تحكمها، والنظم التي تحل مشاكل أهلها.

هذا ما يؤكد عليه د/ فؤاد زكريا في كتبه ومناظراته[1] يقول: «فالقضية قضية مشاكل قبل كل شيء، ومن يقدر على حلها يلقى الترحيب من الجميع، وهذا لم يقدم حتى الآن، ويبدو أنه بعيد أن يتحقق، وأنا لست متفقًا مع د/ محمد عمارة ـ والكلام للدكتور/ فؤاد- في أن اجتهادات العلماء كافية وتحقق لهذه الأمة المكانة اللائقة بها في العالم...أ.هـ

وسيطول بنا المقام إن ذكرت الردود كلها، لكني سأكتفي هنا بذكر بعض الكلمات التي قالها د/ محمد عمارة وهي: «.. هذه خلاصة الأمر كما يتصوره د/ فؤاد زكريا، مشاكل ومصالح تحتاج إلى حل.. وبهذا يستوي لديه الحل الإسلامي أو الشيوعي أو الليبرالي أو البوذي أو الهندوسي!! فإن معيار المفاضلة الأوحد هو القدرة على حل المشاكل، لا فضل لإيمانٍ على كفر، ولا لتوحيدٍ على شرك، إلا باستيعاب المشاكل والقدرة على حلها!! فليس الأمر عبودية لله أو طلبًا لمرضاته، أو اختيارًا إيمانيًا لمنهجه، بل المعيار النفعي المادي المجرد!! وللدكتور أن ينظر لنفسه ومدرسته ما شاء في إطار العلمانية التي نذر حياته لنصرتها، ولكن هذا شىء، والدين الذي يَعْبُدُ اللهَ به عبادُه المسلمون شىء آخر.

إن القبول العلماني بتطبيق الشريعة، والذي يستند إلى منطلقات نفعية بحتة على هذا النحو لا تبرأ به ذمة، ولا يقام به دين، ولا يرفعه الله فوق رأس صاحبه شبرًا واحدًا، لأن الله لايقبل من الأعمال إلا ما قصد به وجهه وحده، وكان مؤسسًا على قاعدة العبودية، والقبول الاختياري لمبدأ التكليف الذي هو إخراج المكلف عن دائرة هواه حتى يكون عبدًا لمولاه. »[2]

---

(١) لعل البعض ينكر عليّ، ويذكرني بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكني ما كتبت هذه الكلمات إلا بعدما أتممت قراءة عشرين كتابًا للدكتور فؤاد زكريا، ما بين مؤلف ،ومترجم، ووقائع مناظرة. الأمر الذي يجعلني أقول: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ [النساء:٦٣].

(٢) أزمة العقل العربي، انظر صـ٦٧ والتعقيب في الهامش ، مرجع سابق.

والسؤال الذي يهرب العلمانيون من الإجابة عنه هو هل قامت العلمانية يومًا بحل مشاكل الناس؟ وها هى لازالت تتحكم في مقاليد الأمور في بلادنا ومنذ ثمانين سنة.

الجواب كلا! بل فشلت ولا زالت تفشل في كل الأحوال وفي كل الميادين، وعلى جميع المستويات حتى المستوى العلمي الذي تزعم العلمانية أنها الرائدة فيه والقائدة لأهله.

والمنصف في بلادنا العربية المسلمة يؤكد أن العالِم المسلم المنطلق في علومه ومعارفه وأبحاثه من فهمه للدين، وإيمانه بالله رب العالمين، هو أعظم نفعًا في البلاد، وأكثر رشدًا للعباد، وأهدى سبيلاً من غيره المقلد للشرق والغرب.

يقول الشيخ/ الغزالي: «.. وكما أن خواص المؤمنين أرجح عقلًا وأصوب حكمًا، فإن معيشة الاستقامة التي يعيشونها تجعلهم أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً، وتجعل قدرتهم على قيادة الحياة أشد، وبصيرتهم في علاج مشكلاتها أرشد.

وقد رمقت الأجيال الأولى من المسلمين السابقين، فوجدتهم أنشط عقولاً، وأسلم وجهة، وأحكم سياسة من غيرهم. ولم يحدث بتة أن كان الإسلام قيدًا على انطلاقهم الفكري، أو عائقًا دون اقتحام المجاهيل المادية والأدبية، بل الذي وقع هو العكس، كان الإسلام محرضًا على البحث الجريء والفكر العميق، وكانت آيات القرآن الكريم باعثًا هائلًا على إحياء الموات الذهني والاجتماعي، حيث تليت...

إن الدين يتضمن جانبًا من الإيمان بالغيب، وهو كذلك يتضمن جوانب من عالم الحس والحركة، والجانب الأول ينظم الجوانب الأخرى ويساندها، ولا يحيف عليها، أو يشرد بها، ومن ثم قلنا: إن الإيمان بالغيب ليس إيمانًا بالوهم، ولا إنذارًا بالفوضى، وأفعال المسلمين التي تنافي ذلك شيء غير الإسلام الذي يقوم على احترام العقل، ونبذ التخامين والأحداس، وعلى إعظام الكون ولفت النظر إلى ما في بنائه من روعة وجلال.. وعلى إيقاظ الضمير، وجعله مهيمنًا على الحركات والسكنات...

إن أبعد الناس عن الإسلام رجل بصره في مواطئ قدميه، وهمته لا تعدو ملء بطنه وكسوة بدنه.. وصلته بالدين تنشأ عن وجل بما يدري، أو اقتناع غامض بما يقال.» [1]

ولنا أن نتسائل عن الكم الهائل من الفساد المتغلغل في البلاد، وعن ما يقابله من دساتير وقوانين، وعن أعداد المحاكم والقضاة في بلادنا وأعداد المجرمين والجرائم، وضباط الأمن والشرطة، والقوانين التي

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، صـ ٧٩، ومابعدها، بتصرف، مرجع سابق.

توضع وتلغى، لماذا توضع القوانين؟ ولماذا تنفق الأموال؟ وما الهدف من ذلك بجانب ما ينفق على الجيوش؟!!

الجواب: كل ذلك يهدف إلى إقرار الأمن واستقرار الناس والأوضاع.

والسؤال هل وجد الناس ـ بعد ذلك كله ـ الأمن والأمان والكفاية والاستقرار؟ إذا كان الجواب: لا، أو بنسب غير مرضية أو غير كافية، فالسؤال: إلى متى سنظل في هذا البلاء؟ ولماذا نستكبر أو نتعامى عن منهج السماء؟ إن الإنسان صنعة الله، والله وحده العالم ـ علم إحاطة ـ بحاله والقادر قدرة مطلقة على إرشاده وصلاحه والتجاوز عن سيئاته قال ﷻ: ﴿.. إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾[النجم].

إن العبد المؤمن بالله ولقائه وكلامه يتقن الأعمال، ولا يرضى أن تعرض على الله تعالى ناقصة، ويفكر كثيرًا في عواقب الأمور، فلا يَقْدُمُ على شيء إلا بحساب، ووفق ما يعلم عن الله ووعده ووعيده وغضبه ورضاه وجنته وناره، لا يقترف خطيئة وهو يؤمن بيوم الحساب، وإن ضَعُفَ وفعل رجع وتاب واستغفر وأناب.

أما غيره ممن ركن إلى الدنيا وقوانينها، ونسي الآخرة وما فيها، فهو يقترف الإثم عن عمد وإصرار، وبتدبير وإحكام، ولا يهمه إلا أن يفلت من عقاب الدنيا وهو يعرف (جيدًا) الحيل التي يفلت بها!! فلا يتقن عملاً صالحاً يحتاجه العباد ـ وقد تتوقف حياتهم عليه ـ إلا بمقابل مادي أو معنوي.

إننا أمام طائفتين إحداهما لا تعرف إلا الدنيا وزينتها، والأخرى تعيش في الدنيا وفق شريعة الله وما أراده ـ جل في علاه ـ لعباده من حياة.

وهنا أسأل هل يستويان عند الله؟ وهل يستويان عند العقلاء؟

وهل يستويان في إرادة الصلاح للنفس وللناس؟

هل يستويان في الحرص على الخير وبذل المعروف وإنكار المنكر؟

هل يستويان في القيام بالواجبات العامة والخاصة، ومنها العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى؟

الجواب: لا يستويان عند الله ﷻ ولا عند رسوله ﷺ ولا عند العلماء والعقلاء من الناس.

وبعد أن ذكرنا في هذا الفصل أثر العقيدة الإسلامية والشريعة الربانية في إتقان العمل، يجدر بنا أن نذكر أهم منظمات المجتمع المدني ودورها في الإصلاح الاجتماعي.

والله المستعان

* * * * *

الفصل الخامس

منظمات المجتمع المدني، وعلاقتها بقضايا الإصلاح

وفيه تمهيد، وثلاثة مباحث

المبحث الأول
التربية البدنية والنفسية

وفيه ستة مطالب

المبحث الثاني
التربية الفكرية والعلمية

وفيه خمسة مطالب

المبحث الثالث
التربية الحركية

وفيه أربعة مطالب

التمهيد: وفيه:

١ـ التعريف بأهم منظمات المجتمع المدني المعنية بالإصلاح الاجتماعي في عصر الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي.

٢ـ أهم القضايا التي تناولتها هذه المنظمات في هذه الفترة وموقف الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي منها.

أولاً: التعريف بأهم منظمات المجتمع المدني في مصر.

منظمات المجتمع المدني المصرية منظمات غير حكومية، كالأحزاب والنقابات والاتحادات، والغرف التجارية، والنوادي الرياضية وروابط وجمعيات أهلية، كجمعيات الحج والعمرة، أو جمعيات غير محسوسة التأثير هزيلة النشاط، مثل: الروابط الإقليمية أو جمعيات غامضة معزولة عزلة (ماسونية)تكاد تتخفي رغم وزنها المادي الكبير، كنوادي الطبقة الراقية مثل: الروتاري[١] وما هو على شاكلتها، والجمعيات والمدارس الإسلامية[٢] والإنجيلية، وجمعيات حقوق الإنسان [٣]ومراكز ومعاهد الأبحاث ذات التمويل الأجنبي.

هذه أهم المدارس الاجتماعية الموجودة في مصر والعالم العربي والإسلامي، وهي بجميع طوائفها وشعابها تنقسم إلى قسمين رئيسين، هما:

١ـ مدارس إسلامية ذات طابع ونشاط إسلامى ومرجعية وأهداف إسلامية.

٢ـ ومدارس أخرى ذات نشاط ومرجعية تحررية .[٤]

---

(١) تم إنشاء أول نادي روتاري بمصر عام ١٩٢٩م ، بلغ عددها حتى ١٩٨٦م ٢٢ ناديًا تضم حوالي ألف عضو تتبع وزارة الشئون الاجتماعية رسميًا لكنها فعليًا تتبع المؤسسة الدولية لاندية الروتاري الصهيونية بمدينة (ايفانستون) بولاية الينوي الأمريكية، يبعها لجان لتربية الشباب والصغار على مبادئ روتاري تسمى بأندية الروتراكت للشباب من ١٨ –٢٨ سنة، والإنتراكت للصغار من الروضة حتى ١٨ سنة.
وقد قامت الحكومة الدولية للروتاري بتقسيم العالم إلى مناطق يبلغ عددها (٤٣٠) منطقة، تتكون كل منطقة من عدة أندية يتشرف عليها رجل بمنصب محافظ، وتتبع مصر المنطقة ٢٤٥ التى تشمل السودان والأردن والبحرين ولبنان وقبرص.
(عيد جلال الدين، نوادى الروتارى فى مصر أهدافها وحقيقتها **www.vbaabagate.com**) .

(٢) كالجمعية الشرعية وجمعية أنصار السنة وغيرهما .

(٣) وقد بلغ عدد هذه الجمعيات حسب بعض الإحصاءات (٧٥) جمعية و مؤسسة فى مصر وحدها حسب ما جاء في الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان **www.anhri.net**

(٤) ومن أخطرها الليبرالية والعلمانية: هى فكرة غربية نشأت فى الغرب تعنى عزل الدين والكنيسة، عن المجتمع وسياساته؛ وذلك للتخلص من الكهنوت الدينى المعطل لتطورات الحياة باسم الدين، ثم انتقلت الفكرة إلى بلاد المسلمين دون تمييز بين الدين الاسلامى، والدين النصرانى المحرف وبين علماء الاسلام الذين لايعارضون التقدم العلمى وبين القساوسة الذين حرموا وجرموا كل جديد باسم الرب.....
للمزيد انظر معانى هذا المصطلح فى :معجم العلوم الاجتماعية وضع مجمع الغة العربية بالقاهرة –وكتاب الاسلام والعروبة والعلمانية أ.د/ محمد عمارة ط دار الوحدة سنة ١٩٨٤م–١٤٠٥هـ .

وفيما يتعلق بمنظمات المجتمع المدني العاملة في المسار الليبرالي يشير البعض إلى أن «ثمة جمعيات ومنتديات ثقافية غير قليلة عدديًا، غير أنها جميعًا تفتقد إلى الرؤية المشتركة، والقدرة على صياغة الأهداف المحددة المستقبلية المتجددة» (١).

ومنها جمعية النداء الجديد: «برزت جمعية النداء الجديد على الساحة المصرية لتقدم نفسها منبرًا للفكر الليبرالي منذ عام ١٩٩٢م كجمعية ثقافية تحت قيادة شخصية اقتصادية ومعروفة بتوجهها الليبرالي، هو د/ سعيد النجار الذى كان الرمز والأب المؤسس للجمعية يوم ٢٠ فبراير ١٩٩٣م» (٢).

ومنها اتحاد الشباب الليبرالى المصرى: «منظمة مدنية غير هادفة للربح تسعى إلى تكوين نواة لجماعة ضغط تدعم مبادئ الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية، من أجل تعريف العلاقة بين الفرد والدولة. تأسست فى سبتمبر ٢٠٠٧م بمبادرة من شباب مصرى مؤمن بالليبرالية، وبضرورة ترسيخ قيم الحرية والعدالة والمساواة، وانطلاقًا من قيم الدستور المصرى وما جاء بالمواثيق الحقوقية الدولية من تأكيد على حق البشر جميعًا فى المساواة أمام القانون دون تمييز بينهم» (٣).

ولقد اغتر بعض الشباب المصري بالشعارات البراقة التي ترفعها هذه النوادى والجمعيات الليبرالية وظنوا أنها المنقذ لشعب مصر مما هو فيه من فقر وجهل وظلم؛ لأنهم يعتقدون أن: «الليبرالية هى القاطرة التى بإمكانها قيادة مصر نحو النهضة والتنمية واسترداد دورها الرائد كمنارة للعلم والتقدم، وأنها تخلق مساحة واسعة من البدائل للعديد من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمر بأمتنا المصرية، وأنها حاضنة للجميع، وفي سبيل ذلك قاموا بتنظيم مسابقة للشباب المصري بعنوان:(ليه أنا ليبرالي) بالتعاون مع المؤسسة الدولية فريدريش ناومان(٤)» (١).

---

(١) د/ اسماعيل سراج الدين (تقديم) د/ محسن يوسف (تحرير) الحريات الفكرية والأكاديمية (منتدى الإصلاح العربى)، مكتبة الاسكندرية ٢٠٠٦م ، نقلًا عن د/ سعيد النجار مصر وتحديات القرن، رسائل النداء الجديد، القاهرة: جمعية النداء الجديد ١٩٩٣م صـ١٦، ١٧

(٢) الفكر الليبرالي تحت المجهر، د. محمود الصاوي صـ٢٠٦، ط/ دار بلال بن رباح ودار ابن حزم، ط/ ١، سنة ٢٠١٢م ، وللمزيد عن هذه الجمعية انظر المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) الفكر الليبرالي ، صـ٢٠٧، مرجع سابق نقلا عن موقع اتحاد الشباب الليبرالي المصري مَن نحن؟ **http//:www.euly.org**..

(٤) مؤسسة (فريدريش ناومان للحرية): هي مؤسسة السياسة الليبرالية، مقرها الرئيسي ألمانيا، وتعمل على نشر البرامج التدريبية عن الليبرالية في مصر منذ أكثر من ثلاثين عامًا، أنشأها (تيودور هويس) الذي شغل منصب أول رئيس لجمهورية ألمانيا الاتحادية سنة ١٩٥٨م، وتهدف إلى تعزيز حرية الفرد والليبرالية تعمل المؤسسة على صعيدين وتماس أنشطة التعليم المدني من خلال عقد الندوات والمؤتمرات وتوفر المطبوعات التي تهدف لتعزيز القيم الليبرالية، كما تقوم بعمل نقاش ومباحثات حول العديد من القضايا الليبرلية وتصبوا إلى انتصار الحقوق الإنسانية والمدنية في جميع أنحاء العالم (موقع مؤسسة فريدريش ناومان، مبادئ المؤسسة، **www.fnot-egypt.org**).

(١) ليه أنا ليبرالي، **www.Libral.net**، تم مؤخرًا إصدار هذه المسابقة في كتيب صدر عن مركز المحروسة للنشر، والخدمات الصحفية والمعلومات بعنوان (ليه أنا ليبرالي، مقالات شابة عن الليبرالية) يقع في ١٥٢ صفحة، جاء في التعريف به: إنه كتاب يحتوي على مجموعة متباينة =

والحق إن الليبرالية هي الصورة الجديدة والمتطورة للعلمانية التي أضرت بمصروشعبها المؤمن، ولم تقدم من الوعود البراقة كالعدل والحرية والمساواة شيئًا يذكر، والواقع خير شاهد.

هذا بجانب الجمعيات الأخرى، ولجان الزكاة المنتشرة بكثرة في المساجد والتي تقوم بدور لا يستهان به في خدمة الفقراء، وعملية الإصلاح الاجتماعي ـ كالجمعية الشرعية ـ وكذلك مجالس الإدارات التابعة لوزارة الأوقاف تحت إشراف إدارة البر والخدمات الاجتماعية. هذا بجانب الأفرع التابعة لمنظمات عالمية لها مقار ونشاط في البلاد العربية والإسلامية.

ولقد أنشئت عدة مراكز اجتماعية وعلمية لدراسة علم الاجتماع وغيره من العلوم، ومنها:

١ـ الجامعةالمصرية الأهلية التي أنشئت عام ١٩٠٨م. ٢ـ الجمعية الفلسفية المصرية سنة ١٩٤٦م.

٣ـ الجمعية المصرية لعلم الاجتماع عام ١٩٤٨م. ٤ـ النوادي الاجتماعية.

٥ـ معاهد الخدمة الاجتماعية. [1]

وهذه المراكز والجمعيات والمدارس.. منتشرة ومؤثرة في المجتمع المصري بقوة، وذلك لما تقوم به من أعمال خدمية، ونشاطات متعددة ومتنوعة.

ثانيًا: أهم القضايا الإصلاحية التي تناولتها هذه المنظمات ومدى فاعليتها.

هذه المنظمات كلها تهدف إلى الإصلاح، والإصلاح الاجتماعي خصوصًا، سواء ما يتعلق بالأفراد وثقافتهم وتدريبهم، أو الأسر وإعانتها، وجُلُّ ذلك يظهر فى صورة النشاطات الاجتماعية والرياضية.. وإغاثة المنكوبين والمشردين. وهذه أمور أصيلة فى المجتمع المصري رغم تطورها وتنوعها واتباع بعضها للأعراف الدولية «فلقد بدأت الرعاية الاجتماعية في مصر منذ أقدم العصور، ولقد تأصلت مسئولية المجتمع نحو أفراده عند الفراعنة، حيث جاء في أحد البرديات النص التالي (لم يوجد من عشيرتي ولا في عهدي جائع) وعندما حلت سنوات حرث الأرض وضمنتُ بذلك الحياة لأهلها ساويتُ في العطاء بين من فقدت زوجها وبين من لم تفقده، ولم أفرق بين العظيم وغير العظيم، وعندما جاء الخير لم أسترد ما أعطيت.

=

من المقالات التي كتبها عشرون شابًا ليبراليًا من هذا الجزء من العالم، كإجابة على السؤال الذي طرحته مسابقة مفتوحة بعنوان: أنا ليه ليبرالي؟ هذه المقالات لا تعكس فقط مفهوم الليبرالية عند شريحة واسعة من الشباب المصري، بل تكشف لنا آمال وطموحات هؤلاء الشباب لمستقبل أفضل لمجتمعهم ووطنهم يتخذ من الليبرالية دعامة أساسية له، رونالد مينا ردوس، أحمد ناجي، ليه أنا ليبرالي مقالات شابة عن الليبرالية، مركز المحروسة للنشر والتوزيع ٢٠٠٩م. هذا الفهرس وما فوقه نقلاً عن كتاب (الفكر الليبرالي تحت المجهر الشرعي) د/ محمود الصاوي،صـ٢٠٥،وما بعدها، مرجع سابق.

(١) انظر كتاب علم الاجتماع، تأليف د/ علي عبد الواحد وافي، صـ١٢٦، ١٢٧، بتصرف، ط/ نهضة مصر ، بدون.

وقصة نبي الله يوسف ﷺ أبلغ دليل على اهتمام فرعونٍ[1] بإطعام شعبه، ويبين ورق البردي أنه كان يلحق بقصر الملك ومساكن الأغنياء مكان توزع فيه الحبوب على الفقراء، وفقًا لقوائم تحتوي أسمائهم.

وفي ظل الحكم الروماني دخلت المسيحية مصر، وفتحت الأديرة أبوابها لجمهور الفقراء، فكانوا يتناولون الطعام، ويقدم لهم الكساء والمأوى.

وفي مصر (العربية) تأكدت أصول الرعاية الاجتماعية في ظل التعاليم الإسلامية، فأنشئت إدارة خاصة بالإحسان تمول عن طريق الزكاة، وتعزل ميزانية مستقلة تمامًا عن الميزانية الخاصة بالدولة، وكانت أموال الزكاة تنفق في مصارفها الشرعية، وتوزع على الفئات التي نصت عليها الشريعة الإسلامية، وقد تنافس المسلمون وخلفاؤهم وأغنياؤهم على التصدق على الفقراء والبر للضعفاء، فأقاموا دور الشفاء لعلاج المرض، ورصدوا في بيوت المال أو بيوت القضاء ما يعان به الملهوف ويعان المسافر ويحرر به الأرقاء» [2].

وهذا يدل على أننا ـ نحن المصريين ـ تأخرنا كثيرًا عما كان عليه الآباء والأجداد من عدالة اجتماعية وتقدير لكرامة الإنسان وتعاونٍ علي البر والتقوي.

وتحت عنوان منظمات المجتمع المدني يقول د/ فتحي أبو الفضل وآخرون من علماء الاجتماع: "..إن التنمية الشاملة تقتضي مشاركة كافة القطاعات الموجودة بالمجتمع مشاركة فعالة.. لأن مشاركة القطاع الأهلي في تنمية الاقتصاد من القضايا المهمة جدًا، نظرًا لما لهذا القطاع من مساحة كبيرة يستطيع من خلالها أن يكون له دور حيوي وملموس في إحداث تنمية حقيقية في المجتمع المصري، بجانب الدور المهم للقطاع الحكومي.

إن القطاع الأهلي يمكن أن يلعب دورًا حيويا في نشر مظلة الخدمات الاجتماعية، خاصة وأن هذا القطاع يضم نحو ١٤٦٠٠ جمعية فيها ٣٧١ جمعية مركزية، وما يزيد على ١٢٠٠ جمعية للمساعدات والخدمات وتنمية المجتمعات.

وتتضمن الميادين التي تعمل فيها الجمعيات الأهلية ١٧ ميدانًا منها:

رعاية الطفولة والأمومة، رعاية الأسرة، المساعدات الاجتماعية، رعاية الشيخوخة، رعاية الفئات

---

(١) كان سيدنا يوسف عليه السلام في زمن الهكسوس، وكان يطلق على حاكم مصر لقب (الملك) سواء أكان مصريًا أو غير مصري، ولم يكن يعرف بعد لقب فرعون، وهذا واضح من خلال قصة يوسف في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ ﴾ [يوسف:٤٣].

(٢) الرعاية الاجتماعية بين النظرية والتطبيق، د/ عبد الخالق محمد عفيفي، صـ٣١٧ وما بعدها، بتصرف، مؤسسة الكوثر للطباعة سنة ٢٠٠٣م.

الخاصة والمعاقين، الخدمات الثقافية والدينية، تنمية المجتمعات المحلية، التنظيم والإدارة، رعاية المسجونين، تنظيم الأسرة، الدفاع الاجتماعي، أرباب المعاشات، حماية البيئة والمحافظة عليها، التنمية الاقتصادية للأسرة، تنمية الدخل، حماية المستهلك» (١)

وهذه الجمعيات التي أشار إلى كثرة عددها د/ فتحي، لا يزال الكثير منها عاملاً، ويقوم بدور فاعل ومهم، وإن لم يصل إلى حد الكمال واستيفاء المطلوب.

وأخص بالذكر أهم الأعمال الاجتماعية التي تقوم بها هذه المنظمات والجمعيات وهي:

١ـ الطعام والدواء والسكن. ٢ـ التربية والتعليم والتدريب.

٣ـ الرياضة والترويح عن النفس. ٤ ـ التعاون والعمل الجماعي.

والدكتور/ فؤاد زكريا لا يتكلم عن الخدمات أو الأعمال التي تقوم بها هذه الجمعيات، وإنما يتكلم عن موقفها مع العلماء، ويرى أن كثيرًا من هذه الجمعيات تضع قيودًا وشروطًا أمام المصلحين، خصوصًا العلماء منهم، وذلك بسبب تحكم السياسة في العلم وبعض العلماء، يقول: "بالرغم من أن الاعتبارات السياسية تتحكم في العلم الحالي، فإن كثيرًا من المجتمعات تطالب العلماء بألا يتدخلوا في السياسة، وتضع كثير من المؤسسات والجمعيات العلمية هذا الشرط على كل عالم مشتغل بها، كما تعمل جهات أخرى على توجيهها وتحديد الأهداف الاجتماعية التي تستخدمها.

وإذا شاء العالم أن يعبر عن آرائه السياسية والاجتماعية، فعليه أن يفعل ذلك بوصفه مواطنًا عاديًا، لا بوضعه عالمًا، وهذا هو الشرط الأساسي (لموضوعية) العالم كما تفهمها مجتمعات كثيرة، وهذا أمر مؤسف؛ لأن معناه هو أننا نعمل منذ البداية على استبعاد المنهج العلمي من بحث الموضوعات التي تمس صميم حياة الإنسان، أعني الموضوعات السياسية والاجتماعية والأخلاقية مع أن هذه الموضوعات قد تكون في أمس الحاجة إلى أن تبحث بالأساليب الفكرية السليمة.. فحين نختبر النظريات التي تنظم وفقًا لها حياتنا الاجتماعية عن طريق التطبيق، كما يفعل العالم في تجاربه المعملية، وحين نبحث عن العلاقات السببية الحقيقية بين الظواهر الاجتماعية، حين نفعل ذلك كله فنحن بغير شك نسدي خدمة جليلة إلى قضايا الإنسان المصيرية في مجتمعاتنا، وفي هذه الحالة يكون العلم قد أثبت وجوده في المجال السياسي والاجتماعي، مما يبدد تلقائيًا تهريج المشعوذين والأفاكين الذين يتحكمون في هذا المجال الحاسم بأساليب لا تمت إلى العلم أو التفكير السليم بأية صلة. » (١)

---

(١) دور الدولة والمؤسسات في ظل العولمة، صـ ١٦٧ وما بعدها، طبعة مكتبة الأسرة، سنة ٢٠٠٤م.

(١) التفكير العلمي، صـ٢٩٧، بتصرف، مرجع سابق.

وأنا أوافق الدكتور/ فؤاد زكريا في نقده لبعض المنظمات والجمعيات التى تشترط على العلماء الشروط التى أشار إليها، لكن اللوم الأكبر يقع على العلماء الذين يقبلون بهذه الشروط وهم يعلمون أن ذلك يعيقهم عن أداء واجبهم، أو يحصر عملهم في أضيق دوائر الإصلاح، وهذا يزري بذي المروءة، فضلاً عن العالِمِ الحر.

وقد يتذرع بعض العلماء بذرائع واهية، منها الإسهام في عمل الخير على قاعدة ما لا يدرك كله لا يترك جُلُّهُ، والمعلوم عند أهل العلم أن ما يجوز فعله عند العوام أو ربما ما يمدحون عليه لا يجوز فعله عند العلماء وقد يذمون عليه.

لذا يجب على العلماء أن يبينوا قيمة العلم، وأهمية العمل به في إصلاح المجتمع، ولا يلتفتوا إلى أهواء الناس مهما كلفهم ذلك من تضحيات.

والشيخ الغزالي رحمه الله يدعو القائمين على هذه الجمعيات والمنظمات إلى الرشد والظهور بالمظهر الإسلامي المشرف، ويحذر من شهوات النفس، وبَيَّنَ أن أكثرها « فتكًا بالأمم حب الرياسة وطلب الظهور وتحوُّل الناس إلى شراذم يقودها أمكرها أو أضراها.

قال لي صديق ـ والقول للشيخ الغزالي ـ : كان هناك خمسة أشخاص يريدون تكوين جمعية، فقال أحدهم: أنا الرئيس العام، وقال الثاني: أنا نائب الرئيس العام، وقال الثالث: أنا الوكيل العام، وقال الرابع: أنا المراقب العام، قلت: يجب أن يقول الخامس: وأنا العضو العام!

إن فراغ النفس والعقل وراء التطلع إلى الصدارة، واختلاق تشكيلات كثيرة (لا يكون إلا) لإشباع رغبة طفولية..» (١)

ثم يذكر الشيخ أن عمل الجمعيات جزء من رسالة المسجد لا يقل عن الصلاة وإقامة الشعائر، وأن هذا الأمر ينبغي أن يُنتخب له رجال يحسنون القيام بجميع المهام المتعلقة بعمل الجمعيات الخيرية ولجان الزكاة .

وتحت عنوان/ وظائف المسجد يقول الشيخ الغزالي: «صلاة الجماعة قربة يسعى المسلم إليها سواء في ذلك صَلَّى هو بالناس، أم صلى به أحد الناس..إلا أنه لوحظ أن مصالح الأمة الدينية والدنيوية تقضي أن يخلص لها نفر معينون، يقومون عليها، ويتفرغون لها.

فالحكم والتعليم والإدارة والقضاء وضروب من العبادات العامة يجب أن يتخصص لها أناس ذو

---

(١) كتاب الحق المر، صـ٢٠، مرجع سابق.

كفاية ودُربة.. وتلك هي طبيعة الأشياء كما أقرتها المجتمعات القائمة بالنظام الديني، أو القائمة بغيره من شتى النظم. وقد رُئِيَ أن مكانة المسجد في الإسلام لها خطر كبير، وأن ترك الإشراف عليها للصدف العارضة لا يليق.. إنه ـ لِضمان نتائج حسنة من هذه الأعمال ـ لابد من انتخاب رجال يحسنون القيام عليها.. فلا يسوغ للجماهير الغافلة أن تتبع مشاعرها الساذجة، أو تقف عند معارفها الضيقة فيما يعرو المجتمع العام من حرب وسلام وقلق وأمان، بل ينبغي أن ترتقب توجيه القادة من ذوي الفكر الحصيف والبصر النافذ...

ويستمر الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في ذكر الوعي الضروري للقيام بالأعمال الخيرية والشرعية في المساجد، وما اعتراها من وهن وضعف، ويبين أن المرجو والمأمول هو العمل المرموق الذي ينبغي أن تقوم به المؤسسات الدينية والمساجد الكبرى الراعية لتعاليم القرآن، يقول: « ويؤسفنا أن هذا المرموق من أهل القرآن لا وجود له ـ إلا ندرة ـ وأن الجامع الأزهر ووزارة الأوقاف لا ينهضان بهذا العمل الكريم...

والحق إن المسجد مرفق عام، يمكن أن تتوسع الدولة في استغلاله على نطاق واسع لرفع مستوى الجماهير ماديًّا وأدبيًّا، ويمكن أن تنوط به مهام اجتماعية منوعة، ولولا أن الإصلاحات الحديثة تكره أن يكون عليها طابع الدين لكان الدين دعامة كل نهضة بالبلاد إلى الأمام، ولكانت وظائفه من السمو بحيث لا يُنتقى لها إلا أصحاب السبق والكرامة والامتياز»[(١)]

والأمر ـ في اعتقادي ـ يحتاج إلى إرادة سياسية نابعة عن فهم صحيح لرسالة المسجد ودور القائمين عليه، ومكانته في توجيه وإصلاح حال المسلمين، وواقع المساجد ـ مع الأسف ـ أنها لا تؤدي رسالتها كاملة، أو حتى بالصورة التي تساعد على الإصلاح .. كما أن الأمر يحتاج إلى تربية نفسية وبدنية لتكون سندًا وعضدًا ودعمًا يرقى به أبناء المجتمع.

وهذا ما سأذكره ـ بعون الله ـ في الصفحات التالية.

---

(١) كتاب ليس من الإسلام، صـ١٨٥ وما بعدها، بتصرف، ط/ دار الشروق، ط/ ١، سنة١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

المبحـــث الأول:

التربية البدنية والنفسية

وفيه خمسة مطالب

المطلب الأول: أهـميـة الغـذاء والـدواء فـي الحيــاة الاجتمـاعية.

المطلب الثاني: الرياضة المفيدة ، وأهميتها في التربية النفسية والبدنية.

المطلب الثالث: السيـاحة و التأمـل، والترويـح عن النفـس بالمباح.

المطلب الرابع: التصـدي لـلأمـراض النفسـية ، وعلاجـها مبكـراً.

المطلب الخامس: التوازن والاعتدال وعدم الخروج عن الفطرة الإنسانية.

المطلب الأول: أهمية الغذاء والدواء والسكن في الحياة الاجتماعية.

الغذاء والدواء والسكن أهم مقومات الحياة بعد الماء والهواء، وهي أعقد المشكلات الاجتماعية التي كانت ولا زالت تؤرق المصلحين عمومًا، والمسئولين عن الإصلاح خصوصًا.

ولقد تحدثت عن وجود هذه المشكلات الثلاث(١) والآن أذكر أهميتها في حياة الإنسان واستقراره، وأثرها على معنوياته، وخطورتها على صحته النفسية.

وتكمن الخطورة في البيئة الفقيرة التي يعجز أبناؤها عن توفير الغذاء والدواء والسكن «لأن من يدرك خصائص البيئة الفقيرة حيث تدني مستوى المعيشة والتكدس السكاني، وغياب المرافق الصحية وظروف الإسكان التعسة والبيئة الملائمة لتكاثر الحشرات والقوارض، والعلاقات الحميمة بين الأجساد البشرية وبين البشر والحيوانات، لابد أن يستنتج أن القاع هو مهد الأوبئة»(٢).

والإصلاح الاجتماعي يتطلب النظر في هذه المشاكل، و العمل على حلها قبل تفاقم شرها، وتأثيرها السلبي على صحة الإنسان وحياته واستقراره، ولقد ربط الأطباء بين سوء التغذية وبين الأمراض النفسية، واعتبروا أن الأول سبب رئيس لوجود الثاني، لاسيما إذا كان مصاحبًا للمرء منذ نشأته الأولى التي يحتاج فيها للغذاء اللازم لنموجسده وعقله نموًّا طبيعيًا سليمًا.

« فالجوع ـ مثلاً ـ قبل أن يكون إحساسًا عضويًا فهو حالة افتقار فسيولوجي لابد من إشباعها، وهذا ما يعانيه سكان البلاد الفقيرة، وأنه ـ على حد قول الباحثين ـ أزمة غير مرئية، ومأساة يومية تحرم مئات الملايين من تحقيق حقوقهم منذ الولادة...إنها حقيقة علمية أكدتها الأبحاث، ففي البلدان النامية يمثل سوء التغذية المشكلة الصحية الأولى، ويكمن سببها الرئيس في عدم القدرة على الحصول على الغذاء الملائم.»(١)

لذا أجد شبه إجماع بين القائمين على منظمات المجتمع المدني والجمعيات في تقديم مسألة الغذاء والدواء على غيرهما، إذ يحتلان المركز الأول في الأهمية وترتيب الأمور وجدولة الأعمال، ثم يأتي التعليم والسكن بعد ذلك. ومن خلال اطلاعي على كتابات د/ فؤاد زكريا وجدته يهتم بالعنصر الجمالى في البيئة أكثر من اهتمامه بالغذاء والدواء والسكن في الحياة الاجتماعية، فمثلاً يقول: « إن البيئة الجمالية بدورها ينبغي أن

---

(١) في الباب الثاني، الفصل الثالث، المبحث السادس.

(٢) أمراض الفقر والمشكلات الصحية في العالم الثالث، تأليف: د/ فليب عطية، طـ / دار المعرفة رقم ١٦١ سنة ١٩٩٢م، صـ ١٢٧ وما بعدها، بتصرف.

(١) المرجع السابق، صـ ٤٥ ، ٤٦، بتصرف.

تكون موضوعًا لاهتمامنا وعنايتنا، فالطفل الذي ينشأ في بيئة تتسم بالقبح، ولا يرى حوله مظهرًا من مظاهر الجمال أو الذوق أو التناسق والانسجام، يكون قد افتقد عنصرًا هاما من عناصر إنسانيته...

ففى البلاد الفقيرة لا يكون هناك مجال الاهتمام بالجمال، وحيث تسود الأزمات الاقتصادية ويتكدس الناس في بيوت متهالكة وتضيق الأرض بمن عليها، لا يتوقع من أحد أن يحرص على وجود لمسات جمالية في البيئة، أو على ترك مساحات خضراء واسعة لتنقية الهواء وتنقية النفوس معًا، ما دامت لقمة العيش هي الشغل الشاغل للجميع.

هذا العامل الجمالي يمثل العنصر الأهم من عناصر مشكلة البيئة في بلاد العالم الثالث.»[(١)]

أقول: وإذا كان الجمال مطلوبًا فإن الأهم منه هو توفير حد الكفاية، فإذا توفر للناس ما يكفيهم فكروا في الجمال والرفاهية، وكنت أود من د/ فؤاد زكريا أن يقدم لنا حلولاً غير التي ذكرتها عنه، وهى تحديد النسل، وطلب الإعانة من الدول الغنية [(٢)] لكنه ما فعل.

إن هذه الأمور ـ الغذاء والدواء والسكن ـ ضروريات حياة، لا تستمر الحياة بدونها ولا يمكن للإنسان أن ينشأ سويًّا في عقله وجسمه ومروءته ودينه وخلقه وهو يعانى ويلاتها، محروم من خيراتها يقول الشيخ الغزالي: « قد رأيت بعد تجارب عدة أننى لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة.

إنه من العسير جدًّا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان بدنه عاريًا، إنه يجب أن يُؤَمَّن على ضروراته التي تقيم أَوَده كإنسان، ثم يُنتَظر بعدئذٍ أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان.

كثيرًا ما وجدتَني أعالج وعظ الناس في بيئات صرعها الفقر والمرض والجهل، فكنت أحار.. ماذا أقول لهم؟ هل أقبح لهم الدنيا كما يُظَن أنه مفروض على علماء الدين؟

إن الدنيا لن تكون أقبح مما عليه في أعين هؤلاء التعساء، وحاجتهم إلى من يعرفهم أركان الحياة أمسُّ من حاجتهم إلى من يعرفهم أركان الإسلام.

وجمهورهم لا يدري الأساليب الصحيحة للزراعة والصناعة والتجارة فضلاً عن أن يعرف كيف

---

(١) التفكير العلمي، صــ٢٢٥، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) انظر الفصل الثالث، من الباب الثاني، المبحث السادس، وقد بينت موقف د/ فؤاد من هذه المشكلات.. ورأيه في مواجهتها لا يخرج عن تحديد النسل وطلب الإعانة من الدول الغنية.

يعامل ربه وإخوانه و حكامه!.

وهؤلاء التعساء مذهولون عن أنفسهم، تائهون عن حاضرهم.

إن الشعور بالهوان والحرمان قد شل تفكيرهم، فأنَّى يعرفون ربهم أو يشعرون بما قد قدموا له؟!.» [(١)]
لأن الحرمان له تأثير قوي ومباشر،ولا يُنكر أنه يؤثر على المزاج العام للإنسان، فضلاً عن خلقه وتعامله مع الناس، وكما قيل: العقل السليم في الجسم السليم، ولا يسلم الجسم والعقل من الأمراض العضوية والنفسية والأخلاقية إلا بالدواء والغذاء والسكن والتربية والتعليم، والمرء الذي لا يملك القوت مجردًا أنّى له بذلك؟

المطلب الثاني: الرياضة وأهميتها في التربية النفسية والبدنية.

الرياضة المفيدة هي الرياضة الهادفة لبعث الهمم، وبناء الجسم السليم، والتفكير البديهي والسريع، والعمل بروح الفريق، والرغبة في تحقيق الأهداف المشروعة، والتغلب على تحديات الغير، وتحقيق النصر، والاستفادة من الهزيمة ببحث أسبابها، والعمل على تلافيها مستقبلًا.

وكما أن الغذاء والدواء ضروريان للإنسان لا يستغني عنهما، فإن الرياضة المفيدة لابد منها لترويض الفكر، والتدريب على القيام بالواجب، وبناء الثقة في النفس والقدرة على المنافسة، والتغلب على الصعاب وكسر حاجز الخوف بمواجهة الأقوياء، والتصدي لضربات ومهارات المهاجمين والمحترفين، والرغبة فى النصر عليهم.

والواقع يؤكد أن منظمات المجتمع المدني ـ وأخص بالذكر النوادي الرياضية ومراكز الشباب ـ تهتم بالرياضة عمومًا، لا فرق بينها وبين مراكز الشباب والنوادي العالمية في الممارسة والأهداف، ولها نظام حازم ودقيق فيما يتعلق بالثواب والعقاب، لايوجد مثله فى أمور الجد، وقوانين الثواب والعقاب الخاصة بالعمل، ومعاهد العلم، وورش الصناعة والإنتاج.

بيد أن هناك أمورًا يجب ذكرها حتى تؤدى الرياضة رسالتها، ومن أهمها ما يلى :-

١ - التفريق بين الذكور والإناث، واختيار النشاط المناسب والحلال والمفيد لكل منهما.

٢ - ستر العورات، وترك العنف والعصبية والرغبة فى الانتقام.

٣ - اختيار الوقت المناسب الذى لا يتعارض مع الواجبات، كالصلاة والتعليم والإنتاج.

٤ - عدم المغالاة والإسراف؛ لأن الرياضة تندرج تحت اللهو المباح.

٥ - البعد عن المحرمات، كالقمار وتعاطي المخدرات.

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـ ٦١ وما بعدها، بتصرف يسير، مرجع سابق.

٦-عدم الضرب المبرح، وتعذيب النفس والحيوان والطير.

ومع الأسف قليل من يراعي هذه الضوابط[(١)] إلا ما رحم ربي.[(٢)]

المطلب الثالث:- السياحة والتأمل والترويح عن النفس بالمباح.

كثيرًا ما يأمرنا الله تعالى أن نسير في الأرض، وأن ننظر ما فيها وما فوقها، وآثار السابقين من أهلها، وأن ننظر إلى السماء، وأن نتأمل نجومها وكواكبها وعجائبها..

قال ﷻ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج:٤٦] وقال ﷻ: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٧].

ويحذر الله ﷻ من الغفلة وعدم الاعتبار، فيقول: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥] فالسياحة المصحوبة بالتأمل في عظيم صنع الله في خلقه فوق أرضه وسمائه لا شك أنها تبعث على الخشية والخشوع، والتواضع والطمأنينة والمرء الذي يحصل على ذلك هو إنسان صالح في نفسه، يمكن له إصلاح غيره أو توجيهه إلى الصلاح.

والنفس البشرية تمل وتكل، والنبي ﷺ قال لحنظلة رضي الله عنه بعدما شكى له انشغاله بالأولاد والأزواج والضيعات :(.. يا حنظلة ساعة وساعة..)[(٣)].

يقول الشيخ/ الغزالي: " في تدبري للقرآن الكريم وجدت أن الله ﷻ يلفت أنظارنا وبصائرنا إلى الكون الذي تجلت فيه أسماؤه وصفاته، إن الكون غال ونفيس في نظر القرآن الكريم، وغلاؤه أو نفاسته لأن الله هو بديع السماوات والأرض المبدع، وفي آفاق السماء وفجاج الأرض وجدنا الألوهية تتجلى قدرة وعلمًا وجمالاً وجلالاً وحسنًا، ولله الأسماء الحسنى، انظر إلى قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الحجر:١٦] ونرى كلمة البهجة﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ [ق] إن الله جل شأنه زرع القمح

---

(١) لا يمر شهر إلا وأذهب إلى مراكز الشباب بتكليف من الأوقاف، أو بطلب من القائمين على أمر هذه المراكز لإلقاء محاضرة أو المشاركة في ندوة، وهذا جعلني أتعرف عن قرب على نشاطات وممارسات هذه المراكز، وقد وجدتها لا تخلو من مخالفات شرعية.

(٢) انظر كتاب الثقافة السيكلوجية التعبير الموسيقى، د/ فؤاد زكريا، حيث لا يتقيد بشيء من هذه القيود، وانظر كتاب الحقيقة والوهم صـ١٩٠، ١٩١، وتأمل كيف يولي د/ فؤاد مسألة الموسيقى والرقص والسينما والتمثيل أهمية بل ويتخوف عليها من مجرد احتمال ضعفها إذا ما انتصر دعاة تطبيق الشريعة الإسلامية، وكأن هذه الفنون- بحالتها الراهنة- هي أقصى ما يحتاجه المجتمع لحل مشاكله المعقدة والمتنوعة والمتغلغلة (باعترافه) في كل مجالات الحياة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه من حديث حنظلة الأُسَيِّدِيّ رضي الله عنه، برقم (٢٧٥٠) كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر.. وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والانشغال بالدنيا، صـ٦١٥، مرجع سابق.

لنأكل، فهل الزروع هي القمح فقط؟ فما مكان الورود والأزهار والرياحين في الكون؟! كما خلق القمح والأرز لنأكل خلق الأزهار والرياحين لنطلع عليها، ونتبسم لرؤياها، ونهش للجمال الذي أشاعه الله في أوراقها وروائحها ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩].

الكون فيه جمال كثير، والله ﷻ من أسمائه (الجميل)[١] وقد أشاع من هذا الاسم الحسن معاني الجمال في الدنيا، فإذا كان بعض الناس يعمى عن رؤية الجمال في الأرض والسماء، فهو مسئول عن الحجاب الذي نسجه على بصيرته، وإذا كان هناك من الناس من تفتحت أشواق نفسه على ما في الكون من جمال، فأحب الكون الذي خلقه الله لأنه يحب الله نفسه، ويحب ما خلق. »[٢]

ومع الأسف كثير من القائمين على أمور السياحة والترويح عن النفس لا يهدفون إلى هذه المعاني والقيم السامية ـ التي أشار إليها الشيخ ـ بقدر ما يرغبون في اللهو واللعب والاستمتاع بالطبيعة، وكسب المال وأشياء أخرى محرمة وهادمة لا تمت إلى تربية النفس بأيّ صلة.

وما أود ذكره هنا أن هذه الأعمال يؤجر المرء بها إذا جعلها عبادات، ولا تكون كذلك إلا إذا انضبطت بضوابط الشرع، وسلكت مسالكه، و حققت أهدافه.

المطلب الرابع: التصدي للأمراض النفسية، وعلاجها مبكرًا.

قد تفشل التربية النفسية أو تخفق لأسباب يمكن احتواؤها والتغلب عليها مبكرًا ومعالجة آثارها قبل استفحال خطرها، وفوات أوان علاجها، وذلك كالانطواء والعزلة وعدم الكلام، وضيق الصدر، والخوف من المجهول والمستقبل، وعدم الثقة في النفس، وهذا كله يحتاج إلى علاج مبكر وجهد مخلص من المصلحين ومن أطباء علم النفس، إسهامًا منهم في الإصلاح، ويحتاج أيضًا دعماً مادياً من الأغنياء والدولة حتى نعالج أسباب المرض قبل وقوعه وتفاقم خطره.

« إن الشرود والقلق والاكتئاب والتمركز حول الذات، وعدم المثابرة، وسلوك رد الفعل، والغضب والإحباط والعدوان... كلها أمراض تخلقها غالبًا البيئات الفقيرة وأن هناك علاقة واضحة بين الازدحام والصحة النفسية، وأن الإنسان عندما يحيا في بيئة مضطربة خالية من النظام والانسجام والتوافق تمتلئ نفسه بالكآبة، وعندما يتحول مسكنه إلى مجرد مأوى يصبح ذئبًا وليس إنسانًا، وتفيض نفسه بالقلق والتوتر وأحيانًا بالهلع.. وأن هذه الأمراض قد تؤثر على الجنين وهو في بطن أمه بسبب الظروف التي تمر بها الأم،

---

(١) لم يرد لهذا الوصف (الجميل) ذكر في الأسماء التي نصت عليها بعض كتب السنة، ولعل الشيخ يشير إلى حديث (إن الله جميل يحب الجمال)، وورود لفظ (الجميل) في الحديث ليس مسوغًا لتسمية الله به حتى لا يسمي الرجل ولده عبد الجميل.

(٢) حوارات الشيخ الغزالي السيرة والمسيرة، صـ٢٢٧ ومابعدها، مرجع سابق.

فيؤثر ذلك في تكوين الطفل قبل ولادته، فما بال الأثر الذي تؤديه المؤثرات ذاتها بعد أن يولد الطفل ويصبح شابًا وبالغًا.

تقول الدراسات: إن الأعراض الاكتئابية قد انتشرت في الريف بمعدل ٣٤٪ من مجموع السكان والمدينة ٢٨٪ ففي مصر وحدها مليونا مكتئب حيث إن من ٥ ـ٧ ٪ من أي شعب يعاني الاكتئاب تشير كل المؤشرات العالمية أن القرن القادم سيشهد مزيدًا من الاكتئاب، وذلك لأسباب منها ضيق فرص العمل والمعيشة» [١].

وقد كان ما حذر منه الدكتور في كلماته السابقة، وذلك لأسباب كثيرة على رأسها العوامل المؤدية للأمراض النفسية وعدم التصدي لها مبكرًا؛ لأن المرء إذا أحس بالإعياء وعدم القدرة على مواجهة مشكلات الحياة شعر بالإحباط وعدم الرضا عن النفس، بل وشك في قيمته الذاتية ومكانته بين الناس، وعلى الأخص الضعفاء وذوي الاحتياجات الخاصة، وأنصاف المتعلمين ممن قل حظهم في التدين الصحيح الذي يبعث في النفس الثقة بالله تعالى والاعتماد عليه.

يقول الشيخ/ الغزالي:"الجسم المتفتح للحياة له إيحاء مليء بالتفاؤل والإقبال، ولذلك نرى العافية السابغة نعمة كبرى على الإنسان، ونَعُدُّ من مرشحات الكمال البشرى خلو الإنسان من الأمراض المنفرة والعاهات المزرية. بل نَعُدُّ البدن القدير على أداء الواجبات لولاية الوظائف الكثيرة، ومن ثَمَّ فكل عداء للبدن لا يقوم أصلاً على تفكير سليم، وليس له أساس في ديانات الله كلها. » [٢] لأن هذه الديانات ـ وعلى رأسها الإسلام ـ لا تسمح بالاعتداء على الجسم أو العقل، بل توجب المحافظة عليهما حتى يؤدي الإنسان رسالته التي من أجلها خُلِق.

المطلب الخامس:التوازن والاعتدال وعدم الخروج عن الفطرة الإنسانية.

هذا المطلب يحتاج أن نبسط القول فيه لأن الإسلام دين الفطرة، والفطرة هي الأشياء التي جُبل الإنسان عليها وولد بها ورُكِّبت في طبعه وأصل خلقته، فصارت جزءًا من تكوينه، وأثرت في حياته وصفاته ورغباته، فأصبح لا يقدر على مخالفتها، أو الخروج عنها بسهولة، وذلك لما لها من جاذبية في حياتة الإنسانية، كميوله إلى التدين والتمدن وحب النفس والجنس والشهوات..

---

(١) انظر كتاب تشريح الشخصية المصرية مرجع سابق، صـ ٢٠٧ ـ ٢١٣ـ ٢١٦ ، للدكتور أحمد عكاشة أستاذ الطب النفسي بكلية الطب جامعة عين شمس، وهو رئيس الجمعية المصرية للطب النفسي، ورئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب، وله أبحاث مطولة للمزيد من الفائدة يمكن الرجوع إليها في الصفحات المذكورة .

(٢) ركائز الإيمان، صـ٧٢، مرجع سابق.

والإسلام جاء متلائمًا مع فطرة الإنسان، متناسبًا مع مكوناتها، ملبيًا حاجاتها، منظمًا لرغباتها وشهواتها، معترفًا بها لها وما عليها، هادفًا إلى تحقيق سعادتها وقضاء مصالحها وبقاء نعيمها واتزانها وكرامتها وإنسانيتها. قال ﷻ:﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الروم:٣٠] .

ولقد بين النبى ﷺ أن الإنسان يولد على الفطرة، لكن عوامل أخرى هي التي تصرفه عنها، فقال:(كل مولود يولد على الفطرة فأبواه إما يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[١] .

ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة أن اختار لها هذه الفطرة، وهداها إليها، وضمن لها حفظها وبقاءها ونقاءها، ففي قصة المعراج قُدِّمَ لرسول الله ﷺ إناء فيه خمر، وإناء فيه لبن، وقيل له اشرب فأخذ ﷺ اللبن وشربه فقيل له:(هُديت الفطرة..أصبت الفطرة)[٢] وفي رواية (الحمد لله الذي هداك للفطرة) [٣].

وهذا يؤكد أن الإسلام دين الفطرة، وأنه كاللبن الأبيض الذي هو غذاء كامل وتام ومفيد للوليد الصغير، والعجوز الكبير، والصحيح والسقيم، ومع مختلف الأعمار وفي كل الأحوال، وذلك بخلاف الخمر الذي لعبت فيه أيدي البشر وغيرته عن طبيعته وخرجت به عن أصله الذي كان عليه، ففسد وتعفن وأصبح لا يناسب إلا فئة المنحرفين وإخوان الشياطين.

وبما أن الإنسان له حاجات ومصالح لا يستغني عنها، ولا يعيش بدونها - وهي كثيرة- فقد جاء الإسلام ليقضي له مصالحه و يلبى له احتياجاته ويسهلها له، بل ويحيطها بالرعاية والحماية، ويكون ذلك بتطبيق شرع الله تطبيقًا كاملاً وحكيمًا وشاملاً حتى لا تذهب الفطرة مع الأنانية والفوضى، والظلم الذي يلقاه الإنسان ممن هو أقوى منه.

و الدكتور فؤاد زكريا يرى أن التوازن والاعتدال لا يكون بالتطبيق الحرفى للشريعة الإسلامية، وإنما يكون برفع الظلم والكبت والقمع والتسلط الفكرى، وإطلاق الحريات وعدم احتكار الثروات، وتفريق الصفوف وتخدير العقول، وكأن هذه الأمور بعيدة عن الشريعة.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حدبث أبي هريرةﷺ، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات.. برقم (١٣٥٩)، صـ١٩٤، مرجع سابق، ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة أيضًا كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.. برقم (٢٦٥٨) صـ٥٩٦، مرجع سابق.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حدبث أبي هريرة ﷺ، برقم (٣٤٣٧) كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى:(واذكر في الكتاب مريم..) صـ ٤٩٤، مرجع سابق.

(٣) رواه البخاري في صحيحه من حدبث أبي هريرة ﷺ، برقم (٥٥٧٦)، كتاب الأشربة، باب قوله تعالى(إنما الخمر والميسر..) صـ٨١٣، مرجع سابق.

يقول: «إن كثيرًا من المعترضين على مقالاتي قد تمسكوا بالحجة القائلة إن تطبيق الشريعة هو الآن مطلب شعبي واسع النطاق، ولست أملك أن أخالف رأيهم في هذه المسألة، ولكن كل ما أستطيع أن أرد به عليهم هو أننا نشأنا في بلد إسلامي، وظللنا عشرات السنين لا نعرف إلا مواطنين متدينين معتدلين، يمارسون العبادة من خلال العمل والكفاح في سبيل النهوض بأنفسهم ومجتمعهم، ولم تكن صيحة المطالبة بتطبيق الشريعة إلا صيحة خافتة لا تأثير لها على المجرى العام لحياة الناس. هذه هي صورة الدين كما عرفه شعبنا طوال أجيال عديدة. أما الموجة الحالية فإنها- برغم انتشارها الواسع- ظاهرة جديدة ودخيلة على التدين المصري العاقل الهادئ، وكأي ظاهرة دخيلة ينبغي علينا أن نتعقب أسبابها إلى عوامل طارئة، كالقمع والتسلط الفكري والسياسي وانعدام المعارضة والنقد، وإلى عوامل خارجية مثل سعي الثروة البترولية إلى تأمين نفسها، وبحث القوى المعادية لتقدمنا عن وسيلة لتخدير عقولنا، وتفريق صفوفنا، وصرف انتباهنا عن خصومنا الحقيقيين في الداخل والخارج.» (١)

إن المتأمل في كلام الدكتور/ فؤاد زكريا السابق يعلم أنه ينطوي على مغالطات كثيرة، منها أنه يرى أن فهم الأفراد وعملهم في الدين كاف لإقامة الدين، وأن حياة الآباء والأجداد وممارستهم العبادة وشعائر الدين هي الشريعة المقبولة والممكنة، أما الدعوة إلى إقامة الحدود الشرعية، ووضع القوانين الملزمة بمبادئ الشريعة الإسلامية، فهذا جديد ودخيل على مصر، ويهدف إلى تخدير عقولنا ويخدم خصومنا في الداخل والخارج.

ولا أدري من هؤلاء الخصوم الذين يعنيهم د/ فؤاد زكريا؟وكيف أن تطبيق الشريعة الإسلامية بما فيها من حدود، يخدم أعداءنا في الداخل والخارج؟وأنا لا أدري كيف أن أحكام الشريعة الإسلامية تخدم الأعداء ؟هل يقصد د/ فؤاد أننا نتعامل معهم على أسس شرعية تفرق بين المحارب والمسالم والمعاهد أم ماذا؟هل نسي الدكتور/ فؤاد أن رفع المظالم وإطلاق الحريات والعدالة فى توزيع الثروات بعض فرائض الدين؟ هل نسي الدكتور ما كانت عليه الأمة الإسلامية من رفعة وعز ووحدة وقوة وريادة وتفوق فى جميع المجالات؟ هل كان ذلك بالمنهج العلماني الذي يدعو إليه؟ كلا فالوضع الحالى للبلاد والعباد يؤكد احتياج الناس للدين، وأن الفطرة والتوازن والاعتدال فى فهم الإسلام والعمل به، وليس في إقصائه والتنكر له.

ولنضرب مثلاً واقعياً يؤكد خطورة الخروج عن الفطرة التي فطر الله الناس والمخلوقات عليها. «عندما قدَّم الإنسان للطيور والأبقار أعلافاً مخلوطة بالدم المسفوح بدلاً من العشب، أصيبت الطيور بأمراض قاتلة، وتمردت الأبقار علي الإنسان، وأعلنت رفضها لهذا المسلك، فأصابها الجنون حتى تمنع

(١) الحقيقة والوهم د/ فؤاد زكريا، صـ٢٠٩، مرجع سابق.

خيرها عن هذا الإنسان الطاغى المتجاوز لحدود الفطرة التي لا تصلح الحياة إلا بها.

وفي بلادنا العربية والإسلامية خرج بنا المضللون عن أبجديات الفطرة.

ولنا أن نتسائل: أما آن للأبقار العربية أن تصاب بالجنون؟» (١)

يقول الشيخ الغزالي: «بين الإنسان وأجناس المخلوقات الأخرى وجوه من الشبه والاختلاف عرفها العلماء وبنوا عليها أحكامًا شتى، فالإنسان جسم حي وعقل واع، وهو في جسمه يشبه صنوفًا من الحيوان الأعجم، وفي عقله يشبه الجن والملائكة، وهما من عالم الغيب الذي يؤمن به المتدينون وحدهم، ومع شبهه المقرر بهذه أو تلك فهو كائن متميز بخصائصه العليا والدنيا، وله وظيفة انفرد بها وارتبطت بأوصافه المادية والأدبية جميعًا، ولا فكاك بين هذه العناصر التي تَكَوَّن منها الإنسان، فهو يكلف بجملة مواهبه ويؤديها كذلك بكيانه كله.

والعلاقة بين جسمه وروحه وعقله من الامتزاج والتعقيد بحيث يستحيل فصمها إلا بالموت. وقديمًا فكر بعض الناس أن إهمال الجسد وتجاهل مطالبه طريق الارتقاء النفسي، وفهموا أن التسامي الحق لا يتم إلا برياضات عنيفة يستكين بعدها البدن ويسلس زمامه، وقد انتقل هذا التصور إلى كثير من المتحدثين في الدين، حتى ظن أن التقوى منزلة لا يحرزها إلا أعداء أجسامهم، وشاع هذا الظن بين المتدينين الأقدمين، ثم تلاشى تقريبًا في هذا العصر المادي الطافح بالرغبات المجابة والغرائز المدللة.

والأمر يحتاج إلى قدر من التريث في النظر والحكم.

إن المرء لا يستغني عن بدن صحيح الأعضاء والمشاعر، وأي علة تعتريه فهي نقص يكون تافهًا أو سيئًا، والملحوظ أن الإنسان السوي القوي أشد تجاوبا مع الحياة وأقدر على تذوقها وأداء رسالتها، وإقامة حق الله فيها.» (٢)

وهذا ما يتفق عليه جميع العقلاء والمصلحين، ولكن يحتاج في فهمه والعمل بمقتضاه إلى تربية فكرية ناضجة، وتربية علمية مفيدة.

وهذا ما سنذكره فى المبحث التالى.

---

(١) أخذت هذه الكلمات مشافهة من فضيلة الدكتور/ شرف الدين أحمد آدم ، المشرف على هذه الرسالة.

(٢) ركائز الإيمان، صـ٧١ وما بعدها، مرجع سابق.

المبحث الثاني:

التربية الفكرية والعلمية

وفيه خمسة مطالب

المطلب الأول : الإصلاح العلمي والفكري ، شرط أساسي للإصلاح الاجتماعي.

المطلب الثاني : الحرية الفكرية والشخصية، والضوابط الشرعية والوضعية.

المطلب الثالث : التفريق بين الفكر الإسلامي و (الإسلام ذاته).

المطلب الرابع : الثقافة الذاتية ، والاعتماد على النفس و(التنمية الفكرية).

المطلب الخامس :التدريب المستمر ، والرغبة في التطوير والتطور.

المطلب الأول: الإصلاح العلمي والفكري شرط أساسي للإصلاح الاجتماعي.

ذكرت في أول هذا البحث علاقة الإصلاح الاجتماعي بالإصلاحات الأخرى، ومنها إصلاح مناهج التعليم وإصلاح المعلم، وبينت أن هذا الأمر يتطلب إعادة النظر في طريقة التعليم، والمواد المقررة وتطويرها بالقدر المطلوب والمناسب لمتطلبات العصر [١].

والآن أخص من بين هذا العموم مسألة الفكر وطريقة ضبطه، وجعله فكرًا علميًا يرتقى بالمجتمع، ويصلح من شأنه، فلقد رأيت فارقًا كبيرًا بين الدكتور/ فؤاد، والشيخ/ الغزالي في هذه المسألة.

إذ يرى د/ فؤد زكريا أن التفكير العلمي هو القائم على حقائق ومسلمات يقبلها العقل ويثبتها، أو واقعًا ملموسًا يُرى أو يُعرف بالاستقرار والتجربة والملاحظة، لا بالغيب ولا بالتراث (الدين) مهما كانت درجة قدسيته أو كثرة أنصاره. فالعقل، والعقل وحده هو الحَكَم على العلوم والأفكار، لا شيء غيره.[٢]

يقول: «المشكلة الحقيقية التي جعلت من نظرتنا إلى التراث عاملاً رئيسيًا في تخلفنا الفكري، ليست كون هذا التراث مليئا بالعناصر الغيبية أو الخرافية أو اللاعقلية - مع اعترافنا بالخطورة الشديدة لهذه العناصر- بل في كون هذا التراث منافسا للحاضر بطريقة لا تاريخية. والوضع الصحيح هو ألا تكون هناك أي منافسة بين الماضي والحاضر، لأن الحاضر يضمه في داخله ويتفوق عليه...

ومعنى ذلك أن التشخيص الذي نقدمه لظاهرة التخلف الفكري يتخلص من التضاد بين أنصار التراث وخصومه، ويتجنب أخطاء الفريقين المستمرة من لوم للتراث بلا تحفظ، أو امتداح له إلى حد إطالة فاعليته حتى العصر الحاضر؛ لأن هذا التشخيص يضع التراث في إطاره التاريخي، ويؤكد الفارق النوعي بينه وبين الحاضر، أي استحالة المقارنة بينهما...

إن إصلاح حاضرنا من خلال منطق العصر هو الإحياء الحقيقي للعناصر المجيدة والزاهية في تراثنا، حتى لو لم يكن من الممكن التعرف على هذه العناصر في ثقافتنا الحالية، ولابد أن يؤدي امتلاء الحاضر بالمعنى وبالمضمون وبالهدف إلى نظرة أكثر ثقة وأكثر موضوعية إلى التراث، أما فراغ الحاضر وعجزه فهو الذي يؤدي إلى تشويه فكرتنا عن الماضي، إما بالمدح الزائد وإما بالذم المفرط .» [١]

---

(١) انظر الفصل التمهيدي، إصلاح التعليم.. وإصلاح المصلح ذاته...

(٢) الدكتور/ فؤاد يؤكد ذلك فى جميع كتبه ومقالاته ومناظراته، على سبيل المثال لا الحصر انظر كتاب نظرية المعرفة والموقف الطبيعى للإنسان، مرجع سابق، وكتاب نقد منهج وشبهات د/ فؤاد زكريا الربانية، د/ قنديل محمد قنديل، مرجع سابق .

(١) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، صـ٣٧، ٦٢ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

وهكذا فالدكتور/ فؤاد زكريا يفتعل معركة وهمية بين التراث الإسلامي، وبين الحاضر وأنصار كل منهما، وهذا من وحي خياله هو بسبب تعصبه للفكر العلماني، ولو أنصف لَعَلِمَ أن لا تعارُض بين مسلمات العلم ووحي السماء، وكان الأولى به أن ينهج نهج العلماء في الجمع بين التراث ومتطلبات العصر، ويطالب المسئولين بتحصين الثقافة الإسلامية من الشوائب الفكرية المعارضة لهوية الأمة، ومنها الغزو الفكري الغربي الذي يسعى للهيمنة على الثقافة والفكر، وذلك من خلال وسائل إعلامه المختلفة، وإغراءاته المتعددة، ونفقاته السخية على المدارس والجامعات والمنظمات التابعة له والمروجة لأفكاره.

ولعلك تقول: إن د/ فؤاد لا يحارب التراث، ولا يدعو إلى الخروج عليه، إنما يدعو إلى بعث الماضي بطريقة إيجابية تتواكب مع روح العصر، والحق إن د/ فؤاد عند حديثه عن التراث لا يفرق ـ بوضوح ـ بين تراث يعتمد على القرآن الكريم والسنة الصحيحة وتجارب المسلمين الناجحة، عبر تاريخهم الطويل، وبين تراث يعتمد على الخرافات والتجارب الفاشلة فهو ـ غفر الله له ـ يخلط بطريقة توحي للقارئ أن التراث لا يمكن أن نعتمد عليه في إصلاح الحاضر والمستقبل، بل ويدعو صراحة إلى الفصل التام بين الماضي والحاضر على أساس أن الحاضر يحوي الماضي ويتفوق عليه.

لذا نقول لأنصار الدكتور ـ غفر الله له ـ :الاعتزاز بالثراث الإسلامي الذي رفع الأمة العربية وجمع شملها وحفظ أرضها ومقدساتها أمر مطلوب، وهذا لا يعني (أبدًا) الركون إلى الماضي، أو الذهول عن الحاضر والمستقبل، أو أنه يعارض حرية التفكير المستنير، والتطوير النافع والرافع للمستوى الفكرى والمادى للإنسان.

كان الأولى بالدكتور وأنصار الفكر العلماني أن يطالبوا «الأجهزة المسئولة عن الثقافة الإسلامية في ديار المسلمين أن تسعى لتنشيط حركة إحياء التراث الثقافي الإسلامي، وتبسيطه لكل المستويات البشرية، وتعمل على ترجمته إلى اللغات المتداولة في القطاع الإسلامي، وتخليص السنة النبوية من الشوائب التي أقحمها أعداء الإسلام على الأحاديث النبوية، فالثابت أن الوضع في الحديث النبوي قد انتعش لدى المغرضين من أعداء الأمة المحمدية، في زمن الغفوة الإسلامية.

ولا شك أن معاركنا الثقافية متعددة ومتشعبة، وعلى قائمة هذه المعارك، التصدي للفكر الاستشراقي الذي لا يتورع عن بث سمومه في ثقافتنا؛ لأن الحقد على الإسلام كامن في قلوب أعدائه، فلا يوجد دين سماوي انهالت عليه سهام الأعداء مثل الإسلام، ولا توجد شعوب تعرضت للغزو مثلما تعرضت

الشعوب الإسلامية، ولا توجد مقدسات دينية تعرضت للاعتداء والاغتصاب مثلما تعرضت المقدسات الإسلامية » [١]

ومن العدوان أن نطلق لفظ (التراث القديم) على القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وأنهما من الماضي العتيق الذي جاء في زمان غير زماننا لأناس غيرنا، وهذه مغالطة كبرى دأب عليها العلمانيون ولا يزالون.

إن الإصلاح الفكري والعلمي يستلزم الفهم الصحيح للدين والدنيا معاً، في ضوء المستجدات التي وصلت إلى حد المسلمات القطعية، كعلوم الذرة والفضاء والجيولوجيا والأحياء والهندسة الوراثية والمعمارية والطب، فالوحي الإلهي وتجارب الأولين كلاهما عامل فاعل ومهم في تنشيط الفكر الحديث، وضبطه وتوجيهه التوجيه الصالح، ولا يجوز البتة أن ننكر أحدهما لنثبت الآخر بدعوى الثقافة والحداثة، فالثقافة الحقة تجمع بين ثوابت الماضي وقيمه وقدسيته، وبين الحاضر ومتطلباته.

يقول الشيخ الغزالي: « لست مستريحًا لحاضر الثقافة الإسلامية، ولا مطمئنًا على مستقبلها، فهي ـ فيما أرى ـ لا تعطي صورة دقيقة ولا كاملة للإسلام كما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وكما سار به الأسلاف العظام في أرجاء الأرض، فتحولت بهم إلى ربيع مزهر وحياة نابضة.

هذه الثقافة لا تزال تحمل في أطوارها صورة مجتمعات إسلامية معتلة، وقضايا فكرية وعاطفية جديرة بأن تودع في المتاحف، لا أن تدفع إلى دنيا الناس. ومع احتواء الثقافة الإسلامية على ذلك التراث الثقيل فهي خالية وفقيرة من العناصر التي تكون المسلم القدير على مواجهة ذلك العصر وأحداثه، وعلى استبطان مقادير من اليقين والحماسة والرشد والبصيرة تجعله ينطلق في كل ميدان، ويمد رسالته إلى كل أفق.» [٢]

وهذا ممكن ويسير، وليس مستحيلًا أو عسيرًا، إلا أنه يحتاج إلى صدق نية، وإرادة قوية من العلماء والأمراء والشعوب، كما يحتاج إلى ثقل المواهب وتشجيع الموهوبين، ووضع مساحة كافية للإبداع المثمر المفيد، والفكر الرشيد الذي لا يتعارض مع الحدود الشرعية والضوابط الأخلاقية.

وهذا ما سأذكره في المطلب التالي.

---

(١) صحوة الرأي العام الإسلامي، صـ١٧٧ وما بعدها، مرجع سابق، وللمزيد انظر كتاب (تجديد الفكر الديني بين الصحوة الإسلامية والمؤامرة العلمانية)، د/ جمال سلطان، ط/ دار النصر، وانظر (كتاب تجديد الفكر الإسلامي)، د/ محسن عبد الحميد، ط/ دار الصحوة، وكتاب (منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام)، د/ محسن أيضًا، ط/ مؤسسة الرسالة، وكتاب(فكر المسلم المعاصر) لمجموعة من العلماء، ط/ مركز الأهرام، وكتاب (الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار) د/ محمد البهي، مرجع سابق.. وغيرها من الكتب التي تكلمت عن إصلاح الفكر في ضوء الشرع وقواعد الفقه.

(٢) كتاب ركائز الإيمان بين العقل والقلب، للغزالي، صـ ٧، مرجع سابق.

المطلب الثاني: الحرية الفكرية والشخصية والضوابط الشرعية والوضعية.

الحرية الفكرية مكفولة في الإسلام، فالإسلام لا يحجر على فكر، ولا يمنع التفكير، ولكن يمنع الدعوة إلى الكفر والفساد باسم حرية الفكر(١)..

والدكتور فؤاد زكريا لا يقيد الفكر بأى ضابط اللهم إلا العقل والمادة، ويعجب من الفكر الإسلامى المعاصر ومن كثرة انتشاره وأنصاره وقوة سلطانه، ويرى أن هذا الفكر يبحث عن مخرج يغنى المجتمع من الأفكار المستجدة كالليبرالية والديمقراطية. يقول:« في تصوري أن الانتشار الهائل للدعوات الإسلامية إنما يعبر في الأساس عن رغبة في البحث عن مخرج لمن لا مخرج لهم.. والقهر هو الوسيلة الوحيدة لبقاء الأنظمة القائمة، وأهم ما يترتب على القهر هو تلطيخ سمعة البدائل الأخرى كالليبرالية وحكم الأحزاب، واليسار والاتجاه الديمقراطي بكافة أشكاله، فهذه البدائل تتعرض للنقد والتجريح دون أن تكون قادرة على الرد، أو الدفاع عن نفسها، وفي ظل فقدان العدالة الاجتماعية والرشد الاقتصادي، وضلال التوجه الاقتصادي، وانهيار القيم الأخلاقية والفكرية ما الذي يتبقى أمام الإنسان ـ وخاصة الشباب ـ إلا أن يعلن كفره بكافة الأنظمة الدنيوية والبشرية من خلال تأكيد إيمانه بالنظام الإلهي!! وكذا يقترن الانتشار الكمي الهائل بخواء وهزال في المضمون، وتصبح اليقظة التي لا تقاس إلا بالعدد والمقدار غفوة فكرية، وتغدو الصحوة كبوة عقلية...» (٢)

ويكفي للرد على كلماته السابقة أن نتأمل هذه الكلمات منه شخصيًّا، فهي معبرة أصدق تعبير عن فكر الدكتور/ فؤاد زكريا ومدى انحرافه عن الصراط المستقيم يقول: «أكاد ـ في لحظتي هذه ـ أسمع احتجاج القارئ، وخاصة لو كان شابًا، وهو يقول: لقد هَدَمْتَ كل مقدساتنا، ولم تترك إلا حطامًا، وشككت الناس في كل شيء، وكل شخص، ولم تقدم بديلًا إيجابيًّا.

وردي على هؤلاء هو أنني لم أستهدف ـ كما قلت مرارًا ـ أي شخص بعينه أما الهدف الأصلي الذي كنت أسعى إليه، فهو أن أحث قرائي على أن يفكروا فيما يرونه حولهم بوعي وتبصر، ولا بأس خلال ذلك أن تتزعزع مقدسات كثيرة، فأول مراحل العقيدة الصحيحة هي تحطيم الأصنام، ولا بأس من جريمة كبيرة من النقد والتشكك في عصر أصبحنا فيه ممنوعين من أي اعتراض، أو احتجاج» (١) .

---

(١) للمزيد انظر كتاب حرية فكر أم حرية كفر د/ أحمد محمد كريمة، ط/ دار الكتب المصرية، ٢٠٠٤م.

(٢) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، صـ٣٧، ٦٢ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(١) كم عمر الغضب هيكل وأزمة العقل العربي، صــــ٢٢٤ وما بعدها، بتصرف، ط/ ١، الكويت، ١٩٨٣م، وللمزيد انظر كتاب (اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية) د/ محمد سعيد البوطي، لنعرف أن أقل ما يقال عن د/ فؤاد وجماعته، أنهم يدعون إلى التحرر القريب من اللامذهبية.

الرجل واضح فى كلامه، لا يبالي أن تتزعزع مقدسات كثيرة، ولا بأس ـ عنده ـ من ارتكاب جرائم كبيرة من النقد والتشكيك في تراث ومقدسات الأمة الإسلامية والعربية، وهو يعلم أنه يوجه كلامه هذا إلى العرب والمسلمين، لا إلى الهندوس والصينيين.

أما الشيخ/ الغزالي فهو يفرق بين مقدسات يجب أن تبقى مقدسات، ولا يمكن لشيء أن يزعزعها ولا أن يشكك فيها، وهي المقدسات التي مرجعها كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وبين مقدسات تقوم على الباطل والوهم، فالشيخ رحمه الله واضح في دعوته بالتمسك بالكتاب والسنة والإجماع، واجتهاد الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين، وأن هذا هو الأساس والمهاد الذي يقوم عليه إصلاح الفكر والعقل والضمير، بل وينطلق منه وبه كل فكر صالح وكل عمل نافع.

أما د/ فؤاد فهو يستخدم - دائمًا ـ أسلوبًا ذكيًّا، لا يصرح بعدائه للقرآن والسنة، وفي ذات الوقت لا يشيد بهما، ولا يحث عليهما، ويستخدم دائماً جملاً وكلمات تشير إليهما أو إلى من يدعو إليهما، كالمقدسات والتراث، والقديم والماضي والتاريخ والعلماء الروحانيين..

الأمر الذي يجعلك ـ في بادئ الأمر ـ في حيرة وعدم وضوح، هل هو مع الوحي الإلهي الذي يَعُدُّهُ من التراث الماضي، أم هو ضده، أم يقبل منه شيئًا ويرفض أشياء؟ مع أنه لم يصرح أنه يرفض الوحي ـ كله أو بعضه ـ لكن يدعو ألا نرتبط بالتراث في حاضرنا، ولا في اجتهاداتنا وتفكيرنا، ولا نجعله أساسًا لمعاملاتنا ونهضتنا المستقبلية[1] وهذا خطأٌ كبير؛ لأن التراث الإسلامى مليئٌ بالفكر المستنير النابع عن الفهم الصحيح للإسلام.

يقول الشيخ الغزالي تحت عنوان/ الحرية الفكرية: «.. والحق إن الإسلام لا يلوم على حرية الفكر، بل يلوم على الغفلة والذهول، وهو لا يجعل هذه الحرية أيضًا من المباحات التي يباشرها مَن شاء، ويتركها مَن شاء، بل يجعلها حقًّا لله على الإنسان، فالمصابون بكسل التفكير واسترخاء العقل عصاة في نظر الإسلام، وتتفاوت جرائمهم بمقدار ما يترتب عليها من اضطراب الصلات الإنسانية بالله والحياة.

وتبدأ حرية التفكير من علاقة المسلم بدينه ونفسه، فإن قوام الإسلام ولب رسالته كتاب مفتوح ميسر للذكر، مطلوب من الأمة أن تتدبره، وأن تستفيد من شرائعه جميعًا.

ومنذ نزل القرآن وشق الرسول ﷺ به طريق الحياة، شرع العقل الإسلامي يشتغل بجهد رائع، ويعمل في حرية مطلقة، ويختلف العلماء باختلاف أساليب البحث، ووسائل النظر دون أي حرج» [1] لأن الحرج

(١) انظر كتابه الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية صـ١٢٣ وما بعدها، مرجع سابق، وانظر مقدمة كتاب (التفكير العلمي) مرجع سابق.

(١) حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، صـــ ٦٤ وما بعدها، وللمزيد انظر صـ ٦٥: ٨٤، مرجع سابق.

يقع بالتعصب الأعمى لفقيه دون فقيه، أو قائد على حساب آخر، أو لمذهب أو عرف يقول الشيخ: «والأطوار التي جدت على المجتمع الإنساني توجب على المسلمين ألا ينحصروا في تقليد فقيه واحد من فقهاء الأمصار، بل يجب العودة إلى الينبوع الذي يستقي منه الكل (الكتاب والسنة) وأن ينفتح باب الاجتهاد للوفاء بالمصالح الدينية والمدنية التي جدت.» (١)

وكنت أود أن يقف الدكتور/ فؤاد عند هذا الحد الذى ذكره الشيخ الغزالى فى مسائل الاجتهاد والتعامل مع الجديد، ولو فعل ذلك لكان لديه قدوة من العلماء السابقين واللاحقين، لكنه يستهدف دائمًا تعطيل النقل وإقصاءه عن حياة الناس، وهنا تكمن الخطورة.

ولعلك تقول: لكن د/ فؤاد لم يصرح مرة أنه يعادي الكتاب والسنة، والجواب أنه صرح مرارًا أنه علماني، وأنه يعارض تطبيق الشرع، وأعلن في مناظراته أنه لا يفصح عن كل مايعتقد(٢) كي لا يصطدم بالجماهير؛ لأنه يعلم أن الجماهير المسلمة تُصَدِّقُ الله فيما أخبر وتطيعه فيما أمر، وترجوا رحمته وتخشى عذابه، وهذا يختلف كثيرًا عما يدعو إليه د/ فؤاد زكريا.

المطلب الثالث: التفريق بين الفكر الإسلامي والإسلام ذاته.

يؤسفني أن أجد كثيرًا من المسلمين يخلط بين الإسلام (الوحي المعصوم) الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ لأنه ـ تنزيل من حكيم حميد، وبين فهم المسلمين للإسلام، وتطبيقهم له قولاً وعملاً، أفرادًا وجماعات، عبر تاريخهم وفي تجاربهم المختلفة.

والدكتور/ فؤاد يفهم ذلك جيدًا، لكنه يستغل هذه المسألة أسوأ استغلال، فبدلًا من أن يوضح للناس الفارق بين نص قرآني معصوم، أو حديث نبوى قطعي الثبوت، وبين فكر بشري أضيف إلى هذا النص لتفسيره وتطبيقه.

الأول يجب العمل بمقتضاه، ولا يجوز معارضته، حيث (لا اجتهاد مع النص) والثانى يمكن أن نستبدله بتفسير آخر، أو نطبقه بصورة أخرى، دون أن نخرج عن القواعد التي وضعها العلماء، ولو أن د/ فؤاد وإخوانه من العلمانيين قالوا ذلك والتزموا به في ضوء العلوم الشرعية، والقواعد الكلية والأصولية

(١) علل وأدوية، صـــ ٨٩، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب وجهًا لوجه الإسلام والعلمانية، للدكتور القرضاوي، صـ ١١ ، مرجع سابق واعتراف الدكتور أنه يخاطب العواطف لا العقول؛ لأن الحضور لا يعقلون كل ما يقول.. و في فهرس صـــ ٢٣ من الكتاب ذاته، مدح وأثنى الدكتور على امرأة (شتمت) الإسلام، واتهمته أنه ظلم المرأة والأقليات.. ووصفها الدكتور بالشجاعة وصاحبة النضج السياسي، وأنها تستعمل اللباقة والدهاء في خداع الجماهير عما في نفسها، كالآخرين الناضجين، وانظر كتاب (العقل العربي)، صـــ٧٣، مرجع سابق، وفيه تعقيب أ. د/ محمد عمارة عقب مناظرته للدكتور/ فؤاد.. وانظر مقدمة كتاب (الإسلام لا العلمانية) مناظرة بين د/ فؤاد والمستشار/ سالم البهنساوي، مرجع سابق.

واللغوية لكان ذلك مقبولاً ومحمودًا، بل وداعمًا لما يدَّعونه من إرادة التطور والتقدم والازدهار، ولكن مع اعترافهم بالفرق الجوهرى بين الإسلام ذاته، وبين من تلقوه من المسلمين وطبقوه فأصابوا وأخطأوا، ومع أنهم يعرفون ذلك حق المعرفة ويعلمونه علم اليقين، إلا أنهم يصرون على إقصاء الإسلام (القرآن والسنة والإجماع) وليس تصحيح أخطاء المسلمين.

انظر كيف يعلق الدكتور/ فؤاد على من يقول له: الإسلام ذاته شيء، وفكر العلماء وتطبيق الأمراء شيء آخر يقول: «إن الرد الجاهز الذي يرد به أنصار هذه الجماعات على كل من ينبههم إلى إخفاق هذه التجربة في تطبيق الشريعة أو تلك، هو أن هذا ليس هو الإسلام، وأن خطأ النميري أو ضياء الحق ـ مثلاً ـ هو خطأ أشخاص، وليس خطأ الإسلام في ذاته، ولكن هذا الرد حق أريد به باطل، فمن المؤكد أن أية تجربة لتطبيق الشريعة الإسلامية يمكن أن تنحرف عن جوهر الشريعة ذاتها، بحيث لا يصح تحميل الشريعة أوزار التطبيق الباطل، هذه حقيقة لا يصح أن يجادل فيها أحد... فهل نحن واثقون من أن هذا التطبيق الجديد سيكون هو وحده القادر على تجنب كافة الأخطاء السابقة وسيكون هو وحده المعبر عن جوهر الإسلام؟ ما هو الضمان؟ ومن أين أتى هذا اليقين؟

ومن أدرانا أن هذا التطبيق الجديد لن يكون صورة مكررة لأخطاء التطبيق السعودي، أو جرائم النميري، أو ضياء الحق؟ هل بذلت جماعاتنا الإسلامية، الداعية إلى تطبيق الشريعة، أي جهد لكي تضمن ـ على نحو قاطع ـ تطبيقًا يخلو من هذه العيوب؟» (١)

ولعلك تقول إن ظاهر كلام الدكتور/ فؤاد هو الدفاع عن جوهر الشريعة، ووضع ضمانات للتطبيق الصحيح حتى لا تتكرر الأخطاء، والحق إن الدكتور لا يشيد أبداً ولا يدعو مرة إلى التمسك بجوهر الشريعة، بل يشكك في هذا الجوهر(ذاته) وقدرته على الوفاء بمصالح العباد.

تأمل تعليقاته على الكلام السابق يقول: «..سيقولون مرة أخرى عن هذا (سوء تطبيق) لا يمس (الجوهر) ولكن إذا كان (الجوهر) قد ظل غير متحقق طوال معظم فترات التاريخ، ألا يدعونا ذلك إلى الشك العميق في إمكان تحققه في عصرنا الحاضر؟ بل ألا يدعونا ذلك إلى الشك في قدرة هذا (الجوهر) على التأثير في المسلمين بوجه عام مادام الطابع الغالب على سلوكهم ـ طوال التاريخ ـ هو الابتعاد والانحراف عنه؟» (١)

أرأيت الظلم الواضح والجهل الفاضح بجوهر الشريعة وبالتاريخ، فلا الجوهر قاصر أو منقوص، ولا

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، د/ فؤاد زكريا صـــ ١٠ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(١) المرجع السابق، صـــ١٣.

التاريخ خال من تطبيق هذا الجوهر تطبيقا يختلف كثيراً عن الأمثلة التى يتذرع بها د/ فؤاد زكريا، وينسي من خلالها تاريخ الخلفاء الراشدين، ومن جاء بعدهم ممن رفعوا رأس الأمة العربية والإسلامية، وجعلوا من جوهر شريعتها عزة ومجدًا وقوة وحضارة لا ينكرها إلا أعمى القلب والبصيرة.

أما الشيخ/ الغزالي فهو يفرق دائمًا بين الفكر البشري في الإسلام أو التطبيق العملي له، وبين الإسلام (ذاته) بمصادره المعتمدة وثوابته القطعية، فتحت عنوان/ الفرق بين الفكر الإسلامي والإسلام يقول الشيخ: « نحن بحاجة إلى توضيح معنى الفكر الإسلامي أولاً، إن الفكر الإسلامي ليس هو الإسلام، بل هو صنعة المسلمين العقلية في سبيل الإسلام وبمشورة مبادئه.

والإسلام هو الوحي الإلهي إلى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ وكتاب هذه الرسالة القرآن الكريم، وفي حكمه ما انضم إليه من سنن ثابتة للرسول توضح ما طلب توضيحه منه.

الفكر الإسلامي مستحدث، ويخضع لقانون التطور ولعوامل الاضمحلال أما الإسلام فله كتاب ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فُصِّلَت:٤٢] .

الفكر الإسلامي غير معصوم عن الخطأ والوهن، والإسلام معصـوم عن ذلك كلـه، وكتاب الإسـلام ـ لأنه معصوم عن الزيغ والضعف ـ له قداسة، وله حق الطاعة على المؤمنين به...

والفكر الإسلامي لا تجب الطاعة له إلا بقدر ما فيه من تـمثيل لكتـاب الله ورسـالة السماء وذلـك أنـه ـ أصالة ـ يخضع للنقد والمخالفة.

الفرق بين الإسلام والفكر الإسلامي هو الفرق بين ما لله وما للإنسان، والصلة بين الأمرين هي الصلة بين شيئين، أحدهما قام على الآخر، واستند إليه في قيامه ووجوده، ولكن لا على أنه يصوره تمام التصوير، أو يكون معبرًا عنه تعبير المثل للمثل. »(١)

ويستمر الشيخ/ الغزالى فى بيان الفرق بين مانزل به الوحى من قرآن وسنة وبين ما فهمه المسلمون بعقولهم، وطبقوه على أنفسهم حرصاً منهم على الاستفادة منه والعمل به، وحفظه واستبقائه فى الأجيال المتعاقبة بعدهم كى تبقى للأمة هويتها الإسلامية يقول: "هناك إسلام نزل به الوحي الإلهي، وهناك مسلمون آمنوا بهذا الإسلام، وترجموا تعاليمه في سلوكهم، وحرصوا على استبقائه في جيلهم، كما حرصوا على استبقائه لأعقابهم في الاجيال المتتابعة كي تظل على هذا الإسلام، وعلموهم كيف يكونون مؤمنين به، وكيف يترجمون إيمانهم بالصورة التي ارتضوها، وكيف يحرصون على بقاء الإسلام فيهم، وبقاؤهم هم أمة

(١) ليس من الإسلام للغزالي، صـ١١٣ وما بعدها، مرجع سابق.

مسلمة. تهيئة هذه الكيفيات وتحديد معالمها ثم صياغتها في عباراتها التي تورث من جيل إلى جيل في كتبها المتداولة، هي:الفكر الإسلامي وهذه الكيفيات ـ في تهيئتها وتحديد معلمها وصياغتها ـ تختلف حتمًا حسب الأفراد والأجيال والظروف المحيطة. وربما يصل الخلاف فيها إلى درجة الفجوة أو المقابلة.

يقول ابن خلدون[1] في الحديث عن علم الفقه: الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهية والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها: فقه» [2].

لذا أقول: الفقه فهم صحيح شامل متوازن، وعلى كل مخلص يريد الخير لأمته أن يفرق في حواراته وانتقاداته بين الإسلام ذاته، والقائمين على أمره ممن فهموه، سواء أكانوا دعاةً من العلماء، أم منفذين لأحكامه من الأمراء؛ لأن الخطأ وارد، والإنسان مهما علا قدره أو غزر علمه يصيب ويخطئ، ولا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ.

كما لا يجوز أن نتخذ من خطأ الناس ذريعة للنيل والطعن في الدين الحق، وما جاء من عند رب العالمين بصدق ويقين، وهو ﷻ العَالِمِ بحال العباد ومآلهم وما يصلحهم ولأن خطأ بعض الناس في بعض العصور لا يبرر الهجوم على الإسلام ذاته، ومن يفعل شيئًا من ذلك ـ قل أو كثر ـ فهو عدو أو جاهل أو جاحد.

لذا أدعو كل مسلم وكل إنسان ألا يسلم عقله وأذنه للجهلة بحقائق الدين، وأن يأخذ علمه من أهل الاختصاص، امتثالاً لأمر الله ﷻ القائل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾[النحل].

وفي الأثر: (إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم)[1]

كما أرجو أن تكون للمرء ثقافة ذاتية نابعة من الفهم الصحيح للواقع والكون والحياة، ومراد الله من العباد، وذلك بالنظر فى كتاب الله وسنة نبيه وإجماع العلماء. وألا يترك نفسه وعقله لأهل الأهواء، فيصير ذَنَبًا وذيلا لا شخصية له ولا مبدأ، تتحكم فيه الإرادات والشهوات فيصير ضعيفاً منقادًا أو ضالًّا منحرفًا، وهذا ما لا يرضاه الله له يقول ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾[النساء].

---

(١) انظر مقدمة ابن خلدون، الفصل السادس، تحت عنوان/ علم الفقه وما يتبعه من فرائض، صـ٣١٢مرجع سابق

(٢) المرجع السابق، صـ١١٤، وللشيخ/ الغزالي كتب أخرى فرق فيها بين الإسلام ذاته وبين حال المسلمين، والفهم العقيم للدين والدنيا معًا، ككتاب (هذا ديننا) و(هموم داعية) و(معركة المصحف) وغيرها من الكتب الكثيرة، التي أكد الشيخ فيها مرارًا أنه يحارب الفهم الفاسد والمغلوط للدين بالقدر الذي يحارب به الأعداء والجاحدين.

(٣) أورده مسلم في مقدمة صحيحه صـ٨، عن محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللهُ ، باب بيان أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا من الثقات، مرجع سابق.

المطلب الرابع: الثقافة الذاتية والاعتماد على النفس.

هذا مطلب متفق عليه بين د/ فؤاد زكريا والشيخ/ محمد الغزالي.

يقول د/ فؤاد زكريا: «الثقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع، ويمكن تعريفها بأنها (ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية قدرات وعادات أخرى، يكتسبها الإنسان بوصفه فردًا في المجتمع) ويقترب من ذلك التعريف الوارد في قاموس (إكسفورد) [(١)] من أنها (الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معين، كما تعبر عنها الرموز اللغوية، والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية).

والثقافة بالمعنى الإنساني الرفيع، يمكن تعريفها بأنها صقل الذهن والذوق والسلوك، وتنميته وتهذيبه، أو بأنها ما ينتجه العقل أو الخيال البشري لتحقيق هذا الهدف، ويلاحظ أن هذا المعنى يرتبط بالأصل اللغوي لكلمة culture في اللغات الأجنبية، وهي كلمة تعني: تعهد النبات وحرثه، ورعايته حتى يثمر (منها جاءت كلمة زراعة agriculture) بل إنه يرتبط بهذا المعنى نفسه في اللغة العربية؛ لأن الأصل (ثقف) يحمل معنى التهذيب والصقل والإعداد، وهنا تكون الثقافة عملية رعاية وإعداد مستمر للعقل والروح البشرية، أما معناها بوصفها منتجًا يؤدي هذه الوظيفة فلم تكتسبه إلا فيما بعد.

والمثل الأعلى للثقافة بهذا المعنى هو العلو إلى أقصى حد بالتكوين العقلي والروحي والأخلاقي للإنسان وبطريقته في التفكير وتأمل العالم وتذوقه، أي أن تصبح الثقافة تكوينًا باطنيًّا داخليًّا تلقائيًّا في الإنسان، لا يعود معه محتاجًا إلى عون خارجي» [(١)]

وأنا أتفق مع د/ فؤاد في كل ما سبق، إلا السطر الأخير وبالتحديد هذه الكلمات(..أي أن تصبح الثقافة تكوينًا باطنيًّا داخليًّا تلقائيًّا في الإنسان، لا يعود معه محتاجًا إلى عون خارجي) لأن الإنسان مهما ارتقى أو تعلم لا يستغني عن العون الخارجي، والله ﷻ يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦].

لذا أقول لكل عاقل: اعلم أن لا خير في ثقافة تعادي الإسلام شريعة وعقيدة، دينًا ودولة، حدودًا وأحكامًا، عبادات ومعاملات.

إن مَن يدعي أنه استغنى بعلمه ـ مهما بلغ ـ عن الوحي الإلهي المعصوم هو واهم مخدوع. تأمل قوله ﷻ ﴿...وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج:٥] وقصة

---

(١) سبق التعريف بهذا القاموس في الباب الأول، الفصل الأول، المبحث الثالث تحت عنوان/ عقل الإنسان ومجالات الإصلاح صـ ٧٢.

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ١٤، مرجع سابق.

نبي الله موسى مع الخضر عليهما السلام تؤكد هذا الأمر، بل وتوجب علينا أن نقول لمن يدعي في العلم فلسفةً عَرفتَ شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ .

إن الثقافة التي نريد ونتمنى ـ نحن المسلمين ـ هي الثقافة النافعة الخاضعة للشرع الإسلامي، والتي تهدف إلى معرفة علوم الدين والدنيا معًا، والتي تحقق الولاء والانتماء الصحيح للأمة الإسلامية ووحدة المسلمين، والفكر الإسلامي الشامل والأصيل، إنها الثقافة المتنوعة والإيجابية والباعثة للفهم الصحيح والهمم النشطة المعبرة عن روح الإسلام وجماله وكماله وشموله وسعته ومرونته، وليست ثقافة الفلسفة القديمة والحديثة التي أفسدت عقول الكثيرين ممن يسمون أنفسهم بالمثقفين، وهم أميون لا يعرفون عن علوم الدين وقواعده وأهدافه الكبرى إلا القليل الذي لا يقيم دينًا، اللهم ولا يصلح دنيا إلا على الطريقة الغربية بما فيها من مفاسد وإباحية وكفر.

والدكتور/ فؤاد زكريا لا تهمه ثقافة الدين والأخلاق المستمدة منه، بقدر ما تهمه ثقافة أوروبا وأمريكا والفلاسفة القدامى والجدد، والأطوار الفكرية التي مرت بها هذه الدول والشعوب حتى وصلت ـ كما يقول ـ إلى اكتشاف ذاتها، وثبوت ورسوخ قدمها سواء في علوم الطبيعة أو الاجتماع، فضلًا عن الثروات وكنوز الأرض، والكشوف الجغرافية وأسرار الكون، حتى أصبح الإنسان متفائلًا معتزًا بنفسه وبقواه. (١)

والشيخ/ الغزالي يحذر من هذا التوجه، ويرى أنه يخفي وراءه أسوء طباع البشر؛ لأن الإنسان ليس عبدًا لنفسه أو شهوته أو هواه، يحرم ويحلل ويبيح ويمنع ويغرم ويجرم بعيدًا عن الإيمان بالله وكتبه ورسله.

يقول الشيخ: ".. والنهضة البشرية التي قادها الغرب (هي) ضد عصر النهضة، (لكنها) نجحت في دراسة الإنسان من زوايا كثيرة. لقد تقدمت علوم النفس والاجتماع والأخلاق والاقتصاد والسياسة تقدمًا غير منكور، وسار معها على الدرب تقدم آخر في علوم الطبيعة والكيمياء وسائر الدراسات الكونية، وبدا كأن الإنسان يتبوأ مكان السيادة المطلقة في علم دانت له عناصره واستكانت قواه.

والحقيقة أن هذا الازدهار الثقافي يخفي وراءه أسوأ ما في طبائع البشر من عيوب، إن الديانات التي نتبرم بها من بدء الخليقة لم تتغير، وبين الحين والحين تنفجر براكينها في بناء الحضارة، فتشرف به على الفناء... والإنسان أسمى وظيفة من أن يكون عبد نفسه أو عبد أوهام يختلقها، ويكرس وقته للدوران حولها، القضية التي يجب أن نبت فيها بالرأي الصائب هي علاقتنا بالله وكيف تستقر؟ وعودتنا إليه كيف

---

(١) انظر صـ٣٣ وما بعدها من كتاب (الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية) مرجع سابق، وانظر صـ ٣٠ من كتاب (خطاب إلى العقل العربي) تحت عنوان/ ثقافتنا المعاصرة بين التغريب والتعريب، وصـ١٥٨، تحت عنوان/ الحرب النووية، وصراع الأيدلوجيات، وكتاب (العرب والنموذج الأمريكي) وكلها مراجع سابقة، وسترى أن الدكتور كيف يولي كل اهتمامه للثقافة المادية دون أدنى تحفظ.

نستعد إليها؟ ولأعترف بأن علوم الدين في الأعصر الأخيرة لم تحسِّن بسط هذه القضية، ولا إنارة الأفئدة بوضوحها، وقد انكمشت أو انهزمت أمام التيارات المناوءة لأسباب ينبغي أن ندرسها، حتى لا يكون المبطلون أقدر على اقتياد الحضارة من المصيبين، وحتى لا يحرم العالم خيرًا هو أفقر ما يكون إليه...

ونحن لا نرتاب في المستقبل للإسلام، يوم يعرض الإسلام على الناس نقيًّا كما جاء من عند الله، ويوم يرى الناس أمة تحيى به ظاهرًا وباطنًا، وتقدم من سلوكها الأسوة الحسنة والتطبيق الصحيح»[(١)].

وهذا يعني أن ما جاءنا من الغرب ليس كله سويًّا، بل يجب علينا أن نميز بين حسنه وقبيحه، وغثه وثمينه، وأن نعتمد على الله تعالى، ثم على أنفسنا في فهم ديننا ودنيانا، والواقع ـ مع شدة الأسف ـ يؤكد أن« أمتنا الإسلامية جهلت من الدنيا بمقدار ما جهلت من الدين، ونسيت من عالم الشهادة بمقدار ما نسيت من عالم الغيب. ولا يتوهم واهم أن اضمحلال العمران وكِلال الأذهان وانتشار الفاقة راجع إلى أن القوم شغلهم تعمير الآخرة عن تثمير الدنيا، فكان سعيهم للجنة على حساب هذه الحياة، كلا.

إن الفشل أصابهم في الميادين جميعًا، والعجز الذي لحقهم في أداء رسالتهم أزرى بهم هنا وهناك، فكان التخلف الذي رأينا، وكان الاستعمار الذي سقطت البلاد الإسلامية بقدها وقديدها بين أنيابه الزرق...

إن هذه الأمة تحتاج إلى أمواج من المعرفة تحيي مواتها، وأمواج يمدها وابل هتَّان لا ينقطع صيبه، أمواج من المعرفة بكل شيء خرج من الأرض، أو نزل من السماء، إن ظمأها إلى العلم محرق، وصداها إلى فنونه شديد، وما لم يسعفها هذا الفيضان من المعرفة، فإن الجفاف سيجعلها صحراء موحشة من الحياة والأحياء، والحديث عن العلم تمهيد للحديث عن التربية.» [(١)]

وأنا أحمل الإنسان المسلم (نفسه) قدرًا كبيرًا من المسئولية خصوصًا فيما يتعلق بالثقافة الذاتية والاعتماد على النفس؛ لأن الإنسان قادر على الفهم الصحيح لو أراد، والتزود من العلم النافع لو أحب واعتقد في قرارة نفسه ضرورة وأهمية الثقافة الذاتية، وما لها من فوائد تعود عليه وعلى المجتمع من حوله.

فالثقافة الذاتية تبدأ من الإنسان بقدر سعيه وعلمه بأهميتها، وحرصه على تحصيلها، والصبر عليها، وعلمه بخطورة إهمالها أو إغفالها، فهو المسئول بالدرجة الأولى عن تثقيف نفسه، كما لا أعفي مَن حوله مِن القادرين على عونه ومساعدته.

وهذا ما سأذكره في المطلب التالي.

---

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، صـ٦٨ وما بعدها، مرجع سابق.

(١) هذا ديننا، صـ٢١٠، مرجع سابق.

المطلب الخامس: التدريب المستمر، والرغبة في التطوير والتطور.

إن الإنسان قد يصل ـ بمجهوده الذاتي ـ إلى القدر الذي يعيش به مستوراً بين الناس، وقد يتعلم القدر الواجب في الدين وعلوم المهنة، وهذا في حد ذاته جيد، ويقيم أفرادًا صالحين، لكن هذا لا يكفي لإقامة مجتمع صالح وقوي ومتطور وقادر على حماية نفسه ونصرة دينه وردع المعتدين.

الأمر الذي يوجب علينا ألا نقف عند حد الثقافة الذاتية للفرد، بل يجب أن نطور ونُجَوِّدَ باستمرار، وندرب وننافس العالمين في جميع علوم المعرفة النافعة والوسائل والآلات الموصلة إليها.

والدكتور/ فؤاد زكريا يرى أن التطوير والتطور لابد وأن يراعي قيمة الإنسان وعقله، وعلاقته برأس المال وصاحب العمل، ولا يكون التطوير قاصرًا على الآلات والماكينات، وجودة الإنتاج كما هوالحال فى النظم الرأسمالية. يقول: «كانت المرحلة المبكرة من العهد الرأسمالي مرحلة كفاح، ضد قوى الإقطاع المادية وقيمه المعنوية، وإذا كنا قد أكدنا من قبل مزايا هذه المرحلة وسماتها الإيجابية، فذلك لأنها تمثل بالفعل تقدمًا ملموسًا بالقياس إلى المرحلة السابقة عليها، فهي قد دفعت بالبشرية خطوات واسعة إلى الأمام، حين أكدت سيادة العقل على كل النزاعات اللاعقلية المضطربة الغامضة التي كانت تسود في العصور الوسطى، وحين أطلقت طاقات الإنسان ليستكشف الطبيعة جغرافيًّا، ويفهمها علميًّا، ويستغلها اقتصاديًّا...

فالرأسمالية المكتملة قد تحددت معالمها عندما بدأت تظهر طبقة عمالية متميزة، ترك أفرادها الطوائف الحرفية القديمة التي كانت راعية لهم، أو هاجروا من الريف بلا حماية، وأصبحوا واقعين وقوعًا تامًّا تحت رحمة صاحب العمل، دون أن تكون لهم أية فرصة للارتقاء في سلم المجتمع، على عكس الصانع الحرفي التقليدي الذي كانت لديه على الأقل فرصة الارتقاء إلى مرتبة متعهد الأعمال (المقاول) أو الصانع الماهر (المعلم) وحتى في الحالات التي لم يكن يتحقق فيها هذا الارتقاء، كانت هناك علاقات شخصية متينة تربط الصانع بزملائه، وبصاحب (الورشة) التي يشتغل بها ولا يهتم صاحب العمل على الإطلاق بالشخص أو الإنسان الذي يبذل هذه القوة، بل إن العلاقة بينهما تصبح تجريدية تمامًا، ولا تصطبغ بصبغة إنسانية.» (١)

ولا أدري كيف تصطبغ بصبغة إنسانية وهي قائمة ابتداء على الأنانيةالمسماه بالرأسمالية والدكتور/ فؤاد يعلم أن الإسلام منهج فريد بين الرأسمالية التى تعلي من قيمة الفرد على حساب المجتمع، وبين الاشتراكية التي تعلي من قيمة المجتمع على حساب الفرد، وكلاهما ظالم لا يحمل للبشرية عدلاً ولا خيرًا. (٢)

إن ما يحتاجه المسلمون هو أن يحيوا بالإسلام، فالإسـلام كفيل لبعث هممهـم، وشحذ عزائمهم، حتى

(١) الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، صـــ ٤٠ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب ذاتية السياسة الاقتصادية أ.د محمد شوقى الفنجرى، طـ ٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عام ١٤٢٨هـ/ ١٩٨٠م.

يعرفوا معنى الحياة ويستقبلوها بنشاط وحب، فإذا تم ذلك كان لهم أن يستفيدوا من تجارب غيرهم في ميدان التدريب العملي والتطوير المادي والتطور العلمي والتقني والفني.

يقول الشيخ/ الغزالي: "قلت لنفسي ما سر هذا الفتور الشائع في الأفراد والجماعات؟! ولماذا يستقبل الناس الحياة وبهم ازورار عن مواجهتها، وصدود عن مذاقها، كأن شهيتهم أوصدت دونها؟!...

أجل لنقلها صريحة، فإن أمتنا محتاجة إلى أن تجيد فن الحياة، وقبل أن تصل إلى درجة الإيجادة المنشودة، لن يصلح بها دين، ولن تصلح لها دنيا.. التاجر يخرج إلى السوق وهو خامل مستكين! والفلاح يذهب إلى حقله وهو متثاقل مجهود! والعامل يعالج حرفته وهو ضائق منكمش! والموظف يجلس إلى مكتبه وهو مهدود مهزوم! والجميع لا ترتقب الدنيا منهم إنتاجًا طائلاً، ولا حركة معجبة!

إن أجهزتهم النفسية متوقفة كالساعة الفارغة، فليس يسمع لها دق، ولا ترى بها حياة، ولا يثب فيها عقرب، ولا ينضبط بها وقت!! هذا والله هو العجز الذي استعاذ رسولنا ﷺ منه.

إن الطاقة البشرية في هذه النفوس لا تزال مادة غفلا، كأنها معادن مرمية في مناجمها، لم تستخرجها يد! أو كأنها بعض قوى الكون المجهولة، لم تكتشف بعد!!.. من أجل ذلك نرى الأمم التي سقطت في غيبوبة الموت الأدبي تعاني الجهل والفقر والمرض جميعًا، ونرى خصامها لمطالب الحياة الزكية، قد جر عليها الهوان، وكساها لباس الجوع والخوف، والمصلحون في بلادنا يقفون وجهًا لوجه أمام الطاقة الإنسانية التي لم تفجر، أما الجماهير الكثيفة التي تعيش فوق بقاع فيحاء عامرة بالخيرات يمكن أن تفيض بالغنى واليمن، ومع ذلك فإن هذه الجماهير لا تحسن الاستفادة مما بين يديها وما خلفها؛ لأن(البنج)الذي تناولته سرى خدرًا في كل أوصالها، فتحسبهم أيقاظًا وهم رقود!" [١]

وعن عدم استفادة الإنسان بما في الكون من خيرات وثروات تؤهله للحياة الكريمة المتوازنة، وعجزه عن التعامل مع الظواهر العلمية والتقدم التقني بالقدر المطلوب لإشباع روحه وجسده معًا، يقول الشيخ/ الغزالي: "إن الإنسان المعاصر يقف عاجزًا أمام الاستفادة الكاملة للمواد الوفيرة التي من الله بها عليه فبفضل العلم المتقدم، ونظم التقنية والطاقات الاقتصادية استطاع الإنسان أن يحقق تقدمًا علميًّا وتقنيًّا، ونموًّا اقتصاديًّا هائلاً، ولكن تقدمه الرائع هذا لم يصحبه تطور مماثل في قواه الروحية والمعنوية...قال ﷺ:(طلب العلم فريضة على كل مسلم)[٢] والعلم تعبير شامل لكل مجالات المعرفة،

---

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، صـ ٧ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، وهو صحيح بهذا اللفظ برقم (٢٢٤) انظر صـ٤٣، مرجع سابق.

وتنمية القدرات العقلية، والتقنية والحرفية والوظيفية، وتنمية الملكات الروحية والفنية والجمالية، وفيما يلي بيان لمبادئ التربية والتعليم في الإسلام:

أولاً: أن تشاع المعرفة لكل الناس أطفالاً ونساءً، وأن توفر لهم سبل التعليم في جميع مراحله.

ثانيًا: تواجه الإنسان تحديات نفسية وتحديات اجتماعية، ويستطيع الفرد مواجهتها بتنشئته على مكارم الأخلاق، وتزويده بالمعارف الإنسانية والأدبية، والعلوم الاجتماعية والطبيعية والتقنية، وبالمدارك الفنية والجمالية، وبالممارسة الرياضية.

ثالثًا: إننا لنرحب بالمعارف التي استنبطها واكتشفها الوعي الإنساني عبر التاريخ حتى يومنا هذا، ونعتبرها رصيدًا ساهم المسلمون في عهودهم الذهبية في تكوينه، وننادي الآن بترشيد هذه المعارف بهدي الإسلام، واستخدام أساليبه في البحث لإحياء التراث الإسلامي.» (١)

وفي كتاب سيكولوجية التدريب والمنافسات، يرى د/ محمد حسن علاوي أن التدريب المستمرـ أو الرغبة في التطورـ لايتم بصورة كاملة ومفيدة، إلا إذا مر بمراحل(١) وترتيبات، ومجالات وتفاعلات ودوافع، أهمها:

الدافع الروحي والإعداد النفسي، والرغبة الذاتية والمزاج.

ولا يكون ذلك إلا بالتفاعل الاجتماعي مع المدربين والزملاء والمنافسين، وكذلك التوجيه والإرشاد في المنافسة المشروعة، وأيضًا قبول النقد والتصويب، وأهم من ذلك كله تحمل المسئولية بثقة في النفس، وتحديد الأهداف الاجتماعية والاقتصادية والعلمية.. وتعلم المهارات الحركية ومجالاتها وأهدافها.

وهذا ما سأذكره بالتفصيل ـ إن شاء الله تعالى ـ في المبحث التالي.

---

(١) المرجع السابق، صـ ٢٠٣، ٢٠٧ وما بعدها، بتصرف.

(١) للمزيد والشرح انظر صـ ٥٤ وما بعدها من الكتاب المذكور، ط/ دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٧م، وكتاب (العلوم السلوكية) د/ محمود السيد وآخرون، صـ ٢٥١ وما بعدها، ط/ كلية التجارة جامعة عين شمس، سنة ٢٠٠٥م، وكتاب (أشتات مجتمعات) للعقاد، صـ ١٣١ وما بعدها.. هذه الكتب وغيرها تدعو إلى التدريب، والتطور بما يناسب روح العصر، ويواكب التقدم العلمي الهائل والمذهل.. ولكن بالصورة التي يقرها الإسلام، وليس بالصورة التي تفرضها علينا الدول الراعية للعولمة؛ لأن ذلك سيأتي على تراث الأمة وخصوصياتها وشخصية أبنائها، فتذوب الفوارق والمعالم بصورة لا تميز فيها بين مسلم وكافر، أو طائع لله وعاصي، وهذا يضر بديننا ودنيانا.

المبحث الثالث:

التــربية الحــركية

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول : أهــميــة التـــربيـة الحـركيــة فــي الإصــلاح الاجتمــاعي.

المطلب الثاني: مجالات التربية الحركية كما يراها الشيخ/ الغزالي، والدكتور/ فؤاد زكريا.

المطلب الثـالث: أهـم الحـركات التي ظهـرت في المجتمـع المصـري، ومدى نجـاحها.

المطلب الـــرابع: طلاب المدارس والجامعات، وصلتهم بحركات الإصلاح الاجتماعي.

المطلب الأول: أهمية التربية الحركية في الإصلاح الاجتماعي.

الحركة عكس السكون، تقول: قد أعيا أو سكن فما به حراك، وتقول: حَرَّكه أخرجه عن سكونه والحركة انتقال الجسم من مكان إلى مكان آخر أو انتقال أجزائه [(١)] والتربية الحركية تعني أن يتعلم المرء كيف يسهم ـ بما لديه من طاقات ومواهب ـ في العمل الجماعي بعقيدة إيمانية وروح رياضية وسرعة بديهة للوصول إلى الأهداف المنشودة والمفيدة.

والمعروف أن التربية الحركية الناضجة لها أهمية كبرى، وأثر فاعل في الإصلاح الاجتماعي عموماً والشباب خصوصاً، يقول المستشار/ سالم البهنساوي في رده على د/ فؤاد زكريا الذي يَقْصِرُ التربية الحركية في الأحزاب السياسية لا الحركات والجماعات الإسلامية، يقول: «.. هناك فارق بين وجود جماعات منظمة تدعوا إلى مناهج الإصلاح، وبين الحزب كأداة لتنظيم الأفراد للحصول على أكبر عدد من أصوات الناخبين للوصول إلى الحكم، فإصلاح أصول المجتمع واجب على المسلمين أفرادًا وجماعات.

أما الدور المنوط بالأحزاب العلمانية (وهو ما يقول به د/ فؤاد زكريا، ويدعو إليه) فلا يعرفه المسلمون، بينما عرفوا الجماعات التي تتبنى مناهج خاصة قد تُعارض سياسة الحكم» [(١)].

ولا يخفى أن الأحزاب العلمانية القائمة في بلادنا الآن ـ وهي تدّعي أنها في قمة الاجتماع الفكري والحركي ـ لا تهدف إلى الإصلاح الشامل للمجتمع، ولقد عدد المستشار/ البهنساوي وغيره[(٢)] كثيرًا من المواقف السلبية للحركات العلمانية في الفساد الأخلاقي، كالزنا والخمر والميسر والتبرج، ومواقفهم من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية، والتبعية الغربية في الوسائل والغايات، والتضييق على الحركات الإسلامية، أو منعها بالكلية من التحركات الجماعية المشروعة لِتَخْلُوَ لهم الساحة وقد خَلَتْ، لكن المشاكل ما حُلَّت.

يقول الشيخ/ الغزالي: « أتابع النشاط الإسلامي المعاصر بحب وخوف، حبي لأنني مسلم أريد الحق الذي أعتنقه أن يسود، وأن يقوم من عثرته التي طالت! وخوفي عليه؛ لأن الأعداء أقوياء أغنياء، يريدون الإجهاز على الدين الجريح، وانتهاز الفرص التي لاحت بعد طول انتظار، أو طول تدبير..!

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور صـ٤٠٨ المجلد الثاني حرف الحاء مرجع سابق، وانظر المعجم الوجيز،صـ١٤٦ وما بعدها مرجع سابق.

(١) الإسلام لا العلمانية، صـ ١١٩، مرجع سابق.

(٢) انظر المرجع السابق، صـ ٢٠ : ٣٨، وانظر ما قاله أ.د/ محمد عمارة في مناظرته لفؤاد زكريا في كتاب (أزمة العقل العربي) صـ٤٠ وما بعدها، مرجع سابق.

إن المدافعين لا ينقصهم غالبًا الحماس والإخلاص، وإنما ينقصهم عمق التجربة وحسن الفقه، إنهم يحسبون أن حال المسلمين اليوم وليد علل عارضة، ومن السهل إزالتها في أيام معدودات، أو على الأكثر في بضع سنين من حياتهم هم.. ثم يعود المسلمون إلى مجدهم الأول أيام الصحابة والتابعين، وما على الشباب إلا أن يقدم ويقاتل ويحطم ما أمامه من عوائق، وسوف يبتسم له النصر بعد مرحلة أو مرحلتين، وهذا الاستعجال كان وراءه متاعب كثيرة وخسائر ثقيلة للدعوة الإسلامية، بل ربما زاد خصومها تمكينًا وضراوة...

وأرى أنه لابد من دراسة شاملة لأسباب تقهقرنا المدني والعسكري، وما العناصر الحيوية التي فقدناها حتى دهانا ما دهانا؟ لابد من بصيرة فاحصة متعمقة تتدبر ثقافتنا، وتنقي منابعنا! وتنقذ مستوانا الحضاري الأخير، وتستكشف أسباب هبوطه!

أَكُنَّا حقًّا على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أم غلب علينا داء الأمم الأولى، فشردنا عن الطريق المستقيم؟ وعندما نريد العودة فما أرشد الوسائل؟ إن إقامة دين الله شيء، ومجرد الاستيلاء على الحكم بطريقة أو بأخرى شيء آخر.. إن إقامة دين الله تعني قبل كل شيء تأسيس علاقة زاكية بين المرء وربه، منزهة عن طلب الدنيا والتشبع من لذائذها والاستعلاء في أرجائها﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣] كما تعني الإسهام في بناء مجتمع عالمي يعرف المعروف وينكر المنكر ويحترم الحقوق ويوقر رب العالمين.» [١]

هذا ما يجب أن تمتاز به الحركة الإسلامية على غيرها من الحركات الأخرى، إذ إنها لا تعمل للدنيا وملذات الحياة باستخراج الكنوز من الأرض، أو السيطرة على مقاليد الأمور بما يراه العقل، ويسمح به الضمير، وتجيزه القوانين الوضعية وحسب، وإنما تعمل لذلك ممزوجًا بالإيمان بالله، ومحكومًا بشريعته جل في علاه، ورغبة في طاعته ﷻ والقرب منه، لكن ـ مع الأسف ـ كثيرٌ من الشباب لا يعلمون ذلك. فالغالبية العظمي من الشباب المسلم لا تعرف عن دهاء ومكر الأعداء إلا القليل، وبنسب متفاوتة ويتحركون بدافع العاطفة والغيرة والحماس دون تدبير أوحكمة أو روية، فيعرِّضون أنفسهم أو دعوتهم للهلاك، وبعضهم يكتفي بأعمال لا تقيم دينًا ولا دنيا، وبعضهم ينطوي على نفسه ويتقوقع في موقعه، ويؤثر العزلة على الحركة والتعاون والاختلاط.

يقول الشيخ/ الغزالي: «في هذا العصر اختفت تقريبًا المذاهب الداعية إلى الانطواء على النفس والعزلة عن المجتمع، وربما بقيت في مجال النزعات الخاصة بعض آثار الاستيحاش من الخلق، والابتئاس بالخلطة،

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، صـ ٥ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

لكن هذه البقايا لا تؤثر في قيمة الاتجاه الإنساني العام إلى التعاون والاختلاط، وبناء السلوك البشري على الإيلاف والاستئناس.

ونحن راضون عن هذا الاتجاه الجماعي الودود، فإن الانكماش عن الحياة العامة ليس شارة صلاح ولا طريق إصلاح، بل قد يكون دليل ضعف وانهزام، أو نشدانًا للراحة مع ترك الدنيا تموج بما تموج به. ورسل الله لم يتركوا الجماعات البشرية تسير حبلها على غاربها، ويقبعون في صوامع قصية، يتأملون ويتألمون! كلا.. لقد عاركوا الشر وعالجوا أسبابه، وتحملوا بجلادة ما تركه هذا العراك في أنفسهم وأهليهم من أحزان وكروب، ولم يكن هناك بد من المسلك.. فإن الأفراد يعيشون غالبًا وفق التقاليد والعادات الشائعة في الأمة، ويبنون مكانتهم ووجاهتهم على الانسجام معها.. وهذه التقاليد والعادات كثيرًا ما تغلب فطرة الله في الأنفس، وتعمي عن رؤية آياته في الآفاق، فتنشأ الأجيال المقبلة بعيدة عن الصلاح والاستقامة بحكم منابتها التي خرجت منها.. ومن ثم فلا طريق لنصرة الحق، وغلبة الخير إلا بالجهاد المضني لجعل عادة حسنة تغلب عادة رديئة، وتقليدًا صالحًا يغلب تقليدًا فاسدًا، وتيارًا نقيًّا يغلب تيارًا ملوثًا.. وتلك هي الغاية من جهاد الدعوة.» (١)

وهذا الذي حذر منه الشيخ/ الغزالي من الانكماش عن الحياة العامة، والانطواء على النفس والانكفاء على الذات، أو العمل في إطار فكري أو مذهبي محدود ـ مع الأسف ـ كل ذلك موجود في بلادنا بل وفي المساجد وبين شباب الدعوة، إذ إن كثيرًا من الشباب المسلم لا يعرف مجالات الحركة الإسلامية ولا أهدافها، وربما اكتفى بحضور حلقة علم، أو قراءة كتاب، أو مساعدة فقير، وقد يلتحق بمعهد للدعاة أو يحصل على إجازة في تلاوة القرآن الكريم، ويظن ـ مخطئاً ـ أنه ارتقى إلى أعلى درجات الحركة الإسلامية المطلوبة لبناء الفرد والمجتمع ونصرة الإسلام والعمل على رفعته.

وهذا فهم منقوص لا يكفي لنصرة الدين، ولا يفى بمتطلبات العصر وإقامة الدنيا. والحركات المعاصرة يجب أن تكون لها وسائلها المميزة لاستمالة الشباب الذين هم عماد الحركات الفاعلة فى المجتمع.

الأمر الذي يوجب على المسلم أن يعرف مجالات التربية الحركية الرشيدة والعمل الجماعي المفيد.

المطلب الثاني: مجالات التربية الحركية، كما يراها د/ فؤاد زكريا، والشيخ/ الغزالي.

التربية الحركية تعني أشياءَ وأعمالًا كثيرةً، منها الملاحظة والاستكشاف والرصد، ومنها التأمل وإعمال العقل والفكر في حركة الكون وأحداث الحياة، ومنها إعانة الفقراء وإغاثة المنكوبين ومساعدة الضعيف، والإسهام والمشاركة في التعليم والتوجيه، ثم تدريب الأفراد والأسر على العمل الجماعي الهادف والمنظم

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، صـــ ١٦٧، مرجع سابق.

والبناء؛ لأن عمل الفرد المدرب له أهمية لا تنكر، إلا أن حاصل عمل الأفراد ليس كحاصل عمل الأسر والجماعات والأحزاب والمؤسسات والدول.

ولمّا كانت حياة المجتمعات تُوضع في طريق نجاحها العقبات، وتتصارع فيها الاتجاهات والانتماءات والإرادات التي توجه سلوك الأفراد الراغبين في تغيير بعض سمات المجتمع أو عاداته، أو عقائده أو نظام حياته، كان لابد من البحث عن طريق يجتمع فيه الفرد مع من هو على شاكلته وفكره ورؤيته ورغبته في التغيير والإصلاح.

فالإنسان لا يقوى على التغيير بمفرده، فهو يبحث عن آخرين ممن هم على نفس طريقته وعقيدته، ليعمل معهم ومن خلالهم بطرق علمية ومنهجية منظمة تتوزع من خلالها الأدوار والمهام، وتتبادل فيها الخبرات، وتتلاقح الأفكار وتتلاقى المواهب.

ولقد أشرت إلي موقف د/ فؤاد زكريا من الحركات الإسلامية المعاصرة، حيث يرى أنها تعيش في الماضي القديم، وتدور حول النصوص الدينية وآراء الفقهاء القدامى وغيرهم كالإمام ابن تيمية وابن القيم، ففي كتابه (الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة) ينتقد بشدة هذه الحركات ومن يؤيدها.

وفي هذا الكتاب كرر نقده اللازع للدكتور/ حسن حنفي، ولقد سبقت الإشارة إلي بعض هذا النقد، وأذكر هنا جزءاً آخر من كلمات د/ حسن التى يرفضها د/ فؤاد زكريا جملة وتفصيلا، يقول د/ حسن: "انتهت الحركات الإسلامية إلى محافظة دينية، وتحولت الليبرالية إلى فردية تسلطية، كما انقلب التيار العلمي (العلماني) إلى ممارسات للخرافة.. وأن الوجود الإسلامي على الأرض يوحي بمستقبل لهذه الحركات.. وأن تجربة الحياة الحزبية في مصر قد فشلت، واليسار لا يمثل مصر لأنه يتلقى أفكاره من الخارج.. وأن البدائل كلها أخفقت، ولم يبق إلا البديل الإسلامي." [1] أي الذي تطرحه الحركات الإسلامية، وهو ضرورة الجمع بين ثوابت الدين، ومسلمات العلم النافع والدافع لعجلة التطور في الدنيا.

والدكتور فؤاد زكريا ينتقد بشدة هذا (البديل الإسلامي) مع أننا نرفض بشدة كلمة (البديل)؛ لأن شرع الله ليس بديلًا للعلمانية، وإنما هو الأصل الذي لا بديل عنه.

وتحت عنوان/ دعوة إلى الحوار يدعو د/ فؤاد زكريا الحركات الإسلامية إلى التحرك في مجال حل المشكلات المعقدة والملحة ببرامج مادية ملموسة، وليس بالكلام النظري أو التطبيق الفوري للشريعة؛ لأنه ـ على حد زعمه ـ لا يحل المشاكل تلقائيًّا، ولا يحدث تغييرًا شاملاً في حياة الفرد والمجتمع، ولا يؤثر في السلوك الشخصي والحياة العائلية وروابطها الاجتماعية، ولا في نوع التعليم والثقافة والإعلام، ولا في

(١) انظر صـــ٣٥: ٤٥ من الكتاب المذكور، وانظر صـــ ١٥٢ وما بعدها، مرجع سابق.

سياسة الحكم والتشريع والتصرف في موارد الدولة والعلاقات التي تربطها بالخارج، ويرى د/ فؤاد أن الخطب الدينية والجلوس في المساجد، والمواظبة على الحضور لكبار الدعاة واسترجاع الماضي والنصوص الدينية كل ذلك لا يكفي وحده لحل مشاكل الناس، وإنما يحتاج إلى تطبيق عملي وعلمي على الأرض يؤخذ من التجارب البشرية المعاصرة. [(١)]

ولا يختلف أحد فى ضرورة التطبيق العلمى، والاستفادة من التجارب الناجحة، والتطبيق العملى على الأرض، حيث لا يجوز الاكتفاء بالقول النظرى دون عمل قال ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف]

إنما الخلاف والاختلاف يكون فى طريقة التطبيق وكيفيته، والاعتماد الكامل أو شبه الكامل على الفكر الغربى المعاصر الذى يعمل بعيداً عن هدى السماء.

وبالجملة فإن أهم مجالات التربية الحركية كما أفهمها من كتابات د/ فؤاد زكريا هي مجال العلم المادى والعملي والإعلامي والثقافي والرياضي والانفتاح على الغير والاستفادة من التجارب المعاصرة، والحوار والنقد والفن والسعي في حل مشاكل المجتمع، وليس فى استرجاع شريعة الإسلام وما تعنيه من حلال وحرام، أو السعى فى تطبيق حدودها والانطلاق من مفاهيمها.

أما الشيخ/ الغزالي فيرى أن مجالات التربية الحركية تنطلق من فهم الإسلام فهمًا صحيحًا والتعاون فى إقامة أحكامه ورفع رايته فى كل مكان، وبكل وسيلة مشروعة، ليتناول العباده وتربية الأفراد والرياضة المفيدة والفنون الهادفة والآداب الاجتماعية والأفراح والأعياد والبحث العلمى والثقافى، والمنافسة الجادة مع الغير لكسب مواطن القوة والاعتماد على النفس.

يشترك فى ذلك كله الفرد والدولة والمجتمع، وهذا ليس موجودًا ـ بالصورة الكافية ـ على أرض الواقع. يقول/ الشيخ الغزالي:« ليس للعرب والمسلمين منهج عمل إسلامي.. ومن ليس له من ذاكرته ما يحركه ويوجهه لا يُستغرب منه أنه ينجر وراء الآخرين.. يجب أن نراجع أنفسنا على عجل كي نضمن الحياة لديننا ولأنفسنا.. على أن حركات الجماعات العاملة للإسلام هي السبب الأهم وراء انتصاراته وهزائمه، ولنقف وقفة متدبرة عند هذه القضية.

إن الإسلام عقيدة وشريعة ما يشك في ذلك عاقل، وتطلعه إلى أخذ مقاليد الحكم اتجاه طبيعي لتحقيق أهدافه. بيد أن الترتيب المستفاد من تعاليم الإسلام أن تكوين الدولة يتم بعد تكوين الفرد، وأن وضع النظام يجيء بعد إنضاج الإيمان.

---

(١) انظر الحقيقة والوهم للدكتور/ فؤاد زكريا صـ ١٣٥ وما بعدها، مرجع سابق.

وقد تنزلت آيات الأحكام بعد مهاد عريض من اليقين والإخلاص وإرادة الآخرة...» [(١)]

وهذا الذي قاله الشيخ فعله النبي ﷺ في مكة وأتمه في المدينة، ففي العهد المكي كانت مجالات التربية عمومًا، والحركية خصوصًا فلقد كان النبي ﷺ يربي الأفراد على العقيدة الصحيحة، والعبادة الخالصة، والبذل والعطاء لهذا الدين، وتحمُّل تبعاته، والبحث عن أنصار جُدُدٍ يناصرونه.

فكان الاجتماع الدوري المتجدد في دار الأرقم، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أول من جهر بالقرآن في مكة، وكانت هجرة الرسول ﷺ إلى الطائف وعرض دعوته على القبائل، وكانت بيعة العقبة الأولى، وكان مصعب بن عمير رضي الله عنه أول سفير في الإسلام، وكان جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه سفيرًا للإسلام في الحبشة، وكانت بيعة العقبة الثانية التي مَهَّدَت الطريق إلى المدينة.

أما العهد المدني فكانت مجالات التربية الحركية فيه قائمة على إقامة الدين بمعناه العام الشامل والكامل بما فى ذلك الجهاد في سبيل الله وقتال الأعداء، وبناء الدولة المسلمة والحفاظ عليها، والعمل على تقويتها وحماية حقوقها وحدودها وهويتها والمنتمين إليها، والراغبين في التحالف معها.

وهذا ما سار عليه الخلفاء الراشدون، وينبغى أن يسير عليه من جاء بعدهم.

يقول الشيخ الغزالى: « المسلم إنسان يعرف ربه معرفة صحيحة ويقيم صِلَته به سبحانه وتعالى على مبدأ السمع والطاعة، وهو يتعاون مع إخوان العقيدة على تأسيس مجتمع يلتزم بإقام الصلاة وإتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو ـ مع هؤلاء الإخوة ـ ينشئون الحكمة التى تحمى هذا المجتمع، وتُطَوِّع شئون الحياة كلها لإثبات صبغته وإعلاء شرعته.

وتطويع الحياة لخدمة الدين عمل شعبى وحكومى فى آن واحد، وهو يحتم توجيه النشاط الفردى والجماعى لخدمة الرسالة وتحقيق غاياتها.

والمسلم منذ صلاة الفجر يتحرك فى الموضع الذى اختاره القدر له ليعلى كلمة ربه.

وإذا كان كفاح العقائد فى هذه الأيام قد فرض تجنيداً إجبارياً، فإن مناصرة الإسلام لن تشذ عن هذه القاعدة. وإن الكدح لله هنا يتجاوز المسجد ليتناول الحقل والمصنع، والمرصد والدكان والديوان، والبر والبحر، وما يكتب وما يسمع، وقد يتناول خطرات النفوس وأحلام النيام» [(١)]

هـذا ما ينبـغى أن يفهـمه المسـلمون لاسـيما شبـاب الحركات العامـلة للإسلام ليقطعـوا الطريق أمام

(١) الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، للشيخ/ الغزالى رحمه الله صـ ٨٨ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(١) مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية، صـ ١٠ و١١ ، مرجع سابق.

أعدائهم من جهة، ومن جهة أخري يقدموا الإسلام بالصورة اللائقة المشرِّفة، والطريقة المناسبة لثقافة العصر ومتطلبات الحياة، لنصل بالبلاد والعباد إلي الهدف المنشود (الصلاح والفلاح والتقدم).

المطلب الثالث: أهم الحركات التي ظهرت في المجتمع المصري، ومدى نجاحها.

فى حياة الشيخ/ الغزالى والدكتور/ فؤاد زكريا ظهرت فى مصر حركات إصلاحية كثيرة ومتنوعة فى أفكارها ومشاربها وأيدلوجياتها ووسائلها، منها ما صبغ بصبغة دينية محافظة على التراث، ومنها دون ذلك مما يطول ذكره وشرح فكره كالحركات الاشتراكية والقومية، وحركة الضباط الأحرار، وجمعية الإصلاح الاجتماعي لمحمد العشماوي باشا. وسأكتفى هنا بذكر أهم الحركات التى تناولها الرجلان سواء بالنقد والتمحيص، أو باللوم وإرادة الهدم، أو بالإشادة والتقدير، وذلك رغبة فى الاختصار.

فالشيخ/ الغزالي يشيد بحركة الأستاذ/ جمال الدين الأفغاني، والشيخ/ محمد عبده، والإمام/ حسن البنا وغيرها من الحركات التي ظهرت في زمانه[1] ويرى أنها قدمت الكثير والكثير للمجتمع المسلم وحافظت مع الأزهر الشريف على لغة الأمة وهويتها ودينها. ومع كثرة هذه الحركات واعتراف الدكتور/ فؤاد بوجودها وتأثيرها وقدرتها على تغيير مجرى الحياة، إلا أنه ينتقد بشدة بعض هذه الحركات، ويدعي أنها تعمل لحسابها الخاص وليس لمصلحة الدولة، وأنها تركز الاهتمام على الفرد وتتجاهل البعد الاجتماعي [2] وأنها تتلقى دعمًا أجنبيًّا، وأن تحالف المسئولين معها يعد ـ على حد زعمه ـ (خطأً قاتلاً).

يقول: «.. الحديث عن انتشار الحركات الدينية في السبعينات لن يكتمل إلا إذا أضفنا إليه تأثير عمليات الدعم والتشجيع ـ المادي على وجه الخصوص ـ الذي كانت هذه الحركات تتلقاه خلال هذه الفترة من الداخل والخارج، فليس من شك في أن الدولة تغاضت في ذلك الحين عن نشاط الجماعات الدينية، بل إن البعض ذهب إلى حد القول أنها ساعدت على تدريب فئات منها، وكان هذا الموقف ـ سواء بالتغاضي المقصود، أم بالدعم الإيجابي ـ هو الخطأ الرئيسي الذي وقعت فيه ثورة يوليو، في تعاملها مع التيار الديني... وبعبارة أخرى، كانت السياسة الرسمية هي الاستعانة بالحركات الدينية إلى المدى الذي تفيد فيه الدولة، وتساعدها على تحقيق أهداف خاصة رسمتها لنفسها داخليًّا وخارجيًّا، وكان هذا خطأً قاتلاً؛ لأن التجربة أثبتت مرارًا وتكرارًا استحالة حصر هذه الجماعات في إطار محدد سلفًا، أو استخدامها وسيلة

---

(١) للمزيد انظر كتاب حوارات الشيخ الغزالى، صـ ١٦٢ وما بعدها ، مرجع سابق، فللشيخ كلام يطول ذكره عن جماعة الإخوان، والجمعية الشرعية، وأنصار السنة، انظر صـ ١٤٩ : ١٦٣ من الكتاب ذاته.

(٢) انظر صــ ٥٠ وما بعدها، كتاب (الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة) مرجع سابق.

لخدمة أغراض الغير، إذ إنها سرعان ما تنتقل إلى العمل لحسابها الخاص.» [١]

ولا أدرى ما هو الحساب الخاص للحركات الإسلامية الذى يقصده الدكتور / فؤاد زكريا؟ ولا يزال يردده إخوانه العلمانيون!! إن ما أعرفه ـ بحكم عملى فى الدعوة ـ عن هذه الحركات والجماعات الإسلامية أنها تهدف إلى بناء الفرد المسلم، والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة.

والسؤال: هل يجوز أن نصف من يسعى فى بناء المجتمع العربى المسلم بمواد إسلامية، وفكر إسلامي خالص بأنه يعمل لحسابه الخاص؟

والدكتور نفسه يقر أن اختلافه مع هذه الحركات والجماعات إنما هو فى الوسائل والمناهج، لا في الأهداف والغايات يقول: «لاحظنا من قبل أن من أكبر المشكلات التي تواجه الجماعات الإسلامية المعاصرة، افتقارها إلى برنامج اجتماعي محدد المعالم، وحين يتحدث المرء عن برنامج فإنه يعني:

أ ـ وجود تخطيط واضح بين الاتجاه الذي سيسير فيه المجتمع ككل بصورة محددة...

ب ـ وجود خطة قابلة للتطبيق في المجتمع الحديث...

وحين يتأمل المرء دعوات الجماعات الإسلامية المعاصرة في ضوء هذين المعيارين يستطيع أن يستنتج بوضوح أنها تفتقر إلى برنامج اجتماعي بالمعنى الذي حددناه، وكل محاولات الاجتهاد التي قد يبذلها هذا المفكر أو ذاك ما زالت في مرحلة التحسس الأولى.

والمشكلة الحقيقية لا تكمن فقط في عدم وجود برنامج محدد المَعَالِم، قابل للتطبيق في ظروف المجتمع الحديث لدى هذه الجماعات، بل ربما كان الأهم من ذلك هو أن أيدلوجيتها السائدة حالية لا تهتم كثيرًا بوجود مثل هذا البرنامج، ذلك لأن الاتجاه السائد لدى الجماعات الدينية هو تركيز الاهتمام على الفرد، وتجاهل البعد الاجتماعي.» [١]

هذا الكلام السابق كان الأولى بالدكتور/ فؤاد زكريا أن يوجهه للمسئولين في الدولة، وليس للحركات الإصلاحية، لأن الدولة بإمكاناتها الهائلة هي القادرة على وضع برامج كاملة وشاملة تحل مشاكل الفرد والأسرة والمجتمع، لكن الدكتور يهدف إلى التشكيك في قدرة الحركات الإسلامية على الإصلاح والتربية، ليفسح المجال أمام الحركات العلمانية والليبرالية.

وفارق كبير بين حل المشكلات المعقدة وبين الإصلاح العام، الأول يستلزم تدخل الدولة بقوة، والثاني يكفي أن تسمح له الدولة بالحركة والنشاط والاستمرار، سيما وقد أثمر خيرًا في البلاد، خصوصًا مجالات

(١) المرجع السابق، صـ ١٥٧ وما بعدها، بتصرف.

(١) الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، صـ ٢٦ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

التربية الأخلاقية، والمساعدات المادية، وعلاج المرضى .

والواقع يؤكد أن الحركات الإسلامية التي ظهرت في المجتمع منذ الخمسينات وحتى الآن أسهمت ـ بصورة أو بأخرى ـ في الإصلاح الاجتماعي المنشود[١] وكونها لم تصل إلى جميع أهداف الإصلاح المرجوة وطموحات المجتمع المأمولة، فإن ذلك يرجع ـ في تقديري ـ إلى أمور وأسباب، أهمها ما يلي:

١ـ أهداف الاحتلال ومطامعه في بلاد العرب والمسلمين والتي لا تزال باقية.

٢ـ سماسرة الغزو الفكري وإمكاناتهم المادية والأيدلوجية والإعلامية الهائلة.

٣ـ الخلافات والاختلافات المذهبية بين الحركات الإسلامية فيما بينها وبين غيرها.

٤ـ الخوف من نجاح هذه الحركات الإسلامية، وتميزها وظهورها على غيرها.

٥ـ عدم وجود الدعم الكافي من الدولة، أو المناسب للعمل الجماعي والحركي.

٦ـ الملاحقات الأمنية والتضييق على الحريات، وقوانين الحظر والتجريم.

٧ـ السلبية والبيروقراطية، والاستغراق فى الجزئيات والهموم الحياتية.

٨ـ التشويه المتكرر في وسائل الإعلام لرموز هذه الحركات وأهدافها، والتشكيك في قدرتها على الإصلاح.

يقول الشيخ/ الغزالي: "الحقيقة أن الأمة الإسلامية بعد سقوط الخلافة، وبعد أن هاجمت الحضارة الغربية بسبعين شعبة[١] في ميادين الحياة العامة، كان عقد الأمة الإسلامية قد انفرط وأصبح الأفراد والجماعات يعيشون فرادى تقريبًا، كل جماعة أرادت أن تتشبث بشيء من الإسلام، تستطيع أن تتشبث به، أمَّا مَالا تقدر عليه أو ما تعجز عن، أو ما تخاف مغبة الاشتراك به فهي تبتعد عنه وكأنها تريد أن تؤمِّن الحياة لهذا الجزء من الإسلام وتكتفي به، لا أدري هل على أمل أن تستكمل ما نقص، أم يكفي هذا وانتهى الأمر؟ على كل حال لاحظت أن هذا النقص جعل في تصرفات الجماعة شيئًا من الخطأ العلمي، والخطأ السلوكي." [٢]

هذه الملاحظة للشيخ/ الغزالي جديرة بالاهتمام وإن كانت تنطوي على نقد لهذه الحركات، إلا إنها تحوي تصحيحًا لخطإ اشتركت فيه جميع هذه الحركات، ألا وهو الاكتفاء بشيء من الدين دون التعاون مع غيرها في أشياء أخرى لا تقل في الأهمية عن هذا الشيء إن لم تزد عليه.

---

(١) للمزيد انظر كتاب/ سيد أبو داود (الحركة الإسلامية رؤية من الداخل.. حوارات صريحة مع رموز الصحوة) ط/ دار الاعتصام ودار النصر للطباعة، صـ٣٩ وما بعدها، بدون ذكر تاريخ.

(١) كالشورى والعدل والنظام والأخلاق والتربية الإيمانية واحترام الفكر الراشد والعلوم التجريبية والظواهر الطبيعية وغير ذلك من العلوم المتعلقة بحركة الحياة والتي سبق بها علماء الإسلام العالم كله.

(٢) حوارات الشيخ/ الغزالي السيرة والمسيرة، صـــ١٤٧، مرجع سابق.

المطلب الرابع: طلاب المدارس والجامعات، وصلتهم بحركات الإصلاح الاجتماعي.

أكثر الناس تفاعلاً مع حركات الإصلاح هم الشباب، وصفوة الشباب هم طلاب الجامعات والمدارس، فهم بحكم تعليمهم وحماسهم وسنهم واتصالهم بالأساتذة وقادة الفكر، وبحكم الزمالة والتقارب الفئوي والفكري يمثلون قوة لا يستهان بها في الحشد والوعظ والتأثير والتغيير.

ولقد ظل الشباب المسلم ـ وبالأخص طلاب الجامعات ـ في طليعة الإصلاح والثورات الاجتماعية، يقول د/ فؤاد زكريا: «.. هذه الجموع الكثيرة من الشبان والفتيات الذين تحركهم نوازع خيرة ونوايا طيبة، يحتاجون إلى أسلوب خاص في التعامل من جانب أولئك الذين لا يشاطرونهم أفكارهم ـ ومنهم كاتب هذه السطور ـ فالكثير من معارضيهم يكتفون بوصفهم بأنهم رجعيون، متزمتون يريدون إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء، ولا يقيمون وزنًا لحقائق العصر وظروفه المتجددة، ولكن حتى ولو كانت بعض هذه الأوصاف صحيحة فإنها لا تكفي على الإطلاق للتعامل مع أناس يؤمنون بأنهم يريدون الإصلاح، بل يؤكدون لأنفسهم أنهم هم وحدهم الذين يملكون طريق الخلاص من جميع المشاكل الفردية والاجتماعية.» (١)

والحقيقة أنه لا توجد جماعة أو حركة إسلامية تدعى العصمة، أو أنها تملك الحقيقة المطلقة، أو حل جميع المشاكل التى يعانى منها الفرد والمجتمع وتحتاج إلى تدخل الدولة، وغاية ما فى الأمر أن هذه الجماعات والحركات تقدم النصوص الدينية قطعية الثبوت والدلالة على غيرها، وترى أن الخلاص من جميع الهموم والأزمات والمشاكل والأمراض، لا يكون بعيداً عن كلام الله تعالى ورسوله ﷺ وأن أَيَّ حلول بعيدة عن الله ورسوله تولد ميتة.

الأمر الذى يجادل فيه د/ فؤاد زكريا ومن على شاكلته من غلاة العلمانية، إذ يرون أن طريق الخلاص لا يكون بالنصوص والاستشهاد بها أو الاقتباس منها، وإنما يكون بالعقل وملكاته وقدرته على وزن الأمور، ثم النقل عن الغير ممن لهم تجارب سابقة، ثم بالحوار مع شباب هذه الجماعات والحركات الإسلامية للتخلى عن نصوص الدين فى فهم الدنيا، يقول: «.. يفيد الحوار فائدة كبرى في إخراج هؤلاء الشبان ذوي النوايا الطيبة من سجن النصوص والاقتباسات والاستشهادات إلى رحابة الفكر العقلي وسماحته، فهو يفتح أمامهم آفاقاً جديدة لم يكن مسموحًا لهم داخل جماعاتهم بالاقتراب منها، ويعينهم على استخدام ملكة العقل التي صورها لهم البعض وكأنها رجس من عمل الشيطان، وليست أعظم ما أنعم به الله على البشر، ومن المؤكد أن اكتشاف عالم التفكير المنظم الذي يزن الأمور بميزان العقل والمنطق، كفيل بأن

---

(١) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، د:فؤادزكريا صـ ١٣٧، مرجع سابق.

يخلص هؤلاء الشباب من أخطاء فادحة، أو على الأقل يفتح أمامهم باب التفكير المستقل، في الأمور التي لم يحاولوا من قبل إخضاعها لأي نوع من المنطق.» [١]

وأنا لا أنكر أن حركات الشباب يشوبها شيء من الجهل والتهور وقلة الخبرة والاستعجال وربما العصبية والغرور، لكن ليس بالدرجة التي يدعيها د/ فؤاد زكريا من أنه غير مسموح لهم داخل جماعاتهم بالاقتراب من منطقة العقل، وأن البعض يصورها وكأنها رجس من عمل الشيطان!! ولا أدرى مَن هذا البعض؟ وعلى افتراض وجودهم مَن مِن الشباب يرضى لنفسه أن يكون أسيرًا أوسجينًا لفكر (ما) أو لنصوص (ما) دونما إعمالٍ لعقل ؟ اللهم إلا إذا كان صاحب هذا العقل قاصرًا لم ينضج بعد، ولم تكتمل لديه صورة الإسلام وأهدافه الكبرى في الحياة.

أعتقد أن كلام الدكتور ـ وإن كان له شاهد من الواقع ـ إلا إنه مبالغ فيها ذهب إليه إلى حد كبير، ولا يمثل عموم الشباب المسلم ـ ولا حتى غالبيته ـ لأن شبابنا لا يزال بخير، ولا يزال فيه قَدْرٌ من الحكمة وتقدير الأمور، ولذا نرى نشاطات الشباب في الجامعات لا تخرج عن الظروف التي تمر بها البلاد، وهذا لا يعني أن الشباب في غنى عن النصيحة والتوجيه والتعليم [١] لأن أحدًا لا ينكر وجود الشباب المسلم، وتأثيره على الساحة الاجتماعية والسياسية والدينية، وما يعانيه من تهميش وضياع وظلم.

وعن حركات الطلبة وما تحمله من ملاحظات يمكن الاستفادة منها على وجه من الوجوه يقول الشيخ/ الغزالي: «ولقد كانت الحوادث الأخيرة عبرة لمن يرقبون أطوار اليقظة في بلادنا، فقد دلت على أن هناك بقايا كثيرة من التخدير الذي أمات الإحساس الصحيح في جسم الأمة، فهي تحاول النهوض، فيطاوعها بعض أطرافها ويستعصي البعض الآخر!!وهي تنظر بعين فيها بوادر الغضب وفيها فتور النوم!.

وهي تفتح فمها فلا تدري: أَلِتقول الكلمة الفاصلة، أم لتتثاءب، أم لتخلط بين الأمرين؟!. وعندما أعلن الطلبة غضبتهم الأخيرة لمستقبل بلادهم الغائم، كان في (المقاهي) رجال يطالعون أنباء الطلبة كما يطالعون أنباء الصين، ورجال يخرجون من الأزقة القذرة إلى أعمالهم المعتادة وهم يضحكون أو يتضاحكون، ورجال آخرون في صميم الريف يمسكون بأذيال البقر وينطلقون خفافًا أو ثقالاً إلى الحقول ليقضوا سحابة النهار ثم يعودون مع الليل الهادئ إلى القرية النائمة أبدًا.

ذلك كله لأن الوعي الاجتماعي ضعيف عندنا والفضائل القومية ـ تبعًا لذلك ـ فاترة مريضة» [٢]

---

(١) المرجع السابق، صـــ ١٣٩.

(١) للمزيد انظر كتاب الحركة الإسلامية رؤيه من الداخل، صـ٦٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـــ ٨٢، مرجع سابق.

والشباب ـ على وجه الخصوص ـ في حاجة إلى مَنْ يأخذ بأيديهم على الدوام، ويرفع مِنْ مستواهم الفكري والحركي والأدبي، ويتجاوب مع تطلعاتهم؛ لتلائم هوية الأمة وروح العصر. هذا ما يطالب به الشيخ/ الغزالي المسئولين عن رعاية الشباب، يقول: «نحن نريد للشباب نهمًا علميًّا وعسكريًّا، ورياضيًّا واجتماعيًّا يملأ حياتهم بالجديد الذي لابد منه كي يؤدوا ما عليهم لأمتهم...

إن الشباب يحتاج إلى رعاية، يحتاج إلى شيء جديد من تفكير من بيدهم الأمر.

اتصل بي ـ والكلام للشيخ الغزالي ـ بعض الشباب في الجامعات، يريدون أن يقيموا لأنفسهم معسكرات دينية، كانوا في كثير من الحياء يقولون: أيمكن أن نعان بالخيام؟ ووجدت أن هؤلاء من أصحاب المثل ومن أصحاب اليقين، كأنما يراغمون الزمن، ويسبحون ضد التيار...

إن شبابنا بحاجة إلى الرعاية، ولكني لا أقنط الشباب، أريد أن أقول لأي شاب مؤمن: كن رجلاً، اثبت مكانك، كن قوي الشخصية...

أريد أن أقول لكل شاب مسلم رسخ قدمك في الأرض وامض في طريقك طالبًا وجه ربك ناشدًا ثوابه منتظرًا عونه وتوفيقه، وإذا حاربتك الدنيا كلها فثق أنها لن تنال قلامة ظفر من أظفارك، وستصل إلى غرضك، وليكن ما يكفيك من ثواب الله وتقديره إنك أحد الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله شاب نشأ في طاعة الله، فإذا تعاون هذا الشاب مع غيره فهما إخوان تعارفا على الله تحابا بروحه، اجتمعا عليه أو تفرقا عليه... ونريد من الرجال المسئولين من أرباب الأسر أن يلتفتوا إلى الشباب، وأن يقتربوا منهم، وأن يعينوهم على الحق، وأن يجتهدوا في أداء واجبهم.» (١)

نعم يجب على المسئولين وأولياء الأمور وأرباب الأسر أن يلتقوا بالشباب، ويعينوهم على الحق، كي يجتهدوا في أداء واجبهم في إصلاح ذواتهم ومجتمعاتهم، وتوجيه طاقاتهم ونشاطاتهم في البناء والتعمير لا الخراب والتدمير؛ لأن الشباب قوة وطاقة ـ لا يستهان بها ـ يجب على العقلاء أن يشغلوها بالحق قبل أن تشغلهم بالباطل، فإن وجد الشباب في الحق عملاً عملوا وانشغلوا، وإن لم يجدوا في الحق عملاً انشغلوا بالباطل، ولا خير في أمة يعمل شبابها في الباطل.

فهل يعي أولياء الأمور والمسئولون في الدولة هذه الأمور؟ وهل يقومون بواجبهم نحو إصلاح المجتمع عامة، والشباب خاصة.

هذا ما سأذكره ـ بعون الله ـ في الصفحات التالية.

* * *

---

(١) خطب الشيخ/ الغزالي في شئون الدين والحياة، صـــ١٤٢ وما بعدها، جـ١، بتصرف، مرجع سابق.

الفصل السادس

علاقة الدولة بالمجتمع، ودورها فى الإصلاح

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول: نظرة المجتمع للدولة ومدى تفاعله معها.

المبحث الثاني: الوزارات المعنية بالخدمات الاجتماعية وتقويم أدائها.

المبحث الثالث: العدالة الاجتماعية في توزيع الثروات وفرص العمل.

المبحث الرابع: تنظيم المجتمع، وسن القوانين، واختيار الكفاءات.

المبحث الخامس: محاسبة المفسدين، وحراسة القيم.

المبحث الأول: نظرة المجتمع للدولة، ومدى تفاعله معها.

ينظر المجتمع إلى الدولة على أنها المسئولة عن طعامه ودوائه وأمنه وأمانه وحريته وازدهاره ودينه وعقيدته، وبقدر ما تقوم الدولة بأعمال جيدة في هذه الأمور بقدر ما تكون العلاقة بينها وبين المجتمع جيدة، وإن أهملت الدولة أو قصرت أو تجاهلت مطالب المجتمع أو استخفت بها تكون العلاقة بينها وبين المجتمع فاترة أو سيئة.

وقد تتطور هذه العلاقة من سيىء إلى أسوأ، وقد تصل إلى الاحتجاجات والاعتصامات ومن ثَمَّ العداء والخصام والصدام.

إن العلاقة بين أفراد المجتمع وبين المسئولين في الدولة يجب أن لا تكون علاقة سلبية هشة فاترة تشوبها الكراهية والعداء.

والدكتور/ فؤاد زكريا ينكر على الدولة الضعف الذي وصلت إليه، وينكر تقصيرها في الخدمات الاجتماعية والبنية التحتية والتعليم والصحة، وهزائمها أمام اليهود، يقول: «كان يكفي أن أسير في شوارع القاهرة كل صيف، وأرى الفارق بين قاهرتي الجميلة التي شهدتها في طفولتي وصباي، وقاهرتي اليوم التي خربت بأكثر مما يستطيع عدو مجنون أن يفعل بها...

كان يكفي أن أقارن بين تعليمي في طفولتي والقشور التي يتلقاها أطفال اليوم بأقل الأساليب أمانة وإخلاصًا...كان يكفي أن أتأمل تعاسة أبناء وطني حين يبحثون عن العلاج أو عن مسكن أو عن وسيلة اتصال...كان يكفي أن أتأمل انهيار آمالنا الوطنية والقومية منذ أن صعدت لتناطح أكبر إمبراطوريات الأرض حتى هبطت إلى حضيض (إزالة آثار العدوان) بعد أن أصابتنا هزيمة نكراء على يد دولة عميلة هزيلة يسكنها خليط لا يزيد مجموعه عن سكان بلدة متوسطة في وطن..كان يكفي أن أتأمل هذا كله لكي أتساءل: ما الذي حدث؟.. كان يكفي أن أتأمل هذا كله لكي أغضب، ولكن غضبي لم يكن وليد خريف عاصف بل كان عمره أطول بكثير... »[(١)]

والدكتور فؤاد زكريا فى كتابه/ كم عمر الغضب هيكل وأزمة العقل العربي[(٢)] والذى ينتقد فيه سياسات المسئولين فى الدولة آنذاك ويؤكد فيه حقيقة تدهور هذه العلاقة بينها وبين الشعب، ويرجع أسباب هذا التدهور إلى سوء التقدير، وتبرير الكتّاب ومقدمي التقارير المضللة التي لا تعكس حقيقة

(١) كم عمر الغضب: هيكل وأزمة العقل العربي، صـ٢٢٦ وما بعدها، بتصرف يسير، مرجع سابق.

(٢) انظر صـ٨٢ ومابعدها، المرجع السابق.

الوضع الراهن، فى حين أن المسئولين يختبئون وراء قُوَّتِهِم ونظرياتهم وأيدلوجياتهم دون ظهير شعبي صالح، أو سند عَمَلِي ملموس.

يقول الدكتور/ فؤاد : «.. إن الديمقراطية لا تجد من ينادي بها إلا حين يكون الحكم في موقف الضعف، بينما تسحق بالأقدام بمجرد الإحساس بالقوة بنظرية (الديمقراطية بالموافقة) ويعني بها أن يكون الحاكم على وعي بمطالب الجماهير فيحققها لها، وعندئذٍ لابد أن يكون تصرفه ديمقراطيًا؛ لأن الجماهير ستوافق حتمًا عليه، ولأنه تعبير صادق عما تريده الجماهير.

وهذه بالفعل كانت الغلطة الكبرى للعهد الناصري: فقد اتخذ بالفعل قرارات كبرى وحاسمة، ولكنها لم تنبثق عن الشعب، إنما أتت من أعلى وظلت معتمدة ببقاء الزعيم الذى أوجدها، فلما اختفى انهارت بعده وكأنها بيت من ورق، وهكذا كانت نظرية (الديمقراطية بالموافقة) بدعة هيكلية ينكرها أي حس ديمقراطى سليم...

إن الحكم الفردى حتى لو بلغت انجازاته عنان السماء، يظل مُعَارَضًا للوقوع على الدوام فى كوارث»[١]

ويمضى الدكتور/ فؤاد فى بيان بعض هذه الكوارث التى حدثت فى عصره ومنها الهزائم العسكرية سنة ١٩٦٧م، وتردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، والضعف والفتور وسوء العلاقة بين الشعب والنظم الحاكمة، ويُرجع ذلك كله إلى حكم الفرد، وعدم استشارة الشعب والاعتماد على تقاريرالكُتَّابِ الذين يكررون الأكاذيب، ولا ينقلون الحقائق ويتعاملون مع الأحداث بعقلية يصفها د/ فؤاد زكريا بـأنها «عقلية تُحَقِّرُ ذكاء الجماهير وتفترض أنها تعيش وتفكر يومًا بيوم، وتتصور أن كل ما يحتاج إليه السياسي هو أن يكرر الأكذوبة؛ لكى تصبح حقيقة.

ولو تصور أحد أن الكاتب نفسه هو الذى ينسى مواقفه السابقة وليس الجمهور لكان فى ذلك مخطئًا أشد الخطأ، فمثل هؤلاء الكتاب ومعهم الحكام الذين يعملون هم لحسابهم يتذكرون كل شيءٍ، ولكنهم يؤمنون بأنهم هم وحدهم الأذكياء، ويسلمون تسليمًا كاملًا بغباء الآخرين»[٢].

حقًا ما قاله د/ فؤاد، وما ختم به كلماته من أمر الذكاء والغباء، أعتقد أن هذا الأمر هو أبو الكوارث وأمها، وخطورته أنه دام عقودًا، ولا يزال يُفرَض على الشعوب قسرًا.

---

(١) انظر هامش صـ٢١٨، ففيه رد الدكتور فؤاد زكريا على حوار نشرته جريدة الأهالي ١/ ٦/ ١٩٨٣م، بين صلاح عيسى، وبين محمد حسنين هيكل.. مع أن د/ فؤاد ينتقد هيكل منذ بدايات عام ١٩٧٠ انظر صـ ٢١٦ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـ٢١٤ وما بعدها، بتصرف.

والشيخ/ الغزالي يرى أن أس الفساد هو الجهل بالواجب المنوط بالأفراد والجماعات نحو الأمة وقادتها، وواجب الأمة نحوهم، ويدعو الشيخ هؤلاء وهؤلاء جميعًا إلى الرجوع إلى تعاليم الإسلام لفهم هذه الواجبات والعمل بمقتضاها، يقول: «الأمة هي الأسرة الكبيرة التي ينتمي المرء إليها، ويشارك في رسالتها، وينشط في ميدانها، ويكافح تحت رايتها، والتي ينضر وجهه لانتصارها، وينكسر قلبه لانهزامها!!

والإنسان الكبير يهتم بأمته اهتمامه بنفسه أو أشد، ويبرها مثل ما يبر أمه، أو آكد ويحتفي بكل ما يصله بأبنائها ويزيد روابطه بهم متانة. وقد كانت الأمة الإسلامية في عهدها الأول مثلًا فريدًا للتحاب والتعاضد، وكانت العلاقات بين الرعاة والرعايا قائمة على الإعزاز والحب مصداق قول رسول الله ﷺ: (خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، ويصلون عليكم وتصلون عليهم)[(١)] يعني تدعون لهم ويدعون لكم، وذاك طبعًا إنما يكون لصفاء النفوس وشيوع العدالة ونجاح الرسالة العامة التي يتعاون في إنجاحها الحاكم والشعب... »[(٢)]

ويستمر الشيخ/ الغزالي رحمه الله في بيان ما يجب أن يكون عليه الفرد نحو الدولة، وما يجب أن تكون عليه الدولة نحو الفرد، وما امتاز به الإسلام عن غيره في هذا الجانب يقول: «هل الفرد في الأمة الإسلامية يفنى في الدولة شأن نظرائه في الأمم الشيوعية؟ أم أن الدولة تخدم الفرد كما هي الحال في الأمم الديمقراطية؟

إن الإسلام شريعة السماء، وهو فوق أن يقارن بفلسفات الأرض.. لقد بلغ الإسلام في تكريمه الإنسان حدًا يشبه التدليل.. الفرد لا يتلاشى في الدولة كأن الدولة صنم جديد يطلب العبَّاد الفانين من غير وعد كلا، إن الدولة في الإسلام أمينة على الإسلام ومثله العليا القريبة والبعيدة، وهي بهذه الأمانة تطلب بذل النفس والمال من كل فرد، ولها بهذا الشعار الصادق حق الهيمنة والتوجيه في كل مجال وكل وجه، ولا يوجد ـ في منطق الإسلام ـ فرد يملك من ذاته أن يتلاشى الآخرون فيه، أو يذوبوا في أمره ونهيه وحبه وكرهه...

ونخلص من هذا الاستعراض الموجز إلى أن الإسلام يجعل الدولة للفرد في الحدود التي تصون كرامته الإنسانية وخصائصه الفردية، ويجعل الفرد للدولة في الحدود التي تعلو بها رسالتها- التي هي رسالة السماء- وتخفق بها رايتها التي هي راية الحق. »[(٣)] لأن الأفراد هم أساس المجتمع وهم لبناته الأولى، ومنهم تتكون الأسرة وتتشكل الجماعات والأحزاب والمؤسسات والهيئات والقيادات، وبقدر ما تكون هذه اللبنات قوية وصلبة ومتماسكة بقدر ما تكون هذه الكيانات قوية ومتينة ومترابطة، والعكس صحيح.

(١) رواه مسلم في صحيحه من حدبث عوف بن مالك رضي الله عنه برقم (١٨٥٥) كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم صـ٤٣٢ مرجع سابق.
(٢) هذا ديننا، صـ ١٤٩، بتصرف، مرجع سابق.
(٣) المرجع السابق، صـ١٥٠ .

والفرد عندما يوجه إليه مثل هذا الكلام السابق يقول: أنا لا أقصر في حق الدولة، أخضع لقوانينها، وأخدم في جيشها، وأعادي من عاداها، ولا أبخل عليها بدم أو ولد أو مال أو عَرَق، أنا أستجيب للدولة في كل ما تريد، والدولة لا تستجيب لي في أبسط الحقوق فما عساي أن أفعل؟

يقول الشيخ/ الغزالي تحت عنوان/ حدود السمع والطاعة بين الحكام والمحكومين «من أمارات الإحكام في شئون الجماعة والدولة أن تنتقل الأوامر من الرؤساء إلى الأطراف، كما ينتقل التيار من المولد الكبير إلى الأسلاك الممتدة، فلا يقطع نوره خلل ولا يرد قوته قطع أو خبل.

إن الجسم المعافى تستجيب أعضاؤه (للإرادة) التي تنقلها الأعصاب من الدماغ المفكر فيتحرك أو يسكن وفقها، ولن تعجز الإرادة عن بلوغ أهدافها إلا إذا اعتل الجسم وأصيبت أجهزته بالعجز والشلل.

والمجتمع الصحيح كالجسم الصحيح يشد كيانه جهاز دقيق، ويضبط أموره نظام محكم، وتتعاون ملكاته العليا وقواه المنفذة تعاونًا وثيقًا يسير به في أداء رسالته كما تسير الساعة فى حساب الزمن.

وطبيعة الحياة عندما فرضت خضوع الجسم للعقل إنما بنت هذا لمصلحة الجسم والعقل جميعًا، فقوانين السمع والطاعة التى سنها الإسلام، بل التى وضعتها نظم أخرى وطبقتها بصرامة لم يقصد بها إلا حفظ المصلحة العليا للجماعة، فكأنما أملت بها غريزة البقاء وضرورة الحياة، وعندما شرع قانون السمع والطاعة لم يفترض فى الأطراف التى تمثله إلا قيادة راشدة تنطق بالحكمة وتصدع بالحق وتأمر بالخير، ثم جنود يلبون النداء ويمنعون العوائق ويتممون الخطة.

وبذلك تنتظم دورة القانون فى الأمة، كما تنتظم دورة الدم فى البدن فتستقيم الحياة وتستقر الأوضاع»[1]. وهذا يذكرنا بقول النبى ﷺ :(مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[2]

ويُرْجِعُ الشيخُ أسبابَ الضعفِ وسوءِ العلاقةِ بين أفراد المجتمع وبين المسئولين فى الدولة إلى الظلم والاحتكار وعدم المساواة المادية والأدبية.

يقول رحمه الله: «الكرامة الاجتماعية تقوم على المساواة بين الطبقات وإقامة الموازين القسط بينهما، وجعل التكافل المادي والأدبي هو الرباط الذي يجمع شتاتها، ويركز قواها، فلا تكون النعمة احتكارًا لطائفة، ويكون الحرمان نصيب الأخرى، إذ إن هذه التعاسة مصدر ضعف عارم، ومثار سخط مكتوم تجعل أبناء

---

(١) الفساد السياسى فى المجتمعات العربية للشيخ الغزالي، صـ٥٨ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه كتاب البر والصلة والآداب باب تراحم المؤمنين.. برقم (٢٥٨٦) صـ٥٨١، مرجع سابق.

الوطن الواحد لا يتحمسون للدفاع عنه ما داموا ليسوا سواء في الانتفاع بخيره، وهذه الحقيقة هي سر الفتور والبرود الذي يسود الجماهير في الأمم المستعمرة والشبيهة بالمستعمرة، فلابد من محاربة الاستعمار الداخلي حتى تهب الشعوب على قلب رجل واحد إزاء أي هجوم يوجه إليها من أعدائها»(١).

إن عامة الشعب المصري يعيش في محنة كبيرة ومأساة تجعله في ارتباك دائم، لا يفيق منه ولا يقوى معه على البحث عن القضايا العامة التى تعرض للأمة بسبب المعاناة التي يعانيها هذا الشعب (٢).

ولقد نشر فاروق جويدة قصيدة بعنوان (كانت لنا أوطان) ختمها بقوله:

يا فارس الشعر قل للشعـر معذرة	لن يسمع الشعر من بالوحى قد كفروا
واكتب على القبر هذي أمة رحلت	لـم يبـق مـن أهلـها ذكـر ولا أثـرُ(٣)

لم يقف الحال عند حد الفتور وضعف العلاقة بين عامة الشعب والسلطة الحاكمة، بل زاد الأمر إلى درجة السخرية والاستهزاء وكتمان العداء للسلطة والنظام(٤) ثم تطور الأمر إلى الاحتجاجات والمظاهرات والاعتصامات، ثم الانقسامات والمواجهات التى لا تقف عند حد.

وهذه كلها مظاهر هدم للمجتمع وقيمه الدينية والإنسانية، الأمر الذى يجعل كل مخلص مكن الله له فى الأرض أن يعود إلى الرشد، وأن يستشعر عظمة الله وعِظم المسؤلية، إذ يقول ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾[الحج:٤١].

يقول د/ أحمد عكاشة أستاذ علم النفس: «كلنا نشعر الآن أن المواطن المصري قد أصبح جزيرة منعزلة مستقلة عن الوطن، يشعر بوجوه غريبة وانكفاء على الذات دون أن يجد حلًّا أو مهربًا خاصًّا لمشاكله، الأقرباء والجيران والأصدقاء والمعارف لم يعودوا عزوة الوطن، بل باتوا غرباء عنه أو انقلبوا خصومًا له في بعض الأحيان، وترتفع بين الحين والحين شعارات (إعادة بناء المواطن المصري) و(الانتماء كيف يتحقق)

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـ١٠٨ ، مرجع سابق.

(٢) هذه الحقيقة وَضَّحَ أبعادها ومظاهرها وآثارها الدكتور/ رشدى سعيد،فى كتاب الحقيقة والوهم في الواقع المصري ،صـ١٥ وما بعدها طبعة دار الهلال سنة ٢٠٠٢م.

(٣) أخبار المصريين في القرن العشرين من سنة ١٩٧٦ إلى ٢٠٠٠م ، تأليف/ سعيد هارون عاشور، مكتبة الآداب سنة ٢٠١٠م صـ٩٧.

(٤) انظر كتاب الأعمال الكاملة للشاعر أحمد مطر، ط/ كنوز المعرفة الطبعة الأولى سنة ٢٠١٠م، صـ ٤٠١ قصيدة بعنوان (يسقط الوطن) لأنه - كما يرى الشاعر- لا يوفر للمواطن أبسط الحقوق التي يحيا بها كريمًا، ويرى أيضًا أن وطنًا كهذا لا يستحق الدفاع عنه، ولا الموت في سبيله، ويقول: (ملعون أبو هذا الوطن) ويقول: (يا سيدى خذه بلا شيء.. فقط..خلصني من هذا الوطن) وانظرصـ ١٧٤-٣٤٢- ٥٧٢- ٦١٦ كلها أشعار وعبارات تهكمية وساخرة للشاعر عن الأوطان التي لا تهتم بالمواطن، لا فى دين ولا دنيا، ولا علم ولا ثقافة، ولا مستقبل ولا كرامة.

والذين يتحدثون عن انتماء المواطن المصري لا يهتمون بالبحث عن دور هذا المواطن في وطنه، ولا ينادون بتدارك وتلاقي الأسباب التي حدت بهذا المواطن إلى أن يصبح جزيرة منعزلة إلى الحد الذي يجعله غير عابئ بشيء في الوطن بدءًا بحقه الانتخابي، وانتهاءً بحرصه على عدم الإسراف في استهلاك المياه، هذه إذا توفرت في صنابير منزله أصلًا» [١].

والدولة لديها من ينقل لها نبض الجماهير ونقدهم، وما يقولون وما يريدون، وأراها دائمًا تواجه هذه الانتقادات اللاذعة بقولها: أنا لا آلو جهدًا ولا أدخر وسعًا في خدمة الجماهير، ومن أجل ذلك أنشأت وزارات عدة لتلبية حاجات المجتمع، وهذه الوزارات تقوم بواجبها في حدود إمكاناتها وقدراتها، فما هي هذه الوزارات وهل تقوم بواجبها حقا؟

هذا ما سأذكره في الصفحات التالية.

---

(١) انظر كتاب/ ثقوب في الضمير صـ ١٦ إلى ١٨، بتصرف، مرجع سابق.

المبحث الثاني: الوزارات المعنية بالخدمات الاجتماعية وتقويم أدائها.

في بلدنا مصر عِدَّة وزارات تعمل لصالح الفرد والأسرة والمجتمع، كوزارة الشئون الاجتماعية والتربية والتعليم والشباب والرياضة والتموين والإعلام والعدل والداخلية والقوى العاملة والاستثمار والبحث العلمي والبيئة. هذا بجانب المليارات التي تعطى لهذه الوزارات من ميزانية الدولة، وعندما ننظر إلي هذه الوزارات، وما يرصد لها من مال، وننظر إلي عدد الفقراء والمرضى والأميين والبطالة والأزمات المعيشية(١) وضعف الخدمات والبنية التحتية، عندما ننظر إلي هؤلاء وهؤلاء لا شك أننا نصاب بالدهشة والاستغراب، ما الذي يحدث في بلادنا؟ وهل هذه الوزارات تؤدي رسالتها وتقوم بواجبها في حدود إمكاناتها، وما يصرف لها من خزينة الدولة؟ إذا كان الجواب نعم فلماذا نرى كثيرًا من الناس في حالات يرثى لها؟!! وإذا كان الجواب لا، فلماذا لا تؤدي هذه الوزارات دورها ؟ وما سبب التقصير؟ وكيف يكون العلاج؟.

والذي اتفق عليه الرجلان الشيخ/ الغزالي و د/ فؤاد زكريا أن ثمة قصورًا وأخطاءً لابد وأن نتداركها قبل فوات الأوان وانفجار الوضع الاجتماعي انفجارًا يخرج عن السيطرة ويستعصي على الحل، بل وينذر بكوارث تعرض البلاد والعباد للخطر، نسأل الله السلامة.

وفي كتاب (التفكير العلمي) ينتقد الدكتور/ فؤاد زكريا بشدة الإعلام والقائمين عليه في بلادنا، ويرى أن الإعلام لا يؤدي رسالته كما ينبغي؛ لأنه يهتم كثيراً بالإثارة والإعلانات وخصوصاً التجارية، ويسير بطريقة فيها إسراف وتكاليف باهظة (٢) فهو يفسد ولا يصلح. وينتقد بشدة ـ أيضًا ـ أداء أ / محمد حسنين هيكل منذ الخمسينات ومؤسسة الرئاسة آنذاك (٣) وفي كتاب (العرب والنموذج الأمريكي) ينتقد سياسات العرب نحو أمريكا وإسرائيل. (٤) كما ينتقد القائمين على التعليم عمومًا، وخصوصًا واضعي المصطلحات والمقررات، ووزراء الثقافة، ورجال الأمن، فمثلاً يقول: «وقع المحظور، وأصبح تعبير(الأمن الثقافي) متداولاً على الألسن، وغَدَا التعبير شائعًا بين المعنيين بالسياسة الثقافية في بلادنا،

---

(١) سبقت الإشارة عن نسب وإحصائيات الفقر والبطالة والأمية والمرض، انظر المبحث الثالث من الفصل الثانى الباب الثاني، بعنوان/ تدنى مستوى التعليم والإعلام.. والفصل الثالث المبحث السادس، بعنوان / ظهور المشكلات الخطيرة.. وسأذكر هنا ما قاله د/ فؤاد والشيخ/ الغزالي عن عمل هذه الوزارات في عصرهما.. ثم أذكر ما يجب القيام به في هذا العصر .

(٢) انظر الكتاب المذكور أعلاه، صـ ٨٨ وما بعدها مرجع سابق، وقد ذكرت ذلك بالتفصيل في الفصل الثاني المبحث الثالث من هذا الباب.

(٣) لقد آثرت أن لا أذكر كل انتقادات د/ فؤاد للسلطة الحاكمة في زمانه، خصوصًا مؤسسة الرئاسة وأ/ محمد حسنين هيكل، واكتفيت بالإشارة.. ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابه كم عمر الغضب، صـ ٢١٤ وما بعدها، مرجع سابق.

(٤) انظر صــ٤١ إلى آخر الكتاب المذكور أعلاه، مرجع سابق.

واكتمل إحساسي بالاستياء، وبأنني أحارب فى معركة خاسرة، عندما وجدت تعبير (الأمن الثقافي) الذي لا أتوانى عن محاربته، كلما واتتني الفرصة..

لقد عرف الناس مفهوم الأمن أولاً في مجال عمل الشرطة، فالشرطة توفر الأمن للمواطنين، إذ تصد عنهم عدوان المنحرفين، ولكن سرعان ما اكتسب هذا اللفظ نفسه مفهومًا مشوبًا بالرعب، بعد أن أصبحت قوات الأمن مثلاً مرادفة لتلك الصفوف المتراصة من الجند الذين يفضون المظاهرات السلمية بقوة وقسوة ـ والكلام للدكتور/ فؤاد زكريا ـ ثم مضى يقول: وأصبحت (أجهزة الأمن) مرادفة للتجسس على المواطنين وقمع حريتهم وهلم جرا في هذا الميدان. إذن فَقَدَ لفظ (الأمن) براءته ووداعته الأصلية، وتحول في أحيان كثيرة إلى نقيضه. »[١]

وللدكتور/ فؤاد كلام طويل عن أسباب مقتل الرئيس الأسبق (السادات) هل سببه ادعاؤه الديمقراطية دون تطبيق فِعْليٍّ لها على الأرض، أم اعتراضه على أحكام الشريعة الإسلامية، أم الحالة المتردية للمجتمع في هذه الفترة.؟[٢]

والخلاصة: أن د/ فؤاد يركز كل اهتمامه وانتقاداته على الوزارات المعنية بالثقافة والتعليم والسياسة والفنون، والعلاقات الخارجية والقضايا الكبرى، وأحياناً يذكر الصحة والإنتاج والبنية التحتية فى المجتمع ويرى أن جميعها مقصر لا يؤدي واجبه المنوط به، ويحتاج إلى إصلاحات علمية وهيكلية وتنظيمية كي تراعي فيها مصالح الجماهير، واختيار الكفاءات والتقدم العلمي ومواكبة العصر.

أما الشيخ/ الغزالي ـ بجانب اهتمامه بما سبق ـ إلا أنه يولي مصالح الفئات المهمشة وإخفاق الحكومات في خدمتها اهتمامًا خاصًا، يقول: « إن عشرات الحكومات ظهرت في الشرق الإسلامي، لا تعتمد في بقائها على أثارة[٣] من حب أو رائحة من إعزاز إنها ما تعتمد إلا على السيف وحده في بقائها، وما تتوسل بالحكم إلا لضمان مصالحها الخاصة. وكم تظن عمق الفجوة بين هؤلاء الحكام وبين أممهم المقهورة؟.

لذلك قلنا: إن أمثال هذه السلطات استعمار داخلي، وإن ما يتولد في ظلها من ذل وقطيعة وبغضاء هو

(١) خطاب إلى العقل العربي، د/ فؤاد زكريا صـ ٣٦ وما بعدها، بتصرف يسير، مرجع سابق، وانظر صـ ١٨٨ تقييم الدكتور للأداء الموسيقي في مصر والعالم العربي مقارنة مع الدول الأخرى.

(٢) انظر كتاب الحقيقة والوهم، د/ فؤاد زكريا صـ ٨٨ وما بعدها، مرجع سابق.

(٣) أثارة: بمعنى بقية.

المهاد الطبيعي للاستعمار الخارجي. »[١]

والمرء عندما يرى الإهمال والظلم والفساد، ويرى التفاوت الرهيب في الحياة الاجتماعية، يعتقد هذا الاعتقاد الذي أشار إليه الشيخ؛ لأن أمور التعليم وتوفير حد الكفاية والأمن والعمل في الوظائف الإدارية في الدولة، وتحديد الرواتب من أعمال المؤسسات والوزارات، وليس الشخصيات والأفراد.

لذا أقول: إن أهم واجب يجب أن تقوم به الدولة نحو المجتمع الاهتمام بالتربية الفكرية، وتوفير ضروريات الحياة، وحل مشاكل الناس وبالأخص المشاكل الاجتماعية؛ «لأن دور الدولة في مراعاة البعد الاجتماعي يكون في الاهتمام بالتعليم والصحة والغذاء، فتوفير الاحتياجات الأساسية للأفراد من أهم الاعتبارات الاجتماعية التي يجب أن تتوفر في أي مجتمع.

ومن المعروف أن عملية التحول الاقتصادي في مصر من النظام القائم على التخطيط المركزي وملكية الدولة لوسائل الإنتاج إلى النظام القائم على العرض والطلب والاعتماد على السوق نتج عنه تكلفة باهظة، وقع معظمها على الطبقات الفقيرة في المجتمع، هذه بالإضافة إلى اعتياد الأفراد ـ خلال الفترات السابقة ـ على بعض الأمور التي لابد من التخلي عنها الآن، فعلى سبيل المثال عندما يتخرج أي شاب كانت الدولة ملزمة بتشغيله فور تخرجه، أو تبحث له عن الوظيفة المناسبة، أما الآن وفي عصر العولمة والتي أصبح للدولة أدوار أخرى[٢] فلابد أن يقوم هو بنفسه في البحث عن الوظفة المناسبة حيث لم تعد الدولة هي التي تقوم بالتعيين والتشغيل كما كان سابقًا، نظرًا للظروف التي طرأت على مجرى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية، هذا بالإضافة إلى التعداد السكني الرهيب الذي يكبل أي حكومة ويصعب المهمة على أي قيادة في الوصول لأي نجاح يلمسه كل المواطنين في الدولة. »[٣]

ولكن يقال: ما لا يدرك كله لا يترك جله، لاسيما والدولة تملك إمكانات هائلة.

انظر إلى المساحات الكبيرة من نواد وملاعب وُقِفَت للشباب والرياضة، والإمكانات المادية والمعنوية المرصودة لهذه الوزارات، والدخل المادي الشهري والسنوي من الإعلانات والاشتراكات وإيجار القاعات وصافي أرباح الأعمال الفنية، عندما تنظر إلى ذلك كله وننظر إلى حال أبنائنا وما هم عليه من الفقر والجهل

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـ١١١، مرجع سابق، وانظر ما قاله د/ فرغلي هارون في كتابه (الجرائم الاجتماعية لعصر مبارك ثلاثون سنة) فساد، وقهر، وظلم، وجهل، وتعذيب، واعتقال، وخوف، وكذب، واستبداد، ووعود فارغة، واستخفاف، وخيانة، وبيع لأصول الدولة.. ط/ إنسانيات والجمل للنشر والتوزيع، سنة ٢٠١٢م.

(٢) من نتائج تطبيقها في المجال الإقتصادي زوال دولة الخدمات، فالعولمة في الحقيقة ضد المواطن البسيط الفقير الذى إن فقد المال فلا تعليم ولا علاج وأحياناً لا مأوى، انظر كتاب دور الدولة والمؤسسات في ظل العولمة، صـ ١٦٥ وما بعدها، مرجع سابق .

(٣) المرجع السابق صـ ١٦١.

والمرض والتخلف والسلبية تعجب كل العجب!! كيف لا تؤدي هذه الجهات دورها في تعليم الشباب وتهذيب أخلاقهم وعلاجهم ورفع مستواهم العلمي والفكري وهي تملك هذه الإمكانات الهائلة؟!!

ولم يقف الحال عند حد التقصير في القيام بالواجبات، بل تعداه إلى ترسيخ قيم الفساد بفضل ما تقوم به بعض هذه الوزارات، أو بعض المنتسبين إليها .وما سبقت الإشارة إليه عن الإعلام والثقافة والقائمين عليهما أعتقد أنه يكفى. وما تراه العين يخجل القلم عن وصفه، أقل ذلك علاقات الحب والغرام بين الشباب، وأوسطها تعاطي التدخين والمخدرات، وأخطرها الجرائم المنظمة وما يسمى بالزواج العرفي وما ينتج عنه من سفاح وحمل وتشريد وضياع، أليس كل ذلك تدميرًا وتخريبًا؟!!

إن الإصلاح المجتمعي لا يتأتى في ظل هذه الجرائم الكبرى التى تطالعنا بها الصحف صباح مساء، ولا يمكن أن يتأتى الإصلاح الاجتماعي المنشود وهذا الكم الهائل من الفساد لايزال مستوطنًا في البلاد، ومتمكنًا من العباد، ومن أوائل ما يجب الاهتمام به في عملية الإصلاح العدالة الاجتماعية في توزيع الثروات وفرص العمل.

وهذا ما سأذكره بالتفصيل في المبحث التالي.

المبحث الثالث: العدالة الاجتماعية في توزيع الثروات وفرص العمل.

هذا الموضوع من أخطر مسائل الإصلاح الاجتماعي؛ لأنه يتعلق بأرزاق الناس ومعاشهم، وبسبب غيبته تحدث الرشاوى والفساد المالي والإداري في المحليات والوزارات غالبًا، لذا سأبسط القول فيه، وأذكر أولاً أقوال علماء الاقتصاد وتقييمهم للثروات الموجودة في مصر، ومدى الاستفادة منها في إصلاح المجتمع، ثم أذكر بعد ذلك رأي الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي.

أولاً: نبذة مختصرة عن الموارد الطبيعية الغنية بها مصر.

مصر غنية بالموارد الطبيعية سواء أكانت زراعية أو مائية أو معدنية أو بشرية، وهذا معروف ولا ينكره أحد من العلماء المختصين.

١ - الموارد الزراعية:

يقول د/ عماد الدين حسن، ود/ حنفي محمود سليمان: « لعلنا نعلم أن مساحة جمهورية مصر العربية تصل إلى١.٠٠٣.٠٠٠(مليون وثلاثة آلاف) كيلو متر مربع، ويتركز السكان في الشريط الضيق لوادي النيل والدلتا، ويترتب على ذلك ضآلة المساحة المأهولة بالسكان، إذا ما قورنت بجملة المساحة٥.٥٪ مما أدى إلى أن تعاني مصر من كثافة سكانية عالية، بلغت في الكيلو متر الواحد ١٧٠ نسمة في المساحة المأهولة وحوالي ٥٩ فرد لكل كيلو متر مربع من المساحة الكلية وذلك وفقًا لتعداد السكان، نلاحظ أن السكان يتركزون في الوادي والدلتا إذ يسكنها حوال ٩٧٪ من إجمالي سكان مصر بينما لا يتجاوز مساحتها ٤٪ من إجمالي مساحة مصر » [(١)].

ولا خلاف فيما أعلم ـ بين العلماء فيما ذكره الدكتور/ عماد والدكتور/ حنفي من أن مساحة مصر تربو على المليون كيلو متر مربع، وأن نسبة المعمور منها ضئيل جدًّا، وأن هناك أكثر من ٨٥٪ أرض بورٍ بكرٍ منذ خلق الله الأرض لم يُسْتَفَدْ منها !!

ولا خلاف ـ أيضًا ـ في أن مصر بلد زراعي منذ القدم، وأن المناخ في مصر يساعد على زراعة كافة المحاصيل الزراعية على مدار العام.

«.. يكفي أن نعلم في كلمات بسيطة سهلة بعيدة عن المصطلحات الاقتصادية أن مصر وحدها كانت ولأمد طويل هي مزرعة القمح التي تعتمد عليها الامبراطورية الرومانية، وهي مخزن الغلال الذي يغذي

(١) مفاهيم أساسية في إدارة الموارد البشرية، د/ عماد الدين حسن، د/ حنفي محمود ط/ الجامعة العمالية صـ١٣ المؤسسة الثقافية، بدون تاريخ.

سائر المنطقة بشهادة القرآن الكريم، ستة مليون فدان تزرع في مصر بالري»[(١)].

هذه الملايين الست هي التي ورثها المصريون عن الفراعنة، ونظم ريها محمد علي باشا الكبير (الذي حكم مصر من عام ١٨٠٥م : ١٨٤٨م) ولازالت مصر عالة عليها حتى الآن، باستثناء بعض الإصلاحات الصحراوية المحدودة التي لا تفي باحتياج أبناء البلاد.

هذه المساحة التي استغلها محمد علي أو نظم أو طوّر زراعتها ليست هي وحدها الأرض الزراعية الصالحة للزراعة في مصر، بل هناك ثمانية ملايين فدان قابلة للزراعة [(٢)] في الصحراء الغربية والشرقية وسيناء. القليل منها تم إصلاحه والكثير لا يزال على حاله.

والسؤال المحير لماذا لم تزرع هذه المساحات الهائلة ؟ ولصالح مَن تبقى معطلة مهملة مبورة إلى الآن ؟

تقول الاحصائيات: يسكن الصحراء ١٪ من جملة السكان بينما تبلغ مساحتها ٩٦٪ من جملة مساحة مصر[(٣)] تأمل ١٪ يشغل ٩٦٪ من مساحة أرض مصر، ألا يدل ذلك على العجب والاستغراب؟!

٢- الموارد المائية:

قال ﷻ :﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [سورة الأنبياء:٣٠] لعل قائلاً يقول: هذه المساحات الهائلة التي ذكرت ليس فيها ماء يكفي للزراعة، والجواب: أن مصر بها مياه جوفية مثل مياه نهر النيل.

«تتوافر المياه الجوفية في الواحات الخمس (سيوة ـ البحيرة ـ الفرافرة ـ الداخلة ـ الخارجة)، وقد أقيم مشروع الوادي الجديد في الداخلة والخارجة »[(٤)].

ولقد رأيت بعيني المياه الجوفية في الوادي الجديد وقربها من سطح الأرض، ونتاج المحاصيل الزراعية هناك، وهي لا تقل في جودتها عن نتاج مزارع وادي النيل، حيث يوجد في باطنها «خزانات هائلة تتراوح المياة فيها بعمق ٣٠ إلى ٢٠٠ مترًا من سطح الأرض»[(٥)] ولا يزال أبناء هذه البلاد يستخرجون هذه المياه بطريقتهم البدائية ولأغراضهم الخاصة ولا توظف هذه الموارد ـ سواء الأرض الصالحة للزراعة أو المياه أو هما معًا ـ في خدمة أبناء البلاد.

---

(١) منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين، د/ كمال مصطفى، صـ ١٣٠، ١٣١، ط ١، مرجع سابق.

(٢) راجع كتاب جغرافيا مصر والوطن العربي، طـ وزارة التربية والتعليم سنة ٢٠٠٩ / ٢٠١٠م، وكتاب ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية طـ ٢ عدد ١٥٣، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية صـ ١٠٣، عام ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٣) مفاهيم أساسية في إدارة الموارد البشرية صـ ١٤، مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق ص١٤.

(٥) منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين صـ١٤٦، مرجع سابق.

ففي سيناء وحدها أكثر من مليون فدان قابلة للزراعة لم يستثمر منها شيء يذكر[١] ناهيك بتجريف التربة وصناعة الطوب، وتبوير هذه الأرض وضياع معالم الزراعة بردم الآبار والترع وتقسيمها مباني بقصد الحصول على الربح السريع والوفير[٢].

تقول الإحصائيات الرسمية: «لا تزال الاستفادة من مياه الري لا تتعدى ٥٠٪ من إمكاناتها»[٣].

٣- الثروات المعدنية الغنية بها مصر:

مصر مليئة بالمعادن والخامات اللازمة لتطور الصناعة، وبها ـ أيضًا ـ من الطاقة ما يكفي لإقامة أكبر المشروعات، ومنافسة الدول المتقدمة، وربما التفوق عليها.

«من أهم المعادن الموجودة في مصر الحديد والمنجنيز والفوسفات والزنك والنحاس والذهب والقصدير والتنجستين والتيتانيوم والثوريوم والكروم والكاولين والفحم والغاز الطبيعي»[٤].

هذا الكم الهائل والمتنوع من الثروات المعدنية، لا أظن أنه يوجد (مُجْتَمِعًا) في دولة مساحتها تزيد قليلاً عن مليون كيلو متر مربع، وهذا يدل على أن الله ﷻ قد حبا مصر وأمدها بالخيرات التي تؤهلها دومًا إلى الكفاية والرفاهية والغنى والريادة. وللأسف لا تستفيد من هذه الموارد، والدليل على ذلك أن مصر تصدر للخارج معظم صادراتها (مواد خام)[٥] ويكفي أن أتكلم عن واحدة من هذه الثروات الهامة والحيوية الغنية بها مصر وهي (الحديد)، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد: ٢٥].

هذا المعدن الذي ذكره الله صراحة في كتابه العزيز، وبَيَّنَ أن فيه بأسًا شديدًا ومنافع للناس موجود بكثرة في مصر. يقول مؤلفوا كتاب جغرافيا مصر: «مصر بها خام حديد يصل في سمك طبقاته إلى ١٢ متر، ويوجد بكميات كبيرة في منطقة الواحات البحرية بالصحراء الغربية في جبل الجديدة، وتتكون معادن الخام من الليمونيت والهيماتيت والمغرة كما يوجد حديد خام في أسوان، كما يوجد في الصحراء الشرقية على شكل عروق كما يوجد في سيناء، وقد بلغ حجم الإنتاج من خام الحديد ٢.٧ مليون طن سنة ١٩٩٧ »[١].

---

(١) مصر المحروسة من تاني، د/ علي السلمي، صـ٣٩٧، ط/ مكتبة الشروق، ط/ ١، سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

(٢) انظر كتاب تشريح الشخصية المصرية صـ ٢١٢، مرجع سابق.

(٣) راجع كتاب جغرافيا مصر والوطن العربي، مرجع سابق، وكتاب المياه والتنمية الاقتصادية أ/ أشرف صبحي عبد العاطي وعمرو علي حسن صـ٣٩ وما بعدها، طـ ١٩٩٩م دار مكتبة الإسراء.

(٤) كتاب جغرافيا مصر والوطن العربي صـ ١٢٤، مرجع سابق.

(٥) مصر تصدر سنوياً مواد خام وغاز طبيعي ومعادن ورمال.. إلى ٢٢ دولة بأسعار متدنية للغاية. للمزيد نظر موقع ماسبيروا للإذاعة والتلفزيون الصفحة الرسمية(الإقتصاد) بقلم وفاء نجم وأسامة عبد الحق يوم ٣١/ ٣/ ٢٠١٥م .

(١) أ/ أشرف صبحي عبد العاطي، وعمرو على حسن، انظر صـ ١٢٤ بتصرف يسير، مرجع سابق.

ومع هذا تحدث أزمة في الحديد تصيب قطاع البناء بالشلل التام، وإحداث أزمة تجعل الحديد (السلعة الحيوية) تختفي من السوق، ويتضاعف سعرها..

قل مثل ذلك في أنبوبة الغاز، وأسعار الدواء والطعام والسكن والسيارات وغيرها مما يحتاج الناس إليه ولا يمكن الاستغناء عنه، وهذا واضح لا يخفى على أحد.

٤ – الموارد البشرية:

يقاس مدى تقدم الدول، ليس فقط من خلال ما تملكه من ثروات وموارد، إنما أيضًا بالقدرات والإمكانيات العلمية والعملية لأبنائها.

إذ إن العنصر البشري هو أساس تحقيق التنميه الاقتصادية والاجتماعية بقدر ما يملكه من قدرات ومعارف ومهارات وقيم وعادات وتقاليد ومعتقدات دافعة لطاقته نحو الابتكار والإبداع، فالإنسان هو المحور الرئيسي المستهدف بالتقدم والتنميه[١].

ومصر ليست بحاجة إلى موارد طبيعية بقدر ما هي في أمس الحاجة إلى صدق النوايا فى الإصلاح، والرغبة الحقيقية في حل المشكلات حلًّا جذريًّا، المشكلة ليست في قلة الموارد أو الأيدي العاملة، فمصر غنيه بالموارد بشهادة المختصين فى إدارة الموارد، وإنما المشكلة لخصها المتنبي ـ الشاعر المعروف ـ عندما قال:

نامت نَوَاطِيرُ مصر عن ثعالبها حتى بَشِمْنَ وما تَفْنَى العَنَاقِيدُ [٢]

لقد رمز المتنبي إلي الخيرات في مصر (بعناقيد العنب) التي تتناهشها الثعالب من كل ناحية، ورمز إلى الحراس عليها (بالنواطير) وهي ما يعرف بخيال الحقل الذى ينصب لتخويف الثعالب القادمة للتخريب، والثعالب أكلت من هذه العناقيد حتى (بَشِمْن) أي شبعن شبعا يصل إلى التخمة، ولكثرة هذه العناقيد ووفرتها لا تنفد ولا تزول.

والعجيب أن المتنبي قال ذلك في وقت ما، كانت مصر تعاني فيه من أزمات خانقه مثل اليوم، وهو على أي حال يرى أن الخير في مصر كثير ومتجدد ولا ينفد.

نعم مصر بها كثير من الخيرات وبها فائض من الخبراء فى معظم المجالات وتصدر للخارج عشر أبنائها [١].

---

(١) راجع كتاب مفاهيم أساسيه في إدارة الموارد البشريه صـ١١، مرجع سابق.

(٢) ديوان المتنبى صـ ٥٠٧، دار بيروت للطباعة والنشر طـ سنة ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

(١) تقديرات الجهات الرسمية للدولة اختلفت حول أعداد المهاجرين حيث حددها الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء بـ ٨ ملايين مهاجر، =

«نحن نؤمن أن الثروة الحقيقيه في مصر هم أبناؤها إذ يمثلون رأس المال الحقيقي، فهم القوة المنتجة لكل السلع والخدمات في المجتمع، وهم القوة الفكرية المبدعة الخلاقه، وهم الأداة المحورية في تفعيل واستثمار موارد المجتمع المادية والطبيعية وتحقيق القيمة المضافة، وهم أصحاب الوطن ومصدر قوته»[١].

والثروة البشرية في مصر كم هائل مهمل لا يستفاد منه ـ على الوجه الأكمل والمطلوب ـ بل وينظر إليه على أنه عبء على المجتمع لا عونًا له.

إذن مصر غنية بالموارد الطبيعية الكثيرة والمتنوعة، والمشكلة مشكلة عدل، وليست مشكلة قلة الموارد والإمكانات وإنما لأسباب أخرى منها:

أ ـ الوظائف الحكومية:

إن أناسًا قد تبوءوا أعلى المناصب والدرجات والوظائف الحكومية، وآخرين لهم سنوات وسنوات وهم يبحثون عن فرصة عمل ـ أي عمل يستر حالهم ـ ومع ذلك لا يجدون[٢].

والعجيب أن هؤلاء وهؤلاء على درجة سواء، فهم أبناء مصر، وربما تخرجوا في كلية واحدة وبدرجة متساوية، بل ربما يكون المحروم ـ من هذه الوظيفة ـ أعلى درجة وكفاءة ومهارة من صاحب الحظ[٣].

والأعجب من هذا القوانين المنظمة لسوق العمل في مصر! فهناك مَن يحظى بالكادر الخاص أو حوافز مميزة[٤] وهناك مَن ينتظر العلاوة الدورية كل عام، ناهيك بالتسهيلات والتعقيدات في الحصول على قطعة أرض، أو ترخيص لعمل مشروع مفيد أو الابتعاث للخارج، فهناك من تذلل له القوانين ويتيسر له الأمر، وهناك من يجد العقبات والتعقيدات، وهناك من ييأس ويترك المسألة برمتها ويبحث عن عمل آخر ميسور، وهناك من يريد أن يعيش على أي وضع يضمن له البقاء.

=

وحددتها بعض المنظمات الدولية كالبنك الدولى بـ ١٠ ملايين، وهناك من حددها بـ١٢ مليون مهاجر، خاصة أن كل جهة تقوم بتحديد عدد المهاجرين طبقاً لتصنيفات معينة فالبنك المركزى يحصرهم من خلال التحويلات، وهناك أيضاً من يحددهم طبقاً لعدد التأشيرات للمزيد انظر موقع الجهاز المركزي.. مرجع سابق. ولمعرفة ظروف هؤلاء المهاجرين انظر كتاب ماذا حدث للمصريين، د/ جلال أمين، صـ ١٠٧ـ١٠٨، صـ ١٧٤، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠٠٩م.

(١) كتاب مصر المحروسه من تانى، صـ٢٦٨ مرجع سابق.

(٢) انظر جذور الفساد الإداري في مصر صـ٣٤، وما بعدها، د/ عبد الخالق فاروق، ط/ دار الشروق لسنة ٢٠٠٨.

(٣) انظر المرجع السابق صـ١٨٩، ١٩٠وصـ٢٧٧.

(٤) انظر المرجع السابق صـ٢٩٠ وصـ ٢٩٩ وصـ ٣٠١،٣٠٠.

وبعيدًا عن المحسوبيات والوساطة والرِّشوة للحصول على الوظائف أو فرص العمل، تَجِدُ مَن يُعيّن بأمر تكليف، ومَن يُعيّن بالمسابقات ولجان التحكيم، وهناك مَن يُحرَم من التعيين ـ بعد النجاح في المسابقة وبعد الكشف الطبي ـ لمجرد الاشتباه أو لاعتبارات أخرى فوق القانون(١).

ولم يقف الحال عند حد الاستئثار بالمناصب المرموقة، وترك الأعمال الأخرى المهنية والحرفية ذات العائد البسيط للبسطاء، لو وقف الحال عند هذا الحد لَتَصَبَّرَ الناس إذ وجدوا حد الكفاية.

قال ﷺ: (ستجدون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها، قالوا: وبما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم)(٢).

لم يقف الحال عند الأثرة التي أشار إليها الحديث الشريف والتي تعني حب النفس المفرط، أو اختصاص المرء نفسه بأجود الأشياء دون غيره(٣) أو التميز على الغير بحيازة الخير مع ترك جزء من هذا الخير للغير. لقد وصل الحال في مصر إلى درجة الاحتكار، واستقدام العمال الأجانب للعمل في مصر، وطرد العمالة المصرية والاستغناء عنها بالرغم من ارتفاع البطالة ومهارة المصريين.

إن آخر ما يمكن أن يتصوره المرء ـ في بلد يدعي أنه ينحاز للفقراء ـ أن تسمح بطرد العمال من وظائفهم واستبدالهم بعمال أجانب.

وإذا كانت الوظائف السيادية لها مبرراتها (الكفاءة) (الخبرة) (المؤهل العلمي) (السيرة الذاتية) فما هي مبررات طرد العمال وهم في سن العطاء؟ وليس لهم أعمال بديلة، ولا تعطى لهم مكافئات تكفي لإقامة المشاريع المنتجة، إن هؤلاء الذين يطردون من أعمالهم ينضمون إلى طابور العاطلين، فيزداد العدد ويكثر الخطأ ويعظم الخطب.

إن من أخطر الأسباب التي ساعدت في انتشار الفساد في مصر ـ إن لم تكن أخطرها على الإطلاق ـ عدم مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل بين فئات وأفراد المجتمع.

ب ـ تقسيم الأراضي والمشروعات الإنتاجية:

يقول الدكتور/ محمود عطية تحت عنوان (محظوظي الدخل):

«إن خبراء علم الاجتماع يؤكدون أن فئة محظوظي الدخل موطنها الأصلي يرجع إلى مرتفعات آليات

---

(١) انظر المرجع السابق، صـ ١٧٤ وما بعدها.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن مسعود ﵁ برقم (٣٦٠٣) كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، صـ٥١٤، مرجع سابق، ورواه مسلم في صحيحه من حدبث عبد الله بن زيد ﵁ برقم (١٨٤٣) كتاب الإمارة باب الوفاء ببيعة الخلفاء صـ٤٣٠ مرجع سابق.

(٣) انظر رائد الطلاب صـ ٢٥، مرجع سابق.

السوق غير المنضبطة في خلال حديث تنشيط الاستثمار وبرامج الخصخصة والمعونات الأجنبية والتعامل مع الهيئات غامضة العمل والنوايا داخل البلاد، والترويج للديمقراطية وتسقيع الأراضي، وترؤس المنشآت الحيوية والجلوس في موقع الصدارة حيث لا حسيب ولا رقيب، بهذا الفساد تباع أراضي الدولة بملاليم الفلوس،لا أخفي ما أشعر به من خوف كلما استمعت لخبرائنا الاقتصاديين حين يتحدثون عن خطر هذه الفئة فهم يربكوننا، فكم من المصريين دخلوا دائرة الفقر؟ وهل في بلادنا ترصد شرائح الفقراء؟ وهل لدينا أرقام نثق بها؟

وهل سمح خبراء ووزراء الاقتصاد بالمحروسة بما يسمى بالتوزيع العادل لثروات البلاد بين جميع الطبقات؟وهل هناك وجود في بلاد العالم لمن يطلق عليهم طبقة (محظوظي الدخل) التي تتراكم ثرواتهم من اقتصاديات هامشية لا تصب في مصالح اقتصاد البلاد وعلى حساب طبقات (محدودي الدخل) وفي وجود حكومات وطنية»[١].

إن الطريقة التي يتم بها تقسيم الثروات وفرص العمل، والنظم المتبعة والمعلنة في توظيف العاملين، أو تقسيم الأراضي التابعة للدولة تؤكد عدم مراعاة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل، مع أنه لا يخلو دستور من دساتير الدولة إلا وَيَنُصُّ على: أن الأساس الاقتصادي والنظام القائم في الدولة يضمن الكفاية والعدل لكل مواطن، ويؤدي إلى تقريب الفوارق بين الدخول ويحول دون استغلال أحد لموارد الدولة، ويكفل عدالة توزيع الثروات وفرص العمل، والأعباء والتكاليف العامة في إدارة شئون البلاد والعباد[٢].

جـ ـ الثروات والدخل القومي:

إن من الفساد الخطير أن تجد أناسًا قلة تحت أيديهم ثروات البلاد يتصرفون فيها كما يشاءون، وآخرين ـ وهم الغالبية العظمى من أبناء المجتمع ـ ليس لهم من الأمر شيء، فمعظم الثروات تذهب إلى الأغنياء.

هذا الأمر يضر بالبلاد والعباد على حد سواء، واستمراره لا يبني دينا ولا دولة، ولا بشرًا ولا حجرًا ولا شجرا.

«إن جزءًا كبيرًا من عائدات البترول وقناة السويس والسياحة والمعونات الخارجية.. يذهب في الأصل إلى يد الدولة، وقد كان من الممكن أن يكون توزيع الدولة لهذه العائدات على الأفراد مناسبًا مع ما يبذله الأفراد من جهد، ولكن الواقع أنه من السهل تبريد الأموال، خصوصًا إذا كانت هذه الأموال في يد

(١) كتاب احترس مصر ترجع إلى الخلف، صـ١٩وما بعدها، بتصرف، ط/ دار العين، ط١، سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

(٢) انظر كتاب جذور الفساد المالي في مصر صـ٣٧ مرجع سابق.

الدولة، وعلى الأخص إذا كانت الدولة (رخوة) من النوع الذي عرفته مصر ابتداءً من السبعينيات، فكم كان من السهل أن تنفق هذه الأموال على أصحاب النفوذ أنفسهم، أو على أصحاب النفوذ ومحاسيبهم، وأن تغمض الدولة عينها عن من وضع يده على أراضيها، أو مَن يختلس أموالها، أو يحصل على امتياز من الدولة لا يستحقه، أو يمنع أن يؤدي للدولة حقوقها»(١).

ومصر ـ كما هو معلوم ـ قد طبقت في مجال توزيع الثروات وفرص العمل النظامين (الاشتراكي والرأسمالي) والكتب التي كتبت عن فساد النظامين أكثر من أن تُحصى(٢).

وعلى سبيل المثال يقول د/ محمد شوقى الفنجرى«الاقتصاد الرأسمالي، الأساس في التوزيع، هو الملكية الخاصة، فكل بقدر ما يملك، ويترتب على ذلك تفاوت في الدخول بحسب التفاوت في الملكية والميراث، ويكون عادة هذا التفاوت شديدًا.

وفي الاقتصاد الاشتراكي، الأساس في التوزيع هو العمل، فالكل تبعًا لعمله، وفي ظل هذا الاقتصاد تتفاوت الدخول بسبب اختلاف القدرات والمواهب الانسانية ويصبح هذا التفاوت كبيرًا»(٣).

هذا التفاوت الذي يحدثه كلا النظامين قد صار ثقيلًا لا يطاق، إذ ساعد في اتساع الفجوات بين الطبقات، وكان على حساب الطبقة الوسطى التي هي رمانة الميزان في المجتمع، وأحدث خللًا واضحًا في الحياة الاجتماعية وسوق المال وأسعار السلع، ومنها السلع الأساسية الأولية وأصبح في المجتمع مَن يعيش ببضع مئات من الجنيهات، ومنهم مَن يملك عشرات الألوف والملايين، والجميع أمام متطلبات الحياة من طعام ودواء وتعليم سواء، وكذلك أمام الواجبات الدينية والوطنية.

ويطول الكلام عن حيازة أراضي الدولة وبيعها بأقل من ثمنها (١) ناهيك « بتزايد الميل الاحتكاري في

(١) ماذا حدث للمصريين صـ ٦٠ ، مرجع سابق، وانظر كتاب مصر والمصريون في عهد مبارك، د/ جلال أمين أيضًا، صـ ٣١، ط/ دار الشروق، ط١، سنة ٢٠١١م.

(٢) راجع كتاب الضوابط الشرعية للاستثمار، طـ دار الإيمان سنة ٢٠٠٨م، اعداد نصر محمد سالم، وكتاب مستقبل الأمة الإسلامية، طـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد (٩٩) سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، وكتاب ثقوب في الضمير نظرة على أحوالنا ، للدكتور/ أحمد عكاشة، مرجع سابق، وكتاب الإسلام وعدالة التوزيع للدكتور/ محمد شوقي الفنجري، ط١ دار ثقيف للنشر والتأليف المملكة العربية السعودية سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٣) ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية ، صـ ٥٣ وما بعدها، ط٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عام ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م .

(١) انظر كتاب احترس مصر ترجع إلى الخلف صـ٢٠ ، مرجع سابق.

الاقتصاد المصري ـ مثل: الحديد والأسمنت والاتصالات.. إلخ»[١] «وبإبعاد الكفاءات الحقيقية والموهوبين وأصحاب الرأي المستقل من العمل في الوظائف والمناصب السيادية والقيادية، وتقديم ذلك لغير الكفاءات»[٢].

ثانيًا: موقف د/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالى، ورؤية كل منهما لهذه المسألة

(العدالة الاجتماعية في توزيع الثروات وفرص العمل)

بعد حديثه عن الاحتكار ومساوئه، وتردي الوضع الاقتصادي وآثاره الاجتماعية، يقول د/ فؤاد زكريا: « إننا في الوقت الذي قضينا فيه على الإقطاع من حيث هو نظام اقتصادي تتسم العلاقات الاجتماعية فيه بطابع معين، لم نستطع بعدُ أن نقضي على العادات الفكرية، والاتجاهات المعنوية التي يولدها نظام الإقطاع، بل إننا حتى في حياتنا الحضرية قد انتقلنا إلى المدن حاملين تراثًا كاملًا من الأفكار والاتجاهات الريفية المرتبطة بعصور إقطاعية عميقة الجذور، فكانت النتيجة أننا أصبحنا ـ في كثير من الأحيان ـ نحيا حياة مزدوجة بالمعنى الصحيح، فنمارس في المدن أعمالًا ترتبط في صميمها بالعصر الحديث، كإدارة دفة الأداة الحكومية، أو الاشتغال في مصنع أو شركة تجارية، ولكنا نمارس هذه الأعمال بعقليات وقيم موروثة من بيئة هي في صميمها ريفية، بل هي في صميمها إقطاعية.

ولا شك أن لهذا الازدواج أخطاره وأضراره، إذ إنه يحدث انفصامًا معنويًّا في المجتمع بين طبيعة الواقع الذي يعيش الناس فيه، ونوع العقلية أو النفسية التي يواجهون بها هذا الواقع، ويحاولون حل مشاكله، ولذلك فإننا حين ندرس العادات والاتجاهات العقلية التي ترتبط بالنظام الإقطاعي أو تتولد عنه، لا ندرس مرحلة غابرة من التاريخ، بل ندرس واقعًا لا يزال يحيا بيننا حتى اليوم، وما زال يمارس تأثيره في سلوكنا على الرغم من اختفاء النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي أدى إلى ظهوره، فلنحاول إذن أن ندرس ـ بشيء من التفصيل ـ نوع العادات والقيم التي يولدها النظام الإقطاعي في المجتمع لكي تتضح لنا عن طريقها كثير من مظاهر عدم التوازن في حياتنا الراهنة وتستبين من خلالها وسائل التخلص من هذا الاختلال» [٣]

وهذا الذى أشار إليه د/ فؤاد زكريا من إقطاع وازدواجية في المعايير الاقتصادية والاجتماعية ظل باقياً، وما استطاعت النظم المتعاقبة ـ منذ ثورة ١٩٥٢م وحتى الآن ـ التخلص منه تمامًا أو بصورة كافية. بل لقد

---

(١) للمزيد انظر جذور الفساد المالي والإداري في مصر صـ ٣٥٣ مرجع سابق.

(٢) كتاب لماذا لا يثور المصريون؟ أ/ علاء الأسواني، صـ٩٧، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠١٠.

(٣) الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، صــ١٨، مرجع سابق.

تطور الإقطاع وأخذ أشكالاً أخرى غير حيازة آلاف الأفدنة الزراعية إلى حيازة العقارات والأرصدة البنكية التى تصل إلى المليارات. ولا أدري ماذا يقول الدكتور/ فؤاد زكريا لو رأى حال البلاد والعباد اليوم، وما وصلوا إليه وانتفضوا من أجله وشعارهم (عيش، حرية، عدالة اجتماعية، كرامة إنسانية) لأن أناسًا ـ في بلادنا ـ تتضاعف لهم الثروات وغيرهم لا يجدون سوى الفتات.

يقول الشيخ/ الغزالي: «فقدان العدالة الاجتماعية في أنحاء هذا الوادي (وادي النيل) جعل الناس يخرجون من ظلام الأرحام إلى ظلام الدنيا المليئة بالفاقة والجهالة، لا عمل لهم إلا ما توارثوه من بذر الحَب وانتظار الثمار من الرب ـ كما يقولون ـ فإذا طلعت الشمس عليهم طلعت على قوم لم يجعل الفقر لهم من دونها سترًا، بل طلعت على قوم لا يكادون يفقهون قولًا، وكان لزامًا- في هذه الحياة الراكدة الجامدة- أن يصاب جمهور الشعب بنقص عقلي، هبط بقواهم الأدبية هبوطه بقواهم المادية. ومن المفيد أن نعلم أن عقل الإنسان كجسمه، يحتاج إلى غذاء دسم منظم لكي يستمر نماؤه، ويتم كماله ذلك أنه - كثيرًا- ما نجد الرجل في سن الخمسين، وعقله دون هذا السن بكثير، فنجد له تفكير الأطفال، وقصور فهمهم لشئون الحياة العامة.

والسر في ذلك بَيِّن، ففي حين وجد هذا الرجل حاجاته الضرورية لجسمه من طعام وشراب، فقد حاجاته الضرورية لعقله من علوم وثقافات وآداب. وقد يكون المعدن العقلي لهذا الرجل نفيسًا ولكنه كالأرض الطيبة التربة لم تجد ماءً ولا بذرًا، فلم تجد فيها حياة ولا ازدهارا. »[(١)]

وبعد هذا الوصف الدقيق لأحوال الناس في بلادنا والتشخيص الرائع للداء يشير الشيخ رحمه الله إلى العلاج الناجع فيقول: «.. إننا إذا أردنا بناء عالم جديد تمتزج فيه الدنيا بالدين لخير الإنسانية ومستقبلها، فلنضع نصب أعيننا أولاً ضرورة تقارب الملكيات، وتكافؤ الفرص وتساوي الأفراد في الحصول على المقومات الأولى للإنسان من غذاء ولباس وعلم وخلق.

ففي هذا الجو ـ وحده ـ يكون التسامي للمواهب العظيمة فقط، وتقل أو تنعدم كل دلالة باطلة للمال على رفعة أو جاه»[(٢)] وحتى يتحقق ما أشار إليه الشيخ من تقارب الملكيات وتكافؤ الفرص وتساوي الأفراد وتسامى المواهب لابد من وضع قوانين تحرس الحق وتفرض العدل وتنظم المجتمع وتوزع الثروات على أسس عادلة، والوظائف على أساس الكفاءة والقدرة على القيام بالمهام.

وهذا ما سنذكره في المبحث اللاحق .

---

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية، صـ٨٠، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـ١٥٦.

المبحث الرابع: تنظيم المجتمع وسن القوانين واختيار الكفاءات.

إن أهم ما يجب أن يقوم به المسئولون في الدولة ـ وخصوصًا (أهل الحل والعقد) ممن بيدهم اتخاذ القرار وتنفيذه وإمضائه كأعضاء المجالس النيابية والمحلية، والسلطات التنفيذية ـ هو تنظيم المجتمع وسن القوانين واختيار الكفاءات؛ لأن كثيرًا من المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية تجيء من هذه الثغرات الخطيرة.

أولاً: تنظيم المجتمع:

وأقصد بتنظيم المجتمع أمورًا أخرى تضاف إلى ما تقوم به أجهزة الدولة، كالجهاز المركزي للمحاسبات، والجهاز المركزي للتعبئة والإحصاء، ووزارة الشئون الاجتماعية والتموين والعدل والمرور والرى والداخلية وأعمال السجل المدني.

وهذه الأمور التى أرى أنها مهمة وضرورية في تنظيم المجتمع هي ما يلي:ـ

١ـ إعادة النظر في توزيع السكان والمحافظات والخروج من الوادي الضيق القديم (وادي النيل) إلى الأراضي الشاسعة التى تزيد عن ٨٥٪ من مساحة مصر.

٢ـ ترتيب أولويات المجتمع في السكن والتعليم والعمل بما يمنع الاحتكار والظلم.

٣ـ تنظيم المرور والطرق والمناطق العشوائية بما يمنع الازدحام ويرفع الحرج عن الناس.

٤ـ احترام الأعراف الأصيلة، كتوقير الكبير والرحمة بالصغير، وتقدير العلماء والخبراء.

٥ـ تشجيع الناس على قبول النظم والأحكام الإسلامية بما يمنع البدع والفتن في المجتمع.

٦ـ تشجيع الناس على استبدال العادات السيئة بالعادات الحميدة والتطلع للمستقبل والانفتاح على العالم، بالاستفادة منه فيما لا يتعارض مع ثوابت ديننا.

وكل ذلك لا يتأتى بالتمنى، وإنما يحتاج إلى جهد جبار متواصل ومتضافر من السلطات المعنية بالإصلاح وتنظيم المجتمع، وتوجيهه وتثقيفه وخصوصًا من الإعلام والتعليم والإرشاد الديني؛ لأنه «يصعب على كثير من الناس أن يتخلوا عن عاداتهم السابقة لأنهم تعودوا عليها، وتمثل ممارستها بالنسبة لهم شيئًا بسيطًا وسهلاً ومضمون النتائج، ويخلو من المغامرة والمخاطرة، بل يؤدون العمل براحة كاملة، دون أي توتر أو قلق لحدوث فشل في النتائج التي تعودوا أن يحصلوا عليها، في حين يمثل الجديد بالنسبة لهم المجهول، مثل هؤلاء الأشخاص يصبحون عبيدًا لعاداتهم القديمة، حيث تلعب التصرفات القديمة دور السيد المتحكم في سلوكهم، والذي يوجههم برفض كل جديد.

تفرض البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الأفراد تقاليد وأعرافًا معينة، تضغط على من يفكر وتقسو على

من يخرج عنها، وبالتالي يميل أغلب الناس إلى أن يتصرفوا بالطريقة التي يتوقعها منهم الآخرون حتى تنسجم علاقتهم معهم ويحصلوا على رضاهم، ويترتب على هذا أن يتجنب الفرد الأفكار التي تخرج عن نطاق توقعات الآخرين.» [(١)] في حين أن كثيرًا من الناس يجد في نفسه غضاضة ويتمنى لو تفهم الناس القيم الإيمانية والإنسانية وتعاملوا على أساسها. وأعتقد أن هذه المسألة تحتاج إلى تنسيق وتفاهم بين الأفراد والمجتمع، وبين الأحزاب والدولة بجميع مؤسساتها ووزاراتها، كما تحتاج إلى صدق النوايا وقوة العزيمة والنظم الحكيمة التي توضح بجلاء ما للفرد نحو المجتمع وما عليه، وما للمجتمع نحو الدولة وما عليه، وما للدولة عند هؤلاء وما عليها، وتبين علاقة الناس بمن حولهم في الداخل والخارج، وما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات نحو بعضهم البعض ـ من جهة ـ ونحو وطنهم وما فيه من ثروات بشرية وطبيعية من جهة أخرى.

هذه الأمور ينبغي ألا تترك لأهواء الناس، بل يجب أن تنظمها الدولة تنظيمًا يضمن التوافق والتعاون والانسجام، ويمنع الشر والظلم والطمع والأنانية والخلاف والتعدي على الموارد العامة في الدولة واستغلالها لإرضاء الرغبات؛ لأن هذا ـ إن وجد ـ يحافظ على الملكية الخاصة والحريات المنضبطة والمبدعة، ويفتح أبواب الأمل للعمل على نصرة العلم ورفعة البلاد.

والدكتور/ فؤاد زكريا يرى أن أول خطوات إصلاح هذه الأمور يبدأ بالعلماء والمفكرين وعقائد الناس وأفكارهم، والتعامل مع الطبيعة وثرواتها، ووضع نظام متزن وخطط مدروسة تحقق الفائدة حالاً ومستقبلاً، يقول: «.. والموقف الذي يدافع عنه المفكرون هو أن العلاقة بين الإنسان والطبيعة ينبغي ألا تظل علاقة قهر وسيطرة، ومحاولة من الإنسان لكي يستنفد أكبر قدر من مواردها، ويستغلها لإرضاء رغباته، بل عليه أن يساير الطبيعة، ويتعاون معها حتى لا يقضي على مواردها، وعلى نفسه أيضًا، وحين يسود شعار (التعاون مع الطبيعة) يكون معنى ذلك حرص الإنسان على عدم الإخلال بالتوازن الطبيعي والبيئي وتصرفه بحكمة ورشد في موارده، وخاصة تلك التي تستهلك مرة واحدة ولا تتجدد، وهذا يقتضي من الإنسان الحديث مراجعة شاملة لأهدافه في الحياة، يحدد فيها نوع الغايات التي ينبغي أن يسعى إليها ويضع على أساسها خطط المستقبل.

ولا شك أن من هذه الغايات تغليب الكيف على الكم، بمعنى أن يحرص الإنسان على (نوع) أرفع من الحياة بدلاً من حرصه الحالي على الجمع والتكديس وزيادة (مقدار) ما يملك من أدوات الاستهلاك، وفي استطاعة الإنسان إذا فكر في الأمر بتعمق أن يهتدي إلى وسائل تعينه على رفع المستوى (الكيفي) لحياته دون

---

(١) العلوم السلوكية، صـ ١٦٤، ١٦٦، بتصرف، مرجع سابق.

حاجة إلى تبديد أو تبذير لموارد الطبيعة، بل إنه سيدرك حينئذٍ أن جريه الحالي وراء (الكم) ورغبته العارمة في (الاقتناء) تؤدي في كثير من الأحيان، إلى أن تزيد حياته خواء وفراغًا، وتهبط بمستواها (النوعي).»[1]

لذا أقول: إن طمع الإنسان في الحياة لا يوقفه إلا الإيمان بالله (فلو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا، ولا يملأ جوفَ ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[2] ومن لم يتب فلن يردعه إلا الحد الشرعي والقانون القائم.

لذا نجزم أن أول واجبات الدولة المسلمة نحو المجتمع ـ حتى ينتظم ويستقر ـ أن تحترم الحدود الشرعية والقوانين المنبثقة عنها والمأخوذة منها، فكم رغب الناس ولا يزالون يرغبون في إنفاذ الشرع الإلهي، والقانون العادل واحترام الدستور الجامع لخيري الدنيا والآخرة، وتفعيل مبدأ الثواب والعقاب بحزم وقوة وعدالة وإنجاز حتى تزول المفاسد وتصان الحقوق وتعلو القيم ويسعد المجتمع، وهذا يجعلنا ننتقل إلى النقطة الثانية.

ثانيًا: دور الدولة في التشريع وسن القوانين:

من البديهيات أن يعرف المسلم أن الدولة بمؤسساتها ورئيسها ووزرائها وإمكاناتها ودستورها وقوانينها مسئولة عن حراسة الدين وسياسة الدنيا، والقائمون على الأمر في الدولة لا ينكرون ذلك، ولا يعلنون بصراحة تعمد المخالفة، وإن بدت من بعضهم هفوات أو زلات أو قصور أو تقصير.

ولا أظن أن مسلمًا ـ فضلاً عن العَالِم بالإسلام ـ ينكر ما للقوانين الشرعية الإسلامية من آثار إيجابية في حياة الناس، خصوصًا عندما تتبناها الدولة وتحرسها وتشيد بها، وترغب فيها وتدعمها ماديًّا ومعنويًّا.

ود/ فؤاد زكريا لا يتكلم أبدًا عن الشرع الإسلامي، ولا عن قدرته في تربية النفوس وإصلاح الضمائر والسلوك، ولا يفرق بين مصادر الشريعة ومصادر القانون، ولا بين فقهاء الشريعة وعلماء القانون، ويخلط بين أصول الدين وفروعه، وموقفه من ذلك كله معروف، وقد سبقت الإشارة إليه مراراً، ويعترف أنه (فيلسوف) وليس فقيهاً أو عالماً شرعياً، ويعترف أن الكتاب والسنة هما المنبع الأصيل للمفكرين المسلمين المعاصرين (وأنهما الأصل)..

والسؤال: هل من شأن الفيلسوف أن يناقش الفرع ويترك الأصل مع أنه المنبع؟ لقد علل د/ فؤاد

---

(١) التفكير العلمي، صـ٢٣٨ وما بعدها، وصـ٢٤١، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما برقم (٦٤٣٦) و(٦٤٣٧) كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، صـ٩١٤، مرجع سابق، ورواه مسلم في صحيحه أيضاً، برقم (١٠٤٨) إلى (١٠٥٠) كتاب الزكاه، باب لو كان لابن آدم واديين لابتغى ثالثا، صـ٢٢٢، مرجع سابق.

زكريا موقفه هذا بعدة أمور منها: أنه غير مؤهل في هذا المجال، ولا يدعي لنفسه معرفة [(١)] في علوم الشريعة وتخصصاتها[(٢)] ومع ذلك ينتقد ويصوب ويُخَطِّئُ العلماء كما لوكان من أهل الفقه والعلم بأصول الشريعة وقواعدها الكلية.

وتحت عنوان/ الحلم والواقع يقول: «إن أنصار تطبيق الشريعة يداعبهم حلم وردي رائع ولكن مشكلتهم أنهم لا يبذلون أي جهد لترجمة هذا الحلم إلى لغة واقع، وهذه الترجمة تحتاج إلى استيعاب كافة دروس الماضي والحاضر واستخلاص دلالتها، وتحتاج إلى ألوف التفاصيل الدقيقة والضوابط المحكمة، بحيث لا يسمح للمنحرفين باستغلال مرونة العموميات في تحقيق مآربهم الخاصة، وتحتاج قبل هذا وذاك إلى التفكير في مدى ملاءمة هذه الدعوة للحظة الزمنية الحاضرة، وفي الأسباب التي تؤدي إلى التركيز على أهداف لا علاقة لها بالمشكلات الطاحنة التي يعانيها الإنسان المصري في كل لحظة من لحظات يومه.» [(٣)]

هذا الكلام يكرره د/ فؤاد في معظم كتبه ومناظراته، خصوصًا ما يتعلق منها بالإسلام والداعين إليه.

والعدل أن هذا الكلام السابق لا يقال لجماعات الإصلاح ودعاة تطبيق الشريعة وحدهم، بل يجب أن يقال ـ من باب أولى ـ للقائمين على أنظمة الحكم في الدولة ومن بيدهم سن القوانين وحراستها وتنفيذها وتغييرها أو تعديلها، فهم الأقدر على حل المشكلات وقضاء مصالح الناس، لكن د/ فؤاد يذكر كثيرًا البلاد التى أعلنت تطبيق الحدود الإسلامية، ويتخذها ذريعة للهجوم على دعاة تطبيق الشريعة مع علمه أن الحدود جزء منها، وأن هذا التطبيق كان بدوافع وظروف انتقدها أو علق عليها علماء الشريعة أنفسهم والدكتور/ فؤاد يعلم ذلك لكنه يتجاهله!! [(٤)]

يقول الشيخ/ الغزالي: « نقر أنه لا توجد دولة إسلامية في العالم تطبق شرع الله تعالى[(١)] غير المملكة العربية السعودية، وما زالت جهود العالم الإسلامي في هذا الدرب متعثرة.. فالتجربة السودانية لتطبيق الشريعة الإسلامية.. كانت تجربة سياسية وليست دينية، أما التجربة الإيرانية فكانت مذهبية وليست إسلامية، أما التجربة الباكستانية فهي تجربة مرحلية.. أما التجربة المصرية فإنها تجربة مرتجفة ومترددة!!

---

(١) انظر كتاب الصحوة الإسلامية في ميزان العقل د/ فؤاد زكريا، صـ ٥، وصـ ١٦٠، مرجع سابق.

(٢) انظر كتاب نقد منهج وشبهات فؤاد زكريا، الفصل الأول، صـ ٢، وما بعدها مرجع سابق.

(٣) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ ٢٠٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(٤) المرجع السابق، صـ ١٨١ وما بعدها.

(١) يقصد الحدود المتعلقة بالسرقة والقتل والزنا.. لأن جميع البلاد المسلمة تطبق قدرا كبيرا من الشريعة.

حيث تم تقنين جميع مواد الشريعة الإسلامية، ولكن الوسط السياسي المسئول عن إقرار التنفيذ ما زال يتأرجح بين الإرجاء أو تهيئة المناخ المصري لتقبَل التطبيق وكأن مصر في حاجة إلى التعريف بشرع الله!»[(١)]

وأظن أن التردد في تطبيق الشريعة، أو تطبيقها تطبيقًا منقوصًا يرجع لأمور وأسباب منها ما يلي:

١ـ التحدي الأجنبي وقوانين العولمة، والتهديد بالعقوبات الدولية بدعوى حقوق الإنسان.

٢ـ التحدي الفكري من العلمانيين وافتعال المعارك مع علماء الدين، بدعوى الحريات والتطور.

٣ـ التحدي السياسي وخوف المُسَاءَلَة والعقاب وإقامة الحدود على ذوى الهيئات والمناصب.

٤ـ التحدي الاقتصادي، وخوف بعض رجال الأعمال من ضياع امتيازاتهم ومصالحهم الخاصة.

٥ـ التحدي الاجتماعي والطبقي وعدم وجود عدالة اجتماعية في الأجور وتوزيع الثروات.

٦ـ التحدي الديني من قبل أعداء الشريعة الإسلامية، والجهلة بأحكامها وعدالتها وسماحتها.

هذه التحديات، أعتقد أنها تزول تمامًا إذا تأكد عمليًّا ـ وبما لا يدع مجالاً للشك ـ أن تطبيق الشريعة الإسلامية بما فيها (الحدود) هو أعظم ضمانة لحقوق الإنسان ومن ثَمَّ لحياته الكريمة التي تراعي روحه وجسده ودينه وحاله ومستقبله، وما له وما عليه.

والدولة قادرة على إثبات ذلك إذا قامت بواجبها الشرعي والفني والمادي والقانوني.

يقول الشيخ/ الغزالي: «لا تنس أن الأمة الإسلامية عمومًا في محنة تشريعية ومحنة عامة، ولا أعرف بلدًا إسلاميًّا استطاع القضاء الشرعي أن يسد فيه الفراغ، فنحن هنا في قوانين الأسرة نرجع إلى أجزاء في الشريعة الإسلامية، أجزاء كثيرة أو قليلة، ولكن لا ننفذ الشريعة كلها، وإن كان (٩٠٪) من الشريعة يطبق، ولكن في الجنايات والجنح وفي قوانين كثيرة أخرى بعيدين عن الإسلام، حتى البلاد التي تنفذ القصاص والحدود- ولو ظاهرًا- استقدمت قوانين العمل والعمال من الخارج.»[(٢)]

وصدق الشيخ رحمه الله فهناك محنة تشريعية، إذ القانون لا يطبق على جميع أبناء المجتمع بصورة عادلة، فإن أناسًا إذا كان القانون في صالحهم ويرعى مصالحهم فهو الإله المعبود، وإذا لم يكن كذلك وخالف أهواءهم فهو الصنم المرفوض، والله يقول عن أمثال هؤلاء: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النور] وهذا الظلم يهلك الشعوب ويدمر الأمم، قال ﷺ : (إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع، ويتركون

---

(١) صحوة الرأي العام الإسلامي، صـ ١٢، مرجع سابق.

(٢) حوارات الشيخ الغزالي، صـ١٣١، مرجع سابق.

الشريف، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك ـ أي سرقت ـ لقطعت يدها)[١] لأن العدل والرحمة يجب أن تعم الجميع.

يقول الشيخ/ الغزالي : «..والمبادئ التي أقرها الإسلام لضبط المجتمعات أساسها الرحمة العامة، وتوكيد المصلحة الحقيقية للأمة، وشرائع الحدود والقصاص التي كتبها الله ﷻ على العباد، بعض مظاهر هذه الرحمة.

لقد سمعنا من يرق لشنق القاتل ويتألم لمصرعه، ورأينا دولاً كبيرة تلغي عقوبة الإعدام، فماذا جنت من هذه الرأفة الكاذبة بمجرم يستحق الموت؟ زادت جرائم العدوان على الأرواح فقتل أفراد أبرياء، وقتل معهم نفر من رجال الشرطة، وهم يحاولون اللحاق بالمجرمين للقبض عليهم، وهذه عقبى الرحمة القاصرة والرأفة الرعناء.

إن الله ﷻ لما شرع قتل القاتل، كان يحمي الجماعة من شره، وكان بقتله يصون حق الحياة لآخرين، وهذا معنى قوله: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٩] وقول العرب قديمًا القتل أنفى للقتل، فالقصاص وإن قسى على المجرم فهو يرق للمجتمع كله، ويحنو على آحاده »[٢]

ولقد حذر الله ﷻ من الحنان المزيف والرقة الكاذبة التى تبدو من الجهلة بالحكمة الإلهية عند إقامة الحدود وتنفيذها على الجناة، قال: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢] . الرحمة ليست في تعطيل الحدود ولا في التعاطف مع المجرمين، إنما الرحمة التي يلمسها المجتمع كله تكمن في التزام الدولة بتنفيذ أحكام الله، كما نفذها الرحمة المهداة محمد ﷺ الذي وصفه الله ﷻ بأنه رحمة للعالمين.

يقول الشيخ/ الغزالي:« ولكي تكون الدولة مسلمة حقًا، وصدى لجماهير المسلمين التي تحكم باسمها لا محيص من أن تلتزم معالم الحلال والحرام وحدود الأمر والنهي، وأن تتحرى ما يريد الله في كتابه لتسارع إليه، وما صنع رسوله لتتأسى به.»[١] وهذا يحتاج إلى دستور متوازن يراعي حقوق الله وحقوق العباد، كما يحتاج إلى قوانين عادلة ملزمة يحترمها الجميع بما فيهم الأقوياء والأغنياء.

يقول الشيخ/ الغزالي: « في الربع الأول من القرن العشرين حصلت مصر على دستور من أحدث الدساتير، وأقواها على حماية الأفراد والجماعات، لم يعبه إلا أنه اعتبر منحة من (الملك) . بيد أن بنوده

---

(١) رواه البخاري في صحيحه من حديث عائشة ﵂ ، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، برقم ٦٧٨٧، صـ٩٥٨، مرجع سابق.

(٢) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، صـ ٢٠٥ وما بعدها، مرجع سابق.

(١) معركة المصحف، صـ٢٢، مرجع سابق.

أمكنت النواب من اعتراض نفقات الملك، لما أراد أن يصلح باخرته الخاصة من الموازنة العامة! وانتصرت إرادة الشعب، وسد باب من أبواب السطو الملكي الكريم!! وبقي هذا الدستور ثلاثين عامًا، عطل في أثنائها مرة، وزورت الانتخابات في وجوده مرارًا، ومع كل الأزمات التي أصابته فإن الحريات العامة تغلبت على العلل المصنوعة، فنمت الرجولة ونضجت الكرامة وانتعش العلم والأدب وتكونت جماعات دينية قوية...

لكن الأمر الذي يقبض الصدر، ويحدث الأسى أن موقف المتدينين من هذا الدستور كان قلة الاكتراث، فالأزهر الرسمي كان إلى جانب القصر الملكي، والهيئات الإسلامية الشعبية تقدر النعمة المتاحة لها في ظل هذه الحريات المبذولة.. ولكن شيئًا من هذا لم يكن يجيز لجمهور المتدينين أن يقف متفرجًا في ميدان الصراع بين القصر والوفد على احترام هذا الدستور أو اسقاطه.. فإن ضياع الحرية، واستبداد الفرد هما مهلكة الأمم والقيم وذهاب اليوم والغد.» [(١)] لذا لابد من تربية إيمانية ترعاها الدولة بما لها من سلطان وقوانين، وما لديها من وسائل كثيرة في الترغيب والترهيب ؛ كي يقوى المجتمع ويعلو ويؤدي رسالته في الحياة على أكمل وجه.

ثالثًا: دور الدولة المادي والمعنوي.

لا يخفى أن الدولة تملك من الإمكانات المادية والمعنوية ما لا يملكه الأفراد، فهي التي تملك الأراضي الشاسعة التي تقام عليها مشاريع التنمية، وهي التي تملك المرافق العامة والعائد المادي منها، وهي التي تملك ثروات البلاد وتصدرها بالعملة الصعبة، وهي التي تجمع الضرائب والأموال، وهي التي توجه الرأي العام نحو السلم والحرب والجد واللعب، وهي التي تحدد الأجور والحوافز والمكافئات، وهي التي تعطي النياشين والدرجات، ويمكنها بهذه الإمكانات الهائلة أن تقيم الحق والعدل وتبني العقائد الصالحة والأفراد الأقوياء، ومن ثَمَّ المجتمع القوي والدولة المستقرة القادرة على تلبية مطالب أبنائها، وقضاء مصالحهم، وتنظيم حياتهم.

والمعلوم « أن القوانين الدولية عمومًا، والمواثيق الدستورية المصرية خصوصًا تؤكد على إلزام الدولة بالقيام على مصالح رعاياها وتوفير حد الكفاية اللائقة بآدمية الإنسان، وتوفير العدل والأمن بالمعنى الشامل والواسع بما يحول دون الاستغلال ويؤدي إلى تقريب الفوارق بين الدخول ويحمي الكسب المشروع ويكفل عدالة توزيع الأعباء والتكاليف العامة »[(١)]

(١) الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، صـــ ١١٤ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(١) جذور الفساد الإداري في مصر صـ ٣٤ وما بعدها د/ عبد الخاق فاروق، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠٠٨م.

وعن الدول الإسلامية والعربية وما لديها من إمكانات مادية ومعنوية، يقول د/ فؤاد زكريا: «من حسن حظ كثير من هذه الدول أن لديها تراثًا حضاريًا عريقًا، ما زالت آثاره قائمة في أرجائها على نطاق واسع، وهذه الآثار ـ فضلًا عن الطابع التقليدي العريق للعمران في هذه البلاد ـ يمكن أن يكون عنصرًا أساسيًا في المحافظة على الجانب الجمالي للبيئة وما يستتبعه ذلك من إعلاء للجوانب المعنوية في حياة الإنسان، ومن هنا كان حرص الكثيرين على صيانة الآثار العريقة في البلاد الفقيرة لكي يكون فيها تعويض عما تعجز هذه البلاد عن تحقيقه بمواردها الاقتصادية المحدودة. غير أن ضرورات التنمية وإدخال الأساليب التكنولوجية الحديثة في الحياة كثيرًا ما تتعارض مع الحرص على الطابع الجمالي التقليدي للبيئة في البلاد النامية. بل إنه ليبدوا في بعض الأحيان أن أصوات أولئك (الزوار الأجانب)الذين ينصحون أهل هذه البلاد بالمحافظة على الطابع التقليدي لبيئتهم وبعدم الانسياق وراء إغراءات الحياة العصرية هي في حقيقتها دعوة مقصودة أو صادرة عن نية حسنة إلى أن تظل هذه البلاد (متحفًا)أثريًا يستمتع به المتفرجون وحدهم وهكذا تبدو هذه النظرة (المتحفية)إلى البيئة ـ في بعض الأحيان ـ عائقًا في وجه تطور المجتمع نحو الأخذ بأساليب التقدم الحديثة..

وعلى أية حال فإن التحدي الحقيقي أمام بلادنا النامية فيما يتعلق بالمشكلة التي نتحدث عنها هاهنا هو في الوصول إلى الصيغة الملائمة التي توفق بين المحافظة على الهوية الأصلية للبيئة من جهة واللحاق بموكب التقدم العلمي والتكنولوجي من جهة أخرى.» [1] هذا ما يهتم به الدكتور/ فؤاد زكريا، المحافظة على الهوية الأصلية (للبيئة) أي: الحجر والتراب وليس البشر والعقيدة، كما يهتم باللحاق بموكب التقدم العلمي بأي صيغة (ملائمة) المهم عنده اللحوق بذيل أوروبا والسير وراءها واتباع مناهجها ونظمها.

وعندما يتكلم عن النظم الاقتصادية السائدة في زمانه ودور الدولة في إصلاحها لم يشر ـ من قريب أو بعيد ـ إلى النظام الإسلامي يقول:« إن المرحلة الرأسمالية شهدت أنواعًا من الانحرافات على المستويات المحلية، أهمها بالطبع هو الإجرام الذي أصبح مشكلة قومية.. ولا يمكن بالطبع أن يزعم أحد أن ظاهرة الإجرام وليدة النظام الرأسمالي، إذ إن الظاهرة ذاتها قديمة قدم المجتمع الإنساني، ولكن الكثيرين يؤمنون بأن الاتساع الهائل في نطاق الجريمة قد تولد عن المجتمع الرأسمالي عندما بلغ أقصى درجات نموه، ويدللون على ذلك بأن أكثر الدول الرأسمالية تقدمًا هي الولايات المتحدة، وهي التي تنتشر فيها الجريمة بأعلى نِسَبٍ، وبأشد أنواع التنظيم والتدبير إتقانًا.

---

(١) التفكير العلمي، صـ ٢٢٥ وما بعدها، مرجع سابق.

وليس من الصعب أن يجد المرء رابطة بين الارتفاع الشديد في معدل الجرائم وبين تقدم الدول في سلم التنظيم الرأسمالي، ذلك لأن أسلوب العمل الرأسمالي حين يصل إلى أشد حالاته تطرفًا يثير في النفوس أطماعًا لا حدود لها، وحين يجد المنحرفون أن طريق الثراء مسدود أمامهم فإنهم يعملون على تحقيق غاياتهم بأيسر الطرق وأسهلها، وهي الجريمة، ومن هنا رأى البعض أن ظاهرة الجريمة يمكن أن تعد ـ في مثل هذا المجتمع ـ وسيلة خاصة منحرفة من وسائل إعادة توزيع ثروة المجتمع.» (١)

ولقد ذكرت في المبحث السابق دور الدولة في مسألة العدالة في توزيع الثروات وفرص العمل، وبينت أن المجتمع ينهض بالأقوياء الأحرار ذوي العقيدة والإرادة، وليس بالضعفاء التابعين للآخرين والراضين بالمذاهب الأجنبية كالرأسمالية والاشتراكية التي جلبت على بلادنا الذل والهوان والتخلف.

يقول الشيخ/ الغزالي: «حيث يوجد الهوان المادي والأدبي لا يرجى خير ولا يؤمن شر، فالإنسان المغلق الخامل المحطم لا ينتفع بالدين ولا ينتفع به الدين. ما الذي يستفيده الإسلام من رجل طُمست حياته وشاهت ملكاته وعاش على ظهر الأرض حفنة من ترابها، أو قطعة من صخورها؟!

إن الإسلام لا يستفيد شيئًا من هذا الشخص، بل إنه يضار به ويهون فيه، والإناء الملوث يزري بأطهر الوسائل ويبخس قيمته، كذلك الشعوب العاجزة الكسول تحط من مكانة الأديان التي تعتنقها، وتهبط بمستوى العقائد التي تنتمي إليها!!

والمرء يستحيل دابة يوم يموت فيه عقله المفكر وترتكس فيه مشاعره اليقظة فيصبح غير مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده؛ لأنه ليس له من ذلك إلا ما للحيوان السائم حواس مسخرة في أغراض الحياة الدنيا فقط...

إن حدة الذكاء ويقظة الفكر واستنارة الرأي عناصر لابد منها في تكوين الإيمان الصحيح فإن الإيمان معرفة بلغت حد اليقين وانتفت معها الريبة، وحيث لا يوجد الإدراك الواضح والفهم الناضج يصبح اليقين غير ذي موضوع!!»(٢)

وأخطر أنواع الهوان الذي أشار إليه الشيخ فيما سبق هوان النفس، فالإنسان الذي هانت عليه نفسه وكرامته هو إنسان ضعيف يُقاد ولا يَقود، ويوجَّه ولا يوجِّه، وهذا وأمثاله مهما بلغوا فى الدنيا من درجات فهم عبء على المجتمع، وعقبة كئود في طريق نهوضه وتقدمه، لا ينتفع بهم دين ولا ترقى بهم دنيا.

---

(١) الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، صـ ٤٩ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

(٢) كتاب الإسلام والأوضاع الاقتصادية صـ ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، بتصرف ، مرجع سابق.

والدولة كما هي مكلفة بتقديم العون المادي للأفراد والأسر والمجتمع فإنها مكلفة ـ أيضًا ـ بتقديم العون المعنوي والأدبي لجميع أبنائها دون تمييز أو مجاملة.

يقول الشيخ الغزالي: « إن الحكومة في الإسلام تقوم على عقيدة ومبدأ، وليست غايتها توفير الطعام والأمان لجماعة من الناس وكفى، إن توفير الضرورات المادية والأدبية وسيلة لا هدف.

ورسالة الحكومة بعد ذلك أن تهيئ للأمة الحياة على النمط الذي ترضاه، والنظام الذي تهواه من غير ما تعصب أو افتيات على أحد من الناس.

الحكومة في نظر الإسلام أداة كبرى لتحقيق الغاية من وجود الإنسان في هذا العالم!.

لماذا خلق الله الإنسان؟...ليس الحكم توفير الأقوات لمجرد الشبع، ولكن لينصرف الناس لرسالة الحياة الكبرى، وهي الحرص على رضاء رب العالمين، والتهيؤ للقائه بصحائف بيَّضتها الحسنات وزَانَها الإيمان.

ولا شك أن هناك فريقًا من الحاكمين باسم الدين قد خان رسالة الحياة، وآذى الله ورسوله وعباده، كما أن هناك فريقًا من الحاكمين باسم الغايات الدنيوية العامة استغل الحكم لمآربه الخاصة. ولكن هؤلاء وأولئك لا يجعلون البشرية تقبل حكمًا ينسى الله ويسخر من حقه، ولا يعدو نشاطه حدود هذا التراب»[(١)]

رابعًا: دور الدولة العلمي والفني.

العلوم التجريبية تحتاج إلى دعم، وإلى معامل وإلى تعاون وإلى ورش عمل جماعية، وهذا كله لا يقوى عليه الفرد ولا المجتمع، ولكن تقوى عليه الدولة بإمكاناتها ومواردها المتعددة، والدول التي وصلت إلى الفضاء ولها غواصات تسير تحت الماء، وصنعت قطارات تسير في أنفاق تحت الأرض، لم تكن لتصل إلى هذه الإنجازات والأعمال المذهلة بدون دعم علمي وفني تقوم به الدولة.

والدولة المسلمة تريد الخير لأبنائها، وينبغى أن تعمل - ليل نهار - «على صياغة كافة العلوم بما يتفق وتعاليم الإسلام. وهذا الأمر ليس عسيرًا ولا مستحيلاً إذا صدقت النوايا، وصح اعتقادنا بقدرة الإسلام على إصلاح النفس والمجتمع وسائر أحوال الناس.

ولقد طُوِّعَت هذه العلوم في بلاد لتخدم الإلحاد وتدعو إليه، وفي بلاد أخرى لتمكين العلمانية وإزاحة الدين عن قيادة الحياة، فلماذا نتصور عجز الإسلام عن تطويع العلوم لخدمة الأهداف العليا للدعوة الإسلامية، وهو الدين الذي قاد البشرية بأسرها نحو التقدم والرقي في شتى فروع العلوم، ولا تزال

---

(١) معركة المصحف، صـ١٩ وما بعدها، مرجع سابق

إسهامات علماء الإسلام ـ حتى يومنا هذا ـ رافدًا من روافد العلم في أوروبا » [1] التي يرى د/ فؤاد زكريا أنها قبلة العلم في العصر الحديث.

وبعد كلامه عن الدولة والمجتمع وبالأخص الجماعات الحركية والدينية والعلاقة بينهما وما وصلت إليه من سوء وعداء يقول:« مثل هذه العلاقة يبدو بأي مقياس موضوعي سليم علاقة غير صحية، شابتها أخطاء كثيرة من الطرفين، والسبيل الوحيد إلى الخروج من هذا المأزق الذي يؤدي إليه هذا التناوب بين التقارب والتضارب هو أن نواجه الظاهرة مواجهة علمية، ونسعى أن نفهم جذورها بعمق، بدلًا من أن نكتفي بالمجاملات الزائفة والعبارات الملتوية.» [2]

والمواجهة العلمية عند د/ فؤاد لا تخرج عن المفاهيم العقلية وتعلم النظم الأجنبية، يقول: «قد شاعت في القرن العشرين اتجاهات في الفكر والفن والأدب، تجمعها كلها صفة هي تلك التي اصطُلح على تسميتها (باللامعقول) وليس من الصعب أن ندرك الروابط التي تجمع بين هذه الاتجاهات بما فيها من زعم بأن كل ما في الحياة عبث غير مفهوم، وبأن العالم والتطور والتاريخ لا يسير نحو أية غاية معقولة، بل كل شيء فيه يفتقر إلى العقل، ويستحيل فهم سببه أو الغاية منه- وبين حالة اليأس التي تنتاب الإنسان في المجتمع الرأسمالي، وشعوره بأن كل جهد يبذله عبث لا طائل وراءه، والأهم من ذلك كله إحساسه بالخطر يهدد كيانه في كل لحظة جراء حربين عَالَمِيَّتَيْنِ راحت ضحيتها ملايين الناس، فضلًا عن عشرات الحروب (الصغيرة) التي أزهقت أرواحًا كثيرة، وسببت دمارًا هائلًا. في مثل هذا المجتمع الذي تحل عليه الحرب كما لو كانت لعنة لا يملك منها خلاصًا يكون من الطبيعي أن تصبح الاتجاهات الفكرية والفنية السائدة هي اتجاهات تؤكد عجز العقل وسياسة التشاؤم وحتمية التدهور والانحلال.

ولقد ترتب على ذلك تزييف لطبيعة الحياة في المجتمع الحديث، وقع فيه عدد غير قليل من كبار مفكري المجتمعات الرأسمالية فأدانوا التقدم التكنولوجي ذاته، ونظروا إليه كما لو كان هو أصل الشرور التي تعانيه البشرية، وتحسروا على (عهد ما قبل التصنيع) الذي كانت فيه البشرية بريئة من آثام الصناعة وأطماعها، والخطأ الأكبر الذي وقع فيه هؤلاء المفكرون هو أنهم ظنوا أن الشرور الناجمة عن تنظيم معين للمجتمع الصناعي هو التنظيم الرأسمالي تسري على كل أشكال هذا المجتمع أو هي جزءٌ لا يتجزأ من طبيعة عصر التقدم التكنولوجي ذاته، ومن هنا كانت حملتهم على التصنيع، واعتقادهم بأن الحروب

(١) دور التعليم في صياغة العقول، دراسة إسلامية مقارنة، للأستاذ الدكتور/ طلعت محمد عفيفي، صـ ٦٣، الناشر مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣٥هـ/ ٢١٠٤م.

(٢) الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، صـ١٤٨، مرجع سابق.

والأزمات وانعدام الأمان كامنة في طبيعة المجتمع الصناعي ذاته، مع أن هذه الشرور لا ترجع- في الواقع- إلا إلى أسلوب الحياة الرأسمالي في هذا المجتمع» [١]

والإسلام يحترم الملكية الخاصة، لكن يختلف عن النظام الرأسمالي، كما يحترم حق الشعوب في الدفاع عن نفسها لكنه لا يرضى بالظلم والعدوان ولا الدمار والخراب، ولا أن يكون الغنى والترف دافعا إلى الهيمنة والاحتكار وفرض نظم ظالمة وإلزام المجتمع بها؛ لأن الله ﷻ حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرما، والمسلم كما يركع لله في محراب العبادة يرضخ ويذعن له ﷻ في ميادين الحياة كلها قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام] .

وهذا يعني أن المجتمع والدولة (كليهما) معنيٌّ بفهم الدين والدنيا، ووضع أسس عادلة ومتوازنة للعمل لها وبهما معًا، حتى لا يطغى جانب على جانب، أو نستغرق الوقت والجهد والمال في أجزاء منهما دون الأخرى.

يقول الشيخ الغزالي: «لابد من الاعتراف ابتداءً بأن فقه العبادات وجوانب من فقه المعاملات اتسع عندنا اتساعًا أكثر من اللازم، وأن الاستبحار التشريعي في أمور الطهارة والصلاة والحج والزكاة وما إلى ذلك كان أكثر مما يطيقه الفرد المسلم أو المجتمع المسلم، وقليل من هذا كان يكفي الناس، كما أنه عدة أسماء لحقيقة واحدة ليس بلازم أن يعرفها الجميع، لكن لا شك أن في الأمة الإسلامية تخلفًا في سياسة الحكم وسياسة المال، فأما في سياسة المال فمعروف أن فتنة أمتنا المال كما جاء في الحديث (فتنة أمتي المال)[٢] .

والفتنة تجئ من مصادر الكسب ومن طرق الإنفاق، فلا مصادر الكسب وضعنا لها مصافي تحجب الحرام وتتيح مرور الحلال، ولا طرق الإنفاق وضعنا عليها رقابات قانونية تمنع التبذير الجنوني، وتمنع السفه في إراقة المال في غير موضعه، وربما سبقتنا الآن أمم كثيرة في هذا حيث وضعت للمال سياسات دقيقة في إنفاقه وفي كسبه تظهر في الموازنات العامة التي تضعها الدولة، فالدول تفرض على الحكومات ألا يؤخذ من الشعب (قرش واحد) إلا بقانون أو إلا بتشريع واضح يرى معه أن الدولة محتاجة، ولا ينفق شيء إلا بالدقة نفسها التي تتبع في الكسب وإعلان الحرب، كذلك لا يترك لنزوات فرد يخاصم أو يسالم كيف يشاء إنما التى تدفع من دمها ثمن الحروب وتضحيات القتال هي التي تبت في مثل هذه الأمور...ولابد في الحقيقة من أن تكون هناك أجهزة متخصصة في أمور فنية وإدارية لمعرفة موقع الأمة

(١) الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، د/ فؤاد زكريا، ص،٤٨ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢) رواه الترمذي في سننه، من حديث كعب بن عياض ﷺ برقم(٢٣٣٦) وقال: صحيح غريب، كتاب الزهد، باب ماجاء أن فتنة هذه الأمة في المال، صـ٦١٣، مرجع سابق.

الإسلامية من الأمم الأخرى وما يعود عليها بالكسب وما يعود عليها بالخسارة، وأن تكون هناك قوانين تحكم العلاقات وترسم المعاهدات التي تكون بيننا وبين الآخرين» (١)

خامسًا: اختيار الكفاءات في الوظائف والمناصب.

اختيار الأكفأ والأنفع والأقدر على تلبية مطالب المجتمع هو أهم خطوة من خطوات النجاح والصلاح، لذا يجب أن يفهم الناس أهمية اختيار المسئول والقائد والمدير، بدءًا بالأعضاء المحليين، ومرورًا بالنقابات والهيئات والمجالس النيابية، وانتهاءً برئيس الجمهورية، وأن توضع القوانين المنظمة والميسرة للاختيار الأمثل والمعينة والداعمة للمسئول حتى يقوم بمهام عمله على أكمل وجه.

فتحت عنوان/ أسطورتان عن الحاكم والأعوان، الأسطورة الأولى عن الحاكم الذي لا يَعْرِف والثانية الحاكم الذي لا يتنازل يقول د/ فؤاد زكريا:« الشعب ينظر إلى الحاكم على أنه طاغية، أما الحاكم فيرى نفسه بريئًا لأنه لم يكن يعرف، ويلقي باللوم على المحيطين به، وأخيرًا فإن صوت الحكمة يقول إن الحاكم ـ بمبادئه وأساليبه في الحكم ـ هو المسئول الحقيقي بغض النظر عن التفاصيل، وعمن يكون المذنب عند ارتكاب هذا الخطأ الجزئي أو ذاك.

في بلاد العالم الثالث ـ حيث الحكم الفردي هو القاعدة العامة التي لا توجد لها إلا استثناءات قليلة ـ تنتشر أسطورة (الحاكم الذي لا يَعْرِف)وفي أغلب الأحيان يروجها النظام نفسه أو المتعاطفون معه، كما أن الحاكم عينه قد يلجأ إليها في نهاية المطاف حين لا يعود في الإمكان كتمان فضائح مالية، أو جرائم لا إنسانية، أو تصرفات قمعية إرهابية، عندئذٍ تعلو الأصوات قائلة: إن الحاكم نفسه رجل رحيم تجيش نفسه بالإنسانية والوطنية وحب العدل، ولا يفكر إلا في مصلحة شعبه ولكن العيب كله في المحيطين به» (٢).

ويستمر د/ فؤاد زكريا في بيان خطورة اختيار المسئول ومن يحيطون به حيث يصورون له الأوضاع دائما بصورة وردية جميلة خلافا للحقيقة، فيظل لا يعرف الواقع الحقيقي للناس، ويظل على غير علم بممارسة أعوانه لهم والتى تشوه صورته أمام الجماهي؛ لأن هؤلاء الأعوان يروجون دائما أن المسئول لايعرف عن قضايا المجتمع شيئًا، وهذه أسطورة لا تمت إلى الحقيقة بصلة.

يقول: «وفي مقابل هذه الأسطورة تظهر أسطورة أخرى تسير في الاتجاه المضاد، ولكنها تنطوي في نهاية المطاف على نفس الآفات التي تكشف عنها الأسطورة السابقة، والهدف هذه المرة ليس الدفاع عن الحاكم المطلق عن طريق نسبة أخطائه إلى الأعوان، وإنما هو الدفاع عن هؤلاء الأعوان عن طريق تأكيد أن الحاكم

---

(١) مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، صـــ ١٢٤ وما بعدها، مرجع سابق.

(٢)خطاب إلى العقل العربي، صـــ ٩٥ وما بعدها، مرجع سابق.

لم يترك لهم شيئًا يتنازل عنه، فالحاكم هنا هو الذي يمسك زمام كل شيء، والتابع له لا يملك إلا أن ينظر إلى ما يحدث في صمت...هنا تنسب السلبيات كلها إلى الحاكم الذي تكون له قدرة كاملة ومعرفة شاملة، أما الأعوان فإنهم عاجزون كل العجز، وواضح أن هذه الأسطورة تقلب اتجاه الأسطورة السابقة ففي الحالة الأولى كان الحاكم هو الطرف الصالح دائمًا على حين أن الفساد كله يأتي من الأعوان، وكان الحاكم لا يعلم عن السلبيات شيئًا، بينما الأعوان يعرفون عنها كل شيء؛ لأنهم هم الذين يرتكبونها...

إن الأسطورتين ـ برغم تناقضهما الظاهري ـ تفترضان أن الحاكم يمارس حكمه بسلطة فردية مطلقة عن طريق اختياره للأعوان ولأساليب توصيل المعلومات في الحالة الأولى، وإما عن طريق إمساك كل الخيوط في يده مباشرة في الحالة الثانية، وأقل وعي سياسي وأبسط فهم لطبيعة المشاركة في الحكم يحتم علينا أن نكف عن التماس العذر للحاكم الفرد بحجة أنه لم يكن يعرف الأخطاء، وأن المحيطين به هم الذين ارتكبوها أو تبرير سلبية التابع بحجة أن الحاكم كان يرفض أن يتنازل عن شيء. »[(١)]

كل ما قاله د/ فؤاد زكريا ـ في تعليل ظهور مثل هذه الأساطير، وزيوعها بين جموع الجماهير بطريق ممنهجة متعمدة، وتصديق الجماهير لها ـ حقٌّ، ويؤكد حقيقتين الأولى: قصور الوعى السياسي لدى كثير من الجماهير والثانية: تكشف بوضوح نسيان الإنسان العادي أبسط حقوقه الديمقراطية وذلك نتيجة عقود غير قليلة من الحكم الفردي المتسلط يقول: «وهو نسيان لا يمكن أن يعد هذا الإنسان نفسه مسئولاً عنه، وإنما هو نتيجة تربية سياسية تراكمت أخطاؤها على مدى عشرات السنين.» [(٢)]

هذا الذي قاله د/ فؤاد زكريا صحيح ولا ينكره أحد لديه أبسط ثقافة أو متابعة الأحداث الجارية، إلا أننى تعودت منه المهارة في تشخيص الداء، ووصف حالات التردي والإخفاق والضعف في المجتمع، والحث على نقد الحاكم الفرد المتسلط، والكف عن التماس العذر له أو تبرير أخطائه، وهذه خطوة أولى يجب أن تعقبها خطوات في ميدان الإصلاح؛ لأن تشخيص الداء أو حتى وصف الدواء لا يشفيان مريضًا طالما هذا المريض ليس لديه الاستعداد النفسي لتعاطي العلاج أو اليقين بأنه مريض يجب أن يسمع وينفذ تعليمات الطبيب.

كنت أود من د/ فؤاد زكريا ـ غفر الله له ـ أن يوجه هذه الشعوب الغفيرة التى يقول: «إنها خُدِعَتْ في اختيار قادتها منذ عقود، ولايزال يمارس عليها نفس الخداع والدجل»[(١)] إلى ما يجب عليها أن تفعله؟ هل تكتفي باللوم وعدم التماس الأعذار وتبرير الأخطاء وحسب، أم أن هناك أعمالاً أخرى وممارسات

(١) المرجع السابق، صـــ ١٠٢، بتصرف.

(٢)(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

مشروعة قامت بها ـ عبر العالم ـ الشعوب الحرة المتطلعة إلى الحياة الكريمة والمؤمنة بعدالة قضاياها ومشروعية مطالبها، فوصلت من خلال هذه الأعمال إلى العزة والكرامة والعدالة والرفاهية بعدما أحسنت اختيار الأكفاء في المناصب والوظائف والتمثيل الشعبي والمحلي.

يقول الشيخ/ الغزالي: «إن قياد الأمم يجب أن يكون في أرشد أبنائها وأقدرهم على حمل الأثقال والنهوض بالمسئوليات الجسام.. والأمر أعظم من أن يترك لرجل يدعي لنفسه التفوق، أو لأسرة تزعم لأعضائها النبوغ.. فكم من مصاب بجنون العظمة يطلب الصدارة والمصلحة كل المصلحة في تأخره.. وكم من أسرة بدأت بمؤسسين (شطار) أعقبوا من ورائهم من لا يحسن شيئًا..!!

إن المواهب المطبوعة والمكتسبة مبعثرة في أرجاء الأرض بين الأكواخ والقصور وبين الغامضين والبارزين، وبين السود والبيض، وليست حكرًا على جنس أو طبقة.

والإسلام يطلب لمنصب الإمامة العظمى (الخلافة) أحسن الناس دينًا وأبينهم كفاءة وأشدهم طاقة على النهوض بأعباء هذه الوظيفة الضخمة.

وإذا كان الإسلام يطلب لإمامة الصلاة مؤهلات دينية وعلمية خاصة، فكيف يدع إمامة الدين كله والحياة المدنية معه لأناس تافهين؟!! لكن الذي وقع ـ ونقولها محزونين ـ أن أصحاب القدرات العلمية الرائعة واليقين الناضج والخبرة العميقة بالحياة وسياسة الجماهير هؤلاء نُحُّوا عن الحكم وسلطاته، وحُرِمَ الإسلام والمسلمون من ذكائهم وشجاعتهم وتقواهم.. والدولة التي تنكب بهذا الداء لا يبشر مستقبلها بخير.»[١]

وهذا صحيح فكم من أناس على درجة عالية من الكفاءة والتقوى والذكاء والإخلاص، بل والمهارة في إدارة الأعمال وتقدير الأمور، قد نُحُّوا جانبًا، أو تركت جل أفكارهم وإبداعاتهم، فتركوا أعمالهم، وربما تركوا بلادهم ولسان حالهم يقول للمسئولين عن إدارة شئون البلاد:

غزلت لكم غزلاً رقيقًا من التقى   فلم أجد له نساجًا فكسرت مغزلي

ويستمر الشيخ في بيان خطورة اختيار الناس للقيام بالمهام الجسام علي غير كفاءة، وما ينتج عن ذلك الاختيار من ضياع للحقوق وعدم القيام بالواجبات، كنصح الحاكم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد يكون المرء عالمًا بفقه المَهَمَّة المكلف بها إلا إنه ليس مؤهلاً تأهيلاً جيداً للقيام بأعبائها، أو الصبر على تبعاتها، أو معرفة أقصر الطرق الموصلة إليها.

---

(١) معركة المصحف، صـــ ٦٠، بتصرف، مرجع سابق

يقول/ الشيخ: "وقد رأيت في تجربتى الخاصة ألوفًا من الناس لا تنقصهم المهارة في علوم الدين، ولا البراعة في شئون الدنيا، يشتغلون مع شتى الأحزاب والحكومات، ويفلسفون الأوضاع التي يوضعون فيها، ويؤدون الأعمال التي يكلفون بها، فيأخذون الأجور التي كتبت لهم، ويجزعون كل الجزع من الحديث في السياسة العليا.

وهذا الجيش من طلاب العيش الهادئ في ظل الحكم القائم ـ أي حكم كان ـ لا يعيبه أن يجد راحة الضمير فيما يرى من مراسم الدين وصوره العامة"[1] أمام العوام.

أما العلماء بالإسلام ورسالته فيرون أن ما ارتضاه هؤلاء لأنفسهم ودينهم وأمتهم طامة كبرى، وعقبة كئود حالت ولازالت تحول دون رفعة الأمة وارتقائها إلى مصاف الدول، أو حتى التعامل معها بندية واستقلالية، وأخشى أن يكون هؤلاء الذين وصفهم الشيخ في كلامه السابق بالمهارة والبراعة والطاعة والعمل مع شتى الأحزاب والحكومات وفلسفة الأمور والاكتفاء بالمراسيم والصور العامة، أخشى أن ينطبق عليهم قوله ﷻ: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾[المائدة] ألم يقل رسول الله ﷺ: (لا يكن أحدكم إِمَّعَه يقول أنا مع الناس..)[2] إذا كان ذلك مطلوبا من المسلم عمومًا، فما بالنا بالعالم الماهر البارع المتبوء المناصب العليا، المكلف بالأعمال الكبرى الذي مكن الله له في الأرض قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج:٤١].

لقد أخذ الله العهد والميثاق على العلماء وأوجب عليهم أن يبينوا للناس، ولا يكتمون علمًا مقابل ما يعطى لهم من أجور، وما يمنح لهم من مناصب قال ﷻ: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ [آل عمران:١٨٧].

وإذا كان الشيخ ـ هنا ـ يشير إلى صنف من المسئولين يجدون راحة الضمير فيما يخفونه عن العامة فإنه في أماكن أخرى يتحدث عن المفسدين، وضرورة استجوابهم وحسابهم وعقابهم حتى يرتدع من تسوِّل له نفسه الفساد، وتبقى للأمة قيمها ومكانتها وخيريتها.

وهذا ما سأذكره في المبحث التالي.

---

(١) المرجع السابق، صـ٦١.

(٢) رواه الترمذي في سننه من حديث حذيفة رضي الله عنه برقم (٢٠٠٧) وقال: حسن غريب، كتاب البر والصلة، باب ماجاء في الإحسان والعفو، صـ٥٢٧، مرجع سابق.

المبحث الخامس: محاسبة المفسدين وحراسة القيم.

قلت يومًا لأحد القضاة وهو يتحدث عن الجرائم التي تسقط بالتقادم إذا مر عليها بضع سنين إن كانت جنحًا، وبضعة عشر عامًا أو أكثر من ذلك إذا كانت الجرائم جنائية، قلت: هذه هي بعض قوانين العباد المعيبة، أما شريعة رب العباد فلا تسقط جريمة ـ صغرت أو كبرت ـ بالتقادم مهما مرت السنون والقرون، قال ﷻ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩] وقال ﷻ:﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة:٦] لا تسقط الجرائم بالتقادم وإنما تسقط بالتسامح والعفو أو الكفارات والحد عند من يرى أن الحدود جوابر، والحق إنها جوابر وزواجر معًا[١].

وأسأل هؤلاء الذين وضعوا قوانين إسقاط الجرائم بالتقادم: هل سقطت جريمة قتل ابن آدم الأول (قابيل) لأخيه وقد مرت عليها آلاف السنين؟ إن هذه القوانين ـ مع الأسف ـ لا أقول هي معيبة وحسب، وإنما أقول: إنها جائرة وظالمة ومفسدة بل وحارسة للفساد ومحصنة للمفسدين، وكم من مفسدين ارتكبوا جرائم توجب الإعدام وما دونه فاختبئوا أو خرجوا خارج البلاد مدة معينة، ثم رجعوا بعد مضي المدة التي حددها القانون، وهم يعلمون أنهم لن يؤاخذوا!!

هل بمثل هذه القوانين تصلح البلاد والعباد، وتقل الجرائم ويُحَاسَبُ المفسدون وتحرس القيم؟ ولصالح مَنْ تبقى القوانين التي تمكن المجرمين واللصوص من الإفلات من العقاب؟

والدكتور/ فؤاد زكريا كعادته في توصيف الواقع يقول:«إن أبسط تفكير يقنعنا بأن الحاكم الإنسان الوطني الرحيم الذي تحيط به مجموعة من الأشرار، إنما هو خرافة لا مكان لها إلا في عقول السذج، فالحاكم الذي يكون في هذا النمط من الحكم فرديًا متسلطًا هو الذي يختار معاونيه، وهو الذي يملك قدرة تغييرهم، ولولا أنه يرتاح لعملهم ولأسلوبهم في التعامل معه لما بقوا في مناصبهم لحظة واحدة، ومعاونوه هؤلاء إما أن يكونوا على شاكلته، وإما أن يكونوا مكملين له في عملية توزيع للأدوار.. إذ إن السلطة المطلقة للحاكم تحتم عليه ألا يعمل إلا من خلال أشباهه أو المتكاملين معه، ولو جاز للمرء أن يُحَوِّر كلمات حكمة شائعة، لهتف في هذا الصدد: (قل لي من يعاونك، أقل لك من أنت!).والنظرة الواقعية إلى الأمور تثبت أن الحاكم المتسلط كثيرًا ما يعرف كل شيء عن معاونيه المحيطين به، وعن جرائمهم التي

---

(١) جوابر: أي لا يُعاقب المرء عليها مرة أخرى في الآخرة، يكفيه إقامة الحد عليه في الدنيا، أما زواجر: أي أن الحدود وُضعت للردع حتى لا يتكرر الخطأ من المخطئ أو غيره ممن تسول له نفسه المعصية مع بقاء الذنب يؤاخد عليه في الآخرة، حتى وإن أقيم عليه الحد في الدنيا. والحق إن إقامة الحدود الشرعية تجمع بين الأمرين معا فهي جوابر وزواجر.

تسمى في لغتنا التي أعادت التهذيب المنافق (انحرافات) أو حتى (تجاوزات) ولكنه يغض الطرف عنهم ما داموا يسايرونه ويخدمون أهدافه، أما إذا خالفوا أوامره فإن الملفات المحفوظة تخرج من الأدراج وتبدأ الفضائح، وهكذا فإن الحاكم هنا (يعرف) ولكنه لا يستخدم معرفته لمنع الضرر عن الشعب، بل يوظفها من أجل تحقيق مصالحه الخاصة في نهاية الأمر.. ومن ثم فهو مسئول عما يترتب عليه مسئولية كاملة، ولقد كان في وسعه ـ لو شاء ـ أن يفتح الأبوب والنوافذ على مصراعيها عن طريق السماح بحرية الكلام والنقد والمعارضة، وعندئذٍ يستطيع أن (يعرف) كل ما يدور حوله بالطرق والقنوات الطبيعية من صحافة حرة واجتماعات حزبية ولقاءات، ولكنه اختار المعرفة الشوهاء بمحض إرادته، فكيف ندافع عنه بعد ذلك بحجة أنه لم يكن يعرف؟» [١]

أقول: من كان حاله كذلك لا ندافع عنه، ولا نعتقد أنه لم يكن يعرف الفساد والمفسدين، لكن هل بهذا الإنكار تستقيم الأمور وتنضبط الموازين، ويبقى الإنسان المناسب في المكان المناسب؟ يقول الشيخ/ الغزالي: «مع الاستبداد السياسي تضطرب موازين العدالة وتختل أعمال القضاء، خصوصًا عندما يتصل الأمر بشخص الحاكم أو أسرته أو أتباعه أو أسلوبه في الحكم.

إن المعارضين يجتاحون اجتياحًا، وقد تكتفي الحكومة بإبعادهم عن الوظائف الإدارية، والتوجيهية، إذا كانت معارضتهم في حدود الانحراف السلبي أو عدم الموالاة والتأييد، أما إذا مست المعارضة هيبة السلطة وبقائها، فإن التنكيل بالخصوم لابد منه، وعندئذٍ يقع الاعتقال القصير أو الطويل والسجن الخفيف أو الشاق والضرب أو التعذيب والقتل البطيء أو السريع..!! لا قضاء هنا ولا قضاة، ربما ألفت لجان خاصة يطلق عليها اسم المحاكم العسكرية، وهذه تنفذ الأوامر الصادرة إليها بعد إجراءات صورية ومخزية.

يظن البعض أن العدالة تختفي في القضايا السياسية وحدها، عندما يشعر الحكم الفردي بأن خصومه يتحركون، فهو يضربهم بضراوة شديدة، ويجعل النكال بهم رادعًا لغيرهم، وربما بقيت للعداله ظلال في ميادين أخرى، وهذا ظن بعيد عن الواقع، فإن الحكم الفردي يشيع في أرجاء المجتمع كله أخلاقًا هابطة.. إنه مثلاً يقوم على تزوير الانتخاب، ويعني ذلك إشاعة الزور، والرضا بنتائجه، وإطباق الأفواه دون قول الحق أو نصرته! وهو مثلاً يحابي الأقارب وذوي الملق، ويمنحهم من المكانة المادية والأدبية فوق ما يستحقون، ويعني ذلك بخس القيم وتأخير الأتقياء، وتقديم الفجرة، وجعل النفعية والارتزاق وحب النفس هي الفلسفة السائدة، أي أن العطب يتغلغل من ظاهر الجماعة إلى باطنها، ومن ظاهر النفس

---

(١) خطاب إلى العقل العربي، صـ٩٨ وما بعدها، بتصرف،مرجع سابق.

الإنسانية إلى باطنها، فلا يبقي شرف ولا دين إلا بضعة مظاهر لا تسمن ولا تغني من جوع.» [1] لذا يجب على الشعوب الحرة الأبية أن تتحرك في الاتجاه الصحيح، لتعرف أولاً القيم التى تريد تحقيقها أو المحافظة عليها، ثم تعرف أقصر الطرق للوصول إليها.

وإذا كانت الحكمة مطلوبة في الدعوة التى قد لا تتعدى الكلمات والنصائح، فما بالنا بمحاربة الفساد ومحاكمة المفسدين؟

إن الأمر يحتاج إلى وعي وتعاون واستفادة من خبرات السابقين، والقدرات والمواهب، بل والقوانين الصالحة للمجتمع وما أكثرها في بلادنا، والبلاد التى تتغنى بالحريات وحقوق الإنسان، فهل يطالِب الشعب أعضاء المجالس النيابية ومن بيدهم الأمر بمحاسبة المفسدين؟ وهل يطالبون ولاة الأمور بتفعيل القوانين وتنفيذ الأحكام الشرعية كي لا تبقى حبرًا على ورق، ويبقى الفساد قائما والمفسد آمنا، قد هرب ويهرب دائما من العقاب.

للأسف لدينا في مصر أسلوب عجيب فى التعامل مع المجرمين وهو ما يسمي بـ (مسجل خطر) وهو مَنْ كَثُرَتْ جرائمه وتنوعت وخاصة السرقة والسطو المسلح، فعند كل جريمة يتم البحث عن هؤلاء.. ثم يتم التصالح مع الضحية بعد ما يفقد ما يفقد من أموال أو عرض أو كرامة ثم يفرج عن(المسجل خطر)!! وكأن لسان حال هؤلاء يقول للمجرمين: إلي اللقاء أيها المجرم الخطير، والمفسد الكبير في جريمة أخرى قادمة. فأين تطبيق حدود الله لتكون حقاً زواجر و(جوابر)؟وأين الدستور والقانون الذي يتغنى به الكثيرون.

كثير من الناس لا يخشى العقاب لأسباب كثيرة: منها طول أمد الفساد، وقساوة قلوب أهله، ومنها الاحتماء بالمفسدين المسنودين بالقوة والمال، ومنها الاعتذار أو ادعائه بأنه اجتهد فأخطأ وهو يعلم ـ أو لا يعلم ـ أن فارقًا كبيرًا بين أخطاء الاجتهاد وخطايا الفساد، ومنها علم (الفاسد) بطرق الهروب والإفلات من العقاب. يقول الشيخ/ الغزالي: «لقد قرأت لأحد الصحفيين هذه الكلمات (اللصوص يسرقون ويهربون، بعضهم يدركه العقاب، والآخرون يفرون بما سرقوا ونهبوا دون أن يمسهم أذى! فالذي يسرق الرغيف يدخل السجن، والذي يسرق الفرن لا يدخل السجن! لأن سارق الرغيف لص ضعيف، أما سارق الفرن فهو لص قادر، يتعاون مع عصابات قادرة، ويجد من الأموال التي سرقها ما يقدره على تدويخ العدالة، فهو يوكل أحسن المحامين عنه، وبين براعة الدفاع وعناء القضاء تذهب الحقيقة).

وإفلات المجرمين من يد العدالة غير مستغرب، ولكن المستغرب وجود لصوص من طراز آخر لصوص (شرفاء جداً) لا يُتهمون ولا يقدمون للعدالة أبدًا، لصوص لهم مناصب مهيبة وألقاب طنانة

---

(١) الفساد السياسي في المجتمعات العربية ،صـــ ١٣٥، وصـــ١٣٨، بتصرف، مرجع سابق.

وكلمات نافذة..!! سرقوا شعوبهم جهرة، ونمت لهم ثروات طائلة، واحتبست الألسن في الحلوق فما تقدر أن تُوَجِّهُ لهم لفظًا. أقول: أو تهمة فضلا عن أن يقام عليهم حدٌ أويطبق عليهم قانونٌ، أوحتى يُعَذَّرُوا أو يؤاخذوا بما فعلوا أويفعلون! والسرقات من هذا النوع تجيء عرضًا، أو تجيء تابعة للاستيلاء على السلطة والاستمكان من مقاليد الأمور واغتصاب الحكم لشهوة عارمة.. شيء غير تولي الحكم باسم الله ورضا الأمة، الأول فجور، والثاني تقوى، ويظهر أن الأتقياء في التاريخ السياسي للأمم كانوا أندر من الماء في الصحراء.. وإن الذين غلبوا على مصاير الأمم كانوا قطاع طريق مهرة في سرقة الأمجاد والكفايات وبناء الجاه والسطوة والأبهة على أنقاض المستذلين والضائعين!..

وقد سبقتنا أوروبا إلى تقليم أظافر حكامها فقتلت بعضه في ثورات حانقة، ووضعت دساتير دقيقة لضبط مسالك الباقين، حتى صار الحكم هناك خدمة عامة يُختار لها الأكفأ، وَيُرَاقب من خلال أجهزة يقظة، ويطرد ولا كرامة إن بدا منه ما يريب.. وما يثير الدهشة هو الفرق الكبير بين تعاليم الإسلام وأحوال المسلمين، وما يثير الدهشة أكثر وأكثر هو موقف المشتغلين بالعلوم الدينية وفقه الشريعة.. كأن هؤلاء كُوِّنُوا بطريقة خاصة ليكونوا حَوَاشِي للحاكمين!.

لقد فزعت وأنا أرى ـ والكلام للشيخ الغزالي ـ كبيرًا منهم يصفق بيده ـ مثل صبي طائش- تكريمًا أو إرضاءً لأحد الحكام!! إنني أعلم أنه من أجل ذلك اختير! لكن الهبوط ما ينبغي أن يبلغ هذا الدرك ولو لحماية المظاهر، والسقوط الخلقي آفة بعض (رجال الدين) ولكني أظن ذلك سببًا ثانيًا لفساد الحكم في العالم الإسلامي، إن السبب الأول هو خلل التفكير الفقهي عند الجم الغفير من المتكلمين في الفقه!» (١)

إن ما رآه الشيخ وأثار دهشته في كلامه السابق ـ منذ عقود ـ يراه المخلصون اليوم في كل مكان، وبالذات ـ مع الأسف ـ أماكن التأثير وصنع القرار، وهي أماكن يجتمع فيها أهل الحل والعقد.

لذا أقول: إن الإصلاح عموما والإصلاح الاجتماعي خصوصا يحتاج إلى فهم الواقع، والاستفادة من الماضي والتجارب الناجحة، ودراسة طبائع البشر، ومعرفة نقاط قوتهم وضعفهم، كما يحتاج إلى تضافر جهود جميع المخلصين من أبناء المجتمع، كما يحتاج إلى صبر وجلد وحكمة وتقدير جيد للأمور، وتقييم للأوضاع واحترام للآخرين، وقبل ذلك يحتاج احترام ثوابت الدين الحق في العقائد والعبادات والمعاملات والحدود والآداب والأخلاق التى تربى عليها المسلمون، مع احتساب كل عمل صالح يبذل في هذا الاتجاه عند الله ﷻ. وهذا ما سأذكره ـ إن شاء الله في الصفحات التالية ـ ليكون خاتمة تجمع أهم النقاط التى حواها هذا البحث، وأهم الوصايا التى يوصي بها الباحث من قرأ البحث أو نظر فيه.

والله المستعان.

---

(١) الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، للشيخ الغزالي صـــ ١٢٢ وما بعدها، بتصرف، مرجع سابق.

خاتمة البحث

هذه الدراسة التي أحمد الله على تمامها وجمع موادها استغرقت أربع سنوات، تفرغت فيها للبحث في كتابات كل من الدكتور/ فؤاد زكريا والشيخ/ محمد الغزالي وغيرهما ممن له كتابات مباشرة في موضوع البحث.

إلا أنني ركزت على كتابات الشخصيتين محل الدراسة، وفي هذه الخاتمة أذكر أهم النتائج التي توصلت إليها، والتي أود أن تكون جامعة لأهم ما تم بحثه ومناقشته، والتأكيد عليه في فصول ومباحث هذا العمل، كما أذكر الوصايا التي أدعو الله ﷻ أن ينفع بها من قرأها أو نظر فيها.

أولاً: نتائج هذا البحث:

١- اهتم كل من الدكتور / فؤاد زكريا والشيخ/ محمد الغزالي بقضايا الإصلاح الاجتماعي اهتمامًا بالغًا، إذ لا يخلو كتاب لكل منهما عن ذكر شيء يتعلق بالوضع الاجتماعي في مصرا إما بالرصد والتشخيص، وإما بالنقد والتمحيص، وإما بالإرشاد والتوجيه.

٢- اتفق الرجلان د/ فؤاد زكريا والشيخ/ الغزالي على أمور كثيرة، واختلفا في أمور أخري، أذكر أهمها وسأبدأ بأهم نقاط الاتفاق ثم أُرْدِفُهَا بنقاط الاختلاف، ثم أختم بتعقيب الباحث لتتحقق المقارنة بين الشخصيتين في صورتها المختصرة، كما أرجو أن تكون قد تحققت في عموم الدراسة.

نقاط الاتفاق بين الشخصيتين

أ ـ يقر كل منهما بتردي الوضع الاجتماعي في مصر منذ عقود، ويعترفا أن هذا التردي ظل قائمًا في عصرهما، وأنه في ازدياد مستمر وانحدار ينذر بالشر والخطر، ويوجب تدارك الأمر قبل تفاقمِ الضرر.

ب ـ يرى كُلٌّ من الرجلين أن كثيرًا من أبناء العَالَمَيْن العربي والإسلامي لا يُعمل العقل بالقدر الكافي والمطلوب لإقامة حياة كريمةا قادرة على تحدي الأعداء، وتخطي الصعوبات ومسايرة العصر.

جـ ـ هذا الضعف الاجتماعي له مظاهر واضحة كالنظرة السلبية للحياة، والعلاقات السيئة بين الأفراد، وإهمال التربية والتعليم والمرافق والخدمات كالبنية التحتية، والعدالة الاجتماعية والقيم الإنسانية، وضعف العلاقات الخارجية، وعدم التعامل مع الغير بندية أو استقلالية.

د ـ الآثار السيئة الناجمة عن هذا الوضع الاجتماعي المتردي طالت الجميع في المجتمع، لم يسلم من أذاها وضررها صغير ولا كبير، ولا امرأة ولا رجل، ولا عالم ولا طالب علم، ولا مؤسسة ولا حزب، وأخطرها ضراوة ما مس النشء والشباب والمرأة في أبسط حقوق الإنسان المتفق عليها محليًّا وعالميًّا.

هـ ـ هذا الوضع الاجتماعي السَّيء خَلَّفَ مشكلاتٍ مزمنةً، تمس الحياة اليومية والاحتياجات الضرورية للإنسان كمشكلات الغذاء والدواء والسكن، والثقافة والسياسة والاقتصاد، والعمل والإنتاج الزراعي والصناعي والتقني فضلاً عن الأخلاق والمعاملات.

و ـ حل هذه المشكلات وغيرها يحتاج إلى إرادة صادقة، وخبرات واسعة وعلم متجدد وعمل دءوب، تتضافر فيه جهود جميع أبناء المجتمع، بدءًا بالأفراد رجالاً ونساءً وشبابًا وشيوخًا، مرورًا بالعلماء في الدين والدنيا والمؤسسات والمنظمات والأحزاب، ثم بالمسئولين في الدولة، الجميع معنيٌّ بحل هذه المشكلات، كلٌّ في موقعه وحسب قدرته وإمكاناته .

ز ـ حل المشكلات الاجتماعية جزء من الإصلاح العام الذي لا يتحقق كاملًا في ظل الفساد السياسي والاقتصادي والفكري والإعلامي، إذ لابد من إصلاح هذه المؤسسات والتعاون فيما بينها وبين المنظمات الاجتماعية في إطار الدستور المتفق عليه، والقانون المنبثق عنه واللوائح المنظمة للعمل والمبينة لمهام القيادات وما لهم من صلاحيات، وكذلك منظمات المجتمع المدني للقيام بالمهام الإصلاحية وتدريب الشباب على العمل والعلم والإبداع، والاستفادة من علوم العصر وتجارب السابقين.

حـ ـ يجب على الدولة ـ بما لديها من إمكانات ـ أن تقوم بأعمال جادة، تدعم من خلالها العلم والعلماء، وتقضي على الجهل والتخلف والخرافات والأساطير، وتختار الأكفأ لشغل المناصب والوظائف الإدارية الهامة في الدولة، وتطلق الحريات وتُرَشِّدها، وتسمح بالممارسات السياسية وتُهَذِّبُهَا، وتضمن العدالة الاجتماعية وتحققها، وتسن القوانين العادلة وتُفَعِّلها، حيث اتفق الرجلان د/ فؤاد والشيخ/ محمد الغزالي أن الدولة التي تصدر القوانين ولا تستطيع تطبيقها هي دولة رخوة ضعيفة، لا تستطيع أجهزتها القيام بأي مهام إصلاحية في المجتمع.

وهذا أخطر تحدٍّ يواجه عملية الإصلاح الاجتماعي، ويزيد من تفاقم المشاكل وتعقيدها.

ط- يجب على الدولة أن تستفيد من طاقات الشباب بإيجاد فرص عمل تفتح لهم الأمل في المستقبل، وتضمن المشاركة الفعلية في جميع عمليات الإصلاح المنشودة، وتحد من الانحراف والجريمة والهجرة غير المشروعة خارج البلاد.

هذا أهم ما اتفق عليه د/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي.

وجله يرجع إلى الإقرار بأن في مصر مشكلةً اجتماعيةً لها مظاهر واضحة لا تخطئها العين، وآثار خطيرة ومدمرة يشترك في علاجها كما اشترك في أسبابها جميع أبناء المجتمع، وخصوصًا العلماء والشباب والمسئولون في أجهزة الدولة ومنظمات المجتمع المدني.

أهم نقاط الاختلاف بين الشخصيتين

أ ـ عقل الإنسان ودوره في الإصلاح ونظرته للحياة، إذ يرى الدكتور/ فؤاد زكريا أن الإنسان ينظر للحياة بمقتضى العقلِ، فالعقل وحده قادر على الإصلاح الاجتماعي وفهم حقائق الحياة، فهو (العقل) حاكم وليس محكومًا، وقادر على التصدي لجميع ظواهر الكون وحل المشكلات، وذلك بالثقافة والتجربة والاكتساب، ولا يمكن لأحد أن يشكك في قدرة العقل لأنه غني بذاته قد شب عن الطوق، وبلغ مبلغًا لا يحتاج معه إلى تراث قديم أو نص مقدس.

والشيخ/ الغزالي يعلي من قيمة العقل ولا ينكر ما له من فضل، لكن لايصل إلى درجة تأليه العقل التي وصل إليها د/ فؤاد، فالشيخ يرى أن العقل له مدار يدور فيه، لا يجوز أن يتعداه، وهو الكون وعالم الشهادة، وفيما سوى ذلك فلابد للعقل من الإذعان والتسليم للوحي الإلهي، فهو (أي العقل) محكوم به (أي بالوحي) خاضع لتوجيهاته، خصوصًا في مجالات العقيدة والعبادة والأخلاق والحلال والحرام والحدود.

ب ـ قضايا المرأة إذ يرى د/ فؤاد أن المرأة كالرجل، لها ما له من حقوق وعليها ما عليه من واجبات، ولا مانع ـ عنده ـ من منافستها للرجل في كل مناحي الحياة، ويحثها على الثقافة دون حدود أو قيود، ويَعيب عليها الخجل والحياء، في حين يفرق الشيخ/ الغزالي بين مهام جسام لا يقوم بها إلا الرجال، كالإمامة العظمى وتنفيذ أحكام الإعدام والأعمال الشاقة والتصدي لقتال الأعداء، ويحث المرأة على تعلم ما ينفعها ويناسب تكوينها، ويأمرها بالحجاب والاحتشام وذلك لاختلاف طبيعة المرأة وفطرتها عن الرجل.

جـ ـ أسباب تردي الوضع الاجتماعي إذ يرى د/ فؤاد أن ضعف المجتمع يرجع إلى عدم التربية الثقافية القائمة على الحرية والإبداع والنقد وإثبات الذات والشك والتمرد وعدم الخروج على العقائد المقدسة والتراث القديم والقيم الراسخة وخصوصًا (الطاعة) في حين أن الشيخ/ الغزالي يفرق بين طاعة عمياء، وطاعة واجبة بل ومفروضة، إذ ليس بالضرورة أن يتمرد المرء ويشككَ في الثوابت حتى يُثبت شخصيته، فإثبات الذات يكون بالعلم القطعي والمسلمات اليقينية، وأولها القرآن الكريم والسنة المتواترة والصحيحة، ثم ما وصل إليه العلماء من تجارب وأبحاث مفيدة.

- ومن أسباب تردي الوضع الاجتماعي عند د/ فؤاد زكريا أيضًا عدم الاستفادة من خبرات الدول الغربية والاقتداء بها في الإصلاح المنشود، حيث أشاد بتجاربهم العلمية والسياسية والفنية والأخلاقية ووضعهم القوانين التي تفصل بين الدين والدنيا، واعتبر ما وصلوا إليه صالحًا لوضع خطط وضمانات كفيلة لعمليات الإصلاح، وذلك لتغير الزمان وطبيعة الإنسان، ويرى الشيخ/ محمد الغزالي: أن

نفرق بين ما ينفع ولا يتعارض مع ثوابت ديننا، كالزراعة والصناعة والتجارة والحريات المنضبطة، وبين ما يضر بقيمنا وأخلاقنا وعقيدتنا وتراثنا.. لأننا ننشد إصلاح المجتمع وليس إِفْسَادَهُ بإغراقه في الشهوات والآثام.

- ومن أسباب تردي الوضع الاجتماعي عند الدكتور/ فؤاد زكريا أيضًا تعاون الدولة مع الجماعات الإسلامية، وترك المجال الثقافي والحركي والسياسي لها، بقصد التضييق على الحركات الأخرى العلمانية، ويرى الشيخ/ الغزالي عكس ذلك تمامًا.

- كما يرى د/ فؤاد زكريا أن من أسباب تردي الوضع الاجتماعي تركيز الجماعات الإسلامية على موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية (الحدود) والاعتزاز بالتراث على حساب الثقافة الدنيوية والتفكير في حل مشكلات المجتمع، ويدلل على وجهة نظره بأخطاء علماء الدين في أوروبا، ومن أعلنوا تطبيق الحدود الشرعية في بلاد المسلمين. ويؤكد الشيخ/ الغزالي أن حل المشكلات ينطلق من الفهم الصحيح لشريعة الإسلام وليس من عدائها وإقصائها والتنكر لها، وأن أخطاء بعض المسلمين في فهم الدين وتطبيق أحكامه شيء والدين ذاته (القرآن والسنة) شيء آخر، وأن هذه الجماعات قدمت الكثير من الحلول ولم تجد القبول من القادرين على التنفيذ خشية أن يُنسب النجاح للإسلام والعاملين له. يضاف إلي ذلك أن الإسلام حاكم يحكم أى تصرف إنسانى، سواء صدر باسمه أم صدر بعيداً عنه، فالتجارب التى طبقت فى بعض البلاد الإسلامية شابتها أخطاء، واعتراها قصور وبقي الإسلام كما هو فى صفاء معدنه ونقاء نصوصه، وقد اعترض ـ منذ الوهلة الأولي ـ علي هذه التجارب علماء موثوق بهم. كما أنه لا مقارنة بين أخطاء علماء الدين الإسلامي، وخطايا رجال الدين النصرانى في أوربا فهى مقارنة ظالمة لا تستند إلى أصول قياسية صحيحة.

د ـ اختلف الرجلان أيضًا في شمولية الدين إذ يرى د/ فؤاد أن الدين بنصوصه وأحكامه يخاطب الأفراد، ولهم أن يختاروا من أمور الدين ما يناسب زمانهم ومكانهم واحتياجاتهم وما تستريح له نفوسهم في حدود العقائد والعبادات، وليست الدولة معنيَّةً ـ على حد زعمه ـ بإقامة القوانين الحاكمة والشرائع المنظمة للمجتمع على أساس الدين.. في حين أن الشيخ/ الغزالي يؤكد دائمًا أن الدين كامل وشامل لجميع مناحي الحياة[1] وعادل لا يظلم، ومتوازن لا يميل، ومصون ومعصوم ومستمد من عالم خبير، راعى فيه بدقة مطالب الروح والجسد والفرد والمجتمع والدولة والعالم أجمع. ولا يجوز أبدًا أن يُقارن بالملل والنحل

---

(١) شمول الإسلام يعنى أمرين، الأول: أن الإسلام دين جاء ليجيب الناس عن كل ما يسألون عنه أو يشغل بالهم من قضايا الوجود (الوجود الغيبى ـ العالم المادى ـ الإنسان هدفه ومصيره). الثانى: بيان ماينبغى أن تكون عليه حياة الناس، وتلبية حاجاتهم العصرية المتجددة، أي (التكيف الفقهى للمستجدات).

المحرفة، أو يُرَدَّ بسبب جهل الجاهلين وانتحال المبطلين، وقد ثبت صلاحه وإصلاحه لكثير من الأمم وعبر القرون وفي مختلف العصور ومع جميع الأجناس، وعلى الدولة أن تفهم ذلك، وتنطلق من خلاله حتى يتم الإصلاح المنشود.

لذا يجزم الشيخ/ الغزالى على أن التصدي للمشكلات وإصلاح حال الناس في بلادنا العربية لا يتأتى كاملاً ولا يثمر خيرًا إلا بالدين الحق الذي جاء به خاتم المرسلين ﷺ وأن أي محاولة لإقصاء الدين عن دنيا الناس وحياتهم الخاصة والعامة في الدولة ترجع للجهل بالدين أو الكفر به وجحود أحكامه.

تعقيب الباحث

كانت المقارنة بين كل من الدكتور/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي في حدود موضوع البحث فقط لاشتراك الرجلين في تقديم الفكر الإصلاحي المعاصر على أنه الكفيل والقادر على حل جميع المشاكل الاجتماعية أو معظمها. في حين أنه تبين للباحث أن أحدهما (الشيخ/ محمد الغزالي) تميز على الآخر (د/ فؤاد زكريا) من عدة وجوه أذكر أهمها باختصار فيما يلي:

١ـ ربط عملية الإصلاح بعقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر ورسالة الإنسان في الحياة والمهمة التى من أجلها خُلق وما جاء به المرسلون، والحدود التى حددها الله له في هذه الرسالات، وخصوصًا الرسالة الخاتمة، وما ينتظر الإنسان ـ بعد الموت ـ من ثواب أو عقاب.

فلقد اهتم الشيخ/ محمد الغزالي بمسائل العقيدة الإيمانية والفرائض الدينية والقيم الإسلامية واعتبرها ـ وهي كذلك ـ العمدةَ والأساس في عملية الإصلاح الاجتماعي، وأنها مُقَدَّمَة وحاكمة على العقل والفكر والضمير في كل زمان ومكان.

٢ـ الاستفادة أولاً من مصادر الإسلام في جميع عمليات الإصلاح وخصوصًا القرآن الكريم والسنة الصحيحة والإجماع، وقواعد الفقه وأحداث التاريخ الإسلامي، وتقديم ذلك على التاريخ الأوروبي الغربي في الإصلاح الاجتماعي وحل المشكلات.

٣ـ الجمع بين المنهج الشرعي والعقلي في البحث والاستدلال واستنباط الأحكام، والاستفادة من جميع الاتجاهات والمدارس الفكرية والإمكانات المادية، وعدم تجاهلها عند الحكم على الظواهر الاجتماعية وأسبابها وآثارها وسبل مواجهتها بما يجمع (حقًّا) بين الأصالة والتجديد أو الدين ومتطلبات العصر.

٤ـ التحذير من التقليد الأعمى للغرب والشرق، والتطبيق الخاطئ للنصوص الدينية والأحكام الشرعية والقوانين الوضعية، وإغفال نصائح المصلحين والمجددين من علماء الدين، ذوي الكفاءات

المتميزة، كالشيخ/ محمد عبده، والشيخ/ رشيد رضا، والشيخ/ جمال الدين الأفغاني وغيرهم من أساطين الفكر الراشد والوعي المستنير.

٥ـ تحديد المسئوليات والأولويات بدقة لمعرفة المهم والأهم، والفرق بين القادر على الإصلاح بحكم منصبه أو خبرته أو تأثيره المادي أو الأدبي أو العلمي أو الأيديولوجي وبين أحاد الناس وعامتهم.

٦ـ الاهتمام بالأسرة المسلمة وترابطها وتماسكها، وما يتعلق بها من أحكام كالزواج والطلاق والتعدد والخلع، وما يجب على أفراد الأسرة فيما بينهم من تكافل وآداب، وبين المجتمع من علاقات ومعاملات، وما للزوج من خصوصيات كالقوامة والنفقة باعتبار أن الأسرة هي النواة الأولى في بناء الفرد وإصلاح المجتمع.

هذا أهم ما امتاز به الشيخ/ محمد الغزالي على الدكتور/ فؤاد زكريا فيما يتعلق بموضوع البحث.

أما ما عرفته عن د/ فؤاد زكريا زيادة عما أعرفه عن عموم العلمانيين فأهمه ما يلي:

١ـ أنه تعصب للفكر العلماني أكثر من العلمانيين الأجانب الذين صَدَّرُوا لنا العلمانية.

٢ـ أنه لم ينصف الإسلام ولا علمائه، وينكر بشدة على من يرى أن الإسلام قادر على حل مشاكل المجتمع.

٣ـ أنه يدعو إلى النقل عن الغرب، ويعارض النقل عن علماء الإسلام وإن كان نقلهم عن الله ورسوله.

٤ـ أن جُلَّ ما يرشد إليه في عملية الإصلاح الاجتماعي لا يعدو التشخيص للأدواء دون ذكر الدواء.

٥ـ ادعاؤه أن من أسباب التردي الاجتماعي تحالف المسئولين في الدولة مع الجماعات الإسلامية لا الأحزاب العلمانية.

٦ـ الخلط بين فكر علماء الإسلام وتجاربهم، وبين الإسلام ذاته بمصادره ومقرراته.

ثانيًا: التوصيات التي يوصي بها الباحث.

بعد ذكر أهم النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة وتعقيب الباحث أود أن أسجل بعض التوصيات المهمة والتى أرجو أن يأخذ بها كل إنسان في مصر يهتم بمسألة الإصلاح الاجتماعى.

١ـ إن أول ما أوصي به كل مسلم ـ رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ـ هو تقوى الله بإصلاح النفس أولاً ومراجعتها وتطهيرها من الذنوب ولومها على التقصير، إذ أقسم الله بالنفس اللوامة قال ﷻ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القيامة]ثم الاستقامة على منهج الله الذي جاء به المرسلون، ولا يكون ذلك إلا بالخوف منه واستشعار عظمته ﷻ ومعيته فلعَمر الله هذه أعظم الوصايا، والعمل بمقتضاها أفضل الأعمال، إذ هي وصية الله للأولين والآخرين.

قال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ١٣١﴾[النساء] فبتقوى الله يصبح المرء مؤمنًا مستقيمًا صالحًا معتدلاً، وهذه أول خطوات الإصلاح وأهمها في المجتمع المسلم.

٢ـ أوصي كل إنسان ـ أيًّا كانت عقيدته وأيًّا كان فكره أو مذهبه ـ أن يكون إنسانًا بمعنى الكلمة، وبكل ما تحمله من مبادئ إنسانية وقيم أخلاقية، تميز بني آدم عن المخلوقات الأخرى، فلا يصدر عنه إلا ما تتشرف به الإنسانية من قول أو فعل أو سلوك أو إقرار.

٣ـ أوصي كل شاب أن يستفيد من فترة الشباب، وأن يستثمرها فيما ينفعه ويعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، وَلِيَعْلَمَ أن كُلاًّ ميسر لما خلق له، فلا يعجز ولا ييأس ولا يحزن ولا يقنط من رحمة الله، وعليه أن يأخذ بالأسباب التي خلصت إليها هذه الدراسة وغيرها، كالعلم النافع والفهم الصحيح للدين والدنيا، والنظر إلى الحياة والصحبة الطيبة والإمكانات المتاحة وعلوم العصر ونتاج الفكر، وكل ذلك موجود في بلادنا، وإن كان بنسب لا ترقى إلى المستوى المطلوب، إلا إنها مع صدق النية والعزيمة والتوظيف الحسن، والتوكل على الله، تحقق قدرًا كبيرًا من الفائدة المرجوة كإثبات الذات، والثقة في النفس، ومن ثَم إصلاح المجتمع.

٤ـ أوصي المرأة المسلمة، وكل امرأة تعيش في المجتمعات العربية أن لا تنسى عروبتها، ولا تنسلخ عن فطرتها وهويتها وتاريخ أمتها، والقيم التي امتازت بها بلادها، كالتدين الفطري والتعاون الإنساني، والأدب والحياء والكرم والمروءة والنجدة، والشجاعة الأدبية والترابط الأسري والمجتمعي.. ففي حضارة بلادها ما يغنيها عن مضار التقليد، ويضمن لها الرأي السديد، والعمل الرشيد الذي ترقى به في دينها ودنياها، وتصل من خلاله إلى كامل حقوقها وجميع ما لها عند غيرها.

٥ـ أوصي كل أسرة مؤمنة تأسست على طاعة الله ﷻ واجتمعت على كلمته وهدي رسوله محمد ﷺ أن تقوم بواجبها فيما بينها وبين أفرادها من تكافل وتآذر، وفيما بينها وبين المجتمع من تعاون وتفاهم، وأن تتعامل مع الناس بالفضل أو بالعدل وبالإحسان أو الميزان طاعة لله ورغبة في تقواه جل في علاه، وإحقاقًا للحق وإبطالاً للباطل، وبهذا تقل نسب الطلاق والشقاق والخلاف والعداء والتفكك الأسري والمشاكل الاجتماعية.

٦ـ أوصي كل عاقل بالبحث عن الأصلح دائمًا، وعدم الاكتفاء بالصالح فضلا عن الرضا بالفاسد، فالمؤمن بالله لا يرضى بالفساد ولا يتحالف مع المفسدين؛ لأن الله ﷻ لا يحب المفسدين، وقد ربط بين الإيمان به ﷻ والعمل الصالح في القرآن الكريم أكثر من ثمانين مرة.

والبحث عن الإصلاح يعني اتباع الحق.. والله هو الحق، وكلامه حق، ولقاؤه وثوابه وعقابه ووعده ووعيده حق، وما جاء به رسوله ﷺ حق، والحق لا يعرف بالرجال ولا الفلسفة ولا المقال، وإنما يعرف بالدليل القاطع والبرهان الساطع.

ولقد أجمع علماء الإسلام على أن القرآن الكريم كله قطعي الثبوت ويدعو إلى الحق.. وكذلك الصحيح المتواتر من سنة رسول الله ﷺ لذا أوصى بالحذر من أن ترد آية من كتاب الله ﷻ أو حديثًا صحيحًا متواترًا من سنة رسول الله ﷺ أو إجماعًا منعقدًا لعلماء الأمة لأن الأمة لا تجتمع على ضلالة أبدًا.

٧ـ أوصي الباحثين والمصلحين والدعاة بدراسة القرآن الكريم وعلومه وأدلة أحكامه بمنهج السلف الصالح، دراسة تناسب ظروف البلاد ومصالح العباد، وروح العصر الحديث وتطوراته وأحداثه وثوراته العلمية والمعلوماتية والتقنية والسياسية، وكذلك دراسة السنة والسيرة النبوية وتاريخ الإسلام وقواعد أصول الفقه ومواطن الإجماع والاختلاف، وما يحتاج إلى اجتهاد، وتقديم ذلك للناس بصورة تجمعهم على الحق، وترغبهم في اتباعه ونصرته واحترام علمائه.

٨ـ أوصي القادة من علماء الشريعة أن يجتمعوا بدعاة العلمانية ليبينوا لهم الفرق بين ما هو مقبول شرعًا وعقلاً ويجوز التمسك به من الفكر العلماني، وبين ما هو مرفوض شرعًا وخلقًا لتعارضه مع النصوص القطعية وإجماع العلماء وآداب الأمة العربية وخصوصياتها، وأن يُصْدِروا فتوى جماعية تبين موقف هؤلاء العلمانيين من الإصلاح الاجتماعي، وما لديهم من فكر جديد وعمل مفيد.

٩ـ أوصي كل منصف باحترام القواسم المشتركة ونقاط الالتقاء بين الفكر الإسلامي والفكر العلماني والتى تجلت بعض سماتها واضحة في النقاط التى اتفق عليها كل من د/ فؤاد زكريا والشيخ/ محمد الغزالي وخصوصًا في وسائل ومناهج وأهداف الإصلاح الاجتماعي وهي ليست بالقليلة، ويمكن ـ إن خلصت

النوايا- أن تشكل بداية انطلاقة مجتمعية تبشر بالخير، وتدفع باتجاه العمل الجاد المخلص والمتعاون والنافع للبلاد والعباد، إذ يمكن لأبناء العالم الإسلامي علمانيين وإسلاميين أن يلتقوا في نقاط اتفاق وأن يجتمعوا على كلمة سواء تفي بحاجة المجتمع من تطور علمي ومسايرة العصر، وتضمن بقاء الدين بثوابته ومقدساته، سيما وقد تبين أن العلمانية على مستويات ثلاث:

أولها: فصل الدين عن الدولة وتركه للأفراد والأسر... ثانيها: فصل الدين عن المجتمع وقصره على العقيدة والعبادة. ثالثها: فصل الدين عن الحياة عمومًا كالماركسية. وهذه الدرجة هي أخطرها.

١٠- أوصي كل مؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر بالحذر الشديد من غلاة العلمانية والليبرالية في بلادنا فقد قرأت لهم، وسمعت منهم، وعرفتهم عن قرب، وعرفت بضاعتهم وما فيها من حق وباطل، وقصور وتقصير، وأخطاء وخطايا، وفتنة ورشاد، ورأيت فيهم ذكاءً نادرًا وقدرةً على الجدال وإدارة الحوار بطرق تثير النفس وتقنع العقل، فلقد رأيت د/ فؤاد زكريا و د/ فرج فودة وغيرهما من أساطين الفكر العلماني جُل استدلالهم من أدلة العقل، ومهارة الفكر، والتلاعب بالألفاظ والمصطلحات كقول د/ فؤاد زكريا (الحق الإلهي) و(التفويض الإلهى) و(التوقيع عن الله) و(التراث القديم).. فضلاً عن إثارة الشبه التي لا يقدر على تفنيدها أو الرد عليها إلا خواص الخواص من أهل العلم والاختصاص.

والأخطر من ذلك الجرأة على النصوص الشرعية المحكمة، والثوابت القطعية محل إجماع علماء المسلمين مثل الحدود والقصاص والميراث وقوامة الرجل، وحجاب المرأة.. بدعوى الحداثة والتطور والتقدم، إذ يرون أنه لا سبيل للوصول إلى هذه الأهداف إلا بإسقاط القيم الإيمانية الراسخة، فلا قيمة عندهم مثلاً لقوله ﷻ: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور:٢] وقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] وقوله ﷺ: (العلماء ورثة الأنبياء).

١١- أوصي كل مسئول في كل سلطة أو مؤسسة أو هيئة أو منظمة بالتعاون الجاد في الإصلاح الاجتماعي، ودعم المصلحين، فعملية الإصلاح في حاجة إلى تعبئة عامة وكاملة لكل قوى الشعب وإمكاناته وموارده وطاقاته، تعبئة تتضافر فيها الجهود مع الموارد والإمكانات المادية مع العلمية، والدينية مع الدنيوية، والفردية مع الجماعية، والشعبية مع الرسمية.

فعلى الأمة جميعها حاكمها ومحكومها، كبيرها وصغيرها، عالمها وطالب العلم فيها الجميع عليه أن يسهم في هذا الإصلاح، ويدعمه باستمرار، ويجعله هدفه الأول طاعة لله ورسوله، واعتزازًا بالدين والنفس والوطن، وتجاوبًا مع مقتضيات ومتطلبات العصر وأسباب النصر، هذا إن كانت الأمة تريد العزة

والكرامة والسعة والغنى وبناء الأمجاد والاضطلاع بالمسئوليات الملقاة على عاتقها نحو إخوانها في الدين والإنسانية.

١٢ـ وأخيرًا أوصي أهل الحل والعقد من القادة والأمراء وصناع القرار والقادرين على إنفاذه بردع المفسدين، وتنفيذ الأحكام والحدود الشرعية، وإصلاح القوانين وتفعيلها بما يضمن العدالة الاجتماعية الناجزة، والحقوق الإنسانية ووحدة الأمة الإسلامية، وسلامة الفكر والرأي والحرية المنضبطة والحوار الهادف، والمشاركة المفيدة بشجاعة أدبية تحرس الدين وتسوس الدنيا، وتجمع الناس وتمنع الفتنة والاختلاف والعداء، وهجرة الأكفاء والشباب.

هذا ما أوصي به كل من قرأ هذه الرسالة، أو نظر فيها، أو اقتبس منها، وكل مصلح حر، يبحث عن الحق لذات الحق لا يخشى في ذلك لومة لائم.

ويقيني أن في بلادي خلق كثير من هؤلاء الأحرار الباحثين عن الحق، والراغبين بصدق في الإصلاح الاجتماعي، والعالمين بالطرق المشروعة للوصول إلى هذا الهدف المنشود.

والله من وراء القصد، فهو المستعان وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه إلى يوم الدين.

تمت كتابة هذا البحث تحت إشراف الأستاذ الدكتور/ طلعت محمد عفيفي سالم. والأستاذ الدكتور/ شرف الدين أحمد آدم، حفظهما الله وبارك في علمهما. اللهم آمين.

الباحث/ حمدي أمين عبد الله محمد

ملخص للرسالة باللغة الإنجليزية

A Breif Account of the Thesis in English

In the Name of Allah, the Entirely Merciful, the Especially Merciful.

All praise is due to Allah, Lord of the worlds; and blessings and peace be upon His messenger and servant, Muhammad, seal of the prophets, and upon his family and companions and whoever follows his guidance until the Day of Resurrection.

This thesis is entitled : **" The Social Reform in the Contemporary Ideology; Comparison between Sheikh Muhammad El-Ghazaly and Dr. Fouad Zakarya."**

The Most Important Reasons Behind Writing this Thesis:

First: The social reform issues actually relate to my career as an Imam in Awqaf (Ministry of Endowments) and as a preacher giving recommendatories and advices over some social problems which particularly need practical and untraditional solutions.Here, I find myself in a dire need for those who can give me their opinions in such contemporary issues.

Second: **Dr. Fouad**'s writings and debates which are still being published inside and outside Egypt. These writings and debates are full of social thoughts concerning people's life and future and have truth and falsity that has to be criticized and rebuted, especially that he has adherents and followers propagating his ideas and republishing his books.

Third: **Sheikh El-Ghazaly**'s writings that contain social concepts gathering the foundatios of our religion and the latest developments of the age. These writings have the scholary answers about which many scholars search in order to rebute secularism.

Fourth: The calls echoed frequently in society and that which call on the Islamic law scholars to interfere strongly in order to contribute in solving the social problems and in explaining the Islamic opinions on what the others say.

The Significance of This Thesis:

First: The grossness of the social problems which have reached an unbearable stage in Arab countries and in Egypt in particular due to their complications and the difference in those who solve them, more importantly, because of mistakes or failure reapeated for many decades. That encourages me to write in social reform in oreder to contribute in solving the problems.

Second: This topic has a special importance due to its relation with man who is the most important in this life, with the youth who are the mainstay of this nation, with the mind which is the basis of honoring, the woman who is the half of society, the family which is the first unit in forming any society and the oldest social system ever known. Thus when the family is reformed, the society will be reformed too, thee vise verse.

Third: This topic is very important because of its relation with ethics, norms and cultures of people. That results in man subsequences and makes devotions and currents which influence the Arab muslim society.More importantly, such a topic has an additional significance when it is set to compare between **Sheikh El-Ghazaly and Dr. Fouad**.

The Aims of This Thesis: It is aiming at:

First: Explaining the most important and gravest problem and challenge which threatens the social entity, starting from the individual, then the family and finally the whole country, mentioning who is behind these problems, what is the extend of graveness and means of solving and overcoming them.

Second: Contributing, as possible, in reforming the society by submitting a scholary thesis supervised by great specialized and most experienced scholars to be like the lantern or the light and like the base for social system.

Third: Clarifying the greatness and the integrity of Islam concerning the social reform, compared to laws that prove their failure, especially in what is relating to the family coherence, youth issues and social unity.

Fourth: The thesis which I submit aims at highlighting the role of Al-Azhar and its scholars who are participating in reforming the society.

I used the comparing approach with some criticism, mentioning the rightful and scientific authenticating in Shari'a for many issues which need this.

The thesis goes through the following steps:

*****A brief preface in the beginning of each element in this thesis to be as an initialization or an entrance to it.

*****Clarifying the different points of view, starting from **Dr. Fouad**'s, then that of **Sheikh El-Ghazaly**, mentioning the most important differences in this comparison, the extend of differences or agreements between them, the origins or the reasons behind such differences and finally the benefits or the destructive aspects implied.

*****Transforming the Qur'anic verses from the authentic volume (mushaf) in the Uthmanic handwriting copy, with the mention of verse number and the name of Surah.

*****Attributing every saying to its owner by mentioning the name of the book, the page, the number of publishment, the date and the publishing house.

***** Transforming hadiths from their original books from sunnah ones, whether narrated in the two authentic books, Al-Bukhary's or Muslim's, or not. If not, I have to mention the degree of authentication.

The conclusion of the thesis: Including:

The Results

First: **Dr. Fouad and Sheikh El-Ghazaly** are exteremely interested in social reform issues to the extent that no book was written without mentioning anything concerning the social position in Egypt, wether by observing or diagnoising, by criticizing or rebuting and by guiding or directing.

Second: Both of them agree on many things and differ in others.

Points of Agreements:

A)Both confess that the social status in Egypt has been reverting to a worse condition for decades and this backslide has maintained to happen in their age, increasing to the worse more and more, giving an omen or anticipatory sign of danger. Here, there sould be a solution; otherwise it will exacerbates.

B)Both think that many people in arab and Islamic worlds do not use their minds adequately in order to lead a decent life with the ability to defy enemies, to overcome hardships and to keep up with the developments of the age.

C)Both see that this social weakness has permanently manifested through the pessimistic perspective of life, the worswn retionship between individuals, negligence in education, in utilities, such as infrastructure, and in social justice.

D)**Sheikh El-Ghazaly and Dr.Fouad** believe that the consequences resulting from this retrogressing in the social status cause damage to everyone in society, wether young or old, a woman or a man, a scientist or a student, an institution or a party but the gravest damage happened to the youngest people, youth and women.

E)They think that these problems need a veracious desire, long experiences, renewable knowledge, hardworking, and co-operation from everyone in society, wether individuals, institutions, organiztions or parties; each one is responsible to solve these problems from his position and according to his abilities.

F)They both declare that the country, with its potentialities, manages to adopt major projects, through which it is supporting scientists to overcome ignorance, backwardness, superstitions and myths. It also manages to choose the most efficient person to occupy the administrative posts in the country, to set freedoms, to allow political practices, to guarantee social justice and to set laws.

The Points of Difference:

A) **They have different visions about man's mind and its role of reform**.
Dr. Fouad thinks that man has to see and understand the life through the mind because-according to him- it is the only way to achieve the social reform and to understand the truths of life.That's why he sees the mind is not ruled but the ruler. While **Sheikh El-Ghazaly** does not deny that the mind is something axalted, he does not make a god of it or to glorify it as of supreme worth unlike **Dr.Fouad** who deifies the mind. **Sheikh El-Ghazaly** believes in the abilities of the mind. The mind has an orbit of which it cannot go out. This orbit is the universe and the world of witness. Except these things, the mind has to give acquiescence to heavenly revelation.

B)**They also differ in the nature of woman. Dr. Fouad** sees that the woman is equal to the man, having all his rights and duties, and sharing with the equal percentage in all aspects of life. He urges her to acculturate herself without limitation. And in his opinion, shyness and maidenliness disgrace her. As for **Sheikh El-Ghazaly**, he differenciates between unbearable works which men only afford, such as caliphate, execution, and fighting.

C)**They differ in the reasons behind this retrogressing social status. Dr. Fouad** thinks that the main reasons are abnegation and lack of freedom, creativity, criticism, doubt, rebellion against the sacred beliefs, old heritage, and values, for example the principle of **obedience** but **Sheikh El- Ghazaly** differenciates between blind or passive obedience and another obedience that which is obligatory.

*Dr. Fouad considers another reason for this weak social status, the reason which Sheikh El- Ghazaly does not agree. It is lack of benefit from western countries' experience and lack of imitating them in order to achieve the social reform. He elevates their scientific, political, technical and ethical experiments. He praises their laws which separate religion from life and politics. As for **Sheikh El-Ghazaly**, he differenciates between what does not contradicts with our Islamic teachings and what destroys our ethics, doctrine and heritage.

*Another reason they differ in is that the authority co-operates with Islamic groups and they dominate cultural, dynamic and political fields, leaving nothing for secular movements. While **Sheikh el-Ghazaly** sees the vise verse and he thinks that in order to solve the social problems, we have to move from the rightful understanding of Shari'a not from excluding or marginalizing the Shari'a and that some Muslims' mistakes in carrying out the rulings of Islam do not mean that there are mistakes in Islam. These mistakes are in one side and Islam (Quran and Sunnah) is something else.

D)**They differ in the comprehensiveness of Islam**.**Dr. Fouad** believes that the religion converses individuals only, not the groups or the country and that individuals have the right to choose whatever they want and whatever fits their age and that the country is never responsible to establish the Islamic rules.As fo **Sheikh El-Ghazaly**, he always affirms that this religion is comprehensive, reforming individuals, societies, countries and the whole universe.

The Writer's Opinion:

When making comparison between **Sheikh El-Ghazaly and Dr. Fouad**, we find many things distinguish **Sheikh El-Ghazaly**:

First: He relates the process of social reform with the belief in Allah and the Day of Judgement, with man's mission in life and with the message of prophets.

Second: He sees that we have to benefits from Islamic sources first, notably in Quran, Sunnah, conscensus, jurisprudence and historic events and we have to make these sources precede the western European history when reforming and solving the problems.

Third: He uses the Islamic and mental approach on searching, thinking, reasoning, ratiocinating and extracting rules. He benefits from all the trends and ideologies.

Fourth: He warns against the blind imitation for the west and the east, the same as he warns against wrong carrying out for the religious texts.

Fifth: He marks the responsibilities and the priorities in the process of social reform. He sets the most important and the least important things, mentioning who can reform because of his post , his experience or his finances and who cannot reform.

Sixth: He is interested in the muslim family issues, its coherence and in its rules, such as the rules of marriage, divorce and polygamy.

This is what distinguishes Sheikh **El-Ghazaly than Dr.Fouad** concerning the thesis.

What I know abour Dr.Fouad concerning secular principles surpasses the rest of seculars as he does the following:

A)He goes fanatic about secularism than the foreign seculars themselves who export this ideology to us.

B)He isn't just towards Islam or the Islamic thinkers and when any secular does so, he denies this act of him.

C)He calls for taking from the west and from its thinkers and, at the same time, he disagrees with taking from Islamic scholars; even if they take from the rightful sources of Islam (Quran and Sunnah).

D)He diagnoises illnesses and this is not adequate in the process of social reform as he has to mention the treatments of these illnesses.

E)He mingles between the experiments of Islamic scholars and Islam itself with its two main sources.

F)He relates what happened in Europe between the church and the religious men and what happened in our countries, then concludes that religion should be separated from politics and this is not true.

The Recommendations:

A) I advise every muslim to fear Allah, to reform himself.

B) I advise every young man or woman to make use of the period of youth and to invest it with benefits. He has to Know that everyone is able to do what he has been required by Allah; he has not to let despair inters his heart, taking all the reasons to achieve reform.

C) I advise every woman not to forget her Islamic identity.

D) I advise every family to do its duties in order to be coherent and if this happens, all the divisions, divorce, and family problems will decrease.

E) I advise every man not to co-operate with the corrupted people beacause Allah does not like the corrupted people.

F) I advise the researchers and the reformers to study their religion to move from a solid ground in the process of reform and if this happens, they will be gathered only by the right and then they will de its followers.

G)I advise the Islamic scholars to debate the secular thinkers because they are responsible before Allah for what they think if they did not clarify and correct them. They are also responsible for explaining the difference between Islam itself and the mistakes of some muslims and the difference between what Islam accepts from their secularism and between what Islam refuses.

H) I advise every muslim to be cautious against the the hardline seculars and liberals because I read about and heard from them; they are not easy in debates.

I) I advise every institution or organization to co-operate in reform as it needs co-operation from all the society and mobilization from all the forces.

J) I advice the law makers and all the responsible people to deter the corrupted people and to achieve social justice.

This Thesis written by: **Hamdy Ameen Abdellah Muhammad**.

This part translated by: **Hoda Hamdy Ameen Abdellah Muhammad**, on February ٣, ٢٠١٧. graduated at Al-Azhar University, the Faculty of Human studies, English department, language and simultaneous interpretation in ٢٠١٦.

Greatings, peace and mercy be upon you.

فهرس المراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب السنة والسيرة النبوية

١ـ البخاري في الأدب المفرد ، ط/ المدني بشارع العباسية بالقاهرة، ط ١، سنة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢ـ الترغيب والترهيب للمنذري، جـ٣، ط/ المكتبة التوفيقية بدون تاريخ

٣ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، جـ٢، الناشر: مكتبة المعارف بالرياض، سنة ١٩٨٣م.

٤ـ الحاكم في المستدرك عن ابن عباس ﷺ،ط/ دار ابن حزم، ط١، سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م وكذلك في ط/ دار الكتب العلمية بيروت، ط١، جـ٤ نفس التاريخ.

٥ـ السلسلة الصحيحة للألباني، ط/ مكتبة المعارف بالرياض بدون تاريخ.

٦ـ السيرة النبوية لابن هشام الروض الأنف، جـ٢، ط/ مؤسسة مختار مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ط١، بدون تاريخ.

٧ـ تخريج مشكاة المصابيح للتبريزي ط/ دار النشر المكتب الإسلامي، سنة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٨ـ سنن ابن ماجة، ط/ دار الفجر للتراث، القاهرة سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٩ـ سنن أبي داوود، ط/ دار الفجر للتراث، القاهرة، سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٠ـ سنن الترمذي، ط/ دار الفجر للتراث، القاهرة، سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١١ـ سنن النسائي، ط/ دار الفجر للتراث، القاهرة، سنة ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

١٢ـ صحيح الإمام البخاري، ط/ مؤسسة زاد للنشر والتوزيع، ط١، سنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

١٣ـ صحيح الإمام مسلم، ط/ دار الرواد للإعلام والنشر، المكتبة الإسلامية القاهرة، ط/ ١، سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

ثالثًا: كتب التفسير والفقه

١ـ أصول الفقه للشيخ محمد أبو زهرة، ط/ دار الفكر العربي بدون تاريخ.

٢ـ الفتاوى للشيخ عطية صقر، جـ٢، ط/ المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.

٣ـ الفقه الواضح، للدكتور/ محمد بكر إسماعيل، جـ٢، ط/ دار المنار، ط٢.

٤ـ بلوغ المرام من أدلة الأحكام، ط/ دار الفكر، بدون تاريخ.

٥ـ بيان للناس من الأزهر الشريف، ط/ وزارة الأوقاف جـ١، ١٩٩٢م، وجـ٢ سنة ١٩٩٤م.

٦ـ تفسير ابن كثير جـ ٣، ط/ دار الحديث، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ط ٢.

٧ـ فقه السنة للشيخ سيد سابق، جـ٢، طـ/ الفتح للإعلام العربي، ط ٥، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٨ـ موسوعة الأحكام والفتاوى الشرعية، لفضيلة الشيخ/ عبد العزيز بن باز، والشيخ/ محمد بن العثيمين، وآخرين من أعضاء اللجنة الدائمة للإفتاء، ط/ دار الغد الجديد، ط ١، سنة ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

رابعًا: كتب اللغة

١ـ التعريفات للجرجاني، طـ/ دار الرشاد، بدون تاريخ.

٢ـ المذكرات الجلية في التعريفات اللغوية، لعلي محمد الهندي، طـ/ مكتبة ابن تيمية، بدون تاريخ.

٣ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، طـ/ دار الحديث، ط١، سنة ١٩٨٧م.

٤ـ المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، ، ط/ وزارة التربية والتعليم، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥ـ المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، إشراف عبد السلام هارون، مجمع اللغة العربية، المكتبة العلمية، طهران جـ ٢.

٦ـ رائد الطلاب في اللغة، لجبران مسعود جبران، ط/ دار العلم للملايين، ط/ ٣، سنة ١٩٩٧م.

٧ـ روضة العقلاء لمنصور الكريزي، دار الكتب العلمية بيروت، سنة ١٣٩٧م.

٨ـ علم الاجتماع السياسي المفاهيم والقضايا للسيد الحسيني، دار قطري بن الفجاءة، الدوحة، ط٤/ ١٩٨٦م.

٩ـ لسان العرب لابن منظور، جـ١١، طـ/ دار صادر، سنة ٢٠٠٣م.

١٠ـ مختار الصحاح، ط/ دار الحديث، بدون تاريخ.

١١ـ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت.

١٢ـ معجم مصطلحات العلوم العربية، أحمد زكي بدوي، ط/ مكتبة لبنان بيروت، سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م مقاييس اللغة.

١٣ـ مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق/ عبد السلام محمد هارون، مصطفى البابي الحلبي، جـ٤، طـ ١، سنة ١٩٧١م.

خامسًا: كتب الدكتور/ فؤاد زكريا وترجماته ومناظراته.

١ـ أزمة العقل العربي، مناظرة بين كل من د/ فؤاد زكريا، ود/ محمد عمارة، إدارة أ/ محمد سعد الرميحي، ط/ الآفاق الدولية للإعلام، ط١، بدون تاريخ.

٢ـ الإسلام لا العلمانية، مناظرة مع د/ فؤاد زكريا، والمستشار/ سالم البهنساوي، ط/ دار الدعوة، ط١، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣ـ التعبير الموسيقي للدكتور/ فؤاد زكريا، الناشر:مكتبة مصر، طـ١، ط/ دار مصر للطباعة، بدون تاريخ.

٤ـ التفكير العلمي، د/ فؤاد زكريا، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب، لعام ١٩٩٦م.

٥ـ الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، د/ فؤاد زكريا، ط/ الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية جامعة عين شمس ١٩٧١م.

٦ـ الحقيقة والوهم في الحركة الإسلامية المعاصرة، ط/ دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ١٩٩٨م.

٧ـ الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، د/ فؤاد زكريا، ط١، سنة ١٩٨٥م، الناشر: دار التنوير للطباعة.

٨ـ العرب والنموذج الأمريكي، ط/ دار مصر للطباعة والنشر ، سنة١٩٩١م.

٩ـ جمهورية أفلاطون، ترجمة ودراسة: د/ فؤاد زكريا، طـ/ الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٧٤م.

١٠ـ خطاب إلى العقل العربي، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٧م.

١١ـ كم عمر الغضب هيكل وأزمة العقل العربي، ط/ ١، الكويت، ١٩٨٣م.

١٢ـ نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، د/ فؤاد زكريا، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢م.

١٣ـ هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية- العقل والثورة- تأليف: هربرت ماركيوز، ترجمة د/ فؤاد زكريا، ط/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، سنة ١٩٧٩ م.

سادسًا: كتب الشيخ/ محمد الغزالي

١ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية، ط/ دار القلم دمشق، سنة ٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ، ط٢.

٢ـ الإسلام والطاقات المعطلة، ط ٤، دار التوفيق النموذجية، سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٣ـ التعصب والتسامح ، ط/ مكتبة الأسرة سنة٢٠٠٥م.

٤ـ الحق المر، ط/ دار الريان للتراث، بدون تاريخ.

٥ـ الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، طـ/ دار الشروق ، ط ١، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

٦ـ الطريق من هنا، ط/ دار الشروق، ط ٢، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٧ـ الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، ط/ نهضة مصر، ط ١، سنة ١٩٩٨م.

٨ـ تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، ط/ دار الشرق، ط٤، سنة ١٩٩٦م.

٩ـ حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام، وإعلان الأمم المتحدة للشيخ محمد الغزالي، ط/ نهضة مصر، ط٦، سنة٢٠٠٩م.

١٠ـ حوارات الشيخ الغزالي السيرة والمسيرة، تقديم: أ.د/ طه جابر العلواني ، طـ/ دار السلام ، ط١، سنة ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م .

١١ـ خطب الشيخ الغزالي في شئون الدين والحياة، إعداد: قطب عبد الحميد قطب، مراجعة: د/ محمد عاشور، ط/ دار الاعتصام ، جـ١، بدون تاريخ.

١٢ـ خلق المسلم للغزالي، ط/ دار الريان للتراث، ط١، سنة ١٩٨٧م.

١٣ـ ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ط/ دار الشروق، بدون تاريخ.

١٤ـ ظلام من الغرب، ط/ نهضة مصر، ط٧، سنة ٢٠٠٨م.

١٥ـ عقيدة المسلم، ط/ دار الريان للتراث، بدون ذكر تاريخ ورقم الطبعة.

١٦ـ علل وأدوية: دراسات في أمراض أمتنا، ووسائل الاستشفاء منها مع تصحيح لما وجه إلى التاريخ الإسلامي من أخطاء، ط/ دار التوفيق النموذجية ، ط١،سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١٧ـ فقه السيرة، ط/ دار الدعوة للطباعة والنشر، ط١، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٨ـ قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ط/ دار الشروق ، بدون تاريخ.

١٩ـ ليس من الإسلام، ط/ دار الشروق، ط١، سنة١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٢٠ـ مائة سؤال عن الإسلام الشيخ محمد الغزالي، ط/ دار ثابت، ط٤، سنة ١٩٨٩م.

٢١ـ محاضرات الشيخ الغزالي في إصلاح الفرد والمجتمع، ط/ دار البشير، القاهرة، بدون.

٢٢ـ مستقبل الإسلام خارج أرضه، طـ/ دار الشروق، ط ١، سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٢٣ـ مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ط/ نهضة مصر، ط٩، سنة ٢٠٠٨م.

٢٤ـ معركة المصحف، ط/ نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، سنة ١٩٩٦م.

٢٥ـ هذا ديننا، مطبعة حسان، دار الكتب الحديثة، ط ٣، سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٢٦ـ هموم داعية، دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ط ٢، سنة ١٤٠٥هـ

سابعًا: كتب أخرى تكلمت عن د/ فؤاد زكريا، والشيخ/ محمد الغزالي

١ـ التعالي الزائف، الرد على فؤاد زكريا، د/ محمد يحيى، ط/ دار النصر للطباعة الإسلامية، بدون.

٢ـ الشيخ الغزالي رائد منهج التفسير الموضوعى في العصر الحديث، د/ مسعود فلوسى أستاذ المعهد الوطنى للتعليم العالى بالجزائر، ط/ دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة، ط١، سنة ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٣ـ الشيخ الغزالي كما عرفته، د/ يوسف القرضاوي، ط/ دار الشروق، ط١ سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٤ـ الشيخ محمد الغزالى (منهجه وقضاياه الكبري) د/ محمد أبوزيد الفقى أستاذ الدعوة جامعة الأزهر، مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا، بدون تاريخ.

٥ـ قضايا العقيدة في فكر الشيخ/ محمد الغزالي، رسالة الدكتوراه غير المنشورة، للباحث/ محمد الصغير عبد الرحيم، في مكتبة كلية الدعوة الإسلامية، ، بدون تاريخ.

٦ـ نقد منهج وشبهات د/ فؤاد زكريا على الربانية ، د/ قنديل محمد قنديل، ط/ دار الطباعة المحمدية، ط١، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٧ـ وجها لوجه الإسلام والعلمانية: رد علمي على د/ فؤاد زكريا وجماعة العلمانيين، د/ يوسف القرضاوي، ط/ دار الصحوة للنشر بالقاهرة، ط ١، سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

ثامنًا: كتب أخرى لها صلة بموضوع الإصلاح الاجتماعي

١ـ احترس مصر ترجع إلى الخلف، ط/ دار العين، ط١، سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٢ـ أخبار المصريين في القرن العشرين من سنة ١٩٧٦ إلى ٢٠٠٠م ، تأليف/ سعيد هارون عاشور، مكتبة الآداب سنة ٢٠١٠م.

٣ـ الاتجاهات الفكرية وموقف الإسلام منها، د/ جمعة الخولي، ط١، سنة ١٤٠٨هـ.

٤ـ الإسلام والعروبة والعلمانية، د/ محمد عمارة، ط/ دار الوحدة، بيروت ـ لبنان، سنة ١٩٨٤م.

٥ـ الإصلاح الاقتصادي في مصر دور البنوك في الخصخصة وأهم التجارب الدولية، د. منى قاسم، الدار المصرية اللبنانية، بدون تاريخ.

٦ـ الإصلاح السياسي والتطور الديمقراطي في مصر رؤية مستقبلية، محمد سعيد فرج، تحرير: محمد ياسر الخواجة، كلية الآداب، جامعة طنطا، مارس ٢٠٠٦م.

٧ـ الأعمال الكاملة للشاعر أحمد مطر، ط/ كنوز المعرفة، ط١، سنة ٢٠١٠م.

٨ـ الاغتصاب أسبابه وعلاجه تأليف ناصر بن محمد السليماني، ط/ مكتبة الدعوة،سنة ٢٠٠٢م .

٩ـ الإمام محمد عبده والقضايا الإسلامية، د/ عبد الرحمن محمد بدوي، ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٥م.

١٠ـ الإنسان في القرآن الكريم، لعباس محمود العقاد، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، المشرف العام: د/ سمير سرحان، سنة ١٩٩٦م.

١١ـ البداية والنهاية لابن كثير، ط/ دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، ط٧، سنة١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١٢ـ التحرش الجنسي أسبابه وعلاجه، إعداد/ لجنة التأليف بالإدارة العامة لبحوث الدعوة، ط/ وزارة الأوقاف، سنة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

١٣ـ الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا د/ يوسف القرضاوي، الناشر/ بنك التقوى، بدون تاريخ.

١٤ـ الداعية الشهيد، الأستاذ/ عبد الله المصري، ط/ دار الاعتصام، سنة ١٩٩٦م.

١٥ـ الديموجرافيا الأمنية، تقرير الأمن العام، مطابع الشرطة للطباعة والنشر سنة ٢٠٠٨م.

١٦ـ الرعاية الاجتماعية بين النظرية والتطبيق د/ عبد الخالق عفيفي، مؤسسة الكوثر للطباعة، سنة ٢٠٠٣م.

١٧ـ السّنه فى الزواج، د/ الأحمدي أبي النور، وزير الأوقاف الأسبق، بدون ذكر الناشر والتاريخ.
١٨ـ الشجرة الخبيثة (العلمانية) د/ أسامة محمد عبد المالك، سنة٢٠١١م، بدون ذكر الناشر.
١٩ـ الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، محمد المبارك، ط / دار الفكر بيروت، ط٢، سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.
٢٠ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار د/ محمد البهي ط/ مكتبة وهبة ط١٤سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٢١ـ الفكر الليبرالي تحت المجهر الشرعي، للدكتور/ محمود الصاوي، ط/ دار بلال بن رباح، ط١سنة ٢٠١٢م.
٢٢ـ الفلسفة والمنطق للثانوية العامة، وزارة التربية والتعليم، مطابع روزاليوسف، لعام ٢٠١٢ـ٢٠١٣م.
٢٣ـ المجتمع المصري، تأليف مجموعة من أساتذة كلية الآداب جامعة القاهرة، ومراجعة أ.د/ محمد حمدي إبراهيم، سنة ٢٠٠٤/ ٢٠٠٥م.
٢٤ـ المجتمع المصري جذوره وآفاقه، سيد قطب، إعداد وتقديم: آلان روسيون، الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٤م.
٢٥ـ المرأة المسلمة بين الحجاب والنقاب، أ.د/ أحمد ربيع أحمد يوسف، ط/ دار المنار، بدون تاريخ.
٢٦ـ المعجم الفلسفي، لجميل صليبا،ط/ دار الكتاب بيروت لبنان ، ط ٣، سنة ١٩٧٩م.
٢٧ـ الوجيز في الإثبات في مواد الأحوال الشخصية، أحمد إبراهيم سيد، ط/ الإسكندرية مصر المكتب الجامعي الحديث، سنة٢٠٠٣م.
٢٨ـ أمراض الفقر المشكلات الصحية في العالم الثالث، د/ فيليب عطية، سلسلة عالم المعرفة، ط/ المجلس الوطني للثقافة بالكويت، سنة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .
٢٩ـ أنا وأسرتي والحياة، د/ محمد أبو فرحة مؤسسة بداية للإنتاج والنشر، طـ١ سنة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.
٣٠ـ تشريح الشخصية المصرية، د. أحمد عكاشة، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠١٠م .
٣١ـ تفسير الأحلام لابن سيرين، طـ/ المكتبة التوفيقية، بدون تاريخ.
٣٢ـ تنظيم المجتمع في المجتمعات النامية، د/ عبد الخالق محمد عفيفي، وكيل المعهد العالي للخدمة الاجتماعية بالقاهرة، مؤسسة الكوثر للطباعة، سنة ٢٠٠٥م.
٣٣ـ ثقافتنا فى إطار النظام العالمى الجديد، د/ فوزي محمد طايل، ط/ المركز الإعلامي العربي ١٩٩٤م.
٣٤ـ ثقوب في الضمير، د/ أحمد عكاشة، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠٠٧م.
٣٥ـ جذور الفساد الإداري في مصر، د/ عبد الخاق فاروق، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠٠٨م.
٣٦ـ جغرافيا مصر والوطن العربي، ط/ وزارة التربية والتعليم، سنة ٢٠٠٩م، تأليف:أشرف صبحي عبد العاطي، وعمرو علي حسن.
٣٧ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد، ط / دار القلم، طـ ٢، سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

٣٨ـ دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي دار المعرفة للطباعة، بيروت، جـ٧، ط ٣، سنة ١٩٧١م.

٣٩ـ دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، عباس محمود العقاد، ط/ نهضة مصر، ط/ ٦، سنة ٢٠٠٨م.

٤٠ـ دور التعليم في صياغة العقول، دراسة إسلامية مقارنة، للأستاذ الدكتور/ طلعت محمد عفيفي، الناشر مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

٤١ـ دور الدولة والمؤسسات في ظل العولمة، د/ فتحي أبو الفضل وآخرون ط مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م.

٤٢ـ ديوان المتنبي، تحقيق مصطفي السقا وآخرون، جـ١، ط/ دار المعرفة بيروت، بدون تاريخ.

٤٣ـ ذاتية السياسة الاقتصادية الإسلامية ، ط٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عام ٢٠٠٧م .

٤٤ـ رحماء بينهم، د/ راغب السرجاني، ط/ دار نهضة مصر، ط٤، سنة ٢٠١٣م.

٤٥ـ صحوة الرأي العام الإسلامي، د/ محمود بيومي، ط / دار النيل، بدون تاريخ.

٤٦ـ علم الاجتماع، تأليف د/ علي عبد الواحد وافي، ط/ نهضة مصر ، بدون.

٤٧ـ علم الاجتماع السياسي قضايا العنف السياسي والثورة، المؤلف/ شعبان الطاهر الأسود، القاهرة : الدار المصرية اللبنانية، سنة٢٠٠٣م.

٤٨ـ عودة الحجاب لمحمد أحمد إسماعيل المقدم، ط/ دار طيبة، ط ٢، سنة ١٩٩٣م.

٤٩ـ لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم، الأمير شكيب أرسلان، ط/ دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، بدون تاريخ.

٥٠ـ ماذا حدث للمصريين، د/ جلال أمين، ط/ دار الشروق، سنة ٢٠٠٩م.

٥١ـ مذاهب فكرية معاصرة، د/ محمود محمد مزروعة، دار كنوز المعرفة، جدة، ط٢، سنة ٢٠٠٦م.

٥٢ـ مشكلة الجوع في العالم، وكيف عالجها الإسلام (رسالة ماجستير) غير منشورة، د/ حلمي صابر، مكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة رقم (٩٢).

٥٣ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام، د/ القرضاوي، مكتبة وهبة، ط٧، سنة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٥٤ـ مصر المحروسة من تاني، د/ علي السلمي، ط/ مكتبة الشروق، ط١، سنة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

٥٥ـ مصر وتحديات القرن، د/ سعيد النجار، القاهرة: جمعية النداء الجديد، ١٩٩٣م .

٥٦ـ معالم المنهج الإسلامي، د/ محمد عمارة، بدون تاريخ وذكر الناشر.

٥٧ـ معجم علم الاجتماع / دينكين ميتشل، ترجمة إحسان محمد الحسن ط/ دار الطليعة بيروت، ١٩٨١م.

٥٨ـ مفاهيم أساسية في إدارة الموارد البشرية، د/ عماد الدين حسن، د/ حنفي محمود سليمان، ط/ الجامعة العمالية، المؤسسة الثقافية، بدون تاريخ.

٥٩ـ مقدمة ابن خلدون، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون، دار ابن خلدون الإسكندرية، بدون تاريخ.

٦٠ـ من حصاد الفكر الدعوي: الحقوق الإنسانية بين الشريعة الإسلامية، والشرعية الدولية، د/ محمد المختار محمد المهدي، ط/ دار الاعتصام، سنة ٢٠٠٠م.

٦١ـ منهج الإسلام في علاج حاضر المسلمين، د/ كمال مصطفى، ط١ دار أبو المجد للطباعة، سنة ٢٠٠٧م

٦٢ـ نحو دستور إسلامي، مشروع وضع مواده الأزهر الشريف، أ.د/ محمد أحمد المسير، المكتبة التوفيقية، سنة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ط٣.

تاسعًا: الصحف والمواقع الالكترنية

١ـ صحيفة الأهرام الرقمي الصادر بتاريخ ٧-٩-٢٠١٢م

٢ـ صحيفة الأهرام المصرية ١٨ نوفمبر سنة١٩٧٣م.

٣ـ صحيفة التحرير يوم ٢٦/ ٤/ ٢٠١٣م.

٤ـ صحيفة الشرق الأوسط، الخميس ٢٤ يناير ٢٠٠٨م.

٥ـ مجلة المختار الإسلامي عدد ٣٧١، سنة ١٤٣٤هـ/ ١١ مايو ٢٠١٣م.

٦ـ مجلة عالم الفكر، مجلد ١، عدد ٤.

٧ـ موقع قاموس إكسفورد: www.oxforddictionaries.com/definition/english/culture

٨ـ موقع الجهاز المركزي للتعبئة العامة والإحصاء www.msrintranet.capmas.gov.eg

٩ـ موقع: المصري اليوم www.almasryalyoum.com/news/details/

١٠ـ موقع المصريون http://www.almesryoon.com/news.aspx?id

١١ـ موقع بي بي سي عربي.

:www.bbc.co.uk/arabic/multimedia/.../١٤٠٤١٢_egypt_street_children.sht...

١٢ـ موقع: شبكة التأصيل تعريف الفلسفة الوجودية taseel.com/display/pub/print.aspx?id=٢٠٥٩

١٣ـ موقع مصرس: www.masress.com/search?q

١٤ـ موقع معرفة: www.marefa.org/index.php

١٥ـ موقع منهل الثقافة التربوية: http://www.manhal.net/art/s/١٩٨٠٥

١٦ـ موقع مؤسسة فريدريش ناومان: www.fnot-egypt.org.

١٧ـ موقع ويكيبيديا، الموسوعة الحرة /wikiwww.ar.wikipedia.org

❊ ❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الباب الثاني

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

خاتمة البحث

* * * * *